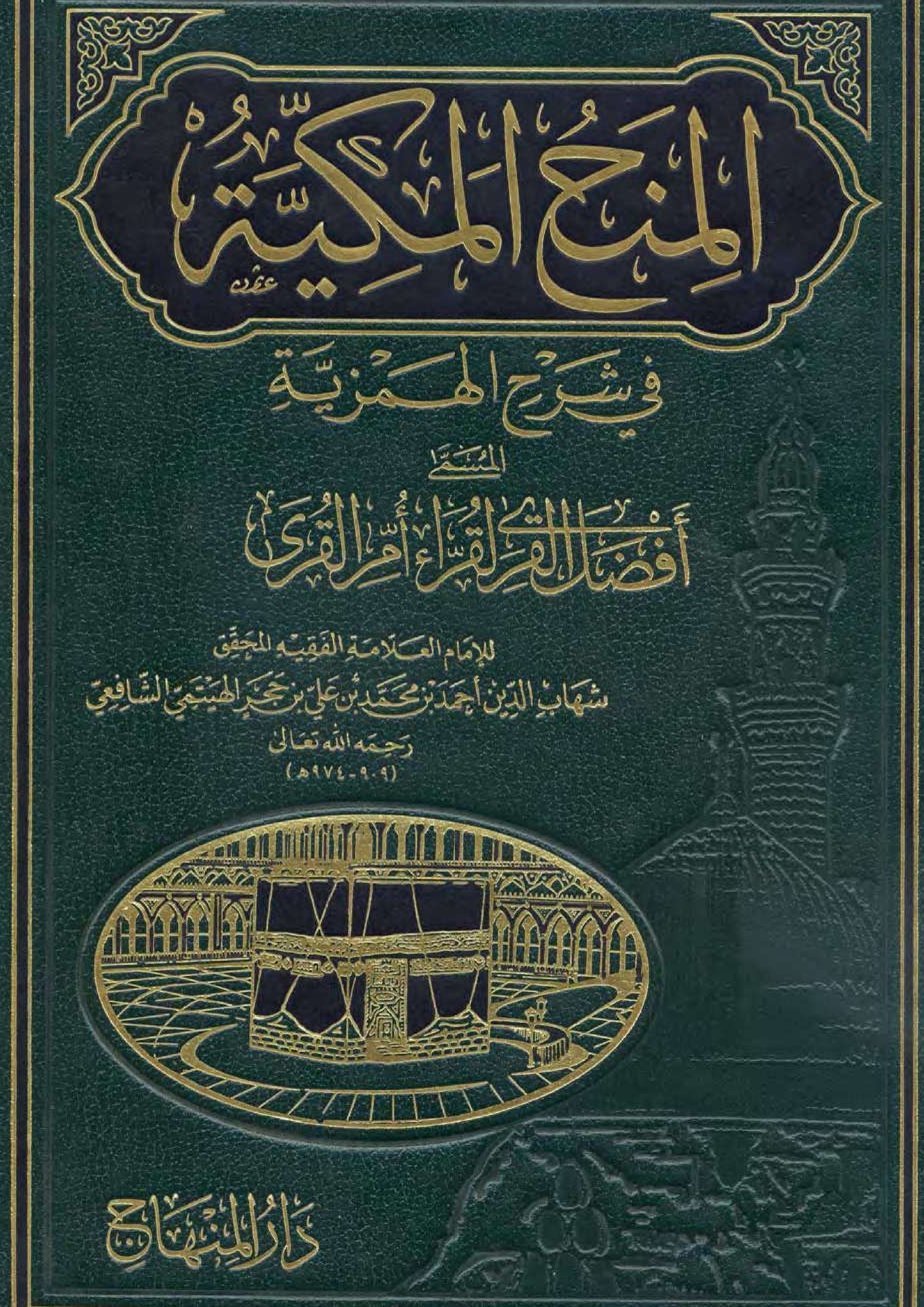

المنح المكية
في شرح الهمزية
المسمى
أفضل القرى لقراء أم القرى
للإمام العلامة الفقيه المحقق
شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي الشافعي
رحمه الله تعالى
(٩٠٩-٩٧٤هـ)
دار المنهاج

المِنَحُ المَكِّيَّةُ

في شرح الهمزية





في شرح الهمزيّة

المسمّى

أفضل القرى لقراء أم القرى

للإمام العلاّمة الفقيه المحقّق

شهاب الدّين أحمد بن محمّد بن عليّ بن حجر الهيتميّ الشّافعيّ

رحمه الله تعالى

(٩٠٩-٩٧٤هـ)

ساهم في العمل

بسّام محمّد بارود



عُني بتحقيقه والتّعليق عليه

أحمد جاسم المحمّد

بوجمعة مكري

دار المنهاج



دار المنهاج

لبنان ـ بيروت ـ فاكس: ٧٨٦٢٣٠

ص. ب: ١٣/٥٥٧٤/ بيروت

الطبعة الثانية

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف

وفقه الله تعالى

جدة ـ هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ ـ فاكس ٦٣٢٠٣٩٢

الإدارة ٦٣١١٧١٠ ـ المكتبة ٦٣٢٢٤٧١

الموزعون المعتمدون

السعودية: دار المنهاج للنشر والتوزيع ـ جدة
هاتف: ٦٣١١٧١٠ ـ فاكس: ٦٣٢٠٣٩٢

[illegible] المعرفة ـ جدة
هاتف: ٦٥١٠٤٢١ ـ فاكس: ٦٥١٦٥٩٣

[illegible] ـ جدة ـ هاتف: ٦٨٩٣٦٣٨

[illegible] ـ جدة ـ هاتف: ٦٤٤٦٦١٤

[illegible] ـ مكة المكرمة ـ هاتف: ٥٥٧٠٥٠٦

[illegible] ـ مكة المكرمة ـ هاتف: ٥٧٤٩٠٢٢

مكتبة المصيف ـ الطائف ـ هاتف: ٧٣٦٨٨٤٠ ـ ٧٣٣٠٢٤٨

مكتبة الزمان ـ المدينة المنورة ـ هاتف: ٨٣٦٦٦٦٦

مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ هاتف: ٤٦٥٠٠٧١ ـ ٤٦٥٤٤٢٤

مكتبة الرشد ـ الرياض ـ هاتف: ٤٥٩٣٤٥١

مكتبة جرير ـ الرياض ـ هاتف ٤٦٢٦٠٠٠

وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها

دار التدمرية ـ الرياض ـ هاتف: ٤٩٢٤٧٠٦

دار أطلس ـ الرياض ـ هاتف: ٤٢٦٦١٠٤

مكتبة المتنبي ـ الدمام ـ هاتف: ٨٤١٣٠٠٠

الإمارات العربية المتحدة: مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي
هاتف: ٢٢١١٩٤٩ ـ ٢٢٢٤٠٠٥ ـ فاكس: ٢٢٢٥١٣٧

دار الفقيه ـ أبو ظبي ـ هاتف ٦٦٧٨٩٢٠ ـ فاكس ٦٦٧٨٩٢١

مكتبة الجامعة ـ أبو ظبي ـ هاتف: ٦٢٧٢٧٩٥ ـ ٦٢٧٢٧٢٦

الكويت: دار البيان ـ الكويت
هاتف: ٢٦١٦٤٩٠ ـ فاكس: ٢٦١٦٤٩٠

دار الضياء للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ تلفاكس ٢٦٥٨١٨٠

قطر: مكتبة الأقصى ـ الدوحة
هاتف: ٤٤٣٧٤٠٩ ـ ٤٣١٦٨٩٥

مصر: دار السلام ـ القاهرة
هاتف: ٢٧٤١٥٧٨ ـ فاكس: ٢٧٤١٧٥٠

سوريا: دار السنابل ـ دمشق ـ هاتف: ٢٢٤٢٧٥٣

جمهورية اليمن: مكتبة تريم الحديثة ـ تريم (اليمن)
هاتف: ٤١٧١٣٠ ـ فاكس: ٤١٨١٣٠

مكتبة الإرشاد ـ صنعاء ـ هاتف: ٢٧١٦٧٧

لبنان: الدار العربية للعلوم ـ بيروت
هاتف: ٧٨٥١٠٨ ـ ٧٨٥١٠٧ ـ فاكس: ٧٨٦٢٣٠

إليك حبيبي ... يا سيدي ... يا رسول الله

صلّى الله عليك وعلى آلك وأصحابك أجمعين

رجاء شفاعتك يوم الحساب

ومن جنابك الشّريف

إلى

آل بيتك الطّيبين الطّاهرين

وصحابتك الأكرمين ، وتابعيهم إلى يوم الدّين

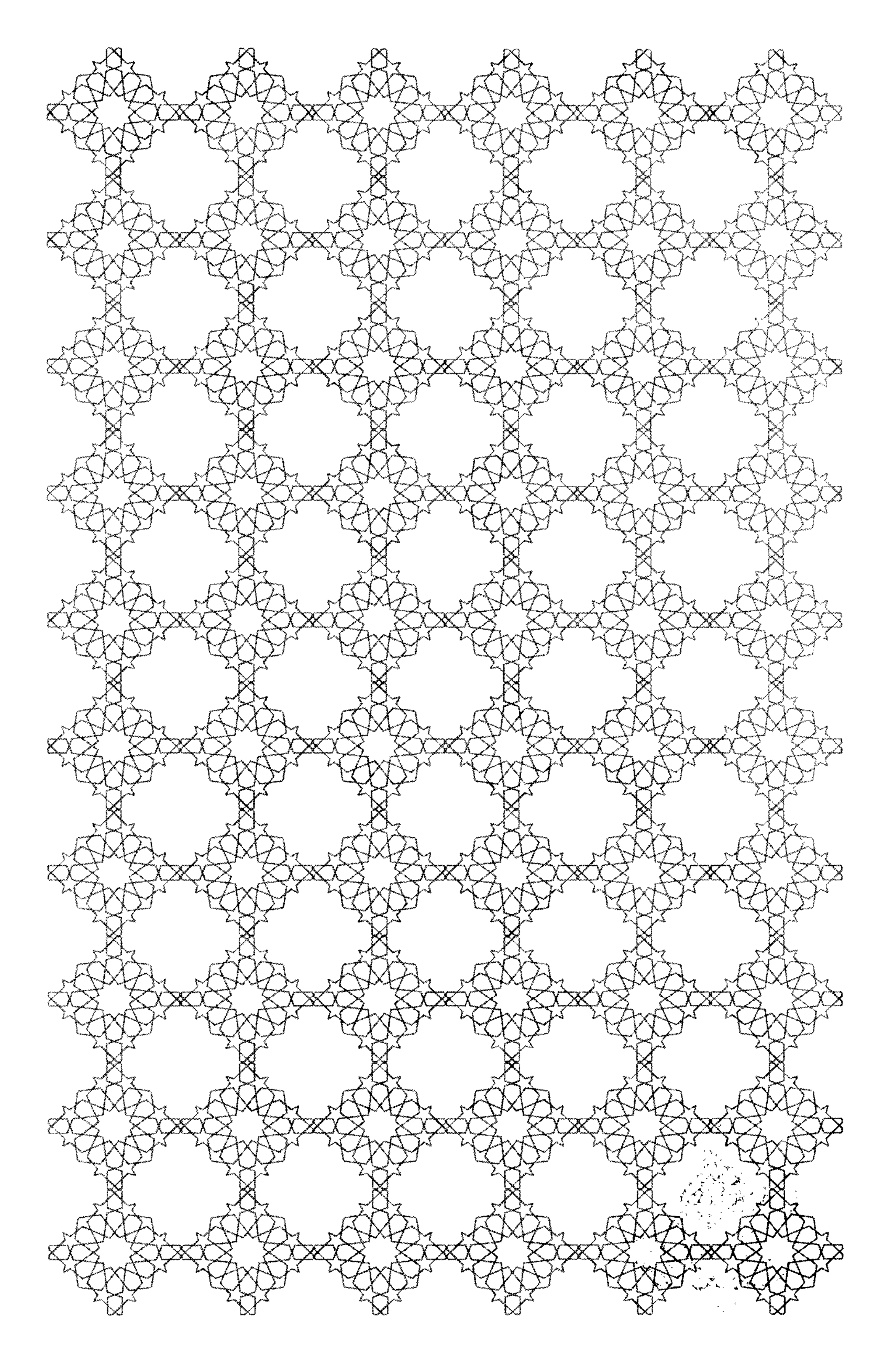
إلى كلّ باحث عن الحبّ الحقيقي

عسى أن يتعرّض بقراءته لنفحةٍ من نفحاته

تكون سبباً لهدايته بدخوله في دائرة المحبّين والمحبوبين

والحمد لله ربّ العالمين

سيد محمد طويلب العلوي



بين يدي الكتاب

(أ)

حمداً لمن اصطفىٰ من عباده رسلاً يهدون إلى الحق ، ويدعون إلى الصراط المستقيم ، وجعل خاتم الأنبياء أولهم في الفضل ، وخصه بخصائص تكل الأقلام عن تقييدها ، وتتراجع ألسن البلغاء عن تعدادها .

فصلوات الله تترىٰ ، وسلامه يتوالىٰ عليه ذي الخلق العظيم ، من كانت بعثته رحمة للعالمين ، وشفاعته تعم الخلق أجمعين ما ناحت مطوقة علىٰ بان ، وما ارتفع إلى السماء أذان ، أو تغنىٰ ماهر بالقرآن ، وعلىٰ آله الطهر الميامين ، الذين زكت دوحتهم ، وطاب عنصرهم ، وعلىٰ صحابته حملة الشريعة ، وأسد الغاب ، الذين أعز الله بهم الإسلام ، وخذل دولة الإلحاد والطغيان ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين .

(ب)

أما بعد :

فحينما تلتقي أقلام المبدعين المتميزين على اجتلاء محاسن موضوع واحد . . يهز المشاعر بيانهم هزاً ، ويسحر الألباب إبداعهم ، وترتفع سجف الجهالة عما صمدت أقلامهم لتبيانه ؛ إذ يكشفون الأستار عن محياه ، ويرفعون أعلام التحقيق ، ويغوصون في لجج الفوائد ، ويستخرجون الدر من ظلمات الأصداف ، فإذا بها تتلألأ تلألؤ النجوم في سمائها ، وهم الذين يفتضون أبكار المعاني ، ويدنون إلى الأفهام ما ينِدُّ من شوارد العلم ، وهم الذين يقتحمون حصون المعضلات ، ويدكونها بتلك المواهب الإبداعية ، فإذا بها واضحات جليات .

(ج)

ولما كان الموضوع متصلاً بسيرة أكرم الخلق علىٰ ربه ، سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم . . فإن الناظم والشارح كليهما بذلا قصارىٰ جهدهما ، وعصارة مواهبهما لتحبير ما كتباه ، وتطريزه بشتىٰ أنواع المحاسن الأدبية والعلمية ؛ خدمة للسيرة النبوية العطرة ، وإشادةً بشمائل من بعثه الله تعالىٰ لإتمام مكارم الأخلاق ، فجريا في حلبة التفنن بقدر ما لديها من عظيم المحبة لمن محبته فرض ، وإعظامه واجب ، وتوقيره لازم ، وطاعته منجاة ، ومدحه قربه ، والتغني بسيرته العطرة دين .

(د)

والبوصيري من أقطاب المحبين ، شفع الإبداع الأدبي بالمحبة الصادقة لذي الخلق العظيم ، والتوقير لمن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فجاءت رائعته « الهمزية » عقوداً لؤلؤية تستهوي القلوب ، ويتعشقها أولو الذوق الروحي ، ويتغنىٰ بها المغرمون المتعطشون لبلوغ المنهل الروي ، ليستمدوا منه النهج السوي ، فهي ألحان تعظيم وإكبار لصاحب الرسالة ، ولا مراء أنها عذبة المباني ، بديعة المعاني ، يتيمة الدهر فلا نظير لها ، عديمة المنافس فلا ثاني لها ، سكب البوصيري في أحرفها إحساساته ومشاعره ، ونفخ فيها من روح أدبه ، فصافحت الأفئدة ، وشنفت الأسماع ، وانتشر جمالها وعبيرها يملآن الدنيا .

ولقد أنصفه أمير الشعراء إذ يقول في « نهج البردة » :

مَـدِيحُـهُ فِيـكَ حُـبٌّ خَـالِـصٌ وَهَـوَىً   وَصَـادِقُ ٱلْحُـبِّ يُمْلِـي صَـادِقَ ٱلْكَلِـمِ

(هـ)

وغزارة المحبة التي تترجم عنها هـٰذه الرائعة لا يجحده إلا أعمىٰ فكر ، فاقد ذوق ، حجري المشاعر ، غليظ الطبع من جفاة الأعراب .

فأيُّ عاقل من الأحياء لا يهزه الشوق ، ولا يطربه من يحدو بركب الإيمان وهو يترنم بقوله :

صَاحِ لاَ تَأْسَ إِنْ ضَعُفْتَ عَنِ ٱلطَّا   عَةِ وَٱسْتَأْثَرَتْ بِهَا ٱلأَقْوِيَاءُ
إِنَّ للهِ رَحْمَةً وَأَحَقُّ ٱلنَّـ   ـاسِ مِنْهُ بِٱلرَّحْمَةِ ٱلضُّعَفَاءُ
فَٱبْقَ فِي ٱلْعُرْجِ عِنْدَ مُنْقَلَبِ ٱلذَّوْ   دِ فَفِي ٱلْعَوْدِ تَسْبِقُ ٱلْعَرْجَاءُ

وأيُّ قلب ميت ذاك الذي تتهادىٰ إلىٰ مسامعه تلك الشمائل المحمدية كالكواكب الدرية ، ثم لا تتبخر في أعماقه أحاسيس الأشواق ، ولا تحن روحه إلىٰ تلك المعاهد والآفاق ، وهو يستمع إلىٰ قوله :

سَيِّدٌ ضِحْكُهُ ٱلتَّبَسُّمُ وَٱلْمَشْـ   ـيُ ٱلْهُوَيْنَا وَنَوْمُهُ ٱلإِغْفَاءُ
رَحْمَةٌ كُلُّهُ وَحَزْمٌ وَعَزْمٌ   وَوَقَارٌ وَهَيْبَةٌ وَحَيَاءُ
مَا سِوَىٰ خُلْقِهِ ٱلنَّسِيمُ وَلاَ غَيْـ   ـرُ مُحَيَّاهُ ٱلرَّوْضَةُ ٱلْغَنَّاءُ

(و)

والفَطِن الفَهِم يجزم بأن هٰذه العذوبة الجذابة التي تتقاطر من أبياتها وقوافيها إنما هي فيض مشاعر المحبة الممتزجة بروح الإخلاص ، فهي التي سيطرت على البوصيري ، فاستحالت إلىٰ أنغام سحرية ، وقوافٍ لؤلؤية ، تستهوي الحليم الأواه ، وتنطق بعظيم وقعها الأفواه ، وأسمى الشعر وأرقاه ما كان متدفقاً من وجدان صادق ، وتصوير أدبي رفيع ، ونغمة عذبة مطربة ، ويشرف بسمو الوجه الذي قيل فيه ، و« الهمزية » بفنها الرفيع ، ورقتها ولطفها تحكي أهم معالم السيرة العطرة للرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم ، وتسطر جملة من خصائصه ومعجزاته ، وتتفنن في مدحه والثناء عليه ، وهي لم تُغْفِل مع هٰذا ذكر آل البيت ، والمقدمين في الفضل من الصحب الغر الميامين ، ونرى الشاعر يبث فيها لواعج أشواقه إلىٰ أرض الحرمين ، وتسفر عن مقاصد عليَّة من الأهمية بمكان ، ولم ينس مقارعة أهل الكتابين وتسفيههم ، وإقامة البراهين علىٰ ضلالهم وبغيهم ، ومن ذلك قوله في اليهود :

جَحَدُوا ٱلْمُصْطَفَىٰ وَآمَنَ بِٱلطَّا   غُوتِ قَوْمٌ هُمْ عِنْدَهُمْ شُرَفَاءُ
قَتَلُوا ٱلأَنْبِيَاءَ وَاتَّخَذُوا ٱلْعِجْـ   ـلَ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ
وَسَفِيهٌ مَنْ سَاءَهُ ٱلْمَنُّ وَٱلسَّلْـ   ـوَىٰ وَأَرْضَاهُ ٱلْفُومُ وَٱلْقِثَّاءَ

وقبل ذلك يرسل سهام الحق علىٰ ضلالهم فيقول :

خَبِّرُونَا أَهْلَ ٱلْكِتَابَيْنِ مِنْ أَيْـ ـنَ أَتَاكُمْ تَثْلِيثُكُمْ وَٱلْبَدَاءُ
مَا أَتَىٰ بِٱلْعَقِيدَتَيْنِ كِتَابٌ وَٱعْتِقَادٌ لاَ نَصَّ فِيهِ ٱدِّعَاءُ
وٱلدَّعَاوَىٰ مَا لَمْ تُقِيمُوا عَلَيْهَا بَيِّنَاتٍ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءُ

(ز)

وهو يدخل بين هـٰذا وذاك الحكم النافعة ، والإرشادات السنية ، موشاة بالأساليب البلاغية ، سالكاً في ذلك مسلك الفصحاء ، ومقتفياً في نهجه مَهْيَع الأدباء ، مع حسن نهج وانسجام ، يغار منه « البيان والتبيين » .

ولو أردنا استقصاء ضروب الأدب التي تميزت بها هـٰذه « **الهمزية** » . . لخرجت هـٰذه الكلمة عن كونها مقدمة ، وقصيدة في هـٰذه المرتبة العالية ، تتحدث عن ذي المرتبة العليا صلى الله عليه وسلم . . كانت مفتقرة إلىٰ عالم متفنن متقن ، يضيء بيانه نصوصها ، ويكشف شرحه عن جواهرها ، فكأن من عناية الله بها أن قيض لها فريد دهره ، ووحيد عصره ، بقية السلف ، وفخر الخلف ، خاتمة الفقهاء والمحدثين ، وعمدة العلماء المتأخرين ، العلامة الرحالة أحمد بن محمد بن علي بن حجر **الهيتمي المكي** ، مجدد القرن العاشر ، صاحب التآليف النافعة والمآثر .

(ح)

لذلك فإن « **المنح المكية في شرح الهمزية** » كان شرحاً شافياً كافياً ، وبالمقاصد العلية وافياً ، فقد حلّىٰ طروس « **الهمزية** » بجواهر لفظه ، ودبّجها بغرر علمه ، وعميق فهمه ، جمع فيه بين فنون عديدة ، وقيد في دفتيه فوائد فريدة ، ومباحث عزيزة سديدة ، تتراءىٰ رقة مشاعره بين سطوره ، ولطف الأحاسيس ينساب من عباراته ، والمحبة الأكيدة تنبض من حروفه ، والإعظام للجناب العلي يتجلىٰ في نثره ونظمه ، وإن كان المادحون مهما تفننوا . . فلن يبلغوا غاية الكمالات لسيد السادات ، ولـٰكنه ضرب من بذل الوسع في إجلاله وتوقيره وإعظامه ؛ امتثالاً للأمر الإلهي ، وإلا . . فلا حد لهذه الفضائل .

فَـإِنَّ فَضْـلَ رَسُـولِ ٱللهِ لَيْـسَ لَـهُ حَـدٌّ فَيُعْـرِبُ عَنْـهُ نَـاطِـقٌ بِفَـمِ

وفضل شعراء الدعوة علىٰ من سواهم لا مراء فيه ، ومن يشدو بسيرة ذلك الجناب الرفيع ، وينشر عبير معجزاته ، وشرف خصائصه . . لا شك أنه يبعث كوامن الحب ، ويحرك لواعج الغرام ، ويحفزنا إلىٰ حسن التأسي والاقتداء بسيد الأنام ، ويبهج الأفئدة ، ويثير الأشواق ، ويحلق بالروح الإيمانية في الذرىٰ ، فجحود فضيلة الشعراء المحسنين المقتصدين لا تنكر ، ومآثرهم بارزة لا تستر ، وما أجمل ما قيل وأصدقه :

جُحُـودُ فَضِيلَـةِ ٱلشُّعَـرَاءِ غَـيٌّ وَإِكْـرَامُ ٱلْمَـدِيـحِ مِـنَ ٱلـرَّشَـادِ
مَحَـتْ « بَـانَـتْ سُعَـادُ » ذُنُـوبَ كَعْـبٍ وَأَعْلَـتْ كَعْبَـهُ فِـي كُـلِّ نَـادِ
وَمَـا ٱفْتَقَـرَ ٱلنَّبِـيُّ إِلَـىٰ قَصِيـدٍ مُشَبِّبَـةٍ بِبَيْـنٍ مِـنْ سُعَـادِ
وَلَـٰكِـنْ سَـنَّ إِسْـدَاءُ ٱلأَيَـادِي فَكَـانَ إِلَـى ٱلْمَكَـارِمِ خَيْـرَ هَـادِي

(ط)

فإليكم معشر المحبين « المنح المكية » في ثوبها الزاهي القشيب ، يميس في حلل الأناقة والتحقيق ، ويتهادىٰ في بردة الجمال والتدقيق . فدار المنهاج قد قطعت علىٰ نفسها عهداً وثيقاً بإخراج كتب التراث سليمة من التصحيف ، مبرأة عن وصمة التحريف ما أمكن ، يقوم علىٰ إخراجها محققة نخبة من الغيورين علىٰ هـٰذا الموروث الفكري ، وهم من أهل الكفاءة في هـٰذا الميدان .

وها هو « المنح » العلية ، مزيناً بحلية الإتقان ، ناطقاً بما ذكرناه من بيان ، والله نسأل أن يمنحنا السداد والتوفيق .

الناشر



ترجمة الإمام الفقيه
أحمد ٱبن حجر الهيتمي المكي[1]
شارح « الهمزية »

اسمه ونسبه

هو الشيخ العلامة الفقيه الإمام أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر السَّلْمُنتي ، الهيتمي ، الأزهري ، الوائلي ، السعدي ، المكي ، الأنصاري ، الشافعي .

سمي بـ(ابن حجر) لأن جده كان ملازماً للصمت .

والسلْمُنْتي : نسبة إلى (سَلْمُنْت) من بلاد حرام ، من أقاليم مصر الشرقية ؛ حيث كانت أسرته بها قبل انتقالها إلىٰ محلة أبي الهيتم .

والهيتمي ـ بالتاء المثناة الفوقية ـ : نسبة إلىٰ محلة أبي الهيتم[2] ، قرية من أعمال مصر الغربية .

والأزهري : نسبة للأزهر .

وابن حجر ـ رحمه الله ـ من بني سعد من الأنصار الذين هاجروا إلىٰ مصر أيام الفتوحات ، وهم من بطون قبيلة وائلة .

---

(١) مصادر ترجمته : « النور السافر » (ص ٣٩٠) ، « الأعلام » (١/ ٢٣٤) ، « شذرات الذهب » (١٠/ ٥٤١) ، « معجم المؤلفين » (٢/ ٢٩٣) ، مقدمة « الفتاوى الفقهية » لابن حجر بقلم بعض تلامذته ، « ابن حجر المكي وجهوده في الكتابة التاريخية » د . لمياء شافعي ط (١٤١٨هـ) عن مكتبة ومطبعة الغد ، «الإمام ابن حجر الهيتمي وأثره في الفقه الشافعي» ، أمجد رشيد محمد علي ، رسالة ماجستير بالجامعة الأردنية (١٤٢٠هـ) .

(٢) وفي « التاج » أنها مغيرة من أبي الهيثم ، وتجمع على (الهياتم) و هي مجموعة قرى .

مولده ونشأته

ولد بمحلة أبي الهيتم في رجب أواخر سنة (٩٠٩هـ) ، ومات أبوه وهو صغير ، فكفله جده لأبيه ـ الذي عمر أكثر من مئة وعشرين عاماً ـ ثم مات الجد ، فكفله شيخا أبيه الإمامان : الشمس الشناوي ، والشمس محمد السروي ابن أبي الحمائل (ت٩٣٢هـ) .

ثم إن الشناوي تولىٰ رعايته ونقله إلىٰ مقام السيد البدوي بطنطا ، حيث تلقىٰ مبادىء العلوم هناك .

طلبه للعلم

في سنة (٩٢٤هـ) نقله الشمس الشناوي إلى الجامع الأزهر ، فبدأ بقراءة الحديث ، والنحو ، والمعاني والبيان ، والأصلين ، والمنطق ، والفرائض والحساب ، والطب .

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ بعد ذكره تحصيل هـٰذه العلوم : (حتى أجاز لي أكابر أساتذتي بإقراء تلك العلوم وإفادتها ، وبالتصدر لتحرير المشكل منها ، بالتقرير والكتابة وإشادتها ، ثم بالإفتاء والتدريس ، علىٰ مذهب الإمام المطَّلِبيِّ الشافعي ابن إدريس ، ثم بالتصنيف والتأليف ، فكتبت من المتون والشروح ما يغني روايته عن الإطناب في مدحه ، والإعلام بشرحه ، كل ذلك وسني دون العشرين) اهـ[1]

شيوخه

أخذ الإمام ابن حجر عن جمع من كبار علماء عصره ، ولقي عدداً من كبار المعمَّرين والمسندين من العلماء ، وصنف في أخذه عنهم وتراجمهم « ثبتاً » ضَمَّنه أخبارهم ، وأسانيده الشهيرة إلى أمات كتب العلم ، ونحن ذاكرون هنا أبرزهم وأجلهم بحسب ترتيب وفياتهم :

---

(١) « ثبت ابن حجر » (ق٢١/ أـب) .

١ـ شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (٨٢٦ـ٩٢٦هـ)[1] ، أشهر فقهاء مصر في عصره ، وإليه انتهت مشيخة الشيوخ ، وكان هو الملجأ لكل المعضلات ، له مصنفات عديدة اشتهرت بالبركة ، مات ـ رحمه الله ـ عن مئة عام .

أخذ عن الحافظ ابن حجر العسقلاني ، والبلقيني ، والشهاب الغزي ، والمراغي ، والنويري ، وطبقتهم .

أخذ عنه ابن حجر ـ رحمه الله ـ حديث الأولية ، وكان معظِّماً له جداً ، وكثيراً ما يحيل علىٰ مصنفاته ، قال ابن حجر : (ما اجتمعت به قط . . إلا قال : أسأل الله أن يفقهك في الدين) ، وأطنب في الثناء عليه في « ثبته » جداً ، وقال في حقه : (أجلّ من وقع عليه بصري من العلماء العاملين ، والأئمة الوارثين ، وأعلىٰ من عنه رويت ودريت من الفقهاء الحكماء المسندين . . .) إلخ .

٢ـ الإمام زين الدين عبد الحق بن محمد السنباطي (٨٤٢ـ٩٣١هـ)[2] ، أحد صفوة العلماء الأعلام ، وكان مولده بسنباط ، ووفاته بمكة .

أخذ عن البدر العيني ، والجلال البلقيني ، وابن الهمام ، والولي السنباطي ، وأجاز له الحافظ العسقلاني .

درس عليه ابن حجر بعض الكتب الستة في جمع كثير ، وأجازه بباقيها .

٣ـ الشمس ابن أبي الحمائل (ت ٩٣٢ هـ)[3] واسمه : محمد السروي .

أخذ عن الشرف المناوي يحيى بن محمد (ت ٨٧١هـ)

وبه تخرج الشمس الشناوي ، ووالد ابن حجر الشيخ محمد بن علي بن حجر .

٤ـ الشهاب الصائغ ، أحمد بن الصائغ الحنفي (ت٩٣٤هـ)[4] . كان علامة في المعقول والمنقول .

---

(١) « الشذرات » (١٠/ ١٨٧) ، « النور السافر » (ص ١٧٢) ، « الأعلام » (٣/ ٤٦) .
(٢) « النور السافر » (ص ٢١٣) ، « الشذرات » (١٠/ ٢٤٨) .
(٣) « الشذرات » (١٠/ ٢٥٩) .
(٤) « الشذرات » (١٠/ ٢٨٠) .

أخذ عن أمين الدين الأقصرائي ، والتقي الشُّمُنّي ، والكافِيَجي . وكان مبرزاً في الطب .

درس عليه ابن حجر ـ رحمه الله ـ علم الطب .

٥ـ الشمس الدَّلْجي ، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الدَّلْجي ، العثماني ، الشافعي ، (٨٦٠ ـ ٩٤٧ هـ)[١] المولود بدَلْجة ، قرية بصعيد مصر غربي النيل .

أخذ بالقاهرة والشام عن جمع ؛ منهم : البرهان البقاعي ، والقطب الخَيْضري ، وابن رُزَيق ، والسَّخَاوي . وله شرح على « الشفا » .

أخذ عنه ابن حجر ـ رحمه الله ـ علم المعاني والبيان ، وكذلك الأصلين والمنطق .

٦ـ الشمس الضيروطي ، محمد بن شعبان بن أبي بكر بن خلف الدمياطي ، المشهور بابن عَرُوس المصري ، (٨٧٠ـ٩٤٩هـ)[٢] .

أخذ عن الكمال ابن أبي شريف ، والنور المحَلّي . وقد درّس بمقام الإمام الشافعي ، وله شرح على « المنهاج » للنووي ، وغيره .

أخذ عنه ابن حجر ـ رحمه الله ـ علم النحو .

٧ـ أحمد بن عبد الحق السنباطي ، الشافعي ، المصري (ت ٩٥٠هـ)[٣] ، أخذ عن والده وتفقه به ، ووعظ بالمسجد الحرام لما حجّ مع أبيه .

أخذ عنه ابن حجر ـ رحمه الله ـ الأصلين أيضاً .

٨ـ أبو الحسن البكري ، محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن البكري ، الصديقي ، الشافعي (ت ٩٥٢هـ)[٤] .

أخذ عنه ابن حجر ـ رحمه الله ـ عدة علوم ، وقرأ بمعيته « صحيح مسلم » علىٰ شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، وحجّا معاً ، وجاورا سنة (٩٣٤هـ) ، له شرح على « المنهاج » ، وعلى « العباب » في الفقه .

---

(١) « الشذرات » (١٠/ ٣٨٦) ، « الأعلام » (٧/ ٥٦) ، « معجم المؤلفين » (٣/ ٦٧٠) .
(٢) « معجم المؤلفين » (٣/ ٣٤٤) ، « هدية العارفين » (٢/ ٢٣٧) .
(٣) « الشذرات » (١٠/ ٤٠٢) .
(٤) « الشذرات » (١٠/ ٤١٩) ، « معجم المؤلفين » (٣/ ٦٥٠) .

٩ـ الشمس الحطابي ، محمد بن محمد بن عبد الرحمـٰن الحطاب ، الرعيني ، الأندلسي ، (ت ٩٥٤هـ)[١] .

أخذ عن السخاوي ، وعبد الحق ، والنويري ، وغيرهم .

أخذ عنه ابن حجر ـ رحمه الله ـ علم النحو والصرف .

١٠ـ الشهاب الرملي ، أحمد بن أحمد بن حمزة الرملي ، المصري ، الشافعي (٩٥٧هـ)[٢] ، من أجل تلامذة شيخ الإسلام زكريا ، وصار بعد وفاة شيخه إمام علماء مصر .

قرأ عليه ابن حجر ـ رحمه الله ـ قبل العشرين .

* * *

كما أن ابن حجر أخذ عن يوسف الأرميوني ، المتوفىٰ سنة (٩٥٨هـ) .

والناصر اللقاني ، المتوفىٰ (٩٥٨هـ) ، الفقيه المالكي المعروف .

وناصر الدين الطبلاوي ، محمد بن سالم الأزهري ، المتوفىٰ (٩٦٦هـ) .

بل إن بعض شيوخه مات بعده ؛ كالعلامة الإمام محمد بن عبد الله الشنشوري الفرضي ، المتوفىٰ سنة (٩٨٣هـ) .

وعدد بعض الباحثين شيوخ ابن حجر فأوصلهم إلىٰ (٣١) شيخاً ، ذكرنا أبرزهم وأجلهم[٣] .

مقاساته في الطلب وخروجه إلىٰ مكة

كان ابن حجر ـ رحمه الله ـ يتردد علىٰ مكة المكرمة ، وقد جاور بها في بعض السنين .

وأول زيارة سنة (٩٣٤هـ) مع شيخه البكري ، ثم مرة ثانية سنة (٩٣٨هـ) .

ثم في سنة (٩٤٠هـ) قرر الرحلة إلىٰ مكة والإقامة بها ، وكان سبب خروجه من

---

(١) « الأعلام » (٧/ ٥٨) .

(٢) « الشذرات » (١٠/ ٤٥٤) .

(٣) ومن أراد المزيد . . فعليه بكتاب : «ابن حجر الهيتمي وجهوده في الكتابة التاريخية» .

مصر ما حصل من سرقة بعض كتبه من قبل بعض الحساد ، وهو كتابه « بشرى الكريم » الذي شرح به العباب شرحاً عظيماً ، ولم يزل متأثراً بذلك الحادث ، حتى إنه كان كثير الدعاء بالعفو عن ذلك الفاعل ، ويقول : سامحه الله وعفا عنه .

وقال ذاكراً مجاهداته والشدائد التي عاناها : (قاسيت في الجامع الأزهر من الجوع ما لا تحتمله الجبلة البشرية لولا معونة الله وتوفيقه ، بحيث إني جلست فيه نحو أربع سنين ما ذقت اللحم إلا في ليلة ، دعينا لأكل فإذا هو لحم يوقد عليه ، فانتظرناه إلى أن ٱبهارَّ الليل ، ثم جيء به ، فإذا هو يابس كما هو نيء ، فلم أستطع منه لقمة .

وقاسيت أيضاً من الإيذاء من بعض أهل الدروس التي كنا نحضرها ما هو أشد من ذلك الجوع ، إلىٰ أن رأيت شيخنا ابن أبي الحمائل قائماً بين يدي سيدي أحمد البدوي ، فجيء باثنين كانا أكثر إيذاء لي ، فضربهما بين يديه فمزقا كل ممزق)[1] .

كل هٰذه الأسباب كانت حاملة له علىٰ مغادرة مصر والإقامة بمكة ، فسكنها لمدة (٣٤) سنة ، حتى توفي بها ، وكان منزله بالحريرة قريباً من سوق الليل ، كما كانت له خلوة برباط الأشرف قايتباي بقرب المسجد الحرام .

زملاؤه وأقرانه

كان لابن حجر ـ رحمه الله ـ أقران وزملاء كثر ، منهم :

١ـ شمس الدين ، محمد بن أحمد الرملي ، (٩١٩ـ١٠٠٤هـ) ، وقد شارك ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الأخذ عن والده الشهاب الرملي المتقدم ذكره ، وشاركه في القراءة والحضور علىٰ شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في « صحيح البخاري » .

وكانا كفرسي رهان ، وجرت بينهما خلافات فقهية ، ومسائل علمية ، وخلافهما من الخلاف المعتبر عند متأخري فقهاء الشافعية ، وأُلفت الرسائل والكتب في ذكر الخلاف بينهما في مسائل الفقه[2] .

---

(١) مقدمة « الفتاوى الفقهية » (١/ ٥) .

(٢) فمن ذلك :

١ـ منظومة « كشف الغطاء واللبس عن اختلاف ابن حجر والشمس » للفقيه مصطفى بن

٢ـ العلامة المحدث بدر الدين الغزي ، الشافعي (ت ٩٨٤هـ) ، لقيه بمصر ، وقرأ بمعيته بعض « صحيح البخاري » علىٰ شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، ثم اجتمع به في مكة سنة (٩٥٢هـ) .

٣ـ العلامة عبد العزيز بن علي الزمزمي ، الشافعي ، المكي (ت ٩٧٦هـ) ، كان من أعز أصحابه بعد سكناه أم القرىٰ ، وكان يسير معه للقاء الشيوخ والأعيان ، وقد أصهر ابنه الشيخ محمد بن عبد العزيز عند مترجَمنا ابن حجر ـ رحمه الله ـ وأعقب مفتي مكة العلامة عبد العزيز الثاني بن محمد الزمزمي ، وقد أدرك جده ، وأخذ عنه .

تلامذته

بعد استقرار الإمام الهيتمي بمكة . . شاع حديثه ، وانتشر ذكره في الآفاق ، فقصده طلاب العلم من كل فج ، وتخرج به أكابر الفقهاء في القرن العاشر الهجري ، فمن أعلام تلامذته وكبارهم :

١ـ الفقيه الإمام الشيخ عبد الرحمـٰن بن عمر بن أحمد العمودي ، (ت٩٦٧هـ) ، من أهل قيدون بحضرموت[1] .

قال في حقه العلامة عبد القادر الفاكهي ـ تلميذه ـ : (أخذ عنه أخْذ روايةٍ ، أخذَ شيخٍ عن شيخ ، كما قيل في أخذ أحمد عن الشافعي) اهـ

٢ـ العلامة المتفنن الشيخ عبد القادر بن أحمد بن علي الفاكهي ، المكي ، الشافعي (٩٢٠ـ٩٨٢هـ) ، له مؤلفات كثيرة ، أخذ عن ابن حجر ـ رحمه الله ـ ولازمه

=

إبراهيم بن حسن العلواني ، الشافعي (ت١١٩٣هـ) ، منه نسخة بخزانة الرباط العامة (١٩٠٢ د) .

٢ـ « إثمد العينين في بيان اختلاف الشيخين » للشيخ الفقيه علي بن أحمد باصبرين ، الدوعني ، الحضرمي ، ثم الحجازي (ت١٣٠٥هـ) .

٣ـ « فتح العلي في الخلاف بين ابن حجر والرملي » للسيد الفقيه عمر بن حامد بن عمر بافرج ، العلوي ، الحسيني ، التريمي ، الحضرمي (١٢٥٢ـ١٢٧٤هـ) منه نسخة بتريم (٣٠٣٣) .

(١) « النور السافر » (ص ٣٥٨) ، « الشذرات » (١٠/ ٥٠٩) .

طويلاً ، وصنف رسالة سماها : « فضائل ابن حجر الهيتمي »[1] .

٣ـ العلامة الشيخ عبد الرؤوف بن يحيى بن عبد الرؤوف الزمزمي الواعظ (٩٣٠ـ٩٨٤هـ) ، من أكبر تلامذة ابن حجر ، أخذ عنه فأكثر ، درس علىٰ يديه عدة فنون ، وهو الذي جمع فتاوىٰ شيخه الكبرىٰ ، وشرح « مختصر الإيضاح » له ، وغير ذلك ، ويخطىء بعض الناس فيظنه محمد عبد الرؤوف المناوي ! ![2]

٤ـ محدث الهند الإمام العلامة محمد طاهر الفتّني ، الهندي ، الحنفي[3] ، (٩١٣ـ٩٨٦هـ) ، له « مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار » مطبوع ، أخذ عن ابن حجر الهيتمي ، وأبي الحسن البكري .

٥ـ السيد الشريف الإمام العلامة الفقيه شيخ بن عبد الله بن شيخ العيدروس ، (الأوسط) مصنف « العقد النبوي » ، (٩١٩ـ٩٩٠هـ) ، أخذ عن أبيه وشيوخ تريم ، وجاور بمكة ثلاث سنين ، من (٩٤١) إلىٰ (٩٤٤هـ) ملازماً لطلب العلم والعبادة ، فأخذ عن الشيخ ابن حجر وعبد الله باقشير وآل الفاكهي وغيرهم ، وله من ابن حجر إجازة فاخرة[4] .

٦ـ الإمام شهاب الدين أحمد بن قاسم العبادي ، المصري ، الشافعي ، الأصولي ، المتكلم ، (ت ٩٩٤هـ) ، له حواشٍ علىٰ تحفة شيخه ابن حجر ، اعترض فيها علىٰ مواضع منها ، وله حاشية على « الورقات » تسمىٰ : « الآيات البينات » ، وغير ذلك[5] .

٧ـ السيد الشريف العلامة القاضي عبد الرحمـٰن ابن الشيخ شهاب الدين الأكبر العلوي ، الحسيني ، التريمي (٩٤٥ـ١٠١٤هـ) ، أخذ عن شيوخ عصره ، وجاور بمكة مدة ، وأخذ بها عن الشيخ ابن حجر الهيتمي[6] .

---

(١) « النور السافر » (ص ٤٦٤) ، « الشذرات » (١٠/ ٥٨٢) .
(٢) ترجمه الشلي في « السنا الباهر » (ق ٧٣٨) .
(٣) « النور السافر » (ص ٤٧٥) ، « الشذرات » (١٠/ ٦٠١) .
(٤) ترجمته عند ابنه في « النور السافر » (ص ٤٨٨) ، و« شذرات الذهب » (١٠/ ٦٢٠) .
(٥) « الشذرات » (١٠/ ٦٣٦) .
(٦) « المشرع الروي » (٢/ ١٢٧) .

عدها بعض الباحثين فبلغت (١١٧) مؤلفاً في شتىٰ فنون العلم ؛ من حديث ، وفقه ، وسيرة ، وتراجم ، ونحو ، وأدب ، وأخلاق ، وعقيدة ، وغير ذلك .

إلا أن أبرز الفنون التي اشتهر بها ـ رحمه الله ـ هو علم الفقه ، وله في ذلك اليد الطولىٰ ، وما « تحفته » التي عليها المدار والاعتماد في الإفتاء عند الشافعية . . إلا أصدق دليل على ذلك .

ومن مؤلفاته رحمه الله :

١ـ « الفتح المبين بشرح الأربعين » ، يعني بها النووية ، طبع بمصر سنة (١٣٠٧هـ) ، وعليه حاشية للشيخ حسن المدابغي المصري ، وهو شرح مفيد ونافع .

٢ـ « الفتاوى الحديثية » ، طبع عدة مرات ، وفيها فوائد عزيزة المنال ، وليست خاصة بعلم الحديث ، بل اشتملت علىٰ عدة فنون .

٣ـ « فتح الإلـه بشرح المشكاه » مخطوط ، صنفه سنة (٩٥٤هـ) بعد إلحاح وطلب من بعض علماء الهند ، وهو شرح على « مشكاة المصابيح » في الحديث .

٤ـ « الفتاوى الفقهية الكبرىٰ » ، جمعها بعض كبار تلامذته ـ وهو عبد الرؤوف الواعظ الزمزمي ـ طبعت بمصر قديماً ، وهي في (٤) مجلدات ، وبهامشه فتاوى الشهاب الرملي .

٥ـ « تحفة المحتاج بشرح المنهاج » ، وهو كتاب مهم ومحقق في فقه السادة الشافعية ، وعليه مدار الفتوىٰ في حضرموت خصوصاً وبعض بلدان المسلمين ، وقد وضعت عليها الحواشي العديدة ، واعتنى بها علماء الشافعية من شتى البلدان ، واختصرها البعض ، وحشّى عليها البعض[1] .

---

(١) فمن ذلك :

أـ حاشية لابن حجر نفسه تسمّى : « طرفة الفقير بتحفة القدير » ، ذكرها صاحب « النور السافر » وغيره .

٦ـ « المنهج القويم بشرح مسائل التعليم » ، وهو شرح لـ « المقدمة الحضرمية » ، صنفه ابن حجر ـ رحمه الله ـ سنة (٩٤٤هـ) بطلب من الفقيه عبد الرحمـٰن العمودي ، وقد انتفع به طلاب العلم أيما انتفاع ، حتىٰ إن بعض تلامذة ابن حجر يقول فيه : (قلَّ أن ترىٰ طالباً ليس عنده منه نسخة) اهـ[1]

وقد اهتم أهل العلم والفقهاء بهـٰذا الشرح ، فوضعت عليه الحواشي والتعليقات الكثيرة[2] ، وقد طبع الكتاب في دار المنهاج طبعة نفيسة محققة .

=

ب ـ « حاشية » لحفيده رضي الدين بن عبد الرحمـٰن بن حجر ، ردّ بها اعتراضات العبّادي .

ج ـ « حاشية » للفقيه أحمد بن قاسم العبّادي تلميذه ، وهي مطبوعة بهامش « التحفة » .

د ـ « حاشية » للسيد عمر بن عبد الرحيم البصري الحسيني المكي الشافعي ، وهو من تلامذة ابن حجر ، وحاشيته هـٰذه طبعت مستقلة بهامش التحفة في (٤) مجلدات كبيرة بمصر .

هـ ـ « حاشية » العلامة عبد الله سعيد باقشير المكي ، (ت١٠٧٦هـ) ، وهي في ربع العبادات فقط .

و ـ « حاشية » العلامة عبد الحميد الشرواني الداغستاني الشافعي ، وهي شاملة لحواشي من تقدمه ، طبعت بمصر في (١٠) مجلدات ، ومعها « حاشية » ابن قاسم .

ز ـ حواش ونكت على « التحفة » للعلامة الإمام مفتي حضرموت الأكبر الشيخ : عبد الله بن عمر بامخرمة الهجراني السيباني الشافعي ثم العدني ، (ت٩٧٢هـ) ، ذكرها معظم من ترجم له ؛ كصاحب « النور السافر » وابن العماد في « الشذرات » .

ح ـ «الإتحاف» مختصر «التحفة» للفقيه العلامة علي بن محمد بن مطير الحكمي اليمني الشافعي ، (ت١٠٤١هـ) ، وهو ممن أدرك ابن حجر وأخذ عنه إجازةً .

وقد أوصل بعض الباحثين الأعمال التي وضعت على « تحفة المحتاج » إلى (٢٧) عَمَلاً بين حاشية وتعليق وغير ذلك كما جاء في كتاب «الإمام ابن حجر الهيتمي وأثره في الفقه الشافعي» .

(١) وهو : باعمرو السيفي في « نفائس الدرر » (ق٣/ب) . من « ابن حجر وجهوده » (ص/ ١٨٥) .

(٢) فمن ذلك :

« حاشية الجرهزي » للعلامة الفقيه عبد الله بن سليمان الجرهزي اليمني (ت ١٢٠١هـ) ، طبعت لأول مرة في دار المنهاج بجدة سنة (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م) .

=

٧ـ « المنح المكية بشرح الهمزية » وهو هـٰذا الكتاب ، وسيأتي الحديث عنه إن شاء الله تعالىٰ .

٨ـ « الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود» ، وقد صدر مؤخَّراً عن دار المنهاج بتحقيقٍ علميٍّ مميز وحلة قشيبة .

هذا ذكر لبعض مصنفات ابن حجر رحمه الله ، أما بقية كتب ابن حجر الفقهية؛ « كالإيعاب »، و« الإمداد »، و« فتح الجواد »، و« شرح الإيضاح »، وبقية الكتب الأخرىٰ ؛ كـ« الصواعق » ، و« الزواجر » ، و« كف الرعاع » ، و«الإعلام بقواطع الإسلام» ، وغيرها . . فالكلام عنها يطول ، ومن أراد التوسع ومعرفة هـٰذه الكتب ووصفها وما يتعلق بها . . فعليه بالبحث الموسع عن ابن حجر المذكور ضمن مصادر الترجمة .

ونكتفي أن نشير هنا إلىٰ كتابه الفريد الجامع المسمّى «أسنى المطالب في صلة الأقارب»، وهو كتاب كبير[١]، حوىٰ نفائس الفوائد، وهام في بابه، وقد طبع مؤخراً.

=

ـ تقريرات للعلامة الفقيه المفتي الشيخ سالم بن عبد الرحمـٰن بن محمد باصُهَي الشبامي الحضرمي ، المتوفى سنة (١٠٣٥هـ) ، أو (١٠٦٥هـ) ، صاحب « الفتاوى » .

ـ « الحواشي المدنية الكبرىٰ » للعلامة الفقيه محمد بن سليمان الكردي المدني الشافعي (ت١١٩٤ أو ١٢٠٣هـ) ، طبعت بهامش حاشية الترمسي الآتية .

ـ « الحواشي المدنية الصغرىٰ » وهي المطبوع استقلالاً مع الشرح المذكور ، وتعرف بـ « حاشية الكردي » ، طبعت أول مرة سنة (١٢٨٤هـ) ، ومعها تعليقات من « الكبرىٰ » ، ثم أخرىٰ سنة (١٢٨٨هـ) بالأميرية ببولاق .

ـ « حاشية الترمسي » ، وهي المسماة : « موهبة ذي الفضل » للعلامة الفقيه محمد محفوظ بن عبد الله الترمسي الجاوي ثم المكي الشافعي ، (ت١٣٣٨هـ) ، طبعت حاشيته بمصر بالمطبعة العامرة الشرقية ، سنة (١٣٢٦هـ) في (٤) مجلدات ضخمة .

ـ « المسلك القويم علىٰ حل ألفاظ المنهج القويم » للعلامة الفقيه الشيخ محمد صالح بن محمد بافضل المكي الشافعي ، (ت١٣٣٣هـ) ، تقع في (٤) أجزاء ، طبع منها المجلد الأول في (٤٧٩) صفحة بالمطبعة الأميرية بمكة سنة (١٣٢٦هـ) .

ـ « تقريرات على المنهج القويم » للعلامة الفقيه أحمد نحراوي الجاوي ، (ت١٢٩١هـ) ، طبعت بهامش « المسلك » السابق الذكر .

(١) وقد اختصره العالم الفقيه المفتي الشيخ عبد الله بن سعد بن سُمَيْر الحضرمي ، (ت١٢٦٢هـ) ، وذلك بأمر من السيد الإمام أحمد بن عمر بن سميط الحسيني الشبامي (ت١٢٥٧هـ) ، واسم هـٰذا المختصر « كافي الطالب من أسنى المطالب » ، منه نسخة =

وفاته

ولما كبرت سنه ـ رحمه الله ـ ابتدأ به مرض ألجأه إلىٰ ترك التدريس لمدة نيف وعشرين يوماً ، وكتب وصيته في الحادي والعشرين من رجب (٩٧٤هـ) ، وفي ضحوة الإثنين (٢٣) من الشهر المذكور لبىٰ نداء ربه راضياً مرضياً .

وصلي عليه تحت باب الكعبة الشريفة ، ودفن في المعلاة بقرب من مَوْضِعِ صَلْبِ ابن الزبير رضي الله عنهما ، في التربة المعروفة بتربة الطبريين .

ورثاه الشعراء ، وبكىٰ عليه الناس زمناً ، وكان لموته رنة حزن وأسف ، عمت بلاد الحرمين ، واليمن ، ونواحيها .

رحمه الله رحمة الأبرار ، وأسكنه جنات تجري من تحتها الأنهار .

وهـٰذه أبيات أوردها العلامة العيدروس في « النور السافر » لصاحبه الفقيه أحمد باجابر ، يمدح بها ابن حجر قال فيها : [من الكامل]

قد قيل من حجرٍ أصمَّ تفجرتْ ... للخلق بالنص الْجَلِيْ أنْهَارُ
وتفجرت يا معشر العلماء مِن ... حجر العلوم فبحرها زخار
أكرم به قطباً محيطاً بالعلا ... ورَحَاؤه حقاً عليه تدار[1]

* * *

=

بالأحقاف رقمها (٢٦٠٢) .

(١) « النور السافر » (ص ٣٩٦) خاتمة ترجمة ابن حجر .

المنح المكية وعناية العلماء بالهمزية

لقد تربع البوصيري ـ رحمه الله تعالى ـ على عرش الشعر في عصره ، وحاز قصب السبق في هـٰذا الميدان ، فلم ينافسه شاعر ، ولا اجترأ على مجاراته أديب ، ثم توج شعره بمدح خير البرية صلى الله عليه وسلم ، فجاءت « البردة » في حلة بهية ، ثم ولدت « الهمزية » ، فصالت وجالت ، وخطرت وماست ، فما رقىٰ رُقيَّها شعر ، وما طاول سماءها نثر .

لهذا كلِّه كان لا بدَّ أن يتصدَّى لشرحها إمام جهبذ همام ثبت ، يكشف عن مخدراتها ، ويبسط من مقتضباتها ، فكان العلامةَ ابنَ حجر الهيتميَّ رحمه الله تعالى ، فجاء شرحه كافياً وافياً ، فهو « أفضل القِرىٰ » يهنأ بِتَنَاوُلِهِ قُرَّاء « أم القرىٰ »[1] .

هذا وقد حظيت « الهمزية » باهتمامِ كثيرٍ من أهل العلم ، فتناولوها شرحاً وتبييناً ، فمن هـٰذه الشروح بالإضافة لكتابنا هـٰذا :

ـ شرح العلامة شمس الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد الجوجري المتوفىٰ سنة (٨٨٩هـ) .

ـ شرح العلامة شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي المتوفىٰ سنة (٩٩٠هـ) .

ـ شرح الشيخ محمد بن أبي الوفاء الخلوتي الحموي ، فرغ منه سنة (٩٩٦هـ) ، وسماه « نهاية الأمنية في شرح الهمزية » .

ـ شرح الشيخ أحمد بن يوسف البرلسي ابن الأقيطع المتوفىٰ سنة (١٠٠١هـ) سماه « النخبة السنية » .

---

(١) أم القرى : هو اسم للقصيدة « الهمزية » . هـٰذا ، وقد كان العلامة ابن حجر قد سمى شرحه لها أولاً « المنح المكية » ، ثم عثر على أن الإمام البوصيري كان قد سمّى همزيته « أم القِرى » فسماها ابن حجر « أفضل القرى لقرّاء أم القُرى » .

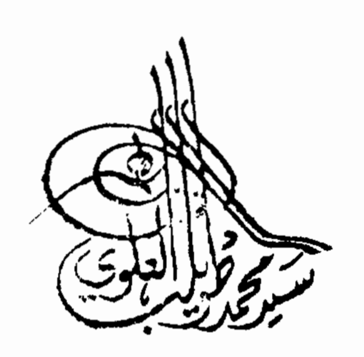
ـ شرح الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الله الغزي الحنفي المعروف بالتمرتاشي .

ـ شرح الشيخ أحمد بن عبد الوهاب الفاسي .

ـ شرح الإمام العلامة سليمان الجمل المتوفى سنة (١٢٠٤هـ) ، سماه « الفتوحات الأحمدية بالمنح المحمدية على متن الهمزية » ، وهو شرح مختصر لخصه من هذا الشرح المبارك « المنح المكية » .

ـ شرح الشيخ محمد بن أحمد بنيس ، فرغ منه سنة (١٢٠٠هـ) ، سماه « لوامع أنوار الكوكب الدري في شرح همزية البوصيري » ، ينقل فيه عن ابن حجر كثيراً .

❊ ❊ ❊



وصف النسخ الخطية

اعتمدنا في إخراج هـٰذا الكتاب المبارك على أربع نسخ خطية :

الأولى : وهي مصورة جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض ، ذات الرقم (٨٧٤١/خ) ، ورمزنا لها بـ(أ) .

وهي نسخة جيدة كاملة ، خالية من السقط والأخطاء تقريباً .

كتبت بخط نسخي مستعجل ، تقع في (١٥٧) ورقة ، متوسط عدد الأسطر (٣٠) سطراً ، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد (١٥) كلمة .

ويوجد بعض التصويبات على هوامشها .

وقد كتبت أبيات « الهمزية » ضمن الشرح مميزةً عن غيرها بخط أسود عريض ، وهـٰذه هي النسخة الوحيدة التي تذكر الأبيات قبل الشروع في شرحها .

كان الفراغ من نسخها يوم الأحد عاشر جمادى الأولى سنة (١٠٧٧هـ) .

الثانية : وهي نسخة مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة ، ذات الرقم (٢٤٣/٥٢) ، ورمزنا لها بـ(ب) .

وهي نسخة جيدة ، خالية من الأخطاء تقريباً ، يوجد فيها سقط في موضعين ، ولا يتجاوز السقط مقدار ورقة واحدة أو أقل .

كتبت بخط نسخي جميل ، تقع في (٢٨٨) ورقة ، وعدد الأسطر (٢١) سطراً ، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد (١١) كلمة .

كتب على هوامشها بلاغات واستدراكات وتصحيح لبعض التصحيفات ؛ مما يزيد في قيمة هـٰذه النسخة وأهميتها .

وناسخها عبد الله بن محمد الدلبشاني ، وكان الفراغ من نسخها يوم السبت ثاني عشر رمضان سنة (١٠١٧هـ) .

الثالثة : وهي نسخة مكتبة عارف حكمت في المدينة المنورة أيضاً ، ذات الرقم(٥٣/ ٢٤٣) ، ورمزنا لها بـ(ج) .

وهي نسخة صالحة ، فيها بعض التصحيفات ، ويوجد فيها سقط في موضعين أيضاً ، كتبت بخط رقعي جميل ، تقع في (١٣٦) ورقة ، عدد الأسطر (٣٣) سطراً ، ومتوسط عدد الكلمات في السطر الواحد (١٥) كلمة .

كان الفراغ من نسخها يوم السبت سادس عشر شهر رجب سنة (١١٩٨هـ) .

الرابعة : وهي نسخة مكتبة مكة المكرمة ، ذات الرقم (٥٣/ تاريخ ـ سيرة) ، ورمزنا لها بـ(د) .

وهي نسخة جيدة ، خالية من الأخطاء تقريباً .

كتبت بخط نسخي مقروء ، تقع في (٢٤١) ورقة ، متوسط عدد الأسطر (٢٥) سطراً ، متوسط عدد الكلمات في السطر الواحد (١١) كلمة .

ويوجد بعض التصويبات والاستدراكات على هوامشها .

* * *

منهج العمل في الكتاب

سرنا في إخراج هـٰذا الكتاب على الخطوات التالية :

١ـ نسخنا المخطوط وعارضناه مع بقية النسخ الخطية ، وأثبتنا الفروق المهمة ، أو ما لم نهتد فيه إلى وجه الصواب ، وهي قليلة جداً .

٢ـ حصرنا الآيات القرآنية بين قوسين مزهرين ﴿﴾ ، وجعلناها برسم المصحف الشريف .

٣ـ أما بالنسبة للأحاديث النبوية الشريفة . . فقد سرنا على النحو التالي :

ـ ما خرجه الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ نذكر رقم الحديث أو رقم الجزء والصحيفة للمصدر الذي أحال إليه فقط ، وذلك في الحاشية .

ـ ما لم يخرجه الشارح نعزوه إلى مواضعه من كتب السنة المطهرة ذاكرين رقم الحديث أو رقم الجزء والصحيفة ، ويكون ذلك في أول موضع من ذكر الحديث في الكتاب فقط ، كل ذلك بحسب الوسع والاستطاعة .

ـ وبالنسبة للأحاديث القولية . . فقد حصرناها بين قوسين صغيرين ، وضبطناها بالشكل الكامل .

٤ـ جعلنا متن « الهمزية » ضمن إطار مزدوج أحمر ، وجعلنا الكلمات المشروحة منها باللون الأحمر ، كما ضبطنا المتن بالشكل الكامل ، وذكرنا الرقم التسلسلي للبيت .

٥ـ علقنا على بعض المواضع في الكتاب إذا كانت هناك حاجة ماسة إلى التعليق ، وذلك من شرح لعبارة غامضة ، أو ربط بين متفرق ، أو سهو وقع من الشارح أو الناسخ ، رحم الله الجميع .

٦ـ خرجنا الأبيات الشعرية من دواوين قائليها إن استطعنا ذلك ، وإلا . . فقد ضربنا صفحاً عن ذلك مكتفين بذكر البحر العروضي ، هـٰذا وقد ضبطنا الأشعار بالشكل الكامل .

٧ـ وضعنا علامات الترقيم المناسبة للكتاب ، وذلك حسب المنهج المتبع في الدار .

٨ـ ترجمنا في مقدمة الكتاب للشارح ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ ترجمة وافية ، ولم نترجم للناظم شرف الدين البوصيري رحمه الله تعالى ؛ لما كفانا مؤنة ذلك العلامة ابن حجر في فاتحة الكتاب .

٩ـ أتبعنا الكتاب بفهارس عامة وشاملة للموضوعات .

نسأل المولى سبحانه أن يجنبنا الزلل ، وأن يجعلنا ممن جاء بالصواب وجانب الخطل ؛ إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، والحمد لله رب العالمين .

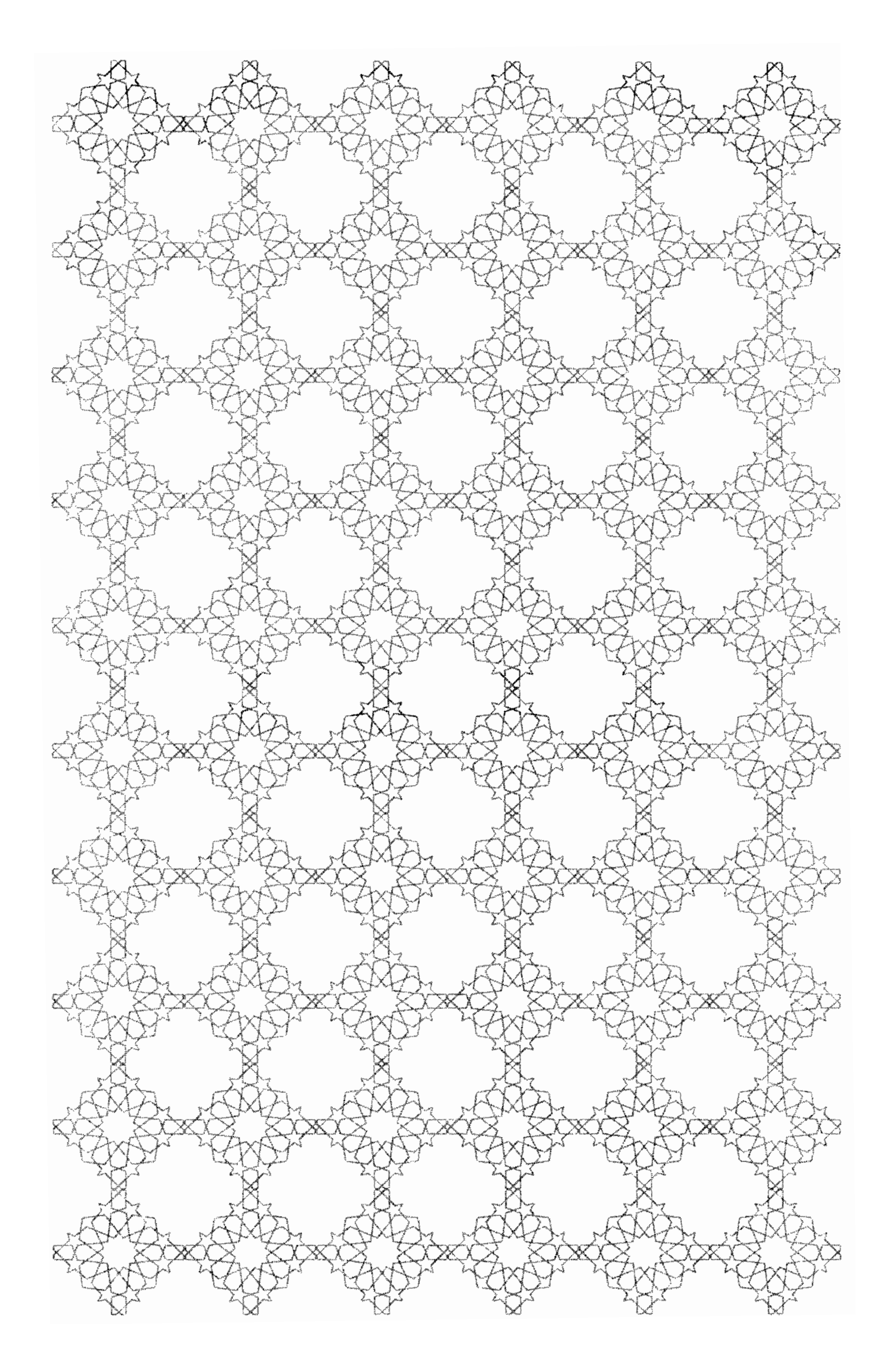
* * *







صُوَرُ المَخْطُوطَاتِ المُسْتَعَانِ بِهَا



راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ج)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ج)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ج)

راموز ورقة العنوان للنسخة (د)

راموز الورقة الأولى للنسخة (د)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (د)





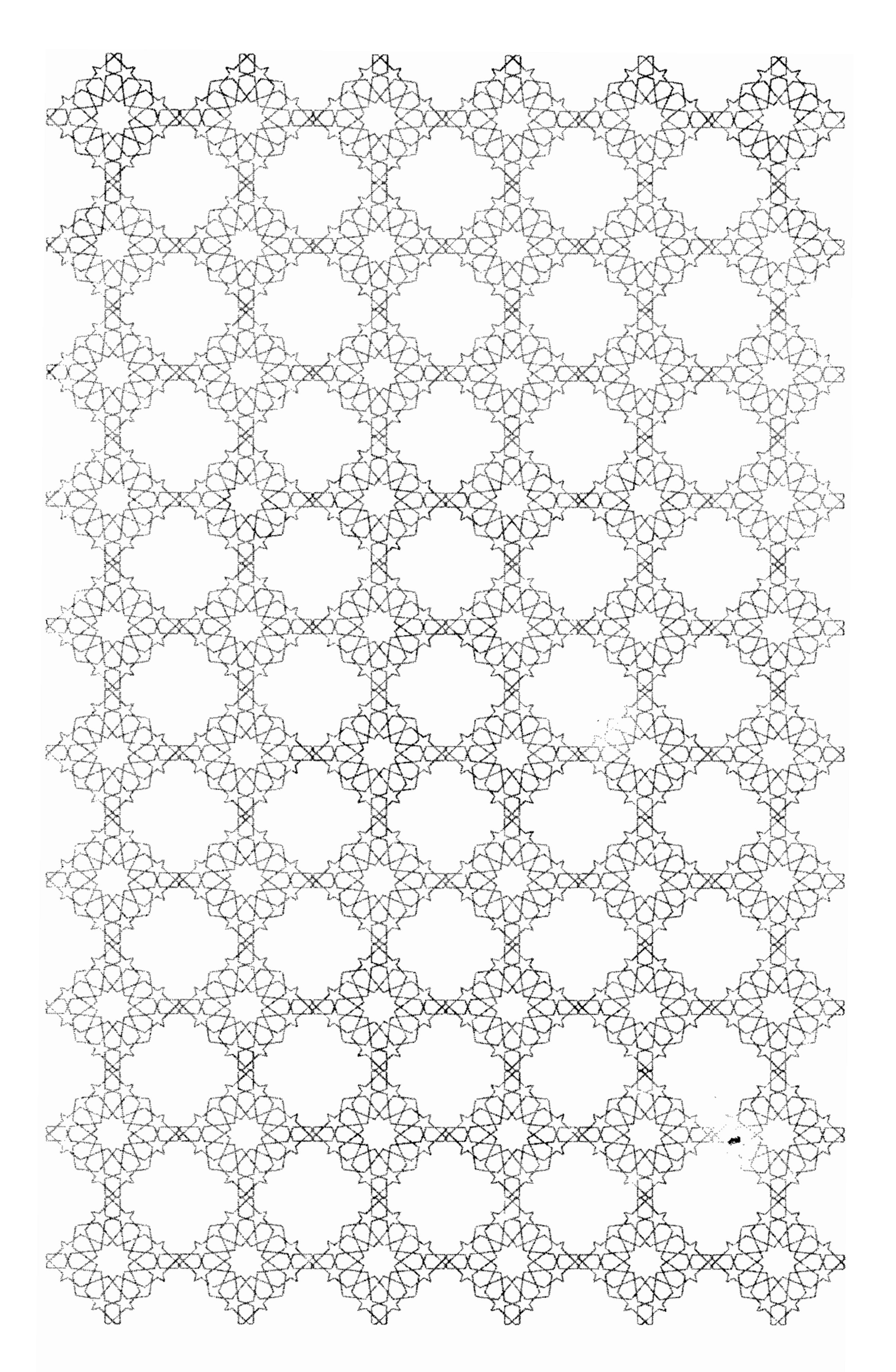
قصيدة الهمزية

المسمّاة

أم القرى

للإمام العارف الأديب البليغ
إمام الشّعراء وشاعر العلماء حسّان عصره

الشّيخ أبي عبد الله محمّد بن سعيد بن حمّاد الصّنهاجيّ
الدّلاصيّ المغربيّ البوصيريّ
(٦٠٨ - ٦٩٦هـ)



1. كَيْـفَ تَـرْقَـىٰ رُقِيَّـكَ ٱلْأَنْبِيَـاءُ   يَـا سَمَـاءً مَـا طَـاوَلَتْهَـا سَمَـاءُ

2. لَمْ يُسَاوُوكَ فِي عُلَاكَ وَقَدْ حَا   لَ سَنًـا مِنْـكَ دُونَهُـمْ وَسَنَـاءُ

3. إِنَّمَـا مَثَّلُـوا صِفَـاتِـكَ لِلنَّـا   سِ كَمَـا مَثَّـلَ ٱلنُّجُـومَ ٱلْمَـاءُ

4. أَنْتَ مِصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فَمَا تَصْـ   ـدُرُ إِلَّا عَـنْ ضَوْئِـكَ ٱلْأَضْوَاءُ

5. لَكَ ذَاتُ ٱلْعُلُومِ مِنْ عَالَمِ ٱلْغَيْـ   ـبِ وَمِنْهَـا لِآدَمَ ٱلْأَسْمَـاءُ

6. لَمْ تَزَلْ فِي ضَمَائِرِ ٱلْكَوْنِ تُخْتَا   رُ لَـكَ ٱلْأُمَّهَـاتُ وَٱلْآبَـاءُ

7. مَا مَضَتْ فَتْرَةٌ مِنَ ٱلرُّسْلِ إِلَّا   بَشَّـرَتْ قَـوْمَهَـا بِـكَ ٱلْأَنْبِيَـاءُ

8. تَتَبَـاهَـىٰ بِـكَ ٱلْعُصُـورُ وَتَسْمُـو   بِـكَ عَلْيَـاءُ بَعْـدَهَـا عَلْيَـاءُ

9. وَبَـدَا لِلْـوُجُـودِ مِنْـكَ كَـرِيـمٌ   مِـنْ كَـرِيـمٍ آبَـاؤُهُ كُـرَمَـاءُ

10. نَسَـبٌ تَحْسِـبُ ٱلْعُـلَا بِحُـلَاهُ   قَلَّـدَتْهَـا نُجُـومَهَـا ٱلْجَـوْزَاءُ

11. حَبَّـذَا عِقْـدُ سُـؤْدَدٍ وَفَخَـارٍ   أَنْـتَ فِيـهِ ٱلْيَتِيمَـةُ ٱلْعَصْمَـاءُ

12. وَمُحَيًّا كَـٱلشَّمْسِ مِنْكَ مُضِيءٌ   أَسْفَـرَتْ عَنْـهُ لَيْلَـةٌ غَـرَّاءُ

13. لَيْلَـةُ ٱلْمَـوْلِـدِ ٱلَّـذِي كَـانَ لِلدِّيـ   ـنِ سُـرُورٌ بِيَـوْمِـهِ وَٱزْدِهَـاءُ

14. وَتَوَالَتْ بُشْرَى ٱلْهَوَاتِفِ أَنْ قَدْ   وُلِـدَ ٱلْمُصْطَفَـىٰ وَحَـقَّ ٱلْهَنَـاءُ

15. وَتَـدَاعَـىٰ إِيـوَانُ كِسْـرَىٰ وَلَـوْلَا   آيَـةٌ مِنْـكَ مَـا تَـدَاعَـى ٱلْبِنَـاءُ

16. وَغَـدَا كُـلُّ بَيْـتِ نَـارٍ وَفِيـهِ   كُـرْبَـةٌ مِـنْ خُمُـودِهَـا وَبَـلَاءُ

17. وَعُيُونٌ لِلْفُرْسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا   نَ لِنِيـرَانِهِـمْ بِهَـا إِطْفَـاءُ

18. مَوْلِدٌ كَانَ مِنْهُ فِي طَالِعِ ٱلْكُفْـ   ـرِ وَبَـالٌ عَلَيْهِـمُ وَوَبَـاءُ

19. فَهَنِيئًـا بِـهِ لِآمِنَـةَ ٱلْفَضْـ   ـلُ ٱلَّـذِي شُـرِّفَـتْ بِـهِ حَـوَّاءُ

20 مَـنْ لِحَـوَّاءَ أَنَّهَـا حَمَلَـتْ أَحْـ ... ـمَـداً أَوْ أَنَّهَـا بِـهِ نُفَسَـاءُ

21 يَوْمَ نَالَتْ بِوَضْعِهِ ٱبْنَةُ وَهْبٍ ... مِـنْ فَخَـارٍ مَـا لَـمْ تَنَلْـهُ ٱلنِّسَـاءُ

22 وَأَتَـتْ قَـوْمَهَـا بِـأَفْضَـلَ مِمَّـا ... حَمَلَـتْ قَبْـلُ مَـرْيَـمُ ٱلْعَـذْرَاءُ

23 شَمَّتَتْـهُ ٱلْأَمْـلَاكُ إِذْ وَضَعَتْـهُ ... وَشَفَتْنَـا بِقَـوْلِهَـا ٱلشَّفَّـاءُ

24 رَافِعـاً رَأْسَـهُ وَفِـي ذَٰلِـكَ ٱلرَّفْـ ... ـعِ إِلَـىٰ كُـلِّ سُـؤْدَدٍ إِيمَـاءُ

25 رَامِقـاً طَـرْفُـهُ ٱلسَّمَـاءَ وَمَـرْمَـىٰ ... عَيْـنِ مَـنْ شَـأْنُـهُ ٱلْعُلُـوُّ ٱلْعَـلَاءُ

26 وَتَـدَلَّـتْ زُهْـرُ ٱلنُّجُـومِ إِلَيْـهِ ... فَـأَضَـاءَتْ بِضَـوْئِهَـا ٱلْأَرْجَـاءُ

27 وَتَـرَاءَتْ قُصُـورُ قَيْصَـرَ بِـٱلـرُّو ... مِ يَـرَاهَـا مَـنْ دَارُهُ ٱلْبَطْحَـاءُ

28 وَبَـدَتْ فِـي رَضَـاعِـهِ مُعْجِـزَاتٌ ... لَيْـسَ فِيهَـا عَـنِ ٱلْعُيُـونِ خَفَـاءُ

29 إِذْ أَبَتْـهُ لِيُتْمِـهِ مُـرْضِعَـاتٌ ... قُلْـنَ مَـا فِـي ٱلْيَتِيـمِ عَنَّـا غَنَـاءُ

30 فَـأَتَتْـهُ مِـنْ آلِ سَعْـدٍ فَتَـاةٌ ... قَـدْ أَبَتْهَـا لِفَقْـرِهَـا ٱلـرُّضَعَـاءُ

31 أَرْضَعَتْـهُ لِبَـانَهَـا فَسَقَتْهَـا ... وَبَنِيهَـا أَلْبَـانَهُـنَّ ٱلشَّـاءُ

32 أَصْبَحَتْ شُوَّلاً عِجَافاً وَأَمْسَتْ ... مَـا بِهَـا شَـائِـلٌ وَلَا عَجْفَـاءُ

33 أَخْصَبَ ٱلْعَيْشُ عِنْدَهَا بَعْدَ مَحْلٍ ... إِذْ غَـدَا لِلنَّبِـيِّ مِنْهَـا غِـذَاءُ

34 يَا لَهَا مِنَّةً لَقَدْ ضُوعِفَ ٱلْأَجْـ ... ـرُ عَلَيْهَـا مِـنْ جِنْسِهَـا وَٱلْجَـزَاءُ

35 وَإِذَا سَخَّـرَ ٱلْإِلَـٰـهُ أُنَـاسـاً ... لِسَعِيـدٍ فَـإِنَّهُـمْ سُعَـدَاءُ

36 حَبَّـةٌ أَنْبَتَـتْ سَنَـابِـلَ وَٱلْعَصْـ ... ـفُ لَـدَيْـهِ يَسْتَشْـرِفُ ٱلضُّعَفَـاءُ

37 وَأَتَـتْ جَـدَّهُ وَقَـدْ فَصَلَتْـهُ ... وَبِهَـا مِـنْ فِصَـالِـهِ ٱلْبُـرَحَـاءُ

38 إِذْ أَحَـاطَـتْ بِـهِ مَـلَائِكَـةُ ٱللهِ ... فَظَنَّـتْ بِـأَنَّهُـمْ قُـرَنَـاءُ

وَرَأَىٰ وَجْدَهَا بِهِ وَمِنَ ٱلْوَجْـ	ـدِ لَهِيبٌ تَصْلَىٰ بِهِ ٱلْأَحْشَاءُ	39
فَارَقَتْهُ كُرْهاً وَكَانَ لَدَيْهَا	ثَاوِياً لَا يُمَلُّ مِنْهُ ٱلثَّوَاءُ	40
شُقَّ عَنْ قَلْبِهِ وَأُخْرِجَ مِنْهُ	مُضْغَةٌ عِنْدَ غَسْلِهِ سَوْدَاءُ	41
خَتَمَتْهُ يُمْنَى ٱلْأَمِينِ وَقَدْ أُو	دِعَ مَا لَمْ تُذَعْ لَهُ أَنْبَاءُ	42
صَانَ أَسْرَارَهُ ٱلْخِتَامُ فَلَا ٱلْفَضُّ	مُلِمٌّ بِهِ وَلَا ٱلْإِفْضَاءُ	43
أَلِفَ ٱلنُّسْكَ وَٱلْعِبَادَةَ وَٱلْخَلْـ	ـوَةَ طِفْلاً وَهَٰكَذَا ٱلنُّجَبَاءُ	44
وَإِذَا حَلَّتِ ٱلْهِدَايَةُ قَلْباً	نَشِطَتْ لِلْعِبَادَةِ ٱلْأَعْضَاءُ	45
بَعَثَ ٱللهُ عِنْدَ مَبْعَثِهِ ٱلشُّهْـ	ـبَ حِرَاساً وَضَاقَ عَنْهَا ٱلْفَضَاءُ	46
تَطْرُدُ ٱلْجِنَّ عَنْ مَقَاعِدَ لِلسَّمْـ	ـعِ كَمَا تَطْرُدُ ٱلذِّئَابَ ٱلرُّعَاءُ	47
فَمَحَتْ آيَةَ ٱلْكَهَانَةِ آيَا	تٌ مِنَ ٱلْوَحْيِ مَا لَهُنَّ ٱنْمِحَاءُ	48
وَرَأَتْهُ خَدِيجَةٌ وَٱلتُّقَىٰ وَٱلزُّ	هْدُ فِيهِ سَجِيَّةٌ وَٱلْحَيَاءُ	49
وَأَتَاهَا أَنَّ ٱلْغَمَامَةَ وَٱلسَّرْ	حَ أَظَلَّتْهُ مِنْهُمَا أَفْيَاءُ	50
وَأَحَادِيثُ أَنَّ وَعْدَ رَسُولِ ٱللهِ	بِٱلْبَعْثِ حَانَ مِنْهُ ٱلْوَفَاءُ	51
فَدَعَتْهُ إِلَى ٱلزَّوَاجِ وَمَا أَحْـ	ـسَنَ مَا يَبْلُغُ ٱلْمُنَى ٱلْأَذْكِيَاءُ	52
وَأَتَاهُ فِي بَيْتِهَا جَبْرَئِيلٌ	وَلِذِي ٱللُّبِّ فِي ٱلْأُمُورِ ٱرْتِيَاءُ	53
فَأَمَاطَتْ عَنْهَا ٱلْخِمَارَ لِتَدْرِي	أَهُوَ ٱلْوَحْيُ أَمْ هُوَ ٱلْإِغْمَاءُ	54
فَٱخْتَفَىٰ عِنْدَ كَشْفِهَا ٱلرَّأْسَ جِبْرِيْـ	ـلُ فَمَا عَادَ أَوْ أُعِيدَ ٱلْغِطَاءُ	55
فَٱسْتَبَانَتْ خَدِيجَةٌ أَنَّهُ ٱلْكَنْـ	ـزُ ٱلَّذِي حَاوَلَتْهُ وَٱلْكِيمِيَاءُ	56
ثُمَّ قَامَ ٱلنَّبِيُّ يَدْعُو إِلَى ٱللهِ	وَفِي ٱلْكُفْرِ نَجْدَةٌ وَإِبَاءُ	57

(58) أُمَماً أُشْرِبَتْ قُلُوبُهُمُ ٱلْكُفْـ ... ـرَ فَدَاءُ ٱلضَّلَالِ فِيهِمْ عَيَاءُ

(59) وَرَأَيْنَا آيَاتِهِ فَٱهْتَدَيْنَا ... وَإِذَا ٱلْحَقُّ جَاءَ زَالَ ٱلْمِرَاءُ

(60) رَبِّ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَاكَ وَآيَا ... تُكَ نُورٌ تَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ

(61) كَمْ رَأَيْنَا مَا لَيْسَ يَعْقِلُ قَدْ أُلْـ ... ـهِمَ مَا لَيْسَ يُلْهَمُ ٱلْعُقَلَاءُ

(62) إِذْ أَبَى ٱلْفِيلُ مَا أَتَىٰ صَاحِبُ ٱلْفِيـ ... ـلِ وَلَمْ يَنْفَعِ ٱلْحِجَا وَٱلذَّكَاءُ

(63) وَٱلْجَمَادَاتُ أَفْصَحَتْ بِٱلَّذِي أُخْـ ... ـرِسَ عَنْهُ لِأَحْمَدَ ٱلْفُصَحَاءُ

(64) وَيْحَ قَوْمٍ جَفَوْا نَبِيّاً بِأَرْضٍ ... أَلِفَتْهُ ضِبَابُهَا وَٱلظِّبَاءُ

(65) وَسَلَوْهُ وَحَنَّ جِذْعٌ إِلَيْهِ ... وَقَلَوْهُ وَوَدَّهُ ٱلْغُرَبَاءُ

(66) أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وَآوَاهُ غَارٌ ... وَحَمَتْهُ حَمَامَةٌ وَرْقَاءُ

(67) وَكَفَتْهُ بِنَسْجِهَا عَنْكَبُوتٌ ... مَا كَفَتْهُ ٱلْحَمَامَةُ ٱلْحَصْدَاءُ

(68) وَٱخْتَفَىٰ مِنْهُمُ عَلَى قُرْبِ مَرْآ ... هُ وَمِنْ شِدَّةِ ٱلظُّهُورِ ٱلْخَفَاءُ

(69) وَنَحَا ٱلْمُصْطَفَى ٱلْمَدِينَةَ وَٱشْتَا ... قَتْ إِلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ ٱلْأَنْحَاءُ

(70) وَتَغَنَّتْ بِمَدْحِهِ ٱلْجِنُّ حَتَّىٰ ... أَطْرَبَ ٱلْإِنْسَ مِنْهُ ذَاكَ ٱلْغِنَاءُ

(71) وَٱقْتَفَىٰ إِثْرَهُ سُرَاقَةُ فَٱسْتَهْـ ... ـوَتْهُ فِي ٱلْأَرْضِ صَافِنٌ جَرْدَاءُ

(72) ثُمَّ نَادَاهُ بَعْدَ مَا سِيمَتِ ٱلْخَسْـ ... ـفَ وَقَدْ يُنْجِدُ ٱلْغَرِيقَ ٱلنِّدَاءُ

(73) فَطَوَى ٱلْأَرْضَ سَائِراً وَٱلسَّمَاوَا ... تُ ٱلْعُلَا فَوْقَهَا لَهُ إِسْرَاءُ

(74) فَصِفِ ٱللَّيْلَةَ ٱلَّتِي كَانَ لِلْمُخْـ ... ـتَارِ فِيهَا عَلَى ٱلْبُرَاقِ ٱسْتِوَاءُ

(75) وَتَرَقَّىٰ بِهِ إِلَىٰ قَابِ قَوْسَيْـ ... ـنِ وَتِلْكَ ٱلسَّعَادَةُ ٱلْقَعْسَاءُ

(76) رُتَبٌ تَسْقُطُ ٱلْأَمَانِيُّ حَسْرَىٰ ... دُونَهَا مَا وَرَاءَهُنَّ وَرَاءُ

ثُمَّ وَافَىٰ يُحَدِّثُ ٱلنَّاسَ شُكْراً ... إِذْ أَتَتْهُ مِنْ رَبِّهِ ٱلنَّعْمَاءُ (77)

وَتَحَدَّىٰ فَٱرْتَابَ كُلُّ مُرِيبٍ ... أَوَ يَبْقَىٰ مَعَ ٱلسُّيُولِ ٱلْغُثَاءُ (78)

وَهْوَ يَدْعُو إِلَى ٱلْإِلَـٰهِ وَإِنْ شَقَّ ... عَلَيْهِ كُفْرٌ بِهِ وَٱزْدِرَاءُ (79)

وَيَدُلُّ ٱلْوَرَى عَلَى ٱللهِ بِٱلتَّوْ ... حِيدِ وَهْوَ ٱلْمَحَجَّةُ ٱلْبَيْضَاءُ (80)

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لَانَتْ ... صَخْرَةٌ مِنْ إِبَائِهِمْ صَمَّاءُ (81)

وَٱسْتَجَابَتْ لَهُ بِنَصْرٍ وَفَتْحٍ ... بَعْدَ ذَاكَ ٱلْخَضْرَاءُ وَٱلْغَبْرَاءُ (82)

وَأَطَاعَتْ لِأَمْرِهِ ٱلْعَرَبُ ٱلْعَرْ ... بَاءُ وَٱلْجَاهِلِيَّةُ ٱلْجَهْلَاءُ (83)

وَتَوَالَتْ لِلْمُصْطَفَى ٱلْآيَةُ ٱلْكُبْـ ... ـرَىٰ عَلَيْهِمْ وَٱلْغَارَةُ ٱلشَّعْوَاءُ (84)

وَإِذَا مَا تَلَا كِتَاباً مِنَ ٱللهِ ... تَلَتْهُ كَتِيبَةٌ خَضْرَاءُ (85)

وَكَفَاهُ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ وَكَمْ سَا ... ءَ نَبِيّاً مِنْ قَوْمِهِ ٱسْتِهْزَاءُ (86)

وَرَمَاهُمْ بِدَعْوَةٍ مِنْ فِنَاءِ ٱلْـ ... ـبَيْتِ فِيهَا لِلظَّالِمِينَ فَنَاءُ (87)

خَمْسَةٌ كُلُّهُمْ أُصِيبُوا بِدَاءٍ ... وَٱلرَّدَىٰ مِنْ جُنُودِهِ ٱلْأَدْوَاءُ (88)

فَدَهَى ٱلْأَسْوَدَ بْنَ مُطَّلِبٍ أَيُّ ... عَمًى مَيِّتٌ بِهِ ٱلْأَحْيَاءُ (89)

وَدَهَى ٱلْأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ يَغُوثٍ ... أَنْ سَقَاهُ كَأْسَ ٱلرَّدَىٰ ٱسْتِسْقَاءُ (90)

وَأَصَابَ ٱلْوَلِيدَ خَدْشَةُ سَهْمٍ ... قَصَّرَتْ عَنْهَا ٱلْحَيَّةُ ٱلرَّقْطَاءُ (91)

وَقَضَتْ شَوْكَةٌ عَلَىٰ مُهْجَةِ ٱلْعَا ... صِي فَلِلّٰهِ ٱلنَّقْعَةُ ٱلشَّوْكَاءُ (92)

وَعَلَى ٱلْحَارِثِ ٱلْقُيُوحُ وَقَدْ سَا ... لَ بِهَا رَأْسُهُ وَسَاءَ ٱلْوِعَاءُ (93)

خَمْسَةٌ طُهِّرَتْ بِقَطْعِهِمُ ٱلْأَرْ ... ضُ فَكَفُّ ٱلْأَذَىٰ بِهِمْ شَلَّاءُ (94)

فُدِيَتْ خَمْسَةُ ٱلصَّحِيفَةِ بِٱلْخَمْـ ... ـسَةِ إِنْ كَانَ لِلْكِرَامِ فِدَاءُ (95)

(96) فِتْيَةٌ بَيَّتُوا عَلَىٰ فِعْلِ خَيْرٍ ... حَمِدَ ٱلصُّبْحُ أَمْرَهُ وَٱلْمَسَاءُ

(97) يَا لَأَمْرٍ أَتَاهُ بَعْدَ هِشَامٍ ... زَمْعَةٌ إِنَّهُ ٱلْفَتَى ٱلْأَتَّاءُ

(98) وَزُهَيْرٌ وَٱلْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ ... وَأَبُو ٱلْبَخْتَرِيِّ مِنْ حَيْثُ شَاؤُوا

(99) نَقَضُوا مُبْرَمَ ٱلصَّحِيفَةِ إِذْ شَدَّ ... تْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعِدَا ٱلْأَنْدَاءُ

(100) أَذْكَرَتْنَا بِأَكْلِهَا أَكْلَ مِنْسَا ... ةِ سُلَيْمَانَ ٱلْأَرْضَةُ ٱلْخَرْسَاءُ

(101) وَبِهَا أَخْبَرَ ٱلنَّبِيُّ وَكَمْ أَخْـ ... ـرَجَ خَبْءاً لَهُ ٱلْغُيُوبُ خِبَاءُ

(102) لَا تَخَلْ جَانِبَ ٱلنَّبِيِّ مُضَاماً ... حِينَ مَسَّتْهُ مِنْهُمُ ٱلْأَسْوَاءُ

(103) كُلُّ أَمْرٍ نَابَ ٱلنَّبِيِّينَ فَٱلشِّدَّ ... ةُ فِيهِ مَحْمُودَةٌ وَٱلرَّخَاءُ

(104) لَوْ يَمَسُّ ٱلنُّضَارَ هُونٌ مِنَ ٱلنَّا ... رِ لَمَا ٱخْتِيرَ لِلنُّضَارِ ٱلصِّلَاءُ

(105) كَمْ يَدٍ عَنْ نَبِيِّهِ كَفَّهَا ٱللهُ ... وَفِي ٱلْخَلْقِ كَثْرَةٌ وَٱجْتِرَاءُ

(106) إِذْ دَعَا وَحْدَهُ ٱلْعِبَادَ وَأَمْسَتْ ... مِنْهُ فِي كُلِّ مُقْلَةٍ أَقْذَاءُ

(107) هَمَّ قَوْمٌ بِقَتْلِهِ فَأَبَى ٱلسَّيْـ ... ـفُ وَفَاءً وَفَاءَتِ ٱلصَّفْوَاءُ

(108) وَأَبُو جَهْلٍ إِذْ رَأَىٰ عُنُقَ ٱلْفَحْـ ... ـلِ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ ٱلْعَنْقَاءُ

(109) وَٱقْتَضَاهُ ٱلنَّبِيُّ دَيْنَ ٱلْإِرَاشِيِّ ... وَقَدْ سَاءَ بَيْعُهُ وَٱلشِّرَاءُ

(110) وَرَأَى ٱلْمُصْطَفَىٰ أَتَاهُ بِمَا لَمْ ... يَنْجُ مِنْهُ دُونَ ٱلْوَفَا ٱلنَّجَاءُ

(111) هُوَ مَا قَدْ رَآهُ مِنْ قَبْلُ لَكِنْ ... مَا عَلَىٰ مِثْلِهِ يُعَدُّ ٱلْخَطَاءُ

(112) وَأَعَدَّتْ حَمَّالَةُ ٱلْحَطَبِ ٱلْفِهْـ ... ـرَ وَجَاءَتْ كَأَنَّهَا ٱلْوَرْقَاءُ

(113) يَوْمَ جَاءَتْ غَضْبَىٰ تَقُولُ أَفِي مِثْـ ... ـلِيَ مِنْ أَحْمَدٍ يُقَالُ ٱلْهِجَاءُ

(114) وَتَوَلَّتْ وَمَا رَأَتْهُ وَمِنْ أَيْـ ... ـنَ تَرَى ٱلشَّمْسَ مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ

ثُمَّ سَمَّتْ لَهُ ٱلْيَهُودِيَّةُ ٱلشَّا ... ةَ وَكَمْ سَامَ ٱلشِّقْوَةَ ٱلْأَشْقِيَاءُ (115)

فَأَذَاعَ ٱلذِّرَاعُ مَا فِيهِ مِنْ شَرٍّ ... بِنُطْقٍ إِخْفَاؤُهُ إِبْدَاءُ (116)

وَبِخُلْقٍ مِنَ ٱلنَّبِيِّ كَرِيمٍ ... لَمْ تُقَاصَصْ بِجَرْحِهَا ٱلْعَجْمَاءُ (117)

مَنَّ فَضْلاً عَلَىٰ هَوَازِنَ إِذْ كَا ... نَ لَهُ قَبْلَ ذَاكَ فِيهِمْ رَبَاءُ (118)

وَأَتَى ٱلسَّبْيُ فِيهِ أُخْتُ رَضَاعٍ ... وَضَعَ ٱلْكُفْرُ قَدْرَهَا وَٱلسِّبَاءُ (119)

فَحَبَاهَا بِرّاً تَوَهَّمَتِ ٱلنَّا ... سُ بِهِ أَنَّمَا ٱلسِّبَاءُ هِدَاءُ (120)

بَسَطَ ٱلْمُصْطَفَىٰ لَهَا مِنْ رِدَاءٍ ... أَيُّ فَضْلٍ حَوَاهُ ذَاكَ ٱلرِّدَاءُ (121)

فَغَدَتْ فِيهِ وَهْيَ سَيِّدَةُ ٱلنِّسْـ ... ـوَةِ وَٱلسَّيِّدَاتُ فِيهِ إِمَاءُ (122)

فَتَنَزَّهْ فِي ذَاتِهِ وَمَعَانِيـ ... ـهِ ٱسْتِمَاعاً إِنْ عَزَّ مِنْهَا ٱجْتِلَاءُ (123)

وَٱمْلَأِ ٱلسَّمْعَ مِنْ مَحَاسِنَ يُمْلِيـ ... ـهَا عَلَيْكَ ٱلْإِنْشَادُ وَٱلْإِنْشَاءُ (124)

كُلُّ وَصْفٍ لَهُ ٱبْتَدَأْتَ بِهِ ٱسْتَوْ ... عَبَ أَخْبَارَ ٱلْفَضْلِ مِنْهُ ٱبْتِدَاءُ (125)

سَيِّدٌ ضِحْكُهُ ٱلتَّبَسُّمُ وَٱلْمَشْـ ... ـيُ ٱلْهُوَيْنَا وَنَوْمُهُ ٱلْإِغْفَاءُ (126)

مَا سِوَىٰ خُلْقِهِ ٱلنَّسِيمُ وَلَا غَيْـ ... ـرَ مُحَيَّاهُ ٱلرَّوْضَةُ ٱلْغَنَّاءُ (127)

رَحْمَةٌ كُلُّهُ وَحَزْمٌ وَعَزْمٌ ... وَوَقَارٌ وَعِصْمَةٌ وَحَيَاءُ (128)

لَا تَحُلُّ ٱلْبَأْسَاءُ مِنْهُ عُرَى ٱلصَّبْـ ... ـرِ وَلَا تَسْتَخِفُّهُ ٱلسَّرَّاءُ (129)

كَرُمَتْ نَفْسُهُ فَمَا يَخْطُرُ ٱلسُّو ... ءُ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَلَا ٱلْفَحْشَاءُ (130)

عَظُمَتْ نِعْمَةُ ٱلْإِلَٰهِ عَلَيْهِ ... فَٱسْتُقِلَّتْ لِذِكْرِهِ ٱلْعُظَمَاءُ (131)

جَهِلَتْ قَوْمُهُ عَلَيْهِ فَأَغْضَىٰ ... وَأَخُو ٱلْحِلْمِ دَأْبُهُ ٱلْإِغْضَاءُ (132)

وَسِعَ ٱلْعَالَمِينَ عِلْماً وَحِلْماً ... فَهْوَ بَحْرٌ لَمْ تُعْيِهِ ٱلْأَعْبَاءُ (133)

(134) مُسْتَقِلٌّ دُنْيَاكَ أَنْ يُنْسَبَ ٱلْإِمْـ ... ـسَاكُ مِنْهَا إِلَيْهِ وَٱلْإِعْطَاءُ

(135) شَمْسُ فَضْلٍ تَحقَّقَ ٱلظَّنُّ فِيهِ ... أَنَّهُ ٱلشَّمْسُ رِفْعَةً وَٱلضِّيَاءُ

(136) فَإِذَا مَا ضَحَا مَحَا نُورُهُ ٱلظِّلَّ ... وَقَدْ أَثْبَتَ ٱلظِّلَالَ ٱلضُّحَاءُ

(137) فَكَأَنَّ ٱلْغَمَامَةَ ٱسْتَوْدَعَتْهُ ... مَنْ أَظَلَّتْ مِنْ ظِلِّهِ ٱلدُّفَفَاءُ

(138) خَفِيَتْ عِنْدَهُ ٱلْفَضَائِلُ وَٱنْجَا ... بَتْ بِهِ عَنْ عُقُولِنَا ٱلْأَهْوَاءُ

(139) أَمَعَ ٱلصُّبْحِ لِلنُّجُومِ تَجَلٍّ ... أَمْ مَعَ ٱلشَّمْسِ لِلظَّلَامِ بَقَاءُ

(140) مُعْجِزُ ٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعَالِ كَرِيمُ ٱلْـ ... ـخَلْقِ وَٱلْخُلْقِ مُقْسِطٌ مِعْطَاءُ

(141) لَا تَقِسْ بِٱلنَّبِيِّ فِي ٱلْفَضْلِ خَلْقاً ... فَهُوَ ٱلْبَحْرُ وَٱلْأَنَامُ إِضَاءُ

(142) كُلُّ فَضْلٍ فِي ٱلْعَالَمِينَ فَمِنْ فَضْـ ... ـلِ ٱلنَّبِيِّ ٱسْتَعَارَهُ ٱلْفُضَلَاءُ

(143) شُقَّ عَنْ صَدْرِهِ وَشُقَّ لَهُ ٱلْبَدْ ... رُ وَمِنْ شَرْطِ كُلِّ شَرْطٍ جَزَاءُ

(144) وَرَمَىٰ بِٱلْحَصَىٰ فَأَقْصَدَ جَيْشاً ... مَا ٱلْعَصَا عِنْدَهُ وَمَا ٱلْإِلْقَاءُ

(145) وَدَعَا لِلْأَنَامِ إِذْ دَهِمَتْهُمْ ... سَنَةٌ مِنْ مُحُولِهَا شَهْبَاءُ

(146) فَٱسْتَهَلَّتْ بِٱلْغَيْثِ سَبْعَةَ أَيَّا ... مٍ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ وَطْفَاءُ

(147) تَتَحَرَّىٰ مَوَاضِعَ ٱلرَّعْيِ وَٱلسَّقْـ ... ـيِ وَحَيْثُ ٱلْعِطَاشُ تُوهَى ٱلسِّقَاءُ

(148) وَأَتَى ٱلنَّاسُ يَشْتَكُونَ أَذَاهَا ... وَرَخَاءٌ يُؤْذِي ٱلْأَنَامَ غَلَاءُ

(149) فَدَعَا فَٱنْجَلَى ٱلْغَمَامُ فَقُلْ فِي ... وَصْفِ غَيْثٍ إِقْلَاعُهُ ٱسْتِسْقَاءُ

(150) ثُمَّ أَثْرَى ٱلثَّرَىٰ فَقَرَّتْ عُيُونٌ ... بِقُرَاهَا وَأُحْيِيَتْ أَحْيَاءُ

(151) فَتَرَى ٱلْأَرْضَ غِبَّهُ كَسَمَاءٍ ... أَشْرَقَتْ مِنْ نُجُومِهَا ٱلظَّلْمَاءُ

(152) تُخْجِلُ ٱلدُّرَّ وَٱلْيَوَاقِيتَ مِنْ نَوْ ... رِ رُبَاهَا ٱلْبَيْضَاءُ وَٱلْحَمْرَاءُ

153. لَيْتَهُ خَصَّنِي بِرُؤْيَةِ وَجْهٍ ... زَالَ عَنْ كُلِّ مَنْ رَآهُ ٱلشَّقَاءُ

154. مُسْفِرٍ يَلْتَقِي ٱلْكَتِيبَةَ بَسَّا ... ماً إِذَا أَسْهَمَ ٱلْوُجُوهَ ٱللِّقَاءُ

155. جُعِلَتْ مَسْجِداً لَهُ ٱلْأَرْضُ فَٱهْتَزَّ ... بِهِ لِلصَّلَاةِ فِيْهَا حِرَاءُ

156. مُظْهِرٍ شَجَّةَ ٱلْجَبِينِ عَلَى ٱلْبُرْ ... ءِ كَمَا أَظْهَرَ ٱلْهِلَالَ ٱلْبَرَاءُ

157. سُتِرَ ٱلْحُسْنُ مِنْهُ بِٱلْحُسْنِ فَٱعْجَبْ ... لِجَمَالٍ لَهُ ٱلْجَمَالُ وِقَاءُ

158. فَهْوَ كَٱلزَّهْرِ لَاحَ مِنْ سَجَفِ ٱلْأَكْـ ... ـمَامِ وَٱلْعُودِ شُقَّ عَنْهُ ٱللِّحَاءُ

159. كَادَ أَنْ يُغْشِيَ ٱلْعُيُونَ سَنَاً مِنْـ ... ـهُ لِسِرٍّ فِيهِ حَكَتْهُ ذُكَاءُ

160. صَانَهُ ٱلْحُسْنُ وَٱلسَّكِينَةُ أَنْ تُظْـ ... ـهِرَ فِيهِ آثَارَهَا ٱلْبَأْسَاءُ

161. وَتَخَالُ ٱلْوُجُوهَ إِنْ قَابَلَتْهُ ... أَلْبَسَتْهَا أَلْوَانَهَا ٱلْحِرْبَاءُ

162. فَإِذَا شِمْتَ بِشْرَهُ وَنَدَاهُ ... أَذْهَلَتْكَ ٱلْأَنْوَارُ وَٱلْأَنْوَاءُ

163. أَوْ بِتَقْبِيلِ رَاحَةٍ كَانَ لِلّٰهِ ... وَبِٱللهِ أَخْذُهَا وَٱلْعَطَاءُ

164. تَتَّقِي بَأْسَهَا ٱلْمُلُوكُ وَتَحْظَىٰ ... بِٱلْغِنَىٰ مِنْ نَوَالِهَا ٱلْفُقَرَاءُ

165. لَا تَسَلْ سَيْلَ جُودِهَا إِنَّمَا يَكْـ ... ـفِيكَ مِنْ وَكْفِ سُحْبِهَا ٱلْأَنْدَاءُ

166. دَرَّتِ ٱلشَّاةُ حِينَ مَرَّتْ عَلَيْهَا ... فَلَهَا ثَرْوَةٌ بِهَا وَنَمَاءُ

167. نَبَعَ ٱلْمَاءُ أَثْمَرَ ٱلنَّخْلُ فِي عَا ... مٍ بِهَا سَبَّحَتْ بِهَا ٱلْحَصْبَاءُ

168. أَحْيَتِ ٱلْمُرْمِلِينَ مِنْ مَوْتِ جَهْدٍ ... أَعْوَزَ ٱلْقَوْمَ فِيْهِ زَادٌ وَمَاءُ

169. فَتَغَدَّىٰ بِٱلصَّاعِ أَلْفٌ جِيَاعٌ ... وَتَرَوَّىٰ بِٱلصَّاعِ أَلْفٌ ظِمَاءُ

170. وَوَفَىٰ قَدْرُ بَيْضَةٍ مِنْ نُضَارٍ ... دَيْنَ سَلْمَانَ حِينَ حَانَ ٱلْوَفَاءُ

171. كَانَ يُدْعَىٰ قِنّاً فَأُعْتِقَ لَمَّا ... أَيْنَعَتْ مِنْ نَخِيلِهِ ٱلْأَقْنَاءُ

(172) أَفَــلَا تَعْــذِرُونَ سَلْمَــانَ لَمَّــا أَنْ عَــرَتْــهُ مِــنْ ذِكْــرِهِ ٱلْعُــرَوَاءُ

(173) وَأَزَالَــتْ بِلَمْسِهَــا كُــلَّ دَاءٍ أَكْبَــرَتْــهُ أَطِبَّــةٌ وَإِسَــاءُ

(174) وَعُيُــونٌ مَــرَّتْ بِهَــا وَهْــيَ رُمْــدٌ فَــأَرَتْهَــا مَــا لَــمْ تَــرَ ٱلــزَّرْقَــاءُ

(175) وَأَعَــادَتْ عَلَــىٰ قَتَــادَةَ عَيْنــاً فَهْــيَ حَتَّــىٰ مَمَــاتِــهِ ٱلنَّجْــلَاءُ

(176) أَوْ بِلَثْــمِ ٱلتُّــرَابِ مِــنْ قَــدَمٍ لَا نَــتْ حَيَاءً مِــنْ مَشْيِهَــا ٱلصَّفْــوَاءُ

(177) مَوْطِئِ ٱلْأَخْمُصِ ٱلَّذِي مِنْهُ لِلْقَلْــ ــبِ إِذَا مَضْجَعِــي أَقَــضَّ وِطَــاءُ

(178) حَظِيَ ٱلْمَسْجِــدُ ٱلْحَــرَامُ بِمَمْشَــا هَــا وَلَــمْ يَنْــسَ حَظَّــهُ إِيلِيَــاءُ

(179) وَرِمَــتْ إِذْ رَمَــىٰ بِهَــا ظُلَــمَ ٱللَّيْــ ــلِ إِلَــى ٱللهِ خَــوْفُــهُ وَٱلــرَّجَــاءُ

(180) دَمِيَــتْ فِــي ٱلْــوَغَىٰ لِتُكْسِــبَ طِيباً مَــا أَرَاقَــتْ مِــنَ ٱلــدَّمِ ٱلشُّهَــدَاءُ

(181) فَهْيَ قُطْبُ ٱلْمِحْرَابِ وَٱلْحَرْبِ كَمْ دَا رَتْ عَلَيْهَــا فِــي طَــاعَــةٍ أَرْحَــاءُ

(182) وَأَرَاهُ لَــوْ لَــمْ يُسَكِّــنْ بِهَــا قَبْــ ــلُ حِــرَاءً مَــاجَــتْ بِــهِ ٱلــدَّأْمَــاءُ

(183) عَجَبــاً لِلْكُفَّــارِ زَادُوا ضَــلَالاً بِــٱلَّــذِي فِيــهِ لِلْعُقُــوْلِ ٱهْتِــدَاءُ

(184) وَٱلَّــذِي يَسْــأَلُــونَ مِنْــهُ كِتَــابٌ مُنْــزَلٌ قَــدْ أَتَــاهُــمُ وَٱرْتِقَــاءُ

(185) أَوَلَــمْ يَكْفِهِــمْ مِــنَ ٱللهِ ذِكْــرٌ فِيــهِ لِلنَّــاسِ رَحْمَــةٌ وَشِفَــاءُ

(186) أَعْجَــزَ ٱلْإِنْــسَ آيَــةٌ مِنْــهُ وَٱلْجِــنَّ فَهَــلَّا يَــأْتِــي بِبَعْضِهَــا ٱلْبُلَغَــاءُ

(187) كُــلَّ يَــوْمٍ تُهْــدِي إِلَــىٰ سَامِعِيــهِ مُعْجِــزَاتٍ مِــنْ لَفْظِــهِ ٱلْقُــرَّاءُ

(188) تَتَحَلَّــىٰ بِــهِ ٱلْمَسَــامِــعُ وَٱلْأَفْــ ــوَاهُ فَهْــوَ ٱلْحُلِــيُّ وَٱلْحَلْــوَاءُ

(189) رَقَّ لَفْظــاً وَرَاقَ مَعْنَــىً فَجَــاءَتْ فِــي حُــلَاهَــا وَحَلْيِهَــا ٱلْخَنْسَــاءُ

(190) وَأَرَتْنَــا فِيــهِ غَــوَامِــضَ فَضْــلٍ رِقَّــةٌ مِــنْ زُلَالِــهِ وَصَفَــاءُ

إِنَّمَا تُجْتَلَى ٱلْوُجُوهُ إِذَا مَا | جُلِيَتْ عَنْ مِرْآتِهَا ٱلْأَصْدَاءُ (191)

سُوَرٌ مِنْهُ أَشْبَهَتْ صُوَراً مِنَّـ | ـا وَمِثْلُ ٱلنَّظَائِرِ ٱلنُّظَرَاءُ (192)

وَٱلْأَقَاوِيلُ عِنْدَهُمْ كَٱلتَّمَاثِيـ | ـلِ فَلَا يُوهِمَنَّكَ ٱلْخُطَبَاءُ (193)

كَمْ أَبَانَتْ آيَاتُهُ مِنْ عُلُومٍ | عَنْ حُرُوفٍ أَبَانَ عَنْهَا ٱلْهِجَاءُ (194)

فَهْيَ كَٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ أَعْجَبَ ٱلزُّرَّ | اعَ مِنْهَا سَنَابِلٌ وَزَكَاءُ (195)

فَأَطَالُوا فِيهِ ٱلتَّرَدُّدَ وَٱلرَّيْـ | ـبَ فَقَالُوا سِحْرٌ وَقَالُوا ٱفْتِرَاءُ (196)

وَإِذَا ٱلْبَيِّنَاتُ لَمْ تُغْنِ شَيْئاً | فَٱلْتِمَاسُ ٱلْهُدَىٰ بِهِنَّ عَنَاءُ (197)

وَإِذَا ضَلَّتِ ٱلْعُقُولُ عَلَىٰ عِلْـ | ـمٍ فَمَاذَا تَقُولُهُ ٱلنُّصَحَاءُ (198)

قَوْمَ عِيسَىٰ عَامَلْتُمُ قَوْمَ مُوسَىٰ | بِٱلَّذِي عَامَلَتْكُمُ ٱلْحُنَفَاءُ (199)

صَدَّقُوا كُتْبَكُمْ وَكَذَّبْتُمُ كُتْـ | ـبَهُمُ إِنَّ ذَا لَبِئْسَ ٱلْبَوَاءُ (200)

لَوْ جَحَدْنَا جُحُوْدَكُمْ لَاسْتَوَيْنَا | أَوَ لِلْحَقِّ بِٱلضَّلَالِ ٱسْتِوَاءُ (201)

مَا لَكُمْ إِخْوَةَ ٱلْكِتَابِ أُنَاساً | لَيْسَ يُرْعَىٰ لِلْحَقِّ مِنْكُمْ إِخَاءُ (202)

يَحْسُدُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْأَخِيرَ وَمَا زَا | لَ كَذَا ٱلْمُحْدَثُونَ وَٱلْقُدَمَاءُ (203)

قَدْ عَلِمْتُمْ بِظُلْمِ قَابِيلَ هَابِيـ | ـلَ وَمَظْلُومُ ٱلْإِخْوَةِ ٱلْأَتْقِيَاءُ (204)

وَسَمِعْتُمْ بِكَيْدِ أَبْنَاءِ يَعْقُو | بَ أَخَاهُمْ وَكُلُّهُمْ صُلَحَاءُ (205)

حِينَ أَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ جُبٍّ | وَرَمَوْهُ بِٱلْإِفْكِ وَهْوَ بَرَاءُ (206)

فَتَأَسَّوْا بِمَنْ مَضَىٰ إِذْ ظُلِمْتُمْ | فَٱلتَّأَسِّي لِلنَّفْسِ فِيهِ عَزَاءُ (207)

أَتُرَاكُمْ وَفَيْتُمُ حِينَ خَانُوا | أَمْ تُرَاكُمْ أَحْسَنْتُمُ إِذْ أَسَاؤُوا (208)

بَلْ تَمَادَتْ عَلَى ٱلتَّجَاهُلِ آبَا | ءٌ تَقَفَّتْ آثَارَهَا ٱلْأَبْنَاءُ (209)

210 بَيَّنَتْهُ تَوْرَاتُهُمْ وَٱلْأَنَاجِيـ ... ـلُ وَهُمْ فِي جُحُودِهِ شُرَكَاءُ

211 إِنْ تَقُولُوا مَا بَيَّنَتْهُ فَمَا زَا ... لَتْ بِهَا عَنْ عُيُونِهِمْ غِشْوَاءُ

212 أَوْ تَقُولُوا قَدْ بَيَّنَتْهُ فَمَا لِلْـ ... أُذْنِ عَمَّا تَقُولُهُ صَمَّاءُ

213 عَرَفُوهُ وَأَنْكَرُوهُ وَظُلْماً ... كَتَمَتْهُ ٱلشَّهَادَةَ ٱلشُّهَدَاءُ

214 أَوَ نُورُ ٱلْإِلَٰهِ تُطْفِئُهُ ٱلْأَفْـ ... ـوَاهُ وَهْوَ ٱلَّذِي بِهِ يُسْتَضَاءُ

215 أَوَلَا يُنْكِرُونَ مَنْ طَحَنَتْهُمْ ... بِرَحَاهَا عَنْ أَمْرِهِ ٱلْهَيْجَاءُ

216 وَكَسَاهُمْ ثَوْبَ ٱلصَّغَارِ وَقَدْ طُلَّـ ... ـتْ دِمَاءٌ مِنْهُمْ وَصِينَتْ دِمَاءُ

217 كَيْفَ يَهْدِي ٱلْإِلَٰهُ مِنْهُمْ قُلُوباً ... حَشْوُهَا مِنْ حَبِيبِهِ ٱلْبَغْضَاءُ

218 خَبِّرُونَا أَهْلَ ٱلْكِتَابَيْنِ مِنْ أَيْـ ... ـنَ أَتَاكُمْ تَثْلِيثُكُمْ وَٱلْبَدَاءُ

219 مَا أَتَىٰ بِٱلْعَقِيدَتَيْنِ كِتَابٌ ... وَٱعْتِقَادٌ لَا نَصَّ فِيهِ ٱدِّعَاءُ

220 وَٱلدَّعَاوَىٰ مَا لَمْ تُقِيمُوا عَلَيْهَا ... بَيِّنَاتٍ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءُ

221 لَيْتَ شِعْرِي ذِكْرُ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱلْوَا ... حِدِ نَقْصٌ فِي عَدِّكُمْ أَمْ نَمَاءُ

222 كَيْفَ وَحَّدْتُمُ إِلَٰهاً نَفَى ٱلتَّوْ ... حِيدَ عَنْهُ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَبْنَاءُ

223 أَإِلَٰهٌ مُرَكَّبٌ مَا سَمِعْنَا ... بِإِلَٰهٍ لِذَاتِهِ أَجْزَاءُ

224 أَلِكُلٍّ مِنْهُمْ نَصِيبٌ مِنَ ٱلْمُلْـ ... ـكِ فَهَلَّا تَمَيَّزُ ٱلْأَنْصِبَاءُ

225 أَتَرَاهُمْ لِحَاجَةٍ وَٱضْطِرَارٍ ... خَلَطُوهَا وَمَا بَغَى ٱلْخُلَطَاءُ

226 أَهُوَ ٱلرَّاكِبُ ٱلْحِمَارَ فَيَا عَجْـ ... ـزَ إِلَٰهٍ يَمَسُّهُ ٱلْإِعْيَاءُ

227 أَمْ جَمِيعٌ عَلَى ٱلْحِمَارِ لَقَدْ جَلَّ ... حِمَارٌ بِجَمْعِهِمْ مَشَّاءُ

228 أَمْ سِوَاهُمْ هُوَ ٱلْإِلَٰهُ فَمَا نِسْـ ... ـبَةُ عِيسَىٰ إِلَيْهِ وَٱلِٱنْتِمَاءُ

أَمْ أَرَدْتُمْ بِهَا ٱلصِّفَاتِ فَلِمْ خُصَّـ … ـتْ ثُلَاثٌ بِوَصْفِهِ وَثُنَاءُ (229)

أَمْ هُوَ ٱبْنٌ لِلّٰهِ مَا شَارَكَتْهُ … فِي مَعَانِي ٱلْبُنُوَّةِ ٱلْأَنْبِيَاءُ (230)

قَتَلَتْهُ ٱلْيَهُودُ فِيمَا زَعَمْتُمْ … وَلِأَمْوَاتِكُمْ بِهِ إِحْيَاءُ (231)

إِنَّ قَوْلاً أَطْلَقْتُمُوهُ عَلَى ٱللهِ … تَعَالَىٰ ذِكْراً لَقَوْلٌ هُرَاءُ (232)

مِثْلَ مَا قَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَكُلٌّ … لَزِمَتْهُ مَقَالَةٌ شَنْعَاءُ (233)

إِذْ هُمُ ٱسْتَقْرَؤُوْا ٱلْبَدَاءَ وَكَمْ سَا … قَ وَبَالاً إِلَيْهِمُ ٱسْتِقْرَاءُ (234)

وَأَرَاهُمْ لَمْ يَجْعَلُوا ٱلْوَاحِدَ ٱلْقَهَّـ … ـارَ فِي ٱلْخَلْقِ فَاعِلاً مَا يَشَاءُ (235)

جَوَّزُوا ٱلنَّسْخَ مِثْلَ مَا جُوِّزَ ٱلْمَسْـ … ـخُ عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ فُقَهَاءُ (236)

هُوَ إِلَّا أَنْ يُرْفَعَ ٱلْحُكْمُ بِٱلْحُكْـ … ـمِ وَخَلْقٌ فِيهِ وَأَمْرٌ سَوَاءُ (237)

وَلِحُكْمٍ مِنَ ٱلزَّمَانِ ٱنْتِهَاءٌ … وَلِحُكْمٍ مِنَ ٱلزَّمَانِ ٱبْتِدَاءُ (238)

فَسَلُوْهُمْ أَكَانَ فِي مَسْخِهِمْ نَسْـ … ـخٌ لِآيَاتِ ٱللهِ أَمْ إِنْشَاءُ (239)

وَبَدَاءٌ فِي قَوْلِهِمْ نَدِمَ ٱللهُ … عَلَىٰ خَلْقِ آدَمٍ أَمْ خَطَاءُ (240)

أَمْ مَحَا ٱللهُ آيَةَ ٱللَّيْلِ ذِكْراً … بَعْدَ سَهْوٍ لِيُوجَدَ ٱلْإِمْسَاءُ (241)

أَمْ بَدَا لِلْإِلَٰهِ فِي ذَبْحِ إِسْحَا … قَ وَقَدْ كَانَ ٱلْأَمْرُ فِيهِ مَضَاءُ (242)

أَوَمَا حَرَّمَ ٱلْإِلَٰهُ نِكَاحَ ٱلْـ … أُخْتِ بَعْدَ ٱلتَّحْلِيلِ فَهْوَ ٱلزِّنَاءُ (243)

لَا تُكَذِّبْ أَنَّ ٱلْيَهُودَ وَقَدْ زَا … غُوا عَنِ ٱلْحَقِّ مَعْشَرٌ لُؤَمَاءُ (244)

جَحَدُوا ٱلْمُصْطَفَىٰ وَآمَنَ بِٱلطَّا … غُوتِ قَوْمٌ هُمْ عِنْدَهُمْ شُرَفَاءُ (245)

قَتَلُوا ٱلْأَنْبِيَاءَ وَٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْـ … ـلَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ (246)

وَسَفِيهٌ مَنْ سَاءَهُ ٱلْمَنُّ وَٱلسَّلْـ … ـوَىٰ وَأَرْضَاهُ ٱلْفُومُ وَٱلْقِثَّاءُ (247)

(248) مُلِئَتْ بِٱلْخَبِيثِ مِنْهُمْ بُطُونٌ ... فَهْيَ نَارٌ طِبَاقُهَا ٱلْأَمْعَاءُ

(249) لَوْ أُرِيدُوا فِي حَالِ سَبْتٍ بِخَيْرٍ ... كَانَ سَبْتاً لَدَيْهِمُ ٱلْأَرْبِعَاءُ

(250) هُوَ يَوْمٌ مُبَارَكٌ قِيلَ لِلتَّصْـ ... ـرِيفِ فِيهِ مِنَ ٱلْيَهُودِ ٱعْتِدَاءُ

(251) فَبِظُلْمٍ مِنْهُمْ وَكُفْرٍ عَدَتْهُمْ ... طَيِّبَاتٌ فِي تَرْكِهِنَّ ٱبْتِلَاءُ

(252) خُدِعُوا بِٱلْمُنَافِقِينَ وَهَلْ يُنْـ ... ـفَقُ إِلَّا عَلَى ٱلسَّفِيهِ ٱلشَّقَاءُ

(253) وَٱطْمَأَنُّوا بِقَوْلِ ٱلْأَحْزَابِ إِخْوَا ... نِهِمُ إِنَّنَا لَكُمْ أَوْلِيَاءُ

(254) حَالَفُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ وَلَمْ أَدْ ... رِ لِمَاذَا تَخَالَفَ ٱلْحُلَفَاءُ

(255) أَسْلَمُوهُمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ لَا مِيـ ... ـعَادُهُمْ صَادِقٌ وَلَا ٱلْإِيلَاءُ

(256) سَكَنَ ٱلرُّعْبُ وَٱلْخَرَابُ قُلُوباً ... وَبُيُوتاً مِنْهُمْ نَعَاهَا ٱلْجَلَاءُ

(257) وَبِيَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ إِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْـ ... ـصَارُ فِيهِ وَضَلَّتِ ٱلْآرَاءُ

(258) وَتَعَدَّوْا إِلَى ٱلنَّبِيِّ حُدُوداً ... كَانَ فِيهَا عَلَيْهِمُ ٱلْعَدْوَاءُ

(259) وَنَهَتْهُمْ وَمَا ٱنْتَهَتْ عَنْهُ قَوْمٌ ... فَأُبِيدَ ٱلْأَمَّارُ وَٱلنَّهَّاءُ

(260) وَتَعَاطَوْا فِي أَحْمَدٍ مُنْكَرَ ٱلْقَوْ ... لِ وَنُطْقُ ٱلْأَرَاذِلِ ٱلْعَوْرَاءُ

(261) كُلُّ رِجْسٍ يَزِيدُهُ ٱلْخُلُقُ ٱلسُّو ... ءُ سَفَاهاً وَٱلْمِلَّةُ ٱلْعَوْجَاءُ

(262) فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْقَوْ ... مِ وَمَا سَاقَ لِلْبَذِيِّ ٱلْبَذَاءُ

(263) وَجَدَ ٱلسَّبَّ فِيهِ سَمّاً وَلَمْ يَدْ ... رِ إِذِ ٱلْمِيمُ فِي مَوَاضِعَ بَاءُ

(264) كَانَ مَنْ فِيهِ قَتْلُهُ بِيَدَيْهِ ... فَهْوَ فِي سُوءِ فِعْلِهِ ٱلزَّبَّاءُ

(265) أَوْ هُوَ ٱلنَّحْلُ قَرْصُهَا يَجْلِبُ ٱلْحَتْـ ... ـفَ إِلَيْهَا وَمَا لَهُ إِنْكَاءُ

(266) صَرَعَتْ قَوْمَهُ حَبَائِلُ بَغْيٍ ... مَدَّهَا ٱلْمَكْرُ مِنْهُمُ وَٱلدَّهَاءُ

فَأَتَتْهُمْ خَيْلٌ إِلَى ٱلْحَرْبِ تَخْتَا   لُ وَلِلْخَيْلِ فِي ٱلْوَغَىٰ خُيَلَاءُ (267)

قَصَدَتْ فِيهِمُ ٱلْقَنَا فَقَوَافِي ٱلطَّـ   ـعْنِ مِنْهَا مَا شَانَهَا ٱلْإِيْطَاءُ (268)

وَأَثَارَتْ بِأَرْضِ مَكَّةَ نَقْعاً   ظُنَّ أَنَّ ٱلْغُدُوَّ مِنْهَا عِشَاءُ (269)

أَحْجَمَتْ عِنْدَهُ ٱلْحَجُونُ وَأَكْدَىٰ   عِنْدَ إِعْطَائِهِ ٱلْقَلِيلَ كُدَاءُ (270)

وَدَهَتْ أَوْجُهاً بِهَا وَبُيُوتاً   مَلَّ مِنْهَا ٱلْإِكْفَاءُ وَٱلْإِقْوَاءُ (271)

فَدَعَوْا أَحْلَمَ ٱلْبَرِيَّةِ وَٱلْعَفْـ   ـوُ جَوَابُ ٱلْحَلِيمِ وَٱلْإِغْضَاءُ (272)

نَاشَدُوْهُ ٱلْقُرْبَى ٱلَّتِي مِنْ قُرَيْشٍ   قَطَعَتْهَا ٱلتِّرَاتُ وَٱلشَّحْنَاءُ (273)

فَعَفَا عَفْوَ قَادِرٍ لَمْ يُنَغِّصْـ   ـهُ عَلَيْهِمْ بِمَا مَضَىٰ إِغْرَاءُ (274)

وَإِذَا كَانَ ٱلْقَطْعُ وَٱلْوَصْلُ لِلّٰهِ   تَسَاوَى ٱلتَّقْرِيبُ وَٱلْإِقْصَاءُ (275)

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِ فِيمَا أَتَاهُ   مِنْ سِوَاهُ ٱلْمَلَامُ وَٱلْإِطْرَاءُ (276)

وَلَوَ ٱنَّ ٱنْتِقَامَهُ لِهَوَى ٱلنَّفْـ   ـسِ لَدَامَتْ قَطِيعَةٌ وَجَفَاءُ (277)

قَامَ لِلّٰهِ فِي ٱلْأُمُورِ فَأَرْضَى ٱللهَ   مِنْهُ تَبَايُنٌ وَوَفَاءُ (278)

فِعْلُهُ كُلُّهُ جَمِيلٌ وَهَلْ يَنْـ   ـضَحُ إِلَّا بِمَا حَوَاهُ ٱلْإِنَاءُ (279)

أَطْرَبَ ٱلسَّامِعِينَ ذِكْرُ عُلَاهُ   يَا لَرَاحٍ مَالَتْ بِهِ ٱلنُّدَمَاءُ (280)

أَلنَّبِيُّ ٱلْأُمِّيُّ أَعْلَمُ مَنْ أَسْـ   ـنَدَ عَنْهُ ٱلرُّوَاةُ وَٱلْحُكَمَاءُ (281)

وَعَدَتْنِي ٱزْدِيَارَهُ ٱلْعَامَ وَجْنَا   ءُ وَمَنَّتْ بِوَعْدِهَا ٱلْوَجْنَاءُ (282)

أَفَلَا أَنْطَوِي لَهَا فِي ٱقْتِضَائِيـ   ـهِ لِتُطْوَىٰ مَا بَيْنَنَا ٱلْأَفْلَاءُ (283)

بِأَلُوفِ ٱلْبَطْحَاءِ يُجْفِلُهَا ٱلنِّيـ   ـلُ وَقَدْ شَفَّ جَوْفَهَا ٱلْإِظْمَاءُ (284)

أَنْكَرَتْ مِصْرَ فَهْيَ تَنْفِرُ مَا لَا   حَ بِنَاءٌ لِعَيْنِهَا أَوْ خَلَاءُ (285)

(286) فَـأَفَضَّـتْ عَلَـىٰ مَبَـارِكِهَـا بِـرْ   كَتُهَـا فَـٱلْبُـوَيْـبُ فَـٱلْخَضْـرَاءُ

(287) فَـٱلْقِبَـابُ ٱلَّتِـي تَلِيهَـا فَبِئْـرُ ٱلنَّـ   ـخْلِ وَٱلـرَّكْـبُ قَـائِلُـونَ رِوَاءُ

(288) وَغَــدَتْ أَيْلَــةٌ وَحِقْــلٌ وَقَــرٌّ   خَلْفَهَــا فَــٱلْمَغَــارَةُ ٱلْفَيْحَــاءُ

(289) فَعُيُــونُ ٱلْأَقْصَــابِ يَتْبَعُهَــا ٱلنَّبْـ   ـكُ وَتَتْلُـو كُفَـافَـةَ ٱلْعَـوْجَـاءُ

(290) حَاوَرَتْهَا ٱلْحَوْرَاءُ شَوْقاً فَيَنْبُو   عُ فَــرَقَّ ٱلْيَنْبُــوعُ وَٱلْحَــوْرَاءُ

(291) لَاحَ بِـٱلـدَّهْنَـوَيْـنِ بَـدْرٌ لَهَـا بَعْـ   ـدَ حُنَيْـنٍ وَحَنَّـتِ ٱلصَّفْـرَاءُ

(292) وَنَضَـتْ بَـزْوَةٌ فَـرَابِـغُ فَـٱلْجُحْـ   ـفَـةُ عَنْهَـا مَـا حَـاكَـهُ ٱلْإِنْضَـاءُ

(293) وَأَرَتْهَــا ٱلْخَــلَاصَ بِئْــرُ عَلِــيٍّ   فَعُقَـابُ ٱلسُّـوَيْـقِ فَـٱلْخَلْصَـاءُ

(294) فَهْيَ مِنْ مَاءِ بِئْرِ عُسْفَانَ أَوْ مِنْ   بَطْــنِ مَــرٍّ ظَمْــآنَــةٌ خَمْصَــاءُ

(295) قَـرَّبَ ٱلـزَّاهِـرُ ٱلْمَسَـاجِـدَ مِنْهَـا   بِخُطَـاهَـا فَـٱلْبُـطْءُ مِنْهَـا وَحَـاءُ

(296) هَـٰـذِهِ عِــدَّةُ ٱلْمَنَــازِلِ لَا مَــا   عُــدَّ فِيــهِ ٱلسِّمَــاكُ وَٱلْعَــوَّاءُ

(297) فَكَـأَنِّـي بِهَـا أُرَحِّـلُ مِـنْ مَكَّـ   ـةَ شَمْسـاً سَمَـاؤُهَـا ٱلْبَيْـدَاءُ

(298) مَوْضِعُ ٱلْبَيْتِ مَهْبِطُ ٱلْوَحْيِ مَأْوَى ٱلرُّ   سْلِ حَيْثُ ٱلْأَنْوَارُ حَيْثُ ٱلْبَهَاءُ

(299) حَيْثُ فَرْضُ ٱلطَّوَافِ وَٱلسَّعْيُ وَٱلْحَلْـ   ـقُ وَرَمْـيُ ٱلْجِمَـارِ وَٱلْإِهْـدَاءُ

(300) حَبَّــذَا حَبَّــذَا مَعَــاهِــدُ مِنْهَــا   لَــمْ يُغَيِّــرْ آيَــاتِهِــنَّ ٱلْبَــلَاءُ

(301) حَــرَمٌ آمِــنٌ وَبَيْــتٌ حَــرَامٌ   وَمَقَــامٌ فِيــهِ ٱلْمُقَــامُ تَــلَاءُ

(302) فَقَضَيْنَــا بِهَــا مَنَـاسِـكَ لَا يُحْـ   ـمَـدُ إِلَّا فِـي فِعْلِهِـنَّ ٱلْقَضَـاءُ

(303) وَرَمَيْنَـا بِهَـا ٱلْفِجَـاجَ إِلَـىٰ طَيْـ   ـبَـةَ وَٱلسَّيْـرُ بِـٱلْمَطَـايَـا رِمَـاءُ

(304) فَأَصَبْنَا عَنْ قَوْسِهَا غَرَضَ ٱلْقُرْ   بِ وَنِعْــمَ ٱلْخَبِيئَــةُ ٱلْكَــوْمَــاءُ

فَرَأَيْنَا أَرْضَ ٱلْحَبِيبِ يَغُضُّ ٱلطَّـ ـــرْفَ مِنْهَـا ٱلضِّيَـاءُ وَٱلـلَّأْلَاءُ (305)

فَكَأَنَّ ٱلْبَيْدَاءَ مِنْ حَيْثُ مَا قَا بَلَـتِ ٱلْعَيْـنُ رَوْضَـةٌ غَنَّـاءُ (306)

وَكَـأَنَّ ٱلْبِقَـاعَ زُرَّتْ عَلَيْهَـا طَـرَفَيْهَـا مُـلَاءَةٌ حَمْـرَاءُ (307)

وَكَـأَنَّ ٱلْأَرْجَـاءَ تَنْشُـرُ نَشْـرَ ٱلْـ ـمِسْكِ فِيهَا ٱلْجَنُوبُ وَٱلْجِرْبِيَاءُ (308)

فَإِذَا شِمْـتَ أَوْ شَمَمْـتَ رُبَاهَـا لَاحَ مِنْهَـا بَـرْقٌ وَفَـاحَ كِبَـاءُ (309)

أَيَّ نُـورٍ وَأَيَّ نَـوْرٍ شَهِـدْنَـا يَـوْمَ أَبْـدَتْ لَنَـا ٱلْقِبَـابَ قُبَـاءُ (310)

قَرَّ مِنْهَا دَمْعِي وَفَرَّ ٱصْطِبَارِي فَدُمُوعِي سَيْلٌ وَصَبْرِي جُفَاءُ (311)

فَتَرَى ٱلرَّكْبَ طَائِرِينَ مِنَ ٱلشَّوْ قِ إِلَـىٰ طَيْبَـةٍ لَهُـمْ ضَـوْضَـاءُ (312)

فَكَـأَنَّ ٱلـزُّوَّارَ مَـا مَسَّـتِ ٱلْبَـأْ سَـاءُ مِنْهُـمْ خَلْقـاً وَلَا ٱلضَّـرَّاءُ (313)

كُـلُّ نَفْسٍ مِنْهَـا ٱبْتِهَـالٌ وَسُؤْلٌ وَدُعَـاءٌ وَرَغْبَـةٌ وَٱبْتِغَـاءُ (314)

وَزَفِيـرٌ تَظُـنُّ مِنْـهُ صُـدُوراً صَـادِحَـاتٍ يَعْتَـادُهُـنَّ زُقَـاءُ (315)

وَبُكَـاءٌ يُغْـرِيـهِ بِـٱلْعَيْـنِ مَـدٌّ وَنَحِيـبٌ يَحُثُّـهُ ٱسْتِعْـلَاءُ (316)

وَجُسُـومٌ كَـأَنَّمَـا رَحَضَتْهَـا مِنْ عَظِيمِ ٱلْمَهَابَةِ ٱلرُّحَضَاءُ (317)

وَوُجُـوهٌ كَـأَنَّمَـا أَلْبَسَتْهَـا مِـنْ حَيَـاءٍ أَلْـوَانَهَـا ٱلْحِرْبَـاءُ (318)

وَدُمُـوعٌ كَـأَنَّمَـا أَرْسَلَتْهَـا مِـنْ جُفُـونٍ سَحَـابَـةٌ وَطْفَـاءُ (319)

فَحَطَطْنَا ٱلرِّحَالَ حَيْثُ يُحَطُّ ٱلْـ ـوِزْرُ عَنَّـا وَتُـرْفَـعُ ٱلْحَـوْجَـاءُ (320)

وَقَـرَأْنَـا ٱلسَّـلَامَ أَكْرَمَ خَلْـقِ ٱللهِ مِـنْ حَيْـثُ يُسْمَـعُ ٱلْإِقْـرَاءُ (321)

وَذَهِلْنَـا عِنْـدَ ٱللِّقَـاءِ وَكَـمْ أَذْ هَـلَ صَبّـاً مِـنَ ٱلْحَبِيـبِ لِقَـاءُ (322)

وَوَجَمْنَـا مِـنَ ٱلْمَهَـابَـةِ حَتَّـىٰ لَا كَـلَامٌ مِنَّـا وَلَا إِيمَـاءُ (323)

(324) وَرَجَعْنَا وَلِلْقُلُوبِ ٱلْتِفَاتَا ... تٌ إِلَيْهِ وَلِلْجُسُومِ ٱنْثِنَاءُ

(325) وَسَمَحْنَا بِمَا نُحِبُّ وَقَدْ يَسْـ ... ـمَحُ عِنْدَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلْبُخَلَاءُ

(326) يَا أَبَا ٱلْقَاسِمِ ٱلَّذِي ضِمْنَ إِقْسَا ... مِي عَلَيْهِ مَدْحٌ لَهُ وَثَنَاءُ

(327) بِٱلْعُلُومِ ٱلَّتِي عَلَيْكَ مِنَ ٱللهِ ... بِلَا كَاتِبٍ لَهَا إِمْلَاءُ

(328) وَمَسِيرِ ٱلصَّبَا بِنَصْرِكَ شَهْراً ... فَكَأَنَّ ٱلصَّبَا لَدَيْكَ رُخَاءُ

(329) وَعَلِيٍّ لَمَّا تَفَلْتَ بِعَيْنَيْـ ... ـهِ وَكِلْتَاهُمَا مَعاً رَمْدَاءُ

(330) فَغَدَا نَاظِراً بِعَيْنَيْ عُقَابٍ ... فِي غَزَاةٍ لَهَا ٱلْعُقَابُ لِوَاءُ

(331) وَبِرَيْحَانَتَيْنِ طِيبُهُمَا مِنْـ ... ـكَ ٱلَّذِي أَوْدَعَتْهُمَا ٱلزَّهْرَاءُ

(332) كُنْتَ تُؤْوِيهِمَا إِلَيْكَ كَمَا آ ... وَتْ مِنَ ٱلْخَطِّ نُقْطَتَيْهَا ٱلْيَاءُ

(333) مِنْ شَهِيدَيْنِ لَيْسَ يُنْسِينِيَ ٱلطَّفُّ ... مُصَابَيْهِمَا وَلَا كَرْبَلَاءُ

(334) مَا رَعَىٰ فِيهِمَا ذِمَامَكَ مَرْؤُو ... سٌ وَقَدْ خَانَ عَهْدَكَ ٱلرُّؤَسَاءُ

(335) أَبْدَلُوا ٱلْوُدَّ وَٱلْحَفِيظَةَ فِي ٱلْقُرْ ... بَىٰ وَأَبْدَتْ ضِبَابَهَا ٱلنَّافِقَاءُ

(336) وَقَسَتْ مِنْهُمُ قُلُوبٌ عَلَىٰ مَنْ ... بَكَتِ ٱلْأَرْضُ فَقْدَهُمْ وَٱلسَّمَاءُ

(337) فَابْكِهِمْ مَا ٱسْتَطَعْتَ إِنَّ قَلِيلاً ... فِي عَظِيمٍ مِنَ ٱلْمُصَابِ ٱلْبُكَاءُ

(338) كُلُّ يَوْمٍ وَكُلُّ أَرْضٍ لِكَرْبِي ... مِنْهُمُ كَرْبَلَا وَعَاشُورَاءُ

(339) آلَ بَيْتِ ٱلنَّبِيِّ إِنَّ فُؤَادِي ... لَيْسَ يُسْلِيهِ عَنْكُمُ ٱلتَّأَسَاءُ

(340) غَيْرَ أَنِّي فَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى ٱللهِ ... وَتَفْوِيضِيَ ٱلْأُمُورَ بَرَاءُ

(341) رُبَّ يَوْمٍ بِكَرْبَلَاءَ مُسِيءٍ ... خَفَّفَتْ بَعْضَ وِزْرِهِ ٱلزَّوْرَاءُ

(342) وَٱلْأَعَادِي كَأَنَّ كُلَّ طَرِيحٍ ... مِنْهُمُ ٱلزِّقُّ حُلَّ عَنْهُ ٱلْوِكَاءُ

آلَ بَيْتِ ٱلنَّبِيِّ طِبْتُمْ فَطَابَ ٱلْـ ـمَدْحُ لِي فِيكُمُ وَطَابَ ٱلرِّثَاءُ (343)

أَنَا حَسَّانُ مَدْحِكُمْ فَإِذَا نُحْـ ـتُ عَلَيْكُمْ فَإِنَّنِي ٱلْخَنْسَاءُ (344)

سُدْتُمُ ٱلنَّاسَ بِٱلتُّقَىٰ وَسِوَاكُمْ سَوَّدَتْهُ ٱلْبَيْضَاءُ وَٱلصَّفْرَاءُ (345)

وَبِأَصْحَابِكَ ٱلَّذِينَ هُمُ بَعْـ ـدَكَ فِينَا ٱلْهُدَاةُ وَٱلْأَوْصِيَاءُ (346)

أَحْسَنُوا بَعْدَكَ ٱلْخِلَافَةَ فِي ٱلدِّيـ ـنِ وَكُلٌّ لِمَا تَوَلَّىٰ إِزَاءُ (347)

أَغْنِيَاءٌ نَزَاهَةً فُقَرَاءٌ عُلَمَاءٌ أَئِمَّةٌ أُمَرَاءُ (348)

زَهِدُوا فِي ٱلدُّنَا فَمَا عُرِفَ ٱلْمَيْـ ـلُ إِلَيْهَا مِنْهُمْ وَلَا ٱلرَّغْبَاءُ (349)

أَرْخَصُوا فِي ٱلْوَغَىٰ نُفُوسَ مُلُوكٍ حَارَبُوهَا أَسْلَابُهَا إِغْلَاءُ (350)

كُلُّهُمْ فِي أَحْكَامِهِ ذُو ٱجْتِهَادٍ وَصَوَابٍ وَكُلُّهُمْ أَكْفَاءُ (351)

رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمُ وَرَضُوا عَنْـ ـهُ فَأَنَّىٰ يَخْطُو إِلَيْهِمْ خَطَاءُ (352)

جَاءَ قَوْمٌ مِنْ بَعْدِ قَوْمٍ بِحَقٍّ وَعَلَى ٱلْمَنْهَجِ ٱلْحَنِيفِيِّ جَاؤُوا (353)

مَا لِمُوسَىٰ وَلَا لِعِيسَىٰ حَوَارِيُّـ ـونَ فِي فَضْلِهِمْ وَلَا نُقَبَاءُ (354)

بِأَبِي بَكْرٍ ٱلَّذِي صَحَّ لِلنَّا سِ بِهِ فِي حَيَاتِكَ ٱلْإِقْتِدَاءُ (355)

وَٱلْمُهَدِّي يَوْمَ ٱلسَّقِيفَةِ لَمَّا أَرْجَفَ ٱلنَّاسُ إِنَّهُ ٱلدَّأْدَاءُ (356)

أَنْقَذَ ٱلدِّينَ بَعْدَ مَا كَانَ لِلدِّيـ ـنِ عَلَىٰ كُلِّ كُرْبَةٍ إِشْفَاءُ (357)

أَنْفَقَ ٱلْمَالَ فِي رِضَاكَ وَلَا مَنٌّ وَأَعْطَىٰ جَمّاً وَلَا إِكْدَاءُ (358)

وَأَبِي حَفْصٍ ٱلَّذِي أَظْهَرَ ٱللهُ بِهِ ٱلدِّينَ فَٱرْعَوَى ٱلرُّقَبَاءُ (359)

وَٱلَّذِي تَقْرُبُ ٱلْأَبَاعِدُ فِي ٱللهِ إِلَيْهِ وَتَبْعُدُ ٱلْقُرَبَاءُ (360)

عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ مَنْ قَوْلُهُ ٱلْفَصْـ ـلُ وَمَنْ حُكْمُهُ ٱلسَّوِيُّ ٱلسَّوَاءُ (361)

362 فَـرَّ مِنْـهُ ٱلشَّيْطَانُ إِذْ كَـانَ فَـارُو — قـاً فَلِلنَّـارِ مِـنْ سَنَـاهُ ٱنْبِـرَاءُ

363 وَٱبْنِ عَفَّانَ ذِي ٱلْأَيَادِي ٱلَّتِي طَا — لَ إِلَـى ٱلْمُصْطَفَـى بِهَـا ٱلْإِسْدَاءُ

364 حَفَرَ ٱلْبِئْرَ جَهَّزَ ٱلْجَيْشَ أَهْدَى ٱلْـ — ـهَـدْيَ لَمَّـا أَنْ صَـدَّهُ ٱلْأَعْـدَاءُ

365 وَأَبَىٰ أَنْ يَطُوفَ بِـٱلْبَيْتِ إِذْ لَـمْ — يَـدْنُ مِنْـهُ إِلَـى ٱلنَّبِـيِّ فِنَـاءُ

366 فَجَـزَتْـهُ عَنْهَـا بِبَيْعَـةِ رِضْـوَا — نٍ يَــدٌ مِــنْ نَبِيِّــهِ بَيْضَــاءُ

367 أَدَبٌ عِنْـدَهُ تَضَـاعَفَـتِ ٱلْأَعْـ — ـمَـالُ بِـٱلتَّـرْكِ حَبَّـذَا ٱلْأُدَبَـاءُ

368 وَعَلِـيٍّ صِنْـوِ ٱلنَّبِـيِّ وَمَـنْ دِيـ — ـنُ فُـؤَادِي وِدَادُهُ وَٱلْـوَلَاءُ

369 وَوَزِيـرِ ٱبْـنِ عَمِّـهِ فِي ٱلْمَعَـالِي — وَمِـنَ ٱلْأَهْـلِ تَسْعَـدُ ٱلْـوُزَرَاءُ

370 لَـمْ يَـزِدْهُ كَشْـفُ ٱلْغِطَـاءِ يَقِينـاً — بَلْ هُوَ ٱلشَّمْسُ مَا عَلَيْهِ غِطَاءُ

371 وَبِبَاقِي أَصْحَابِكَ ٱلْمُظْهِرِ ٱلتَّرْ — تِيـبَ فِينَـا تَفْضِيلُهُـمْ وَٱلْـوَلَاءُ

372 طَلْحَـةِ ٱلْخَيْـرِ ٱلْمُـرْتَضِيـهِ رَفِيقـاً — وَاحِـداً يَـوْمَ فَـرَّتِ ٱلـرُّفَقَـاءُ

373 وَحَـوَارِيِّـكَ ٱلـزُّبَيْـرِ أَبِـي ٱلْقَـرْ — مِ ٱلَّـذِي أَنْجَبَـتْ بِـهِ أَسْمَـاءُ

374 وَٱلصَّفِيَّيْـنِ تَـوْأَمِ ٱلْفَضْـلِ سَعْـدٍ — وَسَعِيـدٍ إِنْ عُـدَّتِ ٱلْأَصْفِيَـاءُ

375 وَٱبْنِ عَوْفٍ مَنْ هَوَّنَتْ نَفْسُهُ ٱلدُّنْـ — ـيَـا بِبَـذْلٍ يُمِـدُّهُ إِثْـرَاءُ

376 وَٱلْمُكَنَّـىٰ أَبَـا عُبَيْـدَةَ إِذْ يَعْـ — ـزِي إِلَيْـهِ ٱلْأَمَـانَـةَ ٱلْأُمَنَـاءُ

377 وَبِعَمَّيْـكَ نَيِّـرَيْ فَلَـكِ ٱلْمَجْـ — ـدِ وَكُـلٌّ أَتَـاهُ مِنْـكَ إِتَـاءُ

378 وَبِـأُمِّ ٱلسِّبْطَيْـنِ زَوْجِ عَلِـيٍّ — وَبَنِيهَـا وَمَـنْ حَـوَتْـهُ ٱلْعَبَـاءُ

379 وَبِـأَزْوَاجِـكَ ٱللَّـوَاتِـي تَشَـرَّفْـ — ـنَ بِـأَنْ صَـانَهُـنَّ مِنْكَ بِنَاءُ

380 أَلْأَمَـانَ ٱلْأَمَـانَ إِنَّ فُـؤَادِي — مِـنْ ذُنُـوبٍ أَتَيْتُهُـنَّ هَـوَاءُ

قَدْ تَمَسَّكْتُ مِنْ وِدَادِكَ بِٱلْحَبْـ ـلِ ٱلَّذِي ٱسْتَمْسَكَتْ بِهِ ٱلشُّفَعَاءُ (381)

وَأَبَـى ٱللهُ أَنْ يَمَسَّنِـيَ ٱلسُّـو ءُ بِحَـالٍ وَلِـي إِلَيْـكَ ٱلْتِجَـاءُ (382)

قَـدْ رَجَـوْنَـاكَ لِـلْأُمُـوْرِ ٱلَّتِي أَبْـ ـرَدُهَـا فِـي فُـؤَادِنَـا رَمْضَـاءُ (383)

وَأَتَيْنَـا إِلَيْـكَ أَنْضَـاءَ فَقْـرٍ حَمَلَتْنَـا إِلَـى ٱلْغِنَـىٰ أَنْضَـاءُ (384)

وَٱنْطَوَتْ فِي ٱلصُّدُورِ حَاجَاتُ نَفْسٍ مَا لَهَا عَنْ نَدَىٰ يَدَيْكَ ٱنْطِوَاءُ (385)

فَأَغِثْنَا يَا مَنْ هُوَ ٱلْغَوْثُ وَٱلْغَيْـ ـثُ إِذَا أَجْهَـدَ ٱلْـوَرَى ٱلـلَّأْوَاءُ (386)

وَٱلْجَـوَادُ ٱلَّـذِي بِـهِ تُفْرَجُ ٱلْغُمَّـ ـةُ عَنَّـا وَتُكْشَـفُ ٱلْحَـوْبَـاءُ (387)

يَـا رَحِيمـاً بِـٱلْمُـؤْمِنِيـنَ إِذَا مَـا ذَهِلَـتْ عَـنْ أَبْنَـائِهَـا ٱلـرُّحَمَـاءُ (388)

يَا شَفِيعاً فِي ٱلْمُذْنِبِينَ إِذَا أَشْـ ـفَـقَ مِـنْ خَـوْفِ ذَنْبِـهِ ٱلْبُـرَآءُ (389)

جُدْ لِعَاصٍ وَمَا سِوَايَ هُوَ ٱلْعَا صِـي وَلَٰكِـنْ تَنَكُّـرِي ٱسْتِحْيَـاءُ (390)

وَتَـدَارَكْـهُ بِـٱلْعِنَـايَـةِ مَـا دَا مَ لَـهُ بِـٱلـذِّمَـامِ مِنْـكَ ذَمَـاءُ (391)

أَخَّـرَتْـهُ ٱلْأَعْمَـالُ وَٱلْمَـالُ عَمَّـا قَـدَّمَ ٱلصَّـالِحُـونَ وَٱلْأَغْنِيَـاءُ (392)

كُـلَّ يَـوْمٍ ذُنُـوبُـهُ صَـاعِـدَاتٌ وَعَلَيْهَـا أَنْفَـاسُـهُ صُعَـدَاءُ (393)

أَلِـفَ ٱلْبِطْنَـةَ ٱلْمُبَطِّئَـةَ ٱلسَّيْـ ـرِ بِـدَارٍ بِهَـا ٱلْبِطَـانُ بِطَـاءُ (394)

فَبَكَـىٰ ذَنْبَـهُ بِقَسْـوَةِ قَلْـبٍ نَهَـتِ ٱلـدَّمْـعَ فَـٱلْبُكَـاءُ مُكَـاءُ (395)

وَغَـدَا يَعْتِـبُ ٱلْقَضَـاءَ وَلَا عُـذْ رَ لِعَـاصٍ فِيمَـا يَسُـوقُ ٱلْقَضَـاءُ (396)

أَوْثَقَتْـهُ مِـنَ ٱلـذُّنُـوبِ دُيُـونٌ شَدَّدَتْ فِي ٱقْتِضَائِهَا ٱلْغُرَمَاءُ (397)

مَـا لَـهُ حِيلَـةٌ سِوَىٰ حِيلَـةِ ٱلْمُـو ثَـقِ إِمَّـا تَـوَسُّـلٌ أَوْ دُعَـاءُ (398)

رَاجِيـاً أَنْ تَعُـودَ أَعْمَـالُـهُ ٱلسُّـو ءُ بِغُفْـرَانِ ٱللهِ وَهْـيَ هَبَـاءُ (399)

400. أَوْ تُـرَىٰ سَيِّئَـاتُـهُ حَسَنَـاتٍ ... فَيُقَـالُ ٱسْتَحَـالَـتِ ٱلصَّهْبَـاءُ
401. كُـلُّ أَمْرٍ تَعْنِي بِهِ تُقْلَبُ ٱلأَعْـ ... ـيَـانُ فِيـهِ وَتَعْجَـبُ ٱلْبُصَـرَاءُ
402. رُبَّ عَيْنٍ تَفَلْتَ فِي مَائِهَا ٱلْمِلْـ ... ـحِ فَأَضْحَىٰ وَهْوَ ٱلْفُرَاتُ ٱلرَّوَاءُ
403. آهِ مِمَّـا جَنَيْـتُ إِنْ كَـانَ يُغْنِـي ... أَلِـفٌ مِـنْ عَظِيـمِ ذَنْـبٍ وَهَـاءُ
404. أَرْتَجِي ٱلتَّوْبَةَ ٱلنَّصُوحَ وَفِي ٱلْقَلْـ ... ـبِ نِفَـاقٌ وَفِـي ٱللِّسَـانِ رِيَـاءُ
405. وَمَتَـىٰ يَسْتَقِيـمُ قَلْبِـي وَلِلْجِسْـ ... ـمِ ٱعْوِجَاجٌ مِنْ كِبْرَتِي وَٱنْحِنَاءُ
406. كُنْتُ فِي نَوْمَةِ ٱلشَّبَابِ فَمَا ٱسْتَيْـ ... ـقَظْـتُ إِلَّا وَلِمَّتِـي شَمْطَـاءُ
407. وَتَمَـادَيْـتُ أَقْتَفِـي أَثَـرَ ٱلْقَـوْ ... مِ فَطَـالَـتْ مَسَـافَـةٌ وَٱقْتِفَـاءُ
408. فَـوَرَا ٱلسَّـائِرِيـنَ وَهْـوَ أَمَـامِـي ... سُبُـلٌ وَعْـرَةٌ وَأَرْضٌ عَـرَاءُ
409. حَمِدَ ٱلْمُدْلِجُونَ غِبَّ سُرَاهُمْ ... وَكَفَـىٰ مَـنْ تَخَلَّـفَ ٱلإِبْطَـاءُ
410. رِحْلَـةٌ لَـمْ يَـزَلْ يُفَنِّـدُنِـي ٱلصَّيْـ ... ـفُ إِذَا مَـا نَـوَيْتُهَـا وَٱلشِّتَـاءُ
411. يَتَّقِـي حَـرَّ وَجْهِـيَ ٱلْحَرَّ وَٱلْبَرْ ... دَ وَقَـدْ عَـزَّ مِـنْ لَظَـىٰ ٱلاتِّقَـاءُ
412. ضِقْتُ ذَرْعاً مِمَّا جَنَيْتُ فَيَوْمِي ... قَمْطَـرِيـرٌ وَلَيْلَتِـي دَرْعَـاءُ
413. وَتَـذَكَّـرْتُ رَحْمَـةَ ٱللهِ فَـٱلْبِشْـ ... ـرُ لِـوَجْهِـي أَنَّـى ٱنْتَحَىٰ تِلْقَـاءُ
414. فَـأَلَـحَّ ٱلـرَّجَـاءُ وَٱلْخَـوْفُ بِـٱلْقَلْـ ... ـبِ وَلِلْخَـوْفِ وَٱلـرَّجَـا إِحْفَـاءُ
415. صَاحِ لَا تَأْسَ إِنْ ضَعُفْتَ عَنِ ٱلطَّا ... عَـةِ وَٱسْتَـأْثَـرَتْ بِهَـا ٱلأَقْـوِيَـاءُ
416. إِنَّ لِلهِ رَحْمَـةً وَأَحَـقُّ ٱلنَّـ ... ـاسِ مِنْـهُ بِـٱلـرَّحْمَـةِ ٱلضُّعَفَـاءُ
417. فَٱبْقَ فِي ٱلْعُرْجِ عِنْدَ مُنْقَلَبِ ٱلذَّوْ ... دِ فَفِـي ٱلْعَـوْدِ تَسْبِـقُ ٱلْعَـرْجَـاءُ
418. لَا تَقُـلْ حَـاسِـداً لِغَيْـرِكَ هَـٰذَا ... أَثْمَـرَتْ نَخْلُـهُ وَنَخْلِـي عِفَـاءُ

وَأْتِ بِٱلْمُسْتَطَاعِ مِنْ عَمَلِ ٱلْبِرِّ ... فَقَدْ يُسْقِطُ ٱلثِّمَارَ ٱلْإِتَاءُ (419)

وَبِحُبِّ ٱلنَّبِيِّ فَٱبْغِ رِضَا ٱللهِ ... فَفِي حُبِّهِ ٱلرِّضَا وَٱلْحِبَاءُ (420)

يَا نَبِيَّ ٱلْهُدَى ٱسْتِغَاثَةُ مَلْهُو ... فٍ أَضَرَّتْ بِحَالِهِ ٱلْحَوْبَاءُ (421)

يَدَّعِي ٱلْحُبَّ وَهْوَ يَأْمُرُ بِٱلسُّو ... ءِ وَمَنْ لِي أَنْ تَصْدُقَ ٱلرَّغْبَاءُ (422)

أَيُّ حُبٍّ يَصِحُّ مِنْهُ وَطَرْفِي ... لِلْكَرَىٰ وَاصِلٌ وَطَيْفُكَ رَاءُ (423)

لَيْتَ شِعْرِي أَذَاكَ مِنْ عُظْمِ ذَنْبٍ ... أَمْ حُظُوظُ ٱلْمُتَيَّمِينَ حِظَاءُ (424)

إِنْ يَكُنْ عُظْمُ زَلَّتِي حَجْبَ رُؤْيَا ... كَ فَقَدْ عَزَّ دَاءَ قَلْبِي ٱلدَّوَاءُ (425)

كَيْفَ يَصْدَا بِٱلذَّنْبِ قَلْبُ مُحِبٍّ ... وَلَهُ ذِكْرُكَ ٱلْجَمِيلُ جِلَاءُ (426)

هَٰذِهِ عِلَّتِي وَأَنْتَ طَبِيبِي ... لَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْكَ فِي ٱلْقَلْبِ دَاءُ (427)

وَمِنَ ٱلْفَوْزِ أَنْ أَبُثَّكَ شَكْوَىً ... هِيَ شَكْوَىً إِلَيْكَ وَهْيَ ٱقْتِضَاءُ (428)

ضُمِّنَتْهَا مَدَائِحٌ مُسْتَطَابٌ ... فِيكَ مِنْهَا ٱلْمَدِيحُ وَٱلْإِصْغَاءُ (429)

قَلَّ مَا حَاوَلَتْ مَدِيحَكَ إِلَّا ... سَاعَدَتْهَا مِيمٌ وَدَالٌ وَحَاءُ (430)

حَقَّ لِي فِيكَ أَنْ أُسَاجِلَ قَوْماً ... سَلَّمَتْ مِنْهُمُ لِدَلْوِي ٱلدِّلَاءُ (431)

إِنَّ لِي غَيْرَةً وَقَدْ زَاحَمَتْنِي ... فِي مَعَانِي مَدِيحِكَ ٱلشُّعَرَاءُ (432)

وَلِقَلْبِي فِيكَ ٱلْغُلُوُّ وَأَنَّىٰ ... لِلِسَانِي فِي مَدْحِكَ ٱلْغُلَوَاءُ (433)

فَأَثِبْ خَاطِراً يَلَذُّ لَهُ مَدْ ... حُكَ عِلْماً بِأَنَّهُ ٱللَّأْلَاءُ (434)

حَاكَ مِنْ صَنْعَةِ ٱلْقَرِيضِ بُرُوداً ... لَكَ لَمْ تَحْكِ وَشْيَهَا صَنْعَاءُ (435)

أَعْجَزَ ٱلدُّرَّ نَظْمُهُ فَٱسْتَوَتْ فِيـ ... ـهِ ٱلْيَدَانِ ٱلصَّنَّاعُ وَٱلْخَرْقَاءُ (436)

فَٱرْضَهُ أَفْصَحَ ٱمْرِئٍ نَطَقَ ٱلضَّا ... دَ فَقَامَتْ تَغَارُ مِنْهَا ٱلظَّاءُ (437)

(438) أَبِذِكْرِ ٱلْآيَاتِ أُوفِيكَ مَدْحاً ... أَيْنَ مِنِّي وَأَيْنَ مِنْهَا ٱلْوَفَاءُ

(439) أَمْ أُمَارِي بِهِنَّ قَوْمَ نَبِيٍّ ... سَاءَ مَا ظَنَّهُ بِيَ ٱلْأَغْبِيَاءُ

(440) وَلَكَ ٱلْأُمَّةُ ٱلَّتِي غَبَطَتْهَا ... بِكَ لَمَّا أَتَيْتَهَا ٱلْأَنْبِيَاءُ

(441) لَمْ تَخَفْ بَعْدَكَ ٱلضَّلَالَ وَفِيهَا ... وَارِثُو نُورِ هَدْيِكَ ٱلْعُلَمَاءُ

(442) فَٱنْقَضَتْ آيُ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَآيَا ... تُكَ فِي ٱلنَّاسِ مَا لَهُنَّ ٱنْقِضَاءُ

(443) وَٱلْكَرَامَاتُ مِنْهُمُ مُعْجِزَاتٌ ... حَازَهَا مِنْ نَوَالِكَ ٱلْأَوْلِيَاءُ

(444) إِنَّ مِنْ مُعْجِزَاتِكَ ٱلْعَجْزَ عَنْ وَصْـ ... ـفِكَ إِذْ لَا يَحُدُّهُ ٱلْإِحْصَاءُ

(445) كَيْفَ يَسْتَوْعِبُ ٱلْكَلَامُ سَجَايَا ... كَ وَهَلْ تَنْزَحُ ٱلْبِحَارَ ٱلرِّكَاءُ

(446) لَيْسَ مِنْ غَايَةٍ لِوَصْفِكَ أَبْغِيـ ... ـهَا وَلِلْقَوْلِ غَايَةٌ وَٱنْتِهَاءُ

(447) إِنَّمَا فَضْلُكَ ٱلزَّمَانُ وَآيَا ... تُكَ فِيمَا نَعُدُّهُ ٱلْآنَاءُ

(448) لَمْ أُطِلْ فِي تَعْدَادِ مَدْحِكَ نُطْقِي ... وَمُرَادِي بِذَٰلِكَ ٱسْتِقْصَاءُ

(449) غَيْرَ أَنِّي ظَمْآنُ وَجْدٍ وَمَا لِي ... بِقَلِيلٍ مِنَ ٱلْوُرُودِ ٱرْتِوَاءُ

(450) فَسَلَامٌ عَلَيْكَ تَتْرَىٰ مِنَ ٱللهِ ... وَتَبْقَىٰ بِهِ لَكَ ٱلْبَأْوَاءُ

(451) وَسَلَامٌ عَلَيْكَ مِنْكَ فَمَا غَيْـ ... ـرُكَ مِنْهُ لَكَ ٱلسَّلَامُ كِفَاءُ

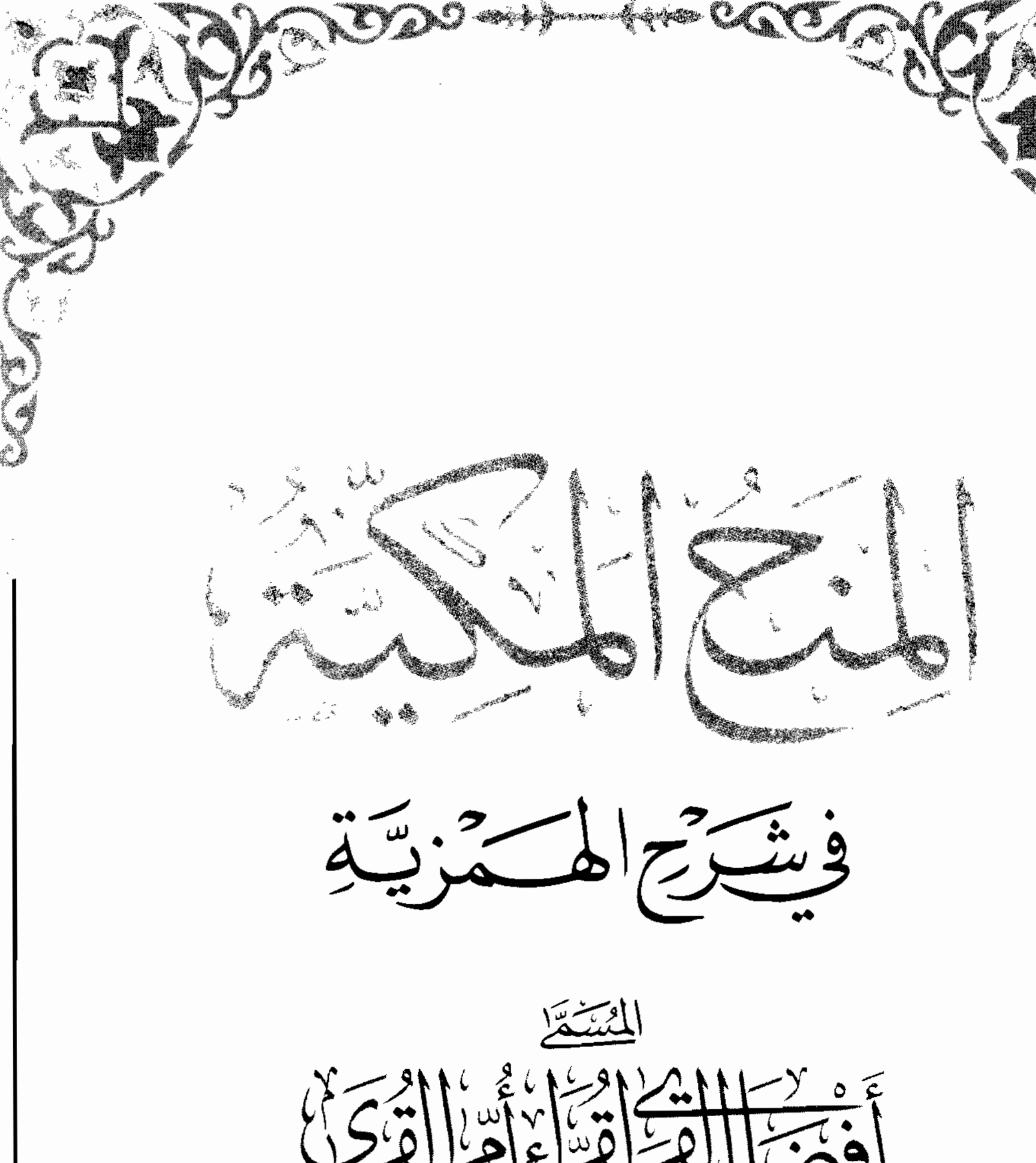
(452) وَسَلَامٌ مِنْ كُلِّ مَا خَلَقَ ٱللهُ ... لِتَحْيَا بِذِكْرِكَ ٱلْأَمْلَاءُ

(453) وَصَلَاةٌ كَٱلْمِسْكِ تَحْمِلُهُ مِنِّـ ... ـي شَمَالٌ إِلَيْكَ أَوْ نَكْبَاءُ

(454) وَسَلَامٌ عَلَىٰ ضَرِيحِكَ تَخْضَلُّ ... بِهِ مِنْهُ تُرْبَةٌ وَعْسَاءُ

(455) وَثَنَاءٌ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْ نَجْـ ... ـوَايَ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ ثَرَاءُ

(456) مَا أَقَامَ ٱلصَّلَاةَ مَنْ عَبَدَ ٱللهَ ... وَقَامَتْ بِرَبِّهَا ٱلْأَشْيَاءُ



في شرح الهمزية

المسمى

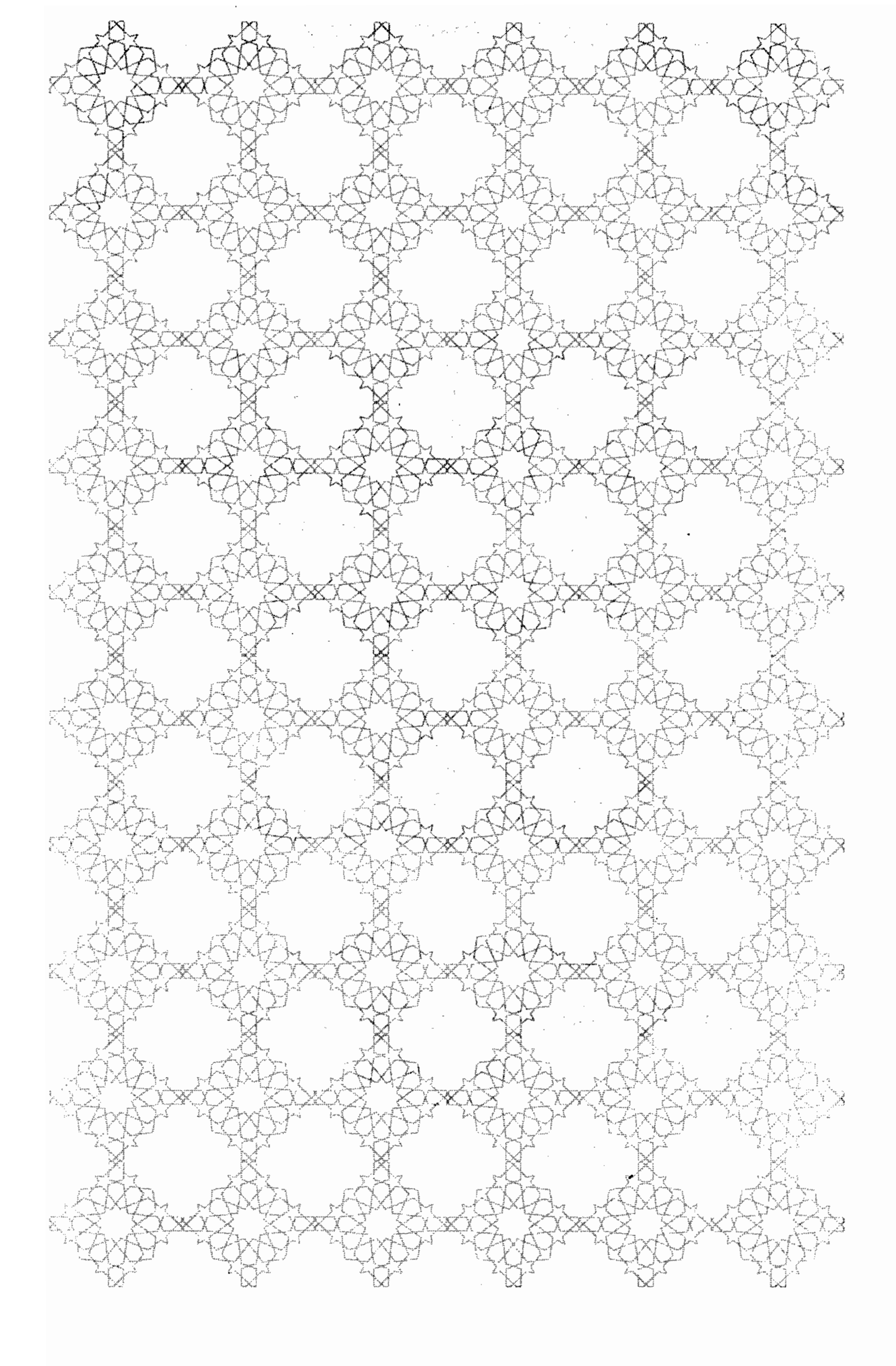
أفضل القرى لقراء أم القرى

للإمام العلامة الفقيه المحقق

شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي الشافعي

رحمه الله تعالى

(٩٠٩-٩٧٤هـ)



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رب يسر وأعن يا كريم بجاه محمد النبي العظيم

[خطبة المؤلف]

الحمد لله الذي اختص نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بكتاب أخرس الفصحاء ، وأعجز البلغاء عن التفوه بمثل أقصر سورة من سوره ، بل آية من آياته ، وبجوامع الكلم وبدائع الحكم وعظيم الخلق في سائر أقواله وأفعاله وحالاته ، وخرق له خوارق الوجود بمعجزات أبهرت العقول ، وقصر عن إحصائها استقصاء المادحين لسيره وآياته ، وبخصوصيات قطعت الخلائق عن أن يصلوا لشأو علاه وكمال شرفه وشرف كمالاته ، وبأمة سطع عليها بدر وجوده في أفق سعوده ، وفاض عليها فائض جوده في عالم شهوده ، فأنار من أخلاقها وعقولها ، وكمل من إقبالها وقبولها ، وزين من بديع فصاحتها وعجيب بلاغتها ، وراض ما استصعب من إبائها ، وأغاض ما اشرأب من نوائها ، ما صارت به خير الأمم ، والعدول الشهود علىٰ من عليهم تقدم ، بنص القرآن القطعي البرهان ، القاصم لظهر المعاند وترهاته ، وأوجب على الكافة غاية تعظيمه ، ومنه ذكر مناقبه ومآثره ، وبيان أوصافه السنية وأحواله العلية وخصائصه ومعجزاته ، ولذلك ذهب الناس في هـٰذه الفنون كل مذهب ، وأظهروا تعظيمه نظماً ونثراً وسراً وجهراً كما وجب ، فحباهم بلحظه وإسعافه وإمداداته .

وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أنتظم بها في سلك عناياته .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، المحبو منه بخوارق هباته ، والمفوض إليه إمداد الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين بمعاني القرب وبيناته ، صلى الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه حماة الدين القويم عن زيغ كل زائغ وتحريفاته ، وهداة الخلق إلى الصراط المستقيم بإيضاح كلياته وجزئياته ، صلاة وسلاماً دائمين بدوام نعم الله تعالىٰ علىٰ خواصه وأهل طاعاته .

وبعد :

فمما يتعين علىٰ كل مكلف أن يعتقد أن كمالات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا تحصىٰ ، وأن أحواله وصفاته وشمائله لا تستقصىٰ ، وأن خصائصه ومعجزاته لم تجتمع قط في مخلوق ، وأن حقه على الكمل ـ فضلاً عن غيرهم ـ أعظم الحقوق ، وأنه لا يقوم ببعض ذلك إلا من بذل وسعه في إجلاله وتوقيره وإعظامه ، واستجلاء مناقبه ومآثره وحكمه وأحكامه ، وأن المادحين لجنابه العلي ، والواصفين لكماله الجلي . . لم يصلوا إلا إلىٰ قُل من كُل لا حد لنهايته ، وغيض من فيض لا وصول إلىٰ غايته ، ومن ثم كان أبلغ بيت هنا المطلع الآتي ، كما يعلم مما يأتي فيه وفي « بردة المديح » : [من البسيط]

فَـإِنَّ فَضْـلَ رَسُـولِ ٱللهِ لَيْـسَ لَـهُ ... حَـدٌّ فَيُعْـرِبَ عَنْـهُ نَـاطِـقٌ بِفَـمِ

ثم يليه :

دَعْ مَـا ٱدَّعَتْـهُ ٱلنَّصَـارَىٰ فِـي نَبِيِّهِـمُ ... وَٱحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فِيهِ وَٱحْتَكِمِ

ثم يليه :

فَمَبْلَـغُ ٱلْعِلْـمِ فِيـهِ أَنَّـهُ بَشَـرٌ ... وَأَنَّـهُ خَيْـرُ خَلْـقِ ٱللهِ كُلِّهِـمِ

ثم يليه :

فَـاقَ ٱلنَّبِيِّيـنَ فِـي خَلْـقٍ وَفِـي خُلُـقٍ ... وَلَـمْ يُـدَانُـوهُ فِـي عِلْـمٍ وَلاَ كَـرَمِ

فهم مقصرون عما هنالك ، قاصرون عن أداء كل ما يتعين من ذلك ، كيف وآي الكتاب مفصحة عن علاه بما يبهر العقول ، ومصرحة من صفاته بما لا يستطاع إليه الوصول ؟!

وقد قيل : [من البسيط]

مَـاذَا عَسَـى ٱلشُّعَـرَاءُ ٱلْيَـوْمَ تَمْـدَحُـهُ ... مِـنْ بَعْـدِ مَـا مَـدَحَـتْ حـٓم تَنْـزِيـلُ

فعلم أنه لو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه . . لعجزوا عن استقصاء ما حباه به مولاه الكريم من مواهبه ، ولكان الملم بساحل بحرها مقصراً عن حصر بعض فخرها ، ولقد صح لمحبيه أن ينشدوا فيه : [من الكامل]

وَعَلَىٰ تَفَنُّنِ وَاصِفِيهِ بِحُسْنِهِ ... يَفْنَى ٱلزَّمَانُ وَفِيهِ مَا لَمْ يُوصَفِ

وإنه لحقيق بقول القائل : [من الطويل]

فَمَا بَلَغَتْ كَفُّ ٱمْرِىءٍ مُتَنَاوَلاً ... مِنَ ٱلْمَجْدِ إِلاَّ وَٱلَّذِي نَالَ أَطْوَلُ
وَلاَ بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً ... وَلَوْ حَذَقُوا إِلاَّ ٱلَّذِي فِيهِ أَفْضَلُ

ولابن خطيب الأندلس : [من الكامل]

مَدَحَتْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ فَمَا عَسَىٰ ... يُثْنِي عَلَىٰ عَلْيَاكَ نَظْمُ مَدِيحِي
وَإِذَا كِتَابُ ٱللهِ أَثْنَىٰ مُفْصِحاً ... كَانَ ٱلْقُصُورُ قُصَارَ كُلِّ فَصِيحِ

وقد رئي العارف المحقق السراج ابن الفارض السعدي رضي الله عنه في النوم ، فقيل له : لم لا مدحت النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ـ أي : بالتصريح ، وإلا . . فنظمه في الحقيقة إما في الحضرة الإلـٰهية ، أو فيه صلى الله عليه وسلم ـ فقال : [من الطويل]

أَرَىٰ كُلَّ مَدْحٍ فِي ٱلنَّبِيِّ مُقَصِّرَا ... وَإِنْ بَالَغَ ٱلْمُثْنِي عَلَيْهِ وَأَكْثَرَا
إِذَا ٱللهُ أَثْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ أَهْلُهُ ... عَلَيْهِ فَمَا مِقْدَارُ مَا تَمْدَحُ ٱلْوَرَىٰ ؟

قال البدر الزركشي : ولهـٰذا لم يتعاط فحول الشعراء المتقدمين ـ كأبي تمام والبحتري وابن الرومي ـ مدحه صلى الله عليه وسلم ، وكان مدحه عندهم من أصعب ما يحاولونه ؛ فإن المعاني وإن جلَّت دون مرتبته ، والأوصاف وإن كملت دون وصفه ، وكل غلو في حقه تقصير ، فيضيق على البليغ النطاق ، فلا يبلغ إلا قليلاً من كثير .

هـٰذا وإن من أبلغ ما مدح به النبي صلى الله عليه وسلم من النظم الرائق البديع ، وأحسن ما كشف عن كثير من شمائله من الوزن الفائق المنيع ، وأجمع ما حوته قصيدة من مآثره وخصائصه ومعجزاته ، وأفصح ما أشارت إليه منظومة من بدائع كمالاته . . ما صاغه صوغ التبر الأحمر ، ونظمه نظم الدر والجوهر ، الشيخ الإمام ، العارف الكامل الهمام ، المتفنن المحقق ، البليغ الأديب المدقق ، إمام الشعراء وأشعر العلماء ، وبليغ الفصحاء وأفصح البلغاء ، الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجي .

ولد سنة ثمان وست مئة ، وأخذ عنه الإمام أبو حيان ، والإمام اليعمري أبو الفتح

ابن سيد الناس ، ومحقق عصره العز ابن جماعة وغيرهم ، وتوفي سنة ست أو سبع وتسعين وست مئة علىٰ ما قاله المقريزي[1] ، لٰكن صوب شيخ الإسلام العسقلاني أنه سنة أربع وتسعين .

كان أحد أبويه من بوصير الصعيد ، والآخر من دَلَاص ، فركبت النسبة منهما فقيل : الدلاصيري ، ثم اشتهر بالبوصيري ، قيل : ولعلها بلد أبيه فغلبت عليه . وكان من عجائب الدهر في النظم والنثر ، ولو لم يكن له إلا قصيدته المشهورة بـ« البردة » ، التي تسبب نظمها عن وقوع فالج به أعيا الأطباء ، ففكر في إعمال قصيدة في النبي صلى الله عليه وسلم يتشفع بها إليه صلى الله عليه وسلم ، ثم به إلىٰ ربه ، فأنشأها ، فرآه ماسحاً بيده الكريمة عليه ، فعوفي لوقته ، ثم لما خرج من بيته . . لقيه عبد صالح فطلب منه سماعها فعجب منه ؛ إذ لم يخبر بها أحداً ، فقال : سمعتها البارحة تنشد بين يديه صلى الله عليه وسلم وهو يتمايل كتمايل القضيب ، [قال] فأعطيته إياها ، وقيل : إنه اشتد رمده بعد نظمها ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقرأ عليه شيئاً منها فتفل في عينيه فبرىء لوقته . . لكفاه ذلك شرفاً وتقدماً ، كيف وقد ازدادت شهرتها إلىٰ أن صار الناس يتدارسونها في البيوت والمساجد كالقرآن ؟!

وكان يعاني صنعة الكتابة على الحمايات ، وباشر ببلبيس الشرقية ، ثم ترك ذلك وصحب القطب أبا العباس المرسي رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل جنات المعارف منقلبه ومثواه ، فعادت عليه بركته ، وساعده لحظه وهمته إلىٰ أن فاق أهل زمانه ، ورزقه الله من الشهرة والحظ ما لم يصل إليه أحد من أقرانه ، فرحمه الله تعالى ورضي عنه من قصيدته الهمزية المشهورة ، العذبة الألفاظ الجزلة المباني ، العجيبة الأوضاع البديعة المعاني ، العديمة النظير البديعة التحرير ؛ إذ لم ينسج أحد علىٰ منوالها ، ولا وصل إلىٰ علا حسنها وكمالها ، حتى الإمام البرهان القيراطي ، المولود سنة ست وعشرين وسبع مئة ، والمتوفىٰ سنة إحدىٰ وثمانين وسبع مئة ؛ فإنه مع جلالته وتضلعه من العلوم العقلية والنقلية ، وتقدمه علىٰ أهل عصره في العلوم العربية والأدبية ، لا سيما علم البلاغة ، ونقد الشعر وإتقان صنعته ، وتمييز حلوه من مره ، ونهايته من بدايته . . أراد أن يحاكيها ففاته الشنب ، وانقطعت به الحيل عن أن يبلغ من معارضتها

---

(١) انظر « المقفَّى الكبير » (٥/ ٦٦٢) .

أدنىٰ أرب ، وذلك لطلاوة نظمها ، وحلاوة رسمها ، وبلاغة جمعها ، وبداعة صنعها ، وامتلاء الخافقين بأنوار جمالها ، وإدحاض دعاوىٰ أهل الكتابين ببراهين جلالها ، فهي ـ دون نظائرها ـ الآخذة بأزمة العقول ، والجامعة بين المعقول والمنقول ، والحاوية لأكثر المعجزات ، والحاكية للشمائل الكريمة علىٰ سنن قطع أعناق أفكار الشعراء عن أن تشرئب إلىٰ محاكاة تلك المحكيات ، والسالمة من عيوب الشعر من حيث فن العروض ، كإدخال عروض علىٰ أخرىٰ ، وضرب علىٰ آخر ، ومن حيث فن القوافي ، كالإيطاء وهو : تكرير لفظ القافية بمعناه قبل سبعة أبيات ، وقيل : عشرة ، وكالإكفاء وهو : اختلاف حرف الروي ، والإقواء وهو : اختلاف حركته ، لـٰكنها وإن شرحت ، وتعاورتها الأفكار وخدمت . . تحتاج إلىٰ شرح جامع ، ودستور مانع ، يجلو عرائس أبكارها علىٰ منصات الألباب مع الاختصار ، ويظهر مخبَّآت أسرارها ظهور الشمس في رابعة النهار ، ويفتح مقفلات معمياتها عما قد يوجب القصور والعثار ، وينبه علىٰ نفائس فرائدها ، وينوه بجلالة عرائس فوائدها ، ويعرب عن غرائب تعقيدها ، ويفصح عن فنون بلاغتها وبدائع تأنيقها وتشييدها .

فاستخرت الله تعالىٰ في شرح كذلك ، وإن كنت لست هنالك ، راجياً أن أندرج به في سلك خدمة جنابه صلى الله عليه وسلم ، وأن أطوق بسببه سوابغ مدده ولحظه الأعظم ، ومستعيناً بالله ومتوكلاً عليه ، ومفوضاً سائر أموري إليه ، وسائلاً منه بدائع ألطافه ، وتتابع إتحافه ، وتيسير هـٰذا المطلب ، وإنجاح هـٰذا المأرب ، إنه الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم .

وسميته :

« المنح المكية في شرح الهمزية »

ثم بلغني أن الناظم سماها « أم القرىٰ » تشبيهاً لها بمكة ، بجامع أنها حوت بطريق التصريح أو الإيماء ما في أكثر المدائح النبوية ، وحينئذ سميته :

« أفضل القِرىٰ لقراء أم القرىٰ »

وقد بين شارحها الإمام ، المحقق في العلوم الأدبية والشرعية ، الشمس الجوجري شيخ مشايخنا ، رحمه الله وشكر سعيه . . بحرَها وعروضها وضربها وقافيتها ،

وما يدخلها من العلل والزحاف بما أطال فيه ، لٰكنه ليس له كبير جدوىٰ هنا ؛ لأن من يعرف فن العروض وتوابعه لا يحتاج إليه إلا لمجرد التذكير ، ومن لا يعرفه يستوي عنده ذكر ذلك وحذفه اليسير منه والكثير .

وخلاصة شيء منه : أنها من بحر الخفيف ، وهو مركب من ستة أجزاء سباعية الحروف : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ـ مرتين ـ وقد يدخله الخبن في مستفعلن ، فيصير متفعلن فينقل إلىٰ مفاعلن ؛ لأنه أخف ، بل وفي جميع أجزائه ، فيحذف ثاني كل وهو حسن ، والكف وهو : حذف سابعه من البعض أو الكل غير السابع[1] ؛ إذ لا يوقف علىٰ متحرك ، وهو صالح ، وقد يجتمعان وهو قبيح ، ويدخله التشعيث بأن تفقد صورة الوتد ، فيصير مفعولن علىٰ صورة ثلاثة أسباب خفيفة ، ووقع في كثير من أبيات هٰذه القصيدة ، وهو من جملة الزحاف وإن أجري مجرى العلل .

وقافيتها من المتواتر ، وهو : ما فصل بين ساكنيها حرف واحد متحرك ؛ إذ ليس هنا بين الألف والواو الساكنين سوى الهمزة التي هي الروي .

والقافية : قيل : آخر كلمة من البيت ، والأصح : أنها من آخر حرف متحرك منه قبل ساكنين ، فقافية البيت الآتي على الأول لفظ : سماء ، وعلى الأصح : من الميم منه .

وسترىٰ كثرة ما راعاه الناظم من أنواع البديع ، لا سيما الاقتباس القرآني ، لٰكن فيه كلام منتشر للعلماء ، وخلاصة الحق منه : أنه مجمع علىٰ جوازه كما قاله بعض المتأخرين المطلعين ، قال : وقد استعمله العلماء قاطبة في خطبهم وإنشائهم ، واستنكره قوم جهلاً منهم بالنصوص والنقول ؛ فقد استعمله النبي صلى الله عليه وسلم في غير ما حديث ، والصحابة والتابعون والعلماء قديماً وحديثاً ، ونصوا في كتب الفقه علىٰ جوازه ، وزعمُ بعض المالكية منعه يرده استعمال مالك رضي الله عنه له ، ونص علىٰ جوازه غير واحد منهم ، كابن عبد البر وعياض ، وقد نقل الشيخ داوود الباجلي اتفاق المالكية والشافعية علىٰ جوازه ، وفي « شرح مجمع البحرين » لابن الساعاتي : التصريح بجوازه ، ولا فرق

---

(١) الصواب أن يقول : غير السادس ؛ لأن تفعيلات الخفيف ستة فقط كما هو معلوم .

فيه بين أن يزاد علىٰ لفظ القرآن أو ينقص منه ، أو يغير إعرابه أو لا .

قال السكاكي : اعلم أن شأن الإعجاز عجيب ، يدرك ولا يعبر عنه ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن وكالملاحة ، ولا طريق لتحصيله لغير ذوي الفطن السليمة إلا بالتمرن في علمي المعاني والبيان .

وقال غيره : لا تدرك معرفة الفصيح والأفصح والرشيق والأرشق إلا بالذوق ، ولا يمكن إقامة الدليل عليه ، كما أن التي أدون في المحاسن قد تكون أحلىٰ منها في العيون والقلوب ، ولا يدرك سبب ذلك ، ولـٰكنه يدرك بالذوق والمشاهدة ، وأهل الذوق ليسوا إلا الذين اشتغلوا بعلم البيان ، وراضوا أنفسهم بالرسائل والخطب والكتابة والشعر ، وصارت لهم بذلك دربة وملكة تامة ، فإليه يرجع في فضل بعض الكلام علىٰ بعض ، ولكون علم المعاني والبيان والبديع بهـٰذه المثابة . . كان يسمىٰ قديماً صنعة الشعر ونقد الشعر ونقد الكلام ، وتسميته بالمعاني والبيان والبديع حادثة من المتأخرين ، كما أشار لذلك الكمال ابن الأنباري والعسكري وغيرهما .

وقد حصلت لي رواية هـٰذه القصيدة وغيرها من شعر الناظم من طرق متعددة ، منها ، بل أعلاها : أني أرويها عن شيخنا شيخ الإسلام ، خاتمة الحفاظ والمتأخرين ، أبي يحيىٰ زكريا الأنصاري الشافعي ، عن العز أبي محمد بن الفرات عن العز أبي عمر بن البدر ابن جماعة عن ناظمها .

وعن حافظ العصر ابن حجر ، عن الإمام المجتهد السراج البلقيني والسراج ابن الملقن والحافظ زين الدين العراقي ، عن العز ابن جماعة رحمهم الله تعالىٰ ، عن الناظم .

وأرويها أيضاً عن مشايخنا ، عن الحافظ السيوطي ، عن جماعة منهم الشُّمُنِّي ، بعضهم قراءة وبعضهم إجازة ، عن عبد الله بن علي الحنبلي كذلك ، عن العز ابن جماعة عن الناظم .

وقد راعى الناظم رحمه الله تعالىٰ أمرين مهمين :

أحدهما : البداءة بالبسملة ؛ للحديث الحسن أو الصحيح : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ ـ

أي : حال يهتم به ـ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ فَهُوَ أَجْذَمُ »[1] أي : مقطوع البركة ، ولا تنافيه رواية : « ٱلْحَمْدُ للهِ »[2] ؛ لأن القصد البداءة بأي ذكر كان ، كما أفادته رواية : « لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِذِكْرِ ٱللهِ »[3] فذكر البسملة والحمدلة لبيان أفضل الذكر لا غير ، ومن ثم ابتدىء القرآن بهما . ولم ينظر الناظم إلىٰ ما قيل : إن الشعر لا يبدأ فيه بالبسملة ؛ لأن محله ـ علىٰ ما فيه ـ فيما ليس كهـٰذه القصيدة ؛ لأنها اشتملت على أفضل العلوم والمعلومات ، فهي أحق بالبداءة بالبسملة من كثير من العلوم .

ثانيهما : ما هو الأحق بالرعاية علىٰ كل بليغ من براعة المطلع ، وهو : سهولة اللفظ ، وصحة السبك ، ووضوح المعنىٰ ، ورقة التشبيب ، وتجنب الحشو ، وتناسب المعاني ، وعدم تعلق البيت بما بعده ، ويسمىٰ أيضاً حسن الابتداء ، وقد انتزعوا من هـٰذا براعة الاستهلال في النظم والنثر ، بأن يكون مبدأ الافتتاح دالاًّ علىٰ ما بني ذلك النظم أو النثر عليه من الغرض المسوق إليه ، كقول أبي تمام : [من البسيط]

ٱلسَّيْـفُ أَصْـدَقُ أَنْبَـاءً مِـنَ ٱلْكُتُـبِ[4]

لما كان غرضه ذكر الفتح والتحريض على الحرب ، وما افتتح به الناظم هـٰذه القصيدة فيه جميع تلك الشروط وزيادة ، كما لا يخفىٰ علىٰ متأمل لغرضه ، وهو ذكر أوصافه صلى الله عليه وسلم التي ارتقىٰ فيها إلىٰ غاية لم يبلغها غيره ، ولذلك كان جميع ما بعده من المدح إلىٰ آخر القصيدة كالشرح والبيان لما تضمنه هـٰذا المطلع ، فلله دره من مطلع جامع بديع ! لم يسبق ناظمه لمثله .

---

(١) أخرجه السمعاني في « أدب الإملاء والاستملاء » (١/ ٥١) .
(٢) أخرج هـٰذه الرواية ابن حبان (١) ، وأبو داوود (٤٨٠٧) ، وابن ماجه (١٨٩٤) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٤٩٨) .
(٣) أخرج هـٰذه الرواية الإمام أحمد (٢/ ٣٥٩) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٥٠١) .
(٤) ديوان أبي تمام (١/ ٩٦) .

كَيْفَ تَرْقَىٰ رُقِيَّكَ ٱلْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءً مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ

(كيف) : هي في الأصل اسم مبني ؛ لتضمنه معنىٰ حرف الشرط أو الاستفهام على الفتح ؛ لخفته ، وعلىٰ حركة ؛ لا لتقاء الساكنين ، وترد للشرط ، وخرج عليها نحو : ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ ، وجوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وللاستفهام ، وهو الغالب إما : حقيقياً نحو : كيف زيد ؟ أو غيره كما هنا ؛ إذ هي للإنكار المشوب بالتعجب المتضمن للنفي كما يعلم مما يأتي ، وكما في الآيتين الآتيتين ، وتقع خبراً قبل ما لا يستغني ، نحو : كيف أنت ؟ وحالاً قبل ما يستغني ، نحو : كيف جاء زيد ؟ أي : علىٰ أي حالة جاء ؟ ومنه ما هنا في النظم ؛ إذ هي حال من فاعل (ترقىٰ) أي : علىٰ أي حالة ترقى الأنبياء رقيك ؟! أي : لا يكون ذلك ولا كان .

وعن سيبويه : أنها ظرف ، فموضعها نصب دائماً ، وتقديرها : في أو علىٰ أي حال ، وجوابها المطابق : علىٰ خير ونحوه ، وأنكر ذلك الأخفش والسيرافي ، فموضعها رفع مع المبتدأ ، نصب مع غيره ، وتقديرها في نحو : كيف زيد ؟ أصحيح زيد ؟ ونحو : كيف جاء زيد ؟ أراكباً جاء زيد ؟ ونحوه ، وجوابها : صحيح ونحوه .

وقال ابن مالك : (لم يقل أحد : إن كيف ظرف ؛ إذ ليست زماناً ولا مكاناً ، ولـٰكنها لما كانت تفسر بقولك : علىٰ أي حال ؟ لكونها سؤالاً عن الأحوال العامة . . سميت ظرفاً ؛ لأنها في تأويل الجار والمجرور ، واسم الظرف يطلق عليهما مجازاً) قال ابن هشام : (وهـٰذا حسن) اهـ[١]

وعلم من قوله : (لكونها . . .) إلىٰ آخره : أنه يستفهم بها عن حال الشيء لا عن ذاته .

قال الراغب : (وإنما يسأل بها عما يصح أن يقال فيه : شبيه وغير شبيه ، ولهـٰذا لا يصح أن يقال في الله : كيف) قال : (وكل ما أخبر الله بلفظ كيف عن نفسه . . فهو

---

(١) مغني اللبيب (١/ ٢٧٢) .

استخبار علىٰ طريق التنبيه للمخاطب أو التوبيخ أو الإنكار ، كما في : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ ، ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا ﴾)[1] .

وفرق الزمخشري بين كيف والهمزة ، بأن (كيف) سؤال تفويض ؛ لإطلاقه ، فكأن الله في الآية الأولىٰ فوض الأمر إليهم في أن يجيبوا بأي شيء أجابوا ، ولا كذلك الهمزة ؛ فإنه سؤال حصر وتوقيت ؛ فإنك تقول : أجدك راكباً أم ماشياً ؟ فتوقت وتحصر ، ومعنى الإطلاق ما قاله صاحب « المفتاح » : كيف : سؤال عن الحال ، وهو ينتظم فيه الأحوال كلها ، والكفار حين صدور الكفر عنهم ، لا بد أن يكونوا علىٰ إحدى الحالتين ؛ إما عالمين بالله أو جاهلين به ، فإذا قيل : كيف تكفرون بالله ؟ . . أفاد : أفي حال العلم تكفرون أم في حال الجهل ؟ هـٰذا معنى التفويض في الآية .

(ترقىٰ رقيك) الحسي ، فماضيه مكسور القاف من : رقي السلم ، وهو رقيه صلى الله عليه وسلم ببدنه يقظة بمكة ليلة الإسراء قبيل الهجرة إلى السماء ، إلىٰ سدرة المنتهىٰ ، ثم إلى المستوى الذي سمع فيه صرير الأقلام في تصاريف الأقدار ، ثم إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة والكشف الحقيقي ، وغير ذلك مما لم يصل إليه ملك مقرب ولا نبي مرسل .

والمعنوي من رقا بالفتح ، وهو : التنقل من كل صفة كاملة وخلق عظيم إلىٰ صفة أخرىٰ وخلق آخر أكمل وأعظم ، وهـٰكذا إلىٰ ما لا غاية له ، ففي كلامه استعمال المشترك في معنييه ، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو الأصح عندنا في الأصول ، وعلى مقابله المنقول عن الأكثرين يكون هـٰذا من عموم المجاز .

(الأنبياء) جمع نبي ، فعيل بمعنىٰ فاعل أو مفعول ، من النبأ بهمز ، وقد لا يهمز تخفيفاً ، وهو الخبر ؛ لأنه مخبر ومخبر عن الله تعالى ، أو من النَّبْوة ، فلا يهمز ؛ لأنه مرتفع أو مرفوع الرتبة علىٰ غيره من الخلق ، ونهيه صلى الله عليه وسلم عن المهموز بقوله : « لاَ تَقُولُوا يَا نَبِيءَ ٱللهِ » بالهمز « بَلْ قُولُوا يَا نَبِيَّ ٱللهِ » بلا همز ؛ لأنه قد يرد بمعنى الطريد، فخشي صلى الله عليه وسلم في الابتداء سبق هـٰذا المعنىٰ إلىٰ بعض الأذهان فنهاهم عنه ، فلما قوي إسلامهم وتواترت به القراءة . . نسخ النهي عنه ؛ لزوال سببه .

---

(١) انظر : « مفردات الراغب » (ص ٧٣٠) .

وهو : ذكر من بني آدم حر سالم من منفر كعمىً ، وما وقع ليعقوب وشعيب لم يكن عمىً حقيقياً ، وكذلك بلاء أيوب صلى الله عليه وسلم لم يستقر ، بل صار بدنه بعد الشفاء أجمل منه قبله ، أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه ، فإن أمر . . فرسول أيضاً وإن لم يكن له كتاب ولا نسخ لشرعٍ من قبله على الأشهر ، فالرسول أخص مطلقاً من النبي ، ولا يطلق علىٰ غير الآدمي كالملك والجني إلا مقيداً ، ومنه : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ ، ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ علىٰ أن معنى الإرسال فيهما غيره في الأول ؛ إذ هو فيه إيحاء ما يتعبد به هو وأمته ، وفيهما مجرد الإرسال للغير بما يوصله إليه .

فإن قلت : نفي رقي الأنبياء رقيه لا يستلزم نفي رقي الرسل رقيه ؛ لتصريحهم بأن الأعم لا دلالة له على الأخص، والمراد إنما هو نفي رقي كل منهما رقيه ولم تف به عبارته .

قلت : ممنوع ، بل هي وافية ، بل مصرحة به ؛ لأن قوله : (ما طاولتها سماء) : صريح في نفي رقي الكل رقيه كما يعلم مما يأتي في شرحه ؛ لأن النكرة في حيز النفي للعموم ، وفي أنه أراد بالأنبياء هنا ما يشمل الرسل ، علىٰ أن المحقق الكمال ابن الهمام نقل في « مسايرته » أن المحققين علىٰ ترادف النبي والرسول ، فلعل الناظم ممن يرىٰ ذلك ، وإن كنت رددته في « شرح المنهاج »[1] لمخالفته للأحاديث الصريحة الصحيحة في عدد الأنبياء والرسل ، وسيأتي بعضها ، وأيضاً فنفي الحقيقة مطلقاً كالنبوة التي تضمنها لفظ (الأنبياء) هنا . . يستلزم نفيها مع قيدها ولا عكس كما صرحوا به ، فتعين ما ذكره الناظم ، ولا يصح ذكر الرسل . فتأمله .

تنبيهات : منها : ما صرح به كلامه ـ لما مر في معنىٰ (كيف) ـ أنه استفهام متضمن لنفي رقيهم كرقيه ، وللتعجب ممن يشكك في ذلك ، وهـٰذا أولىٰ ممن قال : وللتعجب من وقوعه لو وقع من اختصاص نبينا صلى الله عليه وسلم بذلك الرقي بمعنييه السابقين ، وأنه المنفرد بغاية كمال الشرف والرفعة إجماعاً ، أما الأول . . فواضح ، وأما الثاني . . فكذلك عند من تأمل آي القرآن وما اشتملت عليه إما تصريحاً أو تلويحاً

---

(١) تحفة المحتاج (١/ ٢٦) .

من الإشارة إلىٰ إنافة قدره العلي عنده ، وأنه لا مجد يساوي مجده .

وقال المفسرون في : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ : يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، قال الزمخشري : (في هٰذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفىٰ ؛ لما فيه من الشهادة علىٰ أنه العلم الذي لا يشتبه ، والمتميز الذي لا يلتبس)[1] .

ومن تلك الدرجات أن آياته ومعجزاته أكثر وأبهر ؛ إذ ما من معجزة لنبي قبله إلا وله مثلها أو أبهر منها كما بينه الأئمة ، وسيأتي بعضه ، وزاد عليهم بمعجزات لم يصح ولم يقع نظيرها لأحد منهم ، وناهيك بكتابه القرآن ؛ فإنه لا تتناهىٰ معجزاته ولا تنقضي آياته ، وأن أمته أزكىٰ وأكثر وأطهر من بقية الأمم بنص : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ، وخيرية الأمة تستلزم خيرية نبيها ، وأفضلية دينها ؛ إذ لا شك أن خيريتهم بحسب كمال دينهم المستلزم لكمال نبيهم ، وأن صفاته أعلىٰ وأجل ، وذاته أفضل وأكمل ، كما يصرح به قوله تعالىٰ : ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ لأنه تعالىٰ وصف الأنبياء بالأوصاف الحميدة ، ثم أمره أن يقتدي بجميعهم ، وذلك يستلزم أن يأتي بجميع ما فيهم من الخصال الحميدة ، فاجتمع فيه ما تفرق فيهم . وفي حديث الشفاعة العظمىٰ وانتهائها إليه بعد تنصل كلٍّ منها واعترافه بأنه ليس أهلاً لها : التصريح بذلك أيضاً ، وكذا الحديث الصحيح : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ »[2] وفي رواية : « أَنَا أَكْرَمُهُمْ عَلَىٰ رَبِّي »[3] وفي حديث الترمذي : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ ، وَبِيَدِي لِوَاءُ ٱلْحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إلاَّ تَحْتَ لِوَائِي »[4] وهو صريح في دخول آدم ، كحديث البخاري وغيره : « أَنَا سَيِّدُ ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[5] وحديث : « أَنَا سَيِّدُ ٱلْعَالَمِينَ » صححه الحاكم واعترض .

وبذلك تعلم أفضليته على الملائكة ؛ لأن آدم أفضل منهم بنص الآية .

---

(١) الكشاف (١/ ٣٢٥) .
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٨) .
(٣) أخرجه الترمذي (٣٦١٠) ، والدارمي (٤٩) .
(٤) الترمذي (٣١٤٨) .
(٥) البخاري (٤٧١٢) .

ويؤيده الحديث الآتي على الأثر : « ليس أحد من الملائكة » وحديث الترمذي الحسن كما بينه البلقيني في « فتاويه » ، زاد على الترمذي : « وَأَنَا أَكْرَمُ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ » وهـٰذا صريح في شموله للأنبياء والملائكة جميعهم .

وفي حديث : « قَالَ آدَمُ : يَا رَبِّ ؛ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إِلاَّ غَفَرْتَ لِي. . . » الحديث ، وفيه أنه تعالىٰ قال : « يَا آدَمُ ؛ كَيْفَ عَرَفْتَهُ وَلَمْ أَخْلُقْهُ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ ؛ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ ـ أي : قدرتك الباهرة ـ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ ـ أي : سرك العجيب الذي لا يعلم حقيقته أحد غيرك ـ . .رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَىٰ قَوَائِمِ ٱلْعَرْشِ مَكْتُوباً : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَىٰ ٱسْمِكَ إِلاَّ أَحَبَّ ٱلْخَلْقِ إِلَيْكَ ، قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : صَدَقْتَ يَا آدَمُ ؛ إِنَّهُ لأَحَبُّ ٱلْخَلْقِ إِلَيَّ ، وَإِذْ سَأَلْتَنِي بِحَقِّ مُحَمَّدٍ. . فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ ، وَلَوْلاَ مُحَمَّدٌ. . مَا خَلَقْتُكَ » صححه الحاكم واعترض[1] ، لـٰكن صح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وله حكم المرفوع : (ولولا محمد. . ما خلقت آدم ، ولولا محمد. . ما خلقت الجنة والنار ، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب ، فكتبت عليه : لا إلـٰه إلا الله ، محمد رسول الله فسكن)[2] .

وفي روايات أخر : (لولاه ما خلقت السماء ولا الأرض ، ولا الطول ولا العرض ، ولا وضع ثواب ولا عقاب ، ولا خلقت جنة ولا ناراً ، ولا شمساً ولا قمراً) .

وصح : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ ٱلأَرْضُ ، فَأُلْبَسُ حُلَّةً مِنْ حُلَلِ ٱلْجَنَّةِ ، ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ ٱلْعَرْشِ ، لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمَلاَئِكَةِ يَقُومُ ذَلِكَ ٱلْمَقَامَ غَيْرِي »[3] .

وفي رواية ذكرها السراج البلقيني في « فتاويه » أنه تعالىٰ قال له : (قَدْ مَنَنْتُ عَلَيْكَ بِسَبْعَةِ أَشْيَاءَ : أَوَّلُهَا : أَنِّي لَمْ أَخْلُقْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ أَكْرَمَ عَلَيَّ مِنْكَ) وفي أخرى ذكرها أيضاً : (أن جبريل قال له : أبشر ؛ فإنك خير خلقه ، وصفوته من

---

(١) المستدرك وبهامشه « التلخيص » (٢/ ٦١٥) .

(٢) أخرجه الخلال في « السنة » (١/ ٢٦١) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦١١) .

البشر ، حباك الله بما لم يحب به أحداً من خلقه ، لا ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً . . .) الحديث .

وصح عن بحيرىٰ ـ وهو من علماء أهل الكتاب الذين لا يقولون شيئاً إلا عنه ـ : (هـٰذا سيد العالمين)[1] .

وصح أيضاً عن عبد الله بن سلام الصحابي الجليل ، إمام أهل الكتاب بشهادته صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر بالمسجد يوم الجمعة أموراً : منها : (وإن أكرم خليقة الله على الله أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : فأين الملائكة ؟ فضحك وقال للسائل : يا ابن أخي ؛ هل تدري ما الملائكة ؟ إنما الملائكة خلق كخلق السماوات والأرض ، والرياح والسحاب والجبال وسائر الخلق التي لا تعصي الله شيئاً ، وإن أكرم الخلق على الله تعالىٰ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم)[2] .

وبين السراج البلقيني أن هـٰذا له حكم المرفوع ، وهو كذلك ؛ فإنه من أجل الصحابة ، فلا يقوله إلا عنه صلى الله عليه وسلم ، أو عما صح من التوراة .

قال : واختيار الباقلاني والحَلِيمي أفضلية الملائكة . . يمكن حمله علىٰ غير نبينا ؛ أي : وبهـٰذا جزم بعض أجلاء تلامذته كالبدر الزركشي ، أو علىٰ تفضيل في نوع خاص ؛ أي : لأنه قد يوجد في المفضول مزية ، بل مزايا لا توجد في الفاضل ، ثم قال : ولا يظن بأحد من أئمة المسلمين أنه يتوقف في أفضلية نبينا صلى الله عليه وسلم علىٰ جميع الملائكة ، وكذلك سائر الأنبياء ، وأطال في الحط والرد علىٰ من توقف في ذلك وزعم أن هـٰذا ليس مما كلفنا بمعرفته ، ثم قال : وهـٰذا الزعم باطل ؛ فإن هـٰذا من مسائل أصول الدين الواجبة الاعتقاد علىٰ كل مكلف ، والبيان بسوق[3] أدلتها وإيضاحها علىٰ كل من تأهل لذلك .

وقد صح في الحديث المشهور : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ . . وَجَدَ حَلَاوَةَ ٱلْإِيمَانِ ، مَنْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٢٠) ، والحاكم (٢/ ٦١٥) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٤٩) ، والحاكم (٤/ ٥٦٨) .

(٣) في (أ) و(ب) : (والبيان يسوق) .

كَانَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا »[1] وتأمل قوله : « مِمَّا سِوَاهُمَا » تجده ظاهراً ، بل صريحاً في كل ما ذكرناه .

ومنها : ما أفاده كلامه من جواز التفضيل بين الأنبياء هو ما عليه عامة العلماء ؛ لما مر من الأدلة الصريحة فيه .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ . . فهو باعتبار الإيمان بهم وبما أنزل إليهم .

وأما الأحاديث الصحيحة : « لاَ تُفَضِّلُونِي عَلَى ٱلأَنْبِيَاءِ » ، « لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ ٱلأَنْبِيَاءِ »[2] ، « لاَ تَخَيَّرُوا بَيْنَ ٱلأَنْبِيَاءِ »[3] . . فهي إما : قبل علمه بالتفضيل وأنه أفضلهم ، وإما : محمولة على التواضع ؛ لتصريحه بالتفضيل ، أو علىٰ تفضيل يؤدي إلىٰ تنقيص بوجه ، أو إلىٰ حط من مقام أحدهم ، وعليهما يدل سياق الحديث ، أو على التفضيل في ذات النبوة أو الرسالة ؛ فإنهم كلهم مشتركون في ذلك لا يتفاوتون فيه ، وإنما يتفاوتون في زيادة الأحوال والمعارف والخصوصيات والكرامات .

وزعم حملها على التفضيل بآرائنا ليس في محله ؛ لأن تفضيل ذلك بالرأي المحض مجمع علىٰ منعه ، وبالدليل الدال عليه لا وجه لمنعه .

وأما الحديثان الصحيحان : « مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ »[4] ، « مَنْ قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ . . فَقَدْ كَذَبَ »[5] . . فحكمة التخصيص فيهما بيونس نفي توهم التفاوت بينهما في القرب من الحق ؛ لاختلاف محلهما الصوري برفع نبينا صلى الله عليه وسلم إلى قاب قوسين ، ونزول يونس صلى الله عليه وسلم إلىٰ قعر البحر ؛ أي : لا تتوهموا من هـٰذا التفاوت الصوري تفاوتاً في القرب والبعد من الله تعالىٰ ، بل نسبة كل إليه واحدة وإن تفاوت مكانهما ؛

---

(١) أخرجه البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٥) ، ومسلم (٢٣٧٣) .
(٣) أخرجه البخاري (٢٤١٢) ، ومسلم (٢٣٧٤) .
(٤) أخرجه البخاري (٣٣٩٦) ، ومسلم (٢٣٧٧) .
(٥) أخرجه البخاري (٤٦٠٤) ، ومسلم (٣٢٤٥) .

لتعاليه عن الجهة والمكان ، فهو نهي عن تفضيل مقيد بالمكان لا مطلقاً .

ومنها : أن قوله : (الأنبياء) يشمل من عرف منهم ومن لم يعرف ، قال الله تعالىٰ : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ .

واختلفوا في عدد من عرف منهم ، والمشهور فيه ما في حديث أبي ذر عند ابن مردويه في « تفسيره » : قال : قلت : يا رسول الله ؛ كم الأنبياء ؟ قال : « مِئَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً » قلت : يا رسول الله ؛ كم الرسل منهم ؟ قال : « ثَلاَثُ مِئَةٍ وَثَلاَثَةَ عَشَرَ ، جَمٌّ غَفِيرٌ » قلت : يا رسول الله ؛ من كان أولهم ؟ قال : « آدَمُ » ثم قال : « يَا أَبَا ذَرٍّ ؛ أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ سُرْيَانِيُّونَ : آدَمُ وَشِيثُ وَنُوحٌ وَأَخْنُوخُ ، وَهُوَ إِدْرِيسُ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِٱلْقَلَمِ ، وَأَرْبَعَةٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ : هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ ؛ وَأَوَّلُ نَبِيٍّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ـ أي : ممن بعد أولاد إسرائيل وهو يعقوب صلى الله علىٰ نبينا وعليه وعليهم وسلم ـ مُوسَىٰ ، وَآخِرُهُمْ عِيسَىٰ ، وَأَوَّلُ ٱلنَّبِيِّينَ آدَمُ ، وَآخِرُهُمْ نَبِيُّكَ » .

وروىٰ هـٰذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان في كتابه « الأنواع والتقاسيم » وصححه[١] ، لـٰكن خالفه ابن الجوزي فذكره في « موضوعاته » واتهم به إبراهيم بن هشام[٢] ، قال الحافظ ابن كثير : ولا شك أنه تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هـٰذا الحديث ، فالله أعلم . وبينت في شرح « المنهاج » في الخطبة : أن حديث كون الأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرين ألفاً ، وحديث كون الرسل ثلاث مئة وخمسة عشر . صحيحان . فاعلمه[٣] ، وروىٰ أبو يعلىٰ : « كَانَ فِيمَنْ خَلاَ مِنْ إِخْوَانِي مِنَ ٱلأَنْبِيَاءِ ثَمَانِيَةُ آلاَفِ نَبِيٍّ ، ثُمَّ كَانَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ، ثُمَّ كُنْتُ أَنَا »[٤] .

(يا) : حرف نداء للبعيد ، أو القريب المنزل منزلته ، وهو هنا إشارة إلىٰ بعد

---

(١) الإحسان (٣٦١) .

(٢) ذكر هـٰذا الحديث الإمام السيوطي رحمه الله في « الدر المنثور » (٢/٧٤٦) وقال : (أخرجه ابن حبان في « صحيحه » ، وابن الجوزي في « الموضوعات » ، وهما في طرفي نقيض ، والصواب : أنه ضعيف ، لا صحيح ولا موضوع) .

(٣) تحفة المحتاج (١/٢٦) .

(٤) مسند أبي يعلى (٤٠٩٢) .

مرتبته صلى الله عليه وسلم عن أن تلحق أو تسامىٰ (سماء) بالتنوين والنصب ؛ لأنها نكرة موصوفة ، وهي من حيز الشبيه بالمضاف ، فتنصب لا غير على الأصح .

وقال الكسائي : يجوز فيها النصب والضم .

وفصل الفراء فأوجب النصبَ إذا كان العائد من الصفة إليها ضمير غيبة كما هنا ، وكـ : يا رجلاً ضرب زيداً ، والضمَّ إذا كان ضمير خطاب كـ : يا رجل ضربت زيداً .

تنبيه : لا يأتي هنا الخلاف في النكرة غير المقصودة ، وهو : قول الأصمعي : لا تنادىٰ مطلقاً ، والمازني : لا يتصور نداؤها ؛ لأنه يقتضي الإقبال عليها ، وعدم قصدها يقتضي عدمه ، قال : وما جاء منوناً منها فضرورة ، والكوفيين : شرط صحة ندائها : أن تكون صفة في الأصل حذف موصوفها ، نحو : يا ذاهباً ، والمنع : إن لم تكن كذلك ، وذلك لأن محل هـٰذه الأقوال الأربعة حيث لم توصف النكرة بمفرد أو جملة أو ظرف ، وإلا . . جاز نداؤها مطلقاً اتفاقاً .

فإن قلت : (سماء) هنا نكرة مقصودة قطعاً كما يعلم مما يأتي ، وموصوفة بجملة : (ما طاولتها سماء) كما تقرر ، وحكمهما متناف ؛ فإن قصدها يوجب بناءها على الضم ، ووصفها يوجب نصبها على الأصح كما تقرر ، فما المغلب منهما حينئذ ؟

قلت : لم أر للنحاة في مثل هـٰذه الصورة نصاً ، وإنما أطلقوا في المقصودة البناء ، وفي الموصوفة النصب ، ومفهومهما متخالف ؛ إذ إطلاق الموصوفة يقتضي أنه لا فرق بين المقصودة وغيرها ، وإطلاق المقصودة يقتضي أنه لا فرق بين الموصوفة وغيرها ، لا يقال : الوصف يستلزم القصد ، ومع ذلك لم ينظروا للقصد معه ؛ لأنا نمنع استلزامه له ؛ إذ لا بدع أن الأعمىٰ يقول : يا رجلاً صالحاً خذ بيدي من غير أن يقصد أحداً بعينه ، ولـٰكن لا بد أن يدار الأمر في نحو هـٰذه الصورة علىٰ نظر الناظر ، فإن اعتبر الوصف . . أجري عليه حكمه السابق ، أو القصد أجري عليه حكمه .

فائدة : يجوز تنوين المنادى المبني للضرورة إجماعاً ، ثم اختلفوا : هل الأولىٰ بقاء الضم ، أو الأولى النصب ؟ فالخليل وسيبويه والمازني على الأول ، علماً كان أو نكرة مقصودة ، وعيسى بن عمر والجرمي والمبرد على الثاني رداً إلىٰ أصله ، كما رد غير المنصرف إلى الكسر عند تنوينه في الضرورة .

واختار ابن مالك في « شرح التسهيل » إبقاء الضم في العلم ، والنصب في النكرة المعينة ؛ لأن شبهها بالمضمر أضعف .

وبعض المتأخرين عكسه ، وهو اختيار النصب في العلم ؛ لعدم الإلباس فيه ، والضم في النكرة المعينة ؛ لئلا تلتبس بالنكرة غير المقصودة ؛ إذ لا فارق حينئذ إلا الحركة ؛ لاستوائهما في التنوين[1] .

إذا تقرر ذلك وقلنا بأن النكرة المنونة هنا مبنية على الضم علىٰ أحد شقي كلام الكسائي ، أو علىٰ ما ذكرته : أنه إذا أريد بالنكرة الموصوفة مقصود.. بنيت على الضم.. فالأولىٰ هنا على الأول والرابع : الضم ، وعلى الثاني والثالث : النصب[2] ، والذي أقوله : إن الضم متعين هنا على الكل ؛ لأنه الظاهر خلافاً لما يوهمه الرأي الرابع : أن محل الخلاف حيث لا إلباس يتولد منه محذور ، وهنا النصب يترتب عليه محذور ؛ لإيهامه أن السماء الأولىٰ نكرة غير مقصودة ، وحينئذ يفسد المعنىٰ ؛ لأن النكرة غير المقصودة لا يصح نفي مطاولة نكرة غير مقصودة لها أيضاً ، بخلاف ما إذا كانت الأولىٰ نكرة مقصودة كما هو المراد هنا ؛ إذ هي اسم جنس يشمل سائر الأجرام العلوية ؛ فإن هـٰذه بهـٰذا المعنىٰ هي التي لا تطاولها سماء ؛ أي : مرتفع غيرها ؛ لأنه لم يوجد في هـٰذا الوجود أرفع منها ، فتأمل ذلك حق التأمل واحفظه ، فإنه مما يتعين استفادته ، لا سيما مع النظر لما قاله الشارح مما لم يعثر فيه علىٰ شيء مما ذكرته .

(ما) : نافية (**طاولتها**) أي : غالبتها في الطول والارتفاع (سماء) ، وهـٰذا الشطر الثاني كالدليل للشطر الأول ؛ إذ التقدير : لم يرتق أحد منهم ارتقاءك ؛ لأنه لم يستطع مطاولتك في ارتقائك الحسي ولا المعنوي ، وإن كانت درجاتهم كلها ومراتبهم

---

(١) الذي ذهب إلى هـٰذا الإمام السيوطي رحمه الله تعالىٰ ، وقال بعد تصريحه باختياره لذلك : (ولم أقف علىٰ هـٰذا الرأي لأحد) اهـ « همع الهوامع في شرح جمع الجوامع » (٢/ ٤١) .

(٢) القول الأول : هو قول سيبويه ومن معه ، وهو أن الضم أولىٰ ، والرابع : هو قول السيوطي الذي أشار إليه الشارح بقوله : (وبعض المتأخرين عكسه) وهو : اختيار النصب في العلم ، والضم في النكرة المعينة ، أما الثاني فهو قول المبرد ومن معه ، وهو أن النصب أولىٰ ، والثالث : قول ابن مالك ، وهو : اختيار الضم في العلم ، والنصب في النكرة المعينة .

وصفاتهم بأسرها أرفع الدرجات وأكمل المراتب وأجل الصفات .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، وهـٰذه الآية صريحة في فضلهم علىٰ جميع الملائكة ، بل الخلق ؛ إذ العالم ما سوى الله ، وإنما جمع جمع العقلاء ؛ تغليباً لهم .

وفيه استعارة لفظ (السماء) الأول لنبينا صلى الله عليه وسلم ، والثاني لبقية الأنبياء ؛ لأن السماء أعلىٰ ما يرىٰ من الأجرام الحسية ، كما أنهم أعلى الخلق ، ورشح لذلك بذكر الارتقاء الملائم للمستعار منه .

(2)

لَـمْ يُسَـاوُوكَ فِـي عُـلَاكَ وَقَـدْ حَـا ... لَ سَنَـاً مِنْـكَ دُونَهُـمْ وَسَنَـاءُ

(لم يساووك) : مستأنفة علىٰ ما يأتي ، فيكون من أسلوب الحكيم ، أو حال من فاعل (ترقىٰ) ، (في علاك) جمع : علياء تأنيث : الأعلىٰ من علا ـ بالفتح ـ يعلو علواً في المكان ، وعلي ـ بالكسر ـ يعلى ، وعلا ـ بالفتح ـ يعلىٰ علاء في الشرف .

قال الشارح : (ولما كان نفي المطاولة لا يلزم منه نفي المساواة ، وكان المعنىٰ لا يتم إلا بنفيها . . صرح بذلك) وتبعه غيره فقال : (لما لم يلزم من نفي المطاولة نفي المساواة . . أشار إلىٰ نفيها ، وإن كان يؤخذ مما تقدم لـٰكن لا بطريق التصريح) اهـ

وهو عجيب مع ما مر في (كيف) : أنه أفاد بطريق التصريح نفي رقي أحد منهم رقيه ، وهـٰذا مساو لقوله : (لم يساووك) ، فالحق أنه تأكيد وإطناب فقط ، علىٰ أن لذكره فائدة أخرىٰ هي البرهان عليه بطريق أخرىٰ ، وحينئذ يكون ما سلكه من ذكر الجملة الأولىٰ في شطر البيت الأول ، والبرهان عليها بما في الشطر الثاني ، ثم إعادتها بمعناها في أول البيت الثاني ، والبرهان عليها بما في بقيته . . من بديع تحقيقه وكمال بلاغته .

(وقد حال) أي : حجز ومنع ، جملة مستأنفة ، أو حالية من الفاعل أو المفعول .

و(قد) هنا واجبة الذكر أو التقدير عند البصريين ، قالوا : لتقرب الماضي من

الحال ، واعترضهم المحقق السيد الجرجاني ، وتبعه المحقق الكافِيَجي وغيره بأن هـٰذا غلط منهم ، سببه اشتباه لفظ الحال عليهم ؛ فإن الحال الذي تقربه (قد) حال الزمان ، والحال المبين للهيئة حال الصفات ، ولك رده بأنهما وإن تغايرا لـٰكنهما متقاربان ، كما هو شأن الحال وعاملها ، وحينئذ لزم من تقريب الأولىٰ تقريب الثانية المقاربة لها في الزمن ، فتأمله فإنه مهم ؛ إذ تغليط أولـٰئك الأئمة الذين لا ينحصرون مع إمكان تأويل كلامهم تساهل .

واقتصار الشارح على الأول بعيد كتخصيصه له بفاعل (ترقى) البعيد دون فاعل (يساووك) القريب وإن كان متحداً ، والأول أولىٰ ؛ لما قدمته أن هـٰذه الجملة كالبرهان أو التعليل لما قبلها ، كذا قيل ، وفيه نظر ؛ لأن الحالية تفيد ذلك هناك أيضاً ، علىٰ أنها الظاهر المتبادر .

(سناً) بالقصر ؛ أي : ضوء عظيم ظاهر (منك) خصك الله به ، وهو مجاز عن علوم القرآن المحيطة بعلوم الأولين والآخرين وغيرها التي اختصه الله بها ، وأمره أن يسأله بأن يزيده منها ، وهـٰذا مقتبس من تسمية تعالى القرآن نوراً في آيات كثيرة من كتابه ، نحو : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ ، وعما اختصه الله به من جمال الظاهر[1] ، بما آتاه من الحسن في خلقه بما لم يلحقه فيه يوسف فضلاً عن غيره ، كما أخبر به صلى الله عليه وسلم ، وفي خلقه بما أبان الله تعالىٰ رفعته فيه إلى الغاية بقوله عز قائلاً : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وهـٰذا مقتبس من تسميته تعالىٰ لنبيه نوراً في نحو قوله : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وكان صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء بأن الله تعالىٰ يجعل كلاً من حواسه وأعضائه وبدنه نوراً[2] ؛ إظهاراً لوقوع ذلك ، وتفضل الله عليه به ليزداد شكره وشكر أمته علىٰ ذلك ، كما أنا أمرنا بالدعاء الذي في آخر (البقرة) مع وقوعه وتفضل الله به كذلك .

ومما يؤيد أنه صلى الله عليه وسلم صار نوراً : أنه كان إذا مشىٰ في الشمس نهاراً أو

---

(١) قوله : (وعما اختصه . . .) معطوف علىٰ قوله قبل سطرين : (وهو مجاز عن . . .) .

(٢) كما في حديث : « اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً . . . » أخرجه البخاري (٦٣١٦) ، ومسلم (٧٦٣) ، وغيرهما .

القمر ليلاً . . لا يظهر له ظل ؛ لأنه لا يظهر إلا لكثيف ، وهو صلى الله عليه وسلم قد خلصه الله من سائر الكثائف الجسمانية ، وصيره نوراً صرفاً لا يظهر له ظل أصلاً خرقاً للعادة ، كما خرقت له في شق صدره وقلبه مراراً ولم يتأثر بذلك .

(**دونهم وسناء**) بالمد ؛ أي : رفعة عظيمة أوتيتها لم ينته إليها مخلوق ؛ أي : انتفت مساواتهم له ؛ لمانع منعهم عن اللحوق به ، هو ما اختص به من ذلك النور وتلك الرفعة ، اللذين لم يصل أحد إلىٰ أدنىٰ مبادىء شأوهما فضلاً عن كماله ، وفي جعله هـٰذين حاجزاً استعارة تجريدية ، كما أن في جمعهما الجناس المذيل ، ويعبر عنه بالمطرف ؛ لأن الزيادة وقعت ذيلاً وطرفاً ، وهو : أن يتماثل اللفظان وينفرد أحدهما بزيادة حرف آخر في آخره ، كقولهم : العار ذل العارف ، وهو أحد أقسام الجناس الناقص .

ومنها نحو : الساق والمساق ، ويسمىٰ بالمردوف ؛ لأن حرف الزيادة مردوف بما وقع فيه التجانس ، ونحو : داء ودواء ، ويسمىٰ بالمكتنف ؛ لأن حرف الزيادة مكتنف ؛ أي : متوسط بين ما اكتنفاه .

وقد يقع الاختلاف بأكثر من حرف ، نحو : من آمن ، ويسمىٰ متوجاً ، ونحو : جهد ومجاهد ، وجوىً وجوانح ، سماه في « التلخيص » مذيلاً[1] .

وأهل الصناعات البديعيات : علىٰ أن الزائد من آخره حرف أو أكثر يسمىٰ مذيلاً ، ومن أوله كذلك يسمىٰ مطرفاً .

تنبيه : الجناس : تشابه اللفظين من حيث اللفظ ، وفائدته : الميل إلى الإصغاء إليه ؛ فإن مماثلة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاء إليها ، فلذا أكثر منه الناظم في هـٰذه القصيدة ، وربما تركت التنبيه علىٰ كثير منه في محله ؛ استغناء بظهوره ، أو تقدم التنبيه علىٰ نظيره .

ومع كون الجناس يوجب الميل والإصغاء . . فمحل مراعاته : ما لم تعارضه قوة المعنىٰ وتمكنه مع فقده ، وإلا . . لم يراع ، ومن ثم قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ ، فلم يقل : مصدق ؛ رعاية لجناس الاشتقاق ؛ لأن معنىٰ

---

(١) تلخيص المفتاح (ص ٧٠٣) .

قولك : فلان مصدق لي أنه قال لي : صدقت ، ومعنىٰ مؤمن لي : أنه صدقني وآمنني ، والمقصود الثاني لا الأول ، فترك الجناس لذلك ، وترك أيضاً في : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ ﴾ إما لأن التجنيس تحسين وإنما يستعمل في مقام الوعد والإحسان لا في مقام التهويل ، أو لأن يدع أخص من يذر ؛ لأنه ترك الشيء مع سبق الاعتناء به ، فلو قيل : تدعون. . لتوهم أنهم كانوا معتنين بالإلـٰه الحق ثم تركوه ، وليس كذلك ، بل كانوا تاركين له مطلقاً ، فتعين تذرون مبالغة في التشنيع عليهم ، بأنهم بلغوا الغاية في الإعراض عن ربهم ، وامتنع تدعون لإيهامه ، وبهـٰذا تظهر غباوة بعض الأدباء في قوله : لو قال : وتدعون. . لراعى الجناس .

وبقيت أجوبة أخرى ليست بذاك ، فلذا تركتها[1] .

وفي قوله : (وقد. . .) إلىٰ آخره : التذييل ، وهو : أن يؤتىٰ بعد إتمام الكلام بجملة تشتمل علىٰ معناه تجري مجرى العلة ؛ لتؤكد ما قبلها وتحققه ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ بعد : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ﴾ ، وقول النابغة :

(أي الرجال المهذب) بعد قوله : (ولست بمستبق. . .) إلىٰ آخره[2] .

تنبيه ثان : سيمر بك ذكر استعارات بليغة تحتاج إلىٰ معرفتها في هـٰذه القصيدة ، فلا بأس بالإشارة إلىٰ بعض شيء مما يتعلق بها ، وحدها : أنها مجاز يتضمن تشبيه ما عني به بما وضع له ، فهي مجاز لغوي ؛ لأنها لفظ استعمل في غير ما وضع له ؛ لعلاقة المشابهة ، ومن ثم احتاجت لقرينة كـ : رأيت أسداً يرمي ، ثم ما قصد اشتراك طرفيها المستعار له والمستعار منه فيه إما داخل فيهما ، كاستعارة الطيران للعدو بجامع : أن في كل قطع المسافة ، أو لا ، كاستعارة الأسد للشجاع ؛ إذ الشجاعة عارضة للأسد ، وهي باعتبار طرفيها .

والجامع أقسام كثيرة ، باعتبار أن كلاً إما : عقلي ، وإما : حسي ، ثم اللفظ

---

(١) راجع كتاب « الإتقان » للإمام السيوطي رحمه الله (٢/ ٩٢٣) فقد ذكر أجوبة أخرىٰ لذلك .

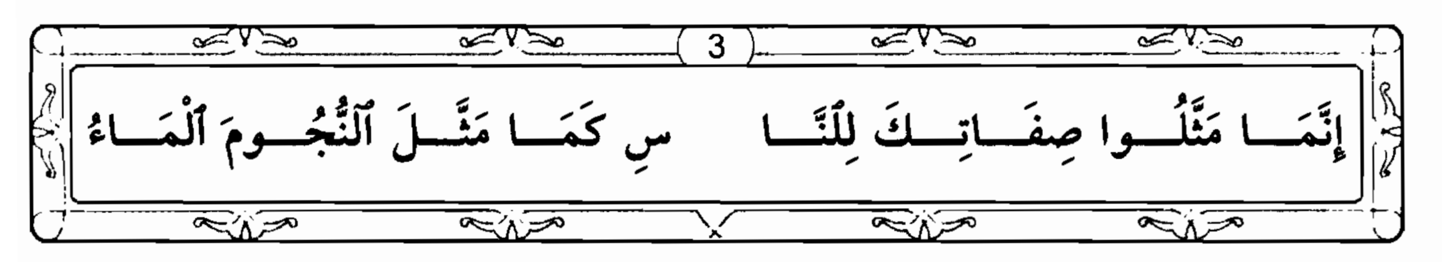
(٢) البيت من الطويل وهو بتمامه :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لاَ تَلُمُّهُ   عَلَىٰ شَعَثٍ ، أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ ؟

وهو في « ديوان النابغة » (ص ١٨) .

المستعار إن كان اسم جنس ولو تأويلاً كعلم أشعر بوصف . . سميت أصلية ، أو فعلاً أو مشتقاً منه ، بأن يقصد به المعنى القائم بالذات ، أو حرفاً . . فتبعية ؛ لأن الاستعارة تعتمد التشبيه المقتضي لكون المشبه موصوفاً بوجه الشبه ، أو مشاركاً للمشبه به فيه ، وإنما يصلح للموصوفية الحقائقُ ؛ أي : الأمور الثابتة دون معاني الأفعال ونحوها ، ومتىٰ لم تقترن بما يلائم أحد طرفيها . . سميت مطلقة ، أو بما يلائم المستعار له . . فمجردة ، أو بما يلائم المستعار منه . . فمرشحة ، وهي أبلغ ؛ لأن مبنى الاستعارة علىٰ تناسي التشبيه وادعاء أن المستعار له نفس المستعار منه لا شيء يشبهه ، وما كان وجه التشبيه فيه منتزعاً من عدة أمور يسمى استعارة تمثيلية ، كما يقال للمتردد في أمر : إني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرىٰ .

وبقي من أقسامها الاستعارة بالكناية ، والاستعارة التخييلية ، وهما عند صاحب « التلخيص » معنويان غير داخلين في تعريف المجاز ، فإذا أضمر التشبيه في النفس ، ولم يصرح بشيء من أركانه سوى المشبه ، ودل علىٰ ذلك التشبيه بذكر شيء من خواص المشبه به . . سمي ذلك التشبيه المضمر استعارة بالكناية ، وإثبات تلك الخاصة استعارة تخييلية ؛ لأنه يخيل أن المشبه من جنس المشبه به[١] .


3

إِنَّمَا مَثَّلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّا سِ كَمَا مَثَّلَ ٱلنُّجُومَ ٱلْمَاءُ

(إنما) : للحصر عند الجمهور ، قيل : بالمنطوق ، وقيل : بالمفهوم ، ويقال له : الاختصاص والقصر ، خلافاً لمن فرق ، وهو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص ، ويعبر عنه أيضاً بأنه إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما سواه ، وينقسم إلىٰ قصر الموصوف على الصفة ، وعكسه ، وكل إما حقيقي وإما مجازي ، فالحقيقي نحو : ما زيد إلا كاتب ؛ أي : لا صفة له غير ذلك ، وهو كالمحال ؛ لتعذر أن يكون لذات صفة واحدة فقط ، ولم يقع منه شيء في القرآن .

والمجازي نحو : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ أي : مقصور على الرسالة ، لا يتعداها

---

(١) التلخيص (ص ٦٨٣) .

إلى التبري من الموت الذي استعظموه ذهولاً عن كونه من شأن الإلـه .

وأنكر قوم إفادة (إنما) له ، وترد عليهم آيات كثيرة نحو : ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ .

واعلم : أن المحصور فيه هو الأخير ، ومن ثم كان مفاد : إنما قام زيد إثباتَ القيام لزيد ونفيه عن غيره ، و : إنما زيد قائم إثباته له ونفي غيره عنه .

(مثلوا) أي : صور الأنبياء أو الواصفون لشمائلك ، وهو الأقرب وإن لم يجر له ذكر ؛ لأنه معلوم علىٰ حد : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ .

(صفاتك) جمع صفة ، وهي : ما دل علىٰ معنىً زائد على الذات ، محسوس كالأبيض ، أو معقول كالعالم (للناس) من الأنس ، فيختص ببني آدم ، فأصله : الأناس ، حذفت همزته تخفيفاً ، لا لتعويض (أل) عنها ؛ للجمع بينهما ، أو من نوس ، إذا تحرك ، فيعم الجن ، كذا قيل ، والذي في « القاموس » : (الناس يكون من الإنس ومن الجن جمع أنس ، أصله : أناس جمع عزيز ، أدخل عليه « أل ») ثم قال : (وناس الإبل : ساقها ، وأناسه : حركه) .

(كـ) نعت لمصدر محذوف مفعول مطلق لـ(مثلوا) أي : تمثيلاً مثل (ما) : مصدرية (مثل النجوم الماء) أصله : موه بالتحريك ، فهمزته بدل من الهاء ، وهو جوهر ، قيل : لا لون له ، وإنما يتكيف بلون مقابله ، والحق خلافه ، فقيل : أبيض ، وقيل : أسود .

والمعنىٰ علىٰ أن الضمير للأنبياء : أن ما شاركهم فيه من الصفات ـ وإن كملت ـ لم يصل لأدناها غيرهم ؛ لأنها فيه بلغت من الكمال ما لم يبلغه مخلوق ، فهي فيه حقيقة كالنجوم الحقيقية المرئية من غير حائل ، وفيهم كصور النجوم التي ترىٰ في الماء دون حقيقتها ، وشتان ما بينهما ، وإسناد ذلك التصوير إليهم علىٰ هـٰذا مجاز عقلي ، كقول الموحد : أنبت الربيع البقل ، ويحتمل أنه لمح بذلك إلىٰ ما علم من حال الأنبياء أنهم نعتوا صفاته الكريمة لأممهم وصوروها لهم ، لـٰكنهم مع ذلك لم يصلوا لتصوير كنهها ؛ لعدم إحاطتهم به ، وإنما غاية ما وصلوا إليه تصوير صورها الحاكية لمبادئها ، كما أن الماء لم يحك من النجوم إلا مجرد صورها لا غير .

وفي هـٰذا من الأبلغية في المدح ما لا يخفىٰ ؛ لأن الأنبياء مع كمالهم الأكبر إذا عجزوا عن إدراك حقائق صفاته العلية . . كان غيرهم أعجز ، لا يقال : هـٰذا يستغنىٰ عنه بما يأتي في قوله :

. . . . إِلاَّ بَشَّـرَتْ قَـوْمَهَـا بِـكَ ٱلأَنْبِيَـاءُ

لأن ذلك في مطلق تبشيرهم بأنه سيوجد ، وهـٰذا في بيان صفات ذلك المبشر به .

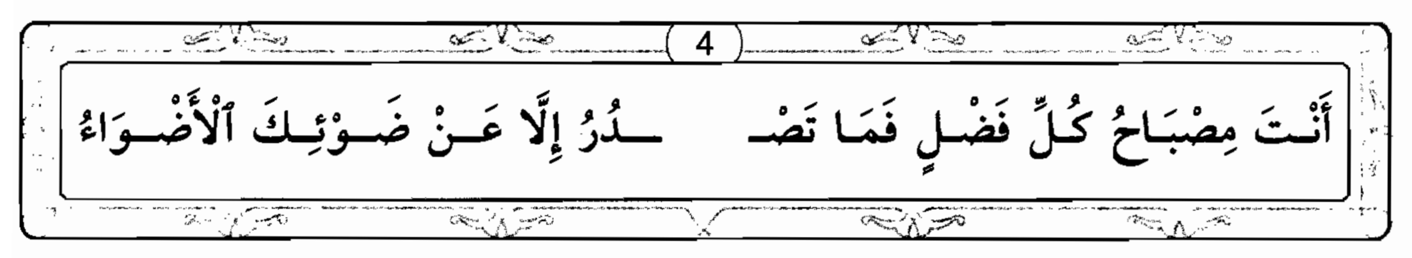
وعلىٰ أنه للواصفين[1] : أنهم وإن أكثروا الأوصاف وتفننوا في إيرادها علىٰ أبلغ أنواع البلاغة وأكمل قوانين الفصاحة . . فغاية ما وصلوا إليه أن أدركوا لوائح منها ، وعجزوا عن إدراك شيء من حقائقها ، كما أن غاية من يرى النجوم في الماء أنه يدرك مبادىء أوصافها ، ويعجز عن إدراك حقائقها .

وقد شرح الناظم هـٰذا بقوله في « بردة المديح » :

أَعْيَـا ٱلْـوَرَىٰ فَهْـمُ مَعْنَـاهُ (البيتيـن)[2]

وهـٰذا البيت من جملة التذييل أيضاً ، بناء على المعنى الأول ؛ لأنه برهان ظاهر علىٰ ما قدمه من نفي المساواة ، بل في الحقيقة القصيدة كلها برهان علىٰ مطلعها ، وشرح وبيان له كما مر .

ولما قرر أن ما أوتيه من المزايا لا تدرك غاياتها ، بل ولا حقائقها . . زاد ذلك تقريراً وتمكيناً في النفوس فقال :



(أنت) أيها العلم الفرد الذي لا يساوىٰ ، بل ولا يدانىٰ (مصباح) أي : سراج ،

---

(١) أي : الضمير في قول الناظم رحمه الله : (إنما مثلوا . . .) .

(٢) وهما :

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى ... في القرب والبعد فيه غير منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بُعُد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم

فهو مقتبس من قوله تعالىٰ : ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ .

(كل) : اسم موضوع لاستغراق أفراد المنكر المضاف هو إليه كما هنا ، والمعرف المجموع نحو : ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ ، وأجزاء المفرد المعرف نحو : ﴿ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ بإضافة ﴿ قَلْبِ ﴾ إلىٰ ﴿ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي : علىٰ كل أجزائه ، وقراءة التنوين لعموم أفراد القلوب[1] .

ثم إن لم يكن نعتاً لنكرة ولا توكيداً لمعرفة بأن تلاها العامل كما هنا . . جازت إضافتها كما هنا وقطعها نحو : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ﴾ .

واعلم : أنها حيث أضيفت لمنكر وجب في ضميرها مراعاة معناها ، نحو : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ ، ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ ﴾ أو لمعرف . . جازت مراعاة لفظها في الإفراد والتذكير ، ومراعاة معناها ، وكذا إذا قطعت ، نحو : ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ ، ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ وأنها حيث وقعت في حيز نفي ، بأن سبقتها أداته أو فعل منفي نحو : ما جاء كل القوم ، ولم آخذ كل الدراهم . . لم يتوجه النفي إلا لسلب شمولها ، فتفهم إثبات الفعل لبعض الأفراد ما لم يدل الدليل علىٰ خلافه ، نحو : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ مفهومه إثبات المحبة لأحد الوصفين ، لٰكن لا نظر إليه ؛ للإجماع علىٰ تحريم الاختيال والفخر مطلقاً ، وحيث وقع النفي في حيزها كقوله صلى الله عليه وسلم في خبر ذي اليدين : « كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ »[2] . . توجه إلىٰ كل فرد فرد ، كذا ذكره البيانيون ، وإنما سقت هٰذا جميعه هنا لأنه لنفاسته وكثرة الاحتياج إليه . . مما ينبغي أن يستفاد ويحفظ .

(فضل) وكمال برز لغيرك في الوجود ؛ لأنك الخليفة الأكبر الممد لكل موجود ، وشاهده ما صح من خبر : « آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي »[3] ، وخبر : « إِنَّمَا أَنَا

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو وابن عامر من رواية ابن ذكوان . انظر « النشر » (٢/ ٣٦٥) لابن الجزري رحمه الله .

(٢) أخرجه مسلم (٥٧٣) ، وأبو داوود (١٠٠٠) ، والنسائي (١٢٢٦) ، وأحمد (٢/ ٤٥٩) .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٨١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٤٨٨) ، وأبو يعلىٰ (٢٣٢٨) .

قَاسِمٌ ، وَٱللهُ يُعْطِي »[١] ، وخبر : « لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيّاً . . مَا وَسِعَهُ إِلاَّ ٱتِّبَاعِي »[٢] ، وخبر : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ »[٣] وآثر التشبيه بالسراج على القمرين ؛ لأنه تقتبس منه الأنوار بسهولة ، وتخلفه فروعه فتبقىٰ بعده .

ووجه التشبيه : أن نوره صلى الله عليه وسلم يظهر الأشياء المعنوية كنور البصائر ، ونور السراج يظهر المحسوسة كنور البصر ، ولا ريب أن المحسوس أظهر من المعقول من حيث هو معقول ، فلذا شبه نوره صلى الله عليه وسلم لكونه معقولاً بنور السراج ؛ لكونه محسوساً ، فلا ينافي ذلك أن السراج دونه صلى الله عليه وسلم ، بل لا نسبة ، ويمكن أنه من التشبيه المقلوب كما في قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ .

وإذا تقرر أن كمالات غيره المشبهة بالأضواء مستمدة من كماله الذي هو الضوء الأعلىٰ . . (فـ) بسبب ذلك ، (ما تصدر) أي :[لا] يبرز في الوجود ضوء ينشأ عن ضوء أحد مطلقاً (إلا) ضوؤك ، فأنت المخصوص بأنك الذي يبرز (عن ضوئك) الذي أكرمك الله به (**الأضواء**) كلها ، من الآيات والمعجزات وسائر المزايا والكرامات ، وإن تأخر وجودك عن وجود الأنبياء ؛ لأن نور نبوتك متقدم عليهم ، بل وعلىٰ جميع المخلوقات ، وشاهده : حديث عبد الرزاق بسنده عن جابر رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء ، قال « يَا جَابِرُ ؛ إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ خَلَقَ قَبْلَ ٱلأَشْيَاءِ نُورَ نَبِيِّكَ مِنْ نُورِهِ ، فَجَعَلَ ذَلِكَ ٱلنُّورُ يَدُورُ بِٱلْقُدْرَةِ حَيْثُ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَىٰ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ لَوْحٌ وَلاَ قَلَمٌ ، وَلاَ جَنَّةٌ وَلاَ نَارٌ ، وَلاَ مَلَكٌ وَلاَ سَمَاءٌ ، وَلاَ أَرْضٌ وَلاَ شَمْسٌ وَلاَ قَمَرٌ ، وَلاَ جِنِّيٌّ وَلاَ إِنْسِيٌّ ، فَلَمَّا أَرَادَ ٱللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَخْلُقَ ٱلْخَلْقَ . . قَسَمَ ذَلِكَ ٱلنُّورَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ ، فَخَلَقَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلأَوَّلِ ٱلْقَلَمَ ، وَمِنَ الجزء ٱلثَّانِي ٱللَّوْحَ ، وَمِنَ ٱلثَّالِثِ ٱلْعَرْشَ ، ثُمَّ قَسَمَ ٱلْجُزْءَ ٱلرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ ، فَخَلَقَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧١) ، وأحمد (٤/ ١٠١) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٨) ، وأبو يعلىٰ (٢١٣٥) .

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥) ، قال الإمام النووي رحمه الله : (ويجوز عند أهل العربية بناؤهما على الضم . . .) ثم قال : (وقد أفادني هذا الحرف الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أمية ، أدام الله نعمه عليه ، وقال : الفتح صحيح ، وتكون الكلمة مؤكدة كشذر مذر وشغر بغر وسقطوا بين بين ، فركبهما وبناهما على الفتح) . اهـ من « شرح مسلم » (٣/ ٧١) .

مِنَ ٱلأَوَّلِ ٱلسَّمَاوَاتِ ، وَمِنَ ٱلثَّانِي ٱلأَرَضِينَ ، وَمِنَ ٱلثَّالِثِ ٱلْجَنَّةَ وَٱلنَّارَ ، ثُمَّ قَسَمَ الجزء ٱلرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ ، فَخَلَقَ مِنَ ٱلأَوَّلِ نُورَ أَبْصَارِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَمِنَ ٱلثَّانِي نُورَ قُلُوبِهِمْ ، وَهِيَ ٱلْمَعْرِفَةُ بِٱللهِ ، وَمِنَ ٱلثَّالِثِ نُورَ أُنْسِهِمْ ، وَهُوَ ٱلتَّوْحِيدُ : لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ . . . » الحديث .

وصح حديث : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ ٱللهُ ٱلْقَلَمُ »[1] ، وجاء بأسانيد متعددة : « إِنَّ ٱلْمَاءَ لَمْ يُخْلَقْ شَيْءٌ قَبْلَهُ » ولا ينافيان ما في الأول في نور نبينا ؛ لأن الأولية في غيره نسبية ، وفيه حقيقية ، فلا تعارض .

وفي حديث عند ابن القطان : « كُنْتُ نُوراً بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ » ، وفي الخبر : « لَمَّا خَلَقَ ٱللهُ تَعَالَىٰ آدَمَ . . جَعَلَ ذَلِكَ ٱلنُّورَ فِي ظَهْرِهِ ، فَكَانَ يَلْمَعُ فِي جَبْهَتِهِ فَيَغْلِبُ عَلَىٰ سَائِرِ نُورِهِ . . . » الحديث .

وصح خبر : متىٰ كنت أو كتبت نبياً ؟ قال : « وَآدَمُ بَيْنَ ٱلرُّوحِ وَٱلْجَسَدِ »[2] .

وليس المراد من ذلك التقدير ؛ لأن غيره كذلك ، بل الإشارة إلىٰ كون روحه العلية ثبت لها ذلك الوصف دون غيرها في عالم الأرواح ؛ إذ ورد : أن الأرواح خلقت قبل الأجساد بألفي عام[3] .

وفي حديث عبد الرزاق السابق تأييد لما قيل : إن الله تعالىٰ لما خلق نور نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . . أمره أن ينظر إلىٰ نور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به ، وقالوا : يا ربنا ؛ من الذي غشينا نوره ؟ فقال : (هـٰذا نور محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، إن آمنتم به . . جعلتكم أنبياء ، فقالوا : آمنا به وبنبوته) فقال الله تعالى : (أشهد عليكم) قالوا : نعم ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .

وفي هـٰذه الآية ـ كما قاله التقي السبكي ـ من التنويه بقدره العلي ما لا يخفىٰ ، وفيها ـ مع ذلك ـ أنه علىٰ تقدير مجيئه يكون مرسلاً إليهم وإلىٰ أممهم ، فتكون رسالته

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧) ، وأبو داوود (٤٦٦٨) ، والترمذي (٣٣١٩) .
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٦٦) ، والترمذي (٣٦٠٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٩٣) .
(٣) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٢/ ١٨٧) .

عامة لجميع الخلق ، فهو نبي الأنبياء ، ولذا كانوا كلهم يوم القيامة تحت لوائه صلى الله عليه وسلم .

واستعارة (المصباح) للفضل المبني علىٰ تشبيهه ببيت واسع يحتاج الناس إلىٰ دخوله ، و(سراج) فيه استعارة بالكناية تتبعها استعارة تخييلية ، واستعارة السراج الذي يستمد منه الأضواء لنبينا صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الذي يستمد منه الكمالات بأسرها ، وآثره على القمرين ؛ لأنه يستمد منه الأضواء بسهولة ، وتخلفه فروعه فتبقىٰ بعده ، والضوء الذي هو أعلىٰ من النور بدليل : ﴿ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ لصفات الكمال استعارة مصرحة ، بجامع أن كلاً من الضوءين المعقول والحسي يهدي إلى المقصود ، وأيضاً الكمالات الدينية تنور الظاهر والباطن .

5

لَـكَ ذَاتُ ٱلْعُلُـومِ مِـنْ عَـالَـمِ ٱلْغَيْـ ـــبِ وَمِنْهَـا لِآدَمَ ٱلْأَسْمَـاءُ

(لك) لا لغيرك (ذات) أصلها مؤنث ذو المقتضية لموصوف ، واللازمة للإضافة غالباً ، كرجل ذي مال ، ثم استعملوها استعمال الأسماء المستقلة بمعنىً فقالوا : ذات قديمة ، ونسبوا للفظها فقالوا : ذاتي ، وقد تستعمل بمعنىٰ نفس الشيء وحقيقته كما هنا ، وكما في قول خبيب رضي الله عنه : (وَذَلِكَ فِي ذَاتِ ٱلإِلَـٰهِ) .

(العلوم) جمع علم ، وهو هنا : صفة ينجلي بها المذكور لمن قامت به انجلاءً تاماً ، أو الإدراك الجازم الذي لا يحتمل النقيض ، وحد بحدود أخرىٰ كلها مدخولة أيضاً ، وترادفه المعرفة ، لـٰكن لا يقال لله : عارف ؛ لأنها تستدعي سبق جهل ، بخلاف العلم واليقين ، لـٰكن فرق بينهما بعض المحققين بأن اليقين خاص بما من شأنه أن يتطرق إليه شك ، فلا يقال : تيقنت أن الواحد نصف الاثنين .

وقال الراغب : (اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها ، يقال : علم يقين ، ولا يقال : معرفة يقين ، وهو سكون النفس مع ثبات الحكم)[1] .

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (ص ٨٩٢) .



حال كونها[1] واصلة إليك على لسان الملك ، أو بالإلقاء في الروع ، أو بخلق العلم الضروري ، أو بسماع الكلام النفسي .

(من) فيض (عالم الغيب) مصدر وصف به للمبالغة بمعنى اسم الفاعل ؛ أي : الغائب ، وهو ما لم يشاهد ، لـٰكن بالنسبة إلينا ، وأما بالنسبة إليه تعالىٰ فالكل من عالم الشهادة ، لا المفعول ؛ أي : المغيب ، خلافاً لمن زعمه ؛ لأن غاب لازم ، وخص بالذكر علىٰ حد قوله تعالىٰ : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا . . . ﴾ الآية ؛ لأن العلم به أفخم وأظهر ، ولأن أكثر علوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تتعلق بالمغيبات ، بدليل : « فَعُلِّمْتُ عِلْمَ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ » في الحديث المشهور ، ولأنه تعالى اختص به ، لـٰكن من حيث الإحاطة والشمول ؛ لعلمه بالكليات والجزئيات ، فلا ينافي ذلك إطلاع الله تعالىٰ لبعض خواصه علىٰ كثير من المغيبات حتىٰ من الخمس التي قال فيهن صلى الله عليه وسلم : « فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[2] لأنها جزئيات معدودات لا غير ، وإنكار المعتزلة لذلك مكابرة ، فقد وقع للأنبياء والأولياء من ذلك ما لا يمكن عده ، لا سيما ما وقع لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وسيأتي بسط جملة مما أخبر به صلى الله عليه وسلم من المغيبات في شرح قوله :

. . . . وَكَمْ أَخْـــرَجَ خَـبْءاً لَـهُ ٱلْغُيُـوبُ خِبَـاءُ

وجملة مما يتعلق بإنكار المعتزلة أواخر الكتاب .

(ومنها) أي : العلوم بمعنى المعلومات ، وهو متعلق بالأسماء (لآدم) أبي البشر صلى الله عليه وسلم ، وأصله : أأدم ، لـٰكنهم لينوا الثانية تخفيفاً ، وجعلوها في التصغير واواً نظراً لتليينها ، من الأدمة بالسكون أو الفتح ، أو من أديم الأرض كما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما[3] ، وروي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما .

وأديم الأرض : ظاهر وجهها ، والأُدْمة : السمرة ، وهو مراد من قال : لون

---

(١) أي : العلوم .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) ، وابن ماجه (٦٤) ، وأحمد (٥/ ٣٥٣) .

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٨٠) .

يقارب السواد ، ومن قال : يشبه التراب ، واستشكل بما ورد من براعة جماله ، وأن يوسف صلى الله عليه وسلم كان على الثلث من جماله صلى الله عليه وسلم ، وقد يجاب بأن الجمال لا ينافي السمرة ؛ لأنها بين البياض والحمرة .

قيل : اشتقاقه مما ذكر يؤيد القول بأنه عربي ، وبه صرح الجواليقي وغيره[1] ، ورد بأن توافق اللغتين غير منكر ، وبأنه لا دليل علىٰ أن الاشتقاق من خواص كلام العرب .

وأجيب بأن الأصل عدم التوافق ، وبأن الوجه أن الاشتقاق خاص بكلام العرب ، فقد أطبقوا على التفرقة بين اللفظ العربي والعجمي بصحة الاشتقاق ، وصح خبر : أن آدم كان يتكلم بكل لسان ، ولـٰكن الغالب أنه كان يتكلم بالسرياني .

(**الأسماء**) : مبتدأ مؤخر جمع اسم ، وهو هنا : ما دل علىٰ معنىً ، فيشمل الفعل والحرف أيضاً ، واحتاج الناظم إلىٰ هـٰذا التفصيل مع العلم به مما قبله ؛ لأن آدم ميزه الله على الملائكة بالعلوم التي علمها له وكانت سبباً لأمرهم بالسجود والخضوع له بعد استعلائهم عليه بذمه ومدحهم لأنفسهم بقولهم : ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا . . . ﴾ إلخ ، فربما يتوهم أن هـٰذه المرتبة الباهرة لم تحصل لنبينا ؛ إذ قد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل ، فرد ذلك التوهم ببيان أن آدم لم يحصل له من العلوم إلا مجرد العلم بأسمائها .

وأن الحاصل لنبينا صلى الله عليه وسلم هو العلم بحقائقها ومسمياتها ، ولا ريب أن العلم بهـٰذا أعلىٰ وأجل من العلم بمجرد أسمائها ؛ لأنها إنما يؤتىٰ بها لتبيين المسميات ، فهي المقصودة بالذات ، وتلك بالوسيلة ، وشتان ما بينهما ، ونظير ذلك : أن المقصود من خلق آدم إنما هو خلق نبينا صلى الله عليه وسلم من صلبه ، فهو المقصود بطريق الذات ، وآدم بطريق الوسيلة ، ومن ثم قال بعض المحققين : إنما سجد الملائكة لآدم لأجل نور محمد صلى الله عليه وسلم الذي في جبهته .

ثم ما سلكه الناظم من أن آدم إنما علم ـ أي : بإحدى الطرق السابقة آنفاً ـ الأسماء فقط ؛ أي : الألفاظ الموضوعة بإزاء الأعيان والمعاني . . هو الوارد عن ابن عباس

---

(١) نقل ذلك الإمام النووي رحمه الله في « تهذيب الأسماء واللغات » (١/ ٩٦) .

رضي الله عنهما ، وعليه فقيل : علم الأسماء الموضوعة بكل لغة وعلمها أولاده ، فلما افترقوا في البلاد وكثروا . . اقتصر كل قوم علىٰ لغة ، وهـٰذا يقوي ما هو الأصح في الأصول : أن اللغات كلها توقيفية .

وقيل : إنما علم لغة واحدة ؛ لأن الحاجة لم تدع إلا إليها ، وأما بقية اللغات . . فبالتواضع .

ويقابل ما سلكه الناظم قولان :

أحدهما : أنه إنما علم مدلولاتها ؛ لأن المزية في العلم إنما تحصل بمعرفة مقاصد المخلوقات ومنافعها ، لا بمعرفة أن أسماءها كذا وكذا .

قال بعض المحققين : وهـٰذا وإن قرب من المعنىٰ . . فهو بعيد من اللفظ ؛ أي : لأن قوله تعالى : ﴿ بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ وما بعده . . ظاهر أو صريح في الأسماء فقط .

ومعنىٰ : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ أي : الأعيان ؛ لأنها التي تعرض دون الأسماء . . أنها أبرزت إليهم ليخبروا بأسمائها ، فلا تأييد فيه لكون المعلم المسميات ، خلافاً لمن زعمه .

ثانيهما ـ وهو الذي سلكه صاحب « الكشاف » ـ : أنه علم الأمرين معاً ؛ جمعاً بين مقتضى اللفظ والمعنى[١] .

ولما ذكر شرف ذاته وترقيه صلى الله عليه وسلم بما يبهر العقول . . انتقل إلىٰ ذكر شرف نسبه كذلك ، فقال مستأنفاً :

6

لَمْ تَزَلْ فِي ضَمَائِرِ ٱلْكَوْنِ تُخْتَا رُ لَــكَ ٱلْأُمَّهَــاتُ وَٱلْآبَــاءُ

(لم تزل) حال كونك (في ضمائر الكون) أي : الوجود ، وضمائره : مستوراته الخفية من الأصلاب والأرحام (تختار) أي : تصطفىٰ (لك الأمهات) جمع أم ،

---

(١) عبارته في « الكشاف » (١/ ١٥٥) : (فإن قلت : فما معنىٰ تعليمه أسماء المسميات ؟ . . قلت : أراه الأجناس التي خلقها ، وعلمه أن هـٰذا اسمه فرس ، وهـٰذا اسمه بعير ، وهـٰذا اسمه كذا ، وهـٰذا اسمه كذا ، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية) .

وهي : الوالدة وإن علت ، وأصلها : أمهة ؛ لجمعها علىٰ أمهات ، قيل : أمهات للآدميات ، وأمات لغيرهن (والآباء) جمع أب ، وأصله : أبو ـ بالتحريك ـ حذفت واوه تخفيفاً ؛ أي : كما طابت ذاتك بما أوتيته من الكمال الأعلىٰ . . كذلك طاب نسبك ، فلم يكن في أمهاتك من لدن حواء إلىٰ أمك آمنة ، ولا في آبائك من لدن آدم إلىٰ أبيك عبد الله إلا من هو مصطفىً مختار ، وشاهد ذلك حديث البخاري : « بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْناً فَقَرْناً ، حَتَّىٰ كُنْتُ مِنَ ٱلْقَرْنِ ٱلَّذِي كُنْتُ مِنْهُ »[1] ، وحديث مسلم : « إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَٱصْطَفَىٰ قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ ، وَٱصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَٱصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ »[2] ، وحديث الترمذي بسند حسن : « إِنَّ ٱللهَ خَلَقَ ٱلْخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ فِرَقِهِمْ ، ثُمَّ تَخَيَّرَ ٱلْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ ، ثُمَّ تَخَيَّرَ ٱلْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ بُيُوتِهِمْ ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْساً ـ أي : روحاً وذاتاً ـ وَخَيْرُهُمْ بَيْتاً »[3] أي : أصلاً ، وحديث الطبراني : « إِنَّ ٱللهَ ٱخْتَارَ ٱلْخَلْقَ فَٱخْتَارَ مِنْهُمْ بَنِي آدَمَ ، ثُمَّ ٱخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ فَٱخْتَارَ مِنْهُمُ ٱلْعَرَبَ ، ثُمَّ ٱخْتَارَنِي مِنَ ٱلْعَرَبِ ، فَلَمْ أَزَلْ خِيَاراً مِنْ خِيَارٍ ، أَلاَ مَنْ أَحَبَّ ٱلْعَرَبَ . . فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَ ٱلْعَرَبَ . . فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ »[4] .

واعلم : أن آدم أولدَ حواء أربعين ولداً في عشرين بطناً ، إلا شيثاً وصيه فإنه ولد منفرداً كرامة لكون نبينا صلى الله عليه وسلم من نسله ، ثم لما توفي . . وصىٰ بنيه بوصية أبيه له : أن لا يضع هـٰذا النور ـ أي : الذي كان بجبهة آدم ثم انتقل إلىٰ شيث ـ إلا في المطهرات من النساء ، ولم تزل هـٰذه الوصية معمولاً بها في القرون الخالية إلىٰ أن وصل ذلك النور إلىٰ جبهة عبد المطلب ثم ولده عبد الله ، وطهر الله تعالىٰ هـٰذا النسب الشريف من سفاح الجاهلية كما ورد في الأحاديث ، كحديث البيهقي في « سننه » : « مَا وَلَدَنِي مِنْ سِفَاحِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ ، مَا وَلَدَنِي إِلاَّ نِكَاحُ ٱلإِسْلاَمِ »[5]

---

(١) البخاري (٣٥٥٧) .

(٢) مسلم (٢٢٧٦) .

(٣) الترمذي (٣٦٠٧) .

(٤) المعجم الأوسط (٦١٨٧) .

(٥) السنن الكبرىٰ (٧/ ١٩٠) .

وسفاحهم ـ بكسر السين ـ : زناهم ، كانت المرأة منهم تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها .

وروى ابن سعد وابن عساكر عن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال : (كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم خمس مئة أم ، فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان في أمر الجاهلية)[1] .

والطبراني وأبو نعيم وابن عساكر : « خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَىٰ أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي ، لَمْ يُصِبْنِي مِنْ سِفَاحِ أَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ »[2] .

وأبو نعيم : « لَمْ يَلْتَقِ أَبَوَايَ قَطُّ عَلَىٰ سِفَاحٍ ، لَمْ يَزَلِ ٱللهُ يَنْقُلُنِي مِنَ ٱلأَصْلاَبِ ٱلطَّيِّبَةِ إِلَى ٱلأَرْحَامِ ٱلطَّاهِرَةِ مُصَفًّى مُهَذَّباً لاَ يَتَشَعَّبُ شُعْبَتَانِ إِلاَّ كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا »[3] .

وابن مردويه : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد جاءكم رسول من أنفَسكم) أي : بفتح الفاء ، وقال : « أَنَا أَنْفَسُكُمْ نَسَباً وَصِهْراً وَحَسَباً ، لَيْسَ فِي آبَائِي مِنْ لَدُنْ آدَمَ سِفَاحٌ ، كُلُّنَا نِكَاحٌ »[4] .

تنبيه : لك أن تأخذ من كلام الناظم الذي علمت أن الأحاديث مصرحة به لفظاً في أكثره ، ومعنىً في كله : أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم غيرَ الأنبياء وأمهاته إلىٰ آدم وحواء.. ليس فيهم كافر ؛ لأن الكافر لا يقال في حقه : إنه مختار ولا كريم ولا طاهر ، بل نجس ، كما في آية : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ ، وقد صرحت الأحاديث السابقة بأنهم مختارون ، وأن الآباء كرام والأمهات طاهرات ، وأيضاً فهم إلىٰ إسماعيل كانوا من أهل الفترة ، وهم في حكم المسلمين بنص الآية الآتية ، وكذا من بين كل رسولين ، وأيضاً قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ علىٰ أحد التفاسير

---

(١) في النسخ : (مئة أم) ، والمثبت من « الطبقات الكبرى » (١/ ٦٠) ، و« تاريخ دمشق » (٣/ ٤٠٣) .

(٢) المعجم الأوسط (٤٧٢٥) ، ودلائل النبوة (١/ ٦٥) ، وتاريخ دمشق (٣/ ٤٠٢) .

(٣) دلائل النبوة (١/ ٦٦) .

(٤) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٤/ ٣٢٧) ، وقوله : (بفتح الفاء) قرأها هٰكذا ابن عباس ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن محيصن ، ومحبوب عن أبي عمرو ، وعبد الله بن قسيط المكي ، ويعقوب من بعض طرقه . انظر « البحر المحيط » لأبي حيان (٥/ ١١٨) .

فيه أن المراد : تنقل نوره من ساجد إلىٰ ساجد ، وحينئذ فهـٰذا صريح في أن أبوي النبي صلى الله عليه وسلم آمنة وعبد الله من أهل الجنة ؛ لأنهما أقرب المختارَين له صلى الله عليه وسلم ، وهـٰذا هو الحق ، بل في حديث صححه غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه : أن الله تعالى أحياهما له فآمنا به ، خصوصية لهما وكرامة له صلى الله عليه وسلم[1] .

فقول ابن دحية : (يرده القرآن والإجماع) . . ليس في محله ؛ لأن ذلك ممكن شرعاً وعقلاً علىٰ جهة الكرامة والخصوصية ، فلا يرده قرآن ولا إجماع ، وكون الإيمان به لا ينفع بعد الموت محله في غير الخصوصية والكرامة .

وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم ردت عليه الشمس بعد مغيبها ، فعاد الوقت حتىٰ صلىٰ علي رضي الله عنه العصر أداء كرامة له صلى الله عليه وسلم ، فكذا هنا ، وطعن بعضهم في صحة هـٰذا بما لا يجدي أيضاً[2] .

وخبر : أنه تعالىٰ لم يأذن لنبيه صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لأمه[3] إما كان قبل إحيائها له وإيمانها به ، أو أن المصلحة اقتضت تأخير الاستغفار لها عن ذلك الوقت ، فلم يؤذن له فيه حينئذ .

فإن قلت : إذا قررتم أنهما من أهل الفترة وأنهم لا يعذبون . . فما فائدة الإحياء ؟

قلت : فائدته : إتحافهما بكمال لم يحصل لأهل الفترة ؛ لأن غاية أمرهم أنهم ألحقوا بالمسلمين في مجرد السلامة من العقاب ، وأما مراتب الثواب العلية . . فهم بمعزل عنها ، فأتحفا بمرتبة الإيمان زيادة في شرف كمالهما بحصول تلك المراتب لهما ، وفي هـٰذا مزيد ذكرته في « الفتاوىٰ » .

ولا يرد على الناظم آزر ، فإنه كافر مع أن الله تعالىٰ ذكر في كتابه العزيز أنه أبو إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن أهل الكتابين أجمعوا علىٰ أنه لم يكن أباه حقيقة ، وإنما كان عمه والعرب تسمي العم أباً ، بل في القرآن ذلك ، قال الله تعالىٰ :

---

(١) انظر « الحاوي للفتاوي » للسيوطي (٢/ ٢٣٠) .

(٢) انظر « الحاوي للفتاوي » للسيوطي (١/ ٣٦٩) .

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٦) ، وابن حبان (٥٣٩٠) ، وأحمد (٥/ ٣٥٥) .

﴿ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ مع أنه عم يعقوب ، بل لو لم يجمعوا علىٰ ذلك . . وجب تأويله بهـٰذا جمعاً بين الأحاديث ، وأما من أخذ بظاهره كالبيضاوي وغيره . . فقد تساهل واستروح .

وحديث مسلم : قال رجل : يا رسول الله ؛ أين أبي؟ قال : « فِي ٱلنَّارِ » فلما قفا . . دعاه فقال : « إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي ٱلنَّارِ »[1] . . يتعين تأويله ، وأظهر تأويل له عندي : أنه أراد بأبيه عمه أبا طالب ؛ لما تقرر : أن العرب تسمي العم أباً ، وقرينة المجاز فيه الآية الآتية الشاهدة بخلافه[2] علىٰ أصح محاملها عند أهل السنة ، وأن عمه هو الذي كفله بعد جده عبد المطلب ، أو أنه إنما قصد بذلك أن يطيب خاطر ذلك الرجل خشية أن يرتد ؛ لوقوع سمعه أولاً أن أباه في النار ، بدليل أنه إنما قال له بعد أن ولّىٰ ، أو كان ذلك قبل أن ينزل عليه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ، كما وقع له أنه سئل عن أطفال المشركين فقال : « هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ »[3] ثم سئل عنهم فذكر أنهم في الجنة[4] .

وأما قول النووي رحمه الله تعالىٰ في حديث مسلم : (إن من مات في الفترة علىٰ ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان . . فهو في النار ، وليس في هـٰذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة ؛ فإن هـٰؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره عليه الصلاة والسلام) اهـ[5] . . فبعيد جداً ؛ للاتفاق علىٰ أن إبراهيم ومن بعده لم يرسلوا للعرب ، ورسالة إسماعيل إليهم انتهت بموته ؛ إذ لم يعلم لغير نبينا صلى الله عليه وسلم عموم بعثه بعد الموت ، وقد يؤول كلامه بحمله على عباد الأوثان الذين ورد فيهم أنهم في النار ، وبهـٰذا يرد كلام الفخر الرازي القريب من كلام النووي .

ثم رأيت الأُبِّي شارح « مسلم » بالغ في الرد على النووي بأن كلامه متناف ، لحكمه بأنهم أهل فترة وبأن الدعوة بلغتهم ، ومن بلغتهم الدعوة ليسوا أهل فترة ؛ لأنهم الأمم

---

(١) مسلم (٢٠٣) .
(٢) أي : بخلاف حديث : « إن أبي وأباك في النار » .
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٨٤) .
(٤) في حديث أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧/ ٢٤٤) عن سمرة بن جندب قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أطفال المشركين فقال : « هم خدم أهل الجنة » .
(٥) شرح صحيح مسلم (٣/ ٧٩) .

الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول ولا أدركوا الثاني ، ثم قال : (ولما دلت القواطع علىٰ أنه لا تعذيب حتىٰ تقوم الحجة . . علمنا أن أهل الفترة غير معذبين) اهـ وهو موافق لما ذكرته .

وما أحسن قول بعض المتوقفين في هـٰذه المسألة : (الحذرَ الحذرَ من ذكرهما بنقص ، فإن ذلك قد يؤذيه صلى الله عليه وسلم ؛ لحديث الطبراني : « لاَ تُؤْذُوا ٱلأَحْيَاءَ بِسَبِّ ٱلأَمْوَاتِ ») اهـ[1]

وأما الذين صح تعذيبهم مع كونهم من أهل الفترة . . فلا يردون نقضاً علىٰ ما عليه الأشاعرة من أهل الكلام والأصول ، والشافعيةُ من الفقهاء : أن أهل الفترة لا يعذبون ، وسبب ذلك : أننا عهدنا في الغلام الذي قتله الخضر أنه حكم بكفره مع صباه ؛ لأمر يعلمه الله وحده ، فكذا هـٰؤلاء يحكم بكفرهم بخصوصهم وإن لم تبلغهم الدعوة ؛ لأمر يعلمه الله ورسوله ، فلا يرد هـٰؤلاء نقضاً علىٰ ما استفيد من الآية ومشىٰ عليه أولـٰئك الأئمة أن أهل الفترة لا يعذبون ، وهـٰذا الذي ذكرته في الجواب أولىٰ من الجواب بأن أحاديثهم أخبار آحاد ، فلا تعارض القطع بأن أهل الفترة لا يعذبون ، أو بأن التعذيب المذكور في الأحاديث مقصور علىٰ من بدل وغير من أهل الفترة بما لا يعذر به كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع ، وكأن قائل هـٰذا ممن يرىٰ وجوب الإيمان بالعقل ، والذي عليه أكثر أهل السنة والجماعة أنه لا يجب توحيد ولا غيره إلا بعد إرسال الرسل إليهم ، ومن المقرر : أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل صلى الله عليه وسلم ، وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته ، فلا فرق بين من غير و بدل وغيره ما عدا من صح تعذيبه فيقصر ذلك عليه ؛ لأنه لا قياس في ذلك .

وقول أبي حيان : إن الرافضة هم القائلون : إن آباء النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنون غير معذبين مستدلين بقوله تعالىٰ : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾[2] . . فلك رده بأن مثل أبي حيان إنما يرجع إليه في علم النحو وما يتعلق به ، وأما المسائل الأصولية . . فهو عنها بمعزل ، كيف والأشاعرة ومن ذكر معهم فيما مر آنفاً علىٰ أنهم غير

---

(١) المعجم الأوسط (٤٢٧٧) .

(٢) البحر المحيط (٧/ ٤٧) .

معذبين ؟! فنسبة ذلك للرافضة وحدهم مع أن هـٰؤلاء الذين هم أئمة أهل السنة قائلون به . . قصور أي قصور ؟ وتساهل أي تساهل ؟

7

مَا مَضَتْ فَتْرَةٌ مِنَ ٱلرُّسْلِ إِلَّا بَشَّرَتْ قَوْمَهَا بِكَ ٱلْأَنْبِيَاءُ

(ما مضت فترة) وهي : ما بين موت الرسول وبعثة الرسول الذي يليه ، كما بين عيسىٰ ونبينا صلى الله عليه وسلم ، واختلفوا في قدرها ، والمشهور : أنها نحو ست مئة سنة ؛ أي : زمن خال (من الرسل) جمع رسول ، وقد مر تعريفه أول الكتاب ؛ أي : ما مضىٰ زمن خال من الرسل نسي فيه ذكرك (إلا) جددته و(بشرت) من البشارة وهي : الخبر السار (قومها) ليس فيه إضمار قبل الذكر ؛ لأن مرجع الضمير الفاعل وهو متقدم الرتبة وإن تأخر لفظه ، علىٰ أنه يحتمل ـ علىٰ بُعْد ـ أن الضمير للفترة ؛ أي : إلا بشرت الأقوام الكائنين في تلك الفترة (بك) أي : بقرب بعثتك وباهر رسالتك وعظمتك (الأنبياء) أي : الرسل الذين أتوا بعد تلك الفترة ، وفي هـٰذا استدلال واضح على كمال شرفه صلى الله عليه وسلم ورفعته علىٰ ألسنة الرسل ، وأنه نبي الأنبياء المقدم عليهم التابعون له هم وأممهم ، وشاهد ذلك قول الله تعالىٰ عن عيسىٰ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : « أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ـ أي : في آية : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ ـ وَبِشَارَةُ عِيسَىٰ »[1] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ أي : وأممهم ، وحذف استغناء بذكر المتبوعين عن ذكر الأتباع ﴿ لَمَا ﴾ مفتوحةً توطئة للقسم الذي تضمنه أخذ الميثاق ، و﴿ لَتُؤْمِنُنَّ ﴾ سد مسد جوابه وجواب ما الشرطية ، ومكسورةً ؛ أي : لأجل ما ﴿ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ أي : وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ . . . ﴾ الآية .

وقد اختلف المفسرون فيها ، والذي قاله علي وابن عباس رضي الله عنهم ،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٤٠٤) ، والحاكم (٢/ ٦٠٠) ، وأحمد (٤/ ١٢٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٨٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٢٥٢) .

وتبعهما الحسن وطاووس وقتادة رحمهم الله . . أنه تعالىٰ أخذ علىٰ كل نبي بعثه من لدن آدم إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه[١] ، ويلزم من هٰذا أن الأنبياء كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنهم إن أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم . . آمنوا به ونصروه ، ودعوىٰ أن هٰذا هو معنى الآية دون الأول . . مردودة ، ولا ينافي الأول العلم بأن الأنبياء لا يدركون حياته صلى الله عليه وسلم ، ولا الحكم في آخر الآية بالفسق علىٰ من تولىٰ عن ذلك ؛ لأن التعليق في مثل ذلك لا يستلزم الوقوع ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ ؟ فالمقصود أنه لو فرض أنه بعث وهم أحياء . . لزمهم ذلك ، كما أن القصد من هاتين الآيتين الفرض والتقدير أيضاً ، ومن ثم قال الإمام التقي السبكي : دلت الآية علىٰ أنهم لو أدركوا زمنه . . كان مرسلاً إليهم ، فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق الأنبياء وأممهم من لدن آدم إلى قيام الساعة ، وحينئذ يدخلون في قوله : « وَأُرْسِلْتُ إِلَى ٱلنَّاسِ كَافَّةً »[٢] .

وحكمة أخذ هٰذا الميثاق على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إعلامهم وأممهم بأنه المقدم عليهم ، وأنه صلى الله عليه وسلم نبيهم ورسولهم ، وقد ظهر ذلك في الدنيا بكونه أمهم ليلة الإسراء ، ويظهر في الآخرة بأنهم كلهم تحت لوائه ، بل وفي آخر الزمان يكون عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ينزل حاكماً بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم دون شريعة نفسه .

ثم بين الناظم فضل بعض تلك البشارات في تلك الفترات فقال :

8

تَتَبَاهَىٰ بِكَ ٱلْعُصُورُ وَتَسْمُو ... بِكَ عَلْيَاءُ بَعْدَهَا عَلْيَاءُ

(تتباهىٰ) أي : تفتخر (بك) أي : بوجودك (العصور) أي : الأزمنة الطويلة من لدن آدم إلىٰ يوم القيامة وما بعده ، فكل عصر يفتخر على العصر الذي قبله ؛

---

(١) أخرج ذلك الطبري في « تفسيره » (٣/ ٢٣٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨) ، ومسلم (٥٢٣) ، والترمذي (١٥٥٣) .

لوجودك فيه بكمال أعلىٰ مما قبله ولو في ضمن آبائك ، لـٰكن أعظمها افتخاراً عصر بروزك إلىٰ هـٰذا العالم ، ثم عصر نشأتك ، ثم عصر رضاعك ، فشق بطنك ، فتعبدك بحراء وغيره ، ثم عصر نبوتك ، ثم عصر رسالتك ، ثم عصر دعائك الخلق إلى الله تعالىٰ ، ثم عصر إقبالهم عليك ، ثم عصر معراجك ، ثم عصر هجرتك ، ثم عصر سراياك ثم عصر جهادك ، ثم عصر بعوثك ، ثم عصر فتوحك ، ثم عصر دخول الناس في دين الله أفواجاً ، ثم عصر حجك ، ثم عصر أتباعك علىٰ تفاوتهم إلىٰ قيام الساعة ، كما دل عليه الحديث المشهور : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي »[1] فمزاياه تتزايد في كل عصر من أعصار حياته صلى الله عليه وسلم علىٰ ما قبله ، وبحسب ذلك يكون افتخار ذلك العصر علىٰ غيره ، وكذلك عصور أتباعه تتفاوت بتفاوت مزاياهم المستمدة من مزاياه ، وأعمالهم المتضاعفة له تضاعفاً يفوق الحصر ؛ لأن كل عامل يتضاعف له صلى الله عليه وسلم بحسب عمله ، وكذلك كل واسطة بينه وبينه ؛ لأنه الدال للكل ، ومن دل علىٰ خير . . فله مثل أجر فاعله بكل حال ، يتضاعف له بحسب تضاعف من بعده ، ويتضاعف للنبي صلى الله عليه وسلم تضاعف الجميع ، وهـٰذا شيء يقصر عن إدراك كثرته العقل .

ثم عصر مقامه المحمود وشفاعته العظمىٰ في فصل القضاء ، ثم عصر بقية شفاعاته ، ثم عصر حوضه ، ثم عصر وسيلته وفضيلته التي يعطاها في الجنة مما لا تدرك غايته ولا تحد نهايته ، فكل هـٰذه العصور تفتخر به بحسب ما يقع فيها من كماله ؛ لأن الأزمنة والأمكنة تشرف بشرف من يكون فيها وما يكون فيها من المزايا والكمالات .

ولذا قال بعضهم : إن ليلة مولده صلى الله عليه وسلم أفضل من ليلة القدر ، وهو صحيح لولا النص على خلافه ، علىٰ أن ليلة القدر من خصوصياته ، فتفضيلها إنما هو لأجله أيضاً .

(وتسمو) أي : تعلو وترتفع ، من سموت وسميت ، كعلوت وعليت (بك)

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١) ، ومسلم (١٥٦) ، وأبو داوود (٢٤٧٦) ، والترمذي (٢١٩٢) ، وابن ماجه (٦) .

أي : بتلبسها بك مرتبة (علياء) تأنيث الأعلى (بعدها) في الزمان والعلو مرتبة أخرىٰ (علياء) أي : أعلىٰ منها ؛ أي : لك في كل عصر من العصور المذكورة مرتبة أعلىٰ مما قبلها وأعلىٰ منها ما بعدها ، وهـٰكذا إلىٰ ما لا نهاية له ، ودليل تفاوت مراتبه كما ذكر قوله تعالىٰ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ، ولا شك أن علومه ومعارفه متزايدة متفاوتة إلىٰ ما لا نهاية له ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ »[1] قال العارف القطب أبو الحسن الشاذلي : (هـٰذا غين أنوار لا غين أغيار) أي : لأنه صلى الله عليه وسلم كان دائم الترقي ، فكان كلما توالت أنوار العلوم والمعارف علىٰ قلبه . . ارتقىٰ إلىٰ مرتبة أعلىٰ مما هو فيها ، ورأىٰ أن ما قبلها دونها ، فيستغفر الله تواضعاً طلباً لتزايد كماله .

وفي قول الناظم : (وتسمو . . .) إلخ من المدح ما لا يخفىٰ عظيم وقعه ؛ لأنه جعل تلك المراتب هي التي تسمو وترتفع به ، ولم يجر علىٰ ما هو المتبادر أنه الذي يسمو ويرتفع بها ؛ لما هو الحق : أنه تعالىٰ خلقه في عالم الأمر علىٰ أكمل كمال يمكن[2] أن يوجد لمخلوق ، ثم أبرزه في عالم الخلق بقدر متدرجاً في تلك المراتب ، فتتشرف به لا يتشرف هو بها ؛ لما علمت أنه كامل قبلها ، فتأمل ذلك فإنه دقيق غفل عنه الشارح .

(9)

وَبَدَا لِلْوُجُودِ مِنْكَ كَرِيمٌ ... مِنْ كَرِيمٍ آبَاؤُهُ كُرَمَاءُ

(وبدا) أي : ظهر (للوجود) أي : لهـٰذا العالم (منك كريم) أي : سالم من كل صفة نقص ، جامع لكل صفة كمال ، وهـٰذا أحد أنواع التجريد الذي هو من أدق أنواع البديع ، وهو ـ أعني التجريد ـ : أن يُنتزع من أمرٍ ذي صفة أمرٌ آخر مماثل لذلك الأمر في تلك الصفة ، مبالغة لكمالها في ذلك الأمر ، حتىٰ كأنه بلغ من الاتصاف بتلك الصفة إلىٰ حيث يصح أن ينتزع منه موصوف آخر بتلك الصفة ، وهو أنواع : منها :

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) ، وأبو داوود (١٥١٠) ، وأحمد (٤/ ٢١١) .
(٢) في (د) : (لا يمكن) .

ما يكون بـ(من) التجريدية كما هنا ، نحو قولهم : لي من فلان صديق حميم ؛ أي : قريب يهتم لأمره ؛ أي : بلغ فلان من الصداقة حدّاً يصح معه أن يُستخلص منه فلانٌ آخر مثلُه في الصداقة ، فهو صلى الله عليه وسلم لكماله في صفة الكرم صح أن ينتزع منه شخص كريم ، مبالغة في صفة كرمه وكماله فيه ، ثم ذلك الكريم الذي ظهر ـ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ـ وجد (من) أصل أب وأم (كريم) أي : سالم من نقص الجاهلية ، فالكريم هنا وفيما بعده غيره ثَمَّ ، كما علم مما مر ويأتي ، وهـٰذا ظاهر في إسلام أبويه صلى الله عليه وسلم ، ومر ما في ذلك (آباؤه) جميعهم ـ كما أفادته الإضافة ـ من لدن آدم إليه صلى الله عليه وسلم ، وأراد بالآباء : ما يشمل الأمهات ؛ لما قدمه أن النوعين مختاران ، والاختيار والكرم مآلهما واحد (كرماء) أي : سالمون من سفاح الجاهلية ونقصهم .

تنبيه : قال ابن دحية : أجمع العلماء ـ والإجماع حجة ـ علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب.. لم يجاوز عدنان ، وفي « مسند الفردوس » عن ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب.. لم يجاوز معد بن عدنان ، ثم يمسك ويقول : « كَذَبَ ٱلنَّسَّابُونَ » لـٰكن قال السهيلي : (الأصح : أن هـٰذا من قول ابن مسعود)[1] قال غيره : (كان ابن مسعود إذا قرأ : ﴿ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.. قال : كذب النسابون)[2] أي : لأنهم يدَّعون علم الأنساب وقد نفى الله علمها عن العباد .

وعن ابن عباس : (بين إسماعيل وعدنان ثلاثون أباً لا يعرفون)[3] ومن ثم أنكر مالك رضي الله تعالىٰ عنه علىٰ من يرفع نسبه إلى آدم وقال : من أخبره بهـٰذا ؟! أي : أن ذلك من كلام المؤرخين الذي لا دليل عليه ولا ثقة به ، مع ما فيه من التخليط والتغيير وقلة الفائدة .

---

(١) الروض الأنف (١/ ٣٤) .
(٢) ذكره البغوي في « تفسيره » (٣/ ٢٧) .
(٣) ذكره البغوي في « تفسيره » (٣/ ٢٧) .

نَسَـــبٌ تَحْسِـــبُ ٱلْعُـــلَا بِحُـــلَاهُ قَلَّـــدَتْهَـــا نُجُـــومَهَـــا ٱلْجَـــوْزَاءُ

هـٰذا (نسب) عظيم ، بل لا أطهر ولا أجل منه في الأنساب ، وهو : اسم لعمود القرابة الذي يجمع متفرقها (**تحسب**) أيها المخاطب ؛ أي : تظن (**العلا**) جمع علياء تأنيث أعلىٰ كما مر (**بحلاه**) ـ بضم أوله وكسره وهو أفصح ـ جمع حلية بكسر أوله ؛ أي : بسبب حلىٰ ذلك النسب (**قلدتها**) ـ أي : العلا ـ في محل مفعول (تحسب) الثاني ، والأول (العلا) ، (**نجومها**) أي : بنجومها (**الجوزاء**) اسم لبرج في السماء كما في « القاموس » ، وعليه فنجومه هي الآتية ، وتطلق عرفاً على النجوم المجتمعة المعروفة ، قيل : وهي تشبه المرآة ، فلذا نسب التقليد إليها ، وحينئذ لا بدع أن ينسب إلى الشيء من حيث هو مجموع أنه قلد غيره كلاًّ من تلك الأفراد التي اشتمل عليها ، أو يقال : إن المراد بنجومها هنا : ما حواليها من النجوم التي تسمىٰ : نطاق الجوزاء ، وقبة الجوزاء ، كما قال القائل : [من البسيط]

لَـوْ لَـمْ تَكُـنْ قُبَّـةُ ٱلْجَـوْزَاءِ خِـدْمَتَـهُ لَمَـا رَأَيْـتَ عَلَيْهَـا عِقْـدَ مُنْتَطِـقِ

أي : من كمال هـٰذا النسب وشرفه أن من تأمل فيه حسب بسبب ما تحلىٰ به من الكمالات : أن معاليه قلدتها الجوزاء بنجومها ؛ أي : جعلت نجومها قلادة لها ، فعلم : أن كلامه يفيد أن كل واحد من أولـٰئك الآباء الكرام قد ارتفع في زمانه حتىٰ صار كأنه النجم في الشرف وعلو المرتبة والإضاءة والاهتداء به في ظلمات البر والبحر ، حتىٰ يظن الظان أنه نجم من نجوم الجوزاء ، وأن ذلك النسب متناسب كتناسب العقد وكاستدارة نجوم الجوزاء ، وأن مجموع هـٰذا النسب كالعقد الثمين جدّاً الذي تُقَلَّدُه عنق تلك المراتب العلية ، فعلم من هـٰذا مع ما قدمته في مبحث الاستعارة ما في هـٰذا البيت من أنواعها البالغة الغاية في البلاغة ، كاستعارة نجوم الجوزاء المتتابعة كتتابع ذلك النسب في الشرف وعلو المرتبة .

ولما قرر أن مجموع ذلك النسب له كالعقد الثمين الذي تقلدته تلك المراتب العلية . . أخذ في مدح ذلك فقال :

حَبَّـــذَا عِقْـــدُ سُـــؤْدَدٍ وَفَخَـــارٍ   أَنْـــتَ فِيـــهِ ٱلْيَتِيمَـــةُ ٱلْعَصْمَـــاءُ

(حبذا) هي كـ(نعم) عملاً ومعنىً ، مع زيادتها عليها بإشعارها بأن الممدوح بها محبوب للقلب ، وأصله : حبب بالضم ؛ أي : صار حبيباً ، لا حبب بالفتح ، ثم أدغم فصار حب ، والأصح : أن (ذا) فاعله ، وتلزم الإفراد والتذكير وإن كان المخصوص بخلاف ذلك ؛ لأنه كالمثل والأمثال لا تغير ، أو لأن فيه حذفاً تقديره في نحو حبذا هند : حبذا حسنها ، وحبذا زيد : حبذا أمره وشأنه ، فالمقدر المشار إليه مفرد مذكر دائماً حذف وأقيم المضاف إليه مقامه ، أو لأنه علىٰ إرادة جنس شائع ، أقوال ، والأكثرون على الأول .

وقيل : (حبذا) كله فعل ، وفاعله المخصوص .

وقيل : الكل اسم واحد ، واختاره ابن عصفور[(١)] ، فهو مرفوع اتفاقاً ، ثم هل هو مبتدأ خبره المخصوص أو عكسه ؟ قولان .

وعلىٰ أن (ذا) هو الفاعل والمخصوص مبتدأ . . الجملة هي خبره ، والرابط (ذا) وقيل : مبتدأ محذوف الخبر ، وقيل : عكسه ، وكأنه قيل : من المحبوب ؟ فقال : زيد ؛ أي : هو ، وقيل : بدل من (ذا) وقيل : عطف بيان له ، ولا يتقدم مخصوص (حبذا) عليها وإن جاز تقديمه بقلة علىٰ (نعم) لأنها فرع عنها فلا تساويها في تصرفاتها فيحذف بقلة ، ويكون قبل المخصوص أو بعده نكرة منصوبة مطابقة ، نحو : حبذا الصبر شيمة ، وحبذا رجلين الزيدان ، ثم إن اشتق . . أعرب حالاً ، وإلا . . فهو تمييز علىٰ خلاف منتشر فيه ، والناظم حذف هـٰذا لدلالة المقام عليه ، والتقدير : حبذا كمالاً .

وتدخل عليها (لا) فتساوي (بئس) في العمل والمعنىٰ مع زيادة ما تقدم ضده في (حبذا) وهي غير متصرفة فلا مصدر لها ، ومن ثم عملت فيما عداه كالظرف والتمييز

---

(١) مغني اللبيب (٢/ ٧٢٤_٧٢٥) .

والحال ، وإن توقف أبو حيان في الأخيرين ، وتُجرَّدُ من (ذا) فيضم أولها ، ويجوز بقاء فتحه وجر فاعلها بالباء ، كـ : حب بها .

وإنما أطلت في هٰذه ؛ لأن كلام الشارح فيها غير موف بالمراد ، مع أنه لا يخلو ـ كالنظم في حذفه ما مر ـ من إيهام . فتأمله .

(عقد) بكسر أوله وهو : القلادة من الجوهر (سؤدد) أي : سيادة (وفخار) أي : تمدح بالخصال الحميدة (أنت فيه) أي : في ذلك العقد ، وفي نسخ : (فيها) نظراً إلى المعنىٰ ؛ لما تقرر : أن العقد القلادة (اليتيمة) أي : التي لا شبيه لها في حسنها (العصماء) من العصمة ؛ أي : الحفظ والمنع ؛ لأن من شأن هٰذه الدرة أن يبالغ في حفظها ومنعها عن أن تصل إليها يد الأغيار .

وجملة : (أنت) وما بعده صفة لـ(عقد) أو حال منه ؛ لتخصيصه بالإضافة ، وهٰذا فيه غاية المدح له صلى الله عليه وسلم ولنسبه ؛ أي : حبذا نسبك الذي إذا ذكرت وعدَّت معك آباؤك . . كانوا قلادة منتظمة من جواهر ثمينة لها السيادة والفخار علىٰ جميع الجواهر ، وكنت أنت أعظمها وأنفسها وأعلاها ، بحيث تكون أنت واسطتها العديمة النظير ، والمخصوصة من الرعاية والحفظ والمنع بما لم يوجد لغيرها ؛ لتميزها ببلوغها من صفات الجمال ونعوت الجلال ما يبهر العقل ويفوق الوصف ، وشاهد هٰذا ما مر من الأحاديث الصحيحة الصريحة في أنه صلى الله عليه وسلم أفضل المخلوقين ، والخليفة الأكبر عن رب العالمين .

ولما تمم مدح كماله ونسبِه . . أخذ في مدح ذاته فقال :

(12)

وَمُحَيّاً كَالشَّمْسِ مِنْكَ مُضِيءٌ   أَسْفَرَتْ عَنْهُ لَيْلَةٌ غَرَّاءُ

(و) حبذا أيضاً (محياً) أي : وجه (كالشمس منك) ، حال من (محياً) (مضيء) مبتدأ خبره (كالشمس) ، والجملة : صفة لـ(محياً) أو حال منه ؛ لتخصيصه بـ(منك) .

وشاهد هٰذا حديث البخاري : عن الرُّبَيِّع بنت معوذ : (لو رأيته . . لقلت :

الشمس طالعة) ، وحديث أحمد والترمذي والبيهقي وابن حبان : عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه : (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجري في وجهه)[1] وحديث مسلم من حديث جابر بن سمرة وقال له قائل : كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ، فقال : (لا ، بل مثل الشمس والقمر ، وكان مستديراً)[2] بين بذلك الرد علىٰ من شبهه بالسيف في الطول ، وأنه جمع بين صفة الشمس من الإشراق والإضاءة ، وصفة القمر من الحسن والملاحة ، وفي حديث علي عند الترمذي والبيهقي (لم يكن بالمطهم ـ أي : كمعظم : السمين الفاحش السمن ـ ولا بالمكلثم ـ أي : المدور الوجه ـ كان في وجهه تدوير)[3] أي : قليل ، مع سهولة خديه ، وهو أحلىٰ ما يكون عند العرب .

وعلم مما تقرر : أنهم لم يقصدوا بالتشبيه بالشمس والقمر إلا ما ذكر لا مطلقاً ، فاندفع ما توهم من عيب التشبيه بهما أخذاً من قول أبي نواس : [من الوافر]

تَتِيــهُ ٱلشَّمْــسُ وَٱلْقَمَــرُ ٱلْمُنِيــرُ ... إِذَا قُلْنَــا كَــأَنَّهُمَــا ٱلأَمِيــرُ
لأَنَّ ٱلشَّمْـسَ تَغْـرُبُ حِيـنَ تُمْسِـي ... وَأَنَّ ٱلْبَــدْرَ يَنْقُصُــهُ ٱلْمَسِيــرُ[4]

نعم ؛ قول ابن أبي هالة : (يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر)[5] . . ربما يفوق التشبيه بالشمس من حيث إن القمر حينئذ يملأ نوره الأرض أحوج ما كانت إليه ، ويؤنس كل من شاهده ، فهو مجمع النور من غير أذىً ، ويتمكن الناس من مشاهدته ، بخلاف الشمس ، فإنها تغشي البصر وتمنع من تمكن الرؤية إليها . ولك أن تقول : لا يفوقه ؛ لما علم مما قدمته : أن وجه الشبه مراعىً ، وحينئذ فالتشبيه بالشمس مع رعاية وجه الشبه بها أبلغ منه بالقمر ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ ، وشتان ما بينهما .

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٣٨٠) ، والترمذي (٣٦٤٨) ، دلائل النبوة (١/ ٢٠٨) ، ابن حبان (٦٣٠٩) .
(٢) مسلم (٢٣٤٤) .
(٣) الترمذي (٣٦٣٨) ، شعب الإيمان (١٤١٥) .
(٤) ديوان أبي نواس (ص ٤٢٢) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٤٣٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٥٥) .

(أسفرت) صفة أو حال أيضاً ؛ أي : انحسرت وانقضت (عنه) أي : عن ذلك المحيّا ، أو أضاءت متجاوزة عنه (ليلة) عظيمة (غراء) أي : بيضاء بظهور نوره فيها وعقبها ، وهـٰذا أولىٰ من جعل ذلك لظهور القمر فيها بناء علىٰ أنها ليلة ثاني عشر ، أو لكونها من الغرر بناء علىٰ أنها ليلة ثاني الشهر وغرته ثلاث ليال ؛ لأن كلاً من هـٰذين لا مدح فيه له صلى الله عليه وسلم ، بخلاف الأول المأخوذ من الغرة ، وهي : بياض في وجه الفرس ، فهي غرة في وجه الدهر ، ثم أبدل منها قوله :

(13)

لَيْلَـةُ ٱلْمَـوْلِـدِ ٱلَّـذِي كَـانَ لِلـدِّيـ ـنِ سُـرُورٌ بِيَـوْمِـهِ وَٱزْدِهَـاءُ

(ليلة المولد) بكسر اللام : زمن الولادة ، وبفتحها مكانها ، وكلاهما هـٰهنا بعيد ، فالأحسن : أنه مصدر ميمي ؛ أي : ليلة الولادة (الذي كان) أي : دام واستمر ، علىٰ حد : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، (للدين) وهو لغة : الجزاء ، واصطلاحاً : الشرع المبعوث به النبي صلى الله عليه وسلم .

وحد أيضاً : بأنه وضع إلـٰهي ، سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلىٰ ما هو خير لهم بالذات (سرور) أي : فرح عظيم (بيومه) واليوم في عرف الفلكيين ونحوهم : من طلوع الشمس إلى غروبها ، وفي عرف الشرع : من طلوع الفجر ، وأضاف ذلك ليوم المولود دون ذاته مبالغة في زيادة عظمته ؛ لأن ذلك إذا وقع لظرفه التابع له . . فكيف بذاته ؟! (وازدهاء) أي : افتخار ؛ أي : هـٰذه الليلة الغراء هي ليلة ولادتك وأنت أشرف مولود ، فلأجل ذلك سر الدين وأهله باليوم الذي برزت فيه إلىٰ هـٰذا الوجود على الوجه الأكمل ، وافتخرا وتاها به علىٰ سائر الأديان والأيام .

تنبيه : أضاف الناظم كلاً من الليلة واليوم إلى المولد ، فاحتمل أن يكون من القائلين بأنه ولد ليلاً ، واستدلوا بما رواه ابن السكن من حديث عثمان بن أبي العاصي ، عن أمه فاطمة بنت عبد الله الثقفية : أنها شهدت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً ، قالت : (فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نوراً ، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتىٰ إني لأقول : يقعن علي) ورواه البيهقي ولم يذكر فيه إلا النور وتدلي

النجوم[١] ، وبتصريح عائشة رضي الله تعالىٰ عنها أيضاً بذلك ، كما رواه الحاكم[٢] ، وأن يكون من القائلين بأنه ولد نهاراً ، وهو ما يصرح به قوله الآتي : (يَوْمَ نَالَتْ بِوَضْعِهِ ٱبْنَةُ وَهْبٍ) وهـٰذا هو الأصح ، كما صرح به حديث مسلم[٣] وغيره ، ولـٰكن بعيد الفجر كما في حديث وإن كان فيه ضعف ؛ لأن الضعيف في الفضائل والمناقب حجة اتفاقاً ، فمن أطلق أنه ولد ليلاً . . أراد بالليل : ما قبل طلوع الشمس ، أو أراد : مجاز المجاورة ، وليس في الرواية : أن النجوم تدلت عند ولادته الآتية ما يدل علىٰ أن ذلك كان قبل الفجر ؛ لأنها تكون بعد الفجر فيمكن تدليها حينئذ ، بل بعد طلوع الشمس خرقاً للعادة للمبالغة في إكرامه صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ أنه ولد ليلاً قيل : ليلة مولده أفضل من ليلة القدر ، واستدل قائله بوجوه كثيرة كلها مدخولة ، كما يعلم الواقف عليها إن حقق ودقق ، وعلىٰ أنه ولد نهاراً فهو يوم الإثنين اتفاقاً ، وصح به خبر مسلم[٤] ، ثم قيل : إنه في شهر غير معين ، والمشهور : أنه معين ، وهو صفر أو ربيع الأول أو ربيع الآخر أو رجب أو رمضان[٥] أو يوم عاشوراء ، أقوال ، والأصح : أنه في شهر ربيع الأول ، فقيل : إن اليوم فيه غير معين ، والأصح : أنه معين ، فقيل : لليلتين منه ، وقيل : لثمان ، واختاره أكثر أهل الحديث وغيرهم ، بل أجمع عليه أهل التاريخ ، وقيل : لعشر ، وقيل : لثنتي عشرة ، وهو المشهور وعليه العمل ، وقيل : لسبع عشرة ، وقيل : لثمان بقين منه ، وإنما لم يكن ذلك في يوم الجمعة ولا في بعض الأشهر الحرم أو رمضان ؛ لئلا يتوهم أنه صلى الله عليه وسلم تشرف بذلك الزمن الفاضل ، فجعل في المفضول لتظهر مزيته به على الفاضل ، ونظير ذلك دفنه صلى الله عليه وسلم بالمدينة دون مكة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لو دفن بها . . لكان يقصد تبعاً لها ، فأفرد صلى الله عليه وسلم بموضع مفضول عند أكثر العلماء ليتشرف به ، بل ليفوق به الفاضل عند كثيرين منهم ، وليُقصد قبره ومسجده

---

(١) دلائل النبوة (١/ ١١١) .

(٢) المستدرك (٢/ ٦٠١) .

(٣) مسلم (١١٦٢) .

(٤) مسلم (١١٦٢) .

(٥) في (ج) : (أو رجب أو شعبان أو رمضان . . .) .

بطريق الاستقلال لا التبعية ؛ إظهاراً لمزيد كرامته علىٰ ربه .

واختلفوا في عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، فالأكثرون : أنه عام الفيل ، بل حكي الاتفاق عليه ، والمشهور : أنه ولد بعده بخمسين يوماً ، ووراء ذلك أقوال أخر : خمسة وخمسون شهراً ، أربعون ، عشر سنين ، خمس عشرة سنة ، وأيد كونه بعده بأنه إرهاص لنبوة هـٰذا الذي ولد بمكة ، ومقدمة لظهوره ، وفي مكانها ، والصواب : أنه بمكة ، قيل : بالشعب ، وقيل : بالردم ، والمشهور : أنه المسجد المشهور الآن بالمولد ، وزعم أنه عسفان شاذ لا يعول عليه ، فقد صرح بعض أئمتنا : أن أول واجب على الأولياء أن يعلموا صبيانهم أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ودفن بالمدينة ، بل قيل : إنكار ذلك كفر ؛ لاستلزامه إنكار وجود النبي الذي هو محمد صلى الله عليه وسلم .

(14)

وَتَوَالَتْ بُشْرَى ٱلْهَوَاتِفِ أَنْ قَدْ ... وُلِدَ ٱلْمُصْطَفَىٰ وَحَقَّ ٱلْهَنَاءُ

(وتوالت) أي : تتابعت (بشرى) أي : بشارة (الهواتف) للناس جمع هاتف ، وهو : ما يسمع هتفه ؛ أي : صوته ، وقيل : صوته الخفي ولا يرىٰ شخصه ، والمراد هنا : أعم من ذلك ؛ لأن البشارة به جاءت في كتب الله تعالىٰ وألسنة الأحبار والكهان والجان ، كما استوعبه أهل السير وجمع أكثره ابن ظَفَر في كتابه « البِشَر بخير البَشَر » (أن) أي : بأن متعلق بـ(بشرىٰ) ، (قد ولد المصطفىٰ) أي : المختار على الخلق كلهم (وحق) أي : ثبت (الهناء) أي : الفرح والسرور لكل الخلائق به ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، والبشارات به صلى الله عليه وسلم على الأنواع المذكورة كثيرة لا يحتملها هـٰذا المحل ، لـٰكن منها ما جاء : أنه حين ولد هتف هاتف على الحجون : [من الطويل]

فَأُقْسِمُ مَا أُنْثَىٰ مِنَ ٱلنَّاسِ أَنْجَبَتْ ... وَلاَ وَلَدَتْ أُنْثَىٰ مِنَ ٱلنَّاسِ وَاحِدَةْ
كَمَا وَلَدَتْ زُهْرِيَّةٌ ذَاتُ مَفْخَرٍ ... مُجَنَّبَةٌ لُؤْمَ ٱلْقَبَائِلِ مَاجِدَةْ

وهتف آخر علىٰ أبي قبيس بأربعة أبيات فيها معنىٰ ذلك وزيادة .

ومنها : (أن سواد بن قارب الدوسي لما قدم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه . . أخبره : أن رئيَّه أنشده أبياتاً ثلاث ليال متوالية وذكرها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فيها حث سواد بن قارب على المجيء إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم والإيمان به وعظيم مدحه)[1] .

ومنها : (ما جاء بسند ضعيف : أن راهباً كان بمرِّ الظهران يقول : يوشك أن يولد منكم يا أهل مكة مولود اسمه محمد ، تدين له العرب ، ويملك العجم ، هـٰذا زمانه ، فكان لا يولد بمكة مولود إلا سأل عنه ، فجاءه عبد المطلب صبيحة ولادته صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه . . قال : كن أباه ، فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه وقد طلع نجمه البارحة ، فما سميته ؟ قال : محمداً) .

وروى الحاكم عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : (أنه كان بمكة يهودي ، فصاح ليلة ولادته : يا أهل مكة ؛ هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ قالوا : لا نعلمه ، قال : ولد هـٰذه الليلة نبي هـٰذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس ، فأدخلوه علىٰ أمه ، وأخرج له فكشف عن ظهره فرأىٰ تلك الشامة فخر مغشيّاً عليه ، فلما أفاق . . قالوا : ما لك ويلك ؟ قال : ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل)[2] .

وذكر الحافظ أبو سعيد النيسابوري : أن نور النبي صلى الله عليه وسلم لما صار إلىٰ عبد الله بن عبد المطلب ، وكان يضيء في غرته ويفوح من فمه رائحة المسك الأذفر ، وكانوا يستسقون به فيسقون . . نام في الحجر ، فانتبه مكحولاً مدهوناً قد كسي حلة البهاء والجمال ، فتحير فيمن فعل به ذلك ، فانطلق به أبوه إلىٰ كهنة قريش ، فقالوا : إن إلـٰه السماوات قد أذن لهـٰذا الغلام أن يتزوج ، ونام مرة أخرىٰ في الحجر ، فرأى رؤيا وقصها على الكهان فقالوا : لئن صدقت رؤياك . . ليخرجن من ظهرك من يؤمن به أهل السماوات والأرض ، وليكونن في الناس علماً مبيناً .

وذكر الحافظ : أن زمزم كانت اندرست ، فرأىٰ عبد المطلب ما دله عليها

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٠٨) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ ٩٢) .
(٢) المستدرك (٢/ ٦٠١) .

فحفرها ، فآذاه سفهاء قريش ولم يكن له إلا ولده الحارث ، فنذر إن رزق عشرة بنين . . ليذبحن آخرهم لله تعالىٰ ، فلما تموا عشرة . . رأىٰ من يأمره بوفاء نذره ، فانتبه فذبح كبشاً ، فرأىٰ أنه لا يجزئه فذبح ثوراً ، فرأىٰ أنه لا يجزئه ، وهـٰكذا حتىٰ أمر بذبح أحد بنيه كما نذر ، فأقرع بينهم فخرجت علىٰ عبد الله ، فجاء به ليذبحه عند الكعبة ، فمنعه سادة قريش وأمروه بمشاورة كاهنة ، فأشارت أن يقرع بينه وبين عشر من الإبل ، وأنه كلما خرجت القرعة عليه . . يزاد عشرة ، فلما بلغت مئة . . خرجت القرعة عليها فذبحها[١] ، ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم : « أَنَا ٱبْنُ ٱلذَّبِيحَيْنِ »[٢] وصح : (أنه أقر من قال له ذلك)[٣] ، والثاني إسماعيل ، وعلىٰ أنه إسحاق ـ وعليه الأكثرون ـ فقد مر أن العرب تسمي العم أباً .

15

وَتَـدَاعَـىٰ إِيـوَانُ كِسْـرَىٰ وَلَـوْلَا   آيَـةٌ مِنْـكَ مَـا تَـدَاعَـى ٱلْبِنَـاءُ

(و) من عجائب ليلة ولادته صلى الله عليه وسلم أنه (تداعىٰ) أي : تهادم ؛ أي : أشرف على الهدم ؛ لأنه انشق شقّاً بيناً آل به إلىٰ خرابه (إيوان) بكسر الهمزة ، ويقال فيه : إوان ككتاب ، وفسره الجوهري : بأنه الصفَّة العظيمة كالأزج ، وغيره : بأنه بيت مؤزج ؛ أي : مبني طولاً غير مسدود الوجه ؛ أي : فهو صفَّة طويلة واسعة ، بأولها عقد واسع ، قال : وهو فارسي ، وقيل : هو البيت العالي ، وقيل : بيت كبير مستطيل ذو شرافات ، وقيل : بيت الملك المعد لجلوسه مع أرباب مملكته لتدبير ملكه .

والحاصل : أن ذلك الإيوان كان من أعاجيب الدنيا سعة وبناء وإحكاماً .

(كسرىٰ) أنو شروان ـ بفتح الكاف وكسرها ـ معرب : خُسْرُو[٤] ؛ أي : واسع

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ١٥١) وما بعدها .
(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٥٩) .
(٣) انظر حديث الحاكم (٢/ ٥٥٤) .
(٤) في (ج) : (خسر) وفي غيرها : (قسرىٰ) ، والمثبت من « القاموس » و« اللسان » .

الملك ، وهو : لقب لكل من ملك الفرس ، كقيصر لملك الروم ، وتُبَّع لملك اليمن ، والنعمان لملك العرب من قبل العجم ، والنجاشي لملك الحبشة ، وفرعون لملك القبط ، والعزيز لملك مصر ، وجالوت لملك البربر ، وخاقان لملك الترك .

(ولولا) حرف امتناع لوجود ؛ أي : امتنع جوابها لوجود تاليها (آية) صادرة (منك) إلى الوجود ؛ أي : علامة عظيمة علىٰ نبوتك ورسالتك العامة ، وأن كل من عاندك لا يرتفع له رأس ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، والأصل : منه ؛ أي : المصطفىٰ .

(ما تداعى البناء) أي : هـٰذا المبنى المذكور مع ما هو عليه من العظم والإحكام الذي كان يظن به أنه لا تهدمه إلا نفخة الصور ، فإذا هو قد تحرك وسقط منه أربع عشرة شرافة حينئذ ، فليس ذلك إلا محض آية منه صلى الله عليه وسلم للوجود علىٰ نبوته ، وأنه لا ملك ولا عز يبقىٰ لأحد مع ملكه[1] وعزه ، وسر تلك الأربع عشرة : الإشارة إلىٰ أنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر ، فملك عشرة في أربع سنين ، وأربعة إلىٰ زمن عثمان ، وقد فتح في زمن عمر رضي الله عنه أكثر إقليم فارس ، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلىٰ أقصىٰ مملكته ، ثم قتل في زمن عثمان رضي الله عنه وزال ملكه بالكلية ، وصح : أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه : « إِذَا هَلَكَ كِسْرَىٰ . . فَلاَ كِسْرَىٰ بَعْدَهُ »[2] ، و : (أن أمواله وكنوزه تنفق في سبيل الله)[3] ، فانقطع ملكه وزال من جميع الأرض ، وتمزق ملكه كل ممزق ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم دعا عليه بذلك لما جاءه كتابه فمزقه ، وقد بشر صلى الله عليه وسلم أمته في حفر الخندق بملك بلاده ، وقال لسراقة ـ وكان من فقراء أصحابه ـ : « كَيْفَ بِكَ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ

---

(١) لا يخفىٰ أن في قوله : (مع ملكه) تجوزاً في العبارة ؛ لأن مرتبة النبوة أعلىٰ من الملك وغيره ، أو هو من باب المشاكلة ، على حد قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ .

(٢) أخرجه البخاري (٣١٢٠) ، ومسلم (٢٩١٨) ، والترمذي (٢٢١٦) ، وأحمد (٢/ ٢٣٣) .

(٣) هـٰذه تتمة الحديث السابق ، ولفظها : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ » أي : كنوز كسرىٰ وقيصر .

كِسْرَىٰ ؟! »[1] فلما أتىٰ بهما عمر رضي الله عنه . . ألبسهما إياه ـ أي : إظهاراً للمعجزة وذلك عذر مبيح ـ وقال : الحمد لله الذي سلبهما كسرىٰ وألبسهما سراقة ، ولما رأىٰ كسرىٰ ما وقع بإيوانه ، ورأىٰ تلك الليلة المُوبَذان أعلم علماء مملكته أنه رأىٰ إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دِجلة وانتشرت في بلادها . . أفزع كسرىٰ ذلك ، فسأل الرأي ، فقال : حدث يكون من ناحية العرب ، فكتب كسرىٰ إلى النعمان بن المنذر ملك العرب : أن يرسل له أعلم من في أرضه من العرب ، فبعث إليه عبد المسيح بن عمرو الغساني وكان معمراً ، فدلهم على خاله سطيح بالشام ، فأمره كسرى بالذهاب إليه ، فجاءه فوجده مشفياً على الموت ، فأخبره سطيح بما من جملته : عبد المسيح علىٰ جمل مشيح إلىٰ سطيح وقد أوفىٰ على الضريح ، بعثه ملك ساسان ؛ لارتجاس الإيوان ـ أي : تحركه ـ وخمود النيران ، ورؤيا المُوبَذان ، رأىٰ إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها ، فقال سطيح : يا عبد المسيح ؛ إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادي السماوة ـ أي : قرية ما بين الكوفة والشام وليست من العواصم ـ وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس . . فليست الشام لسطيح شاماً ، ولا بابل للفرس مقاماً ، يملك منهم ملوك وملكات علىٰ عدد الشرافات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قضىٰ سطيح مكانه[2] .

وسمي صلى الله عليه وسلم صاحب الهراوة ؛ لأنه كان يمسك في يده القضيب كثيراً ، وكان يمشى بين يديه بالعصا ليصلي إليها ، قال القاضي : (وأراها العصا المذكورة في حديث الحوض : « أَذُودُ ٱلنَّاسَ عَنْهُ بِعَصَايَ لِأَهْلِ ٱلْيَمَنِ »[3] أي : لأجلهم ليتقدموا)[4] .

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٦/ ٣٥٧) .

(٢) انظر « تاريخ الطبري » (٢/ ١٦٦) ، و« عيون الأثر » (١/ ٣٨) . وقد أورده الحافظ الذهبي في « تاريخ الإسلام » (١/ ٣٥) ، ثم قال : (هـٰذا حديث منكر غريب) ، وللشيخ العلامة عبد الفتاح أبو غدة كلام نفيس في ذلك ، انظره في مقدمته لكتاب « المصنوع في معرفة الحديث الموضوع » (ص ١٨) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٠١) ، وابن حبان (٦٤٥٦) ، وأحمد (٥/ ٢٨٠) .

(٤) نقل الإمام النووي كلام القاضي عياض ثم قال : (وهـٰذا الذي قاله في تفسير الهراوة بهـٰذه العصا بعيد أو باطل ؛ لأن المراد بوصفه بالهراوة : تعريفه بصفة يراها الناس معه يستدلون بها
=

وسمي أيضاً صاحب القضيب ؛ أي : السيف كما في الإنجيل ، فهو صاحب العصا يرعىٰ بها الأخيار ، والقضيب يبيد به الأشرار .

16

وَغَـدَا كُـلُّ بَيْـتِ نَـارٍ وَفِيـهِ   كُـرْبَـةٌ مِـنْ خُمُـودِهَـا وَبَـلَاءُ

(و) من العجائب التي ظهرت ليلة ولادته أيضاً ؛ لينتبهوا ويسألوا عن سبب ذلك : أنه (غدا) أي : صار في تلك الليلة (**كل بيت نار**) أي : كل واحد من بيوت نار الفرس التي كانوا يعبدونها ويشتد إيقادهم لها حتىٰ إن لها ألف سنة لم تخمد .

و(نار) من ذوات الواو ، وإنما جمعت علىٰ نيران ؛ لانكسار ما قبل الواو والمستلزم لقلبها ياء .

(و) هي للحال ، وفيه تأييد لما ذهب إليه الجمهور وتبعهم ابن مالك : أن المنصوب بعد غدا حال ؛ إذ لا يوجد إلا نكرة ، وخالفهم الزمخشري وأبو البقاء والجزولي وابن عصفور فجعلوه خبراً ، سواء كانت بمعنىٰ صار ، أو بمعنىٰ : وقع فعله في وقت الغدو أو الرواح ، وجعلوا من ذلك : (اغد عالماً)[1] وحديث : « تَغْدُو خِمَاصاً »[2] وغدا زيد ضاحكاً ؛ أي : صار في حال ضحك (**فيه كربة**) ـ بضم أوله ـ أي : غم يأخذ النفس وربما أهلكها (**من**) أجل (**خمودها**) أي : سكون لهبها من غير أن يطفأ جمرها ، وإلا . . قيل : همدت (**وبلاء**) عظيم صبه الله عليهم صبّاً ؛ بإزالة ما يعتقدونه إلـٰههم ومتعبدهم ؛ لأنهم مجوس ، فكان في إقليم الفرس من بيوت

=

علىٰ صدقه ، وأنه المبشر به المذكور في الكتب السالفة ، فلا يصح تفسيره بعصاً تكون في الآخرة ، والصواب في تفسير صاحب الهراوة : ما قاله المحققون : أنه صلى الله عليه وسلم كان يمسك القضيب بيده كثيراً ، وقيل : لأنه كان يمشي والعصا بين يديه ، وتغرز له فيصلي إليها ، وهـٰذا مشهور في الصحيح ، والله أعلم) اهـ « شرح مسلم » (١٥/ ٦٢) .

(١) أخرجه الدارمي (٢٥٤) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٥٠) من كلام ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه ابن حبان (٧٣٠) ، والترمذي (٢٣٤٤) ، وابن ماجه (٤١٦٤) ، وأحمد (١/ ٣٠) ، والحاكم (٤/ ١٨٨) .

النار الموقودة المئات من السنين . . ما تحيل العادة انطفاءها ، فإذا انطفأت تلك النيران كلها في ساعة واحدة تلك الليلة . . علموا أن ذلك لأمر عظيم حدث في العالم ، وكان كذلك وسبباً لإزالة ملكهم وتمزيقهم كل ممزق كما مر .

17

وَعُيُونٌ لِلْفُرْسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا ... نَ لِنِيرَانِهِمْ بِهَا إِطْفَاءُ

(و) من تلك العجائب أيضاً (عيون) فهو مبتدأ سوَّغه وصفه بقوله : (للفرس) بالضم ، ويقال : فارس ، ومنه حديث : « وَخَدَمَتْهُمْ فَارِسُ وَٱلرُّومُ »[1] وهم : أمة عظيمة كان مسكنهم في شمال العراق ، من الفراسة بالفتح ؛ أي : الشجاعة ، وكسرىٰ من أجل ملوكهم (غارت) في الأرض حتى لم يبق منها قطرة ، ومنها : بحيرة طبرية التي كان فيها من كثرة المياه وسعتها ما تحيل العادة غيضها ، ولذا قيل : طولها ستة أميال وعرضها مثل ذلك ، وتسمىٰ عين ساوة ؛ لبلد معروف ، بينها وبين الري اثنان وعشرون فرسخاً ، وقيل : موضع بالشام .

(فهل) استفهام للتعجب من حالهم ، أو لتوبيخهم وتقريعهم (كان لنيرانهم بها) أي : بتلك المياه التي غارت (إطفاء) لا ، بل لم يطفئها إلا سر وجود نبينا صلى الله عليه وسلم ، وظهوره المضمحل به كل لهو وباطل ، ولذا قال :

18

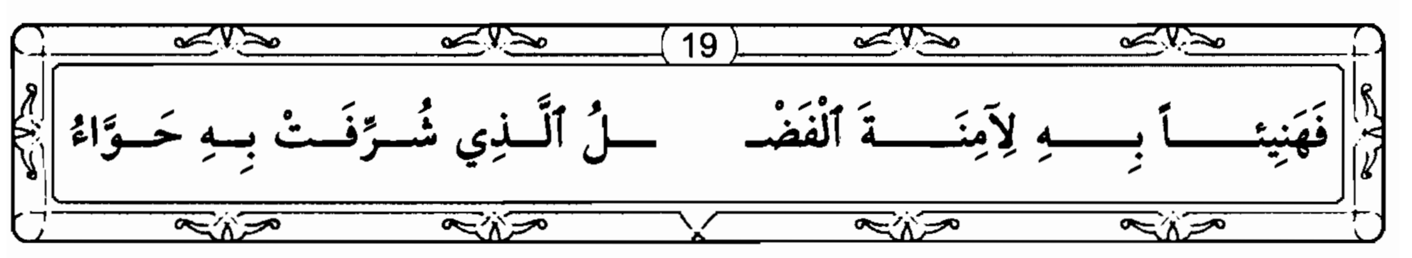
مَوْلِدٌ كَانَ مِنْهُ فِي طَالِعِ ٱلْكُفْـ ... ـرِ وَبَالٌ عَلَيْهِمُ وَوَبَاءُ

(مولد) عظيم ، بالجر : بدل من (المولد) والرفع : خبر مبتدأ محذوف (كان) أي : صار على الدوام (منه) أي : من أجله ، أو من لابتداء الغاية (في طالع الكفر) أي : في نحو النوم ، أو الإلهام الذي يطلع به علىٰ عواقب الكفر وغايات أهله المترتبة عليه ، كرؤيا المُوبَذان وإلهام سطيح السابقين آنفاً ، ويصح أن يراد : أن المولد نفسه أطلع كل ذي بصيرة على أن الفرس أو الكفار يحل بهم (وبال) أي : وخم عظيم

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٧١٦) ، والترمذي (٢٢٦١) ، والطبراني في « الأوسط » (١٣٢) .

(**عليهم**) أي : علىٰ أهله الذين هم الفرس بدليل السياق ، أو أعم بدليل الواقع (**ووباء**) ـ ويجوز قصره ـ وهو : المرض الشديد العام ، وهما ـ وفيهما الجناس اللاحق ـ كنايتان عما اعتراهم بوجوده من إشراف ملكهم على الزوال ، ومما حل بهم من البوار والوبال والهوان والنكال .



(**فـ**) بسبب ما حصل بوجوده صلى الله عليه وسلم في هٰذا الكون لهٰذه الأمة من المزايا ، وله من العطايا ، ولآبائه وأمهاته صلى الله عليه وسلم من الشرف الأكبر والتميز الأظهر . . حق أن يقال في شأن أمه : (**هنيئاً به لآمنة الفضل**) أي : ثبت لها الفضل ؛ أي : الكمال والشرف والعلو حال كونه هنيئاً ؛ أي : لا آفة فيه ولا نكد ، فهو حال عند الأكثرين مؤكدة لعاملها الملتزم إضماره ؛ إذ لم يسمع إلا كذلك ، وقال ٱلمبرد : إنه مصدر كالعافية ، وأصل ذلك : أنهم أنابوا عن المصدر صفات كـ : عائذاً بك ، وهنيئاً لك ، قال بعض المغاربة : وهي موقوفة على السماع ، وقال غيره : إنه مقيس عند سيبويه ، يقال لكل من لازم صفة .

وهنيئاً : اسم فاعل من هنيء ، أو هنؤ كشريف من شرف ، وهو : ما أتاك بلا مشقة .

(**الذي شرفت به حواء**) فمن دونها من أمهاته إلىٰ آمنة ، فإن الولادة منسوبة إلىٰ كل منهن ، لٰكنها إليهن بواسطة ولآمنة بدونها ، فمن ثم خصها من بينهن بذلك ، وزاد في مدحها بأنها شُرِّفت بما شُرِّفت به أم البشر وزيادة عليها عدم الواسطة ، فذكرها لهٰذا وللجمع بين طرفي الولادة الأول والآخر ، ولينبه علىٰ أن حواء امتازت بإبرازه إلىٰ وجود عالم الأصلاب ، وآمنة امتازت بإبرازه إلىٰ وجود عالم الاستقلال مع عدم الواسطة ، ومن ثم قال مبيناً تمييزها علىٰ حواء بذلك :

(20)

مَــنْ لِحَــوَّاءَ أَنَّهَــا حَمَلَــتْ أَحْــ ـمَــداً ن أَوْ أَنَّهَــا بِــهِ نُفَسَــاءُ

(من) استفهام استبعادي بمعنى النفي (لحواء) أي : ومن ذا الذي يفرح لها بأنها أو يشفع لها في (أنها حملت أحمداً) بالتنوين للضرورة[1] ؛ أي : حملت به ، وهو من غرر أسمائه ، وقد سماه الله تعالىٰ به علىٰ لسان موسىٰ كما في الحديث ، وعيسىٰ كما في القرآن ، وهو منقول من الصفة التي معناها التفضيل ، فمعناه : أحمد الحامدين لربه ، وكذلك هو في المعنىٰ ؛ لأنه يفتح عليه يوم القيامة عند سجوده تحت العرش ؛ ليؤذن له في الشفاعة العظمىٰ ـ وهو مقامه المحمود ـ بمحامد لم تفتح علىٰ أحد قبله ، فيحمد ربه بها ، ولذلك يعقد له لواء الحمد ويكون تحته آدم فمن دونه .

(أو أنها به نفساء) أي : أصابها نفاس ، وهو : الدم الخارج عقب الولادة ، سمي بذلك لأنه أثر نفس ؛ أي : وبأنها ولدته بلا واسطة ؛ أي : لو قدر لها أن تحمله وتلده من غير واسطة . . لكان لها به غاية الفخر ، لٰكن لم يقدر ذلك لها بل لآمنة ؛ لما سبق في علم الله تعالىٰ أنها الفائزة بشرف الانتهاء ، وهو أفضل مما فازت به حواء من شرف الابتداء ، ولهٰذا قال :

(21)

يَــوْمَ نَــالَــتْ بِــوَضْعِــهِ ٱبْنَــةُ وَهْــبٍ مِــنْ فَخَــارٍ مَــا لَــمْ تَنَلْــهُ ٱلنِّسَــاءُ

(يوم) بدل من (مولد) اسم زمان (نالت) أي : أعطيت (بوضعه) أي : بسببه آمنة (ابنة وهب) بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ، فهي تلتقي مع رسول الله من جهة آبائه في كلاب ، وكان وهب سيد بني زهرة سناً وشرفاً .

---

(١) لو أُثبت التنوين كما أراد الشارح رحمه الله . . لاحتيج إلىٰ وصل همزة (أو) لكي يستقيم الوزن ، أما إذا أُبقي قوله : (أحمد) بدون تنوين . . فيستقيم الوزن دون التعرض لصرف الممنوع ووصل همزة القطع ، وهٰذا هو الأصل ، والله أعلم . فليتنبه .

وأم آمنة برة[1] بنت عبد العزى بن قصي بن عبد الدار[2] بن قصي بن كلاب .

(من) بيانية (**فخار**) وهو : التمدح بالخصال العلية والشيم المرضية (**ما لم تنله النساء**) حتىٰ حواء كما مر ، وهٰذا لا يقتضي أفضليتها علىٰ حواء مطلقاً ؛ لأنها إنما فضلت من وجه واحد وهو ولادتها له صلى الله عليه وسلم بلا واسطة ، والتفضيل من حيثية مزية واحدة أو مزايا . . لا يقتضي الأفضلية على الإطلاق ، وإنما ذكرت ذلك لأن الإجماع قام في حواء علىٰ إيمانها الكامل ، وآمنة وقع الخلاف في إيمانها ، بل وفي نجاتها ، ونقل عن الأكثرين عدمهما ، ولٰكن الأصح بل الصواب : خلافه كما مر .

ومما نالته ما أخرجه أبو نعيم والخرائطي وابن عساكر : أن عبد المطلب لما خرج بعبد الله ليزوجه للرؤيا التي رآها وقد مرت . . رأته كاهنة قرأت الكتب ، فرأت نور النبوة في وجهه ، ومن ثم كان أجمل رجل رئي في قريش ، فسألته أن يقع عليها وتعطيه مئة من الإبل ، فأبىٰ وقال: [من الرجز]

أَمَّـــا ٱلْحَـــرَامُ فَـــٱلْمَمَـــاتُ دُونَـــهُ

فمر به أبوه حتىٰ أتى به وهباً أبا آمنة ، فزوجه بها وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً ، فوقع عليها يوم الإثنين أيام منىً عند الجمرة ، ثم خرج ومر علىٰ تلك المرأة فلم تكلمه ، فسألها لِمَ لمْ تعرضي نفسك الآن علي ؟ قالت : فارقك النور الذي سألتك لأجله[3] .

وذكروا أنه لما استقرت تلك النطفة الكريمة فيها . . أصبحت أصنام الدنيا منكوسة ، واخضرت الأرض وحملت الأشجار ، وكانت قريش في جدب شديد ، فسميت تلك السنة سنة الفتح ، ونودي في الملكوت : أن النور المكنون قد انتقل إلى

---

(١) في النسخ (مرة) ، والمثبت من « السيرة النبوية » (١/ ١١٠) ، و« طبقات ابن سعد » (١/ ٥٩) ، وغيرهما .

(٢) كذا في النسخ ، والصواب : (عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار . . .) كما في « سيرة ابن هشام » (١/ ١١٠) ، و« طبقات ابن سعد » (١/ ٥٩) ، و« المعارف » لابن قتيبة (ص ١٣١) ، والله أعلم .

(٣) دلائل النبوة (١/ ١٦٤) ، تاريخ دمشق (٣/ ٤٠٤) .

بطن آمنة ذات العقل الباهر ، والفضل الظاهر ، وقد خصها الله تعالىٰ بهٰذا الحبيب ؛ لأنها أفضل قومها حسباً ، وأزكاهم أصلاً وفرعاً .

وفي حديث ابن إسحاق : أنها حدثت أنها لما حملت به صلى الله عليه وسلم . . قيل لها : إنك حملت بسيد هٰذه الأمة ، وقالت : ما شعرت بحمله ، ولا وجدت له ثقلاً ولا وجعاً ولا وحماً ـ أي : في ابتداء حمله ؛ لرواية : أنها وجدته ، وحملت على الابتداء ؛ جمعاً بين الأحاديث ـ وأتاني آت وأنا بين النائمة واليقظانة ، فقال : هل شعرت أنك حملت بسيد الأنام ؟ ثم أمهلني حتىٰ دنت ولادتي . . أتاني فقال لي : قولي : [من مجزوء الرجز]

أُعِيــــذُهُ بِـــــٱلْــــوَاحِـــدِ مِــــنْ شَـــرِّ كُـــلِّ حَـــاسِـــدِ

ثم قال : سميه محمداً ، وبعد هٰذا البيت أبيات أخر مشهورة ، ولا أصل لها كما قاله الزين العراقي .

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (كان في دلالة حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم : أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت : حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة ، وهو إمام الدنيا وسراج العلماء ، ولم يبق سرير ملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً ، ومرت وحوش المشرق إلىٰ وحوش المغرب بالبشارات ، وكذلك أهل البحار بشر بعضهم بعضاً ، وله في كل شهر من شهور حمله نداء في الأرض ونداء في السماء ؛ أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم ميموناً مباركاً) .

وروىٰ أبو نعيم : أن آمنة أتاها آت بعد ستة أشهر من حملها وقال : يا آمنة ؛ إنك حملت بخير العالمين ، فإذا وضعتيه . . فسميه محمداً ، واكتمي شأنك ، ثم لما أخذها الطلق وكانت وحدها . . رأت كأن طائراً أبيض قد مسح فؤادها فذهب رعبها ، ثم أتيت بشربة بيضاء فتناولتها فأضاء لها نور عال ، ثم رأت نسوة كالنخل طولاً فأحدقن بها فقالت : من أين علمتن بي ؟ وفي رواية : فقلن لي : نحن آسية امرأة فرعون ومريم ٱبنة عمران وهٰؤلاء الحور العين ، ثم رأت ديباجاً أبيض مد بين السماء والأرض ، ورجالاً بأيديهم أباريق فضة ، وقطعة من الطير أقبلت حتى غطت حجرتها ، مناقيرها من الزمرد ، وأجنحتها من الياقوت ، ورأت مشارق الأرض ومغاربها ، وثلاثة أعلام

منصوبات علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب وعلماً علىٰ ظهر الكعبة ، فأخذها النفاس فوضعته صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو ساجد قد رفع إصبعيه إلى السماء كالمتضرع المبتهل ، ثم رأت سحابة بيضاء غشيته فغيبته عنها ، فسمعت منادياً يقول : طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها ، وأدخلوه البحار ؛ ليعرفوه باسمه ونعته وصورته ، ويعلموا أنه سمي الماحي ؛ لأنه لا يبقىٰ شيء من الشرك إلا محي في زمنه صلى الله عليه وسلم ، ثم انجلت عنه في أسرع وقت .

وروى الخطيب البغدادي بسنده : أنها لما وضعته . . رأت سحابة عظيمة ، لها نور يسمع فيها صهيل الخيل وخفقان الأجنحة وكلام الرجال ، حتىٰ غشيته وغيب عنها ، فسمعت منادياً يقول : طوفوا به جميع الأرض ، واعرضوه علىٰ كل روحاني من الجن والإنس والملائكة والطيور والوحوش ، واغمسوه في أخلاق النبيين ، ثم انجلت عنه وقد قبض علىٰ حريرة بيضاء مطوية طياً شديداً ينبع منها ماء ، وإذا قائل يقول : بخ بخ ، قبض محمد صلى الله عليه وسلم على الدنيا كلها ، حتى لم يبق أحد من أهلها إلا دخل طائعاً في قبضته ، ثم رأت ثلاثة نفر ، بيد أحدهم إبريق فضة ، والثاني طست من زبرجد أخضر ، والثالث حريرة بيضاء ، أخرج منها خاتماً يحار الناظرون دونه ، فغسله سبع مرات ، ثم ختم به بين كتفيه ، ثم احتمله فأدخله بين أجنحته ساعة ، ثم رده إلىٰ أمه .

(22)

وَأَتَــتْ قَــوْمَهَــا بِــأَفْضَــلَ مِمَّــا حَمَلَــتْ قَبْــلُ مَــرْيَــمُ الْعَــذْرَاءُ

(و) يوم (أتت) آمنة (قومها) اسم جنس للذكور ، وقد يدخل فيه النساء تبعاً كما هنا (بـ) مولود (أفضل) بالإجماع (مما) أوقع (ما) على العاقل وهو عيسىٰ صلى الله عليه وسلم وإن كان نادراً ؛ لوروده في القرآن ، نحو : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا . . .﴾ الآيات ، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ وكلام العرب ، وسمع من كلامهم : سبحان ما سخركن لنا ، ولورود هـٰذا وأمثاله زعم قوم منهم ابن درستويه وأبو عبيدة ومكي وابن خروف وقوعها علىٰ آحاد من يعقل كثيراً مطلقاً، وقال السهيلي : لا تقع علىٰ أولي العلم إلا بقرينة ، وتقع علىٰ صفات من يعقل ، نحو : ﴿فَٱنكِحُواْ

﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي : الطيبة منهن ، وعليه فما هنا نظير الآية ؛ لأن من صفات من يعقل الحمل المذكور في قوله : (**حملت قبل**) أي : قبل آمنة ، ومر أن بينهما نحو ست مئة سنة ، أمه (مريم) بنت عمران الصديقة بنص القرآن ، قيل : هي من ذرية سليمان بن داوود عليهما السلام ، بينها وبينه أربعة وعشرون أباً ، وفي الصحيح : « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ »[1] ولذا فضلت علىٰ جميع النساء ؛ للخلاف في نبوتها وإن كان شاذّاً ، ولما رفع عيسىٰ صلى الله عليه وسلم للسماء . . كان سنها ثلاثاً وخمسين سنة ، وبقيت بعد ذلك خمس سنين أو ستّاً كما قال الجلال السيوطي ، قال أيضاً : ولما رفع إلى السماء . . تعلقت به أمه وبكت ، فقال لها : إن القيامة تجمعنا .

(**العذراء**) أي : البكر ؛ لأنها لم تتزوج ، والعُذرة : البكارة ، وحملها بعيسىٰ عليه الصلاة والسلام إنما هو من نفخ جبريل عليه الصلاة والسلام في جيب درعها ، فحملت به ووضعته من وقتها على الأشهر ، كرامة لها ومعجزة له صلى الله عليه وسلم .

وخصه بهـٰذا مع تصريحه قبل بأنه أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ لأنه ينزل من السماء علىٰ منارة جامع بني أمية البيضاء شرقي دمشق كما رواه مسلم[2] في آخر هـٰذه الأمة ، ويقتل الدجال والخنزير ، ويبطل الجزية ، فربما يتوهم من ذلك مع باهر معجزاته وولادته من غير أب وإن كان لنبينا عليه الصلاة والسلام ما هو مثلها أو أبهر منها كما يأتي . . أنه الخاتم الأفضل ، فنفىٰ ذلك على الوجه الأكمل ، ونزوله عليه الصلاة والسلام إنما هو بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومنها : أن الجزية لا تقبل بعد نزوله ؛ لانتفاء ما لهم من نوع شبهة تمسك بكتاب بتكذيبه لهم فيكون من أتباعه ، ولأجل ذلك يصلي وراء المهدي أولاً ، ثم يتقدم بعدُ ؛ إعلاماً بأنه عليه الصلاة والسلام لم ينزل مستقلاً ، بل تابعاً مؤيداً حاكماً بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولخبر البخاري : « أَنَا أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِٱبْنِ مَرْيَمَ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ »[3] ، وبه يرد علىٰ من قال : كان بينهما خالد بن سنان نبي أصحاب الرس ، ولخبر

---

(١) البخاري (٣٤٣٢) ، مسلم (٢٤٣٠) .
(٢) مسلم (٢٩٣٧) .
(٣) البخاري (٣٤٤٢) .

« الصحيحين » : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ ٱللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ ٱلْجَنَّةَ حَقٌّ ، وَأَنَّ ٱلنَّارَ حَقٌّ . أَدْخَلَهُ ٱللهُ ٱلْجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ عَمَلٍ »[١] .

وفي خبر « الصحيحين » : « إِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يَنْخَسُهُ ٱلشَّيْطَانُ فَيَصِيحُ إِلاَّ عِيسَىٰ » قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[٢] ، ولا ينافي هـٰذا أفضلية نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ لأن لنبينا من المزايا ما ينغمر هـٰذا في جنب أدونها ، وقد يكون في المفضول مزية أو مزايا ليست في الفاضل ، لـٰكن فيه ما يخلف ذلك ويفوقه .

23

شَمَّتَتْـــهُ ٱلْأَمْــلَاكُ إِذْ وَضَعَتْـــهُ ۞ وَشَفَتْنَـــا بِقَـــوْلِهَـــا ٱلشَّفَّـــاءُ

(شمتته) من التشميت ، وهو : أن يقال للعاطس : يرحمك الله ، بالمعجمة والمهملة ؛ أي : دعا له بالسلامة من الشوامت ، أو ببقاء سمته كما هو ؛ لأن العطاس ربما كان سبباً لتعويج نحو العنق .

(الأملاك) جمع ملك ، وهـٰذا هو القياس في جمعه ، كجمل وأجمال ، ولفظ الملك مشتق من الألُوكة ، وهي : الرسالة ، ويقال فيه : مألكة ، فالأصل فيه : مألك ، ثم قلب فصار مَلأك علىٰ وزن مفعل ، ثم خفف بعد قلبه ، ونقلت حركة الهمزة إلى اللام فصار ملَكاً علىٰ وزن فعَل ، وحينئذ فقياس هـٰذا : جمعه علىٰ أفعال كما جرى عليه الناظم رحمه الله تعالىٰ ، وإنما جمعوه علىٰ ملائكة ؛ لأنهم راعوا مَلأَك بعد القلب وقبل أن يخفف .

وقولهم : من الألوكة مصرح بأن ميمه زائدة ، وهو رأي الجمهور ، وذهبت طائفة إلىٰ أنها أصلية ، ثم اختلفوا هل هو من الملك بالفتح ؛ أي : القوة ؛ لقوتهم ، أو بالكسر بمعنىٰ مملوك ؟قولان ، قيل : وأحسن من الجميع قول النضر بن شميل : إنه

---

(١) البخاري (٣٤٣٥) ، مسلم (٢٨) .
(٢) البخاري (٣٢٨٦) ، مسلم (٢٣٦٦) .

غير مأخوذ من شيء ، وهو التحقيق الذي دلت عليه الآثار ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ وزعمُ أن نوعاً من الملائكة يسمون بذلك . . ليس في محله ؛ لتوقفه علىٰ صحة خبرية : أن إبليس أبو الجن ، كما أن آدم أبو البشر ، وأنه لم يكن من الملائكة طرفة عين ، وأن المصحح للاستثناء في الآية التغليب ؛ لكونه كان فيهم ، أو هو منقطع .

وفي خبر مسلم : « خُلِقَتِ ٱلْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ ٱلْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ »[1] ، وظاهره : أن عنصرهما متمحض من النور والنار ، وقيل : بل هما من العناصر الأربعة كالثالث[2] ، وإنما غلب عليهما ذلك ، وزعمُ تأويل الأولَين[3] بأنه على التمثيل . . ليس في محله ؛ لأنه يلزم عليه أن الثالث كذلك ، ولأن مدار المعتزلة علىٰ هـٰذه الطريقة ، فإنهم أولوا أحاديث السؤال في القبر وعذابه والصراط والميزان والحوض والشفاعة ودابة الأرض ونحوها ، ولم يبالوا بمنابذتهم للسنة الغراء قبحهم الله تعالىٰ .

(**إذ وضعته**) أي : وقت وضع أمه له (**وشفتنا**) أي : أفرحتنا وأسرتنا ، أو من الشفاء ؛ لأنها رقية ، والرقية كثيراً ما يحصل بها الشفاء ؛ لأن قولها الآتي يشفي العليل ويبرد الغليل (**بقولها الشفاء**) بالفاء المشددة ، وهي أم عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة رضي الله تعالىٰ عنهم بنت عمرو بن عوف .

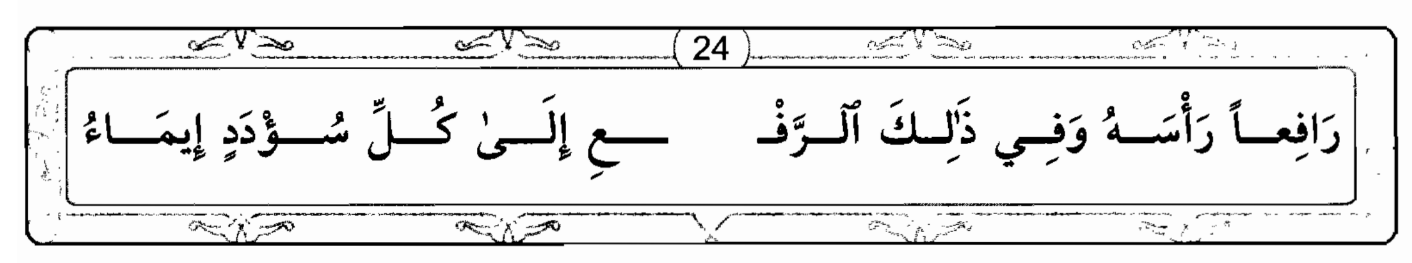
وقولها هو ما أخرجه أبو نعيم عن ولدها عبد الرحمن عنها قالت : (لما ولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقع علىٰ يدي فاستهل فسمعت قائلاً يقول : رحمك الله ورحمك ربك ، قالت الشفاء : (وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتىٰ نظرت إلىٰ بعض قصور الروم ، قالت : ثم ألبسته وأضجعته ، فلم أنشب أن غشيتني ظلمة ورعب وقُشَعْريرة ، ثم غيب عني فسمعت قائلاً يقول : أين ذهبت به ؟ قال : إلى

---

(١) مسلم (٢٩٩٦) .
(٢) المراد بالثالث : آدم عليه الصلاة والسلام .
(٣) أي : تأويلُ كونِ الملائكة من النور بالإشراق ، وتأويل كون الجن من النار بالقوة وسرعة التنقل .

المشرق ، قالت : فلم يزل الحديث مني علىٰ بالي حتى ابتعثه الله تعالىٰ ، فكنت في أول الناس إسلاماً)[1] .

وحملُ الناظم قولها : (استهل) علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم عطس حتىٰ عبر بـ(شمتته) الذي لا يطلق إلا علىٰ ما يقال عند العطاس . . يحتاج فيه لسند ؛ إذ حقيقة الاستهلال رفع الصوت عند الولادة ، وهـٰذا هو الغالب من أحوال المولودين ، فخلافه لا يصار إليه إلا بتصريح من يعتمد عليه به ولم أره ، وقولها : (فسمعت قائلاً يقول . . .) على أنه الملك . . هو الظاهر ، وجمعه مبالغة وإشارة إلىٰ أن عصمة الملائكة توجب أن الفعل المسند إلىٰ أحدهم كأنه مسند إلى الجميع ، وعلىٰ ما قاله الناظم مع ما استقر من شرعه صلى الله عليه وسلم أن التشميت إنما يسن لمن حمد الله تعالىٰ عقب عطاسه . . يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم حمد الله فشمت ، فيكون من جملة من تكلم في مهده ، وإن كان صلى الله عليه وسلم عدهم ولم يذكر نفسه منهم .


24

رَافِعـاً رَأْسَـهُ وَفِـي ذَٰلِـكَ ٱلـرَّفْـ ـعِ إِلَـىٰ كُـلِّ سُـؤْدَدٍ إِيمَـاءُ

(رافعاً) حال من مفعول (وضعته) (رأسه) إلى السماء ، كما رواه ابن سعد من حديث جماعة منهم عطاء وابن عباس : (أن آمنة قالت : لما فصل مني ـ تعني النبي صلى الله عليه وسلم ـ . خرج مني نور أضاء ما بين المشرق والمغرب ، ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء)[2] .

(وفي ذلك الرفع) الذي هو أول فعل وقع منه صلى الله عليه وسلم بعد بروزه إلىٰ هـٰذا العالم وهو خبر مقدم (إلى كل سؤدد) أي : رفعة وسيادة على الخلق ، وهو متعلق بالمبتدأ الذي هو (إيماء) أي : إشارة إلى أن شأنه وقدره يرتفع ويعلو في الدنيا والآخرة إلى مراتب لا يصلها غيره من ملك ولا جن ولا إنس .

---

(١) دلائل النبوة (١/ ١٦٩) .
(٢) في « الطبقات الكبرىٰ » (١/ ١٠٢) .

25

رَامِقـاً طَـرْفُـهُ ٱلسَّمَـاءَ وَمَـرْمَـىٰ   عَيْـنِ مَـنْ شَـأْنُـهُ ٱلْعُلُـوُّ ٱلْعَـلَاءُ

(رامقاً) حال مما منه الأولى[١] ، وتعدد الأحوال جائز كتعدد الأخبار ، أو من ضمير (رافعاً) فهي من الأحوال المتداخلة (طرفه) أي : بصره (السماء) أي : ناظراً إلى جهتها نظراً حقيقيًا ، كما علم من حديث عطاء وابن عباس المذكور .

وروى الطبراني : أنه لما وقع إلى الأرض .. وقع مقبوضة أصابع يديه ، مشيراً بالسبابة كالمسبح بها ، وسبقت رواية : أنها لما وضعته .. نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع إصبعه إلى السماء كالمتضرع المبتهل .

(و) سر هٰذا الرمق الإشارة إلى علو مرماه ؛ إذ (مرمىٰ) ، هو في الأصل : غرض الرامي الذي يصيبه سهمه ، وهو هنا : ما انتهى إليه البصر (عين من) موصولة (شأنه) أي : قصده (العلو) أي : ارتفاع مكانه ، والجملة صلة ، وخبر (مرمى) (العلاء) بالفتح والمد ؛ أي : الرفعة والشرف ، ويجوز ضم عينه مع القصر ؛ أي : كما أن رفعه رأسه إيماء إلى ما مر .. فكذلك رمقه ببصره إلى جهة العلو إيماء إلى أنه لا يقصد إلا أعلى المراتب ؛ إذ مَنْ شأنه العلو لا يقصد إلا جهاته وما يوصل إليها دون غيرها مما لا يناسب قصده ، فعلم أن المترتب على الرفع والرمق متحد بالذات مختلف بالاعتبار ؛ إذ التوجه إلى جهات العلو الذي هو مفادهما له اعتبارات مختلفة .

26

وَتَـدَلَّـتْ زُهْـرُ ٱلنُّجُـومِ إِلَيْـهِ   فَـأَضَـاءَتْ بِضَـوْئِهَـا ٱلْأَرْجَـاءُ

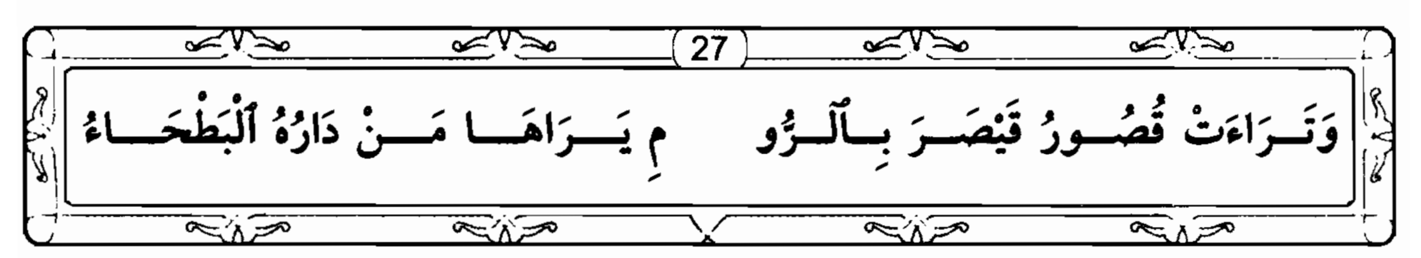
(و) يوم (تدلت) أي : قربت ودنت ، فهو عطف على (نالت) ، (زهر النجوم) من إضافة الصفة إلى الموصوف ؛ أي : الكواكب المضيئة (إليه) صلى الله عليه وسلم كرامة له وتعظيماً لم يقع نظيره لغيره ، كما رواه البيهقي وابن عساكر وابن

---

(١) أي : قوله في البيت الذي قبله : (رافعاً رأسه) ، فهما حالان من (الهاء) في قوله : (وضعته) .

السكن عن عثمان بن أبي العاصي عن أمه فاطمة الثقفية : أنها قالت : لما حضرت ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . رأيت البيت حين وضع قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علي[١] .

(فـ) بسبب هـٰذا التدلي (أضاءت بضوئها) أي : تلك الكواكب المضيئة (الأرجاء) أي : نواحي البيت ، أو نواحي السماء ، أو نواحي الوجود بأسره .



(و) يوم (تراءت) من : رأى بمعنى : أبصر ، وليس المراد هنا حقيقة التفاعل ، بل أصل الفعل ، كـ ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ ، وعاقبت اللص ؛ أي : رئيت (قصور قيصر) ومر أنه لقب لكل من ملك الروم (بالروم) أي : في بلاد الروم ، وهو ابن عيصو .

وبين (قيصر) و (قصور) التجنيس المطلق ، وسماه قوم كالسكاكي وغيره تجنيس المشابهة ، وهو : تماثل الكلمتين بحيث يشبهان المشتقين الراجع معناهما إلى أصل واحد ، كقوله تعالى : ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴾ ، ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ ، وزعَمَ الحِلِّي أن هـٰذا ليس من أصناف التجنيس ، وأن عد أكثر المؤلفين له تجنيساً غلط ، وليس كما زعم ؛ لأنهم لم يطلقوا كونه تجنيساً ، وإنما قيدوه بتجنيس المشابهة ، فبينوا أنه أشبه التجنيس ، وليس في الحقيقة تجنيساً ، وسيمر بك كثير منه معبراً عنه بنحو : وفيه تجنيس شبه الاشتقاق ، وما ذكر في الأخير هو ما ذكره الحِلِّي ، ولا ينافيه عد غيره له من تجنيس الاشتقاق ؛ لأنه نظر إلى أن المراد من : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ : أفرغ وسعك في صرف جميع أزمنتك في نشره والعمل به ، وغيره نظر إلى أن المراد : استقم لتبليغه والدعاية إليه .

حال كون تلك القصور (يراها) برؤية كاملة (من) أي : الذي (داره البطحاء) أي : مكة ، والأبطح والبطحاء : المسيل الواسع الذي فيه دقاق الحصباء ، وأصل

---

(١) دلائل النبوة (١/ ١١١) ، وتاريخ دمشق (٣/ ٧٨) .

ذلك : الحديث الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنِّي عَبْدُ ٱللهِ خَاتَمُ ٱلنَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ ، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ، وَرُؤْيَا أُمِّي ٱلَّتِي رَأَتْ ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَاتُ ٱلأَنْبِيَاءِ يَرَيْنَ »[١] ، وأن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاء له قصور الشام .

وفي رواية عنها قالت : (رأيت كأنه خرج من فرجي شهاب أضاءت له الأرض حتى رأيت قصور الشام) ، وفي أخرى : (رأيت ليلة وضعه نوراً أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها) ، وفي أخرى : (لما ولدته.. خرج من فرجي نور أضاء له قصور الشام ، فولدته نظيفاً ما به من قذر)[٢] ، وفي أخرى : (لما فصل مني.. خرج منه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب) ، وفي رواية الشفاء السابقة : (وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى بعض قصور الروم) ولا ينافي هٰذه الروايات رواية : أنها رأت مثل ذلك عند ابتداء وضعه ؛ لأن تلك الإضاءة وقعت مرتين ، عند حمله وعند ولادته ، زيادة في البشارة بظهوره وظهور دينه .

وخصت الشام بالذكر في أكثر الروايات لما اختصت به من سبق نور نبوته إليها ، ومن ثم نقل كعب عن الكتب السالفة أنها دار ملكه ؛ أي : باعتبار سبقه إليها قبل نظرائها ، ولذا أسري به صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس منها ، كما هاجر إليها إبراهيم ولوط ، وبها ينزل عيسى عليه السلام ، وهي أرض المحشر والمنشر .

فائدة : صح عند الضياء : أنه صلى الله عليه وسلم ولد مختوناً مقطوع السرة حتى لا يرى أحد سوءته[٣] ، زاد الحاكم : أن ذلك تواترت به الأخبار ، واعترضوا التصحيح بأنها كلها ضعيفة ، والتواتر بأنها إذا لم تصح كما تقرر.. فكيف تتواتر[٤] ؟ قيل : على أن كثيراً من الناس ولد مختوناً فلا خصوصية فيه ، بل قال ابن الكلبي : إن آدم واثني عشر نبياً بعده ولدوا مختونين ، وروى بعض الحفاظ بسنده إلى ابن عباس

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٤٠٤) ، وأحمد (٤/ ١٢٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٢٥٢) .
(٢) أخرج هٰذه الروايات ابن سعد في « الطبقات » (١/ ١٠٢) ، وانظر « السيرة النبوية » (١/ ١٥٨) .
(٣) الأحاديث المختارة (١٨٦٤) .
(٤) انظر « المستدرك » وبهامشه « التلخيص » (٢/ ٦٠٢) .

رضي الله عنهما : أن عبد المطلب ختنه يوم سابع ولادته ، وجعل له مأدبة وسماه محمداً[١] ، وفي طريق منكر : أنه ختن عند حليمة حيث شق قلبه[٢] .

ولما تمم الكلام على عجائب ولادته صلى الله عليه وسلم ومعجزاتها . . شرع في ذكر عجائب الرضاع ومعجزاته فقال مستأنفاً أو عاطفاً عطف الجمل فقال :

(28)

وَبَـدَتْ فِـي رَضَـاعِـهِ مُعْجِـزَاتٌ   لَيْـسَ فِيهَـا عَـنِ ٱلْعُيُـونِ خَفَـاءُ

(وبدت) أي : ظهرت لمن في عصره صلى الله عليه وسلم بطريق العيان ، ولمن بعدهم بطريق البرهان (في) فعل وزمن (رضاعه) وهو : امتصاص اللبن من الثدي (معجزات) تسميتها بذلك مجاز ، أو جري على اصطلاح السلف كالإمام أحمد ، فإنهم يطلقون المعجزة على كل خارق ليس بسحر ، وجدت فيه الشروط الآتية أم لا ، ولـكن الأشهر الذي عليه أكثر أهل الكلام وغيرهم : أن المعجزة لا تطلق حقيقة إلا على الأمر الخارق للعادة ، المقرون بالتحدي ، الدال على صدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فعلم أن لها شروطاً :

أحدها : خرقها للعادة ، بأن تحيل وقوعَها كانشقاق القمر .

ثانيها : اقترانها بالتحدي ، وهو : طلب المعارضة والمقابلة مع أمن معارضتها ، من : تحديت فلاناً نازعته لأغلبه ، وهو مجاز ؛ إذ أصله الحداء يتعارض فيه الحاديان فيتحدى كلٌّ الآخر ؛ أي : يطلب حداءه ، فخرج : الخارق من غير تحد وهو كرامة الولي ، والخارق المتقدم على التحدي ، كإظلال الغمام وشق الصدر الواقعين لنبينا صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، فهي كرامات لا معجزات وتسمى إرهاصاً ؛ أي : تأسيساً للنبوة .

لا يقال : خرج به أيضاً الخارق المتأخر عن التحدي بما يخرجه عن المقارنة العرفية ؛ لأنه يلزم عليه إخراج أكثر آياته صلى الله عليه وسلم ، كنطق الحصى والجذع

---

(١) انظر « الإستيعاب » (١/ ٢٢) .

(٢) أخرج الطبراني نحوه في « الأوسط » (٥٨١٧) ، وانظر « مجمع الزوائد » (٨/ ٢٢٧) .

والدواب ونبع الماء ، بل قيل : لعله لم يتحد بغير القرآن وتمني الموت ، وزعمُ أنه لا معجزة إلا هـٰذان . . أقرب إلى الكفر منه إلى البدعة ، فالحق : أن المراد بالتحدي ليس معناه الأصلي ، بل المراد به : دعوى الرسالة ، وكل معجزاته صلى الله عليه وسلم مقارن لذلك ، والخارق الذي لا تؤمن معارضته كالسحر ، سواء أقلنا : إنه قلب الأعيان وإحالة الطبائع ؛ لأنا وإن جوزنا ذلك . . فقد جرت العادة الإلهية بأنه لا يقع من مدعي النبوة كذباً ، وإنما يقع من مدعيها صدقاً ، أم لم نقل بذلك وهو ظاهر ، ولا ينافي ذلك ما يظهر على يد الدجال من الخوارق العظيمة ؛ لأنه ليس مدعياً للنبوة بل للألوهية ، وقد دلت القواطع على كذبه ، وإن بروز تلك على يديه لمحض الفتنة لا غير .

ثالثها : دلالتها على صدق المتحدي ، فخرج الخارق المكذب له ، كأن قال : آيتي نطق هـٰذه الدابة ، فنطقت بكذبه ، كما وقع لمسيلمة الكذاب اللعين : أنه تفل في بئر ليعذب ماؤها ويكثر ، فغارت .

لا يقال : كان ينبغي للناظم رحمه الله تعالىٰ أن يقول : آيات أو بينات أو برهان ؛ لأن هـٰذه هي الواردة في القرآن والسنة دون لفظ المعجزة ؛ لأنا نقول : هي وإن لم ترد لـٰكن صارت في اصطلاح المتأخرين أبين وأظهر ، فلذلك خصت بالذكر .

(**ليس فيها**) متعلق بـ(خفاء) ، (**عن العيون خفاء**) لوضوحها ، وهو : اسم مصدر لأخفيته ؛ لأنه الذي بمعنى كتمته ، لا مصدر لخفيته ؛ لأنه بمعنى أظهرته .

وبين (بدت) و (خفاء) الطباق .

29

إِذْ أَبَتْــهُ لِيُتْمِــهِ مُــرْضِعَــاتٌ ... قُلْــنَ مَــا فِــي ٱلْيَتِيــمِ عَنَّــا غَنَــاءُ

(**إذ**) أي : وقت ، أو لأجل أنه (**أبته ليتمه**) أي : لأجل موت أبيه وقد مضى له وهو حمل شهران ، وقيل : سبعة أشهر ، وقيل : مات وهو في المهد ، وهـٰذا قد ينافي ما في المتن ، إلا أن يقال : يحمل عليه أنه مات عقب الوضع قبل أن يرضع ، لـٰكن يرده أن موته كان بطيبة المنورة وهو آت من تجارة الشام عند أخوال أبيه

عبد المطلب بني النجار[1] ، وقد تقرر : أن المرضعات عقب وضعه علمن يتمه .

قيل : إنما سمي عبد المطلب لأنه لما ولد بطيبة . . ذهب إليه عمه المطلب ليأتي به مكة ، فكان كل من يراه معه يتوهم أنه عبده فيناديه بعبد المطلب ، ثم اشتهر به ، وقيل : دفن بالأبواء ، محل قريب رابغ .

قال جعفر الصادق : وإنما يتم صلى الله عليه وسلم لئلا يكون لمخلوق في عنقه حق .

(مرضعات) كن يأتين إلى مكة يلتمسن الرضعاء ؛ لأن إرضاع المرأة ولدها عار عندهم (قلن) إنما تركناه لأنا إنما نبتغي الرضعاء رجاء للمعروف من آبائهم ، وأما الأم والجد . . فما عسى أن يصنعا ؟ و(ما في) هـٰذا (اليتيم) بينه وبين (يتمه) جناس الاشتقاق (عنا) متعلق بقوله : (غناء) ـ بفتح المعجمة ـ أي : ليس فيه ليتمه وفقره نفع يغني عنا شيئاً ، وبينهما الجناس المصحف المحرف الناقص على خلاف فيه منتشر .

(30)

فَـأَتَتْـهُ مِـنْ آلِ سَعْـدٍ فَتَـاةٌ   قَـدْ أَبَتْهَـا لِفَقْـرِهَـا ٱلـرُّضَعَـاءُ

(فـ) بعد أن تركته لذلك (أتته من آل سعد) بن بكر ، ونسبت إليه مع أنه الجد التاسع ؛ لأنه الأشهر وبه عرفت القبيلة ، وزوجها منهم أيضاً (فتاة) أي : شابة كريمة كائنة من بعض هـٰذه القبيلة ، فقول الشارح : إن (من) بيانية . . بعيد ، وفي كونها حليمة السعدية من الفأل الحسن والبشارة العظيمة بحصول غايات الحلم والسعد لهـٰذا الرضيع ما لا يخفى عظيم وقعه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن .

(قد أبتها لفقرها الرضعاء) جمع رضيع ؛ أي : أهلهم ؛ لأن الفقر يستلزم قلة الأكل المستلزمة عادة لقلة اللبن المضرة بالرضيع غالباً ، وما تعطاه من جعل ربما تصرفه في حوائجها الخارجة ، فلا يفيدها في دفع الجوع الذي هو المحذور ، وأصل

---

(١) انظر « طبقات ابن سعد » (١/ ٩٩) ، و« الروض الأنف » (٢/ ٩٩) .

ذلك : ما رواه ابن إسحاق وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وأبو نعيم عن حليمة رضي الله عنها : أنها قدمت مكة في نسوة من قومها يلتمسن الرضعاء في سنة مجدبة ، ومعها صبيها وشاة ما تَبِض بقطرة لبن[1] ، ولا لبن بثديها ، فلا ينام صبيها من الجوع ، قالت : وما علمت امرأة منا إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل : يتيم ، فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري ، فلما لم أجد غيره . . قلت لزوجي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، فذهبت فإذا به مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن ، يفوح منه المسك الأذفر ، وتحته حريرة خضراء ، راقد على قفاه يغط ، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله ، فدنوت منه رويداً فوضعت يدي على صدره صلى الله عليه وسلم ، فتبسم ضاحكاً وفتح عينيه ينظر إلي ، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر ، فقبلته بين عينيه وأعطيته ثديي الأيمن ، فأقبل عليه بما شاء من لبن ، فحولته إلى الأيسر فأبى ، وكانت تلك حاله صلى الله عليه وسلم بعدُ ـ قال أهل العلم : أعلمه الله تعالىٰ أن له شريكاً فألهمه العدل ـ ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به رحلي فقام صاحبي ـ تعني زوجها ـ إلى شاتنا تلك فإذا بها حافل ، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا ، وبتنا بخير ليلة من الخير والبركة حين أخذناه ، فلم يزل الله يزيدنا خيراً[2] .

وفي رواية : أنها لما ودعت أمه وذهبت به على أتانها . . سجدت نحو الكعبة ثلاث سجدات ، ورفعت رأسها إلى السماء ، ثم مشت فسبقت دوابهن ، فصرن يتعجبن ويقلن لها : أهٰذه أتانك التي كانت ترفعك طوراً وتخفضك أخرى ؟! فتقول : نعم ، فيقلن : إن لها شأناً عظيماً ، فسمعت الأتان تقول : إن لي شأناً عظيماً ، بعثني الله بعد موتي ، ويحكن هل تدرين من على ظهري ؟ على ظهري خير الأولين والآخرين .

---

(١) بَضَّ : سال سيلاً قليلاً .
(٢) السيرة النبوية (١/ ١٦٢) ، ومسند أبي يعلى (٧١٦٣) ، والمعجم الكبير (٢٤/ ٢١٢) ، ودلائل البيهقي (١/ ١٣٢) ، ودلائل أبي نعيم (١/ ١٩٣) .

وأبدل من (أتته) قوله :

31

أَرْضَعَتْــــهُ لِبَــــانَهَــــا فَسَقَتْهَــــا وَبَنِيهَــــا أَلْبَــــانَهُــــنَّ ٱلشَّــــاءُ

(أرضعته لبانها) ـ بكسر أوله ـ مفعول به ، ويجوز ـ على بُعْد ـ كونه مطلقاً ؛ لأن معنى (لبانها) رضاعها ؛ إذ يقال : هو أخوه بلبان أمه ، ولا يقال : بلبنها ، فاللبان مختص بلبن الرضاع (فـ) بسبب هـٰذا الرضاع لهـٰذا المولود الأفضل من سائر المخلوقات (سقتها) أي : حليمة (وبنيها) وقد كانوا أشرفوا على الهلاك من الجوع ؛ لما مر أن أرضهم كانت في غاية المحل والجدب (ألبانهن) فيه استعمال ألبان في غير لبن الرضاع ، وكأن الحامل عليه مقابلته بـ(لبانها) السابق ، فيكون من باب المشاكلة ، نحو : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ ، ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ ، (الشاء) جمع شاة ، كرامة لذلك المولود عليه الصلاة والسلام ، وإنما سقتهم مع ذلك المحل ؛ لأنها ببركته صلى الله عليه وسلم

32

أَصْبَحَــتْ شُــوَّلاً عِجَــافاً وَأَمْسَــتْ مَــا بِهَــا شَــائِــلٌ وَلَا عَجْفَــاءُ

(أصبحت) فهو من أسلوب الحكيم ، ويجوز كونه حالاً نظراً لصورة تعريفه ، وصفة نظراً لكون (أل) فيه جنسية ، نحو قوله : [من الكامل]

وَلَقَــدْ أَمُــرُّ عَلَــى ٱللَّئِيــمِ يَسُبُّنِــي

(شولاً) بالتشديد جمع شائل ، وهو في الأصل : الناقة التي تشول بذنبها للقاح ولا لبن بها أصلاً ، فاستعمالها في الشاة مجاز علاقته المشابهة (عجافاً) أي : هزيلات (وأمست) لم يرد بأصبح وأمسى معناهما ، بل المراد : أنها كانت في حال فاعتراها نقيضه في أقرب زمن وأسرعه ، فبينهما الطباق وإن لم يرد بهما موضوعهما (ما بها) أي : فيها (شائل) مبتدأ ، أو فاعل الظرف[1] (ولا عجفاء) أي : هزيلة ،

---

(١) يجوز فيه أن يكون مبتدأ أو فاعلاً كما قال الشارح ، وفي الترجيح بينهما مذهبان ، وذكر ابن

=

وبين إثبات الشول والعجاف ونفيهما طباق ، على حد قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ . ولك أن تقول : ليس ما ههنا على وزن الآية ؛ لأن الذي فيها نفي العلم عنهم وإثبات بعضه لهم لا بقيد زمن ولا غيره ، وما هنا فيه الإثبات في زمن والنفي في زمن آخر ، وهٰذا لا تضاد فيه حقيقة ولا إيهاماً ، وشرط الطباق التضاد أو إيهامه ولو ببادىء الرأي ، كما هو معلوم من استقراء أمثلتهم ، وذكر الزمنين المختلفين يمنع من ذلك ، ولا ينافيه عدهم من الطباق قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ ، إذ الفاء تأتي لغير التعقيب ، فالإيهام موجود ، على أنها معه قد لا تمنعه أيضاً ؛ لأن ضمير (أحييناه) للميت ، فكأنه قال : أحيينا الميت ، وهٰذا فيه إيهام اجتماع الحياة والموت . فتأمله .

(33)

إِذْ غَـــدَا لِلْنَّبِـــيِّ مِنْهَـــا غِـــذَاءُ	أَخْصَبَ ٱلْعَيْشُ عِنْدَهَا بَعْدَ مَحْلٍ

(أخصب) من الخصب بكسر أوله ، وهو : ضد الجدب (العيش) أي : كثر قوت الآدميين والدواب (عندها) أي : حليمة ، أو الشاء ، ويرجحه[1] : (منها) الآتي (بعد محل) أي : شدة جدب ، وهو : انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ والزرع (إذ) أي : ذلك الإخصاب وقت ، أو لأجل أن (غدا) أي : صار (للنبي) الأعظم (منها) أي : الشاة (غذاء) ـ بالمعجمة ـ أي : لبان تغذيه .

وبين (غدا) و (غذاء) الجناس السابق في (عنا) و (غناء)[2] .

(34)

ــرُ عَلَيْهَـا مِـنْ جِنْسِهَـا وَٱلْجَـزَاءُ	يَـا لَهَـا مِنَّـةً لَقَـدْ ضُـوعِـفَ ٱلْأَجْـ

(يا لها) كلمة تعجب من هٰذه الفعلة الجميلة من حليمة ، وهي : إرضاعها له

هشام وجوب كونه فاعلاً . انظر « مغني اللبيب » (٢/ ٥٧٨) .

(١) أي : يرجح كون الضمير في (عندها) عائداً على الشاء .

(٢) وهو الجناس المصحف المحرف الناقص .

صلى الله عليه وسلم من غير مقابل دنيوي ترجوه ، ونظير هـٰذا التعجب قوله في « البردة » :

يَـا طِيـبَ مُبْتَـدَأً مِنْـهُ وَمُخْتَتَـمِ

فالنداء فيه للتعجب ؛ إذ لا ينادى إلا العاقل أو المنزل منزلته ، والعرب إذا استعظمت شيئاً . . نادته على سبيل التعجب ، وفيه مجاز التشبيه ؛ لتشبيه ما تعجب منه لعظمته بمنادى يسمع ويعقل ، وزعمُ أن (يا) للتنبيه . . مردود بأنهم لم يذكروا هـٰذا من محالها[1] .

قيل : والتقدير : يا متعجباً ؛ تأمل طيب مبتدئه ، ونظيره هنا : يا متعجباً ؛ تأمل ما استقر لها (منة) تمييز : أي نعمة منها عليه (**لقد**) اللام للقسم أو التأكيد (**ضوعف الأجـر**) أي : كرر الثواب ؛ إذ تضعيف الشيء أن يزاد عليه مثله أو أكثر (**عليها**) أي : توالى وتتابع حال كونه مستولياً على حليمة ، فـ(علىٰ) . . على بابها من الاستعلاء المجازي ، أو على تلك المنة ؛ أي : لأجلها ، على حد : ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ أي : لأجل هدايته إياكم ، أو حال كونه (**من جنسها**) كما علم من قوله : (فسقتها . . .) إلخ .

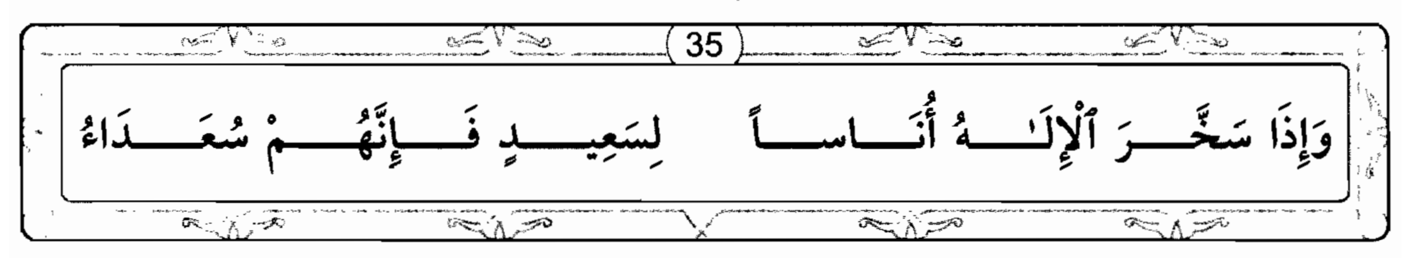
(**والجزاء**) من عطف الرديف ؛ إذ هو الأجر ، وذلك لأن الجزاء من جنس العمل ، فلما سقته صلى الله عليه وسلم لبنها . . سقتها وبنيها شياهها ، مع أنها كانت وقت أخذه من أمه على غاية من الهزال وعدم اللبن ، فلأجل أن غذاءه كان من ألبانها . . أزال الله عنها المحل والجدب ، وأبدلها منها الخصب والخير الكثير جزاء وفاقاً .

واعلم : أن ما حصل لحليمة من هـٰذه المزية الجليلة إنما نشأ عن تسخير الله تعالىٰ

---

(١) قال ابن هشام : (. . . فقيل : هي للنداء والمنادى محذوف ، وقيل : هي لمجرد التنبيه ؛ لئلا يلزم الإجحاف بحذف الجملة كلها ، وقال ابن مالك : إن وليها أمر ، نحو : ﴿ألا يا اسجدوا﴾ . . فهي للنداء ؛ لكثرة وقوع النداء قبلهما ، نحو : ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ ﴾ ، و﴿ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ ﴾ ، ونحو : ﴿ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ، وإلا . . فهي للتنبيه) اهـ « المغني » (١/ ٨٨) .
والاستدلال بقوله تعالى : ﴿ألا يا اسجدوا﴾ على قراءة أبي جعفر والكسائي ورويس . انظر « النشر » لابن الجزري (٢/ ٣٣٧) .

لها لهـٰذا الفعل الجميل الصادر منها المبني على سبق سعادتها .



(و) قد تقرر في المعقول والمنقول أنه (إذا سخر) أي : ذلل ووفق (الإلـٰه أناساً) لغة في الناس (لسعيد) أي : لخدمته ومحبته والقيام بشأنه (فإنهم) بسبب ذلك (سعداء) جمع سعيد ؛ لأن بركة ذلك السعيد ويمنه وبره تتابع عليهم حتى يكونوا من سعداء الدنيا والآخرة ، ولأن المرء مع من أحبه من الأكابر وإن لم يعمل بعمله ، كما صح به الحديث[1] ، ولأن « ٱلْأَرْوَاحُ » ـ كما في الحديث[2] أيضاً ـ « جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا » في عالم الأرواح . . « ٱئْتَلَفَ » في عالم الأجساد ، ومن أعظم أجرها وسعادتها توفيقها للإسلام هي وزوجها وبنوها ، بل رد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي هوازن إليهم بواسطة كونهم قومَها ، وكانت تقدم عليه صلى الله عليه وسلم فيكرم مثواها ، وكذلك زاد في إكرام بنتها الشيماء لما أعتقها من جملة من أعتق من سبيهم كما يأتي .

وهـٰذا من فن البديع المسمى بالكلام الجامع ، وهو : أن يأتي الشاعر ببيت تكون جملته حكمة أو موعظة أو تنبيهاً أو نحو ذلك من الحقائق الجارية مجرى الأمثال ، كقول أبي الطيب : [من الخفيف]

وَإِذَا كَانَتِ ٱلنُّفُوسُ كِبَاراً تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا ٱلْأَجْسَامُ[3]

وهو كثير في كلام الناظم ، وأصل ما ذكره بقوله : (أرضعته . . .) إلى هنا . . ما رواه ابن إسحاق وغيره من قولها بعد ما قدمناه عنها آنفاً : ثم قدمنا أرض بني سعد ولا أعلم أرضاً أجدب منها ، فكانت غنمي تروح علي شباعاً لُبَّناً فنحلب ونشرب ،

---

(١) حديث : « المرء مع من أحب » أخرجه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤١) ، وأبو داوود (٥٠٨٦) ، والترمذي (٢٣٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب الأنبياء ، باب الأرواح جنود مجندة ، ومسلم (٢٦٣٨) ، وأبو داوود (٤٨٠١) .

(٣) البيت في « شرح ديوانه » للعكبري (٣/ ٣٤٥) .

وما يحلب إنسان غيرنا قطرة لبن ولا يجدها في ضروع ، حتى تؤمر الرعيان أن تسرح غنمها حيث تسرح غنمي ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تَبِضُّ بقطرة لبن ، وتروح أغنامي شباعاً لُبَّناً ، فلم نزل نتعرف من بركته الزيادة والبركة حتى مضت له سنتان وفطمته[1] .

ولما قرر ما حصل لها من الخصب بعد الجدب ببركة إرضاعها له صلى الله عليه وسلم ، ومن الجزاء من جنس عملها بكثرة لبن شياهها . . عقبه بما يبين أن تلك المضاعفة في قوله : (ضوعف) بلغت مرات كثيرة فقال :

36

حَبَّــةٌ أَنْبَتَــتْ سَنَــابِــلَ وَٱلْعَصْــ ـــفُ لَـدَيْـهِ يَسْتَشْـرِفُ ٱلضُّعَفَـاءُ

(حبة) أي : هـٰذه الفعلة الصادرة من حليمة كما دل عليه السياق ، وبه يعلم أن هـٰذا ليس من الاستعارة ؛ لأن شرطها : طي ذكر المستعار له بأن لا يكون في الكلام رمز إليه ولو تقديراً ، ومن ثم كان التحقيق في : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ . . . ﴾ الآية : أنه من التشبيه البليغ ؛ لدلالة السياق على طي المشبه الذي هو هم ، وقول البهاء السبكي : إنه استعارة . . رأي مخالف للجمهور فلا يعول عليه كـ(حبة) ، وأشار إلى وجه الشبه الذي هو تضاعف الجزاء ؛ ليبين أنه ليس من التشبيه البليغ ؛ لأن شرطه : أن لا يذكر وجه الشبه بقوله : (أنبتت سنابل) كثيرة ، جمع سنبلة ، وهي : مجتمع الحب ، ﴿ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، ففيه اقتباس ، وحذف لفظ : سبع ؛ ليبين أن العرب قد يذكرونها كالسبعين مريدين بها مطلق الكثرة لا خصوص العدد المعروف (والعصف) أي : والحال أن ورق النبات اليابس كالتبن (لديه) أي : عنده (يستشرف) أي : يتطلع (الضعفاء) أي : حصلت تلك المضاعفة الكثيرة في تلك السنابل والحال أن الوقت وقت عدم النبات بالكلية ، بحيث إن الفقراء يتطلعون إلى ورق النبات فضلاً عن النبات فضلاً عن الحب ، كما أن حليمة حصل لها ذلك الخصب واللبن والحال أن قومها يتطلعون إلى ورقة حبة أو قطرة لبن فلا يجدونه .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ١٦٤) .

37

وَأَتَتْ جَدَّهُ وَقَدْ فَصَلَتْهُ   وَبِهَا مِنْ فِصَالِهِ ٱلْبُرَحَاءُ

(و) بعد أن انتهى رضاعه لبلوغه سنتين (أتت) به (جده) عبد المطلب الذي في الرواية الآتية أمه ، فلعل الناظم ذكر جده لأنه الأصل ، ولأن أمه ما كانت تفعل به شيئاً إلا بعد مشاورة جده .

نعم ؛ في « سيرة ابن هشام » أن حليمة رضي الله تعالىٰ عنها لما أتت به مكة . . أضلته في الناس ، فأتت جده وأخبرته بذلك ، فدعا الله تعالى حتى وجدوه[1] (و) الحال أنها (قد فصلته) أي : فطمته (و) الحال أنه لحق (بها من) أجل (فصاله) أي : فطامه (البرحاء) أي : التألم الكثير ؛ لما شاهدت من توالي الخيرات وتتابع البركات بسبب رضاعه وإقامته عندها .

38

إِذْ أَحَاطَتْ بِهِ مَلاَئِكَةُ ٱللهِ   فَظَنَّتْ بِأَنَّهُمْ قُرَنَاءُ

(إذ) أي : أتت به وقت ، أو لأجل أنه (أحاطت) أي : أحدقت (به ملائكة الله) لأجل شق قلبه الشريف الآتي ، وهـٰذا ظاهر على الرواية الآتية أنهم ثلاثة ، وكذا على رواية أنهم اثنان ؛ لأنهما أقل الجمع عند جماعة (فظنت) حليمة (بأنهم) الباء زائدة (قرناء) أي : شياطين يريدون إيذاءه ، فخافت عليه وأسرعت به إلى جده لتسلم من تَبِعته .

39

وَرَأَىٰ وَجْدَهَا بِهِ وَمِنَ ٱلْوَجْـ   ـدِ لَهِيبٌ تَصْلَىٰ بِهِ ٱلْأَحْشَاءُ

(ورأى) أي : جده وأمه حين ردته إليهما (وجدها) أي : شدة محبتها له وتعلقها (به) فرداه معها لذلك ، وليسلم من وباء مكة كما يأتي في الرواية ، وهـٰذا حذفه الناظم لـٰكن سياقه يدل عليه (و) هي للحال المبينة لعظمة ذلك الوجد الذي رآه بها

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٦٧) .

(من) أجل (**الوجد**) الذي بها (**لهيب**) أي : نار (**تصلى**) أي : تحترق (به **الأحشاء**) جمع حشا ، وهو : ما انضمت عليه الضلوع ، ويحتمل أنها استئنافية ، فـ(من) ابتدائية ، وحينئذ فهـٰذا من إرسال المَثَل[1] ، أو هو حكمة مفيدة أن شأن الوجد أنه ينشأ عنه ذلك اللهيب الذي يحرق الأحشاء ، وأن وجدها من هـٰذا القبيل ، فمن ثم رثى لحالها وأطفأ نار ذلك الوجد برده إليها .

40

فَـارَقَتْـهُ كُـرْهـاً وَكَـانَ لَـدَيْهَـا ... ثَـاوِيـاً لَا يُمَـلُّ مِنْـهُ ٱلثَّـوَاءُ

(**فارقته**) بدل من (أتت) ، (**كرهاً**) أي : حال كونها ذات كراهية لفراقه ؛ لما شاهدت في إقامته عندها من الخيرات الكثيرة عليها وعلى زوجها وبنيها وسائر متعلقاتها (**و**) الحال أنه (**كان لديها**) أي : عندها (**ثاوياً**) أي : مقيماً (**لا يمل**) بالبناء للمجهول (**منه**) متعلق بقوله : (**الثواء**) الإقامة ، فهو مع (ثاوياً) من جناس الاشتقاق ؛ أي : لا تمل إقامته ، بل تُحب ويُرغب فيها ؛ لما يترتب عليها من الإحسان الواسع المجبولة على حبه النفوس .

ولما فرغ من قصة رضاعه . . ذكر قصة شق صدره ؛ لأنه السبب في إحضاره لجده المذكور آنفاً ، ولذا أبدل من قوله : (أحاطت) قوله :

41

شُـقَّ عَـنْ قَلْبِـهِ وَأُخْـرِجَ مِنْـهُ ... مُضْغَـةٌ عِنْـدَ غَسْلِـهِ سَـوْدَاءُ

(**شق عن قلبه**) بالكيفية الآتية في القصة ، ويحتمل أن قوله : (شق عن قلبه) استئناف لبيان مطلق الشق الشامل للواقع في زمن الرضاع وما بعده مما يأتي ، ويؤيده : أنه ذكر في قصته أشياء ككون الخاتِم جبريل لم ترد في قصة شقه عقب الرضاع ، بل في شقه الذي بعد ذلك كما يعلم بتأمل كلام الناظم مع القصة الآتي بسطها ، وهو ـ أعني القلب ـ : مضغة في الفؤاد معلقة بالنياط ، فهو أخص من

---

(١) وهو : أن يأتي في بعض البيت بما يجري مجرى المثل .

الفؤاد ، قاله الواحدي ، والذي في « الصحاح » أنهما مترادفان ، قال البدر الزركشي : والأحسن قول غيره : الفؤاد غشاء القلب ، والقلب حبته وسويداؤه ، ويؤيد الفرق قوله صلى الله عليه وسلم : « أَلْيَنُ قُلُوباً وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً »[١] وفرق الزمخشري : بأن الفؤاد وسط القلب ، سمي به لتفوده[٢] ؛ أي : توقده ، والقلب مشتق من التقلب الذي هو المصدر ؛ لفرط تقلبه كما في الحديث ، ومثل هـٰذا القلب كمثل ريشة ملقاة بفلاة يقلبها الريح بطناً لظهر .

(**وأخرج منه**) أي : القلب (**مضغة**) أي : قطعة لحم قدر ما يمضغ (**عند غسله**) ظرف لـ(أخرج) ، (**سوداء**) صفة لـ(مضغة) وإنما خلقت هـٰذه المضغة فيه ثم أخرجت ؛ لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية ، فعدمها نقص في البدن ، وأيضاً فإخراجها بعد خلقها على هـٰذه الصورة البديعة . . أدل على مزيد الرفعة وعظيم الاعتناء والرعاية من خلقه بدونها ، ويأتي في رواية صحيحة : أنه أخرج منه علقتان سوداوان ، ولا ينافي ما ذكره الناظم أنها واحدة ؛ لأن المراد بها : الجنس ، على أن الشق تكرر كما يأتي ، فلا بدع أنه صلى الله عليه وسلم أخرج منه واحدة ثم ثنتان ؛ لأن المراد : المبالغة في تطهيره وتكريمه ، وذلك يستدعي استقصاء تنظيف جوفه .

(42)

خَتَمَتْـهُ يُمْنَـى ٱلْأَمِيـنِ وَقَـدْ أُو ... دِعَ مَـا لَـمْ تُـذِعْ لَـهُ أَنْبَـاءُ

(**ختمته**) أي : ذلك الشق المفهوم من (شق) وهي استئنافية ، أو معطوفة على (شق) بحذف حرف العطف ؛ أي : ثم بعد شقه لأَمْته وأعادته إلى ما كان عليه (**يمنى**) جبريل عليه الصلاة والسلام (**الأمين**) على كتب الله ووحيه (**و**) الحال أن ذلك القلب الكريم (**قد أودع**) حالة الشق من الإيمان والحكمة والعلوم والأسرار الإلـٰهية (**ما**) أي : الذي أو شيئاً (**لم تذع**) ـ بضم التاء وكسر الذال المعجمة ـ أي : تنشر (**له**) اللام زائدة ؛ أي : ما لم تنشره وتحيط به (**أنباء**) أي : أخبار ؛ لأنه لا يعلمه إلا مولاه والمتفضل به عليه ، قال العلماء : جعل الله القلب في الإنسان هو الذي يعقل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨٨) ، ومسلم (٥٢) ، وأحمد (٢/ ٢٥٢) .

(٢) الفائق في غريب الحديث (١/ ٨٣) .

عنه ، وهو أصل وجوده وبه صلاحه وفساده ، وهو محل أسراره التي يودعها قلب من يشاء ، فأول قلب أودعها قلب محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أول خلق ، وصورته آخر صور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فهو أولهم وآخرهم ، فلذا حاز جميع كمالاتهم وزاد عليهم بما لا يعلمه إلا الله تعالى .

(43)

صَانَ أَسْرَارَهُ ٱلْخِتَامُ فَلَا ٱلْفَضُّ مُلِمٌّ بِهِ وَلَا ٱلْإِفْضَاءُ

(صان) أي : حفظ (أسراره) التي أودعت فيه ، وهو مفعول مقدم ، ذلك (الختام) الواقع من جبريل ، وهو : ما يختم به الكتاب ونحوه من طين أو نحوه ، وبينه وبين (ختمته) جناس الاشتقاق (فـ) بسبب هٰذه الصيانة (لا الفض) أي : الكسر بالتفرقة (ملم) أي : واقع (به) أي : بذلك الختم (ولا الإفضاء) أي : الإشاعة واقعة لذلك السر ، وبين (الفض) و(الإفضاء) التجنيس المطلق ، ومر فيه في (قيصر) و(قصور) زيادة ، ويجري ذلك في قوله : (يمنى الأمين) .

وأصل قوله : (وأتت جده . . .) إلخ . . قول حليمة رضي الله تعالىٰ عنها بعد ما قدمته عنها كما في السير عنها : لم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته ، فكان يشِب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً ، فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على بقائه عندنا ؛ لما نرى من بركته ، فقلنا لأمه : لو تركتيه عندنا حتى يغلظ ، فإنا نخشى عليه وباء مكة ، ولم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به ، فو الله إنه لبعد مقدمنا به بشهرين أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة في بَهْم لنا خلف بيوتنا . . جاء أخوه يشتد فقال : ذاك أخي القرشي ، قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاه وشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه ، فاعتنقه أبوه وقال : أي بني ؛ ما شأنك ؟ قال : « جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ ، فَأَضْجَعَانِي فَشَقَّا بَطْنِي ، ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَا مِنْهُ شَيْئاً فَطَرَحَاهُ ، ثُمَّ رَدَّاهُ كَمَا كَانَ » فرجعنا به معنا ، فقال أبوه : يا حليمة ؛ لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب ، فانطلقي نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوفه ، قالت : فاحتملناه إلى أمه فقالت : ما ردكما به ؟ فقد كنتما حريصين عليه ، قلنا : نخشى الاختلاف والأحداث ،

فقالت : ما ذاك بكما ، فاصدقاني شأنكما ، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره ، فقالت : أخشيتما عليه الشيطان ؟ لا والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإنه لكائن لابني هـٰذا شأن ، فدعاه عنكما[1] .

وفي حديث عند أبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر : « كُنْتُ مُسْتَرْضَعاً فِي بَنِي لَيْثِ ٱبْنِ بَكْرٍ ، فَبَيْنَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ فِي بَطْنِ وَادٍ مَعَ أَتْرَابٍ لِي مِنَ ٱلصِّبْيَانِ ، فَإِذَا أَنَا بِرَهْطٍ ثَلاَثَةٍ مَعَهُمْ طَسْتٌ مِنْ ذَهَبٍ مُلِيءَ ثَلْجاً ، فَأَخَذُونِي مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي ، وَٱنْطَلَقَ ٱلصِّبْيَانُ هَرَباً مُسْرِعِينَ إِلَى ٱلْحَيِّ ، فَعَمَدَ أَحَدُهُمْ فَأَضْجَعَنِي عَلَى ٱلأَرْضِ إِضْجَاعاً لَطِيفاً ، ثُمَّ شَقَّ مَا بَيْنَ مَفْرِقِ صَدْرِي إِلَى مُنْتَهَى عَانَتِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَلَمْ أَجِدْ لِذَلِكَ مَسّاً ، ثُمَّ أَخْرَجَ أَحْشَاءَ بَطْنِي ، ثُمَّ غَسَلَهَا بِذَلِكَ ٱلثَّلْجِ فَأَنْعَمَ غَسْلَهَا ، ثُمَّ أَعَادَهَا مَكَانَهَا ، ثُمَّ قَامَ ٱلثَّانِي فَقَالَ لِصَاحِبِهِ : تَنَحَّ ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَوْفِي وَأَخْرَجَ قَلْبِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَصَدَعَهُ ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُ مُضْغَةً سَوْدَاءَ فَرَمَى بِهَا ثُمَّ قَالَ ـ أي : أشار بيده ـ يَمْنَةً وَيَسْرَةً كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً ، فَإِذَا خَاتَمٌ مِنْ نُورٍ يَحَارُ ٱلنَّاظِرُ دُونَهُ ، فَخَتَمَ بِهِ قَلْبِي فَٱمْتَلأَ نُوراً ، فَذَلِكَ نُورُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْحِكْمَةِ ، ثُمَّ أَعَادَهُ مَكَانَهُ فَوَجَدْتُ بَرْدَ ذَلِكَ ٱلْخَاتَمِ فِي قَلْبِي دَهْراً ، ثُمَّ قَالَ ٱلثَّالِثُ لِصَاحِبِهِ : تَنَحَّ ، فَأَمَرَّ يَدَهُ بَيْنَ مَفْرِقِ صَدْرِي إِلَى مُنْتَهَى عَانَتِي فَٱلْتَأَمَ ذَلِكَ ٱلشَّقُّ بِإِذْنِ ٱللهِ تَعَالَى ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَنْهَضَنِي مِنْ مَكَانِي إِنْهَاضاً لَطِيفاً . . . » الحديث[2] .

وفي رواية عند البيهقي : أن أحد الثلاثة في يده إبريق من فضة ، وفي يد الثاني طست من زمردة خضراء[3] .

وورد في خبر التابوت المذكور في الآية : أنه كان فيه الطست الذي غسلت فيه قلوب الأنبياء صلى الله عليهم وسلم[4] .

وحكمة ختم قلبه المقدس : الإشارة إلى ختم الرسالة به ، قيل : وإنما يسلم هـٰذا إن اختص الختم به ، أما إذا لم يختص الختم به كما مر . . فالحكمة : أنه من جملة

---

(١) انظر « السيرة النبوية » (١/ ١٦٤) .
(٢) تاريخ دمشق (٣/ ٤٧٣) .
(٣) دلائل النبوة (١/ ١٣٩) .
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٢/ ٣٨٦) .

علامات النبوة ، وإنما شاركه فيها غيره ، على أن هـٰذه الكيفية المذكورة في شق قلبه صلى الله عليه وسلم الظاهر : أنها من خواصه صلى الله عليه وسلم ، سيما مع تكرر الشق ؛ لأن الوارد فيهم مجرد غسل قلوبهم ، وهو لا يستلزم هـٰذه الكيفية البديعة البالغة من خرق العادة والتعظيم مبلغاً لا يدركه العقل .

وروي الشق أيضاً وهو ابن عشر سنين أو نحوها مع قصة له مع عبد المطلب ، رواه أبو نعيم في « الدلائل » ، ورواها عبد الله بن الإمام أحمد في « زوائد مسند أبيه » بلفظ : قال أبو هريرة : يا رسول الله ؛ ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة ؟ قال : « إِنِّي لَفِي صَحْرَاءَ وَاسِعَةٍ أَمْشِي ٱبْنُ عَشْرِ حِجَجٍ . . إِذْ أَنَا بِرَجُلَيْنِ فَوْقَ رَأْسِي يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَهُوَ هُوَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَخَذَانِي وَأَضْجَعَانِي لِحَلاَوَةِ ٱلْقَفَا[1] ثُمَّ شَقَّا بَطْنِي ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَخْتَلِفُ بِٱلْمَاءِ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ وَٱلآخَرُ يَغْسِلُ جَوْفِي ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : ٱفْلُقْ صَدْرَهُ ، فَإِذَا صَدْرِي فِيمَا أَرَى مَفْلُوقاً لاَ أَجِدُ لَهُ وَجَعاً ، ثُمَّ قَالَ : ٱشْقُقْ قَلْبَهُ ، فَشَقَّ قَلْبِي ، فَقَالَ : أَخْرِجِ ٱلْغِلَّ وَٱلْحَسَدَ مِنْهُ ، فَأَخْرَجَ شِبْهَ ٱلْعَلَقَةِ فَنَبَذَ بِهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَدْخِلِ ٱلرَّحْمَةَ وَٱلرَّأْفَةَ قَلْبَهُ ، فَأَدْخَلَ شَيْئاً كَهَيْئَةِ ٱلْفِضَّةِ ، ثُمَّ أَخْرَجَ ذَرُوراً كَانَ مَعَهُ فَذَرَّ عَلَيْهِ ، ثُمَّ نَقَرَ إِبْهَامِي ثُمَّ قَالَ : ٱغْدُ ، فَرَجَعْتُ بِمَا لَمْ أَغْدُ بِهِ مِنْ رَحْمَتِي لِلصَّغِيرِ وَرَأْفَتِي لِلْكَبِيرِ »[2] وروي خامسة ولا تثبت .

وحكمة شق صدره الشريف في حال صباه واستخراج ما مر منه . . تطهيره عن نقائص الصبا ؛ ليكون حينئذ على أكمل صفات الرجولية ، ولذلك نشأ على أكمل الأحوال .

قال بعض الأئمة : ولعل هـٰذا الشق كان سبباً لإسلام قرينه المروي عند البزار[3] أو إشارة إلى حظ الشيطان المباين له ، كالعفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله تعالىٰ منه[4] .

---

(١) حلاوة القفا : وسطه ؛ أي : أنهم لم يميلوا به يمنة أو يسرة .

(٢) مسند أحمد (٥/ ١٣٩) .

(٣) مسند البزار (١٨٧١) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٢٣) ، وابن حبان (٦٤١٩) .

وأما قول الرازي : وقوعه في حال الطفولية مشكل ؛ لأنه معجزة وهي لا يجوز تقدمها على النبوة ؛ لأن الذي عليه أكثر أهل الأصول اشتراط اقتران المعجزة بالتحدي . . فمردود بأن هـٰذا من باب الإرهاص لا المعجزة ، ونظائر ذلك كثيرة .

قيل : وهـٰذا الشق هو المراد بقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ .

تنبيه أول : ثبت شق صدره الشريف مرة أخرى عند مجيء جبريل له بالوحي وهو بغار حراء كما يأتي ، وممن رواها الطيالسي والحارث في « مسنديهما »[1] وكذا أبو نعيم ، ولفظه : إن جبريل وميكائيل شقا صدره وغسلاه ثم قالا : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ . . .﴾ الآيات ، والحكمة فيه : كمال التهيؤ والتقوي على ما يلقى إليه من القول الثقيل بقلب قوي في أكمل أحوال التطهير .

وثبت مرة أخرى ـ تواردت بها الروايات خلافاً لمن أنكرها ـ ليلة الإسراء ، ففي « البخاري » وغيره : (أنه شق قلبه فيها وهو بالمسجد قبل أن يخرج به إلى ركوبه البراق ، فشق من ثغرة نحره إلى عانته فاستخرج قلبه ، ثم غسل في طست ذهب ـ أي : لأن تحريم الذهب إنما كان بعدُ ، على أن الغالب في أحوال تلك الليلة أنه من أحوال الغيب ، فيلحق بأحكام الآخرة ـ مملوء حكمة وإيماناً ، ثم حشي ـ أي : وتجسيم المعاني جائز ، ومنه الرواية الصحيحة بذبح الموت ـ ثم أعيد)[2] وحكمة هـٰذا الشق : التهيؤ للرقي إلى الملأ الأعلى ، والتقوي على استجلاء ما شاهد تلك الليلة ، ولما لم يتفق هـٰذا لموسى عليه السلام . . لم يطق الرؤية .

وجميع ما ورد من الشق وإخراج القلب وغيرهما . . يجب الإيمان به وإن كان خارقاً للعادة ، ولا يجوز تأويله ؛ لصلاحية القدرة له ، ومن زعم ذلك . . وقع في هوة المعتزلة في تأويلهم نصوص سؤال الملائكة وعذاب القبر ووزن الأعمال والحوض والشفاعة وغير ذلك بالتشهي ، فقبح الله هـٰؤلاء ومن تبعهم .

وقد رمي إبراهيم عليه السلام في النار فكانت عليه برداً وسلاماً ، وهـٰذا الشق أبلغ في الصبر والكرامة مما وقع لإسماعيل عليه السلام ، فإنه مقدمات ذبح لا حقيقته كما

---

(١) مسند الطيالسي (١٥٣٩) .

(٢) البخاري (٣٧٨٧) .

هو رأي أهل السنة ، وبتقديره الذي ذهب إليه المعتزلة . . أنه أضجعه وأمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئاً وبتقديره . . فذاك مقتل واحد ، وهٰذه مقاتل عديدة : شق الصدر ، ثم إخراج القلب ، ثم شقه ، ووقع له صلى الله عليه وسلم من ذلك الشق الأول نوع مشقة ؛ لرواية : (فأقبل وهو منتقع اللون) أي : صار كلون النقع ؛ أي الغبار ، وهو شبيه بألوان الموتى .

ومعنى قول ابن الجوزي : فشقه وما شق عليه : أنه صبَر صبْر من لم يشق عليه ، ومما يدل على المشقة أنه بعدما فطم[1] ، مع انفراده عن أمه ويتمه من أبيه واختطافه من بين الأطفال ؛ ليكون ذلك تسهيلاً لما يلقاه في المآل ، ومن ثم لما شج وجهه وجرح وكسرت رَبَاعِيَته يوم أحد . . قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »[2] وفي رواية : (أنه غسل ليلة الإسراء بماء زمزم)[3] أي : لأنه يقوي القلب ويسكن الروع .

وأخذ البلقيني من إيثار الملك له على ماء الكوثر : أنه أفضل منه ، وهو ظاهر خلافاً لمن نازع فيه بما لا يجدي ، كما بينته في « شرح العباب » ، وفي وضع الإيمان والحكمة بالقلب دليل لما عليه أكثر أهل السنة أن العقل في القلب ـ كما دلت عليه الآيات ـ لا في الدماغ .

تنبيه ثان : قال عياض رحمه الله تعالى : (خاتم النبوة أثر شق الملكين بين كتفيه) وأبطله النووي رحمه الله بأن شقهما كان في بطنه وصدره ؛ أي : كما في الروايات[4] ، ومن ثم صح عن أنس رضي الله عنه : (كنت أرى أثر المخيط في صدره)[5] فالصحيح أو الصواب : أنه كان عند نغض كتفه الأيسر ، وهو : بنون مضمومة وقد تفتح فمعجمتين : أعلاه ، ورواية الأيمن ضعيفة ، قيل : ولد به .

وروى أبو نعيم : أنه جعل عقب ولادته ، والذي في حديث البزار وغيره عن أبي

---

(١) أي : أن الشق حصل بعد أن فطم عليه الصلاة والسلام .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) ، وأحمد (١/ ٤٤١) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ١٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٤٤٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٢) .

(٤) شرح صحيح مسلم (١٥/ ٩٩) .

(٥) أخرجه مسلم (١٦٢) ، وابن حبان (٦٣٣٤) .

ذر : يا رسول الله ؛ متى علمت أنك نبي ؟ وبم علمت حتى استيقنت ؟ قال : « أَتَانِي آتِيَانِ ـ وفي رواية : مَلَكَانِ ـ وَأَنَا بِبَطْحَاءِ مَكَّةَ . . . » الحديث ، وفيه : « قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : شُقَّ بَطْنَهُ ، فَشَقَّ بَطْنِي فَأَخْرَجَ قَلْبِي ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَغْمَزَ ٱلشَّيْطَانِ وَعَلَقَ ٱلدَّمِ فَطَرَحَهَا ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : ٱغْسِلْ بَطْنَهُ غَسْلَ ٱلإِنَاءِ ، وَٱغْسِلْ قَلْبَهُ غَسْلَ ٱلْمَلاَءِ ـ أي : الثوب الذي يتغطى به ـ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : خِطْ بَطْنَهُ ، فَخَاطَ بَطْنِي وَجَعَلَ ٱلْخَاتَمَ بَيْنَ كَتِفَيَّ كَمَا هُوَ ٱلآنَ ، وَوَلَّيَا عَنِّي فَكَأَنِّي أَرَى ٱلأَمْرَ مُعَايَنَةً »[1] .

وعند أحمد وصححه الحاكم : « ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ ، فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَتَيْنِ سَوْدَاوَيْنِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : ٱئْتِنِي بِمَاءٍ وَثَلْجٍ ، فَغَسَلاَ بِهِ جَوْفِي ، ثُمَّ قَالَ : ٱئْتِنِي بِٱلسَّكِينَةِ ، فَذَرَاهَا فِي قَلْبِي ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : خِطْهُ ، فَخَاطَهُ وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ ٱلنُّبُوَّةِ »[2] .

تنبيه ثالث : اختلفت الروايات في كيفية تشبيه ذلك الخاتم على أنواع كثيرة : بيضة الحمام[3] ، شعر مجتمع[4] ، بَضْعة ناشزة[5] ، بندقة[6] ، سلعة[7] ، شيء يختم به ، تفاحة[8] ، شامة خضراء محتفرة في اللحم ، شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات ، زر الحجلة[9] ؛ أي : البشخانة ، وزعم أنها هنا الطائر المعروف ، وزرها بيضها . . مردود[10] .

قال المحققون : ولا اختلاف في الحقيقة ، بل كل شبهه بما سنح له ، وكلها ألفاظ

---

(١) مسند البزار (٤٠٤٨) .
(٢) مسند أحمد (٤/ ١٨٤) ، والمستدرك (٢/ ٦١٦) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤٤) ، وأحمد (٥/ ١٠٥) ، والحاكم (٢/ ٦٠٦) .
(٤) أخرجه ابن حبان (٦٣٠٠) ، وأحمد (٥/ ٣٤١) ، والحاكم (٢/ ٦٠٦) .
(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في « تاريخه » (٣/ ١٨٠) .
(٦) أخرجه ابن حبان (٦٣٠٢) .
(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٦) ، والبزار (٣٣١٤) ، والطبراني في « الكبير » (١٩/ ٢٥) .
(٨) أخرجه الترمذي (٣٦٢٠) ، وأحمد (٤/ ١٦٣) ، والبزار (٣٠٩٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٢٨٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٨١) .
(٩) أخرجه البخاري (١٩٠) ، ومسلم (٢٣٤٥) ، والترمذي (٣٦٤٣) .
(١٠) انظر « شرح صحيح مسلم » للنووي (١٥/ ٩٨) .

مؤداها واحد ، وهو : قطعة لحم بارزة عليها شعرات ، إذا قلل.. قيل كبيضة الحمام ، وإذا كثر.. قيل كجمع الكف ؛ أي : على هيئته ، لـٰكنه أصغر منه ، ويشكل عليه رواية : محتفرة في اللحم ، ويجاب عنه : بأنه يحتمل أن حواليها احتفاراً ؛ ليزداد ظهورها وتميزها عن الجلد .

وفي « المستدرك » عن وهب : أن شامات الأنبياء في أيمانهم ، فعليه وضعه عند الكتف الأيسر من خصوصيات نبينا صلى الله عليه وسلم[1] .

فائدة : أخرج البيهقي والخطيب وابن عساكر وغيرهم عن العباس رضي الله عنه : قلت : يا رسول الله ؛ دعاني إلى الدخول في دينك أمارة لنبوتك ، رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بإصبعك ، فحيث أشرت إليه مال ، قال : « إِنِّي كُنْتُ أُحَدِّثُهُ وَيُحَدِّثُنِي ، وَيُلْهِينِي عَنِ ٱلْبُكَاءِ ، وَأَسْمَعُ وَجْبَتَهُ ـ أي : سقطته ـ حِينَ يَسْجُدُ تَحْتَ ٱلْعَرْشِ »[2] قال البيهقي : (تفرد به مجهول) ، وقال الصابوني : (هـٰذا حديث غريب الإسناد والمتن ، في المعجزات حسن ؛ أي : وبفرض صحة الأول هو من حيز الضعيف، وهو يعمل به في المناقب ، قال بعض حفاظ المتأخرين : اتفاقاً كالفضائل) اهـ

وقس على ذلك كل حديث ورد في المناقب ولم يعارضه غيره مما هو مقدم عليه ، فاستحضر ذلك عند رؤيتك لكل حديث ضعيف وجدته في المناقب ، فإن هـٰذه القاعدة مما يعظم نفعها ويجهلها أكثر المحصلين .

ولما فرغ من ذكر رضاعه وما وقع عقبه من شق صدره.. ذكر حكم نشأته في حال طفوليته وما بعدها ، مبيناً أن إلفه الآتي نتيجة ما أودعه الله في قلبه بعد شقه من الأسرار والكمالات فقال :

44

أَلِـفَ ٱلنُّسْـكَ وَٱلْعِبَـادَةَ وَٱلْخَلْـ ـوَةَ طِفْـلاً وَهَٰكَـذَا ٱلنُّجَبَـاءُ

(**ألف النسك والعبادة**) عطف تفسير ؛ أي : اعتادهما واستمر عليهما (**والخلوة**) عن الناس في حال كونه (**طفلا**) فما بعده كما فهم بالأَوْلى .

---

(١) المستدرك (٢/ ٥٧٧) .

(٢) تاريخ دمشق (٤/ ٣٥٩) .

واختلفوا هل كان يتعبد بشرع من قبله ؟ والجمهور لا ، وإلا . . لنقل ، ولأنه لو تعبد بشرع أحد . . لظن أنه من أتباعه ، ولاحتج أهله به عليه ولم يوجد ، وعلى الأول فقيل : بشرع لم يعرف ، وقيل : بشرع نوح ، وقيل : إبراهيم ، وقيل : موسى ، وقيل : عيسى .

ومعنى : ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي : في التوحيد ، وخُص ؛ لأنه الأب الأقرب المبشر به الداعي ببعثته ، مع مدحه له بأنه صاحب الكتاب والحكمة البالغين من كمال التزكية ما لم يبلغه كتاب غيره ، على أن المراد : في كيفية الدعوى من الرفق والحلم الذي لم يوجد كماله إلا لإبراهيم ، وغايته إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد أمر باتباع الكل في : ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ مع اختلاف شرائعهم ، ومع أن فيهم من ليس برسول كيوسف على قول ، فتعين أن المراد : أصول التوحيد والأخلاق .

فإن قلت : لا يحتاج للجواب عن ذلك ؛ لأن الكلام فيما قبل النبوة ، والذي في الآية بعدها .

قلت : بل يحتاج إليه كما صنعوه ؛ لأن القائلين بأنه كان متعبداً بشرع غيره يستدلون به ناظرين إلى أنه أمر باتباعه فيما لم ينزل عليه فيه شيء ، فأمره بذلك بعد النبوة يدل على أنه كان يألفه ويعمل به قبلها ، وإلا . . فكيف يؤمر باتباع ما لم يعرفه ؟!

قال السراج البلقيني : (ولم يجيء في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده عليه الصلاة والسلام ، لكن روى ابن إسحاق وغيره : أنه كان يخرج إلى حراء شهراً في كل عام يتنسك فيه ، وكان من نسك قريش في الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين ، حتى إذا انصرف من مجاورته . . لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة) اهـ

والظاهر ـ كما قاله غير واحد ـ : أن عبادته كانت الذكر والفكر مع إكثاره للخلوة والانعزال عن الناس بحراء وغيره .

(وهكذا النجباء) أي : ومثل هذا الشأن العلي شأن الكرام ، فما بالك بأكملهم وسيدهم على الإطلاق ؟! ويليه في ذلك أبوه إبراهيم صلى الله عليهما وسلم ، فإنه اعتزل قومه وانقطع إلى الله تعالى ينتظر الفرج من مولاه ، فإن انتظاره عبادة كما في الحديث[1] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٢٤) ، والطبراني في « الكبير » =

وفي البيت من أنواع البديع ثاني أقسام التناسب ، وهو : تشابه الأطراف بأن تتناسب معانيها ؛ إذ النجابة آخره يناسبها إلف ما ذكر ؛ لأنها السبب في ذلك ، وثالث أقسامه أيضاً ، وهو : مناسبة اللفظ للمعنى في الرقة والسهولة ، أو الشدة والصعوبة ، ومنه حديث : « أَلاَ أُخبِرُكُمْ بِأَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى ٱللهِ . . لأَبَرَّهُ ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ ٱلنَّارِ ؟ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ »[١] فأتى مرة من أوصاف أهل الجنة بما يناسب حالهم من الرقة والانكسار ، ومرة من أوصاف أهل النار بما يناسب حالهم من الشدة والغلظة والإباء والترفع عن قبول الحق ، وألفاظ البيت تناسب معناه في السهولة وحسن السبك والانقطاع عن النظير .

وقوله : (وهكذا النجباء) تذييل ، وهو : تعقيب الجملة بأخرى تشتمل عليها للتأكيد ، وهو ضربان : أحدهما ـ وهو ما هنا ـ : ما خرج مخرج المثل ، نحو : ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ كما مر .

45

وَإِذَا حَلَّـــتِ ٱلْهِـــدَايَـــةُ قَلْبـــاً نَشِطَـــتْ لِلْعِبَـــادَةِ ٱلْأَعْضَـــاءُ

(و) إنما كان هـٰذا شأن النجباء من الأنبياء ثم صالحي أممهم ؛ لما هو المستقر المعلوم أنه (**إذا حلت الهداية**) وهي هنا بمعنى : الوصول إلى الحق لا الدلالة عليه فقط ، ومن الأول : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي : لا توصله ، ومن الثاني : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ أي : دللناهم ولم نوصلهم ، بدليل : ﴿ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ إذ لو وصلوا . . لم يستحبوا ذلك (**قلباً نشطت للعبادة**[٢] **الأعضاء**) لأن القلب هو رئيس البدن المعول عليه في صلاحه وفساده ، ومن ثم صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ فِي ٱلْجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ . . صَلَحَ ٱلْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ . . فَسَدَ

=

(١٠/ ١٠١) ، وغيرهم .

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٨) ، ومسلم (٢٨٥٣) ، والترمذي (٢٦٠٥) ، وأحمد (٣/ ١٤٥) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٣٥) ، **والجوَّاظ** : الجموع المنوع ، أو كثير اللحم المختال في مشيته ، **والجَعْظَري** : الفظ الغليظ المتكبر .

(٢) في (د) : (في العبادة) .

ٱلْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ ٱلْقَلْبُ »[1] وهـٰذا من الكلام الجامع الذي مرت نظائره .

واعلم : أن بين انتهاء رضاعه صلى الله عليه وسلم وما وقع له بعده وبين مبعثه وقائع وقعت له ، لا بأس بالإشارة إليها باختصار ، وذلك أن حليمة لما ردته إلى أمه وجده.. كان في كلاءة الله وحفظه ، ينبته نباتاً حسناً ، ويوفقه لأفضل الأعمال والأحوال ، كما أشار إلى ذلك الناظم بقوله : (ألف النسك . . .) إلخ .

ولما بلغ صلى الله عليه وسلم أربع سنين ، وقيل : اثنتي عشرة سنة وشيئاً ، وبين ذلك أقوال أُخَر.. ماتت أمه ، وكانت قد قدمت به طيبة تزور أخوال أبيه ، فأقامت به عندهم شهراً ومعها مملوكته أم أيمن .

وأخرج ابن سعد : أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى دار النابغة.. قال : « هَـٰهُنَا نَزَلَتْ بِي أُمِّي وَأَحْسَنْتُ ٱلْعَوْمَ فِي بِئْرِ بَنِي ٱلنَّجَّارِ ، وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ ٱلْيَهُودِ يَخْتَلِفُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ » قالت أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبي هـٰذه الأمة ، وهـٰذه دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامهم ، ولما رجعت أمه به.. ماتت بالأبواء[2] ، وفي رواية : أنها دفنت بالحجون ، وفي أخرى : في بعض دور مكة كما في « القاموس » ، وحضنته بعدها أمته أم أيمن بركة ، ثم مات جده كافله وله ثمان سنين[3] ، وقيل : أكثر ، وقيل : أقل ، فقيل : ست ، وقيل : ثلاث ، فكفله عمه أبو طالب شقيق والده .

وأخرج ابن عساكر عن عرفطة قال : قدمت مكة وهم في سنة قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب ؛ أقحط الوادي وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجىً تجلت عنه سحابة قتماء وحوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ الغلام بإصبعه وما في السماء قزعة ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا ، وأغدق الوادي واغدودق ، وانفجر له الوادي ، وأخصب النادي والبادي ، وفي ذلك يقول أبو طالب : [من الطويل]

وَأَبْيَـضَ يُسْتَسْقَـى ٱلْغَمَـامُ بِـوَجْهِـهِ ثِمَـالُ ٱلْيَتَـامَـى عِصْمَـةٌ لِـلأَرَامِـلِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) ، وابن ماجه (٣٩٨٤) ، والدارمي (٢٥٧٣) .
(٢) الطبقات الكبرىٰ (١/ ١١٦) .
(٣) انظر « الطبقات » (١/ ١١٧) وما بعدها .

وهـٰذا البيت من جملة قصيدة له فيها مدح عجيب له صلى الله عليه وسلم ، حتى أخذ الشيعة منها القول بإسلامه ، ويوافقه رواية ضعيفة عن العباس : أنه أسر إليه الإسلام عند موته ، ويؤيد ذلك أيضاً ما في رواية البيهقي الآتية : « للهِ دَرُّ أَبِي طَالِبٍ . . . !! » إلخ ، لـٰكن صرائح الأحاديث المتفق على صحتها ترد ذلك .

وهي أكثر من ثمانين بيتاً استوفاها ابن إسحاق ، لـٰكنه ذكر أن إنشاءه لها كان بعد المبعث ، وقد يجمع بأنه ذكر هـٰذا البيت إثر هـٰذه الواقعة ثم كملها بعد المبعث[1] .

والثمال ـ بكسر المثلثة ـ : الملجأ ، والعصمة : الحافظ من الضياع ، والأرامل : المساكين رجال أو نساء ، لـٰكنه في النساء أكثر استعمالاً .

ثم رأيت في « شرح المنهاج » للكمال الدميري في (باب الاستسقاء) : (عن الطبراني وابن سعد : أن عبد المطلب استسقى بالنبي صلى الله عليه وسلم فسُقوا ، ولذلك يقول فيه عبد المطلب يمدحه صلى الله عليه وسلم : « وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى ٱلْغَمَامُ بِوَجْهِهِ . . . » البيت) اهـ[2]

وفيه مخالفة لما مر أن المستسقي به أبو طالب وأنه القائل للبيت ، فأما الأول . . فيمكن حمله بالجمع بين الروايات المتخالفة فيه بتكرير الواقعة ؛ إذ واقعة أبي طالب كان الاستسقاء به فيها عند الكعبة ، وواقعة عبد المطلب كان أولها : أنهم أمروا باستلام الركن ثم برقي أبي قبيس ؛ ليدعو عبد المطلب ومعه النبي صلى الله عليه وسلم ويؤمن القوم ، ففعل فسقوا ، لـٰكن قال الحافظ نور الدين الهيثمي ـ شيخ الحافظ ابن حجر وتلميذ الزين العراقي ـ عن رواية الطبراني : (في سندها رجال لا أعرفهم)[3] لـٰكن لا يؤثر ذلك فيها ؛ لأن الحديث الضعيف يعمل به في الفضائل اتفاقاً ، قال بعض الحفاظ : وكذا المناقب كما مر آنفاً ، على أن صاحب « الروض » ذكر روايتين عن ابن

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٢٧٢) ، فقد ذكر أربعةً وتسعين بيتاً منها ، ثم قال : (هـٰذا ما صح لي من هـٰذه القصيدة ، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها) .
(٢) النجم الوهاج (٢/ ٥٨٧) ، وانظر الخبر في « المعجم الكبير » (٢٤/ ٢٥٩) ، و« طبقات ابن سعد » (١/ ٨٩) .
(٣) مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٢) .

الأعرابي وغيره توافقانها ، وحينئذ تعين الجمع بما ذكرته[1] .

وأما الثاني . . فكون أبي طالب هو الذي أنشأ ذلك البيت . . هو ما درج عليه أئمة السير وغيرهم ، ومن ثم جعله السهيلي في « روضه » أمراً مقرراً ، ثم بنى عليه إشكاله وجوابه الآتي ردهما[2] .

وأما قول الدميري : (إنه من إنشاء عبد المطلب) . . فهو وهم منه ، وسبب الوهم : أن في آخر قصة عبد المطلب : أن رُقَيْقة[3] بنت أبي صيفي بن هاشم ، وهي التي سمعت الهاتف في النوم أو اليقظة لما تتابعت على قريش سنون أهلكتهم يصرخ يا معشر قريش ؛ إن هـٰذا النبي المبعوث قد أظلتكم أيامه وهـٰذا إبان نجومه ، فحيهلا بالحيا والخصب ، ثم أمرهم بأن يستسقوا به ، وذكر كيفية يطول ذكرها ، حاصلها ما مر ، فلما ذكرت الراوية المذكورة القصة . . أنشأت تمدح النبي صلى الله عليه وسلم بأبيات آخرها : [من البسيط]

مُبَارَكُ ٱلأَمْرِ يُسْتَسْقَى ٱلْغَمَامُ بِهِ ... مَا فِي ٱلأَنَامِ لَهُ عِدْلٌ وَلاَ خَطَرُ

فكأن الدميري لما رأى هـٰذا البيت في رواية قصة عبد المطلب التي رواها الطبراني وهو يشبه بيت أبي طالب ؛ إذ في كلٍّ استسقاء الغمام به الذي هو المقصود . . توهم أن بيت أبي طالب لعبد المطلب ، فوهم من وجهين : نسبة هـٰذا البيت لعبد المطلب وإنما هو لرُقَيْقة ، والحكم عليه بأنه عين البيت المنسوب إلى أبي طالب وليس كذلك ، بل شتان ما بينهما . فتأمل هـٰذا المحل فإنه مهم .

وقد اغتر بكلام الدميري هـٰذا من لا خبرة له بالسير المأخوذة من الكتب المعتمدة ، ثم رأيت ما يقطع بغلط الدميري ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم نسب : (وأبيض . . .) البيت لأبي طالب ، كما أخرجه البيهقي عن أنس قال : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ؛ أتيناك وما لنا صبي يغط ،

---

(١) الروض الأنف (٣/ ٣٩) .
(٢) الروض الأنف (٣/ ٣٩) .
(٣) في النسخ : (رفيعة) ، والمثبت من « طبقات ابن سعد » (١/ ٩٠) ، و« دلائل البيهقي » (٢/ ١٥) ، و« المعجم الكبير » للطبراني (٢٤/ ٢٥٩) ، و« الإصابة » (٤/ ٢٩٦) .

ولا بعير يئط[1] ؛ أي : ما لنا بعير أصلاً ؛ لأنه إذا وجد. . لا بد أن يئط ، وأنشد أبياتاً ، فقام صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى صعد المنبر ، فرفع يديه إلى السماء ودعا ، فما رد يده إلى نحره حتى انبعثت السماء بأبراقها وعادوا يضجون ، فضحك صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « للهِ دَرُّ أَبِي طَالِبٍ! لَوْ كَانَ حَيّاً. . لَقَرَّتْ عَيْنَاهُ ، مَنْ يُنْشِدُنَا قَوْلَهُ ؟ » فقال علي : يا رسول الله ؛ كأنك تريد قوله :

وَأَبْيَـضَ يُسْتَسْقَـى ٱلْغَمَـامُ بِـوَجْهِـهِ ثِمَـالُ ٱلْيَتَـامَـى عِصْمَـةٌ لِـلأَرَامِـلِ

مع أبيات أخر ، فقال صلى الله عليه وسلم « أَجَلْ »[2] .

فهـٰذا نص صريح من الصادق بأن منشىء البيت أبو طالب ، فنسبته لعبد المطلب غلط صريح .

تنبيه : براوية ابن عساكر هـٰذه يسقط قول السهيلي في « روضه » : (فإن قيل : كيف قال أبو طالب : « وأبيض يستسقى الغمام بوجهه. . . » .

البيت ولم يره قط استسقى ، إنما كان استسقاؤه صلى الله عليه وسلم بالمدينة في سفر وحضر ، وفيها شوهد ما كان من سرعة إجابة الله له ؟. . فالجواب : أن أبا طالب قد شاهد من ذلك أيضاً في حياة عبد المطلب ما دله على ما قال) اهـ[3] .

ووجه سقوطه : ما تقرر أن أبا طالب استسقى به صلى الله عليه وسلم فسقي ، فأنشأ ذلك البيت حينئذ وأنشده .

والعجب من شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر أنه غفل أيضاً عن رواية ابن عساكر هـٰذه ، فأجاب عن إشكال السهيلي بقوله : (ويحتمل أن يكون أبو طالب مدحه بذلك لما رأى من مخايل ذلك فيه وإن لم يشاهد ذلك) اهـ[4] إذ لو استحضر رواية ابن عساكر هـٰذه. . لم يُبدِ هـٰذا الاحتمال .

ولما بلغ صلى الله عليه وسلم ثنتي عشرة سنة. . خرج به أبو طالب إلى الشام حتى

---

(١) أطيط الإبل : صوتها وأنينها من التعب .
(٢) دلائل النبوة (٦/ ١٤١) .
(٣) الروض الأنف (٣/ ٣٩) .
(٤) فتح الباري (٢/ ٤٩٦) .

بلغ بصرى ، فرآه بحيرى الراهب فعرفه بصفته ، فقال : هـٰذا سيد العالمين ، إنكم حين أشرفتم به من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجداً ولا يسجد إلا لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة عند غضروف كتفه كالتفاحة ، ثم سأل عمه أن يرده خوفاً عليه من اليهود ، رواه ابن أبي شيبة[1] ، وفيه : أنه صلى الله عليه وسلم أقبل وعليه غمامة تظله .

وبحيرى ـ بفتح فكسر ـ مقصور ، ذكره جمع من الصحابة ، بناء على أن الشرط رؤيته والإيمان به ولو قبل المبعث ، وصح : أن سبعة من الروم أقبلوا يريدون قتله صلى الله عليه وسلم فمنعهم بحيرى ، ورده أبو طالب ، وبعث معه أبو بكر بلالاً[2] .

وقوله : (وبعث معه . . .) إلخ وهم من أحد رواته ؛ لأن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلاً لذاك ولا اشترى بلالاً .

وفي حديث عند البيهقي وأبي نعيم : أنهم لما أقبلوا . . رأى بحيرى غمامة بيضاء تظله من بينهم ، ثم نزل تحت شجرة فانحنت عليه أغصانها حتى أظلته[3] .

وروى أبو نعيم وابن عساكر : أن أخته الشيماء بنت حليمة رأته في الظهيرة وغمامة تظله ، إذا وقف . . وقفت ، وإذا سار . . سارت ، ولما بلغ ثمان عشرة سنة . . سافر إلى الشام مرة أخرى لتجارة على ما ورد ، لـٰكن بسند ضعيف[4] ، وفيه : أن أبا بكر كان معه ، وأن بحيرى قال : هـٰذا والله نبي ، وأن ذلك سبب إيمان أبي بكر به لما بعث قبل غيره .

ثم خرج وله خمس وعشرون سنة مرة ثالثة في تجارة لخديجة ومعه غلامها ميسرة ، فرأى في الهاجرة ملكين يظلانه من الشمس ، وكذا رأت خديجة ذلك لما أقبلوا وهي في عِلِّية لها ، وفي هـٰذه السنة تزوجها ، وكانت تسمى بالطاهرة ، وكان سنها أربعين سنة ، ولما بلغ خمساً وثلاثين سنة . . خافت قريش أن تهدم السيول الكعبة لتشعثها ،

---

(١) المصنف (٨/ ٤٣٥) .
(٢) أخرجه الطبري في « تاريخه » (٢/ ٢٧٨) ، والبغدادي في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٢٥٢) ، وذكره ابن الأثير في « الكامل » (١/ ٦٣٩) ، وابن كثير في « البداية والنهاية » (٢/ ٦٨٩) .
(٣) دلائل البيهقي (٢/ ٢٦) ، ودلائل أبي نعيم (١/ ٢١١) .
(٤) تاريخ دمشق (٤/ ٣٦٠) .

فأمروا ياقوم النجار القبطي مولى أحدهم أن يبنيها ، وحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ينقل معهم الحجارة ، ثم لما تقارب بعثه صلى الله عليه وسلم . . تحدث بذلك أحبار اليهود ورهبان النصارى ؛ لما في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وكهان العرب ؛ لأن شياطين الجن كانت لا تحجب عن خبر السماء ، فتسترق السمع وتخبر الكهنة به فيعلمون بعض خبر السماء ، لكن كانت العرب لا تلقي لذلك بالاً ، فلما دنا مبعثه . . حجبت الشياطين عن السمع كما قال :

46

بَعَـــثَ ٱللهُ عِنْـــدَ مَبْعَثِـــهِ ٱلشُّهْـــبَ حِرَاساً وَضَاقَ عَنْهَا ٱلْفَضَاءُ

(بعث) أي : أرسل (الله) علم على الذات الواجب الوجود ، المستحق لجميع المحامد من الخلق لذاته (عند) ـ بتثليث العين ـ أي : قرب (مبعثه) أي : زمن بعثه صلى الله عليه وسلم ؛ أي : إرساله إلى الخلق كلهم كما قال في خبر مسلم : « وَأُرْسِلْتُ إِلَى ٱلْخَلْقِ كَافَّةً » وبين (بعث) و(مبعثه) جناس الاشتقاق (الشهب) على الشياطين الذين يسترقون السمع ، فيخطف أحدهم الكلمة ثم يضم إليها مئة كذبة ، كما في الحديث ، ثم يلقيها للكاهن[1] ، وهي : جمع شهاب ، وهو : شعلة نار تحرق الشيطان المسترق للسمع أو تَخبِله (حراساً) إما جمع حارس على غير قياس ، كقائم وقيام ، فهو حال ، أو مصدر ؛ أي : لأجل الحراسة لشريعته التي سيأتي بها من الشياطين أن يخلطوا بها ما ليس منها ، وهو للمبالغة والتأكيد ؛ لأنه معلوم من قوله : (تطرد . . .) إلخ ، ففيه التتميم كـ : ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ من : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ .

(و) لكثرة تلك الشهب وعمومها للمسترقين في نواحي السماء (ضاق عنها الفضاء) أي : المفازات الواسعة ، فلم يبق محل يجدونه حتى يسترقوا السمع منه ، وبين (ضاق) و(الفضاء) الطباق .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٠) ، ومسلم (٢٢٢٨) ، وابن حبان (٦١٣٦) ، وابن ماجه (١٩٤) ، وأحمد (٦/ ٨٧) .

تَطْـرُدُ ٱلْجِـنَّ عَـنْ مَقَـاعِـدَ لِلسَّمْـ ـعِ كَمَـا تَطْـرُدُ ٱلـذِّئَـابَ ٱلرُّعَـاءُ

(تطرد) حال من (الشهب) أو صفة له كما في :

وَلَقَـــدْ أَمُـــرُّ عَلَـــى ٱللَّئِيـــمِ يَسُبُّنِـــي

لكن ظاهر المقام يرجح الحالية ؛ إذ رعاية التنكير هنا بعيدة (الجن) ومر أنهم أجسام نارية تقدر على التشكل في الصور المختلفة (عن مقاعد) أي : أمكنة قريبة من السماء يقعدون فيها (للسمع) أي : ليسمعوا شيئاً من الملائكة المتكلمين بما سيقع في الأرض من الأقضية والمغيبات ، إما بكون رئيسهم يلقيه عليهم ليكتبوه فيتلقونه منه ، أو أن بعضهم ينسخه من كتب البعض الآخر ، زيادة في الاعتناء والظهور للملائكة .

وأصل هٰذا : قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ فلما سمع الجن ذلك . . عرفوا الحق فآمنوا ، ثم ولوا إلى قومهم منذرين قائلين ما حكاه الله تعالى عنهم أواخر (سورة الأحقاف) .

ويوافق هٰذا ما رواه أهل السير : أنه لما حيل بينهم وبين خبر السماء . . قالوا : إن ذلك لأمر حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما حال بينكم وبين خبر السماء ، فخرجت طائفة منهم من جن نصيبين باليمن قبل تهامة ، فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم بنخلة ـ قرية على ليلة من مكة ـ مع أصحابه يصلي الصبح وهو يقرأ ، فاستمعوا له ثم قالوا : هٰذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فأسلموا وولوا إلى قومهم منذرين ، وفي ذلك نزل : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ . . . ﴾ الآيات ، ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ . . . ﴾ الآية[1] .

قال الحافظ ابن كثير : (ذكر ابن إسحاق : أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الإسلام ، وأنه انصرف عنهم فبات بنخلة يقرأ تلك الليلة ، فاستمع جن نصيبين ؛ أي : مدينة بالشام . اهـ وما ذكره صحيح إلا قوله : إن استماع

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٤٢٢) ، و« الكامل » (٢/٦٨٦) ، و« تاريخ الإسلام » (٢/١٩٧) ، و« البداية والنهاية » (٣/٢٢) .

الجن كان تلك الليلة ففيه نظر ، فإن استماعهم إنما كان في ابتداء الوحي ، كما يدل له حديث ابن عباس عند أحمد : « كان الجن يستمعون الوحي ، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً ، فيكون ما يسمعون حقاً وما زادوه باطلاً ، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم . . كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب منه ، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال : ما هـٰذا إلا لأمر إِمْر ؛ أي : عظيم قد حدث ، فبث جنوده ، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يصلي بين جبلي نخلة ، فأخبروه فقال : هـٰذا الحدث الذي حدث في الأرض »[(١)] ورواه النسائي وصححه الترمذي[(٢)] .

قال ـ أعني ابن كثير ـ : وأما خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف . . فإنما كان بعد موت عمه أبي طالب ، وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود : أنهم هبطوا عليه صلى الله عليه وسلم وهو ببطن نخلة يقرأ القرآن ، فلما سمعوه . . قالوا : أنصتوا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ . . . ﴾ الآية ، فهـٰذا مع رواية ابن عباس يقتضي أنه صلى الله عليه وسلم لم يشعر بحضورهم في هـٰذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم منذرين ، ثم بعد ذلك وفدوا عليه أرسالاً قوماً بعد قوم) اهـ[(٣)]

وصح : (أن الذي آذنه صلى الله عليه وسلم بهم لما وفدوا إليه شجرة) وأنهم سألوه الزاد فقال لهم : « كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ . أَوْفَرُ مَا يَكُونُ لَحْماً ، وَكُلُّ بَعْرٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ »[(٤)] وفيه رد على من زعم أن الجن لا تأكل ولا تشرب .

والحاصل : أن ذهابه إلى الطائف إنما كان بعد موت عمه أبي طالب سنة عشر من البعثة ، ثم موت خديجة بعده بثلاثة أيام أو خمسة ، ثم تزوج سودة بعد أيام ، فكان

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٧٤) .
(٢) السنن الكبرى (١١٥٦٢) ، والترمذي (٣٣٢٤) .
(٣) انظر « تفسير ابن كثير » (٤/ ١٦٣) .
(٤) أخرجه مسلم (٤٥٠) ، وابن حبان (١٤٣٢) ، وأحمد (١/ ٤٣٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١/ ١١) ، وغيرهم .

خروجه إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر في شوال لما ناله من قريش ، وكان معه مولاه زيد بن حارثة ، فأقام به شهراً يدعو أشراف ثقيف فلم يجيبوه ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ، قال موسى بن عقبة : ورموا عقبه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدم ، زاد غيره : وكان إذا أذلقته الحجارة ـ أي : بالمعجمة ثم القاف : أضعفته ـ . . قعد إلى الأرض ، فيأخذونه بعضديه فيقيمونه ، فإذا مشى . . رجموه وهم يضحكون ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى لقد شج في رأسه شجاجاً .

وفي « الصحيحين » : أنه لقي منهم أشد مما لقيه يوم أحد ، وأن جبريل نزل عليه حينئذ ومعه ملك الجبال ليأمره في قومه بما شاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ ٱللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ ٱللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً »[1] .

وجاء عن ابن عباس : أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السماوات ، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها فيلقونه على الكهنة ، فلما ولد عيسى . . منعوا من ثلاث سماوات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم . . منعوا من السماوات كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب ـ وهو : الشعلة من النار ـ فلا يُخطَأُ أبداً ، فمنهم من يقتله ، ومنهم من يحرق وجهه ، ومنهم من يَخبِله فيصير غولاً يضل الناس في البراري .

قال الأئمة : وهـٰذا لم يكن ظاهراً قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكره أحد قبل زمانه ، وإنما ظهر في بدء أمره ؛ تأسيساً لنبوته .

نعم ؛ جاء عن معمر : أنه قال للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم ، قلت : أفرأيت قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ . . . ﴾ ؟ الآية ، قال : غلظت وشدد أمرها حين بعث صلى الله عليه وسلم ، وجرى على هـٰذا ابن قتيبة فقال : كان الرجم قبل مبعثه ، ولـٰكن لم يكن في شدة الحراسة مثله بعد مبعثه ، ويؤيده رواية ابن عباس الأخيرة إن صحت .

وعلم من قول ابن عباس : (شعلة نار) : أن الكوكب لا ينتقل عن محله ، وإنما الذي ينفصل عنه تلك ، وقيل : ينقض ثم يرجع إلى مكانه .

---

(١) البخاري (٣٢٣١) ، ومسلم (١٧٩٥) .

وطرد تلك الشهب لأولئك الشياطين طرد بالغ جدّاً (كما) موصولة أو مصدرية (تطرد الذئاب) جمع ذئب بالهمزة وقد تخفف ، وتشبيهه شياطين الجن بالذئاب صرح به الحديث الصحيح[1] (الرعاء) ـ بضم أوله وكسره ـ للغنم عنها إذا أرادت العدو عليها .

(48)

فَمَحَتْ آيَةَ ٱلْكَهَانَةِ آيَاتٌ مِنَ ٱلْوَحْيِ مَا لَهُنَّ ٱنْمِحَاءُ

(فـ) بسبب ذلك الطرد البالغ للجن عن خبر السماء (محت آية الكهانة) مفعول مقدم ، وهي ـ بالفتح ـ : مصدر كهن ـ بضم الهاء ـ إذا صار كاهناً ؛ أي : مخبراً بالأمور الخفية والمغيبات البعيدة ؛ أي : علامتها ، وهي : ما كانت تأتي به الكهان وتذكره من المغيبات التي تلقيها إليهم الشياطين بواسطة استراقهم لبعض كلام الملائكة ثم إلقائه إليهم مع ما يضمونه إليه من الكذب كما مر .

(آيات من) جملة (الوحي) وهو : الكتابة والإشارة والرسالة والإلهام والكلام الخفي ، ولذلك كان الوحي الآتي إليه صلى الله عليه وسلم على أقسام :

ـ الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[2] .

ـ ما يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ؛ للحديث ٱلصحيح : « إِنَّ رُوحَ ٱلْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا ، فَٱتَّقُوا ٱللهَ وَأَجْمِلُوا فِي ٱلطَّلَبِ »[3] .

ـ تمثل الملك له رجلاً فيخاطبه ، وصح : أنه كان يأتيه في صورة دحية الكلبي[4] ؛ أي : لأنه كان جميلاً جدّاً ، إذا قدم لتجارة . . خرجت الظعن لتراه ، وتشكل جبريل

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣) ، والشاشي في « المسند » (١٣٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٤٧) .

(٢) كما في حديث البخاري (٤) ، ومسلم (١٦٠) ، والترمذي (٣٦٣٢) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه الشافعي في « مسنده » (٨٩٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٨٥) ، والبزار (٢٩١٥) .

(٤) أخرج ذلك الإمام أحمد (٢/ ١٠٧) .

مع عظم صورته وأن له ست مئة جناح تسد الأفق في صورة رجل.. غير بعيد ؛ لأن الأجسام النورانية تقبل الانضمام حتى تصغر الصورة جدّاً ، كما أن القطن يقبل الانكباس فتصير الصورة الكبيرة منه صغيرة ، وهٰذا أولى من قول بعضهم : إن صورته الأصلية باقية على حالها ، وصورة الرجل صورة أخرى له ، وروحه متعلقة بهما ؛ أي : كما في الأبدال الذين تتعدد صورهم في الوجود وروحهم واحدة ، والتكليف حينئذ مناط بأي صورة أرادها الإنسان .

ـ يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليه[1] ، ولذا كانت ناقته صلى الله عليه وسلم تبرك به ، وكان رأسه على فخذ زيد بن ثابت فكادت تُرض من شدة الثقل ، حتى إنه يقول : (لا أمشي بعد اليوم على رجلي أبداً)[2] .

ـ يأتيه على صورته الأصلية ، ووقع له ذلك مرتين كما في (سورة النجم)[3] .

ـ كلام الله تعالىٰ له بلا واسطة كموسى ، واختص بالكليم ؛ لأن ذلك وقع له وهو بالأرض ، ونبينا صلى الله عليه وسلم إنما وقع له ذلك وهو كقاب قوسين أو أدنى .

وصح عن الشعبي : أنه صلى الله عليه وسلم وكل به إسرافيل ، فكان يتراءى له ثلاث سنين ، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء ، ثم وكل به جبرائيل فجاءه بالقرآن[4] .

ثم وصف آيات الوحي بأنهن (ما لهن انمحاء) من : محا يمحو ويمحي ويمحى ، كذا ذكره بعضهم ، وعبارة « القاموس » : (محاه يمحوه ويَمحاه : أذهب أثره ، وامَّحىٰ كادعى ، والمحو : السواد في القمر) اهـ ملخصة .

والمعنى ههنا : أي : ما لهن ذهاب ولا تغير ، كيف وقد تكفل الله تعالىٰ لهٰذه الشريعة الغراء بأنها باقية على ممر الدهر إلى أن ينزل عيسى عليه السلام فيحكم بها ، ثم تضمحل عند قيام الساعة بموت الطائفة الذين أخبر الصادق بأنهم لا يزالون قائمين

---

(١) أخرج ذلك البخاري (٢) ، ومسلم (٢٣٣٣) ، وابن حبان (٣٨) ، والترمذي (٣٦٣٤) ، والنسائي (٢/١٤٦) ، وغيرهم .
(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٥/١٤٢) ، وفي « الأوسط » (١٩٣٤) .
(٣) أخرجه البخاري (٤٨٥٥) ، ومسلم (١٧٧) ، والترمذي (٣٢٧٨) ، وأحمد (١/٤٠٧) .
(٤) أخرجه أبو عمر بن عبد البر في « الإستيعاب » (١/١٥) .

بالحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله ؟! أي : ريح لطيفة لينة تقبض أرواحهم ، فحينئذ لا يبقى على وجه الأرض من يقول : الله الله ، فتقوم الساعة .

وبين (محت) و(انمحاء) جناس الاشتقاق .

ثم ذكر قصة زواجه صلى الله عليه وسلم بخديجة رضي الله عنها ، ولو قدمها كما فعلت لتوافق الواقع ؛ لأنها قبل قوله : (بعث الله . . .) إلخ . . لكان أولى ، فقال :

(49)

وَرَأَتْـهُ خَـدِيجَـةٌ وَٱلتُّقَـىٰ وَٱلـزُّ هْـــدُ فِيـــهِ سَجِيَّـــةٌ وَٱلْحَيَـــاءُ

(ورأته) أي : علمته وأبصرته ؛ لما سبق لها من الفضل الذي فاقت به سائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن (خديجة) بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، وكانت ذات شرف ظاهر ، ومال وافر ، وحسب فاخر (و) هي للحال (التقىٰ) هو : البراءة من كل شيء سوى الله ، وهٰذا غايته ، ومبدؤه : اتقاء الشرك ، وأوسطه : اتقاء المحارم ، وكذا يقال في التقوىٰ ، وصح خبر : « إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِٱللهِ أَنَا »[1] ، وخبر : « إِنِّي لأَعْلَمُكُمْ بِٱللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً »[2] .

(والزهد) هو : أخذ أقل الكفاية مما يتيقن حله ، وترك الزائد على ذلك لله ، وقد صح خبر : (ما شبع آل محمد من طعام ثلاثة أيام تباعاً حتى قبض)[3] ، وخبر : (كان صلى الله عليه وسلم يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجدون عشاء ، وإنما كان خبزهم الشعير)[4] ، وخبر النعمان بن بشير : (لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠١) ، ومسلم (٢٣٥٦) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٩٩٢) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٧٤) ، ومسلم (٢٩٧٠) ، وابن حبان (٦٣٤٥) ، وابن ماجه (٣٣٤٤) .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٦٠) ، وابن ماجه (٣٣٤٧) ، وأحمد (١/ ٢٥٥) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٥٩) .

وسلم يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدَّقَل ما يملأ بطنه)[١] ، وخبر : (أنه صلى الله عليه وسلم كان يمضي الشهران ولا توقد في أبياته صلى الله عليه وسلم نار ، وإنما طعامهم التمر والماء)[٢] ، وخبر : (أنه مات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير أخذها قوتاً لأهله)[٣] .

(**فيه**) كل منهما (**سجية**) ـ بالسين المهملة ـ أي : خلق غريزي طبيعي ، والاختلاف في كون حسن الخلق غريزة أو مكتسباً . . يتعين أن يكون محله في غيره صلى الله عليه وسلم ، وتمسك من قال : إنه غريزة بالحديث الصحيح : « إِنَّ ٱللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاَقَكُمْ كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ »[٤] .

والتحقيق : أن أصول الأخلاق غرائز وملكات في نوع الإنسان ، وإنما التفاوت في ثمراتها ، وهٰذا هو الذي به التكليف ؛ لأن الغريزي لا تكليف به ؛ لأنه ليس في الطاقة .

نعم ؛ من فيه غريزة منه أعانته على المكتسب حتى يكاد يكون غريزيّاً ، فيؤمر بالمجاهدة في الضعيف حتى يقوى ، وفي غير المحمود حتى يصير محموداً .

وقد صح : أنه صلى الله عليه وسلم قال للأشج : « إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا ٱللهُ ؛ ٱلْحِلْمُ وَٱلأَنَاةُ » قال : يا رسول الله ؛ قديماً كانا في أو حديثاً ؟ قال : « قَدِيماً » قال : الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله[٥] ، فترديد السؤال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٧٧) ، وابن حبان (٦٣٤٠) ، والترمذي (٢٣٧٢) ، وابن ماجه (٤١٤٦) ، وأحمد (١/ ٢٤) . **والدَّقَل** : هو أردأ ما يكون من التمر .

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٦٧) ، ومسلم (٢٩٧٢) ، وابن ماجه (٤١٤٤) ، وأحمد (٦/ ١٨٢) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١٦) ، وابن حبان (٥٩٣٦) ، والنسائي (٧/ ٣٠٣) ، وابن ماجه (٢٤٣٨) ، وأحمد (١/ ٢٣٦) .

(٤) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٧٥) ، وأحمد (١/ ٣٨٧) ، والحاكم (٢/ ٤٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٥٢٤) .

(٥) أخرجه مسلم (١٧) ، وأبو داوود (٥١٨٣) ، والترمذي (٢٠١١) ، وابن ماجه (٤١٨٧) ، وأحمد (٤/ ٢٠٥) .

وتقريره عليه يشعر بأن في الخُلقِ الجبليَّ والمكتسبَ .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « ٱللَّهُمَّ ؛ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي ـ أي : بفتح أوله ـ فَحَسِّنْ خُلُقِي »[١] ، وكان يقول في دعاء الافتتاح : « وَٱهْدِنِي لأَحْسَنِ ٱلأَخْلاَقِ ، لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ »[٢] .

ولما اجتمع في نبينا صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال وخصال الجلال والجمال ما لا يحيط به أحد . . أثنى الله تعالىٰ عليه في كتابه العزيز ، فقال مؤكداً لذلك بذكر على الاستعلائية : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، والخلق : ملكة نفسانية تحمل صاحبها على كل جميل ، ووصفه بالعظيم مع أن الغالب وصفه بالكريم ؛ لأن خلقه لم يقتصر على الكرم المقتضي للسماحة والدماثة[٣] ، بل يعم صفتي الإنعام والانتقام ؛ إذ كان رحيماً بالمؤمنين ، شديداً غليظاً على غيرهم .

(والحياء) فيه سجية أيضاً على أكمل غاياته ، ففي « البخاري » من حديث أبي سعيد : (كان صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء ـ أي : البكر ـ في خدرها)[٤] وقيد به ؛ لأن حياءها فيه أشد ؛ لأنه مظنة أن يظفر منها طامع يدخل عليها فيه بشيء ، بخلافها بحضرة الناس .

والحياء بالمد لغة : تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ، من الحيا ، ولذلك سمي المطر حيا ، لٰكنه مقصور .

وشرعاً : خلق يبعث على اجتناب القبيح ، ومنه التقصير في حق من له حق ، ومن ثم صح أنه « لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ »[٥] و أنه « مِنَ ٱلإِيمَانِ »[٦] وجعل منه وإن كان غريزة ؛

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٥٩) ، والطيالسي في « مسنده » (٣٧٤) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٥٠٧٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٥٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) ، وابن حبان (١٧٧١) ، وأبو داوود (٧٥٦) ، والترمذي (٣٤٢١) ، والنسائي (٢/ ١٣٠) ، وأحمد (١/ ٩٤) .

(٣) الدماثة : سهولة الخلق .

(٤) البخاري (٣٥٦٢) .

(٥) أخرجه البخاري (٦١١٧) ، ومسلم (٣٧) ، وأحمد (٤/ ٤٢٧) .

(٦) أخرجه البخاري (٩) ، ومسلم (٣٥) ، وابن حبان (١٦٦) ، وأبو داوود (٤٦٤٣) ،

لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم .

(50)

وَأَتَــاهَــا أَنَّ ٱلْغَمَــامَــةَ وَٱلسَّــرْ حَ أَظَلَّتْــهُ مِنْهُمَــا أَفْيَــاءُ

(وأتاها) الخبر بكرامتين عظيمتين وقعتا له صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، وهما (أن الغمامة) وهي : السحابة (والسرح) وهو ـ كما في « القاموس » ـ : (شجر عظام ، أو كل شجر لا شوك فيه ، أو كل شجر طال) اهـ وقضية سياق القصة الآتية أن المراد هنا : الأول أو الثالث ، وأما الثاني . . فلم أر ما يدل له (أظلته منهما) حال من قوله : (أفياء) جمع فيء ، وهو : ما بعد الزوال من الظل ، من : فاء رجع ؛ لرجوعه من جانب إلى جانب ، وفرق بعضهم بين الظل والفيء : بأن الظل ما نسخته الشمس ، والفيء ما نسخها .

ومر ذكر هاتين الآيتين قبيل قوله : (بعث الله عند مبعثه الشهب) وحاصلهما مع بعض زيادة : أنها أرسلته في تجارة لها ومعه عبدها ميسرة إلى بصرى ، فنزل تحت ظل شجرة فأظلته ، فقال راهب ثَم : ما نزل تحتها إلا نبي ، وسأل ميسرةَ : أفي عينيه حمرة ؟ قال : نعم لا تفارقه ، فقال الراهب : هو آخر الأنبياء ، ليت أني أدركه إذ يؤمر بالخروج ، وقال له من خالفه في بيع وهو في سوق بصرى : احلف باللات والعزى ، فقال : « مَا حَلَفْتُ بِهِمَا قَطُّ » فقال خصمه لميسرة : هـٰذا نبي ، والذي نفسي بيده إنه هو الذي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم ، فوعى ذلك ميسرة ، وكان ميسرة يرى ملكين يظلانه في الهاجرة ، ورأت خديجة ذلك لما أقبل صلى الله عليه وسلم وهي في عِلِّية لها ، فأرته نساء عندها فعجبن من ذلك ، فلما جاء ميسرة . . أخبرته بما رأت ، فأخبرها بجميع ما رآه منه ، وبقول الراهب السابق ، وبقوله : « مَا حَلَفْتُ بِهِمَا قَطُّ »[١] .

تنبيه : ورد في تظليل الغمامة له صلى الله عليه وسلم أحاديث ، أصحها : ما رواه جماعة وهو على شرط الصحيح إلا أن في روايته غرابة : أن أبا طالب خرج به إلى الشام

والنسائي (٨/ ١١٠) ، وابن ماجه (٥٧) ، وأحمد (٢/ ٩) .

(١) أخرج هـٰذه القصة ابن سعد في « طبقاته » (١/ ١٥٥) .

في أشياخ من قريش فمروا ببَحيرىٰ ، فخرج إليهم على خلاف عادته ، فجعل يتخللهم حتى أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هٰذا سيد العالمين ، زاد البيهقي : ورسول رب العالمين ، هٰذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقالوا له : وما علمك ؟ قال : إنكم حين أشرفتم من الثنية لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي ، وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به . . كان صلى الله عليه وسلم في رِعْيَة الإبل ، فقال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا إلى القوم . . وجدهم قد سبقوا إلى الشجرة ، فلما جلس صلى الله عليه وسلم . . مال فيء الشجرة عليه ، فقال : انظروا إلى فيء الشجرة مال إليه . . . الحديث ، رواه أبو موسى الأشعري [١] ، وهو إما أن يكون تلقاه عنه صلى الله عليه وسلم فيكون أبلغ ، أو من بعض كبار الصحابة ، أو كان مشهوراً أخذه بطريق الاستفاضة .

وروى ابن إسحاق معضلاً ، والبيهقي في « الدلائل » موصولاً : أنهم لما نزلوا قريباً من صومعة بَحيرىٰ . . صنع لهم طعاماً كثيراً ؛ لأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلته الشجرة وتهصرت ـ أي : مالت وانعطفت ـ أغصانها على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استظل تحتها . . . القصة [٢] .

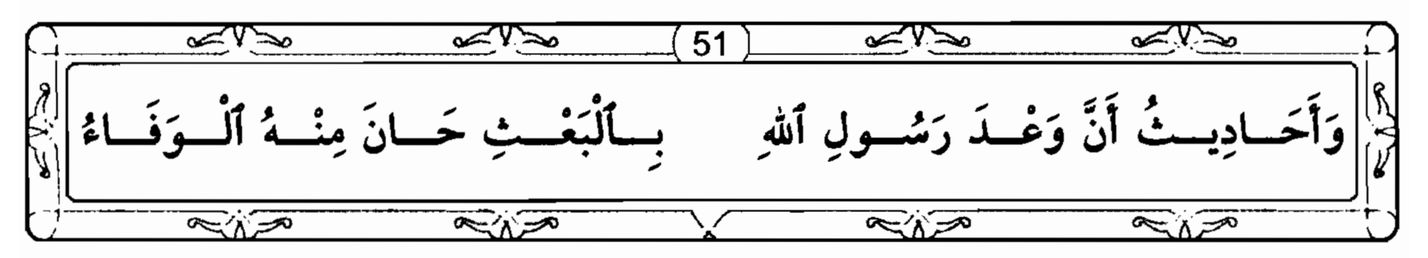
وورد : أن حليمة رأت غمامة تظله وهو عندها ، وورد ذلك أيضاً عن أخيه من الرضاعة ، وأشار غير واحد إلى أن تظليل الغمامة له صلى الله عليه وسلم إنما كان قبل النبوة إرهاصاً وتأسيساً لنبوته صلى الله عليه وسلم كما يأتي ، ومما يدل على انقطاع ذلك أن الصديق رضي الله تعالى عنه أظله صلى الله عليه وسلم حين قدما المدينة في الهجرة لما أصابته الشمس ، فظلل عليه بردائه [٣] ، وصح : أنه صلى الله عليه وسلم

---

(١) أخرجه عنه الترمذي (٣٦٢٠) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٢٤) ، والحاكم (٢/ ٦١٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٤٣٠) .
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ١٨١) ، و« دلائل النبوة » (٢/ ٢٦) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٩٠٦) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٩٧٤٣) في حديث طويل .

ظلل عليه بثوب وهو يرمي الجمرة ، وظلل به مرة أخرى وهو بالجعرانة[١] ، وأنهم كانوا في أسفارهم إذا أتوا على شجرة ظليلة . . تركوها له صلى الله عليه وسلم[٢] .

وسيأتي في شرح قوله : (وإذا ما مشى[٣] . . محا نوره الظل . . .) إلخ ما له تعلق بذلك .



(و) أتاها أيضاً (أحاديث) الأحبار والرهبان والكهان (أن) أي : بأن (وعد رسول الله) مصدر مضاف للمفعول ؛ أي : وعد الله له ، وهو عند الإطلاق لا يستعمل إلا في الخير (بالبعث) أي : الإرسال إلى الخلق كافة (حان) أي : قرب (منه) أي : من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متعلق بقوله : (الوفاء) أي : قرب وفاء الله سبحانه وتعالىٰ بذلك الوعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

52

فَدَعَتْهُ إِلَى ٱلزَّوَاجِ وَمَا أَحْـ ـسَنَ مَا يَبْلُغُ ٱلْمُنَى ٱلْأَذْكِيَاءُ

(فـ) بسبب ما رأته منه وما بلغها عنه مما يحمل مَنْ له أدنىٰ ذرة من عقل على أن يغسل قدميه ويشرب ماء غسلهما (دعته) أي : خطبته (إلى الزواج) أي : إلى أن يتزوج بها ، وعرضت نفسها عليه فقالت : يا ابن عم ؛ إني قد رغبت في نكاحك لما رأيته وعرفته منك ، ومر أن سنها حينئذ كان أربعين سنة ، وسنه صلى الله عليه وسلم كان خمساً وعشرين سنة على الأشهر فيهما ، وكانت تزوجت قبله برجلين .

(وما أحسن) هٰذه إحدى صيغتي التعجب (ما) مصدرية ، فتؤول مع (يبلغ) بمصدر منصوب المحل على التعجب (المنىٰ) أي : الأماني جمع أمنية ، وهي :

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في « صحيحه » (٢٦٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٤١٣٧) ، ومسلم (٨٤٣) ، وأحمد (٣/ ٣٦٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٣/ ٢٥٩) .

(٣) رواية البيت : (. . ما ضحى) أي : مشىٰ وقت الضحى .

ما يتمناها الإنسان (الأذكياء) جمع ذكي كغني ، والذكاء بالمد : حدة القلب ومزيد يقظته ؛ أي : شيء عظيم حسن بلوغ الأذكياء كلَّ ما يتمنونه ، ومنهم بل من أكملهم خديجة رضي الله تعالىٰ عنها ، فإنها أدركت بقوة ذكائها وتفرسها فيه صلى الله عليه وسلم منه وبه كلَّ ما تمنته وأملته مما لم تبلغه امرأة من هـٰذه الأمة ؛ إذ هي على الأصح أفضل أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

وهـٰذا من أنواع البديع المسمى بإرسال المَثَل ، وهو : أن يذكر الشاعر في بعض بيت ما يجري مجرى المثل السائر من حكمة أو نحوها ، كقول أبي الطيب : [من البسيط]

لأَنَّ حِلْمَكَ حِلْمٌ لاَ تَكَلَّفُهُ ... لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ[1]

وهو كثير في كلام الناظم .

ولما عرضت نفسها عليه صلى الله عليه وسلم . . ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه منهم حمزة حتى دخل على أبيها خويلد ، فخطبها إليه فأجاب ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصدقها عشرين بكرة ، وحضر أبو بكر رضي الله عنه ورؤساء مضر ، فخطب أبو طالب فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضىء ـ بمعجمتين أو مهملتين : أصل ـ معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ؛ أي : الكافلين له ، وسوَّاس حرمه ـ أي : المتولين لأمره ـ وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن ابن أخي هـٰذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به ، فإن كان في المال قل . . فإن المال ظل زائل ، وأمر حائل ، ومحمد مَنْ قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا ، وهو والله بعد هـٰذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، فزوجها أبوها منه .

وذكر الدولابي وغيره : أنه صلى الله عليه وسلم أصدقها ثنتي عشرة أوقية ذهباً ونصف أوقية ، قالوا : وكانت كل أوقية إذ ذاك أربعين درهماً .

---

(١) البيت في « شرح ديوانه » للعكبري (٤/ ٨٧) .

53

وَأَتَـاهُ فِـي بَيْتِهَـا جَبْـرَئِيـلُ ... وَلِـذِي ٱللُّـبِّ فِـي ٱلْأُمُـورِ ٱرْتِيَـاءُ

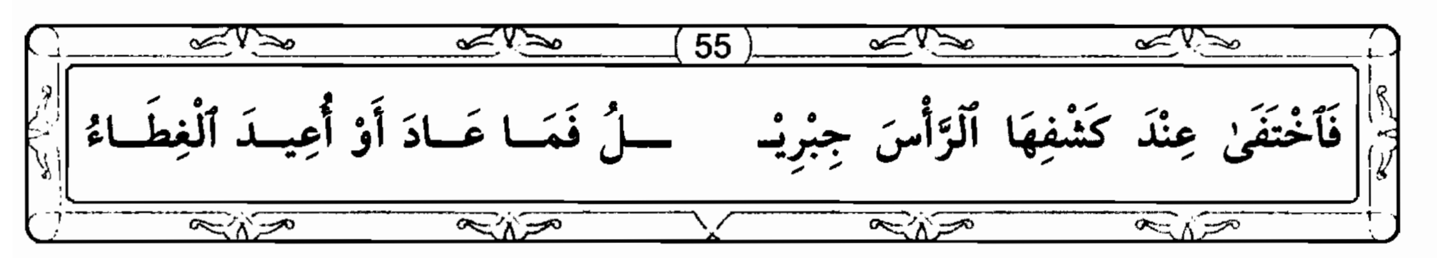
(و) مما يدل على عظيم ذكائها وفرط معرفتها أنه (أتاه) بعد النبوة والرسالة (في بيتها جبرئيل) ـ كـعندليب لغة في جبريل ـ ليلقي إليه ما أمر به من الوحي ، وكان عندها من الإيمان به علم اليقين فأحبت أن تنتقل عنه إلى عين اليقين ، كما وقع لإبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين في قوله تعالى [على لسانه] : ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ، وكيف لا تريد هـٰذه المرتبة العلية (ولذي) أي : صاحب (اللب) أي : العقل الكامل ، وخديجة رضي الله عنها من أكمل أولي الألباب وأذكاهم (في الأمور) أي : الأحوال التي قد تشتبه (ارتياء) أي : استبصار ، من : ارتأيته ؛ أي : نظرته بالعين أو القلب كما في « القاموس » ، وفراسة يقضي بها على تلك الأمور بتمييز حَسَنها من قبيحها ، فعلم أن هـٰذه الجملة اعتراضية ، وأن فيها غاية المناسبة لما قبلها وما بعدها ؛ إذ الاعتراضية لا بد لها من نكتة ، فهي هنا الإشارة إلى كمال عقلها واستبصارها ، مع إفادة أن هـٰذا أمر كلي جرى مجرى المثل والحكمة ، فهو من إرسال المثل .

54

فَـأَمَـاطَـتْ عَنْهَـا ٱلْخِمَـارَ لِتَـدْرِي ... أَهُـوَ ٱلْـوَحْـيُ أَمْ هُـوَ ٱلْإِغْمَـاءُ

(فـ) بسبب تلك المحبة مع ما عندها من كمال العقل (أماطت) أي : أزالت (عنها) أي : عن رأسها (الخمار) وهو : ما يخمر ؛ أي : ما يغطى به الرأس (لتدري) أي : لكي تعلم علم اليقين (أهو) أي : أهـٰذا الذي عرض له صلى الله عليه وسلم حتى أخرجه عن حالته المألوفة منه (الوحي) أي : حامله وأمينه الذي كان يأتي به الأنبياء قبله ، ومرت أقسامه (أم) هي معادلة الهمزة المطلوب بها وبـ(أم) التعيين ، ولها قسم ثان ، وهو : أن تقع بعد همزة التسوية ، وسميت فيهما معادلة ؛ لمعادلتها الهمزة في إفادتها الاستفهام في الأول والتسوية في الثاني ، وتسمى فيهما متصلة ؛ لأن ما قبلها وما بعدها لا يستغنى بأحدهما عن الآخر ، ويقابلها المنقطعة ، وهي ثلاثة أقسام مبسوطة في محلها .

(هو الإغماء) الذي هو من بعض الأمراض العادية ، ومن ثم جاز على الأنبياء دون الجنون .



(فـ) بسبب إزالتها الخمار عن رأسها (اختفىٰ عند كشفها الرأس) مفعول (كشف) المضاف لفاعله (جبريل فما عاد أو أعيد الغطاء) أي : إلى أن أعادت غطاء رأسها ، فـ(أعيد) ماض مبني للمفعول ، و(الغطاء) نائب فاعل ، ووقع للشارح هنا أنه قال : (و« أعيد » منصوب بأن مضمرة بعد « أو » التي يصلح موضعها « حتى » و« الغطاء » فاعل « أعيد ») اهـ وهو سهو عجيب ؛ لما تقرر : أن (أعيد) ماض. . . إلخ ، وكأن هـٰذا الوهم سرى إليه مما يصرح به كلام النحاة : أن (أو) غير العاطفة التي بمعنى (إلى أن) لا تدخل إلا على مضارع ، كما في (حتى) الغائية المرادفة لـ (أو) المذكورة كما صرحوا به ، وحينئذ فاضطره ذلك إلى ما ذكره غفلة عن أن (أُعيد) ماض ، لـٰكن كان عليه أن يقول : وقول الناظم : (أعيد) صوابه يعاد ويذكر ما أشرت إليه ، وأما كونه يبقي (أعيد) على حاله ويجعله منصوباً بـ(أو). . فهو جلي الفساد ، لا يقال : هو ماض لفظاً مستقبل معنىً ، فليجز دخول (أو) الناصبة عليه ؛ لما صرحوا به في (حتى) المرادفة لها : أن شرط النصب بعدها : أن يكون الفعل مستقبلاً أو ماضياً في حكم المستقبل ، نحو : سرت حتى أدخل المدينة ، فهـٰذا يؤول بالمستقبل نظراً إلى أنه غاية لما قبل (حتى) فهو مستقبل بالإضافة إليه ؛ لأنا نقول : معنى قولهم : أو ماضياً في حكم المستقبل : أن لفظه لفظ المضارع ومعناه ماض ، فكأن قضية القياس أن لا تدخل عليه (حتى) الغائية ، فأجابوا : بأن ما فيه من المضي يؤول بالاستقبال نظراً إلى أنه غاية كما تقرر ، وأما ما لفظه ماض. . فلا تدخل عليه (حتى) الغائية أصلاً .

فإن قلت : كيف هـٰذا مع قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ، ﴿ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾ ، ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ ، وفي « البخاري » : (حتى فَجِئَهُ الحق وهو في غار حراء)[1] ؟

---

(١) البخاري (٤٩٥٣) .

قلت : (حتى) هنا ابتدائية لا غائية ، و (أو) الناصبة إنما تكون بمعنى (حتى) الغائية لا غير ، وقد صرح بذلك الأئمة ، ولخصه الجلال السيوطي في « شرح جمع الجوامع » له حيث قال ما ملخصه : (إن حتى الابتدائية تليها الجملتان الاسمية والمضارعية والماضوية والمصدرة بشرط ، وأما زعم ابن مالك أنها جارة غائية قبل الفعل الماضي بإضمار « أن » بعدها على تأويل المصدر . . فغلطه فيه أبو حيان ، وتبعه ابن هشام فقال : لا أعرف له في ذلك سلفاً ، وفيه تكلف إضمار من غير ضرورة ، وردوا زعمه هو والأخفش : أنها جارة قبل « إذا » ، وأن « إذا » في موضع جرٍّ بها بأنه خلاف ما عليه الجمهور : أنها ابتدائية ، و« إذا » في موضع نصب بشرطها أو جوابها)[1] .

ثم قال الجلال : (قال بعض شيوخنا : ضابط « حتى » : أنها إذا وقع بعدها اسم مفرد مجرور أو مضارع منصوب . . فحرف جر ، أو اسم مرفوع أو منصوب . . فحرف عطف ، أو جملة ـ أي : ماضوية ـ فحرف ابتداء ، ولا محل لهـٰذه الجملة) اهـ[2]

وهـٰذا كله صريح كما ترى في أن كل جملة ماضوية دخلت عليها (حتى) في القرآن أو غيره تكون (حتى) حينئذ ابتدائية ، ولا تكون جارة بمعنى (إلى أن) وإن صح المعنى ؛ لما مر أن ذلك يحتاج لتقدير ما لا حاجة إليه ، وإذا تقرر أن (حتى) الغائية لا تدخل على الماضي . . فـ (أو) التي بمعناها أولى .

فإن قلت : لم قست (أو) على (حتى) الغائية في منع دخولها على الماضي ولم تقسها على (إلى أن) أو (إلا أن) اللذين بمعناها ؟

قلت : أما كونها بمعنى (إلا أن) . . فهو ما ذكره ابن مالك ، وقد رد عليه حتىٰ ولده ، ومن ثم قال أبو حيان : قد أغنانا ولده عن الرد عليه ، وعلى التنزل فـ (إلا أن) لا تدخل على الماضي إلا عند قوم بشرط أن يتقدمه فعل أو (قد) كما هو مقرر في محله ، وأما كونها بمعنى (إلى أن) . . فوجهه : أن (حتى) إنما امتنع دخولها على الماضي لكونها غائية كما مر مبسوطاً ، وهـٰذا المعنى موجود في (إلى أن) بطريق

---

(١) همع الهوامع (٢/ ٤٢٦) .
(٢) همع الهوامع (٢/ ٤٢٨) .



الأصالة ، فليمتنع دخولها على الماضي بنص كلامهم لا بطريق القياس .

فإن قلت : تقرر أن (أو) بمعنى (إلى أن) وهـٰذه تدخل على الماضي كما في الحديث : (قام إلى أن تورمت قدماه)[1] ، فلتكن (أو) كذلك .

قلت : هـٰذا اشتباه ؛ لأن (أن) المتضمنة في (أو) هي الناصبة ، وهي خاصة بالمضارع ، فلم يتصور دخول (أو) المتضمنة لها على الماضي ، وأما (أن) الملفوظ بها بعد (إلى) . . فهي التي لا يتصور لها عمل ، وهي تدخل على الماضي ، فلا جامع بين هـٰذه وتلك .

فإن قلت : بعضهم يقدر (أو) بـ (إلى أن) وبعضهم يقدرها بـ (إلى) فقط ، وهـٰذا يدل على أنَّ (أنْ) لا نظر إليها .

قلت : لا يدل لذلك بوجه ، وإنما سبب ذلك أنهم اختلفوا في ناصب المضارع الداخل عليه (أو) فالأصح : أنَّ (أنْ) مقدرة بعدها ، وقال قوم : (أو) هي الناصبة نفسها ، فعلى الأول تقدر بـ (إلى أن) وعلى الثاني بـ (إلى) فقط .

فإن قلت : قد أدخل الناظم (أو) على الماضي في موضع من « البردة » وسكت عليه شراحها[2] .

قلت : الاعتراض عليه في ذلك أيضاً ، وأما الشراح . . فيحتمل أنهم إنما سكتوا على ذلك نظراً للمعنى ، أو أنهم غفلوا عما ذكرته من صريح كلامهم الدال على أن (أو) الغائية لا تدخل على الماضي .

ثم رأيت شارحها العلامة ابن مرزوق تنبه لما ذكرته فقال في : (أَوْ خِلْتَ ٱلْبِطَاحَ بِهَا) : إن (أو) هنا عاطفة ، ثم جعلها بمعنى الواو أو (بل) أو أنها على حالها للشك أو التخيير ، وتكلف بيان ذلك ولم يعرج على أنها (أو) الغائية بوجه ، وليس سر ذلك إلا امتناع دخولها على الماضي ، وإلا . . كان معنى الغائية في البيت أقرب مما تكلفه ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٦) ، ومسلم (٢٨١٩) ، والترمذي (٤١٢) ، والنسائي (٣/ ٢١٩) ، وابن ماجه (١٤١٩) .

(٢) وذلك في قوله رحمه الله :

بعارض جاد أو خلت البطاح بها ... سيب من اليم أو سيل من العرم

ولا يتأتى نظير ما تكلفه هنا بوجه ، وإلا . . لبادرت إليه ، ومما يصرح بذلك أيضاً أن النحاة لم يذكروا لـ (أو) إلا قسمين : عاطفة وناصبة ، وهي الغائية ، فالعاطفة : أمرها واضح ولا كلام فيها ، والناصبة : تختص بالمضارع ، فمن أثبت لها قسماً ثالثاً ، وهو دخولها على الماضي ولا تكون للعطف . . فعليه البيان ، ولا يجد ذلك ، كما دل عليه كثرة البحث والتتبع . فتأمل ذلك كله فإنه نفيس مهم غفل عنه الناظم وغيره .

(56)

فَـاْسْتَبَـانَـتْ خَـدِيجَـةُ أَنَّـهُ ٱلْكَنْـ ـــزُ ٱلَّـذِي حَـاوَلَتْـهُ وَٱلْكِيمِيَـاءُ

(فاستبانت خديجة) قيل : صرفها للضرورة ، ويرد بأنه إنما صرفها ـ وإن كان الوزن صحيحاً مع عدم الصرف ـ ليسلم من قبح زحاف الشكل ، وهو : اجتماع الكف والخبن ؛ لأن (مستفعلن) تحذف سينه فيسمى خبناً كما مر ، وهو على انفراده غير قبيح ، ويدخل مع ذلك الكف ، وهو : حذف حركة السابع وهو النون ليصير (متفعل) وهـٰذا هو الشكل القبيح الذي هو اجتماع هـٰذين ، وإن كان الأول وحده حسناً ، والثاني وحده صالحاً ، وهو من العجائب ؛ إذ اجتماع الحسن والصالح يصير قبيحاً عندهم .

أي : ظهر لها أتم الظهور ؛ لأنها علمت من ابن عمها ورقة الآتي ، أو من غيره : أن جبريل لا يأتي محلاً فيه امرأة مكشوفة الرأس (أنه) أي : ما يعرض للنبي صلى الله عليه وسلم الذي طلبت الوقوف على عين اليقين فيه (الكنز) أي : الشيء النفيس ، بل الذي لا أنفس منه (الذي حاولته) أي : أرادت حيازته والظفر به (و) أنه (الكيمياء) أي : العلم البديع الذي يقلب الأعيان الرديئة إلى الأعيان النفيسة .

واستَعارَ (الكنز) وهو : المال المدفون ، و(الكيمياء) وهو : العلم المعروف للوحي ؛ لأنه بهما تحصل الذخائر النفيسة المنتفع بها حالاً ومآلاً ، كما أن الوحي كذلك ، وأيضاً هما لا يظفر بهما إلا الفذُّ النادر ، كما أن الوحي لا يظفر به إلا أكمل البشر ، وهم في غاية الندرة والقلة بالنسبة لبقية الناس .

وأشار بذكر ما وقع لخديجة إلى سبب ذلك ، وهو قصة ابتداء بعثه صلى الله عليه

وسلم ، وحاصلها : أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغ أربعين سنة ، وقيل : وكسراً . . بعثه الله يوم الإثنين ـ كما في خبر مسلم[1] ـ لسبع عشرة من رمضان ، وقيل : من ثمان من ربيع الأول ، وقيل : كان في رجب رحمة للعالمين ، ورسولاً إلى كافة الخلق أجمعين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « وَأُرْسِلْتُ إِلَى ٱلْخَلْقِ كَافَّةً »[2] .

روى البخاري وغيره : أول ما بدىء به صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وابتدىء بها ؛ لأن الملك لو فجأه بغتة . . لم تحتمله قواه البشرية ، وكان يأتي حراء فيتعبد فيه الليالي الكثيرة ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق ـ أي : جاءه جبريل ـ وهو بغار حراء ، فقال له : اقرأ ، قال : « مَا أَنَا بِقَارِىءٍ » أي : لست بقارىء ، قاله امتناعاً ؛ لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال له : اقرأ ، قال : « مَا أَنَا بِقَارِىءٍ » قاله إخباراً بالواقع ، فغطه ثم أرسله كذلك وقال له : اقرأ ، قال : « مَا أَنَا بِقَارِىءٍ » أي : ما الذي أقرؤه ؟ فغطه وأرسله كذلك ، وحكمة الغط ثم تكريره : مزيد التأهل إلى لقاء الملك ؛ لما بين البشرية والملكية من التباين ، ثم إلى التلقي منه ، ثم قال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، فرجع بها يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة فقال : « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال : « يَا خَدِيجَةُ ؛ مَا لِي ؟! » وأخبرها الخبر ، ثم قال : « قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » أي : قبل أن يحصل لي العلم الضروري بأن الجائي جبريل ، أو خشيت أن لا أقدر على حمل أعباء الرسالة ، أو أن يقتلني قومي ، ولا بدع فإنه بشر ، فقالت له : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، وهو ممن تنصر من العرب وعرف الإنجيل ، فقالت له : اسمع من ابن أخيك ، فأخبره صلى الله عليه وسلم ما رأى ، فقال : هـٰذا الناموس الذي أنزل على موسى ، يا ليتني فيها ـ أي : ملتك ـ جذعاً ـ أي : شاباً لأبالغ في نصرتك ـ إذ يخرجك قومك ، قال : « أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ » قال : نعم ، لم يأت رجل

---

(١) مسلم (١١٦٢) .

(٢) أخرجه مسلم (٥٢٣) ، والترمذي (١٥٥٣) ، وأحمد (٢/ ٤١١) .

قط بما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك . . أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي فترة حتى حزن صلى الله عليه وسلم وتكرر ذهابه إلى رؤوس شواهق الجبال ليرمي نفسه ، فيبرز له جبريل ويقول له : يا محمد ؛ إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه[١] .

وأخرج الشيخان وغيرهما : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ شَهْراً ـ أي : لا لطلب النبوة ؛ فإنها موهبة لا تنال بكسب ، ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ـ فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي . . هَبَطْتُ ، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ شَيْئاً ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئاً لَمْ أَثْبُتْ لَهُ ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي ، وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِداً فَنَزَلَتْ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . . . ﴾ »[٢] الآية ، وهٰذا بعد نزول : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ، بل وبعد فترة الوحي ؛ إذ أول ما نزل : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ على الأصح ، بل الصواب ، وصح عن الشعبي أنه قال : (أنزلت عليه صلى الله عليه وسلم النبوة وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشيء ، ولم ينزل عليه بالقرآن على لسانه ، فلما مضت ثلاث سنين . . قرن بنبوته جبريل ، فنزل عليه بالقرآن على لسانه عشرين سنة)[٣] وحكمة الفترة : إذهاب الروع الذي وجده صلى الله عليه وسلم ، ومزيد تهييجه إلى الاشتياق للعودة .

وروى أصحاب السير : أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر خديجة الخبر . . قالت له : أتستطيع أن تخبرني بهٰذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال : « نَعَمْ » فلما جاءه جبريل . . أخبرها به ، فقالت له : اجلس على فخذي الأيسر ، ففعل ، فقالت : أتراه ؟ قال : « نَعَمْ » فقالت : فعلى الأيمن ، ففعل ، فقالت : أتراه ؟ قال : « نَعَمْ » قالت : فاجلس في حجري ، ففعل ، فقالت : أتراه ؟ قال : « نَعَمْ » فألقت خمارها ثم قالت : أتراه ؟ قال : « لاَ » قالت : اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملك ، ما هٰذا شيطان[٤] .

---

(١) البخاري (٣) ، دون قوله : (حتى حزن . . .) .
(٢) البخاري (٤٩٢٢) ، ومسلم (١٦١) ، وابن حبان (٣٤) ، وأحمد (٣/٣٠٦) .
(٣) انظر « طبقات ابن سعد » (١/١٩١) ، و« فتح الباري » (١/٢٧) .
(٤) انظر « الكامل » لابن الأثير (١/٦٤٩) .

ثُـمَّ قَـامَ ٱلنَّبِـيُّ يَـدْعُـو إِلَـى ٱللهِ وَفِـــي ٱلْكُفْـــرِ نَجْـــدَةٌ وَإِبَـــاءُ

(ثم) بعد تلك الفترة ونزول قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ بادر صلى الله عليه وسلم إلى امتثال ذلك ؛ فحينئذ (قام النبي) أي : جد واجتهد في حال كونه (يدعو إلى) عبادة (الله) والإيمان به وبرسوله ، وترك ما هم عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، وذلك لأن (أول ما وجب عليه صلى الله عليه وسلم الإنذار والدعاء إلى التوحيد ، ثم فرض الله من قيام الليل ما ذكره في أول « سورة المزمل » ، ثم نسخه بما في آخرها ، ثم نسخه بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء بمكة) قاله النووي[١] .

وقال في « فتح الباري » : (كان صلى الله عليه وسلم قبل الإسراء يصلي قطعاً وكذلك أصحابه ، لكن اختلف هل افترض قبل الخمس صلاة أم لا ؟ فقيل : إن الفرض صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾)[٢] .

وروي : أن جبريل بدا له صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وأطيب رائحة ، فقال : يا محمد ؛ إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أنت رسولي إلى الجن والإنس ، فادعهم إلى قول : لا إله إلا الله ، ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء فتوضأ منها جبريل ، ثم أمره أن يتوضأ ، وقام جبريل يصلي وأمره أن يصلي معه ، فعلمه الوضوء والصلاة ، ثم عرج إلى السماء ، ورجع صلى الله عليه وسلم لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر إلا وهو يقول : السلام عليك يا رسول الله ، حتى أتى خديجة فأخبرها ، فغشي عليها من الفرح ، ثم أمرها فتوضأت وصلى بها كما صلى به جبريل ، فكان ذلك أول فرضها ركعتين . . . الحديث[٣] .

---

(١) روضة الطالبين (١٠/٢٠٦) .
(٢) فتح الباري (٨/ ٦٧١) .
(٣) ذكر نحوه ابن هشام في « السيرة » (١/ ٢٤٥) .

(و) هي للحال (في) أهل (الكفر نجدة) أي : قوة تامة وتحزب عليه (وإباء) أي : امتناع عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم والإيمان به .

58

أُمَمـاً أُشْـرِبَـتْ قُلُـوبُهُـمُ ٱلْكُفْـ ـرَ فَـدَاءُ ٱلضَّـلَالِ فِيهِـمْ عَيَـاءُ

(أمماً) مفعول (يدعو) أي : جماعات هم أمة الدعوة (أشربت) بالبناء للمفعول (قلوبهم الكفر) أي : اختلطت به بتقدير تجسمه ، وتمكن فيها حبه حتىٰ صارت لا تُقبل علىٰ غيره ولا تلتفت إليه ؛ لامتزاجها به امتزاج المشروب بها ، فاستعار لفظ الشرب للمخالطة وشدة الممازجة ، وحينئذ (فداء الضلال) الذي استقر (فيهم) أي : مرضه ، والإضافة بيانية ؛ أي : فالداء الذي استقر فيهم ـ وهو الكفر ـ داء لا يرجى برؤه (عياء) ـ بمهملة مفتوحة فتحتية ـ أي : داء عضال أعيا الأطباء مداواته وحصول شفائه .

ولما قام صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله عز وجل . . دخل في الإسلام رجال ونساء حتى كمل السابقون الأولون ، وأولهم على الإطلاق خديجة ، ثم من الرجال أبو بكر ، ومن الصبيان علي ، وصح إسلامه مع صباه ؛ لأن الأحكام إذ ذاك كانت منوطة بالتمييز ، ومن الموالي زيد ، ومن الأرقاء بلال ، وروي : أن ورقة أسلم ، فإن صح . . كان أول من أسلم من الرجال ، وبهـٰذا تجتمع الأقوال المتباينة في أول من أسلم ، ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً ، وكان صلى الله عليه وسلم مخفياً أمره إلى أن أمره الله تعالى بإظهار أمره بقوله : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ قالوا : وكان ذلك بعد النبوة بثلاث سنين ، ولم يبعد منه قومه ولا ردوا عليه حتى عاب آلهتهم سنة أربع من النبوة ، فأجمعوا على عداوته إلا من عصمه الله بالإسلام أو صدق المحبة كأبي طالب ، فإنه حدب عليه ومنعه وقام دونه ، فاشتد الأمر وتضارب القوم ، وتآمرت قريش على من أسلم منهم يعذبونهم ، ومنع الله رسوله منهم بعمه أبي طالب وببني هاشم غيرَ أبي لهب ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف على الناس في منازلهم يقول : « ٱعْبُدُوا ٱللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » وأبو لهب وراءه يحذر منه[1] ، ورموه بالسحر

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٢) ، والحاكم (١/ ١٥) ، والطبراني في « الكبير » (٥/ ٦١) ، وفي

والشعر والكهانة والجنون ، وكان بعضهم يحثوه بالتراب ويجعل الدم على بابه ، ووطىء عقبة بن أبي معيط على عنقه وهو ساجد عند باب الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان ، وخنقوه خنقاً شديداً ، وجذبوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره فقام أبو بكر ومنعه منهم[1] .

ثم أسلم عمه حمزة رضي الله عنه سنة ست من النبوة ، فعز به وكفت عنه قريش قليلاً ، وسألوه أن يملكوه عليهم ويبذلوا له من الأموال ما شاء ويترك ما هو فيه ، فأبى وقال : « أَصْبِرُ لأَمْرِ ٱللهِ حَتَّى يَحْكُمَ ٱللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ »[2] .

وفي سنة خمس أذن الله لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة ، فكان أولهم عثمان مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأسلم عمر بعد حمزة رضي الله عنهما بثلاثة أيام ، فعز رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ، فاجتمعت قريش على قتله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك أبا طالب ، فجمع بني هاشم والمطلب فأدخلوه صلى الله عليه وسلم شعبهم ومنعوه .

(59)

وَرَأَيْنَـا آيَـاتِـهِ فَـٱهْتَـدَيْنَـا ... وَإِذَا ٱلْحَـقُّ جَـاءَ زَالَ ٱلْمِـرَاءُ

(ورأينا) معشر أمة الإجابة ؛ أي : أبصر الصحابة وعلم من بعدهم بطريق التواتر والشهرة ، ويصح أنها بمعنى علم في الكل وهو واضح ، و أبصر في الكل ، وهو فيمن بعد الصحابة بالنسبة لمشاهدة حروف القرآن الدالة على آيات لا تحصى (آياته) أي : معجزاته وخَلْقه وخُلُقه من بديع صفاته (فاهتدينا) أي : وصلنا إلى المطلوب منا من كمال الإيمان والاتباع (و) إنما بادرنا إلى ذلك لأنا أصحاب عقول كاملة ، وقد رأينا الحق عياناً لا مرية فيه ولا شبهة ، فعلمنا أنه (إذا الحق جاء) . . زهق الباطل ، وبين

« الأوسط » (١٥١٠) ، وهو بنحوه عند البيهقي في « الدلائل » (٢/ ١٨٥) ، وفي « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٧) .

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٨) ، وابن حبان (٦٥٦٩) ، وأحمد (٢/ ٢٠٤) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٢٧٤) ، وفي « السنن الكبرى » (٩/ ٧) ، وغيرهم .

(٢) ذكره ابن هشام في « السيرة » عن ابن عباس في حديث طويل (١/ ٢٩٥) .

بـ(جاء) أن (الحق) فاعل مثله المحذوف ؛ لأن (إذا) لا تدخل إلا على الجمل الفعلية على الراجح (زال المراء) أي : الضلال والجدال فيه ، وفي هٰذا أبلغ التعريض لكفار قريش حيث لم يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم مع ما شاهدوه من كماله الأعظم خَلْقاً وخُلُقاً وعلماً وسيرة ، ومن معجزاته الدالة على صدقه .

(60)

رَبِّ إِنَّ ٱلْهُـــدَىٰ هُـــدَاكَ وَآيَـــا تُـكَ نُـورٌ تَهْـدِي بِهَـا مَـنْ تَشَـاءُ

(رب إن الهدىٰ) أي : اتباع الحق ليس إلا (هداك) أي : ليس إلا بتوفيقك وهدايتك كما قلت في كتابك : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ ، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ ، (و) إن (آياتك) التي أقمتها دالة على صدق أنبيائك ، ويصح رفعه ، فعلى الأول كل من الجملتين مؤكد لما قبلهما ، وعلى الثاني هي مؤكدة أيضاً ، لٰكن فيها شبه اعتراض ، بناء على جواز وقوعه بعد تمام الكلام (نور) كما قلت : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾ .

(تهدي بها من تشاء) هدايتَه ، وتضل عنها من تشاء غوايته ، ففي كلامه اقتباس من الآيتين المذكورتين كما أشرت إليه، وإيماء إلى أن الآيات لا تنفع مع سبق الشقاوة.

ولما قرر أن الهدى هدى الله ، وأنه يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وأن الآيات وحدها لا تجدي شيئاً . . ذكر ما يستغرب من ذلك ويقربه ، وهو أن غير العاقل قد يلهم كثيراً مما يحرمه العاقل ، فقال :

(61)

كَـمْ رَأَيْنَـا مَـا لَيْـسَ يَعْقِـلُ قَـدْ أُلْـ ـهِـمَ مَـا لَيْـسَ يُلْهَـمُ ٱلْعُقَـلَاءُ

(كم) مرة ؛ أي : مراراً كثيرة ، فهي خبرية ، ويجوز حذف مميزها كما فعله الناظم ، فإن ذكر . . جر بإضافتها إليه عند البصريين ، وجوز بنو تميم نصبه ، وإفراده أكثر وأفصح من جمعه ، فإن فصل . . نصب حملاً على كم الاستفهامية (رأينا) أي :

علمنا وأبصرنا نظير ما مر ، واستعمال المشترك في معنييه واللفظ في حقيقته ومجازه . . جائز ، وعلى منعه الذي ذهب إليه الأكثرون . . هو من عموم المجاز (ما) أي : شخصاً (ليس يعقل) أصلاً كالحيوان والجماد (قد ألهم) من المصالح ، وهـٰذه الجملة في موضع ثاني مفعولي (رأىٰ) (ما) أي : كثيراً (ليس يلهم العقلاء) .

(62)

إِذْ أَبَى ٱلْفِيلُ مَا أَتَىٰ صَاحِبُ ٱلْفِيـ ـلِ وَلَـمْ يَنْفَـعِ ٱلْحِجَـا وَٱلـذَّكَـاءُ

(إذ) ظرف أو علة لـ (رأى) (أبىٰ) أي : امتنع (الفيل) المذكور في الآية من أن يفعل (ما أتىٰ) أي : عزم عليه (صاحب الفيل) وهو أبرهة ملك صنعاء ، وهو دخوله الحرم لهدم الكعبة ، وبين (أبىٰ) و(أتىٰ) الجناس المصحف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

(ولم ينفع الحجا) أي : العقل الوافر (والذكاء) اللذان اتصف بهما ، فلم يوفق لما وفق له الفيل مع وضوح فرقان ما بينهما في الذكاء والعقل ، فعلم أن الهداية والضلال ليسا إلا بتوفيق الله تعالىٰ وهدايته أو خذلانه وعدم رعايته .

وبسط هـٰذه القصة : أن أبرهة ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء ، وكتب إلى النجاشي : قد بنيت لك كنيسة بصنعاء ، وأريد أن أصرف حج العرب إليها ، فجاء رجل من بني كنانة فأحدث فيها ، فسمع بذلك فغضب وحلف ليسيرن إلى كعبة العرب ويهدمها ، فأمر الحبشة فتهيأت ، ثم سار وخرج معه فيل واحد يسمى محموداً ، وقيل : أكثر ، فخرج عليه ملوك فقهرهم وأسرهم إلى أن قرب من المُغَمَّس عند عرفة ، فبلغ ذلك عبد المطلب فقال : يا معشر قريش ؛ لا يصل لهدم البيت ، إن له ربّاً يحميه ، ثم أرسل أبرهة خيلاً فاستاقت إبل قريش وغيرهم ، ولعبد المطلب فيها أربع مئة ناقة ، فركب في قريش حتى بلغ جبل ثبير ، فاستدارت دائرة غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبينه كالهلال ، واشتد شعاعها على الكعبة مثل السراج ، فقال : ارجعوا فقد كفيتم ، فوالله ما استدار هـٰذا النور مني إلا أن يكون الظفر لنا ، فرجعوا ، ثم أرسل أبرهة رجلاً لسيدهم ـ وهو عبد المطلب ـ ليخبره أنه لا حاجة له بدمائهم ، وإنما غرضه تخريب الكعبة ، فإن مكنتموني . . نجوتم ،

فقال له عبد المطلب : لا طاقة لنا بحربه ، والبيت بيت الله ، فإن منعه . . فهو بيته ، ثم جاء إليه فأكرمه وأجله ، ونزل عن سريره وجلس معه على بساطه ثم قال له : ما حاجتك ؟ قال : أن ترد علي إبلي ، فقال له : كنت أعجبتني ثم زهدت فيك ، تكلمني في إبلك دون بيت هو دينك ودين آبائك ؟! فقال له : أما الإبل . . فأنا ربها ، وأما البيت . . فله رب يحميه ، فرد إليه إبله ، فرجع فأخبرهم فتحرزوا في شَعَف الجبال والشعاب ، ثم أخذ عبد المطلب ومعه نفر من قريش بحلقة باب الكعبة ودعوا واستنصروا .

وفي رواية : أن رسول أبرهة لما دخل مكة ورأى وجه عبد المطلب . . خضع وتلجلج لسانه وخر مغشياً عليه ، وخار كما يخور الثور عند ذبحه ، فلما أفاق . . خر ساجداً لعبد المطلب وقال : أشهد أنك سيد قريش حقّاً[1] .

وروي أن عبد المطلب لما ذهب لأبرهة . . أحضر فيله الأبيض العظيم ، فلما رأى عبد المطلب . . خر ساجداً وقال : السلام على النور الذي في ظهرك يا عبد المطلب[2] .

تنبيه : مر آنفاً أمران لا يخلوان عن إشكال ، وهما النور الذي في جبهة عبد المطلب والذي في صلبه ، وأن ذلك نور محمد صلى الله عليه وسلم مع أن الأشهر أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت بعد الفيل بخمسين يوماً ، فكل ذلك جرى وهو صلى الله عليه وسلم حمل قريب وضعه ، وسبب إشكال هـٰذين ما علم مما مر أن نوره صلى الله عليه وسلم كان ينتقل في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات بحسب ترتيبهم في الوجود ، فإذا وجد واحد . . انتقل إليه ما كان في الذي قبله . . . وهـٰكذا ، وقضية هـٰذا المعلوم المستقر أن النور كله انتقل إلى آمنة ولم يبق منه شيء في عبد الله فضلاً عن عبد المطلب ، ويؤيد هـٰذا ما مر في الكاهنة التي شاهدت ذلك النور في عبد الله فبذلت له مالاً عظيماً ليتزوجها فينتقل النور إليها فتراخى في إجابتها ، ثم ذهب فواقع آمنة فحملت فانتقل النور إليها ، ثم جاء لتلك فأبت ، فقال : لمَ ؟ فقالت : لأن النور الذي كنت أشاهده فيك انتقل لغيرك ، فعلم انتقاله لآمنة ، وقد يجاب عن ذلك بأن النور وإن

---

(١) ذكر ذلك العلامة الحلبي في « السيرة الحلبية » (١/ ٥٩) .

(٢) ذكره في « السيرة الحلبية » (١/ ٦٠) .

انتقل كما ذكر لكن الله سبحانه أكرم عبد المطلب فأحدث فيه ـ كما يدل على ذلك سياق القصة حين احتاج إلى كرامة عظيمة تخلصه وماله من ذلك الملك وجنده الذين طغوا في العتو والجراءة على الله تعالىٰ وعلى بيته الذي أجمع الأمم من لدن إبراهيم على صيانته وتعظيمه وأنه لا يحاكى ولا يغالب ـ نوراً يحاكي ذلك النور الذي استقر في آمنة[1] ، بل مع زيادة حتى صار في جبهته كالشمس .

ثم أكرمه ثانياً بنور آخر أوجده في صلبه واطلع الفيل عليه فسجد ؛ ليعلم الخلق بهاتين الكرامتين أن جميع ما وقع في قصة الفيل إنما هو من كمالات الإرهاص ؛ لتحقيق نبوة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده مع الإشارة إلى أنه سيظهر دينه على الأديان كلها ، وأنه لا يناوئه أحد إلا أهلكه الله واستأصل أتباعه حتى لا يبقى منهم أحد إلا الشاذ ليخبر الناس على الكيفية التي أخذهم الله بها ، وإلى أن ربه سبحانه وتعالىٰ سيعطيه من خوارق المعجزات وباهر الآيات ما لم يعطه لنبي مرسل ولا ملك مقرب ؛ لأن هـٰذا الأمر الباهر إذا وقع لأجله وهو حمل لم يبرز في الوجود . . فما بالك بما سيقع له بعد وجوده ؟! ثم في تنويع كرامة عبد المطلب لكون أحد ذينك الباهرين ظهر للناس وشاهدوه ، والثاني بطن فيه ولم يطلع عليه إلا الفيل فسجد له . . الإشارةُ الباهرة أيضاً إلى أن الله سبحانه وتعالى سيظهر آيات ذلك الحمل وكراماته إلى حد لا يمكن أن يخفى عليه من ذلك شيء ، وإلى أنه سيطلعه على حقائق علومه الباطنة ما أنبأه عنه صلى الله عليه وسلم بعدُ في قوله في الحديث المشهور : « فَعُلِّمْتُ عِلْمَ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ » وإلى أن تلك العلوم الباطنة يُطلع الله على بعضها خلفاءه ووارثيه ؛ ليتم لهم حقائق الخلافة وغايات الوراثة ، والحاصل : أنه صلى الله عليه وسلم كان له مقامان باهران : ظاهر في العالم كالشمس ، وباطن يوجب خضوع سائر الأرواح الكاملة من البشر وغيرهم بين يديه واستمدادهم منه وأنه الممد لسائر الكمل من لدن وجودهم إلى ما لا غاية له ولا انقضاء .

ولما أصبح أبرهة بالمغمس وهيأ فيله وجنوده لدخول مكة . . برك الفيل في محله بناء على الأصح : أنهم لم يدخلوا الحرم ، وقيل : دخلوه وإنما برك لما وصل إلى وادي مُحَسِّر ، ولذلك سمي بذلك ؛ لأن فيلهم حسر ـ أي : أعيى فيه ـ فضربوه في

(١) قوله : (نوراً) هو مفعول قوله : (فأحدث) .

رأسه ومراقِّ بدنه حتى بالحديد فأبىٰ ، فوجهوه نحو اليمن فقام ، ثم نحو الشام فمشىٰ ، ثم نحو المشرق فمشى ، ثم نحو الكعبة فأبى .

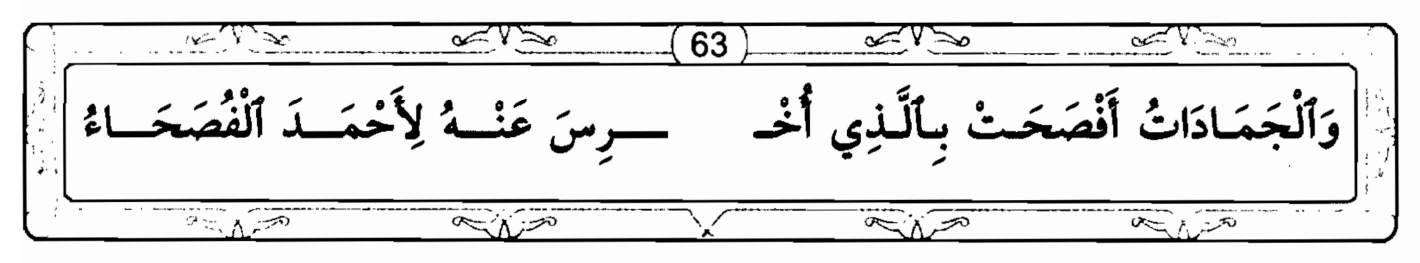
فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل كأمثال الخطاطيف من البحر ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه كأمثال العدس ، لا تصيب أحداً منهم إلا قتلته ، فخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق ، وأصيب أبرهة في جسده به ، فتساقطت أنامله أنملة أنملة حتى وصل صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، وسال منه الصديد والقيح والدم ، وما مات حتى تصدع قلبه .

وقد ذكر الله تعالىٰ هـٰذه القصة في (سورة الفيل) وافتتحها بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أنها قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم ، بل قبل ولادته ؛ إشارة إلى أن المراد من الرؤية العلم والتذكر ، وأن الخبر بذلك متواتر ، فكان العلم بذلك ضرورياً مساوياً للعلم الحاصل بالرؤية البصرية .

وقد دلت هـٰذه القصة على غاية شرف نبينا صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت إرهاصاً وتأسيساً لنبوته ، ويجوز تقديم المعجزة على زمن النبوة تأسيساً كما مر في تظليل الغمام والشجر والملكين ، بل جاء : أن الشجر والحجارة قريب مبعثه صلى الله عليه وسلم كان لا يمر منها بشيء إلا سلم عليه سلاماً يسمعه بأذنيه(١) ، وعلى شرف قومه وحماية الله لهم ، ولذا دانت العرب لشرفهم ؛ لعلمهم بأن أبرهة لا قدرة للعرب بأسرهم على قتاله ، فإذا تولى الله نصرتهم عليه . . دل ذلك على عظيم اعتناء الله بهم .

ولفقد معنى الإرهاص بعد مجيء النبوة وثبوتها بالدلائل القطعية أملي للحجاج ـ قبحه الله ـ حتى خرب الكعبة ولم يعاقب بشيء .

ولما ذكر ما يتعلق بإلهام الحيوان بذكر قصة الفيل . . ذكر ما يتعلق بإلهام الجماد فقال :



(63)

وَالْجَمَادَاتُ أَفْصَحَتْ بِالَّذِي أُخْـ ـرِسَ عَنْهُ لِأَحْمَدَ الْفُصَحَاءُ

(والجمادات) وهي : ما لا روح فيه (أفصحت) أي : أظهرت ونطقت بكلام

---

(١) نقله ابن هشام في « السيرة » (١ / ٢٣٤) عن ابن إسحاق ، وسيورد الشارح بعد قليل نحوه .

مبين فصيح لا تلعثم فيه ، قيل : يخلقه الله فيها حينئذ من غير حياة : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، وقيل : بل يخلق الله فيها حياة ولساناً وإدراكاً فتنطق مختارة عارفة بما تنطق به ، ويدل لهذا ما يأتي في حنين الجذع وأنينه ، فإن ذلك يدل على أن الله تعالى خلق فيه الحياة والعقل والشوق حتى حنَّ وأنَّ ، ولا يعارضه : أن مذهب الأشعري : أن خلق الصوت في محل لا يستلزم خلق الحياة والعقل فيه ؛ لأنا لم نأخذ الحياة من تصويته ، بل من إطلاق الصحابة عليه أنه حنَّ وأنَّ ، ومذهب الأشعري : أن الذكر المعنوي والكلام النفسي يستلزمان الحياة استلزام العلم لها ، ولذا عامله صلى الله عليه وسلم معاملة الحي فالتزمه كما يلتزم الغائب أهله .

(بـ) الشهادة بالإنباء والإرسال (الذي أخرس عنه لأحمد) متعلق بـ(أفصحت) (الفصحاء) نائب فاعل (أخرس) وفيه الطباق ؛ أي : أن العرب قريشاً وغيرهم مع كونهم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة امتنعت ألسنتهم من النطق له صلى الله عليه وسلم بالإيمان به والشهادة له بالرسالة إليهم ، وشهد له بذلك الجمادات الصم بأفصح لسان وأبلغ بيان .

فمن ذلك : تسبيح الحصى في يده ، ثم في يد أبي بكر ، ثم في يد عمر رضي الله عنهما ، يسمع تسبيحهن من في الحلقة ، رواه جماعة وهو مشهور لكن في سنده ضعف[1] .

وصح عن ابن مسعود رضي الله عنه : كنا نأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيح الطعام[2] ، وفي سماعهم لذلك غاية الكرامة لهم .

وصح أيضاً : « إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ ٱلآنَ »[3] قيل : هو الحجر الأسود ، وقيل : البارز بزقاق المرفق ؛ لأنه كان بممره صلى الله عليه وسلم من دار خديجة إلى المسجد ، وعليه أهل مكة سلفاً وخلفاً .

وصح عن علي كرم الله وجهه : كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ،

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخه » (٣٩/ ١٢٠) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٧٩) ، وابن خزيمة (٢٠٤) ، والترمذي (٣٦٣٣) ، وأحمد (١/ ٣٦٠) ، وأبو يعلى (٥٣٧٢) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٧) ، وابن حبان (٦٤٨٢) ، وأحمد (٥/ ٩٥) ، وغيرهم .

فخرجنا في بعض نواحي مكة ، فما استقبلنا شجر ولا حجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله[1] .

وروى البزار وأبو نعيم : « لَمَّا ٱسْتَقْبَلَنِي جِبْرِيلُ بِٱلرِّسَالَةِ . . جَعَلْتُ لاَ أَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلاَ شَجَرٍ إِلاَّ قَالَ : ٱلسَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ » .

وروى البيهقي وابن ماجه : أنه صلى الله عليه وسلم غطى العباس وبنيه بملاءته فقال : « يَا رَبِّ ؛ هَـٰذَا عَمِّي وَصِنْوُ أَبِي ، وَهَـٰؤُلاَءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَٱسْتُرْهُمْ مِنَ ٱلنَّارِ كَسَتْرِي إِيَّاهُمْ بِمُلاَءَتِي هَـٰذِهِ » فقالت أُسكُفَّة الباب وحوائط البيت : آمين آمين آمين[2] .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم كان هو وأبو بكر وعمر وعثمان على أحد ـ وصح أيضاً على حراء ـ فتحرك فقال : « ٱثْبُتْ ـ وضربه برجله ـ فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ »[3] .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم طلب من رجل الإيمان ، فقال له : هل من شاهد ؟ فقال : « هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ » فدعاها صلى الله عليه وسلم وهي على شاطىء الوادي فأقبلت تخدُّ الأرض خدّاً ـ أي : تشقها شقّاً ـ فقامت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً ، فشهدت ثم رجعت إلى منبتها[4] .

وفي رواية : « قُلْ لِتِلْكَ ٱلشَّجَرَةِ : رَسُولُ ٱللهِ يَدْعُوكِ » فمالت عن يمينها وشمالها ومن بين يديها ومن خلفها ، فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يديه فقالت : السلام عليك يا رسول الله ، قال الأعرابي : مرها فلترجع إلى منبتها ، فرجعت فدلت عروقها في ذلك الموضع فاستقرت ، فقال الأعرابي : ائذن لي أن أسجد لك ، فقال : « لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ . . لأَمَرْتُ ٱلْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا » وصح : أن أعرابيّاً قال له : بم أعرف أنك رسول الله ؟ قال : « بِأَنْ أَدْعُوَ هَـٰذَا ٱلْعِذْقَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلنَّخْلَةِ يَشْهَدُ بِأَنِّي رَسُولُ ٱللهِ »

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٢٦) ، والدارمي (٢١) .

(٢) دلائل النبوة (٦/ ٧١) ، وأُسكُفَّة الباب : خشبته التي يوطأ عليها .

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٩٩) ، وابن حبان (٦٤٩٢) ، وأبو داوود (٤٦١٩) ، والترمذي (٣٦٣٠) ، وأحمد (٣/ ١١٢) .

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٥٠٥) ، والدارمي (١٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٣٣٠) .

فدعاه فسقط إليه ، ثم قال : « ٱرْجِعْ » فعاد ، فأسلم الأعرابي .

تنبيه : علم من كلام الناظم علىٰ مولده صلى الله عليه وسلم وما بعده : أن من دلائل نبوته ما وجد في كتب الله من نعته وخروجه بأرض العرب ، وما ظهر بين يدي مولده ومبعثه من العجائب المبطلة لسلطان الكفر والمنوهة بشرف العرب ، كقصة الفيل وما حل بأصحابه ، وخمود نار فارس وما ذكر معها ، وما سمع من الهواتف الصارخة بأوصافه صلى الله عليه وسلم ، وانتكاس الأصنام المعبودة على وجوهها من محالها فيه من غير فعل فاعل مع شدة ثباتها وإحكامها ، وما سبق بعضه من العجائب التي ظهرت أيام رضاعه وبعده إلى بعثته واتباع الخلق له ، مع أنه لم يكن له مال يطمع فيه ولا قوة يقهر بها الرجال مع ما كانوا عليه من محبة الأصنام والمبالغة في الحمية لها بالمقاتلة وشن الغارات ، لا يجمعهم ألفة دين ، ولا يمنعهم عن سوء أفعالهم النظر في عاقبة ولا خوف لائمة ، فألف صلى الله عليه وسلم بين قلوبهم ، وجمع كلمتهم حتى اتفقت الآراء ، واجتمعت القلوب ، فصاروا يداً واحدة على من سواهم ، وهجروا أوطانهم وأهاليهم في محبته ، وبذلوا مهجهم لنصرته ، ونصبوا وجوههم لوقع السيوف في إعزاز كلمته بلا دنيا أفاضها عليهم في العاجل ، ولا عز في الآجل أطمعهم في نيله يتحرونه ، بل كان صلى الله عليه وسلم من شأنه أن يجعل الغني فقيراً ، والشريف أسوة الوضيع ، فهل يلتئم مثل هٰذه الأمور من قِبَل اختيار عقلي أو تدبير فكري ؟! لا والذي بعثه بالحق نبيّاً إنما ذلك أمر إلهي وتأييد سماوي تعجز عن بلوغه قوى البشر ، ولا يقدر عليه إلا من له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وبهٰذا الذي ذكرته يتضح تعقيب الناظم لما مر بقوله :

(64)

وَيْـحَ قَـوْمٍ جَفَـوْا نَبِيّـاً بِـأَرْضٍ ... أَلِفَتْـــهُ ضِبَـــابُهَـــا وَٱلظِّبَـــاءُ

(وَيح) منصوب بفعل محذوف ، أو بحرف النداء ؛ أي : يا ويح ، على حد : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي : احضري هٰذا وقتك ، كذا قيل ، والذي صرح به الأئمة : أنه حيث كان المصدر بدلاً من اللفظ بفعله . . وجب نصبه وحذف عامله .

نعم ؛ بعض تلك المصادر يجوز رفعه كـ(ويح) ، فقد قالوا : ومما استعمل مفرداً ومضافاً قولهم : ويح فلان وويحاً له ، قال ابن طاهر : متى أضفت (ويح) . . وجب النصب وامتنع الرفع ؛ لأنه مبتدأ لا خبر له ، ومتى أفردته . . جاز كل منهما ، وكذا (ويل) والنصب فيه غير قوي ؛ لأنه مصدر لا فعل له ، بخلاف نحو : حمداً وشكراً ، ومن ثم غلب على (ويح) الرفع ، بل قال ابن أبي الربيع : يجب رفعه دون (ويل) .

نعم ؛ إن عطف (ويح) على (تبَّ) . . تعين نصبه ، ومنع المازني عطف (ويح) على (تبَّ) وعكسه ؛ لتناقض معناهما ، ورد بأن (ويح) أخرج مخرج الدعاء وليس معناه الدعاء ، وتبّاً تستعمل ، كقاتله الله ما أشعره ، فعلم أن (ويح) و(ويل) ونحوهما متى نصب . . فإنما هو بعامله المحذوف وجوباً ، وأنه لا دخل للنداء هنا .

واعلم : أنهم اتفقوا على أن (ويح) كلمة ترحم تقال لمن وقع في مهلكة لا يستحقها ، و(ويل) كلمة عذاب ، وقيل : هما بمعنىً ، وعلى الأول فقد يستشكل إتيان الناظم بها في هـٰذا المحل ؛ لأن الجافين له صلى الله عليه وسلم يستحقون الهلاك الدائم ، وقد يجاب : بأن كثيراً منهم أسلم بعد ذلك ، فالترحم لهم باعتبار ما آل إليه حالهم ، ويرد بأنهم بهـٰذا الاعتبار لا يقال فيهم : ويح ؛ لأنهم لم يقعوا في هلاك أصلاً ، فالأحسن : الجواب بأن الترحم من حيث النظر إلى القرابة التي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم من عمود نسبه وجلدته ، والترحم لهم من هـٰذه الحيثية لا محظور فيه .

(**قوم جفوا نبيّاً**) بلغ من مراتب الجلالة والتعظيم ما لم يبلغه نبي ؛ أي : أبغضوه وآذوه الإيذاء البالغ ، بل قصدوا قتله كما مر آنفاً مبسوطاً (**بأرض ألفته ضبابها**) جمع ضب ، وحديثه مشهور على الألسنة ، ورواه البيهقي في أحاديث كثيرة ، لـٰكنه حديث غريب ضعيف ، قال المزني : لا يصح إسناداً ولا متناً ، وهو : أن أعرابيّاً اصطاد ضبّاً ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم . . طرحه بين يديه وقال : لا أؤمن بك حتى يؤمن بك هـٰذا ، فقال : « يَا ضَبُّ » قال : لبيك وسعديك ، قال : « مَنْ تَعْبُدُ ؟ » قال : الذي في السماء عرشه ، وكلمات أخر ، قال : « مَنْ أَنَا ؟ » قال : رسول رب العالمين ، فأسلم الأعرابي . . . الحديث بطوله ، قيل : وهو موضوع ، ورد بأن نهايته

الضعف لا الوضع ، وفي معجزاته صلى الله عليه وسلم ما هو أبلغ من هٰذا .

(والظباء) جمع ظبي ، وروى حديثه من طرق البيهقي وأبو نعيم والطبراني[١] ، وساق الحافظ المنذري حديثه في « الترغيب والترهيب »[٢] لٰكن ضعفه الأئمة ، بل قال الحافظ ابن كثير : (لا أصل له ، ومن نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . فقد كذب) ورد بأنه ورد في الجملة في عدة أحاديث يتقوى بعضها ببعض ، بل بالغ بعض المحققين فزعم أنه حديث صحيح ، قال التاج السبكي : (وهو وإن لم يتواتر اليوم فلعله استغني عنه بغيره ، أو لعله تواتر إذ ذاك) وهو : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحراء إذا هاتف يهتف : يا رسول الله ـ ثلاث مرات ـ فالتفت فإذا ظبية مشدودة في وثاق وأعرابي نائم عندها ، فقال : « مَا حَاجَتُكِ ؟ » قالت : صادني هٰذا الأعرابي ولي خِشفانِ في ذلك الجبل ، فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع ، قال : « وَتَفْعَلِينَ ؟ » قالت : عذبني الله عذاب العشار ـ أي : المكاس ـ إن لم أعد ، فأطلقها فذهبت ورجعت فأوثقها صلى الله عليه وسلم ، فانتبه الأعرابي فقال : يا رسول الله ؛ ألك حاجة ؟ قال : « تُطْلِقُ هَـٰذِهِ ٱلظَّبْيَةَ » فأطلقها ، فخرجت تعدو في الصحراء فرحاً وهي تضرب برجلها الأرض وتقول : أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله .

ولم يرد الناظم الحصر في هٰذين ، فقد صح : أن الذئب ألفه وأخبر بنبوته صلى الله عليه وسلم كما جاء من طرق ، منها طريقان صحيحان ، حاصلهما : أنه أخذ شاة فانتزعها الراعي منه ، فقال : ألا تتقي الله ؟! تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي ؟! فتعجب الراعي من كلامه له ، فقال له الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق ، وفي رواية صحيحة : بما مضى وما هو كائن ، فأتى الراعي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فأمر أن ينادىٰ : الصلاة جامعة ، ثم أمر الراعي فأخبرهم[٣] .

---

(١) المعجم الأوسط (٦/ ٢٥٥) .

(٢) الترغيب والترهيب (١/ ٦١٧) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٦٤٩٤) ، وأحمد (٣/ ٨٣) ، والحاكم (٤/ ٤٦٧) ، وأبو نعيم في « الدلائل » (٢/ ٤٨٢) .

وفي رواية عن سعيد بن منصور في « سننه » : أن الذئب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هٰذا وافد الذئاب ، جاء يسألكم أن تجعلوا له شيئاً من أموالكم ، قالوا : والله لا نفعل ، وأخذ رجل من القوم حجراً رماه به ، فأدبر الذئب وله عواء ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ٱلذِّئْبُ ، وَمَا ٱلذِّئْبُ ؟ » .

وكلمه صلى الله عليه وسلم الحمار أيضاً على ما روي في حديث طويل ، لٰكن قال ابن الجوزي : (إنه موضوع) .

وكلمه صلى الله عليه وسلم أيضاً الجمل ، كما جاء في عدة طرق بعضها سنده جيد وبعضها سنده صحيح ، وحاصلها : أن جماعة من الأنصار شكوا إليه صلى الله عليه وسلم جملهم ، وأنه امتنع من العمل حتى عطش النخل والزرع ، فقال لأصحابه : « قُومُوا » فقاموا ، ودخل الحائط فمشى إليه ، فقالوا : يا رسول الله ؛ إنه جبار ، وإنه صار كالكَلْب الكَلِب ، فقال : « لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ » فلما نظر الجمل إليه . . أقبل نحوه حتى خر ساجداً بين يديه ، فأخذ بناصيته أذلَّ ما كان قط حتى أدخله في العمل . . . الحديث[1] .

وفي رواية صحيحة : أنه صلى الله عليه وسلم دخل حائطاً فرآه جمل فحن إليه وذرفت عيناه ، فمسح قريب رأسه من قفاه ، ثم قال لربه : « أَلاَ تَـتَّقِي ٱللهَ فِي هَـٰذِهِ ٱلْبَهِيمَةِ ٱلَّتِي مَلَّكَكَ ٱللهُ إِيَّاهَا ؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ »[2] أي : تتعبه .

وجاء بسند ضعيف : أن غنماً سجدت له صلى الله عليه وسلم[3] .

(65)

وَسَلَـوْهُ وَحَـنَّ جِـذْعٌ إِلَيْـهِ ... وَقَلَـوْهُ وَوَدَّهُ ٱلْغُـرَبَـاءُ

(وسلوه) أي : نفرت قلوبهم عنه حتى هجروه مع نشأته فيهم وعلمهم بغاية نزاهته ونهاية كماله (و) الحال أنه قد (حن جذع إليه) كما جاء من طرق كثيرة صحيحة

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٨) .

(٢) أخرجه أبو داوود (٢٣٧) ، وأحمد (١/ ٢٠٤) ، وأبو يعلى (٦٧٨٧) ، والحاكم (٢/ ٩٩) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الدلائل » (٢/ ٤٩٠) .

وغيرها يفيد مجموعها التواتر المعنوي الموجب لتيقن وقوع ذلك والقطع به ، وعلى التواتر المعنوي يحمل قول التاج السبكي : (الصحيح عندي : أن حنينه متواتر) وسبقه لذلك عياض ، وحاصلها : أنه صلى الله عليه وسلم قبل أن يعمل له المنبر كان يخطب مستنداً إلى جذع نخل من الجذوع المسقوف عليها المسجد ، فلما صنع له المنبر ثلاث درجات . . وضعه موضعه الآن بمسجده ، ثم تخطى الجذع يوم الجمعة ليخطب على المنبر ، فصاح الجذع حتى سمعه جميع من في المسجد[١] .

وفي رواية : أنه خار كخوار الثور حتى ارتج المسجد لخواره[٢] .

وفي أخرى : خار حتى تصدع وانشق[٣] .

وفي أخرى : فجعل يئن أنين الصبي[٤] .

وفي أخرى : حن حنين الناقة التي انتزع ولدها[٥] .

فنزل إليه صلى الله عليه وسلم وضمه إليه رحمة له حتى سكن ، وفي رواية : فمسح بيده ، ولعله فعل به الأمرين[٦] .

وفي أخرى : « إِنَّ هَـٰذَا بَكَى لِمَا فَقَدَ مِنَ ٱلذِّكْرِ عِنْدَهُ »[٧] .

وفي أخرى : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ . . لَمْ يَزَلْ يُصَوِّتُ هَكَذَا إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ »[٨] تحزناً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهـٰذا من أكبر معجزاته صلى الله عليه وسلم ، بل أشار الشافعي رضي الله عنه إلى أنه أبدع من إحياء عيسى عليه السلام للموتى ؛ لأنهم عهدت لهم حياة رجعت إليهم بخلاف هـٰذا .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٨٣) ، وابن حبان (٦٥٠٦) ، والترمذي (٥٠٥) ، وأحمد (٣/ ١١٣) ، والبيهقي في « السنن » (٣/ ١٩٥) ، والدارمي (٣١) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه الدارمي (٤٢) .

(٣) أخرجه الدارمي (٣٦) .

(٤) أخرجه البخاري (١٩٥٣) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٣) .

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٣) ، والدارمي (٣٥) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٤) .

(٦) رواية : (فمسح بيده) عند الدارمي (٣١) ، ورواية : (ضمه) عنده أيضاً (٣٩) .

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٠) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٣) .

(٨) أخرجه الضياء في « الأحاديث المختارة » (١٥١٩) .

وفي رواية عند الدارمي : أنه صلى الله عليه وسلم خيره بين أن يعيده إلى مغرسه فيثمر كما كان ، أو أن يغرسه في الجنة يأكل أولياء الله من ثمره ، ثم أصغى إليه فقال : أختار دار البقاء على دار الفناء ، وأمر به فدفن[1] .

ومر في شرح قوله : (والجمادات أفصحت. . .) إلخ ما له تعلق بذلك .

(وقلوه) أي : أبغضوه (و) الحال أنه قد (وده) أي : أحبه ، وبين (السلو) و(الحنو) و(القليٰ) و(الود) الطباق ، كما هو بين (الإخراج) و(الإيواء) الآتيين ، وكأن المراد في الأولين : أن السلو يدل على سبق المحبة والألفة ، والحنو يدل على البغضاء والإيذاء كما مر .

(الغرباء) الذين هم ليسوا من عشيرته ولا من قومه ، ولا عرفوا ما عرفته قريش من كماله الأعظم ، كالأنصار الأوس والخزرج ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم خرج في الموسم الذي لقيهم فيه يعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل موسم ، فلقي بعض الخزرج عند العقبة ، فقال : « مَنْ أَنتُمْ ؟ » فقالوا : من الخزرج ، قال : « أَفَلاَ تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ ؟ » فجلسوا ، فدعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، وكان عندهم علم منه ، فعرفوا نعته ؛ لأن يهود المدينة كانوا يقولون لهم : إن نبيّاً يبعث الآن نتبعه ونقتلكم معه ، فأجابوه لئلا تسبقهم اليهود إليه ، وأسلم منهم ستة نفر ، فقال لهم : « تَمْنَعُونَ ظَهْرِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي » فقالوا : ندعو قومنا إلى ما دعوتنا إليه ، فإن أجابوا. . فلا أحد أعز منك ، وموعدك الموسم العام القابل ، فلما وصلوا المدينة. . لم تبق دار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلقيه في العام القابل اثنا عشر ، خمسة من الستة ، والبقية من الخزرج أيضاً إلا رجلين فمن الأوس ، وهـٰذه هي العقبة الثانية ، فأسلموا وقبلوا ما اشترطه عليهم ، ثم رجعوا فأظهر الله الإسلام فيهم ، فكان أسعد بن زرارة يجتمع بالمدينة بمن أسلم ، ثم أرسلوا يطلبون من يعلمهم القرآن ، فأرسل إليهم مصعب بن عمير ، فأسلم على يديه جمع كثير ، منهم سيد الأوس سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حضير ، وأسلم بإسلامهم جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد رجالهم ونساؤهم إلا واحداً فيوم أحد أسلم ، ولم

---

(١) مسند الدارمي (٣٢) .

يكن فيهم ـ أعني بني عبد الأشهل ـ منافق ولا منافقة ، ثم قدم في العام القابل في الموسم نحو سبعين رجلاً ، وهي العقبة الثالثة ، فبايعهم على أنهم يمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وعلى حرب الأحمر والأسود[1] .

وصح عن جابر : مكث صلى الله عليه وسلم عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في المواسم بمنىً وغيرها يقول : « مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ ٱلْجَنَّةُ ؟ » حتى بعث الله له من يثرب ، وذكر الحديث ، وفيه : « عَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ يَثْرِبَ ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمُ ٱلْجَنَّةُ »[2] .

وحضر العباس رضي الله عنه هـٰذه المبايعة ، فأكد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم من بقي معه بالهجرة إلى المدينة ، فخرجوا أرسالاً ، وأقام ينتظر الإذن له في الهجرة ، واستأذنه أبو بكر رضي الله عنه ، فقال : « لاَ تَفْعَلْ ، لَعَلَّ ٱللهَ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ صَاحِباً »[3] فتطمَّع أبو بكر في أن يهاجر معه صلى الله عليه وسلم .

ولما بلغهم أنه بويع وأمر من معه أن يلحق بالمدينة وأنه ظهر أمره بها . . اشتوروا بدار الندوة ، ثم أجمعوا أن يحبسوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، فاعترضهم إبليس في صورة رجل جميل ، وأظهر لهم أنه يريد نصحهم ، وأمرهم أن يعرضوا عليه آراءهم ليختار أنفعها لهم ، فقيل : نحبسه ، فقال : قد ينتزع منكم ، فقيل : نخرجه ، فقال : يأتيكم بما لا طاقة لكم به ، فقال أبو جهل : أرى أن تأخذوا من كل قبيلة غلاماً قويّاً ، ثم تعطوهم شِفاراً فيضربه كلٌّ ضربة فيتفرق دمه في القبائل ، فلم يقدر أهله على حرب قومهم فيأخذوا ديته ، فقال إبليس : لله درك! هـٰذا هو الرأي ، فأجمعوا عليه ، فأتاه جبريل فقال : لا تبت الليلة في فراشك ، فاجتمعوا في الليل ببابه يرصدونه لينام

---

(١) انظر تفصيل ذلك في « سيرة ابن هشام » (١/٤٢٨) وما بعدها ، و« طبقات ابن سعد » (١/٢١٩) وما بعدها .

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٧٤) ، وأحمد (٣/٣٣٩) ، والحاكم (٢/٦٢٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٨/١٤٦) .

(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٤٨٠) ، و« تاريخ الطبري » (٢/٣٦٩) ، و« عيون الأثر » (١/٢١٤) ، وأخرج الحاكم نحوه (٢/٤٣٥) .

فيثبوا عليه ، فأمر علياً رضي الله عنه بأن ينام مكانه ، ثم خرج عليهم فلم يبق أحد منهم إلا أخذ الله على بصره فلم يره ، ونثر على رأس كل واحد منهم تراباً كان في يده وهو يتلو : ﴿يسٓ﴾ إلى : ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾[١] .

وصح : أنه ما أصاب أحداً منهم تراب إلا قتل كافراً ، ثم أعلموا بخيبتهم ، فوضع كل منهم يده على رأسه فوجد التراب ، وفي هـٰذا نزل قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ . . .﴾ الآية .

ثم أذن الله لنبيه في الهجرة كما قال :

66

أَخْـــرَجُـــوهُ مِنْهَـــا وَآوَاهُ غَـــارٌ وَحَمَتْـــهُ حَمَـــامَـــةٌ وَرْقَـــاءُ

(أخرجوه) بدل من (جفوه)[٢] (سها) أي : كانوا السبب في خروجه من تلك الأرض التي هي مولده ومرباه ووطنه ووطن آبائه وأحب أرض الله إلى الله وإلى رسوله ، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ كُرْهاً . . مَا خَرَجْتُ »[٣] .

وبقولي : (كانوا السبب . .) إلخ . . اندفع ما يقال : هو لم يخرج منها إلا بإذن ، فهو السبب فقط ، ووجه اندفاعه : أن تسببهم في خروجه بمبالغتهم في إيذائه وإيذاء أصحابه لا سيما ضعفاؤهم . . هو الحامل على انتظاره الإذن له في الخروج مدة حتى وجد ، فتسببهم سبب للاستئذان ووقوع الإذن ، فإسناد الإخراج إليهم لذلك أظهر منه للإذن ؛ تعويلاً على أسبق السببين ، مع كون الأول سبباً للثاني أيضاً كما تقرر ، وكان ذلك بعد العقبة الثالثة بنحو ثلاثة أشهر يوم الإثنين هلال ربيع الأول ، أو الخميس الذي

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٨٠) وما بعدها ، و« تاريخ الطبري » (٢/ ٣٧٠) وما بعدها ، و« طبقات ابن سعد » (١/ ٢٢٧) وما بعدها ، و« عيون الأثر » (١/ ٢١٧) .
(٢) صوابه : (جفوا) ، انظر قول الناظم قبل صفحات : (ويح قوم جفوا نبياً . . .) .
(٣) أخرجه ابن حبان (٣٧٠٨) ، والترمذي (٣٩٢٥) ، وابن ماجه (٣١٠٨) ، وأحمد (٤/ ٣٠٥) ، والدارمي (٢٥٥٢) ، والحاكم (٣/ ٧) .

يليه ، ووصل المدينة يوم الإثنين ثاني عشر الشهر ، وجمع بأن خروجه من مكة يوم الخميس ومن الغار ليلة الإثنين .

وخلَّف عليّاً ليؤدي ما عنده من الودائع ، وكان مجيئه بيت أبي بكر وقت الظهيرة فقال : « إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي ٱلْخُرُوجِ » قال : الصحبة يا رسول الله قال : « نَعَمْ » قال : فخذ إحدى راحلتي قال : « بِٱلثَّمَنِ »[1] أي : لتتمحض هجرته لله ولا يكون لأحد فيها منة ، فخرجا ليلاً إلى غار جبل ثور ، فاستخفيا فيه كما قال : (وآواه غار) أي : ولما فقدته قريش . . طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة إثره في كل وجه ، فوجد الذي ذهب قِبَل ثور أثره هنالك ، فلم يزل يتبعه حتى انقطع لما انتهى إلى ثور ، وشق عليهم خروجه وجزعوا منه ، وجعلوا لمن رده مئة ناقة .

ولما دخل الغار . . قيل : أنبت الله على بابه شجرة أم غيلان فحجبت عن الغار أعين الناس ، وأرسل الله حمامتين وحشيتين فوقعتا على فم الغار كما قال : (وحمته) منهم (حمامة) فيه جناس سبق نظيره (ورقاء) وهي : ما في لونها بياض يخالطه سواد ، قيل : وحمام الحرم من نسلهما ، ومعنى حمايتهما له : أن فتيان قريش من كل بطن لما أقبلوا بسلاحهم . . جعل بعضهم ينظر في الغار فلم ير إلا حمامتين وحشيتين بفم الغار ، فرجع إلى أصحابه ، فقالوا له : ما لك ؟ قال : رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد[2] .

وقال آخر : ادخلوا الغار ، فقال اللعين أمية بن خلف : وما أربكم في الغار ؟ إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد[3] .

وفي « مسند البزار » : إن الله عز وجل أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، ولذا قال الناظم :

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٣٨) ، وأبو يعلى (٤٥٤٨) ، وانظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٨٤) ، و« طبقات ابن سعد » (٣/ ١٧٢) .

(٢) قال في « مجمع الزوائد » (٦/ ٥٦) : (رواه البزار ، والطبراني [٢٠/ ٤٤٣] ، وفيه جماعة لم أعرفهم) ، والخبر في « طبقات ابن سعد » (١/ ٢٢٩) .

(٣) انظر « الإكتفاء » للكلاعي (١/ ٣٣٩) .

(67)

وَكَفَتْــهُ بِنَسْجِهَــا عَنْكَبُــوتٌ   مَــا كَفَتْــهُ ٱلْحَمَــامَــةُ ٱلْحَصْــدَاءُ

(وكفته بنسجها عنكبوت) يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى (ما) أي : الأعداء الذين (كفته) إياهم (الحمامة الحصداء) أخذه من قولهم : شجرة حصداء ؛ أي : كثيرة الورق ، فاستعاره للحمامة لكثرة ريشها ، ووصف الحمامة بـ(ورقاء) و(حصداء) لاجتماعهما فيها ، والممتنع إنما هو الوصف بمتضادين أو متماثلين .

وروي : أن الحمامتين باضتا في أسفل النقب ، ونسج العنكبوت على أعلاه فقالوا : لو دخلا . . لتكسر البيض وتفتح نسج العنكبوت .

قال الأئمة : وهٰذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود .

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَعْمِ أَبْصَارَهُمْ » فعميت عن دخوله ، وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار ؛ لظنهم أن الحمام لا يحوم حوله ، وأن العنكبوت لا تنسج عليه وفيه أحد ؛ لما جرت العادة أنهما متوحشان ، مهما أحسا بالإنسان . . فرّا منه ، وما علموا أن الله سبحانه وتعالى يسخر ما شاء من خلقه لمن شاء من عباده ، وأن وقاية الله تعالىٰ عبده بما أراده تغنيه عن التحصن بالأمكنة والأسلحة .

وصح : أن أبا بكر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ؛ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه . . لرآنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَا ظَنُّكَ بِٱثْنَيْنِ ٱللهُ ثَالِثُهُمَا ؟ »[١] .

ولذا قال الناظم :

(68)

وَٱخْتَفَىٰ مِنْهُـمُ عَلَـى قُـرْبِ مَـرْآ   هُ وَمِـنْ شِـدَّةِ ٱلظُّهُـورِ ٱلْخَفَـاءُ

(واختفى) صلى الله عليه وسلم ؛ أي : استتر ، والأحسن : عطفه على : (وآواه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣) ، ومسلم (٢٣٨١) ، وابن حبان (٦٢٧٨) ، والترمذي (٣٠٩٦) ، وأحمد (١/ ٤) ، والبزار (٣٦) .

غار) ، (منهم علىٰ) أي : مع (قرب مرآه) أي : محل رؤيته ، وفي ذكر الناظم لهٰذا تعجيب للسامع وبيان لهٰذه المعجزة العظيمة .

(و) حكمة استتاره منهم مع ظهوره لهم لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه كما تقرر : أن (هي) جملة (شدة الظهور) عليهم بالغلبة والمعونة الإلـٰهية له ([illegible]) عنهم الذي حصل له خرقاً للعادة ظفراً عليهم وخيبة لهم ، واستعماله (الظهور) فيما ذكر مع أن مقابلته بـ(ٱلخفاء) توهم أنه أراد به ضده . . من الفن المسمى بالتورية والإيهام ، وهي : أن يذكر لفظاً له معنيان بالاشتراك ، أو التواطؤ ، أو الحقيقة والمجاز ، أحدهما بعيد ، فيقصده ويوري عنه بالقريب ؛ فيتوهمه السامع من أول وهلة ، وهو هنا ضد (الخفاء) الموهم له قوله : (واختفى) .

قال الزمخشري : (لا نرى باباً أدق ولا ألطف من التورية ، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات في كلام الله تعالىٰ ورسوله ، نحو : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ أريد من الاستواء : معناه البعيد الذي هو الاستيلاء ، دون القريب الذي هو الاستقرار في المكان ؛ لاستحالته على الله تعالى) اهـ ملخصاً .

وهٰذه تسمى مجردة ؛ لأنه لم يُذكر فيها شيءٌ من لوازم المورىٰ به ولا المورىٰ عنه ، وألحق بها ما ذكر فيه لازم كل منهما ؛ لأنهما تكافآ حينئذ ، ومنه ما في البيت ، فإنه ذكر فيه لازم كل منهما بذكر (اختفى) وبـ(الخفاء) ؛ إذ المتبادر منه أنه ليس المراد بالظهور ضد الخفاء ، فإن ذكر لازم أحدهما . . سميت مرشحة ، نحو : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ فإنه يحتمل الجارحة وهو المورى به ، ورشح له بذكر البناء ، ويحتمل القوة والقدرة وهو البعيد المقصود ، وزاد بعضهم في حد التورية : مع صحة كل من المعنيين ، ولا معنى لهٰذه الزيادة كما علم مما تقرر في آية الاستواء والبناء ، ولعله أراد في الجملة لا بالنظر لما الكلام فيه ، وعليه فوجه صحة الظهور الذي هو ضد الخفاء هنا : أن من المعلوم أن شدة قرب المرئي من العين توجب عدم إدراكها له ، فكذلك هنا لما اشتد قربهم منه . . لم يدركوه ، ولا يمنع منه أن الأول عادي والثاني خارق للعادة .

وكالتورية في كونه أشرف أنواع البديع . . الاستخدام ، بل فضله بعضهم عليها ،

ولهم في حده عبارتان : أشهرهما : أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر يراد به أحد معانيه ، ثم يؤتى بضميره ويراد به المعنى الآخر(١) .

وروي : أن أبا بكر نظر إلى قدميه صلى الله عليه وسلم في الغار يقطران دماً ؛ لأنه لم يتعود الحفا فبكى ، وأنه دخل قبله ليقيه بنفسه ، وأنه رأى جحراً فيه فألقمه عقبه ، فجعلت الحيات والأفاعي تضربه وتلسعه ، فجعلت دموعه تتحدر ، وفي رواية عند رزين : فدخل صلى الله عليه وسلم وجعل رأسه في حجره ونام ، فلدغ أبو بكر في رجله فلم يتحرك ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « مَا لَكَ ؟ » قال : لدغت فتفل عليه فذهب ما يجده(٢) .

وروي : أن أبا بكر لما رأى القافة . . اشتد حزنه وقال : إن قتلت . . فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت . . هلكت الأمة فقال صلى الله عليه وسلم : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي : بالمعونة والنصر ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي : أبي بكر ؛ لأنه الذي انزعج ، وهي : أمنة تسكن عندها القلوب ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ أي : رسوله ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي : ملائكة يصرفون أبصار الكفار عنه(٣) .

وبين قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ وقول موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ما بين مقاميهما ؛ إذ كمال الإمداد للأتباع ليس إلا لنبينا ، فأمد أبا بكر بشهود المعية أيضاً ، وقصرها موسى على نفسه ، وأيضاً فشتان بين معية الألوهية ومعية الربوبية ، والمشهور : أنه صلى الله عليه وسلم مكث في الغار ثلاث ليال .

وكان عبد الله بن أبي بكر ـ مع صغر سنه ـ يأتيهما ليلاً بخبر قريش ، ثم يدلج من عندهما بسحر ، فيصبح كبائت بمكة .

وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يأتيهما كل ليلة بما يغذيهما من لبن .

---

(١) مثاله : قوله تعالى : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فذكر الشهر أولاً وأراد به الهلال ، ثم أعاد عليه ضميراً ـ وهو الهاء ـ أفاد به أنه أيام شهر رمضان .

(٢) أخرج نحوه البيهقي في « الدلائل » (٢/ ٤٧٧) ، وانظر « السيرة الحلبية » (٢/ ٣٥) .

(٣) انظر « الروض الأنف » (٤/ ١٣٧) .

واستأجرا عبد الله بن الأريقط ليدلهما على الطريق ـ ولم يعرف له إسلام ـ فدفعا إليه راحلتيهما ، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال ، فأتاهما وسار معهم عامر بن فهيرة فأخذ بهما طريق البحر[1] .

(69)

وَنَحَا ٱلْمُصْطَفَى ٱلْمَدِينَةَ وَٱشْتَا قَتْ إِلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ ٱلْأَنْحَاءُ

(ونحا) أي : قصد (المصطفىٰ) على الخلق كلهم محمد صلى الله عليه وسلم (المدينة) المسماة بطيبة ؛ لأن الله طيبها بهجرته إليها .

ووقعت في طريق الهجرة غرائب ، منها : أنهم مروا بقُدَيْد على أم معبد الخزاعية ، وكانت تسقي وتطعم من يمر بها ، وكانت في سنة ، فطلبوا منها لبناً ولحماً يشترونه فلم يجدوه ، فنظر إلى شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فسألها : « هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ » فقالت : هي أجهد من ذلك ، فقال : « أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا ؟ » قالت : نعم ، فدعا بها فاعتقلها ، ومسح ضرعها وسمى الله ، فدرت وسقى القوم حتى رووا ، ثم شرب آخرهم ، ثم حلب فيه مرة أخرى عللاً بعد نهل ، وتركوه وذهبوا ، فجاء زوجها فعجب منه ، فذكرت له القصة وأوصافه صلى الله عليه وسلم ، فقال : هـٰذا وٱلله صاحب قريش ، ولو رأيته . . لاتبعته[2] .

وأخرج ابن سعد[3] وأبو نعيم : أن تلك الشاة بقيت عندهم يحلبونها ليلاً ونهاراً إلى زمن عمر .

ثم تعرض لهما بقُدَيْد سراقة كما يأتي .

وروى البيهقي : أنهما اجتازا بعبد يرعى غنماً فاستسقياه لبناً ، فأتاهما بشاة لا لبن فيها ، فحلبها صلى الله عليه وسلم بعد أن دعا ، وسقى أبا بكر ثم الراعي ثم

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٨٥) وما بعدها ، و« طبقات ابن سعد » (١/ ٢٢٩) .
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٩) ، ووافقه الذهبي ، وأبو نعيم في « الدلائل » (٢/ ٤٣٦) ، والبيهقي في « الدلائل » (١/ ٢٧٦) ، والطبراني في « الكبير » (٤/ ٤٨) .
(٣) في (ج) : (أبو سعيد) .

شرب[1] ، وهـٰذا محمول على علمه بسيد العبد مع ظن رضاه .

والجواب بأن هـٰذا مال حربي . . غير صحيح ؛ لأن هـٰذا قبل مشروعية الجهاد ، ومع عدم مشروعيته لا يحل مال أهل الحرب كما لا يحل قتالهم ؛ لأن الواجب حينئذ مسالمتهم ، ولا يتم إلا بترك التعرض لأموالهم كنفوسهم .

ولما سمع المسلمون بالمدينة بمقدمه . . صاروا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه إلى قرب الظهر ، فانتظروه يوماً وعادوا إلى بيوتهم ، وإذا بيهودي علا على موضع عال ، فرآه فصاح : هـٰذا جدكم ـ أي : حظكم ـ يا بني قيلة ؛ أي : الأوس والخزرج ، فخرجوا إليه سراعاً بسلاحهم ، فنزل بقباء ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ساكتاً ، فكانوا يحسبون أن أبا بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أسرع إليه الشيب مع أنه أصغر سنّاً منه صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أصابته الشمس . . ظلل عليه فعرفوه[2] ، وكان ذلك يوم الإثنين ، قيل : أول ربيع ، وقيل : ثاني عشره ، وقيل : غير ذلك ، وأدركه علي كرم الله تعالىٰ وجهه بقباء ، ولم يقم بعده بمكة إلا ثلاثة أيام ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتأريخ فكتب من حين الهجرة[3] ، وأقام بقباء أربع عشرة ليلة كما في « مسلم »[4] ، وأسس مسجدها ، وهو أول مسجد بني في الإسلام ، ولذا كان الأصح : أنه الذي ﴿ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ ، ثم ركب من قباء يوم الجمعة وصلاها بمسجد الجمعة المشهور ، ثم ركب فكان كلما مر بدار من دور الأنصار . . سألوه النزول عندهم ، فيقول : « خَلُّوا سَبِيلَهَا ـ أي : ناقته ـ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ »[5] وأرخى زمامها فاستمرت إلى أن بركت موضع باب المسجد ، ثم ثارت وهو صلى الله عليه وسلم عليها حتى

---

(١) دلائل النبوة (٢/ ٤٩٧) .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٤٩٢) ، و« تاريخ الإسلام » للذهبي (٢/ ٣٣١) .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في « تاريخه » (٢/ ٣٨٨) ، وقال الحافظ في « الفتح » (٧/ ٢٦٨) : (وقد روى الحاكم في « الإكليل » من طريق ابن جريج عن أبي سلمة عن ابن شهاب : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة . . أمر بالتأريخ فكتب من ربيع الأول ، وهـٰذا معضل ، والمشهور خلافه كما سيأتي ، وأن ذلك كان في خلافة عمر) .

(٤) مسلم (٤٢٨) .

(٥) ذكره ابن عدي في « الكامل » (٢/ ١٧٠) ، وانظر « سيرة ابن هشام » (٢/ ٢٩٥) ، و« سير أعلام النبلاء » للذهبي (٢/ ٤٠٦) .

بركت بباب أبي أيوب رئيس بني النجار أخوال عبد المطلب ، ثم ثارت منه وبركت في مبركها الأول ، ثم صوتت فنزل النبي صلى الله عليه وسلم عنها وقال : « هَـٰذَا هُوَ ٱلْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى »[١] .

(واشتاقت) من الشوق ، وهو : تحرك النفس ، وهو هنا مجاز ، نحو : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ بل حقيقة ؛ إذ لا بدع في ميل الجمادات له حقيقة بأن يخلق الله فيها إدراكاً حقيقيّاً ، ومنه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، و﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ . . . ﴾ الآية ، وتسبيح الحصا ، وتأمين أُسْكُفَّة الباب ، وحنين الجذع ، ونحو ذلك مما مر ؛ إذ الأصح في مثل ذلك مما لا يحيله العقل ولا الشرع : حمله على حقيقته ، كما في حديث : « مَا بَيْنَ مِنْبَرِي وَقَبْرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ ٱلْجَنَّةِ ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي »[٢] ، ولذا قال جماعة ـ واختاره بعض المحققين ـ : إنه صلى الله عليه وسلم أرسل حتى إلى الجمادات ؛ لتصريح خبر مسلم بذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : « وَأُرْسِلْتُ إِلَى ٱلْخَلْقِ كَافَّةً »[٣] .

(إليه من مكة) التي هي مولده وأم القرى وأفضلهن عند أكثر العلماء (الأنحاء) أي : الجهات والنواحي ؛ لأنها كانت معمورة بأنفاسه صلى الله عليه وسلم فاستوحشت لفقده .

وبين (نحا) و(الأنحاء) جناس الاشتقاق إن قلنا : إن (الأنحاء) جمع (ناحية) بمعنى منحوة ؛ أي : مقصودة ، ورد العجز على الصدر ، وكذا بين (تغنت) و(الغناء) ، و(ناداه) و(النداء) الآتيات .

(70)

وَتَغَنَّـتْ بِمَـدْحِـهِ ٱلْجِـنُّ حَتَّـىٰ ... أَطْـرَبَ ٱلْإِنْـسَ مِنْـهُ ذَاكَ ٱلْغِنَـاءُ

(وتغنت بمدحه) أي : أظهرت أوصافه الجميلة في صورة الغناء الذي تتولع به

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦) ، ومسلم (٢٢١٩) .

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٦) ، ومسلم (١٣٩١) ، وأحمد (٢/٢٣٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٤١٤٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/٢٢٧) ، وغيرهم .

(٣) مسلم (٥٢٣) .

النفس ولا يصير فيها متسع لغيره (الجن) المؤمنون ، ومرت قصة إيمانهم ، وإرسالُه صلى الله عليه وسلم إلى جميع الجن أمر معلوم من الدين بالضرورة ، فيكفر منكره كما أجمع عليه الأمة (حتى أطرب الإنس) المؤمنين ، بل وغيرهم (منه) أي : الجن (ذاك الغناء) الذي سمعوه ، والطرب : خفة تعتري الإنسان عند شدة حزن أو سرور .

وذكر أهل السير عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالىٰ عنهما أنها قالت : لما خفي علينا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل ، فقال : أين أبوك ؟ قلت : والله لا أدري ، فلطم خدي لطمة خرج منها قُرطي ، ولما لم ندر أين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أتى رجل من الجن يسمعون صوته ولا يرونه ، وأنشد هٰذه الأبيات : [من الطويل]

جَـزَى ٱللهُ رَبُّ ٱلنَّـاسِ خَيْـرَ جَـزَائِـهِ ... رَفِيقَيْـنِ حَـلاَّ خَيْمَتَـيْ أُمِّ مَعْبَـدِ

هُمَـا نَـزَلاَ بِـٱلْبِـرِّ ثُـمَّ تَـرَحَّـلاَ ... فَـأَفْلَـحَ مَـنْ أَمْسَـى رَفِيـقَ مُحَمَّـدِ

فَيَـاٰلَ قُصَـيٍّ مَـا زَوَى ٱللهُ عَنْكُـمُ ... بِـهِ مِـنْ فِعَـالٍ لاَ تُجَـازَى وَسُـؤْدَدِ

لِيَهْـنِ بَنِـي كَعْـبٍ مَكَـانُ فَتَـاتِهِـمْ ... وَمَقْعَـدُهَـا لِلْمُـؤْمِنِيـنَ بِمَـرْصَـدِ

سَلُـوا أُخْتَكُـمْ عَـنْ شَـاتِهَـا وَإِنَـائِهَـا ... فَـإِنَّكُـمُ إِنْ تَسْـأَلُـوا ٱلشَّـاةَ تَشْهَـدِ

دَعَـاهَـا بِشَـاةٍ حَـائِـلٍ فَتَحَلَّبَـتْ ... لَـهُ بِصَـرِيـحٍ ضَـرَّةُ ٱلشَّـاةِ مُـزْبِـدِ

والضرة : لحمة الضرع ، والصريح ـ بمهملتين أوله وآخره ـ : الخالص ؛ أي : بلبن خالص مزبد نازل من ضرة الشاة .

فَغَـادَرَهَـا رَهْنـاً لَـدَيْهَـا لِحَـالِـبٍ ... يُـرَدِّدُهَـا فِـي مَصْـدَرٍ ثُـمَّ مَـوْرِدِ

أي : خلف الشاة عندها مرتهنة بأن تدر .

قالت أسماء : فلما سمعنا قول الجني هٰذا . . علمنا أين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٢/٤٨٧) ، و« تاريخ الطبري » (٢/٣٧٩) ، و« الإكتفاء » للكلاعي (١/٣٤٠) ، و« البداية والنهاية » لابن كثير (٣/٢٠٣) .

(71)

وَٱقْتَفَىٰ إِثْـرَهُ سُـرَاقَـةُ فَـٱسْتَهْـ ـوَتْهُ فِي ٱلْأَرْضِ صَافِنٌ جَرْدَاءُ

(و) لما وصل صلى الله عليه وسلم في سفر هجرته إلى قُدَيْد ـ محل قريب من رابغ ـ . (اقتفىٰ) أي : تبع (إثره سراقة) بن مالك بن جعشم المدلجي ، قال : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فيهما إن قتلا أو أسرا ديتين ، فركبت مستخفياً ، فلما دنوت منهما . . عثرت بي فرسي ، فخررت ثم قمت وركبته ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يلتفت ، فبكى أبو بكر وقال : يا رسول الله ؛ أتينا ، قال : « كَلاَّ » ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوات .

(فاستهوته في الأرض صافن) أي : طلبت أن تهوي به فيها ، هـٰذا مقتضى الصيغة ، وليس مراداً ، بل السين لمجرد التأكيد ؛ لأن الذي في القصة : أنه صلى الله عليه وسلم لما دعا بتلك الدعوات . . غاصت قوائم فرسه في الأرض حتى بلغت الركبتين ، فخر عنها ثم زجرها ، فنهضت ولم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة . . إذ لأثر يديها غبار ساطع في السماء كالدخان .

والصافن من الخيل : الذي يقوم على ثلاثة قوائم ويقيم الرابعة على طرف الحافر .

(جرداء) أي : رقيقة الشعر قصيرته ، وهـٰذه صفة مدح في الخيل ، وأصله : للشجرة التي قلم ورقها ، فاستعير للفرس .

(72)

ثُـمَّ نَـادَاهُ بَعْـدَ مَـا سِيمَـتِ ٱلْخَسْـ ـفَ وَقَـدْ يُنْجِـدُ ٱلْغَـرِيـقَ ٱلنِّـدَاءُ

(ثم ناداه) أي : سراقةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعدما وصل إليه وقال : الأمانَ يا محمد (بعد ما) مصدرية (سيمت) الفرس (الخسف) بفتح أوله وضمه ، قال الشارح في موضع : (أي : أوليته ذلاً) وقال في آخر : (أي : بعد إسامة الخسف للفرس) أي : بعد حصول الذل للفرس المذكورة ، وكأن الحامل له على هـٰذا : أن ظاهر النظم : أنه لم يخسف بالفرس حقيقة ، وليس كذلك ؛ لما علمت أن قوائمها

غاصت في الأرض ، فحصل لها الخسف الحقيقي ، لـكن لبعضها ، فعبر الناظم بـ(سيمت الخسف) بالنظر إلى كلها ؛ أي : سيمت أن يخسف بها كلها ، وحينئذ لا يحتاج إلى ما قاله الشارح . فتأمله .

ثم رأيت بعضهم صرح بنحو ما ذكرته فقال : يقال : سمته خسفاً ؛ أي : أوليته ذلاًّ ، أو كلفته مشقة ، ويحتمل أن يريد : بعدما قاربت أن يخسف بها .

(و) من الحكم المناسبة هنا ؛ لأنها كالسبب لما قبلها ، فهو تذييل : أنه (قد ينجد الغريق النداء) أي : الدعاء لله بانكسار وتذلل ، كما وقع ليونس صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم ، قال الله تعالى : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْـهِ ﴾ أي : نضيق عليه بسبب مغاضبته وفراقه لقومه لإبائهم عليه ، ﴿ فَنَـادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ . . . ﴾ الآية ، والنداء : رفع الصوت لطلب تخليصه ؛ لأنه قد لا يعلم أو لا يعبأ به أحد ، فإذا نادى وصاح . . تنبه الناس له وأنقذوه .

ولما طلب الأمان . . قال : أعلم أنكما قد دعوتما علي فادعوَا لي ، ولكما أن أرد الناس عنكما ولا أضركما ، قال : فوقفا لي ، فركبت فرسي حتى جئتهما ، قال : ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرتهما أخبار ما يريد بهما الناس ، وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يرزآني ؛ أي : لم يأخذا مني شيئاً ، وقالا : « أَخْفِ عَنَّا » فسألته كتاباً آمنُ به ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي في رق من أدم أخرجها له يوم حنين ، فنفذها وأمنه ومن يلوذ به[1] .

[illegible] : ذكر الناظم الهجرة وبعض ما وقع فيها من المعجزات مع أنه سيذكر وقائع وقعت له بمكة قبل الهجرة كالإسراء ، وكان مقتضى الواقع أن يذكر هـٰذه كلها قبل ذكر الهجرة ؛ ليوافق الترتيبُ في الذكر الترتيبَ في الواقع ، ولعله اهتم بشأن الهجرة فقدمها لتتنبه النفس إلى حكمة ذلك ، وهي : أنه انقطع بها عنه صلى الله عليه وسلم كلُّ إيذاء كان يصل إليه من قريش ، وترتب عليها الظفر بهم حتى استأصل شأفتهم وقطع حادرتهم[2] .

---

(١) حديث سراقة حديث طويل ، أخرجه البخاري (٣٩٠٦) ، وابن حبان (٦٢٨٠) ، وأحمد (٤/ ١٧٥) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٩٧٤٣) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٤٨٣) ، وأبو نعيم في « الدلائل » (٢/ ٤٢٩) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ ١٣٢) .

(٢) الشأفة : قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب، والحادرة : لعله أراد بها : ورم الجلد ،

(73)

فَطَوَى ٱلْأَرْضَ سَائِراً وَٱلسَّمَاوَا ... تُ ٱلْعُلَا فَوْقَهَا لَهُ إِسْرَاءُ

(فطوى الأرض) في حال كونه (سائراً) عليها (و) هـذا كما طويت له قبل ذلك (السماوات العلا) لما كان (فوقها له إسراء) ليلة الإسراء إلى أن جاوزها جميعها في أسرع وقت ، فقطع مسيرة نحو ثمانية آلاف سنة في أسرع وقت ؛ إذ بين الأرض والسماء خمس مئة سنة ، وكذا سمك كل سماء وما بين كل سماءين ، هـٰذا بالنسبة إلى السماء السابعة ، وأما ما بينها وبين ما وصل إليه مما كان فيه قاب قوسين أو أدنى . . فلا يعلمه إلا الله تعالى ، فيا لهما من مسيرين مسير في الأرض ومسير في السماء أظهر الله عليه فيهما عظيم قدره في سيره وإسرائه ، وأفضليةَ تقدمه على جميع خلقه في أرضه وسمائه ، قال بعض الأئمة : والمعاريج ليلة الإسراء عشرة ، سبع في السماوات ، والثامن إلى سدرة المنتهى ، والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار ، والعاشر إلى العرش والرفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة والكشف الحقيقي .

وقد وقع له صلى الله عليه وسلم في سني الهجرة العشر ما كان منها مناسبات لطيفة لهـٰذه المعاريج العشرة ، ولهـٰذا ختمت بوفاته التي فيها لقاء ربه والعروج بروحه الكريمة إلى الوسيلة ، وهي المنزلة التي لا أرفع منها ، كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحضرة القدس .

(74)

فَصِفِ ٱللَّيْلَةَ ٱلَّتِي كَانَ لِلْمُخْـ ... ـتَارِ فِيهَا عَلَى ٱلْبُرَاقِ ٱسْتِوَاءُ

(فصف) أيها الناظر في شمائله صلى الله عليه وسلم وخصوصياته وما أكرمه الله به تلك (الليلة) وهي ليلة الإثنين ، أو الجمعة ، أو السبت من رمضان ، أو شوال ، أو

أو قرحة في جفن العين ، والمراد : أذهبهم كما تذهب هـٰذه القروح بالكيِّ ونحوه ، أو لعلها بالجيم من الجدري كما في بعض النسخ ، والله أعلم .

رجب ، وبه جزم النووي في « الروضة »[1] ، أو الحجة ، أو ثالث عشر ربيع الآخر ، وجرى عليه النووي في « فتاويه » ، أو من ربيع الأول ، وجرى عليه في « شرح مسلم » بعد المبعث بخمس سنين ، ورجحه النووي في « فتاويه »[2] ، أو بعشر ، أو بإحدى عشرة ، أو ثنتي عشرة ، أقوال رجح كلاًّ منها قوم (التي) وقع ذلك الإسراء فيها من مكة إلى بيت المقدس ، ثم منه إلى السماء ، ثم إلى حيث شاء الله وما رأى من آيات ربه الكبرى ؛ أي : اذكر صفاتها الجليلة بما يمكنك ، وإلا . . فمحال أن تستوعبها ، أو أن تأتي بتفصيل ما يحيط بها ، كيف وقصة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات ، وأظهر البراهين والبينات ، وأقوى الحجج وأصدق الأنباء وأعظم الآيات ؟! ومن ثم قال بعض المفسرين : إنها أفضل من ليلة القدر ، لكن بالنسبة له صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أوتي فيها ما لا يحيط به الحد ، ولذا كان الإسراء بالجسم في اليقظة من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وخالف في كونه بالجسم وكونه في اليقظة من لا يعتد بخلافه ، وزَعمُ تعدد الإسراء لتباين الروايات فيه تبايناً منتشراً لا يمكن الجمع بينهما إلا بدعوى التعدد بالجسم تارة والروح أخرى . . مردود ، والأصح : أنه إسراء واحد بالجسم والروح في اليقظة ، وأن ما خالف الجادة من الروايات إن أمكن تأويله . . تعين ، وإلا . . حكم عليه بأنه وهم ، كرواية : أن الإسراء كان قبل البعثة ، فإن الإجماع على أنه بعدها ، على أنها أولت .

و(كان للمختار) صلى الله عليه وسلم (فيها) عجائب ، منها : أنه جاءه جبريل ـ وفي رواية : وميكائيل ، وفي أخرى : ذكر ثالث ، ولا مانع أن جبريل نزل أولاً ، ثم ميكائيل ، ثم الثالث ـ بالحطيم ، أو شعب أبي طالب ، أو بيته ، أو بيت أم هانىء بعد أن انفرج سقفه ، روايات جمع بينها بأنه بات في بيت أم هانىء ، وبيتها عند شعب أبي طالب ، وأضيف إليه لأنه كان يسكنه ، فأخرجه الملك منه إلى المسجد ، فاضطجع لأثر نعاس كان به ، ثم أخذه فأخرجه من المسجد فأركبه البراق ، فاستمرت يقظته ، فرواية : أنه كان بين النائم واليقظان . . محمولة على ابتداء الأمر ، ورواية : « فَلَمَّا

---

(١) روضة الطالبين (١٠/ ٢٠٦) .

(٢) انظر « شرح مسلم » (٢/ ٢٠٩) و« فتاوى النووي » (٣٦) .

ٱسْتَيْقَظْتُ » أي : من شغل البال بمشاهدة الملكوت[1] .

وحكمة كونه لم يأته من باب البيت أنه انصب من السماء انصبابة واحدة بإزاء محله الذي هو فيه ، فلم يعرج على غيره مبالغة في المناجاة ، وتنبيهاً على أن الطلب وقع على غير ميعاد[2] ؛ لإظهار أنه مراد ، ووقع في موسى بميعاد تنبيهاً على أنه مريد ، وشتان ما بينهما ، وأيضاً ففي انفراج سقف البيت والتئامه عقبه تنبيه على شق صدره الشريف تلك الليلة ، وأنه لا بأس عليه فيه ، ومرت قصة شقه هنا عند ذكر الناظم لشقه عقب رضاعه عند حليمة .

ومنها : أن الملك لما أخرجه من المسجد . . أركبه (على البراق) فكان له عليه (استواء) أي : استقرار وتمكن مع أنه لم يركبه قبل ذلك ، ولا هو من جنس ما يركبه الآدميون ، وهو ـ كما صح به الخبر ـ : « دَابَّةٌ ـ أي : تشبهها ؛ إذ هو ليس بذكر ولا أنثى ـ دُونَ ٱلْبَغْلِ وَفَوْقَ ٱلْحِمَارِ ، أَبْيَضُ ، يَضَعُ خَطْوَهُ عِنْدَ أَقْصَىٰ طَرْفِهِ »[3] وذكَّره باعتبار كونه مركوباً ، وسمي بذلك : من البرق ؛ لسرعة سيره ، أو من البريق ، أو من قولهم : شاة برقاء إذا كان في خلال بياضها سواد ، وقوله : « يَضَعُ خَطْوَهُ . . . » إلخ معناه : أنه يضع رجله عند منتهى ما يرىٰ بصره ، وقال ابن المنير : (أي : يقطع ما انتهى إليه بصره في خطوة واحدة) قال : (فعلى هـٰذا يكون قطع من الأرض إلى السماء في خطوة واحدة ؛ لأن بصر الذي في الأرض يقع على السماء ، فبلغ أعلى السماوات في سبع خطوات) اهـ

وهـٰذا إنما يأتي على رواية : « فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ ـ أي : على البراق ـ حَتَّىٰ ٱنْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ٱلدُّنْيَا »[4] ؛ إذ ظاهرها : أنه استمر عليه حتى وصل إلى السماء ، والمشهور : أنه استمر عليه إلى بيت المقدس ، ثم نصب له المعراج كما يأتي .

وفي رواية لأبي يعلى والبزار : إذا أتى على جبل . . ارتفعت رجلاه ، وإذا هبط . .

---

(١) قاله الحافظ في « الفتح » (٧/ ٢٠٩) ، وانظر « سبل الهدىٰ والرشاد » (٣/ ١٠٠) .
(٢) قاله الحافظ في « الفتح » (١/ ٤٦٠) .
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) ، ومسلم (١٦٢) .
(٤) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) ، ومسلم (١٦٤) .

ارتفعت يداه[1] ، وفي رواية شاذة : له جناحان ، وأخرى ضعيفة : له خد كخد الإنسان ، وعرف كعرف الفرس ، وقوائم كالإبل ، وأظلاف وذنب كالبقر ، وكأن صدره ياقوتة حمراء[2] .

وفي رواية صحيحة : (أتي به مسرجاً ملجماً ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : ما حملك على هـٰذا ؟ ما ركبك قط أكرم على الله منه ، فارفض عرقاً)[3] ، وظاهرها ـ كصريح رواية النسائي وابن مردويه : وكانت تسخر للأنبياء قبله[4] ـ : أن الأنبياء كانوا يركبونها ، ولم يطلع عليها بعضهم فنفى ركوب غيره صلى الله عليه وسلم لها .

فاستصعابه لها ليس لعدم ألفة الركوب ، بل لبعد عهده به ، أو ليظهر جبريل له مرتبته صلى الله عليه وسلم وأنها علت على سائر المراتب ، وإنما لم يكن البراق على شكل الفرس إشارة إلى أن ركوبه في سلم وأمن لا حرب وخوف ، وإلى ظهور المعجزة بوقوع هـٰذا الإسراع الباهر من دابة على هـٰذا الشكل .

وصح : (أن جبريل حمله على البراق رديفاً له)[5] ، ورواه أحمد بلفظ : (على ظهره هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس)[6] وأول بعضهم ذلك بما لا حاجة إليه ؛ إذ ركوب جبريل معه لا ينافي كونه في خدمته ، وصح : (أنهما مرا بيثرب فأمره أن ينزل ويصلي ، وبمدين فأمره بذلك ، وببيت لحم الذي ولد فيه عيسى عليه السلام فأمره بذلك)[7] ، وأراه عجائب أخرى إلى أن وصلا إلى بيت المقدس فنزلا وربطه ـ أي : جبريل ـ كما مر في رواية ، لـٰكن في أخرى : النبي صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) مسند أبي يعلى (٥٠٣٦) .
(٢) ذكر هـٰذه الرواية الثعلبي في « تفسيره » (٦/ ٥٦) عن السدِّي عن محمد بن السائب عن باذان عن ابن عباس .
(٣) أخرجه ابن حبان (٤٦) ، والترمذي (٣١٣١) ، وأحمد (٣/ ١٦٤) ، وأبو يعلى (٣١٨٣) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٣٦٢) .
(٤) انظر « الدر المنثور » (٥/ ١٨٥) .
(٥) أخرجه ابن حبان (٤٥) .
(٦) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣٩٤) .
(٧) أخرجه النسائي (١/ ٢٢١) .

ويجمع باحتمال أنهما ربطاه معاً بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطه بها ، ثم دخل وبعث له جماعة من الأنبياء فصلى بهم ، وصح في رواية : أتي بأرواح الأنبياء ؛ أي : مع أجسادهم ؛ لرواية : « ثُمَّ دَخَلْتُ ٱلْمَسْجِدَ فَعَرَفْتُ ٱلنَّبِيِّينَ مَا بَيْنَ قَائِمٍ وَرَاكِعٍ وَسَاجِدٍ ، ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ فَأُقِيمَتِ ٱلصَّلاَةُ ، فَقُمْنَا صُفُوفاً نَنْتَظِرُ مَنْ يَؤُمُّنَا ، فَأَخَذَ بِيَدِي جِبْرِيلُ فَقَدَّمَنِي فَصَلَّيْتُ بِهِمْ » .

وفي رواية لأحمد : (فإذا النبيون أجمعون يصلون معه)[١] وفيها زيادة على رواية : جماعة منهم ، فيؤخذ بتلك الزيادة ، وفي حديث ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم صلى بهم في بيت المقدس من بعد العروج أيضاً ، وتلك الصلاة قيل : الصبح ؛ أي : بناء على أنه صلى الله عليه وسلم صلى فيه بعد العروج ، وقيل : العشاء ؛ أي : بناء على أنه صلى فيه قبله .

ولما فرغ من إمامتهم . . نصب له المعراج ـ كما في رواية ابن هشام والبيهقي وغيرهما[٢] ـ ووضعت له مرقاة من فضة ، ومرقاة من ذهب ، وعن يمينه ملائكة ، وعن يساره ملائكة ، ثم صعد فيه هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب السماء الدنيا ، فاستفتحاه ففتح لهما ، وهٰكذا إلى السماء السابعة ، ورأى في السماء الأولى آدم ، وعن يمينه أرواح المؤمنين ، فإذا نظر إليهم . . ضحك ، وعن يساره أرواح بنيه الكفار ، فإذا نظر إليهم . . بكى ؛ أي : أنه يكشف له عنهم وهم في النار التي هي مستقر أرواحهم ، والنيل والفرات ؛ أي : انتهاؤهما ، وإلا . . فابتداؤهما من سدرة المنتهى ، وفي الثانية يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، وفي الثالثة يوسف ، وفي حديث البيهقي وغيره : « فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ ـ أي : يوسف ـ أَحْسَنِ مَا خَلَقَ ٱللهُ قَدْ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِٱلْحُسْنِ كَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ ٱلْكَوَاكِبِ »[٣] والمراد : غير نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ لخبر الترمذي : « مَا بَعَثَ ٱللهُ نَبِيّاً إِلاَّ حَسَنَ ٱلْوَجْهِ حَسَنَ ٱلصَّوْتِ ، وَكَانَ نَبِيُّكُمْ أَحْسَنَهُمْ وَجْهاً ، وَأَحْسَنَهُمْ صَوْتاً » .

على أن للأصوليين قولاً مشهوراً اعتمده النووي في موضع ، واعتمده آخرون

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٥٧) .
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠٣) ، ودلائل النبوة (٢/ ٣٩١) .
(٣) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٣) .

أيضاً : إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه ، ومن ثم قال بعض المحققين : المراد : أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا صلى الله عليه وسلم .

وفي الرابعة إدريس ، وفي الخامسة هارون ، وفي السادسة موسى ، وفي السابعة إبراهيم ، وهٰذه مقدمة على رواية : لم يضبط منازلهم ، وعلى رواية : إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة ؛ لأن سياقها يدل على أنه لم يضبط منازلهم ، كما صرح به الزهري ، فالأولى التي فيها أنه ضبطها أولى ، على أنه يجمع بين الروايات المختلفة في ذلك بأنه رآهم في الصعود على كيفيات وفي الهبوط على كيفيات أخر[1] .

فلما جاوز موسى.. بكى ، فقيل : ما يبكيك ؟ قال : رب ؛ هٰذا غلام بعثته بعدي ، يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي[2] ، وبكاؤه ليس لحسد ـ حاشاه الله من ذلك ـ بل غبطة وحزناً على ما فاته من مضاعفة أجور نبينا بكثرة أتباعه وصالحيهم إلى ما لا نهاية له ، أو رحمة لأمته لما وقع لهم بعده مما لم يقع نظيره لهٰذه الأمة .

وذكره بـ(غلام) لأنه أصغر منه سنّاً ، ولأن قوة الشباب معه إلى سن الشيخوخة .

وحكمة تخصيص هٰؤلاء باللقاء : الإشارة بكل إلى ما سيقع له ، كالإخراج من الجنة ثم العود إليها ، والهجرة من مكة ثم العود إليها ، وكمعاداة اليهود له أوائل الهجرة ، كما عادوا عيسى وأرادوا قتله ، ويحيى وقتلوه ، وكمعاداة أهله له ، وكرجوع قومه إلى محبته كما رجع قوم هارون إلى محبته ، وكمعالجته لقومه كما عالج موسى قومه ، وكتمكنه من مكة والكعبة وتمتعه بهما كما وقع لإبراهيم الخليل ، ومن ثم رآه مسنداً ظهره إلى البيت المعمور الذي بحيال الكعبة ، ويدخله من حين خلق الله تعالى الخلق إلى الأبد كل يوم سبعون ألف ملك فلا يعودون إليه ، وأخذ منه أن الملائكة أكثر المخلوقات .

واختلفوا في رؤيته لهٰؤلاء الأنبياء صلى الله على نبينا وعليهم وعلى سائر الأنبياء

---

(١) انظر « فتح الباري » (٧/ ٢١٠) و(١٣/ ٤٨٥) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) ، وابن حبان (٤٨) ، وأحمد (٤/ ٢٠٨) .

والمرسلين وسلم : فقيل : لأرواحهم إلا عيسى فإنه رفع بجسده ، وكذا إدريس على قول ، واختلف قائلو هٰذا في الذين صلوا معه في بيت المقدس : فقيل : الأرواح أيضاً ، وقيل : بل الأجساد ، وقيل : خرق الله له الحجب حتى رأى كلاًّ في قبره من المحل الذي أخبر به ، وقيل : رفعوا من قبورهم تلك الليلة لتلك المواضع إكراماً له صلى الله عليه وسلم .

وبعد أن جاوز السماء السابعة رفعت له سدرة المنتهى فرآها ، وقد غشيها من أمر الله تعالى ما غشي حتى تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها .

ورأى النيل والفرات وسيحان وجيحان تخرج من أصلها ، ورواية : أنها من الجنة لا تعارض ذلك[١] ؛ لأن ذلك الذي تنبع منه تلك الأنهار في الجنة ، فلا ينافي ما قيل : أصلها في السماء السادسة ، وعليه تحمل رواية : أنه رآها فيها ، وأعلاها في السابعة ، وعليه يحمل ما مر أنها فيها ، (وسميت بذلك لأنه ينتهي إليها علم الخلائق ، ولم يتجاوزها أحد إلا نبينا صلى الله عليه وسلم) ، قاله النووي رحمه الله تعالى[٢] ، ويتعين حمله على أنه لا يتجاوزها من الملائكة الذين ينزلون إلى الأرض ويصعدون بالأعمال ؛ لما يأتي من أنه صلى الله عليه وسلم جاوزها إلى مستوىً يسمع فيه صريف أقلام الملائكة ، ثم أدخل الجنة وأحاط بها ، ثم عرج به صلى الله عليه وسلم ـ كما في رواية البخاري ـ حتى ظهر بمستوىً ـ أي : محل عال ـ يسمع فيه صريف الأقلام ؛ أي : تصويت أقلام الملائكة بما يكتبون من أقضية الله تعالى ، وفي رواية لم تثبت كسائر روايات الحجب : « ثُمَّ زَجَّ بِي فِي ٱلنُّورِ زَجّاً ، فَخَرَقَ بِي سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ ، كُلُّ حِجَابٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِئَةِ عَامٍ ، ثُمَّ دُلِّيَ لِي رَفْرَفٌ أَخْضَرُ ، ثُمَّ ٱحْتَمَلَنِي حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى ٱلْعَرْشِ » وهٰذه الحجب بفرض صحتها إنما هي بالنسبة للمخلوقين ، وأما هو تعالى . . فلا يحجبه شيء .

وصح عن أنس عنه صلى الله عليه وسلم قال : « عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ إِلَى سِدْرَةِ ٱلْمُنْتَهَى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٩) ، وأحمد (٢/ ٢٨٩) .
(٢) شرح صحيح مسلم (٢/ ٢١٤) .

وَدَنَا ٱلْجَبَّارُ »[١] أي : بقربه المعنوي ، كما أرشد إليه قول رب العزة جل جلاله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ كما قال الناظم :

(75)

وَتَـرَقَّـىٰ بِـهِ إِلَـىٰ قَـابِ قَـوْسَيْـ ــــنِ وَتِلْـكَ ٱلسَّعَـادَةُ ٱلْقَعْسَـاءُ

(ترقى) أي : صعد البراق (به إلى قاب قوسين) وقاب القوس : ما بين مقبضه وآخر وتره ، فلكل قوس قابان ، ومن ثم قيل : في الآية قلب ؛ أي : قابي قوس ، ويرد بأنه لا يتعين ذلك ، بل المراد : تشبيه قربه صلى الله عليه وسلم المعنوي من ربه بقرب قاب القوس إذا ألصق بقاب قوس آخر ، ثم رأيت بعضهم قال : قاب قوسين ؛ أي : مقدار قوسين ، وقاب قوس ؛ أي : قدر طولها ، وقيل : قدر الوتر منها .

قال الجوهري : تقول : بينهما قاب قوسين ؛ أي : قدر قوس .

تنبيه : ما أفهمه كلام الناظم أن البراق ترقى به صلى الله عليه وسلم إلى قاب قوسين . . هو ما دلت عليه رواية البخاري ، ولفظها : « فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ فَٱنْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا ، فَٱسْتَفْتَحَ » ثم قال : « ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى ٱلسَّمَاءَ ٱلثَّانِيَةَ . . . » وهٰكذا ، لٰكن صحت الأحاديث بأنه استمر على البراق إلى بيت المقدس ، ثم نصب له المعراج فارتقى فيه كما مر ، وظاهرها : أنه لم يركب البراق إلا من مكة إلى بيت المقدس لا غير ، ولهٰذا التنافي ذهب بعضهم إلى أن الإسراء على البراق وقع مرتين ، مرة إلى بيت المقدس ، ومرة من مكة إلى السماء ، لٰكن رد هٰذا بأن الأصح : أنه لم يتعدد ، وأنه لا تنافي ، وإنما الذي ذكر ذهابه عليه من مكة إلى السماء اختصر ذكر بيت المقدس ، وفيه نظر ؛ لأن رواية البخاري السابقة صريحة في أنه لا معراج ، وأنه استمر راكباً البراق إلى السماء الدنيا ثم التي بعدها . . . وهٰكذا ، وجرى عليه الناظم كما علمت ، فالأولى : الجواب جمعاً بين الروايتين بأن من ذكر بيت المقدس والمعراج معه زيادة علم فقدم ، وعليه فيكون لما وصل في المعراج إلى سماء الدنيا . . ركب البراق واخترق به السماوات وما فوقها ، وبهٰذا ـ أعني رواية

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧١٧) ، وانظر « فتح الباري » (١٣/ ٤٨٣) .

البخاري الظاهرة فيما في النظم والجمع بينهما وبين الرواية الأخرى المشهورة التي عليها العمل ـ يظهر عذر الناظم في ذكره أنه ركبه إلى منتهى وصوله ، لـٰكن في جزمه به نظر ظاهر .

والحاصل : أنه بعد وصوله السماء الدنيا يحتمل أنه استمر راكباً البراق على ظاهر الرواية الأولى ، وأنه جيء له به ثانياً على الرواية الثانية ، ويحتمل أنه ذهب من غير ركوب شيء ؛ تعظيماً للسماوات ؛ إذ هن أفضل من الأرضين عند الأكثرين ، وعلى مقابله المنصور ؛ لأن الأنبياء خلقوا من الأرض وهي مدفنهم ومستقرهم وهم أفضل من الملائكة . . فتعظيماً[1] لمن فيهن ممن اجتمع به من الأنبياء والملائكة .

لا يقال : السماء لم يعص الله فيها بخلاف الأرض ؛ لأنا نقول : هـٰذه مزية وقد يكون في المفضول مزايا ، على أن ذلك منتقض بما وقع لآدم وحواء وإبليس ، وادعاء أنهم لم يكونوا في السماء يحتاج لدليل ، وعلى التنزل فكون المعصية تقع في محل دون محل يقتضي أفضلية الثاني لذاته . . غير مسلم ، فعلى مدعيه إثباته بدليل يدل له ، وإنما قلنا : (فالأولى : الجواب . . .) إلخ ولم نقل بالتعدد ؛ لأن مجرد اختلاف الروايات في هـٰذا الأمر الجزئي لا يقتضيه ، على أن ما وقع في تلك الليلة من فرض الصلاة وغيره ذكر في كل من رواية : إلى السماء ، ورواية : إلى بيت المقدس ، وهـٰذا صريح في اتحاد الإسراء وعدم تعدده . فتأمل ذلك كله فإنه مهم .

واعلم : أن هـٰذا التدلي والدنو المذكور في حديث أنس وغيره من أحاديث المعراج غير الدنو والتدلي في أول (سورة النجم) فإن هـٰذا في حق جبريل كما صح عنه صلى الله عليه وسلم ، وصح أيضاً : أنه لم يره في صورته التي خلق عليها إلا في هـٰذه المرة المذكورة في الآية ، ومرة أخرى عند أوائل البعثة[2] كما مر .

(وتلك) المرتبة التي وصل إليها صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج هي (السعادة[3] القعساء) أي : الثابتة الدائمة التي لا يطرقها تغير ولا زوال .

ولما وصل صلى الله عليه وسلم إلى ذلك القرب الذي لم يصل إليه مخلوق . .

---

(١) أي : فذهب من غير ركوب تعظيماً لمن فيهن . . . إلخ .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٢٥) .

(٣) في (د) : (السيادة) .

فرض الله عليه وعلى أمته في كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فرجع فمر على موسى ، فسأله عما فرض الله عليه وعلى أمته ، فأخبره ، فأمره أن يرجع إلى ربه ويسأله التخفيف لأمته ، فإنهم لا يطيقون ذلك ، فرجع وسأل فحط عنه خمساً ، ثم رجع فأمره بالرجوع أيضاً ، فرجع فحط عنه خمساً. . . وهـٰكذا إلى أن بقيت خمساً ، فأمره بالرجوع وقال له : إن بني إسرائيل فرض الله عليهم صلاتين فما قاموا بهما ، فقال : « ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي » وفي رواية : « عَلِمْتُ أَنَّهَا عَزْمَةٌ مِنْ رَبِّي[1] فَلاَ أُرَاجِعُهُ » فقال تعالى : (هُنَّ خَمْسٌ ـ أي : في الفريضة ـ وَهُنَّ خَمْسُونَ ـ أي : في الثواب ـ لاَ يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ)[2] .

وحكمة فرضها في هـٰذه الليلة : أنه صلى الله عليه وسلم لما شاهد تعبد الملائكة فيها ، وأن منهم مديم القيام ومديم الركوع ومديم السجود. . أعطاه الله تعالىٰ ذلك لأمته في كل ركعة يصليها الواحد منهم بشروطها وآدابها .

واختص موسى عليه السلام بأمره بتلك المراجعة ؛ لأنه اطلع من صفات هـٰذه الأمة على ما حمله على قوله : اللهم ؛ اجعلهم أمتي ، فقال له الله تعالى : تلك أمة أحمد ، فقال : اللهم ؛ اجعلني منهم ، وهو حديث مشهور[3] ، فكان اعتناؤه بهم كما يعتني بالقوم من هو منهم ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : « فَمَرَرْتُ بِمُوسَى وَنِعْمَ ٱلصَّاحِبُ كَانَ لَكُمْ » وفي رواية : « كَانَ أَشَدَّهُمْ عَلَيَّ حِينَ مَرَرْتُ بِهِ ، وَخَيْرَهُمْ لِي حِينَ رَجَعْتُ »[4] .

: اختلف العلماء قديماً وحديثاً في أن نبينا صلى الله عليه وسلم رأى ربه في هـٰذا المقام الذي وصل إليه دون غيره من الخلق بعين رأسه ، أو بعين قلبه فقط ، والذي

---

(١) : أي حق من حقوقه .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) ، وليس عندها لفظ : « علمت أنها عزمة من ربي . . . » .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/ ٣٨٤) .

(٤) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/ ٧٧) : (رواه البزار ورجاله موثقون ، إلا أن الربيع بن أنس قال : عن أبي العالية أو غيره ، فتابعيُّه مجهول) .

صح عن ابن عباس في رواية : (أنه رآه بعين بصره)[1] ، وفي أخرى : (أنه رآه بعين قلبه)[2] ، ولا تخالف ؛ لأنه صح عنه ـ كما رواه الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح إلا واحداً فوثقه ابن حبان ـ : (أنه رآه مرتين ، واحدة بالعين ، وواحدة بالقلب)[3] بمعنى : أنه تعالى خلق فيه إدراكاً كإدراك البصر ، وليس المراد : مجرد العلم ؛ لأنه حاصل له ، بل ولغيره فلا خصوصية ، ورواية ابن مردويه عنه : (لم يره بعينه)[4] لم تصح ، وبتسليمها فالإثبات مقدم على النفي ، وجاء عن أنس بإسناد قوي : (رأى محمد ربه)[5] ، وإطلاق الرؤية إنما ينصرف لرؤية العين ، وكان الحسن البصري يحلف أنه رأى ربه[6] ، وبذلك قال عروة وسائر أصحاب ابن عباس ، وجزم به كعب الأحبار والزهري ومعمر وآخرون ، وهو قول الأشعري وغالب أتباعه ، وأنكرت عائشة وابن مسعود الرؤية ، قال النووي : لكن خالفها غيرها من الصحابة ، والصحابي إذا خولف . . لا يكون قوله حجة اتفاقاً[7] ، ولا حجة لها فيما في « مسلم » عنها : أن مسروقاً قال لها لما أنكرت الرؤية : ألم يقل الله : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هٰذه الأمة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هٰذا ، فقلت : يا رسول الله ؛ هل رأيت ربك ؟ قال : « لاَ ، إِنَّمَا رَأَيْتُ جِبْرِيلَ »[8] وذلك لأنها إنما سألت عما في الآية ، فأجابها بأنه لم يره ؛ أي : في قصة الآية ، وقد مر أنها غير قصة المعراج ، وأن التدلي والدنو الذي في قصة المعراج غيرهما في الآية ، ولا حجة لها في : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ لأن المراد : لا تحيط بحقيقة ذاته العلية ، بدليل : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وإذا جازت في الآخرة . . جازت في الدنيا ؛ لتساويهما بالنسبة للمرئي ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٦) ، وأحمد (١/ ٣٧٠) .
(٢) أخرجه مسلم (١٧٦) .
(٣) المعجم الأوسط (٥٧٥٧) .
(٤) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٧/ ٦٤٩) .
(٥) نقله ابن كثير في « تفسيره » (٣/ ٥) عن البزار بسنده إلى أنس رضي الله عنه .
(٦) حكاه عنه عبد الرزاق كما في « الشفا » للقاضي عياض (ص ٢٤٨) .
(٧) انظر « شرح صحيح مسلم » (٣/ ٥) .
(٨) مسلم (١٧٧) .

وسؤال موسى إياها في الدنيا أظهر دليل على ذلك ؛ إذ لا يجوز على نبي أن يسأل محالاً .

وإنكار المعتزلة ـ قبحهم الله تعالىٰ ـ لها حتى في الآخرة من بدعهم التي خالفوا فيها الكتاب والسنة ، وعلى جوازها في الدنيا لم تقع إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وصح في « مسلم » : « وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا » .

ومعنى خبر « مسلم » : عن أبي ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ ؟ »[1] : أن النور حال بينه وبين رؤيته ببصره ، فكيف مع ذلك يراه ؟

وقد مر أنه رآه مرة ببصره ومرة بقلبه ، فسبب هٰذه حصول ذلك النور ، فلا ينافي وقوع الأولى .

وسئل الإمام أحمد رحمه الله عن قول عائشة رضي الله عنها : (من زعم أن محمداً رأى ربه . . فقد أعظم على الله الفرية) بم يدفع قولها ؟ قال : بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « رَأَيْتُ رَبِّي » ، قول النبي صلى الله عليه وسلم أكبر .

وإذا تأملت ما وقع له صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء من الكرامات التي تميز بها على سائر الخلق . . علمت أنها :

(76)

رُتَبٌ تَسْقُطُ ٱلْأَمَانِيُّ حَسْرَىٰ دُونَهَا مَا وَرَاءَهُنَّ وَرَاءُ

(رتب) جليلة (تسقط الأماني) جمع أمنية (حسرى) جمع حسير ، من : حسر أعيا (دونها) ظرف لـ(تسقط) أي : لجلالة هٰذه الرتب وعزتها على الخلق سقطت أمنياتهم ، وتخلفت طلباتهم وآمالهم عن نيل هٰذه الرتب ، فلم يستطيعوا التوجه إليها حال كونها عاجزة عن التأهل لها ، ولم لا وهي (ما وراءهن وراء) أي : ما قدامهن قدام ؟ بمعنى : أنه ليس بعدهن مرتبة ينالها مخلوق غيره صلى الله عليه وسلم .

ثم لما رجع رسول الله من سفر الإسراء . . مر بعير لقريش تحمل طعاماً ، فيها جمل

---

(١) مسلم (١٧٨) .

عليه غرارتان سوداء وبيضاء ، فلما حاذى العير . . نفرت منه واستدارت ، وتصرع ذلك البعير[١] ، فسلم عليهم ، فقال بعضهم : هـٰذا صوت محمد ، ورأى بعيراً ضل ، وجمعه واحد منهم .

(77)

ثُــمَّ وَافَـىٰ يُحَـدِّثُ ٱلنَّـاسَ شُكْـراً   إِذْ أَتَتْــهُ مِــنْ رَبِّــهِ ٱلنَّعْمَــاءُ

(ثم وافى) مكة قبل الصبح ، فأصبح (يحدث الناس) بما رأى من تلك العجائب والكرامات ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ، (شكراً) أي : من جهة الشكر ، أو لأجل قيامه بشكر ربه ، أو حال كونه شاكراً لأنعمه (إذ) أي : لأجل ، أو وقت (أتته من ربه النعماء) أي : في تلك الليلة ، وحينئذ ارتد ناس كانوا أسلموا ، فذهب مشركون لأبي بكر ، وذكروا له أنه يخبر أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء في ليلة ، فقال : صدق ، فأنكروا عليه ، فقال : إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك في خبر السماء في غدوة وروحة فلذلك سمي الصديق رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه ، رواه الحاكم في « مستدركه »[٢] ، وابن إسحاق ، وزاد : أن أبا بكر جاءه فقال : يقولون : إنك الليلة أتيت بيت المقدس قال : « نَعَمْ » قال : صفه لي فإني جئته فوصفه له كما هو ؛ لأنه رفع إليه فجعل ينظره ويصفه وأبو بكر يصدقه .

وقوله له : (صفه لي) إنما هو ليرد به على من تشكك في ذلك ، ورفعه له حتى ينظره رواه البخاري وكذا مسلم ، وزاد : أنهم سألوه عن أشياء فيه لم يثبتها ، فكرب كرباً ما كرب مثله قط[٣] ، ورفعه له : إما بحمل مثاله ووضعه قريباً منه ، وعليه تحمل رواية : فجيء بالمسجد ؛ أي : بمثاله ، وإما بحمل المسجد نفسه إليه ، وهـٰذا أظهر ؛ لما مر في : (واشتاقت إليه من مكة الأنحاء)، ونظيره مجيء عرش بلقيس إلى سليمان صلى الله على نبينا وعليه وسلم في طرفة عين ، وإما بإزالة الحجب بينه وبينه .

وبهـٰذا ظهرت الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس ثم العروج منه إلى السماء ؛

---

(١) تصرع : ذلَّ .

(٢) مستدرك الحاكم (٣/ ٦٢) .

(٣) البخاري (٣٨٨٦) ، ومسلم (١٧٢) .

لما تقرر أن فيهم من رأى بيت المقدس ، فوصفُه لهم كما هو مع علمهم بأنه لم يذهب إليه قط . . أوضحُ آية على صدقه في جميع ما أخبر به من أمر السماء ، ومما أخبرهم به أنه قال لهم : « إِنَّ مِنْ آيَةِ مَا أَقُولُ لَكُمْ : أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لَكُمْ فِي مَكَانِ كَذَا ، وَقَدْ أَضَلُّوا بَعِيراً لَهُمْ فَجَمَعَهُ فُلاَنٌ ، وَأَنَّ مَسِيرَهُمْ يَنْزِلُونَ بِمَكَانِ كَذَا ، وَيَأْتُونَكُمْ يَوْمَ كَذَا ، يَقْدُمُهُمْ جَمَلٌ آدَمُ عَلَيْهِ مَسْحٌ أَسْوَدُ وَغِرَارَتَانِ » فلما كان ذلك اليوم . . أشرف الناس ينظرون ، حتى إذا كان قريباً من نصف النهار . . أقبلت العير كما وصف صلى الله عليه وسلم[1] ، وفي رواية : أخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء ، ففي يومه كادت الشمس أن تغرب ولم يقدموا ، فدعا الله تعالىٰ فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف .

وعطف على (وافى) قوله :

(78)

وَتَحَدَّىٰ فَٱرْتَابَ كُلُّ مُرِيبٍ   أَوَ يَبْقَىٰ مَعَ ٱلسُّيُولِ ٱلْغُثَاءُ

(وتحدى) صلى الله عليه وسلم كفار مكة وغيرهم بما وقع له ليلة الإسراء ، وما تقدمه من المعجزات كانشقاق القمر ؛ أي : طلب منهم أن يعارضوا ما جاء به شاهداً على نبوته بإبداء نظيره ، وإلا . . كانوا كاذبين مدحوضين (فارتاب) أي : شك وخرس (كل مريب) فانقطع عن المعارضة ولم يسعه إلا التسليم ، فمنهم من أسلم ، ومنهم من مات كافراً : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ، ويلزم من انقطاعهم عن معارضته اتضاح أمره وأنه لم يبق فيه شك ولا ريب ، ومن ثم قال منكراً على من بقي عنده من ذلك شك : (أ) يتضح ذلك الأمر ويبقى معه ريب ؟ لا ، بل اتضح وما بقي معه شك أصلاً (و)كيف (يبقى مع السيول) حال من قوله : (الغثاء ؟) وهو ـ بضم المعجمة وبالمثلثة ـ : ما يحمله السيل مما يجف من النبات ، فكما أن هٰذا الغثاء لا يبقى مع السيل ، بل يذهب به ويهلكه في أسرع وقت ، فكذلك ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات والبراهين الواضحات لا يبقى معه ـ لولا الخذلان الإلهي ـ شك ، بل يذهب ويضمحل في أسرع وقت ، فعلم أنه استعار

(١) أخرجه البزار (٣٤٨٤) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٣٥٥) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ ٢٨٢) .

(السيول) لما أتى به صلى الله عليه وسلم ؛ لأن بها الحياة الحسية ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ ، كما أن ما جاء به الحياة المعنوية ، و(الغثاء) لما تخيلوه ؛ لأنه أمر حقير لا بقاء له ، كما أن الغثاء كذلك ، وفي (ارتاب) و(مريب) جناس الاشتقاق ، وفي الختم بالجملة الاستفهامية التذييل ، نحو : ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ .

تنبيه : ما قدرته بعد همزة الاستفهام هو رأي الزمخشري ومن تبعه ، وهو التحقيق وإن كان هو خلافَ ما عليه سيبويه والجمهور ، فيقدر في نحو : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أَمَكَثُوا ولم يسيروا ؟ وفي : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أتجهلون فلا تعقلون ؟ وفي : ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ أتكفرون ثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ فالهمزة في الكل في محلها الأصلي ، والعطف على جملة مقدرة بينها وبين العاطف ، محافظة على إقرار حرف العطف على حاله من غير تقديم ولا تأخير ، وردُّ أبي حيان لذلك بأنه تقدير ما لا دليل عليه ، وابن هشام بأن فيه تكلفاً وأنه غير مطرد . . فيه نظر[1] ، بل إليه حاجة ، وهي : أن المعنى معه أقوم وأوضح مع رعاية قاعدة الهمزة وحرف العطف ، ودعوى عدم اطراده ممنوعة ؛ لأن السياق حيث وجد فيه ذلك يكون قاضياً بذلك المحذوف .

واعلم : أن الهمزة أصل أدوات الاستفهام ، ومن ثم اختصت بجواز حذفها ، نحو : ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ في المواضع الثلاثة ؛ أي : أهـٰذا ربي[2] ؟ وفي : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ ﴾ أي : أوتلك نعمة ؟ وبأنها ترد لطلب التصور تارة والتصديق أخرى ، (وهل) تختص بالثاني ، والبقية بالأول ، وبأنها تتقدم على العاطف كما هنا تنبيهاً على أصالتها ، والبقية تتأخر عنه ، وبأنها تدخل على الشرط ، نحو : ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ ، وعلى الإثبات والنفي .

---

(١) انظر تفصيل رأي أبي حيان في « البحر » (١/ ١٨٣) ، وقد ذكر أن الزمخشري رجع عن هـٰذا القول في بعض تصانيفه ، وانظر ما قاله ابن هشام في « المغني » (١/ ٢٣) .

(٢) ما ذكره الشارح رحمه الله تعالى من أن قوله تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا رَبِّى ﴾ جملة استفهامية حذفت همزتها . . ذكره أبو حيان في « البحر » (٤/ ١٦٦) بصيغة التضعيف حيث قال : (. . . وقيل : هي استفهامية على جهة الإنكار حذف منها الهمزة ، كقوله :

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ ٱلْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

قال ابن الأنباري : وهـٰذا شاذ ؛ لأنه لا يجوز أن يحذف الحرف إلا إذا كان ثَم فارق بين الإخبار والاستخبار) .

وَهْـوَ يَـدْعُـو إِلَـى ٱلْإِلَـٰـهِ وَإِنْ شَـقَّ   عَلَيْـــهِ كُفْـــرٌ بِـــهِ وَٱزْدِرَاءُ

(وهو يدعو) حال من فاعل (تحدى) أي : تحدى الناس والحال أنه مع إنكارهم وارتيابهم لا يفتر عما أمر به من التبليغ والدعاء (إلى الإلٰه) أي : المعبود بالحق الذي لا يعبد غيره وهو الله تعالى ، وفي (إلى) و(إلـٰه) الجناس الناقص ، ولم ينظر الناظم إلى كون (الإلـٰه) اسم جنس في الأصل لكل معبود ؛ لأن الأئمة أعرضوا عن هـٰذا الأصل واستعملوه في المعبود بحق فقط ، فصار علماً بالغلبة .

ولم يزل صلى الله عليه وسلم يتجدد دعاؤه إلى الله تعالى (وإن شق عليه كفر به) أي : الإلـٰه أو النبي (وازدراء) أي : احتقار وانتقاص له ، فهو مديم لذلك الدعاء ، متحمل لمشقة إنكارهم وقبيح كفرهم وازدرائهم له ولما جاء به .

أخرج أهل السير : أنه صلى الله عليه وسلم كان يطوف على الناس في منازلهم يقول لهم : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ إِنَّ ٱللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً » وأبو لهب عمه وراءه يقول : يا أيها الناس ؛ إن هـٰذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم(١) .

ورماه الوليد بن المغيرة ـ لعنه الله تعالىٰ ـ بالسحر ، وتبعه قومه على ذلك ، وآذته قريش ورموه بالشعر والكهانة والجنون ، ومنهم من كان يحثو التراب على رأسه ، ويجعل الدم على بابه ، ووطىء عقبة بن أبي معيط على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان ، وخنقوه خنقاً شديداً ، وجذبوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره ، فقام أبو بكر دونه قائلاً : (أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ؟!) وصح : أن عقبة بن أبي معيط لف بعنق رسول الله ثوباً وهو بفناء الكعبة فخنقه خنقاً شديداً ، فجاء أبو بكر ودفعه عنه(٢) .

وروى أحمد في « مسنده » : أول من أظهر الإسلام سبعة ، رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٢) ، والحاكم (١/ ١٥) ، والطبراني في « الكبير » (٥/ ٦١) ، وفي « الأوسط » (١٥١٠) ، وهو بنحوه عند البيهقي ، وفي « السنن الكبرى » (٩/ ٧) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٨) ، وابن حبان (٦٥٦٩) ، وأحمد (٢/ ٢٠٤) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٢٧٤) ، وفي « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٧) ، وغيرهم .

عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سمية ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد ، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فمنعه الله ـ أي : عن القتل ـ بعمه أبي طالب ، وأما أبو بكر . . فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم . . فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس ، وإن بلالاً هانت عليه نفسه في الله عز وجل ، وهان على قومه فأخذوه وأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد[١] ؛ أي : لتمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان .

ومر اللعين أبو جهل بسمية أم عمار بن ياسر وهي تعذب ، فطعنها بحربة في فرجها فقتلها[٢] ، وأخرج البيهقي عن عروة : أن أبا بكر رضي الله تعالىٰ عنه أعتق ممن كان يعذب في الله سبعة منهم الزنيرة[٣] ـ أي : بكسر الزاي وتشديد النون المكسورة ـ فعميت فقالوا : ما أعماها إلا اللات والعزىٰ ، فقالت : كلا ، والله ما هو كذلك ، فرد الله عليها بصرها[٤] .

(80)

وَيَـدُلُّ ٱلْـوَرَىٰ عَلَـى ٱللهِ بِـٱلتَّـوْ حِيـدِ وَهْـوَ ٱلْمَحَجَّـةُ ٱلْبَيْضَـاءُ

(وَ) هو مع ذلك أيضاً (يدل الورى) أي : الخلق ، وكأن الناظم أخذ هـٰذا من الحديث الصحيح : « وَأُرْسِلْتُ إِلَى ٱلْخَلْقِ كَافَّةً » فأما الإنس والجن . . فبالإجماع المعلوم من الدين بالضرورة ، فيكفر منكره كما مر ، وأما الملائكة . . فعلى الأصح عند جمع محققين[٥] ، كما يصرح به هـٰذا الحديث ، وقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ يشهد بذلك ؛ إذ العالم ما سوى الله ، واستعمال هـٰذا في العقلاء إنما هو

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٤٠٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٣٢٩) ، وابن سعد في « الطبقات » (٨/ ٢٦٤) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٢٨٢) .

(٣) في النسخ : (الزنير) ، والتصويب من « الإصابة » (٤/ ٣٠٥) ، و« الدلائل » للبيهقي .

(٤) دلائل النبوة (٢/ ٢٨٢) .

(٥) منهم : تقي الدين السبكي رحمه الله تعالىٰ كما في « فتاويه » (٢/ ٦١٣) ، والإمام السيوطي رحمه الله تعالى كما في « الحاوي في الفتاوي » (٢/ ١٣٩) وما بعدها ، وغيرهما ، انظر تفصيل ذلك في « الحاوي » ، و« الحبائك في أخبار الملائك » (ص ٢٥٦) للسيوطي أيضاً .

لتغليبهم لفضلهم ، وقول الرازي : (أجمعنا على أن المراد : الإنس والجن)[1] . . مؤوَّل ، بل مردود ، وأما بقية الجمادات . . فعلى ما ذهب إليه بعض محققي المتأخرين[2] ، ومعنى إرساله للملائكة وهم معصومون : أنهم كلفوا بتعظيمه والإيمان به وإشادة ذكره[3] ، وللجمادات : أنه يركب فيها إدراكات لتؤمن به وتخضع له ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أي : حقيقة لا بلسان الحال فقط ، خلافاً لمن زعمه .

(على الله) أي : على العلم بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وبما يجب له من إثبات كل صفة كمال ، وسلب كل صفة نقص ، بل وكل ما لم يصل إلى أعلى غايات الكمال ، وما يجوز له من إيجاد الخلق وإعدامهم ، وبما يمتنع عليه من المحالات التي لا تتعلق بها القدرة كما هو مقرر في محله (**بالتوحيد**) أي : بطلبه منهم توحيدَه تعالى ، بأن يقروا بأنه تعالى واحد في ذاته فلا تعدد له بوجه ، وصفاته فلا نظير له بوجه ، وأفعاله فلا معين ولا شريك له فيها بوجه .

وظاهر المتن : أن (الباء) في (بالتوحيد) باء الآلة ، ككتبت بالقلم ، ويوجه : بأن العلم **بالتوحيد** ـ كما ذكر ـ ينشأ عنه العلم بما يليق بذات الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله كما تقرر (**وهو**) أي : العلم بكل ذلك والدلالة عليه (**المحجة**) أي : الطريقة إلى رضا الله تعالى التي أمر بها ويثيب عليها (**البيضاء**) أي : النيرة المضيئة الواضحة التي لا يضل سالكها ولا ينقطع ولا يخشى فيها من آفة ، وهـٰذا مقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم : « تَرَكْتُكُمْ عَلَى ٱلْوَاضِحَةِ ٱلْبَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، وَنَهَارُهَا كَلَيْلِهَا ، لاَ يَزِيغُ عَنْهَا إِلاَّ هَالِكٌ »[4] .

ولما صبر صلى الله عليه وسلم على تبليغهم مع ما حصل له منهم مما أشار الناظم إليه بقوله : (وإن شق عليه . . .) إلخ . . أطاع الله له أكثرهم حتى صاروا من أكابر أتباعه كما قال :

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٤٥) .

(٢) نقل ذلك السيوطي عن البارزي . انظر « الحاوي » (٢/ ١٤٠) .

(٣) إشادة ذكره : أي إشاعته ورفعه .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣) ، وأحمد (٤/ ١٢٦) ، والحاكم (١/ ٩٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٢٤٧) ، وغيرهم .

(81)

فَبِمَــا رَحْمَــةٍ مِــنَ ٱللهِ لَانَــتْ   صَخْــرَةٌ مِــنْ إِبَــائِهِــمْ صَمَّــاءُ

(فبما) هي زائدة (رحمة) واصلة إليه (من الله) وهي في الأصل : ميل وعطف نفساني ، غايته التفضل والإنعام ، أو إرادتهما ، والمراد هنا : هـٰذه الغاية ؛ لاستحالة العطف والميل على الله تعالى ، وكذا كل صفة وردت في القرآن أو السنة لله تعالى واستحال عليه معناها يراد بها غايتها ؛ أي : فبسبب رحمة الله لهم وعطفه عليهم ببركة لين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبره عليهم ـ كما يشير لذلك قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ الذي اقتبس الناظم منه هـٰذا ـ . أيقظ قلوبهم وأزال ما فيها من كبر وغي .

فحينئذ (لانت صخرة) هي : الحجر العظيم (من) بيانية ، وجعل الشارح ذلك صفة لـ(صخرة) مع كون (من) بيانية . . بعيد (إبائهم) أي : امتناعهم (صماء) أي : صلبة لا يؤثر فيها معول ، على خلاف العادة ، وبه يظهر حسن التقابل بين (لانت) و(صماء) ، وهو من الطباق ، ويسمى المطابقة والتضاد أيضاً ، وهو : أن يجمع بين معنيين متقابلين في الجملة بتضاد ، أو نفي وإثبات ، أو عدم وملكة ، أو نحو ذلك ؛ أي : زال امتناعهم عن طاعته فيما يأمرهم به فأطاعوه واتبعوه ، فعلم أنه استعار الصخرة التي في غاية الصلابة لإبائهم منه أولاً ؛ إذ كانوا في غاية النفرة عنه والبغض والإيذاء له ، وليونتها وزوال صلابتها لاتباعهم له وانقيادهم لجميع أوامره ونواهيه آخراً ، وبين أن ذلك كله إنما هو بواسطة رحمة من الله وهدايته لهم لا بحوله صلى الله عليه وسلم ولا بقوته ، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ .

(82)

وَٱسْتَجَابَــتْ لَــهُ بِنَصْــرٍ وَفَتْــحٍ   بَعْــدَ ذَاكَ ٱلْخَضْــرَاءُ وَٱلْغَبْــرَاءُ

(و) بعد أن لانوا له ببركة لينه لهم لم يزل لينهم يتزايد حتى (استجابت له) أي : أجابت دعوته وامتثلت إشارته (بنصر وفتح) أي : مع ، أو بسبب ما أعطاه الله من النصر على الأعداء بكثرة الأتباع وإلقاء الرعب في القلوب والفتح لبلادهم بإخماد

شوكتهم واستئصال شأفتهم (**بعد ذاك**) أي : الضعف الذي كان به صلى الله عليه وسلم وبأتباعه لقلتهم وتحريم قتال الأعداء ، وتصميمهم على مناوأته ومعاداته لقوة شوكتهم وكثرة عددهم وعدتهم (**الخضراء**) أي : السماء ، سميت بذلك ؛ لأنها ترى كذلك ، فقد قال القاسم بن أبي برة : (ليست السماء مربعة ، لـٰكنها مقبوة يراها الناس خضراء)[1] وبين الثوري سبب ذلك فقال : (بلغنا أن صخرة تحت الأرض ـ أي : خضراء ، كما في حديث البزار وغيره ـ منها خضرة السماء)[2] أي : وليست في الحقيقة كذلك ؛ للحديث : أنهم قالوا : يا رسول الله ؛ ما هـٰذه السماء ؟ قال : « هَـٰذَا مَوْجٌ مَكْفُوفٌ عَنْكُمْ »[3] .

ومن ثم سئل ابن عباس رضي الله عنهما : السماء من أي شيء ؟ فقال : (إنها من موج مكفوف) ويوافقه قول علي كرم الله وجهه في حلفه : (والذي خلق السماء من ماء ودخان)[4] وقال كعب : (السماء أشد بياضاً من اللبن)[5] وقال الربيع بن أنس : (السماء الدنيا موج مكفوف ، والثانية مرمرة بيضاء ، والثالثة حديد ، والرابعة نحاس ، والخامسة فضة ، والسادسة ذهب ، والسابعة ياقوتة حمراء)[6] وجاء عن سلمان الفارسي رضي الله تعالىٰ عنه ـ لـٰكن بسند واه ـ : (السماء الدنيا من زمردة خضراء ، والثانية من فضة ، والثالثة من ياقوتة حمراء ، والرابعة من درة بيضاء ، والخامسة من ذهبة حمراء ، والسادسة من ياقوتة خضراء ، والسابعة من نور)[7] .

(**والغبراء**) أي : الأرض ، سميت بذلك لأن جميع طبقاتها من طين ، كما جاء عن ابن عمر رضي الله تعالىٰ عنهما قال : (لما أراد الله أن يخلق الأشياء إذ كان عرشه على الماء وإذ لا أرض ولا سماء .. خلق الريح فسلطها على الماء حتى اضطربت أمواجه وأثار ركامه ، فأخرج من الماء دخاناً وطيناً وزبداً ، فأمر الدخان فعلا وسما ،

---

(١) أخرجه عنه ابن أبي حاتم كما في « الدر المنثور » للسيوطي (١/ ٨٦) .
(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم كما في « الدر المنثور » (١/ ١١٠) .
(٣) أخرجه بنحوه الترمذي (٣٢٩٨) ، وأحمد (٢/ ٣٧٠) ، وغيرهما .
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما في « الدر المنثور » (١/ ١١٠) .
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في « الدر المنثور » (١/ ١١٠) .
(٦) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٥٦٥٧) .
(٧) أخرجه أبو الشيخ كما في « الدر المنثور » (١/ ١٠٩) .

فخلق منه السماوات ، وخلق من الطين الأرضين ، وخلق من الزبد الجبال)[١] .

وبين (الخضراء) و(الغبراء) ما مر في (لانت) و(صماء) ، لـكن هـٰذا يسمى التدبيج ؛ لذكر الألوان فيه .

ومعنى استجابة السماء والأرض له صلى الله عليه وسلم : استجابة أهلهما ، ويحتمل أنه استعار السماء للرفيع من الناس والأرض للوضيع ؛ أي : أجابه الرفيع والوضيع حتى لم يتخلف من أهل مكة وغيرهم أحد عنه ؛ إذ لم يبق إلا مسلم أو مسالم ، وعلى الأول فتقييد الناظم استجابة أهل الأرض بالنصر والفتح بتلك البعدية . . ظاهر ، وأما تقييد استجابة أهل السماء بهما . . فهو بمعنى أنه لم تنزل لنصرته الملائكة إلا ببدر وما بعدها ، وذلك إنما هو بعد قوته ، وإلقاء رعبه في القلوب ، والإذن له في الجهاد ، والفتح عليه .

(83)

وَأَطَـاعَـتْ لِأَمْـرِهِ ٱلْعَـرَبُ ٱلْعَـرْ ... بَـــاءُ وَٱلْجَـــاهِلِيَّـــةُ ٱلْجَهْـــلَاءُ

(و) من جملة استجابة أهل الأرض له بعد ذلك أنه (أطاعت لأمره) وهو : القول الدال على الطلب بلفظ افعل ونحوه ، ولنهيه ، وحذفه لفهمه مما ذكره (العرب) ـ بضم فسكون ، أو بفتحتين كما هنا ـ وهم : ولد إسماعيل عليه السلام (العرباء) ويقال : العاربة ، وهم : الخلص من العرب ، ويقال لغير الخلص : العرب المستعربة .

وفي « القاموس » : (والعرب ـ بالضم ، وبالتحريك ـ : خلاف العجم [مؤنث] ـ أي : بالضم والتحريك أيضاً كما ذكره في مادته ـ وهم : سكان الأمصار ، أو عام ، والأعراب منهم : سكان البادية ، لا واحد له ، ويجمع على أَعاريب ، وَعَرَب عَارِبة وعَرِبة ، وَعَرْباء : صُرَحاء ، ومتعربة ومستعربة : دخلاء) ثم قال : (ويعرب بن قحطان أبو اليمن ، قيل : أول من تكلم بالعربية) .

وفي « النهاية » : (الأعراب من العرب : ساكنو البادية الذين لا يقيمون في

---

(١) أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب « الرد على الجهمية » كما في « الدر المنثور » (١/ ١٠٧) .

الأمصار ولا يدخلونها إلا في حاجة ، والعرب : اسم لهٰذا الجيل من الناس ، أقام بالبادية أو المدن)[1] .

وفي « الصحاح » : (ليس الأعراب جمع عرب ـ أي : لأن الجمع لا يكون أخص من واحده ـ وإنما العرب اسم جنس) .

وذكر ابن قتيبة : (أن الأعرابي : هو البدوي ، والعربي : المنسوب إلى العرب وإن لم يكن بدويّاً ، والأعجمي : الذي لا يفصح وإن كان بدويّاً ، والعجمي : المنسوب للعجم) اهـ

وبين المبرد في كتاب « نسب عدنان وقحطان » : أن جميع العرب ترجع إليهما ، وعدنان : هو الجد الأعلى للنبي صلى الله عليه وسلم وسائر العرب العرباء ، وبينه وبين إسماعيل ثمانية آباء ، وقحطان : قال الكلبي : (هو الهميسع ابن بنت إسماعيل عليه السلام) .

(والجاهلية الجهلاء) هو كالعرباء ، فيه تجنيس الاشتقاق وشبه التأكيد اللفظي ، كليل أليل[2] ، وخص هٰذين ؛ لأن تصميمهما على الكفر بلغ من القوة والشدة ما لم يبلغه تصميم غيرهم .

(84)

وَتَــوَالَــتْ لِلْمُصْطَفَــى ٱلْآيَــةُ ٱلْكُبْـــرَىٰ عَلَيْهِــمْ وَٱلْغَــارَةُ ٱلشَّعْــوَاءُ

(وتوالت) أي : تتابعت (للمصطفى) صلى الله عليه وسلم ، متعلق بقوله : (الآية) مفرد محلى بـ (أل) فيكون في معنى الآيات ، وأيضاً فالتوالي إنما يكون في متعدد ؛ أي : العلامات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، والمُدحضة لما تقولوه وافتروه عليه ، وعلقه الشارح بـ(توالت) ، وهو وإن كان هو الظاهر صناعة إلا أن الثاني فيه إفادة : أن ما توالى له إنما هو آياته الخاصة به لا آية من تقدمه (الكبرى عليهم) كالقرآن وانشقاق القمر (و) توالت له عليهم أيضاً (الغارة) على بلادهم

---

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٣/ ٢٠٢) .
(٢) ليل أليل : شديد الظلمة ، ومثله ليل لائل كما في بعض النسخ .

وأموالهم ونفوسهم وذراريهم، وهي : اسم مصدر لـ(أغار) (**الشعواء**) أي : الفاشية المتفرقة المحيطة بهم من سائر الجوانب التي لم تظفر لهم بنفس أو مال إلا أهلكته .

85

وَإِذَا مَـا تَـلَا كِتَـابـاً مِـنَ ٱللهِ تَلَتْـــهُ كَتِيبَـــةٌ خَضْـــرَاءُ

(و) بعد أن استجاب له أهل السماء والأرض ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكثرت أتباعه جدّاً حتىٰ صار (**إذا ما**) زائدة (**تلا**) أي : قرأ (**كتابا**) أنزل عليه (**من الله**) تعالى وهو القرآن (**تلته**) أي : تبعته لأجل القراءة معه أو استماع قراءته الكتائبُ مزدحمين عليه ، لا سيما (**كتيبة**) ـ بالفوقية ـ أي : جيش (**خضراء**) أي : يعلوها سواد السلاح والحديد ، ومن عكسه سواد العراق ؛ لأنه لكثرة شجره من بعيد يرىٰ أسود ، وهي : كتيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي دخل صلى الله عليه وسلم مكة وهو فيها علىٰ ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير ، ولما رآها أبو سفيان . . رأىٰ ما لا قبل له به ، فقال للعباس : (لقد أصبح ملك ابن أخيك ملكاً عظيماً ، فقال له العباس : (ويحك ، إنه ليس بملك ولـٰكنها نبوة)[١] .

وروى البخاري عن عبد الله بن مغفَّل : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ « سورة الفتح » ويرجِّع) وقال : (لولا أن يجتمع الناس حولي . . لرجَّعت كما رجَّع)[٢] .

وبين (تلا) و(تلته) ، و(كتاب) و(كتيبة) تجنيس الاشتقاق أو شبهه .

86

وَكَفَـاهُ ٱلْمُسْتَهْـزِئِيـنَ وَكَـمْ سَـا ءَ نَبِيّـاً مِـنْ قَـوْمِـهِ ٱسْتِهْـزَاءُ

(وكفاه) صلى الله عليه وسلم ربه فضلاً منه وكرماً النفر الأشقياء الذين زادوا في إيذائه والعتو عليه (المستهزئين) به ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ ،

---

(١) أخرجه بنحوه البزار (١٢٩٢) ، والطبراني في « الكبير » (٢٣/ ٤٣٥) .
(٢) البخاري (٤٢٨١) .

وهم : جماعة من قومه كانوا يسخرون منه ويبالغون في إيذائه والسخرية به ؛ أي : تولىٰ إهلاكهم ، من : كفيت فلاناً المؤنة إذا توليتها له فلم تحوجه إليها ، ومع توليه تعالىٰ إهلاك المستهزئين به سلاه ، فأعلمه بأن هـٰذا ليس خاصاً به ، بل الأنبياء قبله كانوا كذلك بقوله عز قائلاً : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ ، ومن ثم اقتبس المصنف من هـٰذا كقوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ . . .﴾ الآية قوله : (**وكم**) مرات كثيرة (**ساء**) أي : أحزن (**نبيّا**) بينهما الجناس المصحف (**من قومه**) متعلق بقوله : (**استهزاء**) أي : سخرية وإيذاء ، ففيه اقتباس وتلميح ، وهو : الإشارة إلىٰ قصة أو شعر أو مثل سائر ، وذكرنا التلميح هنا مع كثرته في كلامه ؛ لأنه هنا أظهر باعتبار ظهور قصة المستهزئين وشدة الاعتناء بها .

وفيه أيضاً التذييل والمثل السائر في الجملة الاستفهامية[١] .

87

وَرَمَاهُمْ بِدَعْوَةٍ مِنْ فِنَاءِ ٱلْـ ـبَيْتِ فِيهَا لِلظَّالِمِينَ فَنَاءُ

(**ورماهم**) أي : أصابهم (**بدعوة**) منه عليهم وصلت إليهم فأهلكتهم ، كما يصل السهم القاتل إلى من رمي به فيهلكه (**من**) أي : بدعوة كائنة في (**فناء البيت**) أي : حوالي الكعبة ، وقيل : إنه شكاهم لجبريل فقال : أمرت أن أكفيكهم ، ثم أشار إلى كلٍّ بما أصابه[٢] ، وذلك لا ينافي دعاءه عليهم ؛ لأن دعاءه كان سبباً لإشارة جبريل عليه السلام إليهم بالهلاك ، وتجويز تعلق (من) بـ(رمىٰ) وأنها لابتداء الغاية . . بعيد ، لـٰكن فيه دقة تشبيه وبلاغة ، ولعل الناظم قصد ذلك لاستقامة الوزن مع كلٍّ ، فإيثارها مع كونها خلاف المتبادر إنما هو عن قصد ، ثم وصف الدعوة أيضاً بقوله : (**فيها**) أي : تلك الدعوة (**للظالمين**) متعلق بما بعده ، والأصل : لهم ، وعدل عنه ؛ ليبين أن سبب إهلاكهم ظلمهم وبغيهم عليه صلى الله عليه وسلم ، والظلم : وضع الشيء في غير موضعه ومحله (**فناء**) أي : استئصال لهم حتى لم يبق منهم أحد .

---

(١) لعل صواب العبارة أن يقول : (في الجملة الخبرية) لأنه قال أثناء شرح النظم : (« وكم » مرات كثيرة . . .) ، وهـٰذا يدل على أنها خبرية لا استفهامية ، والله أعلم .

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٩٨٣) .

وبين (فِناء) و(فَناء) جناس محرف ؛ لاختلاف حركة الفاء .

(88)

خَمْسَــةٌ كُلُّهُــمْ أُصِيبُــوا بِــدَاءٍ   وَٱلــرَّدَىٰ مِــنْ جُنُــودِهِ ٱلْأَدْوَاءُ

(خمسة) بدل من (المستهزئين) أو (الظالمين) ، ويصح رفعه ؛ أي : هم ، وخصهم مع أن من المستهزئين أبا لهب وزوجته وعقبة بن أبي معيط والحكم بن العاصي ؛ لأنهم أشدهم ، ولذا عجلت عقوبتهم (**كلهم أصيبوا بداء**) عظيم (**والردى**) أي : الهلاك (من) جملة (**جنوده**) المعينة عليه (**الأدواء**) جمع داء ، وهو المرض ، وهـٰذا ساقه مساق الحكم ؛ لمناسبته لما قبله ، فإنه كالتعليل له ؛ أي : إنما أصيبوا بذلك الداء ؛ لأنهم سعوا في تحصيل أسباب الردى لهم حتىٰ وقعوا فيه ولم يجدوا منه مخلصاً .

وبين (داء) و(أدواء) جناس ناقص كما مر .

ثم فصل ذلك الداء الذي أهلكهم الله به فقال :

(89)

فَــدَهَــى ٱلْأَسْــوَدَ بْــنَ مُطَّلِــبٍ أَيُّ   عَمَــىً مَيِّــتٌ بِــهِ ٱلْأَحْيَــاءُ

(فدهى) من الداهية ، وهي : الأمر العظيم المهلك (**الأسود بن مطلب**) بن أسد بن عبد العزىٰ ، فهو أسدي (**أي عمىً**) أي : عمىً عظيم ؛ لأنه كما طمس بصره طمس بصيرته حتى لم يبق له تمييز بين الحسن والقبيح ، وليس العمى إلا عمى البصيرة (ميت به) أي : بسبب ذلك العمى (**الأحياء**) في حكم الأموات الذين لا ينظر إليهم ولا يعول عليهم ، ويحتمل أن المراد : أن عماه كان سبباً لموته علىٰ خلاف العادة ؛ مبالغة في هلاك ذلك اللعين ، وأنه قتل بما لا يقتل عادة ؛ لأنه حقت عليه الكلمة فمات فوراً من غير سبب ظاهر لذلك .

وبما تقرر علم أن (ميت) مبتدأ وما بعده سد مسد الخبر ؛ أي : إن من شأن هـٰذا العمى أنه لو وقع للأحياء.. صاروا به في حكم الأموات لا بصر لهم ولا بصيرة ، فالجملة مؤكدة لما أفاده تنوين (عمىً) أنه عمىٰ بصر وبصيرة .

ولم ينظر الناظم إلى عدم اعتماد هٰذا المبتدأ ؛ جرياً على مذهب الكوفيين فإنه قوي ، ومن ثم تبعهم الأخفش مع تقدُّمه وتحقيقِهِ ، وقال ابن مالك : (الاعتماد حسن لا واجب) وكأنه يريد أن يجمع به بين رأي البصريين والكوفيين ، لٰكنه خلاف ما صرحوا به فيكون رأياً ثالثاً ، لا يقال : (ميت) خبر مقدم ؛ لأنا نقول : لو كان خبراً . . لقال : ميتون ؛ لوجوب المطابقة ، ولا حجة في قولهم : (خبير بنو لهب) أن (خبير) خبر مقدم ؛ لأن (فعيل) لا تلزم فيه المطابقة .

وبين (ميت) و(الأحياء) الطباق .

(90)

وَدَهَى ٱلْأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ يَغُوثٍ ۝ أَنْ سَقَاهُ كَأْسَ ٱلرَّدَىٰ ٱسْتِسْقَاءُ

(ودهىٰ) أيضاً (**الأسود بن عبد يغوث**) بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فهو زهري ، ويغوث في الأصل : اسم صنم (**أن سقاه كأس الردىٰ**) أي : الموت (**استسقاء**) حصل له في جوفه واستمر به حتىٰ أهلكه ، وهو داء خبيث علىٰ أنواع ، المراد منها هنا : الزقي ، وهو : امتلاء الأمعاء بالماء الفاسد المبطل للحرارة الغريزية المفضي إلى الهلاك عن قرب .

وبين (سقا) و(استسقاء) جناس الاشتقاق ، وتشبيه (الردى) بالمشروب حتىٰ أثبت له ما هو من لوازم المشبه به من الكأس والسقي . . استعارة بالكناية تتبعها الاستعارة التخييلية .

(91)

وَأَصَابَ ٱلْوَلِيدَ خَدْشَةُ سَهْمٍ ۝ قَصَّرَتْ عَنْهَا ٱلْحَيَّةُ ٱلرَّقْطَاءُ

(**وأصاب الوليد**) بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، فهو مخزومي (**خدشة سهم**) أي : أثر جراحة بأسفل رجله من شخص في يده نبل ، وقيل : أصابت ذيله شوكة فمنعه الكبر من أن يهوي لقلعها فضربها بالسوط فأصابت رجله ، فتآكلت ومات منها قبل وقعة بدر ، فكان سم ذلك الجرح أسرع إلىٰ هلاكه وأشنع من سم الأفاعي ، فلذلك (**قصرت عنها**) أي : عن تلك الخدشة (**الحية الرقطاء**) أي : التي

يخالط سوادها نقط بيض ، وهي أعظم الحيات أذىً ، ووجه قصورها عنها في الإفضاء إلى القتل : أن الحية قد يقع البرء من لسعتها ، بخلاف تلك الخدشة ، فإنها كانت قاتلة له حتماً ؛ لأنها أثر تلك الدعوة عليه المقبولة .

ثم رأيت بعضهم قال : (وإنما كان ما أصاب الوليد أعظم ؛ لأن الحية إنما تهلك بواسطة السم ، وهٰذا بلا واسطة) اهـ

وما ذكرته أوضح وأحسن كما لا يخفى .

(92)

وَقَضَتْ شَوْكَةٌ عَلَىٰ مُهْجَةِ ٱلْعَا صِي فَلِلّٰهِ ٱلنَّقْعَةُ ٱلشَّوْكَاءُ

(**وقضت شوكة**) دخلت في أخمص رجل العاصي (**على مهجة العاصي**) بن وائل بن هشام بن سعد ، بن سهم ، فهو سهمي ؛ أي : قتلته قتلاً عجيباً ، ومن ثم عقبه بما يفيد التعجب فقال : (**فلله**) هٰذه (**النقعة**) من قولهم : الناس نقائع الموت ؛ أي : أنه يجزرهم كما يجزر الجزار النقيعة (**الشوكاء**) من قولهم : بردة شوكاء ؛ أي : خشنة الملمس ؛ أي : ما أعجب هٰذه القتلة الشديدة التي حصلت له من تلك الشوكة القليلة التأثير عادة ، فلله درها من شوكة نحرته في أسرع وقت!

(93)

وَعَلَى ٱلْحَارِثِ ٱلْقُيُوحُ وَقَدْ سَا لَ بِهَا رَأْسُهُ وَسَاءَ ٱلْوِعَاءُ

(**و**) قضت (**على الحارث**) مولى الطلاطلة بالموت الفظيع (**القيوح**) جمع قيح ، وهو : المادة البيضاء التي لا يخالطها دم (**و**) الحال أنه (**قد سال بها رأسه وساء**) أي : قبح ذلك الرأس الذي هو (**الوعاء**) لتلك القيوح القاتلة لصاحبه . وبين (سال) و(ساء) الجناس الناقص[1] ، وفي الختم بـ(ساء الوعاء) التذييل .

هٰؤلاء الملاعين

(١) لو قال : الجناس اللاحق . . لكان أولى ؛ لأن الناقص : ما كان في إحدى كلمتيه نقص حرف أو حرفين عن الأخرىٰ ، أما إذا كان الاختلاف في حرفين متباعدي المخرج كما هنا . . فهو اللاحق ، وإن كان في حرفين متقاربي المخرج . . فهو المضارع ، والله أعلم .

خَمْسَــةٌ طُهِّــرَتْ بِقَطْعِهِــمُ ٱلْأَرْ ضُ فَكَــفُّ ٱلْأَذَىٰ بِهِــمْ شَــلَّاءُ

(خمسة طهرت بقطعهم) أي : هلاكهم (الأرض) أي : مكة ونواحيها ، أو مطلقاً ؛ لأن ضررهم يسري إلى جميع البلاد (فكف الأذىٰ) الذي كان يصل للناس لا سيما نبينا صلى الله عليه وسلم منهم (بهم) أي : بسبب فقدهم ، أو مع فقدهم (شلاء) أي : فاقدة الحركة ، فعلم أنه شبه (الأذى) بالإنسان من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ؛ لإفادة أن الأذى لو تجسم . . لكان إنساناً يقدر على إيصال ما يريده بأي وجه كان ، ثم أثبت له ما هو من لوازم المشبه به وهو (الكف) الذي يتناول بها سائر المضار التي يريدها ، ووصفها بالشلل ؛ لبيان أن (الأذى) بفقدهم صار معطلاً لا حركة فيه ولا تأثير ، ففيه استعارة مكنية تتبعها استعارة تخييلية .

وذكر الشلل الملائم للمشبه به ترشيح .

فُـدِيَـتْ خَمْسَـةُ ٱلصَّحِيْفَـةِ بِـٱلْخَمْـ ـسَــةِ إِنْ كَــانَ لِلْكِــرَامِ فِــدَاءُ

(فديت) بالبناء للمفعول ، يقال : فداك بفتح أوله فيقصر ، وبكسره فيقصر ويمد ، وهو : دعاء متضمن للتعظيم ، فهو من حيز الإنشاء ؛ أي : لو أمكن أن أحداً يكون فداء أحد من الموت . . لسألت أن يكون هـٰؤلاء فداءهم ، أو المراد : اللهم ؛ اجعلهم فداءهم من المؤذيات ، وقوله : (إن كان للكرام فداء) الدال على أنه لا فداء لهم . . يدل على المعنى الأول[1] (خمسة الصحيفة) الآتي بيانهم (بالخمسة) الملاعين السابق ذكرهم ؛ أي : جعلت هـٰؤلاء جميعهم فداء لكل واحد من أولـٰئك من كل مكروه ، فالمقابلة هنا ليست من باب : ركب القوم دوابهم (إن) جزاؤها محذوف ؛ لدلالة ما قبله عليه (كان للكرام فداء) وأولـٰئك الخمسة الذين سعوا في

---

(١) مراده بالمعنى الأول : أنهم يكونون فداء لهم من الموت ، وأما الثاني : فهو أنهم فداء لهم من المؤذيات ، ويدخل فيها عذاب الآخرة .

نقض الصحيفة من جملة الكرام الذين يتعين فداؤهم عند الحاجات والشدائد إن نفع الفداء ؛ لأنهم بذلوا نفوسهم في أمر عظيم جدّاً كما يعلم من ذكر قصتها ، وهي : أن قريشاً لما رأت عزة النبي صلى الله عليه وسلم بأمره في سنة خمس من النبوة بضعةَ عشر من أصحابه منهم عثمان وزوجته رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة واستقرارهم فيها ، وبإسلام حمزة ثم عمر بعده بثلاثة أيام ، وبفشو الإسلام في القبائل . . أجمعوا علىٰ أن يقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك أبا طالب ، فأتوا إليه بعُمارة بن الوليد أعز فتىً فيهم ليأخذه بدل ابن أخيه فأبى ، وجمع بني هاشم وبني المطلب ، فأدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله ، وأجابوه لذلك حتى كفارهم حمية على عادة الجاهلية .

فلما رأت قريش ذلك . . اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب : أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوا منهم شيئاً ولا يبتاعوا ، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً حتىٰ يسلموا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل ، وكتبوا ذلك في صحيفة بخط بعضهم ، فشَلَّت يدُه ، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة تأكيداً في حفظها وبقائها ، وكان ذلك هلال المحرم سنة سبع من النبوة ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شعبه إلا أبا لهب فكان مع قريش لعنه الله ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا ، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً ، حتىٰ إن حكيم بن حِزام حمَّل غلامه حبّاً يريد به عمته خديجة رضي الله عنها ، فلقيه أبو جهل اللعين فتعلق به وأراد أن يفضحه ، فانتصر له أبو البَخْتَرِي بن هشام بن الحارث بن أسد ، وقال : خل سبيله فأبىٰ ، فأخذ له لَحْيَ جمل فضربه به فشجه ووطئه وطءاً شديداً ، فلما مضت تلك المدة . . قام أولـٰئك الخمسة في نقض تلك الصحيفة ، وكان رأسهم هشام بن الحارث ؛ لعزته بعمه لأمه الذي هو أخو عبد المطلب ، ومن ثم كان واصلاً لبني هاشم ، فكان يأتيهم ليلاً بالبعير وعليه الطعام إلى فم الشعب فيخلع خطامه ويضربه حتى يدخل[1] .

ولعزة هشام بعمه هـٰذا مشىٰ إلىٰ زهير بن عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال :

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/٣٥٣) ، و« طبقات ابن سعد » (١/٢٠٨) ، و« سبل الهدى والرشاد » (٢/٥٠٢) .

أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت ، وشدد عليه حتىٰ قال : لو وجدت رجلاً معي . . لنقضتها ، فقال : أنا معك ، فقال : أبغنا ثالثاً ، فذهب إلى المطعم واستنخاه حتى قال : لو وجدت رجلاً ، قال : قد وجدت زهير بن أبي أمية ، قال : أبغنا رابعاً ، فذهب إلى أبي البَخْتَري واستنخاه أيضاً فقال : وهل من معين ؟ فذكر له أولـٰئك ، فقال : أبغنا خامساً ، فذهب إلى زَمْعة واستنخاه فقال : فهل من أحد ؟ فذكر له القوم ، فاجتمعوا بالحَجُون وأجمعوا على نقضها ، فقال لهم زهير : وأنا أول من يتكلم ، فلما أصبحوا . . غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بحلة فطاف سبعاً ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ؛ إنا نأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم فيما ترون!! والله لا أقعد حتى نشق هـٰذه الصحيفة الظالمة القاطعة ، فقال له أبو جهل : كذبت والله لا تشق ، فقال زَمْعة : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت ، وقال أبو البَخْتَري : صدق زَمْعة ، ما نرضىٰ ما كتب فيها ولا نقرُّ به ، وقال المطعم : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها ، فقال أبو جهل : هـٰذا أمر قضي بليل ، اشتور فيه بغير هـٰذا المكان ، وأبو طالب جالس ، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا : باسمك اللهم[١] ، ولا يعارض ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قال لأبي طالب : « يَا عَمِّ ؛ إِنَّ رَبِّي سَلَّطَ ٱلأَرَضَةَ عَلَىٰ صَحِيفَةِ قُرَيْشٍ ، فَلَمْ تَدَعْ فِيهَا ٱسْماً هُوَ لِلّٰهِ إِلاَّ أَثْبَتَتْهُ ، وَمَحَتْ مِنْهَا ٱلظُّلْمَ وَٱلْقَطِيعَةَ وَٱلْبُهْتَانَ » فقال : أربك أخبرك بهـٰذا ؟ قال : « نَعَمْ » فأخبرهم أبو طالب بذلك ، وقال : أنزلوها ، فإن صدق . . فانتهوا عن قطيعتنا ، وإلا . . دفعته إليكم ، فنظروها فإذا هي كما قال صلى الله عليه وسلم ، فازدادوا شرّاً ، وذلك لأنه لا مانع أنهم لما نظروا ذلك وازدادوا شرّاً . . قام أولـٰئك الخمسة في إذهابها من أصلها ، فسعوا في نقضها وبذلوا جهدهم فيه[٢] .

قال الشارح : (ويحتمل أن أبا طالب إنما أخبر بعد سعيهم في نقضها) اهـ ويبعده : أن الإخبار بذلك حينئذ ليس له كبير جدوىٰ ، فالأولى بل المتعين ما قدمته .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٣٧٥) وما بعدها ، و« سبل الهدى والرشاد » (٢/ ٥٠٤) .
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٣٧٧) ، و« سبل الهدى والرشاد » (٢/ ٥٠٥) .

إذا تقرر ذلك . . علم أنهم :

(96)

فِتْيَــةٌ بَيَّتُــوا عَلَــىٰ فِعْــلِ خَيْــرٍ   حَمِــدَ ٱلصُّبْــحُ أَمْــرَهُ وَٱلْمَسَــاءُ

(فتية) أي : كرام ، جمع فتىً ، وهو : السخي الكريم ، وفيه تصريح بما أومأ إليه من وصفهم بمكارم الأخلاق (بيتوا) أي : دبروا واشتوروا بالحَجُون ليلاً (على فعل خير) هو نقضها والمخاطرة دونه بالنفوس ؛ لشدة قريش في إبقائها مع كثرتهم وعتوهم (حمد الصبح) أي : الفجر ، أو الصباح ، وهو : من الفجر إلى الزوال ، ويدل على هٰذا مقابلته بالمساء الذي هو : من الزوال إلى الغروب (أمره) أي : شأنه وغايته (والمساء) وإسناد الحمد لهٰذين الزمانين مجاز دال علىٰ شدة المبالغة في وقوع الحمد وطلبه علىٰ فعل ذلك الخير ؛ لأن الزمان إذا حمد علىٰ ذلك . . فسائر العقلاء أولى وأحق بذلك .

وبين (الصبح) و(المساء) الطباق ، كـ(الشدة) و(الرخاء) ، و(النقض) و(الإبرام) فيما يأتي ، وجَعْلُ الشارح غيرَ الأخيرين من المقابلة وهما من الطباق . . لا يتأتى على تفسيرهم الطباق بأنه : الجمع بين معنيين متقابلين في الجملة ، كما مر مبسوطاً .

(97)

يَــا لَأَمْــرٍ أَتَــاهُ بَعْــدَ هِشَــامٍ   زَمْعَــةٌ إِنَّــهُ ٱلْفَتَــى ٱلْأَتَّــاءُ

(يا لأمر) ـ بفتح اللام ـ هو نقضها ، وناداه علىٰ طريق الاستغاثة ، تنزيلاً له منزلة العاقل ، مبالغة في تعظيمه ، ولذا كان ذلك مفيداً للتعجب من وقوعه ، كقولهم : يا للدواهي! إذا تعجبوا من كثرتها (أتاه بعد هشام) بن الحارث بن حبيب بن خزيمة بن مالك بن حنبل بن عامر بن لؤي ، فهو عامري ، وقدمه لما مر أنه أول الخمسة والسبب في اجتماعهم (زمعة) بن الأسود بن المطلب بن أسد (إنه) بالكسر استئناف فيه معنى التعليل ؛ لكونه أول من كذب أبا جهل ورد عن هشام كما

مر[١] (الفتىٰ) أي : الكريم في قومه (**الأتاء**) صيغة مبالغة من أتى ، ففيه مع (أتاه) جناس الاشتقاق ، كما في (فديت) و(فداء) .

(98)

وَزُهَيْــرٌ وَٱلْمُطْعِــمُ بْــنُ عَــدِيٍّ وَأَبُـو ٱلْبَخْتَـرِيِّ مِـنْ حَيْـثُ شَـاؤُوا

(**وزهير**) بن أبي أمية بن المغيرة ، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم (**والمطعم بن عدي وأبو البختري**) وأتى هـؤلاء الخمسة النقض لا عن غير اتفاق ومواطأة ، بل إنما أتوه إتياناً كائناً (**من حيث**) ظرف مكان حقيقة أو مجازاً ، وجوز الأخفش كونها ظرف زمان ، ويجوز فتحه وجره وحاثُ وحوثُ ، وإعرابها لغة قليلة ، وتلزم الإضافة لجملة وندرت لمفرد خلافاً للكسائي ، وعدم إضافتها بالكلية أندر ، فتعوض (ما) وتصرفها نادر ، بل أنكره أبو حيان ، والغالب كونها في محل نصب على الظرفية أو خفض بمن ، ولا تقع اسم (إن) ولا مفعولاً به على خلاف فيها ، وزعم الفارسي أنها في قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ مفعول به[٢] ؛ إذ المعنىٰ أنه سبحانه يعلم نفس المكان المستحق لوضع الرسالة فيه لا شيئاً في المكان ، وناصبها يعلم المدلول عليه بـ(أعلم) لا (هو) لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعولَ به إلا إن أول بـ(عالم) (**شاؤوا**) أي : من المكان الذي قصدوه لتدبير أمرهم وتشاورهم عليه ، فلذلك وقع فعلهم الموقع الذي قصدوه ، ونتج الإنتاج الذي دبروه .

(99)

نَقَضُــوا مُبْـرَمَ ٱلصَّحِيفَـةِ إِذْ شَــدَّ تْ عَلَيْــهِ مِــنَ ٱلْعِــدَا ٱلْأَنْــدَاءُ

(**نقضوا**) بدل من (فعل خير) ، من نقض العهد ؛ أي : إبطاله (**مبرم**) أي : محكم فتله كالبريم : الحبل الذي جمع من مفتولين ففتلا حبلاً واحداً (**الصحيفة**) التي

---

(١) الذي مرَّ أنه ردَّ عن زهير الذي بدأ بالكلام حيث قال لهم : (وأنا أول من يتكلم) ، ولم يُذكر لهشام كلامٌ ، والله أعلم .

(٢) انظر التفصيل في ذلك مع الشواهد في « همع الهوامع » للسيوطي (٢/ ٢٠٩) .

توافقت قريش علىٰ إبقائها على الدوام إلا أن يُسلِّم بنو هاشم وبنو المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم (**إذ**) أي : وقت ، أو لأجل أن (**شدت**) أي : صممت (**عليه**) أي : على ذلك الأمر المبرم ، وهو عدم نقض تلك الصحيفة (**من العدا**) بيان لقوله : (**الأنداء**) جمع ناد ، وهو العشيرة ، ومنه : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ وأصله : المكان الذي يُجلس فيه للتحدث والسمر ، سمي من فيه باسمه ؛ أي : نقضوا هٰذا الأمر المبرم الذي قواه عشائرهم وصمموا عليه .

(100)

أَذْكَـرَتْنَـا بِـأَكْلِهَـا أَكْـلَ مِنْسَـا ... ةِ سُلَيْمَـانَ ٱلْأَرْضَـةُ ٱلْخَـرْسَـاءُ

(**أذكرتنا**) بعد نسياننا ، جملة استئنافية لبيان أن لأكل الأرضة للصحيفة نظيراً هو أكلها لعصا سليمان (**بأكلها**) لتلك الصحيفة ، والضمير لـ(الأرضة) الآتية التي هي الفاعل ، فهو عائد على متقدم رتبة ، وهو سائغ (**أكل**) مفعول (أذكرتنا) الثاني (**منساة**) أي : عصا (**سليمان**) بن داوود عليهما السلام لما مات وهو متكىء عليها ، فصار كذلك سنة والجن يعتقدون حياته فيدأبون فيما سخرهم فيه من الأعمال الشاقة ، وما علموا موته إلا بأكل الأرضة لِمنْسأَته فخر ساقطاً ، وعلموا حينئذ أن لهم سنة مسخرين في العمل ، وأنهم كاذبون في ادعائهم علم الغيب ، ولذا قال تعالىٰ عز قائلاً : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ .

(**الأرضة**) ـ بفتح الراء وقد تسكن كما هنا ـ وهي : دويبة تأكل حتى الخشب أكلاً ذريعاً (**الخرساء**) فيه تعجب من شأنها ؛ إذ ليس من شأن الأخرس التذكير ، وإثبات الخرس لها مجاز ؛ إذ حقيقته : فقد النطق عما من شأنه النطق .

(101)

وَبِهَـا أَخْبَـرَ ٱلنَّبِـيُّ وَكَـمْ أَخْـ ... ـرَجَ خَـبْءاً لَـهُ ٱلْغُيُـوبُ خِبَـاءُ

(**وبها**) أي : وبأكلها للصحيفة (**أخبر النبي**) صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب ، وهو أخبر قريشاً كما مر مبسوطاً (**وكم**) مرات كثيرة (**أخرج**) صلى الله عليه

وسلم ؛ أي : أظهر (**خبءاً**) أي : شيئاً مخبأ (**له الغيوب خباء**) أي : ساترة .

وبين (خبءاً) و(خباء) الجناس المحرف ، وفي (وكم . . .) إلخ التذييل .

تنبيهان : أحدهما : يجب علىٰ كل أحد أن يعتقد أن الله تعالىٰ هو المختص بعلم الغيب ، وأن ما حصل لرسله وأوليائه منه فهو إما بوحي من الله أو إلهام ، والاستثناء في قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ . . . ﴾ إلخ . . متصل كما هو الأصل ، وذكر الرسول لا للاختصاص به ، بل لأن كرامة أولياء أتباعه من جملة كراماته ومعجزاته ، وفي الحديث : « إِنِّي لاَ أَعْلَمُ إِلاَّ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي » .

ثانيهما في بيان ما أشار إليه الناظم من كثرة ما أخبر به صلى الله عليه وسلم من المغيبات : وحاصل شيء من ذلك : أن مما يدل علىٰ كثرة ما أخبر صلى الله عليه وسلم به من الغيوب ما في القرآن منها مما لا يحيط به حد ، وخبر الطبراني : « إِنَّ ٱللهَ قَدْ رَفَعَ لِيَ ٱلدُّنْيَا ، فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا هُوَ كَائِنٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ، كَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى كَفِّي هَـٰذِهِ »[١] وخبر أبي داوود : (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً ، فما ترك شيئاً إلىٰ قيام الساعة إلا حدثنا به)[٢] .

وفي الحديث الصحيح : « فَعُلِّمْتُ عِلْمَ ٱلأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ » .

وصح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بموت النجاشي يوم موته بالحبشة ، وصلى عليه بأصحابه[٣] .

وأنه وأبا بكر وعمر وعثمان صعدوا أحداً فتحرك ، فضربه برجله وقال له : « ٱثْبُتْ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » فاستشهدا .

وأن ملك قيصر وكسرى ينقطع بعده من العراق والشام ، فكان كذلك في زمان عمر .

---

(١) ذكره الهيثمي في « المجمع » (٨/ ٩٨٠) وقال : (رواه الطبراني ، ورجاله وثقوا على ضعف كثير في سعيد بن سنان الرهاوي) .

(٢) سنن أبي داوود (٤٢٣٧) .

(٣) أخرجه البخاري (١٢٥٤) ، ومسلم (٩٥١) ، وابن ماجه (١٥٣٤) ، وأحمد (٤/ ٧) ، والطبراني (٣/ ١٧٨) ، وغيرهم .

وأنه قال لسراقة : « كَيْفَ بِكَ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَىٰ ؟! » فألبسهما عمر له لما زال ملك كسرى في زمنه تحقيقاً لذلك .

وأخبر عمه العباس ببدر بما تركه بمكة من المال عند زوجته ولم يطلع عليه أحد غيرهما[١] .

وأخبر بكتاب حاطب إلىٰ أهل مكة[٢] ، وبموضع ناقته حين ضلت وتعلقت بخطامها في الشجرة[٣] .

وبأن قريشاً بعد الأحزاب لا يغزونه[٤] ، وباستشهاد أمير الجيش الذي أرسله لمؤتة ـ بلد بأرض الشام ـ يوم قتلهم ، زيد بن حارثة ، فجعفر بن أبي طالب ، فعبد الله بن رواحة رضي الله تعالىٰ عنهم[٥] .

وبأن بنته فاطمة رضي الله تعالىٰ عنها أول أهله لحوقاً به[٦] ، فعاشت بعده ثمانية أشهر أو ستة .

وبأن أشقى الأولين والآخرين قاتل علي كرم الله تعالىٰ وجهه ، يضربه في يافوخه[٧] فتبتل منها لحيته ، فضربه الشقي ابن ملجم ضربة كذلك فمات منها[٨] .

وبأن معاوية رضي الله عنه يلي أمر أمته ، وبأنه لم يغلب ، رواهما ابن عساكر ، ومن ثم قال علي كرم الله تعالىٰ وجهه يوم صفين : (لو ذكرت هـٰذا الحديث . . ما قاتلته)[٩] .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٥٣) ، والبيهقي في « الدلائل » (٣/ ١٤٢) ، والحاكم (٣/ ٣٢٤) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) ، وأبو داوود (٢٦٤٣) ، والترمذي (٣٣٠٥) ، وغيرهم .

(٣) نقله ابن هشام في « سيرته » (٢/ ٥٢٧) عن ابن إسحاق ، وذكره الطبري في « تاريخه » (٣/ ١٠٦) .

(٤) أخرجه البخاري (٤١١٠) .

(٥) أخرجه البخاري (١٢٤٦) ، وأحمد (١/ ٢٠٤) .

(٦) أخرجه البخاري (٣٦٢٦) ، ومسلم (٢٤٥٠) .

(٧) اليافوخ ـ بالتسهيل ويهمز ـ هو : ملتقى عظم مقدم الرأس مع مؤخره .

(٨) أخرجه أبو يعلى (٤٨٥) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٣٨) .

(٩) تاريخ دمشق (٥٩/ ١٠٧) ، و(٥٩/ ٨٧) .

وبأن عثمان يقتل مظلوماً[1] ، ورواية : « تقتل وأنت تقرأ البقرة ، فتقع قطرة من دمك علىٰ : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . . موضوعة[2] .

وبوقعة الحرة ، من عسكر يزيد ـ عامله الله تعالىٰ بعدله ـ بالمدينة[3] ، فاستبيحت نفوس أهلها وأبضاعهم وأموالهم ، وقتل سبع مئة يحفظون القرآن ، منهم ثلاث مئة صحابي ، وافتض فيها ألف عذراء .

وبوقعة الجمل وصفين[4] ، وقتال عائشة والزبير لعلي رضي الله تعالىٰ عنهم ، ولذلك قال علي للزبير رضي الله تعالى عنهما لما برز له يومئذ : (أنشدك الله ، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تُقَاتِلُهُ وَأَنْتَ لَهُ ظَالِمٌ ؟ ») فانصرف الزبير وقال : (بلى ، ولٰكن أنسيت) .

وقد يستشكل الوصف بالظلم مع أن الزبير مجتهد ، فغايته أنه مخطىء ، وهو له أجر بنص الحديث الصحيح[5] ، ويجاب : بأن أصل الظلم : وضع الشيء في غير محله وإن لم يكن فيه إثم ، فالمراد : وأنت قد وضعت القتال في غير محله خطأ منك لا تعمداً ، أو فأنت له ظالم حقيقة لو نظرت في الدليل حق النظر ، بقرينة : ما تقرر أن المجتهد المخطىء له أجر .

وبقوله في الحسن كرم الله تعالى وجهه : « إِنَّ ٱبْنِي هَـٰذَا سَيِّدٌ ، وَسَيُصْلِحُ ٱللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ »[6] فكان كذلك ، فإنه بويع بعد أبيه ، فمكث خليفة ستة أشهر ، ثم سار لمعاوية بأربعين ألفاً ، فلما تراءى الجمعان . . علم كثرة الفريقين ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٠٨) ، وأحمد (٢/ ١١٥) .

(٢) هـٰذه الرواية أخرجها الحاكم (٣/ ١٠٣) ، قال الذهبي : (قلت : كذب بحت ، وفي الإسناد أحمد بن محمد بن عبد الحميد الجعفي ، وهو المتهم به) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٦/ ٤٧٣) ، وانظر « البداية والنهاية » (٦/ ٦١٨) .

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٧٣٢) ، وأحمد (٦/ ٥٢) ، والبيهقي في « الدلائل » (٦/ ٤١٠) ، وغيرهم .

(٥) أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦) ، وأبو داوود (٣٥٦٩) ، والترمذي (١٣٢٦) ، والنسائي (٨/ ٢٢٣) ، وابن ماجه (٢٣١٤) .

(٦) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) ، وابن حبان (٦٩٦٤) ، وأبو داوود (٤٦٢٩) ، والترمذي (٣٧٧٣) ، والنسائي (٣/ ١٠٧) ، وغيرهم .

وأنه لا يغلب أحدهما حتى يقتل الفريق الآخر ، فرق على المسلمين ورحمهم ، ورفض الملك في جنب ذلك ابتغاء لوجه الله تعالىٰ ، كما جاء عنه كرم الله تعالىٰ وجهه ، ثم أرسل لمعاوية يشترط عليه شروطاً وينزل له عن الخلافة ، فأرسل له قرطاساً أبيض وقال : اشترط فيه ما شئت ، فاشترط ونزل له عن الملك ، فصار معاوية من يومئذ خليفة حقيقة .

وبقتل الحسين كرم الله تعالىٰ وجهه بالطَّف ، وأخرج بيده تربة وقال : « فِيهَا مَضْجَعُهُ »[1] .

وصح خبر : استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبي صلى الله عليه وسلم ، فأذن له وكان في يوم أم سلمة ، فأمرها صلى الله عليه وسلم أن تحفظ الباب ، فجاء الحسين فاقتحمه ، فقبله صلى الله عليه وسلم ، فقال له الملك : أتحبه ؟ قال : « نَعَمْ » قال : إن أمتك ستقتله ، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه ، فأراه ، فجاء بسهلة ـ بالكسر : رمل خشن ، أو تراب أحمر ـ فأخذته أم سلمة فجعلته في ثوبها ، قال الراوي : كنا نقول : إنها كربلاء[2] ، وفي رواية : أنه قال لها : إذا صار دماً . . فاعلمي أنه قد قتل .

وأخبر ابنَ عمر بأنه سيعمى لما رأى جبريل معه في صورة رجل[3] .

وأخبر أم عبد الله بن عباس رضي الله تعالىٰ عنهم بأنها ستلده ، وبأنه أبو الخلفاء ، وبأن منهم السفاح والمهدي[4] .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٠٧) ، و« الأوسط » (٦٣١٢) ، و**الطَّفُّ** : أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية . اهـ « معجم البلدان » (٤/ ٣٦) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٧٤٢) ، وأحمد (٣/ ٢٦٥) ، وأبو يعلى (٣٤٠٢) ، والبيهقي في « الدلائل » (٦/ ٤٦٩) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ١٠٦) ، وأبو نعيم في « الدلائل » (٢/ ٧٠٩) .

(٣) كذا في جميع النسخ أنه ابن عمر ، والمشهور أنه ابن عباس كما أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٦/ ٤٧٨) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٣٧) ، والذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٣/ ٣٤٠) .

(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٢٣٥) ، وفي « الأوسط » (٩٢٤٦) ، وزيادة أنه أبو الخلفاء . . . إلخ من « الأوسط » فقط .

وأخبر بأن الترك ستغلب على العرب حتىٰ تلحقها بمنابت الشيح والقيصوم[1] .

وبقوله : « يُوشِكُ ٱلنَّاسُ أَنْ يَضْرِبُوا أَكْبَادَ ٱلإِبِلِ فَلاَ يَجِدُونَ عَالِماً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ ٱلْمَدِينَةِ »[2] قال ابن عيينة : هو مالك بن أنس ، ومن ثم كان الناس يزدحمون علىٰ بابه لأخذ العلم ، حتىٰ يقتتلون ، وممن روى عنه من الأكابر : الزهري ، والسفيانان ، والشافعي ، والأوزاعي إمام أهل الشام ، والليث إمام أهل مصر ، وأبو حنيفة ، وصاحباه أبو يوسف ومحمد ، وذو النون المصري ، والفضيل ، وابن المبارك ، وابن أدهم .

وبعالم قريش رحمه الله تعالىٰ ، وأنه « يَمْلأُ طِبَاقَ ٱلأَرْضِ عِلْماً »[3] ، قال أحمد وغيره : نراه الشافعي ؛ لأنه لم ينتشر في طباق الأرض لقرشي صحابي أو غيره ما انتشر للإمام الشافعي رضي الله عنه ؛ أي : والذي انتشر لعلي وابن عباس ونحوهما مسائل قليلة جدّاً ، كما يَعلم ذلك مَنْ سبرَ كلامهم واطلع عليه ، وزَعْمُ الصغاني أن الحديث موضوع . . تهورٌ منه ، وإنما فيه نوع ضعف ، ذكروا له شواهد تجبره ، وقد جمع الحافظ العسقلاني طرقه في كتاب مستقل .

وأخبر بالخوارج الذين خرجوا على علي كرم الله تعالىٰ وجهه ، وأن فيهم رجلاً أسود ، إحدىٰ عضديه مثل ثدي المرأة ، فقاتلهم علي كرم الله تعالىٰ وجهه ، وأخرج ذلك الرجل حتى رآه الناس بالوصف الذي وصفه صلى الله عليه وسلم[4] .

وأخبر بالرافضة ، وأنهم يرفضون الإسلام[5] ، وبالقدرية والمرجئة[6] ، وبأن أمته ستفترق علىٰ ثلاث وسبعين فرقة ، وبأنها كلها في النار إلا الفرقة التي علىٰ ما كان عليه

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٧٣٧٦) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٧٣٦) ، والترمذي (٢٦٨٠) ، وأحمد (٢/ ٢٩٩) ، والحاكم (١/ ٩٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١/ ٣٨٦) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه الطيالسي في « مسنده » (٣٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ٥٨) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٦١٠) ، ومسلم (١٠٦٤) .

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١٠٣) ، وأبو يعلى (٢٥٨٦) ، والبزار (٤٩٩) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ١٨٧) ، وغيرهم .

(٦) أخرجه أبو داوود (٤٦٥٨) ، والترمذي (٢١٤٩) ، وابن ماجه (٦٢) ، وغيرهم .

هو وأصحابه[1] ، وهم الطائفة الذين أخبر عنهم بأنهم لا يزالون على الحق ، لا يضرهم من خالفهم إلىٰ قيام الساعة ؛ أي : قربه بقليل .

وبأمارات الساعة الكثيرة جدّاً ، فوقع كثير منها ، وينتظر وقوع الباقي ، ومما وقع منها : النار التي قال عنها صلى الله عليه وسلم ـ كما رواه الشيخان ـ : « لَا تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ ، تُضِيءُ لَهَا أَعْنَاقُ ٱلإِبِلِ بِبُصْرَىٰ »[2] فخرجت نار عظيمة علىٰ نحو مرحلة من المدينة المشرفة ، وتقدمتها زلزلة عظيمة بعد عشاء الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وست مئة ، ولم تزل تشتد وتغلي كغليان البحر إلىٰ أن ارتجت منها الأرض ومن عليها حتىٰ أيقن أهل المدينة بالهلاك ، وكثرت الزلازل حتىٰ وقع منها في يوم واحد ثمانية عشر زلزلة ، لٰكن ببركته صلى الله عليه وسلم كان يغشى المدينة نسيم بارد ، ورئيت من مكة وجبال بصرى ، وانطفت ليلة الإسراء سابع عشري رجب ، وقد أوسع المؤرخون في أخبارها بما يطول استقصاؤه .

وإذا تأملت ما أطلعه الله عليه من الغيوب لا سيما ما يتعلق بأمر الصحيفة . . علمت أن ذلك من تمام عناية الله تعالىٰ به ، وأنه لا يضيمه قط ، ومن ثم عقب الناظم ذلك بقوله :

(102)

لَا تَخَلْ جَانِبَ ٱلنَّبِيِّ مُضَاماً ... حِينَ مَسَّتْهُ مِنْهُمُ ٱلْأَسْوَاءُ

(لا تخل) ـ بفتح الفوقية والمعجمة ـ من : خلت الشيء خيلاً ومخيلة ، ظننته (جانب) هو في الأصل : شق الإنسان ، وأريد به هنا كله ، تعبيراً بالبعض عن الكل ، فالإضافة بيانية (النبي مضاماً) أي : مضيعاً (حين) وفي نسخة (حيث) والأول أظهر ؛ إذ هو ظرف لـ(مضاماً) ، (مسته) صلى الله عليه وسلم (منهم) متعلق بقوله : (الأسواء) أي : الأذيات الكثيرة حال كونها صادرة منهم ، كضربه وخنقه ، وإغراء سفهائهم به ، فرموه حتىٰ سال الدم علىٰ نعليه ، وكشجِّ وجهه ، وكسر

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) ، وأحمد (٤/ ١٠٢) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٧٠) ، وغيرهم .

(٢) البخاري (٧١١٨) ، ومسلم (٢٩٠٢) .

رَبَاعِيَته ، وغير ذلك مما لو حمله جبل . . لم يتحمله ، بل جانبه مع ذلك لم يزل يترقىٰ في مراتب النصر والفتح إلىٰ أن بلغ غاية العزة والجلالة ، وجانبهم لم يزل يتقهقر ويضمحل حتى وصل إلىٰ حضيض الذل والهوان ، قال الله تعالى : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ . . .﴾ الآيات ، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ .

ثم ما أصابه صلى الله عليه وسلم من أذياتهم له فيه أسوة بالأنبياء قبله ؛ إذ أصابهم من أذيات أممهم مثل ذلك أو أكثر منه ، لـٰكن

(103)

كُـلُّ أَمْـرٍ نَـابَ ٱلنَّبِيِّـنَ فَـٱلشِّـدَّ ةُ فِيـهِ مَحْمُـودَةٌ وَٱلـرَّخَـاءُ

(كل أمر) من الأمور العظيمة (ناب) أي : أصاب (**النبيين فالشدة فيه**) أي : التي تحصل لهم منه (**محمودة**) لأنها لرفع درجاتهم العلية (**والرخاء**) أي : السعة فيه محمودة أيضاً ؛ لأنه يكثر أتباعهم ويفني أعداءهم .

ومما يبين ذلك ويوضحه : أن من المقرر في العقول أنه

(104)

لَـوْ يَمَـسُّ ٱلنُّضَـارَ هُـونٌ مِـنَ ٱلنَّا رِ لَمَـا ٱخْتِيـرَ لِلنُّضَـارِ ٱلصِّـلَاءُ

(**لو يمس النضار**) أي : الذهب (**هون**) بالضم ؛ أي : هوان (**من**) إدخاله إلىٰ (**النار**) لاختبار خلوصه من الغش والنقص . . (**لما اختير للنضار الصلاء**) أي : العرض على النار ؛ لعزته على النفوس وشحها به من أدنىٰ نقص يصيبه ، فالأنبياء كالذهب ، والشدائد التي تنوبهم كإصابة النار للذهب ، فكما أن النار لا تزيد الذهب إلا حسناً . فكذلك الشدائد لا تزيد الأنبياء إلا رفعة .

وفي : (لا تخل . . .) إلىٰ هنا من الكلام الجامع للحكم والبلاغة ما لا يخفىٰ عظيم وقعه .

ولما ذكر ما يناسب قوله :

لاَ تَخَـلْ جَـانِـبَ ٱلنَّبِـيِّ مُضَـامـاً

.. برهن عليه بقوله :

(105)

كَـمْ يَـدٍ عَـنْ نَبِيِّـهِ كَفَّهَـا ٱللَّهُ   وَفِـي ٱلْخَلْـقِ كَثْـرَةٌ وَٱجْتِـرَاءُ

(**كم يد**) أي : جارحة (**عن نبيه كفها الله**) أي : منعها وخذلها ، فلم تصل إليه بسوء قصد به النبي صلى الله عليه وسلم (و) الحال أنه قد وجد (**في الخلق**) أي : المخلوقين الذين هم أعداؤه ، المريدون لإهلاكه (**كثرة واجتراء**) أي : شجاعة وتهور وإقدام علىٰ فعل ما خطر في النفس من غير نظر في عاقبته .

(106)

إِذْ دَعَـا وَحْـدَهُ ٱلْعِبَـادَ وَأَمْسَـتْ   مِنْـهُ فِـي كُـلِّ مُقْلَـةٍ أَقْـذَاءُ

(**إذ**) ظرف لـ(كف) أي : وقت أن (**دعا**) أي : طلب حال كونه (**وحده** **العباد**) كلهم إلىٰ عبادة الله ، وترك ما هم عليه من الجهالات والأباطيل والضلالات (و) إن (**أمست**) أي : حصلت ؛ إذ أمسىٰ يستعمل كثيراً في ذلك (**منه**) في كل الأزمنة (**في كل مقلة**) منهم ، وهي : شحمة العين التي تجمع السواد والبياض (**أقذاء**) جمع قذىً ، وهو : ما يسقط في العين مما يؤلمها ويكدرها ، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره مع وحدته وقلة عضده وناصره كان يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده ، وينادي عليهم في أنديتهم بتسفيه أحلامهم وسب آلهتهم ورميها بكل عيب وسوء ، فيبالغون ـ حتىٰ أقرب أقاربه كعمه أبي لهب ـ في إيذائه والتجرؤ عليه ؛ لكثرتهم ووحدته ، وهو ـ مع ذلك ـ محروس بحراسة الله تعالىٰ ، مكلوء بكِلاءته محفوظ بحفظه ، متمادٍ علىٰ ما هو فيه ، غير ملتفت لأذاهم ، بل صابر عليه الصبر الجميل ، وأمره لا يزداد إلا ظهوراً وعلواً ، وأصحابه وأعوانه يكثرون ويتقَوَّون علىٰ أعدائهم شيئاً فشيئاً ، إلىٰ أن أمكنه الله تعالىٰ من نواصي أعدائهم ، فأذاق من بقي منهم علىٰ كفره الهوان ، وأحل من خضع منهم لعزته مأمن البقاء والأمان .

ومما ينبئك بعظيم إيذائهم له ونصره عليهم : ما ذكره أهل السير : أن عمرو بن

العاصي قال للزبير : ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فذكر له أن أشرافهم اجتمعوا في الحجر ، فذكروا ما يفعله بهم من سبهم وسب آلهتهم ، فطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستلم الركن وطاف ، فلما مر بهم صلى الله عليه وسلم . . انتقصوه ، فساءه ذلك ، ثم مر بهم فأساؤوه ، ثم مر بهم فأساؤوه ، فوقف صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؟ أَمَا وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِٱلذَّبْحِ » فأخذتهم كلمته وارتعدت منها فرائصهم[1] ، فألانوا له القول وقالوا : انصرف يا أبا القاسم ؛ فوالله ما كنت جهولاً ، فاجتمعوا له في الغد في الحجر ، وفعلوا معه ما ذكر ، ثم وثبوا إليه وثبة رجل واحد يؤنبونه لسب آلهتهم ، فأخذ بعضهم بمجمع ردائه صلى الله عليه وسلم ، فقام إليه أبو بكر وحال بينهم وبينه كما مر[2] .

تنبيه : قرينة سياق النظم مصرحة بأن القذىٰ في العين مستعار لما حصل لهم في عيون بصائرهم من إذلاله صلى الله عليه وسلم لهم بما مر آنفاً ، وأما قول بعضهم : (يحتمل أنه يريد بالقذىٰ ما علىٰ أعينهم من الغشاوة المانعة من النظر في أمره ، الحاجبة لهم عن اتباعه ، أو يريد ما علىٰ قلوبهم من الران والصدأ الحاجب عن الإيمان ، فيكون عبر بـ(المقلة) عن عين البصيرة [وبـ(الأقذاء)] عما يعلوها من الران والصدأ) اهـ . . فهو غفلة عن سياق المتن وعدم تأمل له بالكلية ؛ لأنه إنما حكم بأنه صلى الله عليه وسلم أسكن القذىٰ لكل مقلة منهم ، وحينئذ فلا يصح تفسير القذىٰ بشيء مما ذكره ، وإنما يصح تفسيره بما ذكرته . فتأمله .

---

(١) الفرائص : جمع فريصة ، وهي : لحمة بين جنب الدابة وكتفها لا تزال ترعد ، والمراد هنا : عصب الرقبة وعروقها ؛ لأنها هي التي تثور عند الغضب والخوف .

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٥٦٧) ، وأحمد (٢/ ٢١٨) ، وابن هشام في « السيرة » (١/ ٢٨٩) ، والطبري في « تاريخه » (٢/ ٣٣٢) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٢٧٤) ، وليس عند واحد منهم أن السائل عمرو بن العاصي للزبير ، بل إن عروة بن الزبير سأل عبد الله بن عمرو بن العاصي . فليتنبه .

هَـمَّ قَـوْمٌ بِقَتْلِـهِ فَـأَبَـى ٱلسَّيْـ ـفُ وَفَـاءً وَفَـاءَتِ ٱلصَّفْـوَاءُ

والدليل علىٰ تلك الحراسة الباهرة أنه : (**هم قوم**) يدخل فيه النساء تبعاً (**بقتله**) بالسيف (**فأبى السيف**) أي : امتنع من الوصول إليه والتأثير فيه (**وفاء**) أي : لأجل وفائه بما أخذ عليه ـ كبقية الخلق ـ من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وإجلاله وتوقيره وتعظيمه ، وذلك الامتناع وقع غير مرة ، فقد جاء : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلاً . . اختار له أصحابه شجرة تظله ، فبينما هو تحتها إذ جاءه أعرابي ، فاخترط سيفه ثم قال له : من يمنعك مني ؟ قال : « ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ » ، فرعدت يده وسقط السيف ، وضرب برأسه الشجرة حتىٰ سال دماغه كما روي[١] .

وصح : أن غَوْرَث بن الحارث اخترط سيفه صلى الله عليه وسلم وهو نائم ، فاستيقظ فوجده في يده صَلْتاً[٢] ، فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « ٱللهُ » فسقط من يده ، فأخذه صلى الله عليه وسلم وقال : « مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ » قال : كن خير آخذ ، فعفا عنه ، فرجع إلىٰ قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس[٣] .

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم وقع له نظير ذلك في غزوة بدر مع منافق تبعه لما خرج لقضاء حاجته .

ووقع نظير ذلك مع رجل سيد لقومه شجاعة وغيرها أغروه علىٰ قتله ، فجاءه ثم رجع إليهم مسلماً ، فأنكروا عليه ، فقال : نظرت إلىٰ رجل أبيض طويل دفع في صدري ، فوقعت لظهري وسقط السيف من يدي ، فعلمت أنه ملك وأسلمت .

(**وفاءت**) أي : رجعت علىٰ راميها ، وبينه وبين (وفاء) الجناس اللاحق

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٩١٠) ، ومسلم (٨٤٣) ، وابن حبان (٤٥٣٧) ، وأحمد (٣/ ٣١١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣١٩) ، و« الدلائل » (٣/ ٣٧٤) ، وغيرهم .

(٢) **السيف الصلت والمصلت** : المجرد من غمده .

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٨٨٣) ، وأحمد (٣/ ٣٦٤) ، وأبو يعلىٰ (١٧٧٨) ، وغيرهم .

(الصفواء) أي : رجعت الحجارة عن إصابته ، بل خمدت في يد راميها الذي هم أيضاً بقتله .

(108)

وَأَبُو جَهْلٍ إِذْ رَأَىٰ عُنُقَ ٱلْفَحْـ ـلِ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ ٱلْعَنْقَاءُ

(و) همَّ (أبو جهل) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وكان من أشد الأعداء علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه اجتمع هو وقريش يوماً ، فجاءهم صلى الله عليه وسلم ، وبالغ في إنذارهم وتسفيه أحلامهم وسب آلهتهم ، فأظهروا له شدة الإباء والتعنت ، فانصرف عنهم حزيناً عليهم ، فقال لهم أبو جهل اللعين : يا معشر قريش ؛ إن محمداً قد أبىٰ إلا ما ترون ، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحَجر لا يطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته . . رضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بي بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فقالوا : والله ما نسلمك لشيء أبداً ، فلما أصبح . . أخذ حجراً كما وصف ، فلما سجد صلى الله عليه وسلم ـ كعادته ـ وقريش ينظرون . . احتمل اللعين الحجر ثم أقبل نحوه ، حتىٰ إذا دنا منه . . رجع منهزماً منتقعاً لونه ، مرعوباً قد يبست يداه علىٰ حجره حتىٰ قذفه ، فقاموا إليه فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه . . عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل صورته وأنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني ، وذُكر أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ذَلِكَ جِبْرِيلُ ، لَوْ دَنَا مِنِّي . . لأَخَذَهُ »[1] .

(إذ) ظرف لـ (هم) المقدر قبل (أبو جهل) لأنه معطوف علىٰ : (هم قوم بقتله) أي : وهم أيضاً أبو جهل بقتله بالحجر الذي حمله وقت أن (رأىٰ عنق) بسكون النون وضمها (الفحل) وقد برز (إليه كأنه العنقاء) أي : الداهية العظيمة ، أو الطائر العظيم المعروف ، وبين (عنق) و(عنقاء) جناس الاشتقاق أو شبهه ،

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٢٩٨) .

وما ذكرته من أن (أبو جهل) معطوف علىٰ (هم قوم) ، وأن (إذ) ظرف لـ(هم) . . هو ما جزم به الشارح ، وهو بعيد ؛ لأنه يلزم عليه أنه وقت رؤيته الفحل همَّ بقتله وذلك غير واقع ، بل حصل له حينئذ من الهيبة والخوف والذلة ما أذهله ، فالحق : أنه معطوف علىٰ (الصفواء) أي : رجعت الصفواء عن الوصول إليه صلى الله عليه وسلم ، ورجع أبو جهل عن الرمي لها وقت رؤيته الفحل ، فـ(إذ) حينئذ ظرف لـ(فاءت) مع فاعلها وما عطف عليه .

(109)

وَٱقْتَضَاهُ ٱلنَّبِيُّ دَيْنَ ٱلْإِرَاشِيِّ ۝ وَقَدْ سَاءَ بَيْعُهُ وَٱلشِّرَاءُ

(واقتضاه) معطوف علىٰ (هم) ، قال الشارح : وكأنه علىٰ نزع الخافض ؛ أي : اقتضىٰ منه ، وظاهر قول القاموس : (واستقضىٰ فلاناً : طلب إليه أن يقضيه ، وتقاضاه الدين : قبضه) أنه متعد بنفسه ؛ أي : طلب (النبي) صلى الله عليه وسلم من أبي جهل أن يؤدي (دين) كهلة بن عصام بن كهلة بن إراش بن الغوث بن عمرو بن الغوث (الإراشي) بكسر الهمزة ؛ لكونه لما قدم مكة بإبل له ليبيعها . . اشتراها منه أبو جهل ، ثم مطله بأثمانها ، فوقف الإراشي علىٰ ناد من قريش فقال : هل من رجل يخلصني من أبي الحكم ؟ فإني غريب وابن سبيل ، وقد غلبني علىٰ حقي ، فقالوا : لا يخلصك منه إلا ذاك الرجل ـ أي : محمد صلى الله عليه وسلم ، قالوا له ذلك استهزاء به ـ فجاء إليه صلى الله عليه وسلم فقال له : يا عبد الله ؛ إن أبا الحكم قد غلبني علىٰ حقي ، وقد سألت أولـٰئك القوم فأشاروا إليك ، فخلصني منه ، يرحمك الله ، فقام معه ليخلصه منه ، كيف (وقد ساء بيعه) ذكر البيع والكلام ليس إلا في الشراء ؛ لأنه نظير له ، فهو من مراعاة النظير (والشراء) أي : وشراؤه مع هـٰذا الرجل وغيره .

ولما ذهب إليه . . أمروا واحداً منهم أن يتبعه لينظر ماذا يصنع ، فضرب صلى الله عليه وسلم بابه عليه ، فقال : من ذا ؟ قال : « مُحَمَّدٌ ، فَٱخْرُجْ إِلَيَّ » فخرج إليه وقد انتقع لونه[1] ، فقال : « أَعْطِ هَـٰذَا ٱلرَّجُلَ حَقَّهُ » قال : نعم ، لا تبرح حتىٰ يأخذه ،

(١) انتقع لونه : تغير من حزن أو خوف ، ومثله امتقع .

فدخل فأخرجه إليه ، فجاء إلىٰ أولـٰئك وأخبرهم بما وقع ، فجاء أبو جهل فقالوا له : ويلك ، والله ما رأينا مثل هـٰذا الذي صنعت قط ، قال : ويحكم ، والله ما هو إلا أنه ضرب علي بابي فسمعت صوته فملئت رعباً ، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسي لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا صورته ولا أنيابه لفحل قط ، والله لو أبيت.. لأكلني[1] .

(110)

وَرَأَى ٱلْمُصْطَفَىٰ أَتَاهُ بِمَا لَمْ يَنْجُ مِنْهُ دُونَ ٱلْوَفَا ٱلنَّجَّاءُ

(و) من ثم (رأىٰ) أبو جهل (المصطفىٰ) صلى الله عليه وسلم وقد (أتاه بما) أي : بفحل إبل (لم ينج) بفتح ثم ضم ، وبضم ثم كسر مع تخفيف ، ويجوز ـ لا هنا ؛ لأجل الوزن ـ تخفيفُها وتشديدُها ، من نجا ينجو ، وأنجىٰ ينجي فهو ناج ومنج (منه دون الوفا) لذلك الدين الذي للإراشي (النجاء) بوزن الضرَّاب مبالغة في ناجٍ ، فـ(الوفا) مقصور ، ويجوز تخفيف الجيم مصدراً ، فـ(الوفاء) ممدود ، وفي « القاموس » : (نجا نجواً ونجاءً ونجاة ونجاية : خلص كنجَّىٰ واستنجىٰ وأنجاه الله ونجَّاه) وعلىٰ هـٰذا (الوفا) مقصور ، وعلىٰ كل هو فاعل (ينج) ، ونظيره في المصدر قول الحاجري : [من الخفيف]

[يَا خَلِيَّ ٱلْفُؤَادِ قَدْ] مَلأَ ٱلْوَجْـ ـدُ فُؤَادِي وَبَرَّحَ ٱلتَّبْرِيحُ

أي : ذلك الفحل لا يُنْجي ، أو لا يَنْجو منه (النجَّاء) بالمبالغة ؛ أي : من تكررت نجاته من الأمور الصعبة إلا إن وفىٰ ذلك الدين ، أو لا ينجو منه (النجاء) بالتخفيف ؛ أي : النجاة إلا بعد ذلك الوفاء .

(111)

هُوَ مَا قَدْ رَآهُ مِنْ قَبْلُ لَكِنْ مَا عَلَىٰ مِثْلِهِ يُعَدُّ ٱلْخَطَاءُ

(هو) أي : الفحل المرئي في هـٰذه الواقعة (ما) أي : الفحل الذي (قد رآه من

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٩) .

قبل) أي : في الواقعة السابقة في قوله : (وفاءت. . .) إلخ ، (**لكن**) لا استغراب في ذلك ؛ لأن هـٰذا اللعين (**ما علىٰ مثله**) في العتو والتهور السالبين لإدراكه والموجبين لهلاكه ، وهو أبلغ من : عليه ؛ لأنه لحصر إثبات الحكم عليه ببينة ، علىٰ حد : مثلك لا يبخل (**يعد الخطاء**) ؛ لأن خطأه لا ينحصر فلا يعد ، ومد (الخطاء) لغة شهيرة .

تنبيه : قد يسأل عن الحكمة في كون أبي جهل منع في هاتين الواقعتين من أن ينال رسول الله بمؤذ مطلقاً أشدَّ المنع ولم يمنع من إلقاء سلا الجزور علىٰ ظهره صلى الله عليه وسلم وهو يصلي .

قلت : كان سر ذلك إمهاله حتىٰ تنفذ دعوة رسول الله فيه وفي أمثاله ممن كانوا أشد الناس عليه صلى الله عليه وسلم ، فيظهر عزه صلى الله عليه وسلم ونصره عليهم للناس بإهلاكهم بدعوته ، وإلقائهم في القليب علىٰ أخس حالة وأقبحها ، ولو منع اللعين من ذلك. . لم تحصل هـٰذه الكرامات ، فكان تمكينه من ذلك الفعل هو عين إهلاكه وإهلاك نظرائه .

ومختصر تلك القصة : أنه صلى الله عليه وسلم ـ كما في « البخاري » ـ كان يصلي عند الكعبة وجمع من قريش في مجالسهم ، إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلىٰ هـٰذا المرائي ؟ أيكم يقوم إلىٰ جزور آل فلان ، فيعمد إلىٰ دمها وفرثها وسلاها فيجيء به ، ثم يمهله حتىٰ إذا سجد. . وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد. . وضعه بين كتفيه ، وثبت صلى الله عليه وسلم ساجداً ـ أي : لأنه لم يعلم بخصوص ما وضع ، وإنما لم ينقل أنه أعاد ؛ لاحتمال أنه كان في نافلة ، بل هو الواقع ؛ لأن هـٰذه الواقعة قبل فرض الخمس ، ولم يكن فرض من الصلاة يومئذ إلا ما في (سورة المزمل) ، وهو صلاة الليل ـ فلما رأوا ذلك. . ضحكوا حتىٰ مال بعضهم علىٰ بعض ، فانطلق منطلق إلىٰ فاطمة ـ وهي جويرية ـ رضي الله تعالىٰ عنها ، فأقبلت تسعىٰ ، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً حتىٰ ألقته عنه ، وأقبلت عليهم تسبهم ، فلما قضىٰ صلى الله عليه وسلم الصلاة. . قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ـ ثم سمىٰ ـ ٱللَّهُمَّ ؛ عَلَيْكَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ ـ وهو أبو جهل ، وقدمه ؛ لأنه أشقاهم وأشدهم إذاية له صلى الله عليه وسلم ـ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَٱلْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ ، وَأُمَيَّةَ بْنِ

خَلَفٍ ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَعُمَارَةَ بْنِ ٱلْوَلِيدِ » قال عبد الله : (فوالله لقد رأيتهم صرعىٰ يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر) ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَأُتْبِعَ أَصْحَابُ ٱلْقَلِيبِ لَعْنَةً »[١] .

وظاهر السياق أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك عقب هـٰذا الدعاء ، فيكون من تمامه ، وفيه علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل ـ علىٰ بعد ـ أنه إنما قال ذلك عند إلقائهم في القليب ، وقول عبد الله بن مسعود : (رأيتهم صرعىٰ بالقليب) . . مراده أكثرهم ، فإن عمارة إنما مات بأرض الحبشة ، لـٰكن علىٰ أشر قِتلة ، فإنه تعرض لزوجة النجاشي ، فأمر ساحراً فنفخ في إحليله من سحره عقوبة له ، فتوحش وصار مع البهائم إلىٰ أن مات في خلافة عمر .

وأيضاً عقبة بن أبي معيط إنما قتل صبراً بالصفراء بعد بدر[٢] ، وألقي ثَمَّ ، وأميةُ بن خلف وإن قتل ببدر لـٰكنه لم يطرح في القليب .

(112)

وَأَعَـدَّتْ حَمَّـالَـةُ ٱلْحَطَـبِ ٱلْفِهْـ ـرَ وَجَـاءَتْ كَـأَنَّهَـا ٱلْـوَرْقَـاءُ

(وأعدت) عطف علىٰ (هم) أي : هيأت ، هي أم جميل بنت حرب بن أمية (حمالة الحطب) لقبت به ؛ لأنها كانت تحمل الشوك وتطرحه في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إرضاء لزوجها ـ لعنهما الله تعالىٰ ـ (الفهر) أي : الحجر الذي يملأ الكف لما أنزل الله فيها وفي زوجها : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . . . ﴾ السورة (و) الحال أنها قد (جاءت) إليه وهو في المسجد وأبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه عنده بذلك الحجر لترميه به وهي في غاية السرعة والعجلة (كأنها) الحمامة (الورقاء) أي : الشديدة الإسراع ؛ أي : حال كونها شبيهة بها في ذلك ، فهي حال متداخلة .

---

(١) البخاري (٥٢٠) .

(٢) الصفراء : واد قرب المدينة ، كثير النخل والزرع والخير ، وبينه وبين بدر مرحلة . انظر « معجم البلدان » (٣/ ٤١٢) .

(113)

يَوْمَ جَاءَتْ غَضْبَىٰ تَقُولُ أَفِي مِثْـ ـلِـيَ مِـنْ أَحْمَـدٍ يُقَـالُ ٱلْهِجَـاءُ

(**يوم**) ظرف لـ(أعدت) (**جاءت**) في حال كونها (**غضبىٰ**) من شدة ما سمعت من ذمها في تلك السورة، وفي نسخة (غيظاً) فهو تمييز ، والغضب : نار كامنة في طي الفؤاد، يؤججها طرو السبب المحرك لها ، فإن لم يقدر علىٰ إنفاذ شيء في المغضوب عليه. . سمي غيظاً ، كذا قيل ، وفي « القاموس » : (الغيظ : الغضب ، أو أشده ، أو سَورته ، أو أوله) حال كونها (**تقول** : **أفي مثلي**) وأنا بنت سيد بني مخزوم ، متعلق بـ(يقال) (**من أحمد**) حال من الهجاء (**يقال الهجاء**) أي : السب والذم ، ونسبة القول إليه إما حقيقة ، وهو الظاهر ؛ لأنهم لا يعتقدون إلـٰهاً غير آلهتهم ، فـ(من) ابتدائية .

نعم ؛ فيهم فرقة يعتقدون الإلـٰه وأن أصنامهم تقربهم إليه ، فإن كانت من هـٰؤلاء. . فـ(من) تعليلية ؛ أي : يقول إلـٰهه ذلك لأجله .

(114)

وَتَــوَلَّــتْ وَمَــا رَأَتْــهُ وَمِــنْ أَيْـ ـنَ تَـرَى ٱلشَّمْـسَ مُقْلَـةٌ عَمْيَـاءُ

(**وتولت**) عطف علىٰ (أعدت) (**و**) الحال أنها (**ما رأته**) وكيف تراه وهو في ظهوره للقلوب السليمة والعقول المستقيمة كالشمس وهي ـ أعني تلك المرأة ـ في غاية من عمى البصيرة وفساد السريرة ؟! (**ومن أين ترى الشمس مقلة**) أي : عين (**عمياء ؟!**) ولما رآها أبو بكر رضي الله تعالىٰ عنه. . قال : (يا رسول الله ؛ إنها امرأة بذية ، فلو قمت) قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » فجاءت فلم تره ، فقالت : يا أبا بكر ؛ أين صاحبك ؟ كيف يهجوني ؟ فوالله لو وجدته. . لضربت بهـٰذا الفهر فاه ، والله إني لشاعرة ـ وذكرت هجواً قبيحاً ـ فقلت : (لا ، وهو لا يقول الشعر) فقالت : أنت عندي مصدق وانصرفت ، فقلت : (يا رسول الله ؛ لم لم ترك ؟) فقال صلى الله عليه وسلم : « لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ يَسْتُرُنِي مِنْهَا بِجَنَاحِهِ »[1] وفي رواية : « قَدْ أَخَذَ ٱللهُ بِبَصَرِهَا عَنِّي »

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٢٣٥٨)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٩) ، وأبو نعيم في « الدلائل » (١/ ٢٤٧).

فكان صلى الله عليه وسلم يقول : « أَمَا تَعْجَبُونَ لِمَا يَصْرِفُ ٱللَّهُ عَنِّي مِنْ أَذَىٰ قُرَيْشٍ ؟! يَسُبُّونَ وَيَهْجُونَ مُذَمَّماً وَأَنَا مُحَمَّدٌ »[1] صلى الله عليه وسلم .

تتمة : قرأ صلى الله عليه وسلم سورة : ﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾ حتىٰ إذا بلغ : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ . . فحينئذ ألقى الشيطان في أمنيته ؛ أي : تلاوته : تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجىٰ ، وفي رواية : ألقى الشيطان علىٰ لسانه : تلك الغرانيق . . . إلخ ، فعند سجوده آخر السورة سجد المشركون معه ؛ لتوهمهم أنه مدح آلهتهم ، وفي رواية : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فنزلت هـٰذه الآية : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ . . . ﴾ الآية ، ففشا ذلك في الناس وأظهره الشيطان حتىٰ بلغ المسلمين بالحبشة ، فأقبلوا سراعاً ، ثم لما تبين للمشركين خلاف ذلك . . رجعوا إلىٰ أشد ما كانوا عليه .

والغرانيق : جمع غرنوق أو غرنيق ، وهو : طير الماء ، شبهت به الأصنام ؛ لاعتقادهم أنها تقربهم من الله تعالىٰ كطيور الماء ؛ لكونها تعلو في السماء وترتفع .

تنبيه : كثر كلام العلماء في هـٰذه القصة ، فمن منكر لوقوعها ومبالغ في بطلانها ، وأنه لا يجوز لأحد القول بها كعياض والفخر الرازي[2] ، وسبقهما لنحو ذلك البيهقي ، وأيدوا بأن البخاري وغيره رووا : أنه صلى الله عليه وسلم قرأ (سورة النجم) ، وسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن ، ولم يذكروا فيها قصة الغرانيق ، وبأن من جوز علىٰ نبي تعظيم وثن . . فقد كفر ، وبأنها من وضع الزنادقة .

والحق خلاف ذلك كله ، بل لها أصل أصيل ، فقد خرجها من طرق كثيرة جداً ابن أبي حاتم ، والطبري ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبزار ، وابن إسحاق في « السيرة » ، وموسىٰ بن عقبة في « المغازي » ، وأبو معشر ، كما نبه علىٰ ذلك الحافظ ابن كثير وغيره ، لـٰكن قال : (إن طرقها كلها مرسلة ، وأنه لم يرها مسندة من وجه صحيح) اهـ[3]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٣) ، وأحمد (٢/٣٦٩) ، وأبو نعيم في « الدلائل » (١/٢٤٨) ، دون قوله : « قد أخذ الله ببصرها عني » .

(٢) انظر « الشفا » (ص ٦٤٤) وما بعدها ، و« مفاتيح الغيب » (٢٣/٤٩) وما بعدها .

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٢٣٠) .

ورد عليه وعلىٰ عياض وغيره الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر ، بأن طرقها كثيرة جداً ، ثلاثة منها رجالها رجال الصحيح ، وباقيها إما ضعيف وإما منقطع ، وبعضها تفرد بوصله أمية بن خالد ، وهو ثقة مشهور[1] ، فزعمُ ابن العربي وعياض أن رواياتها كلها لا أصل لها . . ليس في محله ؛ إذ لا يتمشىٰ على القواعد ، فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها . . دل ذلك علىٰ أن لها أصلاً ، قال : (وقد ذكرنا أن ثلاثة أسانيد منها علىٰ شرط الصحيح ، وهي مراسيل يحتج بمثلها مَنْ يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج به ؛ لاعتضاد بعضها ببعض ، وحينئذ يتعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر ، كقوله : ألقى الشيطان علىٰ لسانه : تلك الغرانيق العلا . . . إلخ ، فلا يجوز حمله علىٰ ظاهره ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يستحيل عليه أن يزيد في القرآن عمداً أو سهواً ، واختلفوا في تأويله : فأخرج الطبري عن قتادة : أنه أصابته سِنة ، فجرىٰ علىٰ لسانه ولم يشعر به ، فلما علم . . أظهر بطلانه ، وأحكم ربُّه آياتِه ، واعترض بأنه لا ولاية للشيطان عليه في النوم ، ويجاب : بأن هـٰذا لا يُثبت للشيطان ولايةً عليه ، وإنما غاية الأمر أن الشيطان لما رآه أصابته تلك السِّنة . . حاكىٰ قراءته بصوت يشبه صوته ، ثم بين الله للناس علىٰ لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بطلان ما وقع من الشيطان حتىٰ لا يغتر به أحد ، ثم رأيت من أجاب بما يؤيد ما ذكرته ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان يرتل قراءته فارتصد الشيطان سكتة ونطق بتلك الكلمات محاكياً نغمة النبي صلى الله عليه وسلم ، بحيث يسمعه من دنا إليه منهم ، فظنها من قوله وأشاعها ، واستحسن هـٰذا الجواب غير واحد من المحققين كعياض وابن العربي ، وأيدوه بما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما من تفسير ﴿تَمَنَّىٰ﴾ بـ« تلا » ، فمعنىٰ : ﴿فِيٓ أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي : في تلاوته ، وفي ذلك إخبار منه تعالىٰ بأن رسله عليهم الصلاة والسلام إذا قالوا قولاً . . زاد الشيطان فيه من قبل نفسه محاكياً له ، ثم بين الله تعالىٰ بطلانه ، فعلم أن هـٰذا نص في أن الشيطان زاد في قول نبينا صلى الله عليه وسلم لا أن نبينا قاله ، وقد سبق إلىٰ هـٰذا المعنى الإمام المجتهد ابن جرير الطبري ـ مع جلالة قدره وسعة علمه وشدة ساعده في العلوم ـ فصوبه وارتضاه)[2] .

---

(١) فتح الباري (٨/ ٤٣٩) .

(٢) جميع ما نقله الشارح ـ رحمه الله تعالىٰ ـ من قوله : (قال : وقد ذكرنا أن ثلاثة . . .) إلىٰ هنا . .

=

وأما الجواب بأن الشيطان ألجأه إلى التلفظ بذلك من غير اختياره.. فمردود بأن الشيطان لو قدر علىٰ ذلك.. لم يمكِّن أحداً من طاعة الله ، أو بأنه علق بحفظه ما كان يسمعه منهم من مدح آلهتهم فجرىٰ ذلك علىٰ لسانه سهواً.. فهو أفسد مما قبله ، أو بأنه قاله توبيخاً للكفار.. فهو بعيد وإن ارتضاه عياض كالباقلاني فقال : (هـٰذا جائز مع قرينة تدل على المراد ، لا سيما والكلام في الصلاة إذ ذاك كان جائزاً)[1] أو بأنه لما وصل إلىٰ قوله : ﴿ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾.. خشوا بأن يذم آلهتهم ، فبادروا بذلك الكلام وخلطوه بتلاوته صلى الله عليه وسلم علىٰ عادتهم في قوله [تعالىٰ علىٰ لسانهم] : ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ ﴾ ونسب للشيطان ؛ لأنه الحامل لهم عليه ، وفيه نوع بُعد ، أو بأن المراد بالغرانيق الملائكة ، وكان منهم من يعبدهم زاعمين أنهم بنات الله تعالىٰ ، فنسق ذكر الكل ؛ ليرد عليهم بقوله : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ فلما سمعوه.. حملوه على الجميع وقالوا : قد عظم آلهتنا ، فنسخ الله تلك الكلمة وأحكم آياته.. فهو أبعد مما قبله .

(115)

ثُمَّ سَمَّتْ لَهُ ٱلْيَهُودِيَّةُ ٱلشَّا ةَ وَكَمْ سَامَ ٱلشِّقْوَةَ ٱلْأَشْقِيَاءُ

(ثم) بعد ما وقع له صلى الله عليه وسلم من هـٰذه الكرامات.. وقع له كرامة أخرىٰ في غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة ، وهي أنه صلى الله عليه وسلم (سمت له) زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم (اليهودية الشاة) أي : جعلت فيها سماً قاتلاً لوقته ؛ لأنها شاورت يهود في سموم ، فاجتمعوا لها علىٰ هـٰذا السم بعينه ، فسمت به الشاة جميعها ، لـٰكنها أكثرت منه في الذراع والكتف لما قيل لها : إنه صلى الله عليه وسلم يحب الذراع (وكم) مرات كثيرة (سام) من السوم الذي هو مقدمة الشراء ، أو الذي هو الرعي ، وبين (سام) و(سمت) تجنيس شبه الاشتقاق (الشقوة) أي : ثابر

=

هو من كلام الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٨/ ٤٣٩ـ٤٤٠) ، ولـٰكن باختصار وزيادة يسيرين .

(١) الشفا (ص ٦٥٠) بتصرف واختصار .

عليها وتحلىٰ بها (**الأشقياء**) الذين صاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، ومنهم تلك المرأة ، وبينهما تجنيس الاشتقاق ، وقول الشارح : إن (سام) و(سمت) من هـٰذا . . تساهل .

وفي « البخاري » أنه صلى الله عليه وسلم لما علم أن فيها سماً . . قال : « ٱجْمَعُوا لِي مَنْ هُنَا مِنَ ٱلْيَهُودِ » فجمعوا له صلى الله عليه وسلم ، فسألهم عن أشياء ، منها : « مَنْ أَبُوكُمْ ؟ » قالوا : فلان ، قال : « كَذَبْتُمْ ، أَبُوكُمْ فُلَانٌ » قالوا : صدقت وبررت ، ثم سألهم : « مَنْ أَهْلُ ٱلنَّارِ ؟ » قالوا : نكون فيها يسيراً ، ثم تخلفونا فيها ، فقال : « ٱخْسَؤُوا فِيهَا ، وَٱللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ أَبَداً » ثم قال لهم : « هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَـٰذِهِ ٱلشَّاةِ سَمّاً ؟ » قالوا : نعم ، قال : « مَا حَمَلَكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ ؟ » قالوا : إن كنت كاذباً . . استرحنا منك ، أو نبياً . . لم يضرك[1] .

وروىٰ أبو داوود : أنها سمت شاة مصلية ثم أهدتها إليه صلى الله عليه وسلم ، فأكل منها وأكل رهط من أصحابه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ٱرْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ » فأرسل إلى اليهودية ، فقال : « سَمَمْتِ هَـٰذِهِ ٱلشَّاةَ ؟ » فقالت : من أخبرك ؟ قال : « أَخْبَرَتْنِي هَـٰذِهِ ٱلذِّرَاعُ »[2] ومن ثم قال :

(116)

فَـأَذَاعَ ٱلـذِّرَاعُ مَـا فِيـهِ مِـنْ شَـرٍّ بِنُطْـــقٍ إِخْفَـــاؤُهُ إِبْـــدَاءُ

(فأذاع) أي : أظهر له صلى الله عليه وسلم (**الذراع ما فيه من شر**) أي : سم (**بنطق**) معجزة له صلى الله عليه وسلم ، كما يصرح بذلك ـ أعني أنه أخبره بالنطق ـ قوله صلى الله عليه وسلم : « أَخْبَرَتْنِي هَـٰذِهِ ٱلذِّرَاعُ » (**إخفاؤه**) عن الحاضرين (**إبداء**) له صلى الله عليه وسلم ، أي : هو وإن خفي عليهم . . ظهر له صلى الله عليه وسلم ، وفيه طباق ، ولما قال لها ذلك . . صدقته ، ثم قالت : قلت : إن كان نبياً . . فلن يضره ، وإن لم يكن نبياً . . استرحنا منه ، فعفا عنها صلى الله عليه وسلم ولم

---

(١) البخاري (٣١٦٩) .

(٢) أبو داوود (٤٥٠٣) .

يعاقبها ، وتوفي أصحابه الذين أكلوا من الشاة ، واحتجم صلى الله عليه وسلم علىٰ كاهله من أجل الذي أكل منها .

وفي رواية غير أبي داوود : أنها جعلت تسأل : أي الشاة أحب إليه ؟ فقيل لها : الذراع ، فعمدت إلىٰ عنز لها فذبحتها وصلتها ، ثم عمدت إلىٰ سم موحٍ ؛ أي : يقتل لوقته فسمتها به ، وأكثرت منه في الذراع والكتف ، ثم وضعتها بين يديه ومن حضر من أصحابه ، وفيهم بشر بن البراء ، فتناول صلى الله عليه وسلم الذراع فانتهش منها ، وتناول بشر عظماً آخر فازدردا لقمتيهما ، وأكل القوم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ٱرْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ ، فَإِنَّ هَـٰذِهِ ٱلذِّرَاعَ تُخْبِرُنِي بِأَنَّهَا مَسْمُومَةٌ » وفيه أن بشراً مات ، وأنه صلى الله عليه وسلم دفعها إلىٰ أوليائه فقتلوها ، رواه الحافظ الدمياطي ، ورواية : أنه قتلها تعارضها رواية البيهقي عن أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما : أنه صلى الله عليه وسلم لم يعاقبها[١] ، ومن ثم قال :

(117)

وَبِخُلْـقٍ مِـنَ ٱلنَّبِـيِّ كَـرِيـمٍ	لَـمْ تُقَـاصَصْ بِجَـرْحِهَا ٱلْعَجْمَـاءُ

(وبخلق من النبي كريم) بل لا أكرم منه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : بسبب ما تحلىٰ به من كمال الحلم والعفو والصفح (لم تقاصص بجرحها) بواطنَهم بذلك السم ؛ إذ هو يجرح الباطن كما يجرح الحديد الظاهر (العجماء) أي : المرأة ، ويقال أيضاً للبهيمة ، وقال الزهري : أسلمت فتركها ، وفي « مغازي سليمان التيمي » نحوه ، وأنها قالت : استبان لي الآن أنك صادق ، وإني أشهدك ومن حضر أني علىٰ دينك ، وأن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً رسول الله .

وجمع البيهقي بأنه (يحتمل أن يكون تركها أولاً ، فلما مات بشر . . قتلها به)[٢] وبذلك أجاب السهيلي ، وزاد : أنه تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه ، ثم قتلها ببشر

---

(١) السنن الكبرىٰ (٨/ ٤٦) .
(٢) السنن الكبرىٰ (٨/ ٤٧) .

قصاصاً[1] ، ويحتمل أنه تركها لإسلامها ، فلما مات بشر . . تحقق بموته وجوب القصاص عليها فقتلت .

وقوله : إنه قتلها قصاصاً . . فيه نظر ؛ إذ لم نر أحداً روىٰ عن الصحابة أنه قتلها قصاصاً ، وإنما الوارد أنه قتلها ، وهو محتمل لكونه قتلها بنقضها العهد بما فعلته ، ويدل عليه ما جاء في رواية : أنه صلبها[2] ؛ إذ لو قتلت قصاصاً . . لم تصلب ، بل لو فرض أنه لم يصلبها . . لم يكن قتلُها بالسيف دليلاً للقصاص ؛ لأن المماثلة فيه معتبرة ، فقياسها أن يقتلها بمسموم ، كما أن اليهودي الذي رضَّ رأس الجارية بحجر أمر به صلى الله عليه وسلم فرض رأسه بمثل ذلك الحجر[3] ؛ إيثاراً للمماثلة المقصودة من مشروعية القصاص .

لا يقال : الصلب لا يدل على انتفاء القصاص ؛ لأن للإمام أن يصلب من يريد قتله إذا رأىٰ ذلك زجراً وتنكيلاً ؛ لأنا نقول : ليس للإمام الصلب في قتل القصاص ، كما يصرح به كلام أئمتنا ؛ لما تقرر : أن المدار فيه على المماثلة ما أمكن ، فلا يجوز للإمام الزيادة عليها ولا النقص عنها ، ولم نر أحداً من أئمتنا ولا من غيرهم جوز الصلب في غير قاطع الطريق ، فمن ادعاه . . فعليه البيان بغير محل النزاع الذي نحن فيه .

فإن قلت : هو يرد علىٰ هـٰذا الحصر ؛ لأن هـٰذه غير قاطعة طريق وصلبت .

قلت : الذمي إذا نقض العهد . . ملحق بقاطع الطريق في أحكام لا يبعد أن هـٰذا منها ، علىٰ أن ذاك صار كحربي ، وأحكام الحربيين لا يقاس بها أحكام المعصومين .

فإن قلت : قولكم : (لأن المماثلة . . .) إلخ إنما يتأتىٰ على القول بتعينها في القود ، أما المخير بينها وبين السيف فيما ليس بمحرم ، أو المخير بينها وبين السيف في القتل بمسموم . . فلا يتأتىٰ عليه ذلك البحث .

---

(١) الروض الأنف (٧/ ١١١) ، وليس في كلامه : (قصاصاً) ، بل هو : (فلما مات بشر بن البراء من تلك الأكلة . . قتلها) .

(٢) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٨/ ٤٧) .

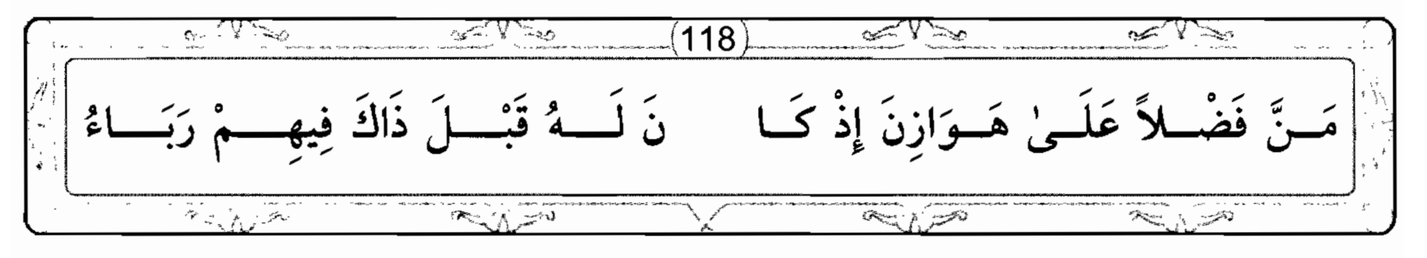
(٣) أخرجه البخاري (٢٤١٣) ، ومسلم (١٦٧٢) .

قلت : بل يتأتىٰ على التخيير أيضاً ؛ لأن القتل بالسيف لا يعين القود ؛ لأنه يحتمله ، ويحتمل أنه لنقض العهد ، والمدعىٰ إنما هو : أن قتلها بالسيف لا يدل علىٰ خصوص كونه قوداً ، وتأخير قتلها إلىٰ موت بشر لا يدل على القود أيضاً ؛ لاحتمال أنه ليتحقق عظيم جنايتها .

وبهـٰذا كله يعلم : أن ما في هـٰذه القصة من قتلها ـ بتقدير صحته ـ لا يرد علىٰ قول أئمتنا : من أضاف إنساناً فقدم له طعاماً مسموماً ، فأكل منه فمات . . لا قود عليه ؛ لأنه تناوله باختياره ، والمضيف لم يلجئه إلىٰ أكله ، وذلك لأنه لم يثبت أنه قتلها بقيد كونه قوداً ، وبهـٰذا الذي قررته : يعلم تحقيق الناظم حيث نفى القصاص مع اطلاعه على الروايات المتخالفة في ذلك .

فإن قلت : لا نسلم أن نفيه لذلك ، بل لأن ثبوته بقيد كونه قصاصاً لم يصح ، والأصل عدمه .

قلت : هـٰذا يحصل منه مدعانا أيضاً ؛ لأن ثبوته إذا لم يصح من أصله ، أو بذلك القيد . . فلا دلالة فيه للخصم بوجه .


(118)

مَـنَّ فَضْـلاً عَلَـىٰ هَـوَازِنَ إِذْ كَـا نَ لَـهُ قَبْـلَ ذَاكَ فِيهِـمْ رَبَـاءُ

وبخلق من النبي كريم (من) فهو معطوف بحذف حرف العطف علىٰ (لم تقاصص . . .) ، خلافاً لما يوهمه كلام الشارح أنه استئناف ؛ أي : أنعم نعمة عظيمة (فضلا) مفعول مطلق ، كفرحت جذلاً ، أو مفعول لأجله وهو الأولىٰ ؛ لأن المراد بالمن هنا : ما ذكره الله تعالىٰ بقوله عز قائلاً : ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ فمنَّ بتخلية سبيلهم بعد أن ملكهم المسلمون ؛ أي : رفع الرق عنهم لأجل فضله ؛ أي : إحسانه العام عليهم وعلىٰ غيرهم بلا عوض ، وعلىٰ هـٰذا فمعنىٰ هـٰذه العلة والعلة التي تليها المستفادة من (إذ) : أن منه معلل بشيئين : عموم إحسانه عليهم وعلىٰ غيرهم ، وخصوص كونه تربىٰ فيهم ، وعليه فحرف العطف مقدر الثبوت ، ويصح أن تكون الثانية علة للأولىٰ ، وإيهامه قصر (فضلاً) عليهم غير مؤثر ؛ لأنه لم يرد مطلق

الفضل ، بل فضلاً يتعلق بهم ، سواء أعلق (علىٰ هوازن) بـ(من) أو بـ(فضلاً) ، اكتفاء بقرينة السياق .

(علىٰ هوازن) قبيلة حليمة السعدية رضي الله تعالىٰ عنها ، وهم : أهل حنين المذكور في القرآن ، وهو : واد قريب من ذي المجاز ، السوق المشهور من أسواق الجاهلية بناحية عرفة ، بين ذلك الوادي وبين مكة نحو ثلاث ليال ، غزاهم صلى الله عليه وسلم عقب فتح مكة لما اتفقت أشراف هوازن وثقيف علىٰ حربه صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم سادس شوال سنة ثمان في اثني عشر ألفاً ، عشرة جاء بهم ، وألفان من طلقاء مكة ، فلما هزمهم صلى الله عليه وسلم . . قصد الطائف ، وأمر أن يجعل سبي هوازن وغنائمهم بالجعرانة حتىٰ يأتي إليهم ، وكان السبي ـ وهو النساء والذراري ـ ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم فوق أربعين ألفاً ، وأربعة آلاف أوقية فضة .

ولما رجع صلى الله عليه وسلم من الطائف . . انتظر هوازن بضع عشرة يوماً ليقدموا عليه مسلمين ، ثم أخذ في قسمة الغنائم ، فجاؤوا مسلمين ، فقالوا : يا رسول الله ؛ إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك ، وقام رجل من فخذ حليمة فقال : يا رسول الله ؛ إنما في الحظائر عماتك وخالاتك ـ أي : من الرضاع ؛ لأنهن قرابات حليمة ـ وحاضناتك اللاتي كن يكفلنك ، ولو أنا أرضعنا الحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ، ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت فيه . . رجونا عطفه وأنت خير المكفولين ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ أَصْدَقُهُ ، أَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ ؟ » : فقالوا : أبناؤنا ونساؤنا ، فقال : « أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ . . فَهُوَ لَكُمْ ، وَإِذَا صَلَّيْتُ ٱلظُّهْرَ بِٱلْمُسْلِمِينَ . . فَقُومُوا فَقُولُوا : إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَبِٱلْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم فِي أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا ، فَسَأُعْطِيكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَأَسْأَلُ لَكُمْ » ففعلوا ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ . . فَهُوَ لَكُمْ » فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت الأنصار مثل ذلك ، وامتنع بنو تميم وبنو فزارة وعباس بن مرداس من بني سليم ، فوعدهم صلى الله عليه وسلم من أول سبي

يصيبه بما طابت به نفوسهم ، فردوا من بقي عندهم[1] ، ومن صلى الله عليه وسلم عليهم بذلك .

(إذ) أي : لأجل أنه صلى الله عليه وسلم (كان له قبل ذاك) أي : وهو طفل (فيهم رباء) بفتح الراء والمد ؛ أي : تربية ، من : ربوت في بني فلان وربيت فيهم إذا نشأت بينهم ، أو طول باعتبار ما وصل إليه من لبن حليمة وتربيتها .

تنبيه : جعل الناظم (إذ) تعليلية . . خلاف ما عليه الجمهور ، قالوا : ولا دليل في : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ . . . ﴾ الآية ؛ لأن التقدير : بعد إذ ظلمتم ، وعلى الأول هل هي حينئذ حرف بمنزلة لام العلة ، أو ظرف بمعنىٰ وقت والتعليل مستفاد من قوة الكلام لا من اللفظ ؟ قولان ، المنسوب إلىٰ سيبويه الأول ، وعلى الثاني في الآية إشكالات ، ليس هـٰذا محل بسطها .

وترد اسماً للزمن الماضي ، وهو الغالب ، ثم قال الجمهور : لا تكون إلا ظرفاً أو مضافاً إليها الظرف ، نحو : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ، وقال الأقلون : تكون مفعولاً بها ، نحو : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا ﴾ وكذا المذكورة أوائل القصص ، كلها بتقدير : اذكر ، أو بدلاً منه بدل اشتمال أو كل من كل ، ورده الجمهور بأن المفعول أو المضاف إليه محذوف ، وزعمُ الزمخشري أنها تكون في محل المبتدأ . . مما تفرد به ، وجوز كثيرون ورودها للمستقبل ، نحو : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ ﴾ ؛ لاستقبال ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ لفظاً ومعنىً ، وأجيب : بأنه من تنزيل المستقبل الواجب الوقوع منزلة الواقع .

(119)

وَأَتَـى ٱلسَّبْـيُ فِيـهِ أُخْـتُ رَضَـاعٍ   وَضَـعَ ٱلْكُفْـرُ قَـدْرَهَـا وَٱلسِّبَـاءُ

(وأتىٰ) ذلك (السبي) وأصله الأسر ، والمراد هنا : المسبي ؛ أي : المأسورون إلى الجعرانة بأمره صلى الله عليه وسلم كما مر ؛ ليقسمه فيها على المسلمين ، وكان ذلك السبي (فيه أخت) النبي صلى الله عليه وسلم من (رضاع) واسمها الشيماء كما

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٤/ ٤٨٨) ، و« طبقات ابن سعد » (١/ ١١٤) .

مر ، ولما شقوا عليها عند سبيها . . قالت : والله إني أخت صاحبكم ، فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ؛ إني أختك ، قال : « وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ ؟ » قالت : عضة منك في ظهري ، فعرفها صلى الله عليه وسلم[١] ، لٰكن (وضع) أي : خفض (الكفر) القائم بها (قدرها ، و) كذلك وضع قدرها (السباء) أي : الأسر القائم بها أيضاً ، فاضمحل في جنب ذلة هٰذين ما فيها من أخوته صلى الله عليه وسلم ، كما اضمحل في جنب الكفر ما في نحو أبي طالب من العمومة والتربية ومنع الأعداء بكل طريق أمكنته ، ثم من الله تعالىٰ عليها بالإسلام وبمعرفته صلى الله عليه وسلم لها .

120

فَحَبَاهَا بِرّاً تَوَهَّمَتِ ٱلنَّا سُ بِهِ أَنَّمَا ٱلسِّبَاءُ هِدَاءُ

(**فحباها**) أي : أعطاها ما لم يكن في حسابها ، وجاد علىٰ قومها لأجلها (**براً**) أي : لأجل بره لها ؛ إذ رحم الرضاع كرحم النسب ، ويجوز أن يكون هو المفعول الثاني ، ويؤيده : أنه أبدل منه قوله : (بسط . . .) إلخ كما يأتي ، ولما أتته . . بسط لها رداءه وأجلسها عليه ، ثم خيرها وقال : « إِنْ أَحْبَبْتِ . . فَعِنْدِي مُحَبَّبَةٌ مُكَرَّمَةٌ ، وَإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ أُمَتِّعَكِ وَتَرْجِعِي إِلَىٰ قَوْمِكِ . . فَعَلْتُ » فاختارت قومها ، فمتعها وزاد في الإحسان إليها كما هو شأنه صلى الله عليه وسلم ، وردها إلىٰ قومها ، وأعطاها غلاماً له يقال له : مكحول وجاريةً ، فزوجته بها ، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية[٢] .

(**توهمت الناس**) الذين رأوا ذلك البر ؛ أي : وقع في وهمهم ؛ أي : ذهنهم ، وإسناد ذلك إليهم باعتبار ما من شأنه (**به**) أي : بسبب ذلك البر الذي وصل إليها منه (**أنما**) بفتح الهمزة أداة حصر كمكسورتها (**السباء**) اللواتي معها ؛ أي : المسبيات ، أو النساء ؛ لأنهن يسمين سباءً ، ففي « القاموس » : (والسبي : ما يسبىٰ ، جمعه سُبِي ، والنساء ؛ لأنهن يسبين القلوب ؛ أو يُسبَيْن فيملكن) ،

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٤/ ٤٥٨) ، و« تاريخ الطبري » (٣/ ٨١) .

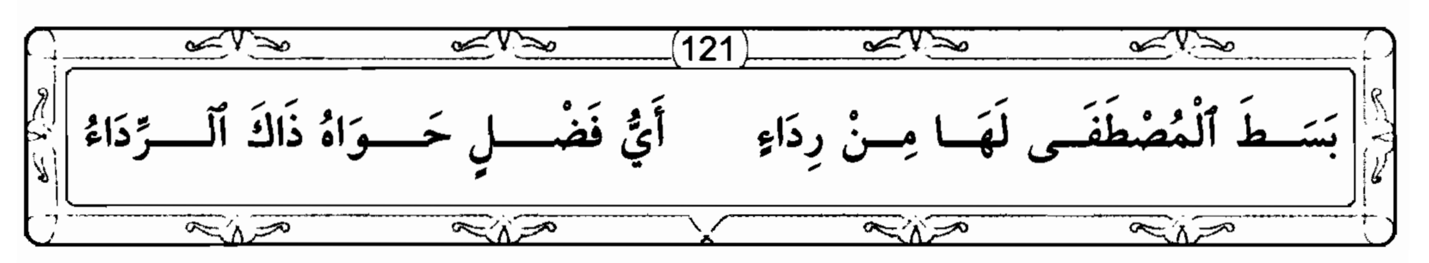
(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٤/ ٤٥٨) ، و« تاريخ الطبري » (٣/ ٨١) .

وحينئذ تصح قراءة النظم بسين ثم باء ، وبنون ثم سين ، والمعنىٰ صحيح علىٰ كل منهما كما يعلم من تقريري الآتي . فتأمله .

وبينه وبين (الناس) الجناس المقلوب (هداء) بالكسر مصدر : هديت المرأة إلىٰ زوجها ؛ أي : مهديات ، كرجل عدل ، والجملة في محل مفعول (توهمت) الثاني[١] ؛ أي : توهموا أن النسوة اللواتي معها في السبي لم يسبين ؛ لعظيم ما قابلهن به من الإكرام ، وإنما جئن لإهداء عروس وجِلائها عليه صلى الله عليه وسلم لا لكونهن مسبيات ؛ لأن ذلك الإكرام إنما يفعل مثله لنساء يهدين عروساً ، لا لنساء مسبيات .

تنبيه : استعمال الناظم لـ(أنما) هـٰذه في الحصر تبع فيه الزمخشري والبيضاوي وغيرهما ، وجعل الأولان منه قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ، فقالا : (إنما) لقصر الحكم علىٰ شيء ، أو لقصر الشيء علىٰ حكم ، نحو : إنما زيد قائم ، وإنما يقوم زيد ، وقد اجتمعا في هـٰذه الآية ؛ لأن : ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ مع فاعله بمنزلة : إنما يقوم زيد ، و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ بمنزلة : إنما زيد قائم ، وفائدة اجتماعهما : الدلالة علىٰ أن الوحي إليه صلى الله عليه وسلم مقصور على استئثار الله تعالىٰ بالوحدانية[٢] .

وقول أبي حيان : (يلزم الزمخشري انحصار الوحي في الوحدانية)[٣] . . مردود بأنه حصر مجازي باعتبار المقام .



ومن جملة ذلك البر أنه : (**بسط**) فهو بدل من (براً) كما مر ، ويصح كونه بدلاً من (حبا) (**المصطفىٰ**) صلى الله عليه وسلم (**لها من**) الظاهر في (من) : أنها

---

(١) في (ب) و(د) : (توهمت الناس) ، والأولىٰ أن يقول : و(أن) وما بعدها في تأويل المصدر سدَّ مسد مفعولي (توهمت) والله أعلم .

(٢) انظر « الكشاف » (٣/ ١٣٩) ، و« تفسير البيضاوي » (٤/ ١١١) .

(٣) انظر « البحر المحيط » لأبي حيان (٦/ ٣٤٤) .

زائدة علىٰ مذهب الأخفش وجماعة (رداء) كان عليه ؛ أي : نشره وجعله لها فراشاً لتجلس عليه ، ويصح جعل (من) للتبعيض ، فيكون صلى الله عليه وسلم بسط لها بعضه لتجلس عليه ، والأول أقرب ، وعلىٰ كل فهنيئاً لها ذلك الإكرام ، كيف وهو رداء (أي فضل) أي : شرف عظيم لا غاية له (حواه) أي : جمعه (ذاك الرداء ؟!) لمماسته لجسده الشريف صلى الله عليه وسلم ، وما أفهمه هـٰذا التقرير من أن (أي فضل . . .) إلخ جملة نعت لـ(رداء) ، و(من) زائدة أو تبعيضية . . هو المتبادر كما لا يخفىٰ ، ويصح أن (أي) مفعول (بسط) ، وأن (فضل) بمعنىٰ فضيلة فـ(من) تبعيضية ، وأنه علىٰ حاله فـ(من) تعليلية داخلة علىٰ مضاف ؛ أي : نشر لها من أجل فرشه رداءه لها فضلاً عظيماً حواه ذلك الرداء ؛ أي : تمييزاً ظاهراً علىٰ بقية نساء هوازن .

وفي (رداء) و (الرداء) رد العجز على الصدر .

(122)

فَغَدَتْ فِيهِ وَهْيَ سَيِّدَةُ ٱلنِّسْـ ـــوَةِ وَٱلسَّيِّدَاتُ فِيهِ إِمَاءُ

(فغدت) أي : صارت مندرجة (فيه) أي : ذلك الفضل (و) الحال أنها (هي سيدة) أولـٰئك (النسوة) اللواتي معها من سبي هوازن ؛ لما حصل لها من التمييز الباهر عليهن (و) إن أولـٰئك النسوة اللواتي هن (السيدات) قبل أسرهن (فيه) أي : ذلك الفضل (إماء) أي : صارت كأنها سيدتهن ، وكأنهن ـ مع كونهن سيدات ـ إماء لها .

وبين (السيدات) و(الإماء) طباق ، وهـٰذه مؤكدة للجملة الأولى التي هي حال من فاعل (غدت) ، كما علم مما قررته .

ولما ذكر ما اختص به صلى الله عليه وسلم من الرفعة والترقي إلىٰ ما لم يصل إليه مخلوق ، وما يتعلق بذلك من صفات تنقطع أعناق الأطماع عن أن تمتد إليها ، وخصال لم تعول آمال الكمل إلا عليها . . طلب من كل سامع فاته مشاهدة رؤيته صلى الله عليه وسلم أن ينزه سمعه بالإصغاء إلىٰ صفات ذاته ومعانيه صلى الله عليه وسلم فقال :

(123)

فَتَنَـــزَّهْ فِـــي ذَاتِـــهِ وَمَعَـــانِيـ ـــهِ ٱسْتِمَـاعـاً إِنْ عَـزَّ مِنْهَـا ٱجْتِـلَاءُ

(فتنزه) قال الشارح : (هو من قولهم : خرجنا نتنزه في الرياض) اهـ وكأنه جرىٰ في ذلك على العرف ؛ إذ التنزه كما في « القاموس » : (التباعد) ثم قال : (وأرض نزهة : بعيدة عن الريف ـ أي : الخصب والزرع ـ وعمق المياه وذِبَّان القرىٰ وومد البحار وفساد الهواء) ثم قال : (واستعمال التنزه في الخروج إلى البساتين والخضر والرياض . . غلط قبيح) .

(في) أوصاف (ذاته) مر الكلام عليها في : (لك ذات العلوم) (ومعانيه) أي : صفاته الخارجة عن أوصاف ذاته صلى الله عليه وسلم (**استماعاً**) أي : من جهة إصغائك إلى استماع أوصاف ذاته وجميل صفاته الآتية في هـٰذا النظم الجامع البديع ، وبين (ذاته) و(معانيه) جناس المقابلة ، (كالاستماع) و(الاجتلاء) الآتي .

(إن عز) أي : فقد (**منها**) متعلق بقوله : (**اجتلاء**) من : جلوت العروس جِلاء وجِلوة ، واجتليتها إذا نظرت إليها مجلية ؛ أي : مكشوفة مزينة ؛ أي : إن فاتك رؤية ذاته الكريمة ومشاهدة صفاته العلية . . فلا يفتك تفريغ سمعك لكل ما يتلىٰ عليك من أوصاف ذاته صلى الله عليه وسلم وعلي صفاته ، وبه يظهر أن (من) زائدة في الإيجاب ، وهو ما أجازه جماعة ، وخرَّجوا عليه قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ، ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ ﴾ ، ﴿ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ ، وفيه نظر ؛ لإمكان نحو التبعيض فلا زيادة . فتأمله .

(124)

وَٱمْـلَأْ ٱلسَّمْـعَ مِـنْ مَحَـاسِـنَ يُمْلِيـ ـهَـا عَلَيْـكَ ٱلْإِنْشَـادُ وَٱلْإِنْشَـاءُ

(و) لا تقتصر علىٰ سماعك لقليل من ذلك ، بل (**املأ السمع**) بأن تكثر من سماع ذلك ، حتىٰ لو فرض أن ما تسمعه شيء محسوس ، وأن سمعك إناء واسع . . لملأه ذلك المسموع (**من محاسن**) اشتمل عليها صلى الله عليه وسلم ، لا يلحق أحد

آثارها ، ولا يشق كامل غبارها ، وهو جمع علىٰ غير قياس ؛ لأن مفرده حسن لا محسن إلا تقديراً (**يمليها**) من : أمليت الكتاب ، ويجوز أمللته (**عليك**) من هٰذه القصيدة وغيرها (**الإنشاد**) لها من شجي الصوت بأتم الإعراب ، فقد قالوا : من أقوى الأسباب الباعثة علىٰ محبته صلى الله عليه وسلم.. سماع الأصوات المطربة بالإنشادات بالصفات النبوية المعربة ، إذا صادفت محلاً قابلاً لها.. فإنها تحدث للسامع سكراً وأريحية وطرباً ، وذلك يحدث عندها لسببين :

أحدهما : أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر فيها العقل .

الثاني : أنها تحرك النفس إلىٰ جهة محبوبها ، فيحصل بتلك الحركة والشوق تخيل المحبوب وإحضاره في الذهن ، وقرب صورته من القلب واستيلاؤها على الفكر ، وفي هٰذا من اللذة ما يغمر العقل ؛ لاجتماع لذة الألحان وكثرة الأشجان ، فيحصل للروح ما هو أعجب من سكر الشراب ، وأقوىٰ في اللذة من عناق الشوابِّ ، وقد ذكر الإمام أحمد رضي الله تعالىٰ عنه وغيره : أن الله تعالىٰ يقول لداوود في الجنة : مجدني بذلك الصوت الذي كنت تمجدني به في الدنيا ، فيقول : كيف وقد أذهبته ؟ فيقول : أنا أرده عليك ، فيقوم عند ساق العرش ويمجده ، فإذا سمع أهل الجنة صوته.. استفرغ نعيم أهل الجنة ، وأعظم من ذلك إذا سمعوا كلام الرب جل جلاله وخطابه لهم ، لا سيما إن انضم إلىٰ ذلك رؤية وجهه الكريم.. فإن لذة ذلك تغني عن الجنة ونعيمها ، بما لا تدركه العبارة ، ولا تحيط به الإشارة .

(**والإنشاء**) من ناظمها ، وإسناد الإملاء إليهما مجاز ، ومما يحملك على استفراغ وسعك في ذلك التنزه ، وإملاء السمع من تلك المحاسن : أنه يجب عليك أن تعتقد : أن محاسن ذاته وكمال صفاته لا يمكنك أن تحيط بها ، كيف و

(125)

كُلُّ وَصْفٍ لَهُ ٱبْتَدَأْتَ بِهِ ٱسْتَوْ ... عَبَ أَخْبَارَ ٱلْفَضْلِ مِنْهُ ٱبْتِدَاءُ

(**كل وصف له**) من صفاته الذاتية والمعنوية (**ابتدأت**) أنت أو أنا (**به**) في الذكر ، أو ابتدأت بذكره لتحيط بغايته (**استوعب أخبار الفضل**) مفعول مقدم ؛ أي : جميع أخبار الفضائل والكمال (**منه**) متعلق بقوله : (**ابتداء**) أي : كلما ابتدأت

بوصف له صلى الله عليه وسلم ، وتأملت ما اشتمل عليه صريحاً وإيماءً . . وجدت ذلك الوصف المبتدأ به جمع أنواع الفضل وغايات الكمال ، ولا يستبعد ذلك ؛ فإن كل وصف من أوصافه صلى الله عليه وسلم آخذ بحُجَز تلك الأوصاف ؛ إذ لا يتحقق كمال وصف من صفات الإنسان ـ كالحلم مثلاً ـ إلا إن كمل في بقية أوصافه ، كالعلم والكرم والشجاعة والخلق الحسن وغيرها ، وحينئذ فكل من صفاته صلى الله عليه وسلم يدل علىٰ ما وضع له مطابقة ، وعلىٰ ما عداه منها إيماءً واستلزاماً ، كما لا يخفىٰ علىٰ من سبر ذلك وتأمله ، وبهـٰذا التحقيق الذي تنبه له الناظم يعلم أنه ـ سقى الله عهده ـ ثاقب النظر ، كامل المعرفة ، متضلع من العلوم والمعارف ، وليس ذلك بكثير علىٰ من حل عليه نظر القطب الكبير ، والعلم الشهير ، سيدي أبي العباس المرسي ، وارث أبي الحسن الشاذلي ، قدس الله تعالىٰ سرهما ، ونور ضريحهما .

وبما قررته في شرح هـٰذا البيت يعلم أنه من غرر أبيات هـٰذه القصيدة ، وأنه لا تعقيد فيه خلافاً للشارح .

وأنه يجب عليك أن تعتقد أيضاً : أن من تمام الإيمان به صلى الله عليه وسلم الإيمان بأن الله تعالىٰ أوجد خلق بدنه الشريف علىٰ وجه لم يظهر قبله ولا بعده في آدمي مثله ، وسر ذلك : أن محاسن الذوات دليل علىٰ ما بطن فيها من بدائع الأخلاق وجلائل الصفات ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد بلغ الغاية التي لم يصل إليها غيره في كل من ذينك ، ومن ثم قال الناظم في « بردة المديح » : (فهو الذي تم معناه وصورته . . .) البيتين ، فبيَّن أن حقيقة الحسن الكامل كملت فيه وحده ، ولم تنقسم بينه وبين غيره ؛ لأنه الذي تم معناه دون غيره ، ولو شورك . . لم يتم معناه .

وما أحسن قول بعضهم : لم يظهر لنا تمام حسنه ، وإلا . . لما أطاقت أعيننا النظر إليه!

وبين (ابتدأت) و (ابتداء) جناس الاشتقاق .

تنبيه : شرح الناظم بيان تمام معناه بما مر ويأتي ، ولم يشرح تمام حسن ذاته كذلك ، وإنما أشار لذلك بقوله : (برؤية وجه . . .) إلخ (ضحكه التبسم . . .)إلخ (أو بتقبيل راحة . . .) إلخ ، فتعين علينا أن نشير إلىٰ شيء من ذلك فنقول :

أما وجهه الشريف.. فصح عن البراء: أنه صلى الله عليه وسلم كان أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خُلُقاً[1]، وعن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه: ما رأيت شيئاً أحسن منه صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه صلى الله عليه وسلم[2]، وعن البراء: أنه قيل له: أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف؟ قال: لا، بل كالقمر[3]؛ أي: لم يكن كالسيف في الطول ولا في اللمعان، بل كالقمر في التدوير وفوق لمعان السيف، وصح عن جابر بن سمرة: لم يكن كالسيف، بل كالشمس والقمر، وكان مستديراً[4]، فنبه بهٰذا أنه جمع بين الحسن والإشراق، والملاحة والاستدارة، وجاء عن علي كرم الله وجهه: لم يكن بالمكلثم؛ أي: شديد استدارة الوجه، بل فيه تدوير قليل وهو أحلىٰ عند العرب، وهو معنىٰ قول أبي هريرة: كان أسيل الخدين؛ أي: فيهما طول وسلامة من ارتفاع الوجنة، وتشبيه غير واحد لوجهه بشقة القمر؛ أي: عند التفاته، وقيل: احتراز عما في القمر من السواد، ويرده: تشبيه أبي بكر رضي الله عنه وغيره له بدارة القمر، وفي «النهاية»: (أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا سر.. صار وجهه كالمرآة، فيرىٰ خيال الجدر فيه)[5]، وفي رواية: (يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر)[6] وإنما كان الأكثر تشبيهه بالقمر دون الشمس؛ لأن من شاهده.. ينظره كمال النظر، ويتأنس به ولا يتأذىٰ منه، بخلاف الشمس في الكل، ولذا كان من أسمائه صلى الله عليه وسلم البدر، ومن ثم قال الخارجون لملاقاته مرجعَه من تبوك:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ ٱلْوَدَاعْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٤٩)، ومسلم (٢٣٣٧).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٤٨)، وأحمد (٢/ ٣٨٠).
(٣) أخرجه أبو داوود الطيالسي في «مسنده» (٩٩).
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٤٤)، وابن حبان (٦٢٩٧)، وأبو يعلىٰ (٧٤٥٦)، وأحمد (٥/ ١٠٤)، وغيرهم.
(٥) النهاية (٤/ ٤٣٨).
(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٥٥)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٢٨٦)، وفي «الشعب» (١٤٣٠)، وغيرهم.

ثم هٰذه التشبيهات جرت علىٰ عادة العرب ، وإلا . . فلا محدث يعادل صفاته الخلقية والخلقية .

وأما بصره صلى الله عليه وسلم . . فيكفيك : ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ ﴾ .

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما : (كان يرىٰ بالليل في الظلمة كما يرىٰ بالنهار في الضوء)[1] ، وصح : أنه (كان يرىٰ في الصلاة مَن خلفه كما يرىٰ مَن أمامه)[2] أي : رؤية إدراك ، كهي بالبصر ؛ إذ الرؤية الواقعة علىٰ جهة الكرامة لا تتوقف عليه ولا علىٰ شعاع ولا علىٰ مقابلة عند أهل السنة ، وما قيل : كان له عينان بين كتفيه كسم الخياط يرىٰ بهما ولا تحجبهما الثياب . . لم يثبت ما يدل عليه ، والأصل عدمه ، كزعم أن صورهم كانت تنطبع في قبلته[3] صلى الله عليه وسلم ، أو أنها رؤية قلب ، أو أن المراد بها : العلم بوحي أو إلهام ، وحديث : « إني لا أعلم ما وراء جداري » . . لم يعرف له سند ، وإنما ذكره ابن الجوزي في بعض كتبه بلا إسناد ، وبفرض وروده . . فهٰذا غير ما نحن فيه ؛ لأن المنفي علم الغيب بما وراء الجدار حيث لم يعلم به بوحي أو إلهام ، ومن ثم لما ضلت ناقته ، وقال بعض المنافقين : هو يزعم علم الغيب . . قال : « وَٱللهِ إِنِّي لاَ أَعْلَمُ إِلاَّ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي ، وَقَدْ دَلَّنِي رَبِّي عَلَيْهَا ، وَهِيَ فِي مَوْضِعِ كَذَا ، ٱحْتَبَسَتْهَا شَجَرَةٌ بِخِطَامِهَا » فذهبوا فوجدوها كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، وبفرض التعارض : فما مر في حالة الصلاة ، وهٰذا خارجها .

وجاء : أنه كان إذا التفت . . التفت جميعاً ؛ أي : لا يسارق النظر ، ولا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة كالطائش الخفيف ، وأن جل نظره النظر بلحاظه صلى الله عليه وسلم ، وهو : جانب العين الذي يلي الصدغ ، وأنه صلى الله عليه وسلم عظيم العينين ، أهدب الأشفار ، مشرب العينين بحمرة[4] .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٦/ ٧٥) .
(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٤١٩) ، ومسلم (٤٢٣) ، وأحمد (٢/ ٣١٩) ، والحاكم (١/ ٢٣٦) .
(٣) في (أ) و (ب) : (قلبه) .
(٤) أخرجه أبو يعلىٰ (٣٧٠) ، وأحمد (١٠/ ٨٩) ، والبزار (٦٦٠) ، وغيرهم .

وروىٰ مسلم : أشكل العينين[1] ، والشكلة : الحمرة في بياض العين ، وهي محمودة ، والشهلة : حمرة في سوادها .

وفي رواية : أدعج العينين[2] ؛ أي : شديد سوادهما ، أهدب الأشفار ؛ أي : طويلهما .

وأما سمعه صلى الله عليه وسلم . . فحسبك فيه خبر الترمذي : « إِنِّي أَرَىٰ مَا لاَ تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ ٱلسَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ تَعَالَىٰ »[3] ، وفي رواية لأبي نعيم : « أَوْ قَائِمٌ »[4] .

وأما شعره صلى الله عليه وسلم . . فصح : أنه كان بين شعرين : لا رجل ـ أي : بفتح فكسر ، وهو : ما يتكسر قليلاً ـ ولا سبط ولا جعد قطط ، كان بين أذنيه وعاتقيه ، وأنه : رجل ، ليس بالسبط ولا الجعد ، ولا تخالف ؛ لأن فيه رجولة قليلة ، فالأُولىٰ لنفي كثيرها ، وأنه إلىٰ شحمة أذنيه ، وأنه إلىٰ أسفلها ، وأنه إلى الكتفين[5] ، ولا تخالف أيضاً ؛ لأنه ربما ترك تقصيره فيطول ، وربما تداركه فيقصر ، وكان إذا انفرق . . انفرق بنفسه ، وإلا . . تركه معقوصاً .

ولعل هـٰذا كان أولاً ، وإلا . . فالذي صح : أنه صلى الله عليه وسلم كان يسدله ـ أي : يرسله ـ ثم فرق[6] .

ثم رأيت أن العلماء قالوا : إن الفرق سنة ؛ لأنه الذي رجع إليه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مسلم (٢٣٣٩) .
(٢) أخرجه البخاري (٤٧٤٥) ، والترمذي (٣٦٣٨) ، وغيرهما .
(٣) الترمذي (٢٣١٢) .
(٤) حلية الأولياء (٦/ ٢٦٩) .
(٥) انظر « البخاري » (٣٥٤٧) و(٣٥٤٨) و(٣٥٥١) و(٥٩٠٠) ، و« مسلم » (٢٣٣٨) و(٢٣٤٧) .
(٦) أخرجه البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٤٣٠٧) ، والنسائي (٨/ ١٨٤) ، وأبو داوود (٤١٨٥) ، وابن ماجه (٣٦٢٢) ، وغيرهم .

وكان في عنفقته صلى الله عليه وسلم وصدغيه شعرات بيض دون العشرين[١] ، وإنما لم يكثر فيه مع أنه نور ووقار ؛ لرواية : ما شانه الله بالشيب[٢] ؛ أي : لأن النساء يكرهنه غالباً ، ومن كره منه صلى الله عليه وسلم شيئاً كفر .

واختلفت الروايات في تغييره صلى الله عليه وسلم لشيبه بنحو الحناء[٣] ، ولا تخالف ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم فعله كثيراً ، وتركه أكثر ، ومن ثم كان سنة عندنا .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم كان كث اللحية[٤] ، وجاء : أنه كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته ، وكان صلى الله عليه وسلم أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، ولم يرو أنه حلق رأسه في غير حج أو عمرة ، ورواية : أنه كان يأخذ من عرض لحيته وطولها . . لم تثبت ، وهي غريبة ، بخلاف رواية : « أَعْفُوا ٱللِّحَىٰ »[٥] ، فمن ثم أخذ بها أئمتنا رضي الله تعالىٰ عنهم .

وورد : أنه صلى الله عليه وسلم كان ينظر في المرآة إذا سرح لحيته[٦] ، وأنه كانت له مكحلة يكتحل منها بالإثمد في كل عين ثلاثة قبل النوم[٧] .

وأما جبينه صلى الله عليه وسلم وحاجباه وأنفه ورأسه . . فقد جاء : أنه صلى الله عليه وسلم واضح الجبين ، مقرون الحاجبين[٨] ؛ أي : شعرهما متصل ، وأنه غير متصلهما ، ورجحه ابن الأثير[٩] ، وقد يجمع بأنهما كانا كثيري الشعر ، كما في

---

(١) أخرج نحوه البخاري (٣٢٨٢) ، وأحمد (٤/ ١٨٧) .
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥٤) .
(٣) أخرج مسلم (٢٣٤١) ، وأبو داوود (٤٢٠٦) أنه صلى الله عليه وسلم لم يختضب ، وأخرج ابن ماجه (٣٦٢٣) ، وأحمد (٦/ ٢٩٦) أنه صلى الله عليه وسلم خضب بالحناء .
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٨٩) ، وأبو يعلىٰ (٣٧٠) ، والبزار (٦٦٠) ، وغيرهم .
(٥) أخرجه البخاري (٥٨٩٣) ، ومسلم (٢٥٩) .
(٦) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٣٦٣) .
(٧) أخرجه الترمذي (١٧٥٧) ، وابن ماجه (٣٤٩٩) ، وأحمد (١/ ٣٥٤) ، وغيرهم .
(٨) أخرجه ابن عساكر في « تاريخه » (٣/ ٣٩٢) بنحوه .
(٩) النهاية (٤/ ٥٤) .



رواية ، وفي رواية : سابغين ، كما في أخرىٰ : دقيقين ، كما في أخرىٰ : فهما مع كثرة شعرهما فيهما سبوغ إلىٰ آخر العين ، ودقة في طرفيهما ، فلكثرة شعرهما يريان من بعيد كأنهما متصلان ، وليسا في الحقيقة كذلك .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم ضخم الرأس ، ضخم الكراديس[1] ؛ أي : رؤوس العظام .

وجاء : أنه صلى الله عليه وسلم أقنى الأنف[2] ؛ أي : طويله مع دقة أرنبته وحدب في وسطه ، وعبر بعضهم : بأنه سائل مرتفع وسطه ، وأنه صلى الله عليه وسلم دقيق العرنين ؛ أي : أعلى الأنف ، وأن من لم يتأمله . . يحسبه أشم ؛ أي : طويل قصبة الأنف .

وأما فمه صلى الله عليه وسلم . . فقد صح : أنه واسعه[3] ، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ؛ أي : لسعة فمه ، والعرب تمدحه وتذم ضده ، وأنه صلى الله عليه وسلم أشنبُ[4] ؛ أي : لأسنانه غاية البريق واللمعان ، وأنه إذا تكلم . . رئي كالنور يخرج من ثناياه ، وأنه صلى الله عليه وسلم مفلج الأسنان ؛ أي : متفرقها ، وفي رواية : مفلج الثنيتين ؛ أي : أكثر من البقية .

وأما ريقه صلى الله عليه وسلم . . فقد صح : أنه يوم خيبر تفل في عين علي رضي الله تعالىٰ عنه وكرم وجهه ـ وكان به رمد ـ فبرىء منه لوقته ، وأعطاه الراية ففتح الله علىٰ يديه[5] .

وجاء : أنه صلى الله عليه وسلم مج في بئر ففاح منها رائحة المسك[6] ، وأنه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧) ، وأحمد (١/ ١٢٧) ، وغيرهما .

(٢) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ٢٢٥) وقال : (رواه الطبراني ، وفيه اثنان ، أحدهما : يحيىٰ بن حاتم ولم أعرفه ، والآخر : بشر بن مهران وثقه ابن حبان ، وضعفه أبو حاتم ، وبقية رجاله ثقات) ، وأخرجه ابن عساكر في « تاريخه » (٣/ ٢٦٥) .

(٣) أخرج الترمذي (٣٦٤٧) نحوه .

(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٤٣٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٥٥) .

(٥) أخرجه مسلم (٢٤٠٥) ، وابن حبان (٦٩٣٣) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٠) ، وغيرهم .

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ٣١٥) ، والبيهقي في « الدلائل » (١/ ٢٥٧) .

صلى الله عليه وسلم بزق في أخرىٰ فلم يكن بالمدينة أطيب ماء منها ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان في يوم عاشوراء يبصق في فم رضعائه ورضعاء فاطمة وينهىٰ عن رضاعهم فيجزيهم ريقه إلى الليل[١] ، وأنه صلى الله عليه وسلم مضغ قطعة لحم وأعطاها لخمس نسوة فمضغتها كل منهن ، فمتن ولم يوجد لأفواههن ريح خلوف[٢] .

وأما فصاحة لسانه صلى الله عليه وسلم ، وجوامع كلمه ، وبديع بيانه وحكمه . . فأمر أظهر من أن يذكر ، وأشهر من أن ينشر ، كيف وقد ارتقىٰ في كل ذلك الغاية القصوى التي لم يدركها مخلوق حتىٰ قال بعض العلماء : إن كلامه معجز كالقرآن ؟!

وأما صوته صلى الله عليه وسلم . . فروى ابن عساكر خبر : (ما بعث الله نبياً قط . . إلا بعثه حسن الوجه حسن الصوت حتىٰ بعث الله نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فبعثه حسن الوجه حسن الصوت)[٣] والبيهقي : (خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أسمع العواتق في خدورهن) وأبو نعيم : أنه صلى الله عليه وسلم قال للناس يوم الجمعة على المنبر : « ٱجْلِسُوا » فسمعه عبد الله بن رواحة وهو في بني تميم فجلس مكانه .

وابن سعد : أنه خطب بمنىً ، ففتح الله أسماعهم ، فسمعوه وهم بمنازلهم .

(126)

سَيِّـدٌ ضِحْكُـهُ ٱلتَّبَسُّـمُ وَٱلْمَشْـ ـيُ ٱلْهُـوَيْنَـا وَنَـوْمُـهُ ٱلْإِغْفَـاءُ

وأما ضحكه صلى الله عليه وسلم . . فهو أنه : (سيد) للعالمين الأولين والآخرين كما مر مبسوطاً أول الكتاب (ضحكه) أي : الذي يظهر به سروره . . هو (التبسم) كما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها : (ما رأيته مستجمعاً قط ضاحكاً ـ أي : مقبلاً على الضحك بكليته ـ إنما كان يتبسم)[٤] ، ولا ينافيه خبر البخاري أيضاً في

---

(١) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٦/٢٢٦) .
(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٤/٣٤١) .
(٣) تاريخ دمشق (٤/٦) .
(٤) البخاري (٦٠٩٢) .

المُواقعِ أَهلَه في رمضان : (فضحك حتىٰ بدت نواجذه)[1] وهي ـ بالجيم والذال المعجمَة ـ : الأضراس ، وهي لا تكاد تظهر إلا عند المبالغة في الضحك ؛ لأن عائشة رضي الله عنها إنما نفت رؤيتها ، وذلك لا ينافي وقوع غير التبسم منه .

نعم ؛ الذي دل عليه مجموع الأحاديث : أن أكثر أوقاته صلى الله عليه وسلم هو التبسم ، وربما ضحك ، والمكروه إنما هو الإكثار أو الإفراط من الضحك ، سواء كان معه قهقهة أم لا ، ومن ثم روى البخاري في « أدبه » وابن ماجه النهي عن كثرته ، وأنه يميت القلب[2] .

والفرق أن التبسم : مبادىء الضحك من غير صوت ، والضحك : انبساط الوجه حتىٰ تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفي ، فإن كان معه صوت يسمع من بعيد . . فهو القهقهة .

وأما بكاؤه صلى الله عليه وسلم . . فكان من جنس ضحكه ، لم يكن بشهيق ولا برفع صوت ، ولـٰكن تدمع عيناه حتىٰ تهملا ، ويسمع لصدره أزيز ؛ أي : غليان ، يبكي رحمة للميت ، وخوفاً علىٰ أمته ، وشفقة من خشية الله تعالىٰ ، وعند سماع القرآن ، وأحياناً في صلاة الليل .

وجاء : أنه صلى الله عليه وسلم حُفظ من التثاؤب[3] ، بل جاء : أن كل نبي كذلك[4] .

وأما يده صلى الله عليه وسلم . . فقد وصفه غير واحد ـ كما في عدة طرق ـ بأنه شثن الكفين[5] ؛ أي : غليظ أصابعهما ، وبأنه عبل الذراعين[6] ، رحب الكفين ، ووصف

---

(١) البخاري (٦٠٨٧) .
(٢) الأدب المفرد (٢٥٣) ، ابن ماجه (٤١٩٣) .
(٣) أخرج ابن شيبة في « مصنفه » (٢/ ٣١٧) عن يزيد بن الأصم : (ما تثاءب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة قط) .
(٤) أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٨/ ٢٩٤) .
(٥) أخرجه البخاري (٥٩١٢) ، وابن حبان (٦٣١١) ، والترمذي (٣٦٣٧) ، وأحمد (١/ ١١٦) ، وغيرهم .
(٦) عبل الذراعين : ضخمهما .

أيضاً بأن يده صلى الله عليه وسلم ألين من الحرير والديباج[1] ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك[2] ، ولا ينافي هـٰذا اللين ما مر آنفاً ؛ لأنه جمع مع لين الجلد غلظ العظام وقوتها ، وتفسير الأصمعي الشثن بغلظ في خشونة . . مردود ، بل نقل ابن خالويه عنه أنه قيل له : ورد في صفته صلى الله عليه وسلم أنه لين الكفين ، فأقسم أن لا يفسر شيئاً في الحديث ، وبتسليمه فهو صلى الله عليه وسلم كان ربما حصلت له خشونة في كفيه من جهاد أو عمل في مهنة أهله ، وتفسير أبي عبيد له بغليظ الأصابع مع قصرها . . يرده ما جاء : أنه كان سائل الأطراف .

فالتحقيق : أن الشثن الغلظ من غير خشونة ولا قصر .

وروى الحاكم وغيره : أنه صلى الله عليه وسلم مسح بيده الشريفة الدم عن وجهه وصدره من جرح في وجهه ، فكان أثر يده الشريفة غرة سائلة كغرة الفرس[3] .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم مسح رأس ولحية أبي زيد الأنصاري ثم قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ جَمِّلْهُ » فبلغ بضعاً ومئة سنة وما في لحيته بياض ، ولا في وجهه انقباض[4] .

وروىٰ أحمد وغيره : أنه صلى الله عليه وسلم مسح رأس حنظلة بيده وقال : « بُورِكَ فِيكَ » فكان يمسح بمحل يده صلى الله عليه وسلم الورم فيذهب[5] .

وأما إبطاه صلى الله عليه وسلم . . فكانا أبيضين ، كما جاء عن عدة من الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم ، لـٰكن تعارضه الرواية الصحيحة : (كنت أنظر إلىٰ عفرة إبطيه)[6] ، والعفرة : بياض ليس بالناصع ، وقد يجمع بحمل البياض في الأول على

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦١) ، ومسلم (٢٣٣٠) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٥٣) ، وأحمد (٤/ ١٦١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١١٥) .
(٣) الذي في « المستدرك » (٣/ ٥٨٧) : أنه مسح الدم عن وجه عائذ بن عمرو المزني .
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٧٧) ، والبيهقي في « الدلائل » (٦/ ٢١١) .
(٥) مسند أحمد (٥/ ٦٧) .
(٦) أخرجه النسائي (٢/ ٢١٢) .

البياض غير الناصع ، وذكر بعضهم : أنه لا شعر بإبطيه ، ورد بأنه لم يثبت بوجه ، وكان يسيل منهما مثل ريح المسك[1] .

وكانت له مسربة ، وهي : خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة ، بل في رواية : له شعرات من لبته إلىٰ سرته ، تجري كالقضيب ، ليس علىٰ صدره ولا علىٰ بطنه غيره .

وأما بطنه وظهره . . فجاء : أنه صلى الله عليه وسلم مفاض البطن[2] ؛ أي : واسعه ، وقيل : مستوي الظهر مع الصدر ، وأن بطنه صلى الله عليه وسلم كالقراطيس المثني بعضها علىٰ بعض[3] ، وأنه بعيد ما بين المنكبين[4] ؛ أي : عريض الصدر .

وأما قلبه صلى الله عليه وسلم . . فهو أول قلب أودع الأسرار الإلـٰهية ، والمعارف الربانية ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أول الخلق كما مر ، وصورته صلى الله عليه وسلم آخر صور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فهو صلى الله عليه وسلم أولهم وآخرهم في حيازة أعلى الكمالات الخلْقية والخُلقية .

ومما ينبئك بأن قلبه صلى الله عليه وسلم أودع ما لم يودعه غيره تكررُ شقه ، وملؤه إيماناً وحكمة ، وإخراج حظ الشيطان منه ، كما مر ذلك مبسوطاً في مبحث رضاعه صلى الله عليه وسلم ، ومحاسنه الظاهرة التي هي أعلام على الأخلاق الباطنة ، فكما أن تلك لم يساوه فيها مخلوق . . فكذلك هـٰذه .

وأما جماعه صلى الله عليه وسلم . . فقد صح عن أنس : (كنا نتحدث أنه صلى الله عليه وسلم أعطي قوة ثلاثين رجلاً في الجماع)[5] وروى الإسماعيلي : (قوة أربعين) زاد أبو نعيم عن مجاهد : (كلهم من رجال أهل الجنة) ، والرجل في الجنة يعطىٰ قوة مئة ، كما صححه الترمذي وقال : (غريب[6]) ، وأربعون في مئة بأربعة آلاف ، ومع ذلك كان صلى الله عليه وسلم علىٰ غاية من تقليل الغذاء ؛ ليخرق الله تعالىٰ له العادة

---

(١) كما أخرج الدارمي (٦٤) عن رجل من بني حريش قال : (. . . فضمني إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسال علي من عرق إبطه مثل ريح المسك) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (١/ ٢٤١) .

(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٤١٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٥١) ، ومسلم (٢٣٣٧) ، وغيرهما .

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٨) ، وأحمد (٣/ ٢٩١) .

(٦) الترمذي (٢٥٣٦) .

في الأمرين ، ولم يحتلم قط ، وكذا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ لأنه من الشيطان[1] ، لـٰكن ظاهر قول عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : (يصبح صائماً جنباً من جماع غير احتلام)[2] . . أنه يحتلم ، وبتسليمه فالأول محمول علىٰ ما إذا كان عن رؤية وقاع ؛ لأن هـٰذا هو الذي من الشيطان ، بخلاف مجرد نزول المني في النوم .

وأما قدمه صلى الله عليه وسلم . . فجاء عن غير واحد : (أنه شثن القدمين)[3] أي : غليظ أصابعهما ، وكانت سبابة قدميه صلى الله عليه وسلم أطول من بقية أصابعهما[4] ، ومن روىٰ ذلك في اليد . . فقد غلط ، كما بينه غير واحد ، وكانت خنصرهما متظاهرة ، وكانا لا أخمص لهما[5] ؛ أي : ليس في باطنهما كبير انخفاض بحيث يطأ به كله ، فهو معتدل الخمص ، ومعنىٰ رواية : أنه مسيح القدمين[6] : أن فيهما مع ذلك ليناً وملاسة دون تكسر وتشقق .

وأما طوله صلى الله عليه وسلم . . فكان رَبْعة ، لـٰكنه إلى الطول أقرب ، كما جاءت به الأحاديث الكثيرة ، وفي حديث ما يفيد أن هـٰذا إن مشىٰ وحده أو مع قصير ، وإلا . . طال علىٰ من ماشاه ، وهو صلى الله عليه وسلم ينسب إلى الطول ، بل لو اكتنفه طويلان . . طالهما ، فإذا فارقاه . . نسب إلى الربعة[7] .

وأما مشيه صلى الله عليه وسلم . . فقد صح عن علي كرم الله تعالىٰ جهه : (أنه كان إذا مشىٰ . . تكفأ تكفؤاً ، كأنما ينحط من صبب)[8] وفي رواية عنه : (كان إذا مشىٰ . . تقلع)[9] والتقلع والانحدار . . من الصبب قريب ، أراد : أنه كان يستعمل

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/ ١٨٠) ، و« الأوسط » (٨٠٥٨) .
(٢) أخرجه البخاري (١٩٣٢) ، ومسلم (١١٠٩) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٩١٢) ، وابن حبان (٦٣١١) ، والترمذي (٣٦٣٧) ، وأحمد (١/ ١١٦) ، وغيرهم .
(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ١٤٥) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (١/ ٢٧٤) .
(٦) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (١/ ٢٨٦) ، وأبو نعيم في « الدلائل » (٢/ ٨٠١) .
(٧) أخرجه أبو نعيم في « الدلائل » (٢/ ٨١٣) .
(٨) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧) ، وأحمد (١/ ١١٧) ، والحاكم (٢/ ٦٠٥) ، وغيرهم .
(٩) أخرجه الترمذي (٣٦٣٨) ، والبيهقي في « الشعب » (١٤١٥) .

التثبت ، ولا يتبين منه في هٰذه الحالة استعجال ومبادرة بالمشي ، وهٰذا هو مراد الناظم بقوله : (**والمشي**) الكائن منه (**الهوينا**) تصغير ٱلْهَوْن ـ وهو : السكينة والوقار ـ للتعظيم ، نحو قول الشاعر : [من الطويل]

وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ   دُوَيْهِيَـةٌ تَصْفَـرُّ مِنْهَـا ٱلْأَنَـامِـلُ[1]

وقد مدح تعالىٰ من يمشون كذلك ، فقال عز قائلاً : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، ولا ينافي ذلك رواية الترمذي عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه :

(ما رأيت أسرع من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الأرض تطوىٰ له ، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث)[2] ؛ لأن عجزهم عن لحوقه ليس لأنه كان يجهد نفسه في المشي ، كما يدل عليه قوله : (غير مكترث) بل لأنه كان يبارك له في مشيه ، كما يدل عليه قوله : (كأن الأرض تطوىٰ له) ، فهو صلى الله عليه وسلم مع هون مشيته لا يلحق ، ومعنىٰ رواية : (ذريع المشي)[3] أي : واسع الخطوة .

وقال ابن القيم في رواية : (كان إذا مشىٰ . . تقلع) : (والتقلع : الارتفاع من الأرض بجملته ، كحال المنحط من الصبب ، وهي مشية أولي العزم والهمة ، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء ، فكثير من الناس يمشي قطعة واحدة ، كأنه خشبة محمولة ، فهي مذمومة ، كالمشي بالانزعاج كالجمل الأهوج ، وهٰذه تدل علىٰ قلة عقل صاحبها ، لا سيما إن أكثر فيها الالتفات)[4] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا مشىٰ معه أصحابه . . قدمهم أمامه وقال : « خَلُّوا ظَهْرِي لِلْمَلاَئِكَةِ »[5] ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا مشىٰ في قمر أو شمس . .

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري ، وهو في « ديوانه » (ص ١٤٥) ، وقبله قوله المشهور :

أَلاَ كُـلُّ شَـيْءٍ مَـا خَـلاَ ٱللهَ بَـاطِـلُ   وَكُـلُّ نَعِيـمٍ لاَ مَحَـالَـةَ زَائِـلُ

(٢) الترمذي (٣٦٤٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في « الشمائل المحمدية » (٧) ، والبيهقي في « الدلائل » (١/ ٢٨٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٥٥) ، وغيرهم .

(٤) زاد المعاد (١/ ٤٢) .

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٧) ، والدارمي (٤٦) .

لا يظهر له فيء ، وسره قوله صلى الله عليه وسلم في دعائه : « وَٱجْعَلْنِي نُوراً »[1] .

وأما لونه . . فقد وصفه جمهور أصحابه بالبياض ، كما صح عنهم من طرق متعددة ، ولا ينافيه رواية : (مشرب بحمرة)[2] ؛ لأنه مع ذلك يسمىٰ أبيض .

نعم ؛ قد ينافيها رواية : (أبيض شديد البياض)[3] إلا أن يحمل المشرب بحمرة على الوجه فقط ، وما عداه شديد البياض ، كما تدل عليه رواية : (فنظرت إلىٰ ظهره صلى الله عليه وسلم كأنه سبيكة فضة)[4] ، وعلى الوجه تحمل رواية : (أمهق)[5] ؛ أي : أحمر ليس بأبيض ، وقول عياض : (إنها وهم) . . غير صحيح ، وكذا رواية : (ليس بالأبيض ولا بالآدم)[6] أي : وقول عياض : (إن هـٰذه ليست بصواب) . . مردود بأن المراد : ليس شديد البياض ولا شديد الأدمة ، وإنما يخالط بياضه حمرة ، والعرب تطلق علىٰ من هو كذلك أنه أسمر الوارد في رواية[7] ، وتوافقها رواية : (أبيض بياضه إلى السمرة)[8] ، ورواية : (أحمر إلى البياض)[9] أو المراد : أنه صلى الله عليه وسلم كان تحصل له السمرة إذا سافر ؛ لتأثره من الشمس ، وتظليل الغمام وغيره له إنما كان إرهاصاً ـ كما مر ـ وقد انقضىٰ وقته ، وقد ذهب بعض المالكية إلىٰ أن من زعم أنه صلى الله عليه وسلم كان أسود يقتل[10] ؛ أي : لأن السواد يشعر بالنقص .

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٣) ، وأحمد (١/ ٢٨٤) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٦٣١١) ، وأحمد (١/ ١١٦) ، وأبو يعلىٰ (٣٧٠) ، وغيرهم .
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٦٣) .
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٦) ، واالبيهقي في « الدلائل » (١/ ٢٠٧) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٢٧) .
(٥) أخرجه البخاري (٣٥٤٧) .
(٦) أخرجه البخاري (٣٥٤٨) ، ومسلم (٢٣٤٧) ، وغيرهما .
(٧) عند الترمذي (١٧٥٤) ، وأبي يعلىٰ (٣٨٣٢) ، وغيرهما . وانظر « أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل » للمصنف (ص ٤٢ـ ٤٣) .
(٨) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (١/ ٢٠٤) .
(٩) قال في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٢/ ١٨) : (رواه أبو بكر بن أبي خَيْثمة عن شيخه هَوْذة ، وأبو نعيم من طريق الحارث بن أبي أسامة عن شيخه رَوْح ، كلاهما عن عوف عن يزيد) .
(١٠) نقله القاضي عياض ـ رحمه الله ـ عن أحمد بن أبي سليمان صاحب سحنون . انظر « الشفا » (ص ٧٦٩) .

وأما طيب ريحه وعرقه وفضلاته.. فكان في ذلك الغاية العليا وإن لم يمس طيباً ، كما صح عن أنس وغيره[1] ، وروىٰ أبو يعلىٰ والطبراني : أن رجلاً استعان به في تجهيز بنته ، فاستدعىٰ بقارورة وسلت فيها من عرقه الشريف ، وقال : « مُرْهَا فَلْتَتَطَيَّبْ بِهِ » ، فكانت إذا تطيبت به.. شم أهل المدينة ذلك الطيب ، فسموا بيت المطيبين[2] ، ومر أنه كان إذا مر بطريق فمرَّ الناس منه.. وجدوا ريحه ، وعرفوا بذلك أنه مر منه[3] .

وحديث : خلق الورد من عرقه ، أو من عرق جبريل ، أو من عرق البراق.. موضوع[4] ، وجاء من وجه غريب : (أن ما كان يخرج منه صلى الله عليه وسلم تبتلعه الأرض)[5] وأيده الحافظ عبد الغني بأن أحداً من الصحابة لم يذكر أنه رآه ، بخلاف البول ، فإنهم كانوا يستشفون به كدمه ، ومن ثم اختار جماعة من أئمتنا طهارة جميع فضلاته .

(و) أما (نومه).. فهو (الإغفاء) أي : أخف النوم بحيث لا يستغرق ؛ لأن الاستغراق إنما يتولد عن نوم القلب وغفلته المتولد عن الشبع المفرط ، وهو صلى الله عليه وسلم ـ كسائر الأنبياء ـ كان تنام عينه ولا ينام قلبه ، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم[6] ، ومن ثم لم ينتقض وضوءه صلى الله عليه وسلم بالنوم ، وسر ذلك كمال حياة قلبه ويقظته ، ودوام شهوده لربه ، ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم إذا نام.. لا يوقظ ؛ لأنه لا يدرىٰ ما هو فيه ، ولا ينافيه نومه صلى الله عليه وسلم بالوادي عن صلاة الصبح حتىٰ حميت الشمس[7] ؛ لأن رؤيتها من وظيفة العين ، والقلب إنما يدرك نحو الحدث والألم مما يتعلق به دون العين ، فهي نائمة والقلب يقظان ، وكأنه

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٣) ، ومسلم (٢٣٣٠) ، وغيرهما .
(٢) مسند أبي يعلىٰ (٦٢٩٥) ، المعجم الأوسط (٢٩١٦) .
(٣) أخرجه أبو يعلىٰ (٣١٢٥) .
(٤) انظر « المصنوع » لملا علي القاري (ص ٧٠) و(ص ٢٠٣) .
(٥) ذكره الديلمي في « الفردوس » (١/ ٥٣) .
(٦) أخرجه البخاري (١٣٨) ، ومسلم (٧٦٣) .
(٧) أخرجه البخاري (٣٤٤) ، ومسلم (٦٨٢) .

إنما لم يدرك مرور الوقت الطويل ، فإنه نام قبل الفجر إلىٰ أن حميت الشمس ؛ لأنه كان مستغرقاً في شهود ربه وما يفيضه عليه من معارفه ، وإنما لم ينبه علىٰ ذلك ؛ ليقع التشريع بتلك الأحكام الكثيرة جداً التي استفيدت من تلك الواقعة ، كسهوه في الصلاة .

وقيل : كان له نوم ينام فيه قلبه أيضاً ، وهو الذي كان حينئذٍ ، وردوه بأنه لم يثبت ، فهو مردود علىٰ قائله ، كتأويل بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَنَامُ قَلْبِي »[1] بما يخرجه عن ظاهره من غير دليل .

وإذ قد انتهى الكلام علىٰ شيء من محاسن ذاته صلى الله عليه وسلم التي لم يخلق الله تعالىٰ ذاتاً أشرف منها . . فلنذكر شيئاً مما يتعلق بمحاسن أخلاقه وصفاته التي لم يخلق الله تعالىٰ أشرف منها أيضاً ، فنقول :

(127)

مَـا سِـوَىٰ خُلْقِـهِ ٱلنَّسِيـمُ وَلَا غَيْـ ـــرَ مُحَيَّـاهُ ٱلـرَّوْضَــةُ ٱلْغَنَّـاءُ

(ما سوىٰ) أي : ليس غير (خلقه النسيم) أي : الريح التي في غاية اللطافة واللين والطيب ، يعني : لا يشبهها خلق أحد إلا خلقه الكريم ، وهـٰذا مقتبس من قول ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير) ثم قال : (فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة)[2] .

فإن قلت : صريح هـٰذا أن خلقه أفضل من النسيم ، بل لا نسبة بينهما ، فكيف هـٰذا التشبيه المؤذن بشرفها عليه ؟

قلت : هـٰذا الإيذان إنما هو باعتبار الغالب ، وإلا . . فقد يشبَّه الأفضل بالمفضول لنكتة ، كما في : « صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . . . » إلخ ، فكذا هنا ، تشبيههُ بها البليغُ إنما

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧) ، ومسلم (٧٣٨) ، وأبو داوود (١٣٣٥) ، والترمذي (٤٣٩) ، والنسائي (٣/ ٢٣٤) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٢) ، ومسلم (٢٣٠٨) .

هو باعتبار ما فيها مما يقيت الروح ، ويحيي القلب ، ويجلو صدأ النفس ، وغير ذلك مما لا قيام لحقيقة الحيوان إلا به .

وإنما قلت : (يعني : لا يشبهها . . .) إلخ ؛ لأبين أن هٰذا المراد من العبارة لا تفي هي به ، وذلك لأن نفي مشابهة غير خلقه لها لايفيد أنه لا يشبهها إلا خلقه ؛ لأن هٰذا الحصر لا يرد ولا دليل عليه في الكلام ، بل صريح كلام الراغب أنه لا مفهوم للنفي بـ(غير) وعبارته : (« غيرٌ » يقال علىٰ أوجه :

الأول : أن تكون للنفي المجرد من غير إثبات معنًىَ به ، نحو : مررت برجل غير قائم ، وقال الله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾) اهـ المقصود منه[1] ، وسيأتي في شرح قوله : (وما سواي هو العاصي) . . ما له بما هنا تعلق . فاستحضره .

والخلق بضم فضم أو سكون ، قال الراغب : (وهو والمفتوح في الأصل بمعنًىَ واحد ، لٰكن خص المفتوحُ بالهيآت والصور المبصرة ، والمضمومُ بالسجايا والقوى المدركة بالبصيرة)[2] ، ثم قيل : المضموم غريزة ؛ لخبر البخاري : « إِنَّ ٱللهَ قَسَّمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاَقَكُمْ كَمَا قَسَّمَ أَرْزَاقَكُمْ »[3] ، والحق : أن أصله غريزي ، وتمامه مكتسب ؛ لما صح : أنه صلى الله عليه وسلم قال للأشج : « إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ ، ٱلْحِلْمَ وَٱلأَنَاةَ » قال : يا رسول الله ؛ قديماً كانا فيَّ أو حديثاً ؟ قال : « قَدِيماً » قال : الحمد لله الذي جبلني علىٰ خصلتين يحبهما الله ورسوله ، فترديده السؤال وتقرير النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ ذلك يدل علىٰ أن بعضه غريزي وبعضه مكتسب ، ويدل له أيضاً الحديث الصحيح : « ٱللَّهُمَّ ؛ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي » ، وما صح أنه كان يقول في دعاء الافتتاح : « وَٱهْدِنِي لأَحْسَنِ ٱلأَخْلاَقِ ، لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ » ، فهو جبلة في نوع الإنسان ، وهم متفاوتون فيه ، فمن عدم حسنه أو كماله . . أمر بالمجاهدة والرياضة حتىٰ يقوىٰ ويصير

---

(١) مفردات القرآن (ص ٦١٨) .
(٢) مفردات القرآن (ص ٢٩٧) .
(٣) الأدب المفرد (٢٧٥) .

محموداً ، وقد عرف الخلق الحسن بأنه : ملكة يسهل علىٰ ذويها فعل الجميل وتجنب القبيح .

ولما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من خصال الكمال وصفات الجلال والجمال ما لا يحصره حد ، ولا يحيط به عد . . أثنى الله تعالىٰ عليه في كتابه الكريم ، فقال عز قائلاً : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ، فوصفه بالعظيم ، وزاد في المدحة بإتيانه بـ(علىٰ) المشعرة بأنه صلى الله عليه وسلم استعلىٰ في ذلك علىٰ معالي الأخلاق واستولىٰ عليها ، فلم يصل إليها مخلوق غيره ، ووصف بالعظم دون الكرم الغالب وصفه به ؛ لأن كرمه يراد به السماحة والدماثة[1] ، وخلقه صلى الله عليه وسلم غير مقصور علىٰ ذلك ، بل كما كان عنده غاية الرحمة للمؤمنين . . كان عنده غاية الغلظة والشدة علىٰ غيرهم ، فاعتدل فيه الإنعام والانتقام ، ولـٰكن لم يكن له همة سوى الله تعالىٰ ، فعاشر الخلق بخُلُقه ، وباينهم بقلبه ، ومن ثم ورد بسند فيه ضعف : « إِنَّ ٱللهَ بَعَثَنِي بِتَمَامِ مَكَارِمِ ٱلأَخْلاَقِ ، وَكَمَالِ مَحَاسِنِ ٱلأَفْعَالِ »[2] ، وفي رواية « الموطأ » بلاغاً : « بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ ٱلأَخْلاَقِ »[3] ، فكل خلق حميد اندرج تحت خلقه ، ومن ثم قالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : (كان خلقه القرآن)[4] .

قال السهروردي ـ رحمه الله تعالىٰ ونفع به ـ في « عوارفه » : (في قولها ذلك رمز غامض وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية ، فاحتشمت من الحضرة الإلـٰهية أن تقول : كان متخلقاً بأخلاق الله تعالىٰ ، فعبرت عن المعنىٰ بقولها : « كان خلقه القرآن » استحياء من سبحات الجلال ، وستراً للحال بلطف المقال ، وهـٰذا من وفور عقلها ، وكمال أدبها) اهـ[5]

---

(١) الدماثة : سهولة الخلق .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٦٨٩١) ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ١٩١) : (. . . وفيه عمر بن إبراهيم القرشي ، وهو ضعيف) .

(٣) الموطأ (٢/ ٩٠٤) .

(٤) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٣٠٨) ، وأحمد (٦/ ٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٤٢٨) ، والحاكم (٢/ ٣٩٢) ، وغيرهم .

(٥) عوارف المعارف (١/ ٣٩٣) .

وقال بعض العارفين : لما كان خلقه صلى الله عليه وسلم أعظم خلق.. بعثه الله تعالىٰ إلىٰ جميع العالمين ، وعلم من كلام عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : أن كمالات خلقه صلى الله عليه وسلم لا تتناهىٰ ، كما أن معاني القرآن لا تتناهىٰ ، وأن التعرض لحصر جزئياتها غير مقدور للبشر ، ثم ما انطوىٰ عليه صلى الله عليه وسلم من كريم الأخلاق.. لم يكن باكتساب ورياضة ، وإنما كان في أصل خلقته بالجود الإلـٰهي ، والإمداد الرحماني الذي لم تزل تشرق أنواره في قلبه صلى الله عليه وسلم إلىٰ أن وصل إلىٰ أعظم غاية وأتم نهاية .

واعلم : أن كمال الخلق إنما ينشأ عن كمال العقل ؛ لأنه الذي به تقتبس الفضائل ، وتجتنب الرذائل ، والعقل لسان الروح وترجمان البصيرة ، فهو جوهر الإنسان ، ولـٰكن جوهره البصر .

وفي « القاموس » ـ بعد الإشارة إلى الخلاف في تعاريفه ـ : (والحق : أنه نور روحاني ، به تدرك النفوس العلوم الضرورية والنظرية ، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد ، ثم لا يزال ينمو إلىٰ أن يكمل عند البلوغ) اهـ

والحديث المشهور : « أول ما خلق الله العقل ، قال له : أقبل... » إلخ.. موضوع .

وعقل نبينا صلى الله عليه وسلم وصل في الكمال إلىٰ غاية لم يصل إليها ذو عقل ، ومن ثم روىٰ أبو نعيم وابن عساكر عن وهب : أنه وجد في واحد وسبعين كتاباً : أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل من بين رمال جميع الدنيا[1] .

ومما يقطع بصحة ذلك سياسته صلى الله عليه وسلم للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة ، وصبره علىٰ طباعهم المتنافرة المتباعدة ، حتىٰ قاتلوا دونه أهاليهم ، وهجروا في رضاه أوطانهم وأحباءهم ، مع أنه لم يطلع علىٰ سير الماضين ، ولا تعلَّم من العقلاء المحدثين ، وفي هـٰذا ما في الذي قبله مما مر آنفاً .

---

(١) حلية الأولياء (٤/ ٢٦) ، وتاريخ دمشق (٦/ ٣٨٦) .

(ولا غير محياه) أي : وجهه صلى الله عليه وسلم(الروضة الغناء) أي : الكثيرة النبات والأزهار والثمار ؛ أي : ليست الروضة الغناء إلا وجهه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أحسن الخلق وجهاً ، كما مر مبسوطاً .

(128)

رَحْمَــــةٌ كُلُّــــهُ وَحَــــزْمٌ وَعَــــزْمٌ وَوَقَــــارٌ وَعِصْمَــــةٌ وَحَيَــــاءُ

هو (رحمة)[1] وهي : عطف وميل نفساني ، غايتها التفضل والإنعام ؛ أي : عينها مبالغة ، أو ذوها[2] ، وهو خبر مقدم ، وأخبر بهٰذه وما بعدها بلفظ المصدر إشارة إلىٰ أنها قد امتزجت بذاته واستحال انفصالها عنه ، حتىٰ كأنها هو ، وكأنه هي ؛ أي : ركب منها ، وطبع عليها ، وخلق منها .

(كله) كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾ ، ويجوز نصب (رحمة) على الحال علىٰ أنها اسم فاعل ، أو مفعول لأجله علىٰ حذف مضاف ؛ أي : ذا رحمة ، والعالمون هنا : قيل : الجن والإنس ، وعليه الجمهور ، وقيل : والملائكة ، وعليه غير واحد من المحققين ، ويدل عليه أيضاً : ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ، ونقلُ الفخر الرازي وغيره الإجماع علىٰ أنه لم يرسل للملائكة . . مردود ، بل أخذ بعض متأخري أئمتنا المحققين بظاهر خبر مسلم : « وَأُرْسِلْتُ إِلَىٰ ٱلْخَلْقِ كَافَّةً » كما مر ، وعلىٰ كلٍّ فهو رحمة للمؤمنين بالهداية وبالأمان من القتل ، وللكافرين بتأخير العذاب ، ولسائر الحيوانات ؛ لأن بوجهه صلى الله عليه وسلم يستسقى الغمام ، وبدعائه ينزل قطر السماء ، فينبت النبات ، ويكون لها سقياً ورعياً ، وللمنافقين[3] .

وقال ابن عباس : (رحمة للبر والفاجر ؛ لأن كل نبي إذا كُذب . . أهلك الله مَنْ كَذبه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أُخِّر من كذبه إلى الموت أو إلىٰ يوم القيامة ، وأما

---

(١) رحمة : خبر مقدم ، والمبتدأ المؤخر قوله : كله ، وعليه فلا داعي لتقدير : (هو) قبل البيت ، إلا إن أراد أن الضمير المقدَّر مبتدأ خبره جملة : رحمة كله . والله تعالىٰ أعلم .

(٢) أي : صاحبها .

(٣) أي : وهو صلى الله عليه وسلم رحمة للمنافقين أيضاً .

من صدقه . . فله الرحمة في الدنيا والآخرة) فعلم : أن ذاته الشريفة رحمة للمؤمن والكافر ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ ، وروى الدارمي والبيهقي حديث : « إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ »[1] وقال بعضهم : زينه ربه بزينة الرحمة ، فكان وجوده وجميع شمائله صلى الله عليه وسلم رحمة على الخلق ، وقال آخر : الأنبياء خلقوا كلهم من الرحمة ، ونبينا صلى الله عليه وسلم عين الرحمة .

لا يقال : كيف هو عين الرحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال ؟! لأنا نقول : إنما كان ذلك لمن أدبر واستكبر ، ولم ينفع فيه وعظ ولا إرشاد ، ومن أوصافه تعالىٰ : الرحمن الرحيم ، والجبار والمنتقم .

وفي « الشفا » : (وحكي : أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : « هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلرَّحْمَةِ شَيْءٌ ؟ » قال : نعم ، كنت أخشى العاقبة فأمنت)[2] .

ولما شج وجهه صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته يوم أحد . . قالوا له : لو دعوت عليهم ، فقال : « إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّاناً ، وَلَـٰكِنْ بُعِثْتُ دَاعِياً وَرَحْمَةً »[3] ، « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ »[4] أي : اغفر لهم هـٰذا الشيء المخصوص لا مطلقاً ، وإلا . . لأسلموا كلهم ، ذكره ابن حبان[5] .

وإنما دعا عليهم يوم الخندق : أن الله تعالىٰ يملأ بطونهم ناراً ؛ لأنهم شغلوه عن الصلاة الوسطىٰ ، فكان الدعاء لله تعالىٰ لا لحظ نفسه .

(وحزم) كله ؛ أي : جميع أحواله التي تصدر منه إنما تصدر منه علىٰ غاية من الضبط والقوة والشدة الباطنة والظاهرة ؛ لأن منشأ ذلك العقل الكامل ، وقد مر أنه لا أكمل من عقله ، بل لا مساوي له من نبي ولا ملك .

(وعزم) كله ، من : عزم على الشيء : قطع به ؛ أي : جميع ما يفعله بوحي أو

---

(١) سنن الدارمي (١٥) ، دلائل النبوة (١/ ١٥٧) .
(٢) الشفا (ص ٥٨) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) ، وأبو يعلىٰ (٦١٧٤) ، وليس عندهما أنه قال ذلك يوم أحد .
(٤) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) ، ومسلم (١٧٩٢) .
(٥) الإحسان (٣/ ٢٥٥) .

اجتهاد إنما يفعله مع إمضائه والقطع به من غير إعراض عنه ، ومن ثم كان من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه إذا فعل خيراً . . لزمه إدامته ، كما وقع له أن ناساً شغلوه عن سنة الظهر البعدية حتىٰ دخل وقت العصر فصلاهما حينئذ ، واستمر يصلي ركعتين بعد العصر إلىٰ وفاته صلى الله عليه وسلم[١] .

([illegible]) كله ؛ لأن الله تعالىٰ ألقىٰ عليه من المهابة ما لا غاية له ، ومن ثم قال خارجة بن زيد ـ كما رواه أبو داوود ـ (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه)[٢] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان إذا جلس في المجلس . . احتبىٰ بيديه)[٣] وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة ، وكان ضحكه تبسماً ، وكلامه فصلاً ، لا فضول ولا تقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم ، وكان مجلسه مجلس علم وحياء وخير وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تنتهك فيه الحرم ، إذا تكلم . . أطرق جلساؤه كأنما علىٰ رؤوسهم الطير ، جاء إليه رجل فقام بين يديه ، فأخذته رعدة شديدة ومهابة ، فقال له : « هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلاَ جَبَّارٍ ، إِنَّمَا أَنَا ٱبْنُ ٱمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَأْكُلُ ٱلْقَدِيدَ بِمَكَّةَ » فنطق الرجل بحاجته ، فقام صلى الله عليه وسلم فقال : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ إِنِّي أُوحِيَ إِلَيَّ : أَنْ تَوَاضَعُوا ، أَلاَ فَتَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لاَ يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ ، وَلاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ ٱللهِ إِخْوَاناً »[٤] ورأته قَيْلة بنت مخرمة في المسجد قاعداً القرفصاء فارتعدت من الفرق ، رواه أبو داوود[٥] .

ورونى مسلم عن عمرو بن العاصي رضي الله تعالىٰ عنه قال : (صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما ملأت عيني منه قط ، حياءً منه وتعظيماً له ، ولو قيل لي :

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٥) .
(٢) المراسيل (٥٠٥) .
(٣) أخرجه أبو داوود (٤٨١٣) .
(٤) أخرج القسم الأول منه ابن ماجه (٣٣١٢) ، والطبراني في « الأوسط » (١٢٨٢) ، وأخرج القسم الثاني مسلم (٢٨٦٥) ، وأبو داوود (٤٨٥٩) ، وابن ماجه (٤١٧٩) .
(٥) السنن (٤٨١٤) .

صفه.. لما قدرت)[1] وإذا كان ـ وهو من أجلاء الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ـ كذلك.. فما بالك بغيره ؟! فعلم : أنه صلى الله عليه وسلم لولا أنه كان يباسطهم ويمزح معهم ـ ومع ذلك لا يقول إلا حقاً ـ ويتواضع لهم ويؤنسهم.. لما قدر أحد منهم أن يجالسه ولا يحادثه ؛ لما ألقى الله عليه من المهابة والجلالة ، وقد خير صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً ، فأشار لجبريل ليستشيره ، فأشار إليه : أن تواضع ، فاختار العبودية[2] .

(وعصمة) كله ؛ أي : حفظ يستحيل شرعاً وقوع خلافه من سائر الذنوب ، صغيرها وكبيرها ، عمدها وسهوها ، قبل النبوة وبعدها ، في سائر حركاته وسكناته ، في باطنه وظاهره ، سره وعلانيته ، جده ومزحه ، رضاه وغضبه ، والخلاف في بعض ذلك لا يعول عليه ، كيف وقد أجمع الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم على اتباعه والتأسي به في كل ما يفعله ، من قليل وكثير ، وصغير وكبير ، لم يكن عندهم في ذلك توقف حتىٰ أعماله في السر والخلوة ، يحرصون على العلم بها وعلى اتباعها ، علم بهم أو لم يعلم ؟! ومن تأمل أحوالهم معه.. استحيىٰ من الله تعالىٰ ـ كما قاله الإمام المجتهد التقي السبكي ـ أن يخطر له شك في أنه معصوم في كل ما ذكرناه ، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم كلهم معصومون كما ذكر ، وحكي في عصمتهم قبل النبوة خلاف ، ومحله في غير الجهل بالله تعالىٰ وصفاته ، أما هـٰذا.. فهم معصومون منه إجماعاً ، بل لم ينشؤوا إلا علىٰ أكمل الأحوال من الإيمان بالله ومعرفته كما ينبغي ، وحكي في عصمتهم من الصغائر بعد النبوة خلاف أيضاً ، وهو في غاية الضعف ، بل ألزم قائلوه بخرق الإجماع وما لا يقول به مسلم ، ومحله في غير الصغائر الخسية كسرقة لقمة ، وفي غير ما يتعلق بطرق التبليغ ، أما هـٰذان.. فهم معصومون منهما إجماعاً .

وأما قوله تعالىٰ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ فللمفسرين فيه أقوال كثيرة ، أحسنها : ما جاء عن ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما وآخرين صحابة وتابعين أن

---

(١) مسلم (١٢١) .

(٢) أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (٦٧١٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤٨/٧) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٥٢٤٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢٨٨/١٠) ، وفي « الأوسط » (٦٩٣٣) .

معناه : وجدك ضالاً عما أتاك من معالم النبوة فهداك إليها ، ويؤيده قوله تعالىٰ : ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾ أي : قبل الوحي ﴿ مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أي : القرآن ﴿ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أي : الدعاء إليه ولا الفرائض والأحكام ؛ إذ الإيمان يطلق عليها حقيقة ، نحو : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ أي : صلاتكم إلىٰ بيت المقدس ، كما يصرح به سبب النزول ، وما جاء مرفوعاً : أي : وجدك ضالاً عن جدك عبد المطلب حتىٰ كاد الجوع أن يقتلك فردك إليه ، أو هو من : ضل الماء في اللبن إذا انغمر فيه ؛ أي : وجدك مغموراً بين كفار مكة فنصرك عليهم .

وأما قوله : ﴿ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۞ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ . . فاختلف المفسرون فيه علىٰ أقوال كثيرة ، بها يبطل الاحتجاج به للقول الساقط السابق آنفاً ، ومن أحسنها : أن المعنىٰ : خففنا عنك أعباء النبوة التي أثقلت حقوقُها والقيامُ بموجباتها ظهرَك حتىٰ كاد أن يكون له نقيض ؛ أي : صوت ، أو المراد : عصمناك من الوزر الذي لو تحملته . . صوَّت ظهرك من ثقله ، فسمى العصمة وضعاً مجازاً ، أو رفعنا عنك أوزار أمتك التي أثقل ظهرك خوف غائلتها حتىٰ أمنك الله تعالىٰ ذلك في العاجل بقوله عز قائلاً : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ ، وأعطاك الشفاعة فيهم في الآجل .

وأما قوله : ﴿ لِيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ . . فاختلفوا فيه كذلك ، وأحسن ما فيه أيضاً قول ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : إنك مغفور لك ، غير مؤاخذ بذنب ؛ أي : لو كان ، أو المراد بالذنب : ذنوب أمته علىٰ وزان ما مرَّ ، أو ترك الأَولىٰ والأحرىٰ ، كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وعليه قوله تعالىٰ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ أي : محا عنك ما ارتكبته من خلاف الأَولىٰ ، ووقع لبعض مشاهير المفسرين في بعض هٰذه الآيات ما لا ينبغي من التساهل وسوء الأدب . فاحذره .

وحُفظ أيضاً صلى الله عليه وسلم من أعدائه الحريصين علىٰ قتله ، فكان أصحابه يحرسونه حتىٰ نزل : ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة وقال : « يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ ٱنْصَرِفُوا ؛ فَقَدْ عَصَمَنِي رَبِّي »[1] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/٨) ، والحاكم (٢/٣١٣) ، وغيرهم .

وتواعد جماعة علىٰ قتله ، فلما هموا به . . سمعوا صوتاً مهولاً ، فغشي عليهم ، ثم تواعدوا مرة أخرىٰ ، فلما رأوه . . جاءت الصفا والمروة ، فحالتا بينه وبينهم[1] .

وواعد أبو جهل قريشاً إن رآه . . ليطأن علىٰ عنقه ، فأعلموه به ، فذهب إليه فولىٰ هارباً ، فسئل فقال : لما دنوت منه . . أشرفت علىٰ خندق مملوء ناراً ، فكدت أن أهوي فيه ، وأبصرت هولاً عظيماً وخفق أجنحة ، قال صلى الله عليه وسلم : « تِلْكَ ٱلْمَلاَئِكَةُ ، لَوْ دَنَا . . لاَخْتَطَفَتْهُ عُضْواً عُضْواً »[2] .

ووفد عليه عامر بن الطفيل وأربد بن قيس ليقتلاه ، فشغله عامر ، فأراد أربد قتله ، فلم ير إلا عامراً[3] .

([illegible]) كله ، كما يصرح به خبر البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء ـ أي : البكر ـ في خدرها)[4] قيل : ذكره من باب التتميم ؛ لأن العذراء في خدرها يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة عنه ؛ لأن الخلوة مظنة وقوع الفعل بها ، وقيل : الظاهر : أن المراد تقييده بما إذا دخل عليها في خدرها ، لا من حيث تكون وحدها فيه .

والحياء ـ بالمد ـ لغة : تغير يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ، وشرعاً : خلق يبعث على اجتناب القبيح ، ويمنع من التقصير في حق ذوي الحق ، من : الحياة ، وكذا الحيا المقصور ، وهو المطر ، وقوته وضعفه بقوة حياة القلب وضعفه ، وهو أقسام ثمانية يطول استقصاؤها .

منها : حياء الكرم ، كحيائه صلى الله عليه وسلم ممن دعاهم إلىٰ وليمة زينب فطولوا عنده المقام أن يقول لهم : انصرفوا ، ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بما يكرهه ، بل (إذا بلغه عن أحد شيء . . قال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ ؟ » ولم

---

(١) أخرجه ابن قانع في « معجم الصحابة » (٤٣٨) .
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٩٧) ، وابن حبان (٦٥٧١) ، وأحمد (٢/ ٣٧٠) ، وأبو يعلىٰ (٦٢٠٧) ، وغيرهم .
(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣١٢) ، وفي « الأوسط » (٩١٢٣) ، وقال في « مجمع الزوائد » (٧/ ٤٥) : (. . . وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران ، وهو ضعيف) .
(٤) البخاري (٣٥٦٢) .

يقل : ما بال فلان ؟)[١] قالت عائشة : (ما رأيت منه ولا رأىٰ مني)[٢] .

ومنها : حياء المحبة ، وهو ما يخطر بقلب المحب في غيبة محبوبه ، فيهيجه إليه .

ومنها : حياء العبودية ، وهو ممتزج بين محبة وخوف ، وغايته : شهود القلب عدم صلاح عبوديته لمعبوده ، فيستحي منه لا محالة .

ومنها : حياء المرء من نفسه إن رضيت بالنقص أو قنعت بالدون ، حتىٰ كأن له نفسين يستحي بإحداهما من الأخرىٰ ، وهـٰذا أكمل ما يكون من الحياء ، وهو حياء النفوس الشريفة الرفيعة ، وهو الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « ٱلْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ » ، و« ٱلْحَيَاءُ مِنَ ٱلإِيمَانِ » رواهما البخاري[٣] ، وجعل من الإيمان مع أنه غريزة ؛ لأن استعماله علىٰ قانون الشرع يحتاج إلىٰ قصد واكتساب وعلم ، فالحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان ، وهو المكلف به دون الغريزي ، غير أن من كان فيه غريزة منه . . فإنها تبعثه على المكتسب حتىٰ يكاد يكون غريزياً ، وهو صلى الله عليه وسلم جمع الله له النوعين ، فكان في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها ، ومر أن عقله صلى الله عليه وسلم أوسع العقول ، ولذلك اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعاً لا يحد ، فمن ذلك : اتساع خلقه العظيم في الحلم والعفو مع القدرة ، وصبره علىٰ ما يكره ، لا سيما في الشدائد ، حتىٰ إنه

(129)

لَا تَحُلُّ ٱلْبَأْسَاءُ مِنْهُ عُرَى ٱلصَّبْـــــرِ وَلَا تَسْتَخِفُّهُ ٱلسَّرَّاءُ

(لا تحل البأساء) أي : الشدة وإن أفرطت ، لا سيما في الحروب وقد استعرت نيرانها ، واصطلمت عقول شجعانها[٤] (منه) متعلق بما بعده من المضاف ، أو المضاف إليه ، أو بـ(تحل) ، (عرى الصبر) وهو : حبس النفس علىٰ ما تكره ؛

---

(١) أخرجه أبو داوود (٤٧٥٥) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٩٢٢) ، وأحمد (٦/ ٦٣) ، والترمذي في « الشمائل » (٣٥٣) بلفظ : (ما رأيت فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٣) البخاري (٦١١٧) ، (٢٤) .

(٤) الاصطلام : الاستئصال والقطع .

أي : أسبابه من الحلم والعفو والصفح والشجاعة المشبَّهة في اشتمالها علىٰ من قامت به حتىٰ منعته من وقوع بادرة منه عند ثوران نار الغضب.. بحبال ربطت علىٰ شيء وأحكمت في عرىً فاستمسكت عليه ولم يمكن حلها ولا نقضها ، فذكر (العرىٰ) استعارة تخييلية ، وتشبيه الصبر بالثوب السابغ ذي الأزرار والعرى المحكمة استعارة بالكناية ، وذكر (لا تحل) ترشيح .

وحسبك صبره علىٰ من حاربوه يوم أحد في أشد ما نالوه به من كسر ربَاعِيَته وشج وجهه ، فسال الدم علىٰ وجهه الشريف ، وشق ذلك علىٰ أصحابه فقالوا : يا رسول الله ؛ لو دعوت عليهم فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي » أو : « ٱهْدِ قَوْمِي ؛ فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » أي : لا تعاجلهم بالعقوبة من أجلي ، فإنهم لا يعلمون تفاصيل ما يترتب عليهم في ذلك من أنواع العذاب وأصناف العقاب .

وروي عن عمر رضي الله تعالىٰ عنه أنه قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؛ لقد دعا نوح علىٰ قومه فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ... ﴾ الآية ، ولو دعوت علينا مثله.. لهلكنا عن آخرنا ، فلقد وطىء ظهرك ، وأدمي وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وإنما قال صلى الله عليه وسلم يوم الخندق حين شغلوه عن صلاة العصر : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱمْلأْ قُلُوبَهُمْ نَاراً »[1] لأن الحق لله تعالىٰ ، وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن يغضب لنفسه ، وإنما يغضب إن انتهكت حرمات الله ، امتثالاً لقول الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ومن ثم غضب صلى الله عليه وسلم في أماكن متعددة ، لأسباب مختلفة ، لٰكن مرجعها إلىٰ أنه لم يغضب لنفسه ، بل لربه .

وقد صح عن زيد بن سعنة ـ بمهملة ونون مفتوحتين ، وهو من أجل أحبار اليهود الذين أسلموا ـ أنه قال : لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه ، إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ،

---

(١) ذكره في « مجمع الزوائد » (٦/ ١٤٣) ، وقال : (رواه الطبراني في « الأوسط » عن شيخه أحمد ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات) .

ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه ، فابتعت منه تمراً إلىٰ أجل ، فأعطيته التمر ، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة . . أتيته ، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، ثم قلت : ألا تقضيني ـ يا محمد ـ حقي ؟ فوالله إنكم ـ يا بني عبد المطلب ـ قوم مطل ، فقال عمر : (أي عدو الله ؛ أتقول لرسول الله ما أسمع ؟ فوالله لولا [ما] أحاذر فرقه . . لضربت بسيفي رأسك) ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلىٰ عمر في سكون وتؤدة وتبسم ، ثم قال : « أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَىٰ غَيْرِ هَـٰذَا مِنْكَ يَا عُمَرُ ؛ تَأْمُرُنِي بِحُسْنِ ٱلأَدَاءِ ، وَتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ ٱلتَّقَاضِي ، ٱذْهَبْ يَا عُمَرُ فَٱقْضِهِ حَقَّهُ ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعاً مَكَانَ مَا رُعْتَهُ » ففعل ، فقلت : يا عمر ؛ كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا اثنتين ـ وذكر له ما مر ـ وقد عرفتهما فأشهدك أني قد أسلمت(١) .

وروىٰ أبو داوود : أن أعرابياً جاء إليه صلى الله عليه وسلم فجذبه بردائه ـ وكان خشناً ـ حتىٰ أثر في عنقه الشريف ، وقال له : احملني علىٰ بعيريَّ هـٰذين ، فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لاَ » واستغفر الله وكررها ثلاثاً فقال : « لاَ أَحْمِلُكَ حَتَّىٰ تُقِيدَنِي مِنْ جَذْبَتِكَ ٱلَّتِي جَذَبْتَنِي » كل ذلك والأعرابي يقول له : لا أقيدك أبداً ، ثم أمر له بحمل بعير تمراً وبعير شعيراً(٢) .

وروى البخاري : أن أعرابياً جذبه جذبة حتىٰ أثرت حاشية البردة في صفحة عنقه الشريف من شدة جذبته ، وقال : يا محمد ؛ مر لي من مال الله الذي عندك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أمر له بعطاء(٣) .

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : (لم يكن صلى الله عليه وسلم فاحشاً ، ولا متفحشاً ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولـٰكن يعفو ويصفح)(٤) أي : لم يكن له الفحش خلقاً ولا مكتسباً .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٨٨) ، وأبو نعيم في « الدلائل » (١/ ١٠٨) ، والبيهقي في « الدلائل » (٦/ ٢٧٨) ، والطبراني في « الكبير » (٥/ ٢٢٢) ، والحاكم (٣/ ٦٠٤) .
(٢) أبو داوود (٤٧٤٢) .
(٣) البخاري (٣١٤٩) .
(٤) الترمذي (٢٠١٦) .

وروى البخاري : أن رجلاً استأذن عليه ، فلما رآه.. قال : « بِئْسَ أَخُو ٱلْعَشِيرَةِ ، وَبِئْسَ ٱبْنُ ٱلْعَشِيرَةِ » فلما جلس إليه.. ألان له القول وانبسط إليه ، فلما مضىٰ.. سألته عائشة رضي الله عنها عما قال وعما فعل ، فقال : « مَتَىٰ عَهِدْتِنِي فَحَّاشاً ؟! »[1] والعشيرة : القبيلة ، وانبساطه إليه تألُّفٌ له ؛ لأنه رئيس قومه ، وتعليم للأمة ، وفيه جواز المداراة اتقاء للشر ، وهي : بذل الدنيا لصلاح الدين ، أو الدنيا ، أو هما ، بخلاف المداهنة فإنها بذل الدين لصلاح الدنيا ، وهو صلى الله عليه وسلم إنما بذل له من دنياه حسن عشرته ولم يمدحه ، فكان قوله.. فيه حق ، وفعله.. معه حسن عشرة ، وهـٰذا الرجل بين بعضهم أنه عيينة بن حصن الفزاري ، وقد كانت منه أمور في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد موته تدل علىٰ ضعف إيمانه ، بل ارتد في زمن الصديق ، وحارب ، ثم أسلم في زمن عمر ، فما قاله صلى الله عليه وسلم فيه من علامات النبوة ، ولا ينافي ما مر : أنه لم ينتقم لنفسه.. أمرُه بقتل عقبة بن أبي معيط ، وعبد الله بن خطل ، وغيرهما ممن كان يؤذيه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم كانوا مع ذلك ينتهكون حرمات الله تعالىٰ ، فأيس من إيمانهم ، ومن ثم لما طمع في إيمان المنافقين.. أمهلهم ، مع شدة إيذائهم له بما لا يصبر عليه بشر ، وصبره علىٰ من أعلم بعدم إيمانه للمصلحة العامة ، كما أشار لذلك صلى الله عليه وسلم بقوله لمن قال له : اقتلهم : « لاَ يَتَحَدَّثُ ٱلنَّاسُ أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ »[2] .

وصح عن أنس : كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، وإن أهل المدينة فزعوا ليلة فخرجوا ، فرأوه راجعاً من جهة الصوت متقلداً سيفه علىٰ فرس لأبي طلحة ، فقال لهم : « لَنْ تُرَاعُوا ، مَا رَأَيْنَا مِنْ بَأْسٍ »[3] .

---

(١) البخاري (٦٠٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥) ، ومسلم (٢٥٨٤) ، والترمذي (٣٣١٥) ، وليس عندهم لفظ : (اقتلهم) ، وما فيه : أن عبد الله بن أبي ابن سلول قال في غزوة بني المصطلق : لئن رجعنا إلى المدينة.. ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ دعني أضرب عنق هـٰذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دَعْهُ ، لا يَتَحَدَّثُ... » .

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٨) ، ومسلم (٢٣٠٧) ، وغيرهما .

وصارع صلى الله عليه وسلم أبطالاً معروفين بأنهم لا يصرعون فصرعهم[1] ، وفي « البخاري » عن البراء : أنه قيل له : أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال : لـٰكن رسول الله لم يفر ، كان هوازن رماة ، وإنا لما حملنا عليهم . . انكشفوا ، فأكببنا على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها وهو صلى الله عليه وسلم يقول :

أَنَـــا ٱلنَّبِـــيُّ لاَ كَـــذِبْ أَنَـــا ٱبْـــنُ عَبْـــدِ ٱلْمُطَّلِـــبْ[2]

وثباته حينئذ نهاية الشجاعة ، كيف وقد فر جيشه عنه ولم يبق معه إلا بضعة عشر رجلاً ؟! فوقف في نحو ألوف مؤلفة علىٰ بغلة لا تصلح لكر ولا فر ، وهو مع ذلك يركضها إلىٰ وجوههم ، وينوه باسمه ليعرفه مَن جهله .

ومن ثم قال الصحابة : كنا إذا احمر البأس . . اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم[3] ؛ أي جعلناه بيننا وبين العدو ، وقمنا خلفه محتمين به .

ولما قال اللعين أبي بن خلف يوم أحد : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا . . تناول صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصِّمة وقال لأصحابه ـ بعد أن أرادوا التعرض له ـ : « خَلُّوا سَبِيلَهُ »[4] ، فطعنه في عنقه طعنة كان فيها إتلاف نفسه الخبيثة اللعينة .

(ولا تستخفه) أي : لا تخرجه عن ثباته وتواضعه ووقاره (السراء) أي : الرخاء والسعة في الجيوش والفتوح التي فتحها في أواخر حياته ، بل هو معها كهو قبلها ، لم يزدد إلا تواضعاً وحلماً وعفواً وصبراً ، ومن ثم لما دخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح في تلك الجيوش الهائلة ـ التي لما رآها أبو سفيان . . قال للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك ملكاً عظيماً ، فقال له : ويحك ، إنه ليس بملك ، ولـٰكنها النبوة ،

---

(١) من ذلك : أنه صرع رُكانة كما أخرجه أبو داوود (٤٠٧٥) ، والترمذي (١٧٨٤) ، وقال : هـٰذا حديث غريب .

(٢) البخاري (٢٨٦٤) .

(٣) أخرجه أحمد (١/١٥٦) ، وأبو يعلىٰ (٣٠٢) .

(٤) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٣/٢٠٦) في سياق حديث خروجه صلى الله عليه وسلم إلىٰ أحد ، وانظره في « سبل الهدىٰ والرشاد » (٤/٣٠٨) .

قال : نعم ـ وهو صلى الله عليه وسلم علىٰ ناقته القصواء ، في كتيبته الخضراء ، بين أبي بكر وأسيد بن حضير . . جاء : أنه صلى الله عليه وسلم وضع رأسه تواضعاً لله تعالىٰ ؛ لما رأىٰ ما أكرمه الله تعالىٰ به من الفتح ، حتىٰ إن رأسه ليكاد يمس رحله شكراً وخضوعاً لعظمته أن أحل له بلده ولم يحله لأحد قبله[1] .

وإنما اتصف صلى الله عليه وسلم بهـٰذه الكمالات التي لم توجد في غيره ؛ لأنه

(130)

كَرُمَتْ نَفْسُهُ فَمَا يَخْطُرُ ٱلسُّوءُ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَلَا ٱلْفَحْشَاءُ

(كرمت نفسه) لأنه تعالىٰ لما أراد إيجاد خلقه . . أبرز الحقيقة المحمدية من أنواره الصمدية في حضرته الأحدية ، ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها علىٰ ما اقتضاه كمال حكمه ، وسبق في إرادته وعلمه ، ثم أعلمه الله تعالىٰ بكماله ونبوته ، وبشره بعموم دعوته ورسالته ، وبأنه نبي الأنبياء وواسطة جميع الأصفياء وأبوه آدم بين الروح والجسد ، بل ولا روح ولا جسد ، ثم انبجست منه عيون الأرواح ، فظهر ممداً لها في عالمها المتقدم علىٰ عالم الأشباح ، وكان هو الجنس العالي علىٰ جميع الأجناس ، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس ، فهو ـ وإن تأخر وجود جسمه ـ متميز على العوالم كلها برفعته وتقدمه ؛ إذ هو خزانة السر الصمداني ، ومَحْتِد تفرد الإمداد الرحماني[2] .

(فـ) بسبب كرامة نفسه وتشريفها عن كل رذيلة ونقيصة (ما يخطر السوء علىٰ قلبه ولا الفحشاء) كيف وقلبه قد طهره الله تعالىٰ بشق الملائكة المرات المتعددة عند تنقله في الأطوار المنقطعة المختلفة ـ كما مر بيانه ـ وإخراج ما فيه مما جبل عليه النوع الإنساني مما يقتضي ذينك ، ثم طهر وغسل وحشي من الحكم والعلوم مما لا يحيط به إلا المانُّ به عليه ؟! وذكر الفحشاء مع العلم بانتفائها بالأولىٰ من انتفاء السوء ؛ لأنها السوء الذي جاوز حده ؛ لأن المقام مقام إطناب .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٤/ ٤٠٥) .
(٢) المَحْتِد : الأصل .

وإذا تأملت ما آتاه الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم مما مر من تلك الكمالات التي لا تحد ولا تعد . . علمت أنه قد

(131)

عَظُمَـــتْ نِعْمَـــةُ ٱلْإِلَـٰــهِ عَلَيْــهِ   فَـاسْتُقِلَّـتْ لِـذِكْـرِهِ ٱلْعُظَمَـاءُ

(عظمت نعمة الإلـٰه عليه) عظمةً قطعت سائر الخلق عن أن يصل أحد منهم إلىٰ مبادىء غاياتها ومقاصد نهاياتها (فـ) بسبب هـٰذه العظمة المذكورة (استقلت لذكره) أي : عند وقت ذكر ما أنعم الله به عليه ، ونظيره : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ .

(العظماء) أي : جميع ما أنعم الله به عليهم ؛ لأنه أوتي غايات الكمالات الباهرة التي لا يدرك شأوها مخلوق ، ولو عرض معها علىٰ ذوي العقول الكاملة جميعُ النعم والفضائل التي أوتيها غيره من المخلوقات . . لاستقلوها وعدوها دون كمالاته ، وقطعوا بأن ما عنده أعظم وأجل وأفخم .

وأعدت ضمير (ذكره) وحملت (العظماء) علىٰ ما ذكرته ؛ لأن المتن صريح في ذلك باعتبار أنه فرع الاستقلال علىٰ عظم النعمة ، وحذراً من أني لو لم أفعل ذلك . . لأوهم ذكر الاستقلال ـ علىٰ ما هو المتبادر منه عرفاً ـ الاحتقارَ للعظماء الشامل لبقية الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، لا سيما وقد استعمله الناظم فيه بعد بيتين حيث قال : (مستقل دنياك . . .) ولا نظر مع ذلك إلىٰ قبول ذلك الإيهام ؛ للمنع بأن يقال : استقلال الشيء عده قليلاً حتىٰ في العرف ، ولا شك أن ما عداه صلى الله عليه وسلم بالنسبة إليه كنسبة القليل إلى الكثير .

فإن قلت : يلزم علىٰ تسليم ذلك الإيهام أن الاحتقار متبادر حتىٰ علىٰ ما ذكرت ؛ لأن إضافة الاستقلال إلى النعم يوهم احتقارها ، وهو محذور أيضاً .

قلت : ممنوع ؛ لأن النعم الواصلة للعظيم وغيره توصف بالقلة تارة وبالكثرة أخرىٰ ، فلم يوهم ذكر الاستقلال فيها احتقاراً أصلاً ، بخلاف الذوات فإن وصفها بأنها استقلت يوهم احتقارها ؛ إذ لا يستعمل الاستقلال فيها إلا بهـٰذا المعنىٰ غالباً .

نعم ؛ قرينة المقام ـ لا سيما مع مراعاة وصفهم بالعظمة ـ تدفع ذلك الإيهام كما هو جلي .

وبين (عظمت) و(العظماء) تجنيس الاشتقاق .

وكان صلى الله عليه وسلم من الحلم علىٰ من آذاه ، وزيادة الاحتمال لأعدائه ، وفرط الحلم عليهم والإغضاء عنهم . . بالغاية التي لم يصل إليها غيره ، ومن ثم

(132)

جَهِلَـتْ قَـوْمُـهُ عَلَيْـهِ فَـأَغْضَـىٰ وَأَخُـو ٱلْحِلْـمِ دَأْبُـهُ ٱلْإِغْضَـاءُ

( ) أي : قريش وغيرهم ( ) أي : آذوه أذىً لا يطاق ، فضربوه ، وخنقوه ، وأغروا به سفهاءهم وصغارهم فضربوه ، ورموه بالحجارة إلىٰ أن أدموا رجليه فسال منهما الدم علىٰ نعليه ، وشجوا وجهه ، وكسروا رَباعِيَته ، ورموه بالسحر والكهانة والجنون ، وتواعدوا علىٰ قتله مرات ، وحصروا لأجله بني هاشم وبني المطلب في شعبهم سنتين حتىٰ كادوا أن يهلكوا من الجوع ، كما مر جميع ذلك في « البخاري » و« مسلم » من حديث عائشة رضي الله عنها : أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل أتىٰ عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال : « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لِقيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ ٱلْعَقَبَةِ » ، وذكر ما مر من ذهابه إلىٰ ثقيف ، فأغروا به سفهاءهم وصبيانهم ، فضربوه ورجموه[1] .

( ) عنهم حلماً وتكرماً ، لا سيما وقد جاءه لما اشتد إيذاؤهم له ملك الجبال ، كما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة السابق آنفاً ، فإنه قال بعد أن ذكر ما آذاه به ثقيف لما خرج إليهم بعد موت أبي طالب . . يدعوهم إلى الله تعالىٰ ويستنصر بهم علىٰ قريش : « فَٱنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ ٱلثَّعَالِبِ ـ أي : ميقات أهل الحجاز ـ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ ٱللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ ٱلْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ ، فَنَادَانِي مَلَكُ ٱلْجِبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : يا مُحَمَّدُ ؛ إِنَّ ٱللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ ، وَأَنَا مَلَكُ ٱلْجِبَالِ ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ ٱلأَخْشَبَيْنِ ـ فقال صلى الله عليه وسلم ـ : بَلْ

(١) البخاري (٣٢٣١) ، ومسلم (١٧٩٥) .

أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ ٱللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ ٱللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً » فكان الأمر كما رجا صلى الله عليه وسلم .

([illegible]) أي : التأني في الأمور ، وعدم الانتقام ممن أتىٰ بمكروه وإن عظم ؛ أي : الذي طبعه الله عليه حتىٰ صار غريزة له ، مختلطاً بدمه ولحمه ([illegible]) أي : شأنه وعادته المستمر هو عليها ([illegible]) أي : التغافل عن أن يلتفت إلىٰ أنه أوذي ، فضلاً عن أن ينتقم ممن آذاه ، وفي كلامه المقابلة ؛ لما قررته : أن المراد بالجهل لازمه من إيذائه بما لا يطاق ، ومن ثم لما آذوه يوم أحد بشج وجهه وكسر رَباعِيَته . . قيل له : ادع عليهم ، فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » أي : علماً ينتفعون به ، إما لجهلهم ؛ أي : اعتقادهم الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه ، وكثير منهم كانوا كذلك ، فكانوا يعتقدون حل إيذائه ومقاتلته ، إما غفلة عما لو التفتت قلوبهم إليه أدنى التفاتة من معجزاته . . لعلموا الحق واتبعوه من فورهم ، وإما لعنادهم ، وهم الأكثرون ، قال تعالىٰ : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي : فنزل علمهم منزلة الجهل ، بل هو أضر منه كما لا يخفىٰ ، وبهـٰذا يعلم أن في تعبير الناظم بالجهل تضميناً لجملة قوله : « لاَ يَعْلَمُونَ » ، وأن المراد بالحلم لازمه من عدم الانتقام ، وفيه المقابلة أيضاً بين (الإمساك) و(الإعطاء) ، و(التحقق) و(الظن) الآتيين ، وفيه أيضاً جناس الاشتقاق بين (أغضىٰ) و(الإغضاء) ، والتذييل بالمثل السائر .

وأصل الإغضاء : إطباق العين عن رؤية المكروه ، فاستعير لما ذكر ، بجامع الإعراض عن المكروه فيهما ، وإذا كان أخو الحلم دأبه ذلك . . فكيف بنبينا صلى الله عليه وسلم وهو الذي وصل من الحلم إلىٰ غاية لم يصل إليها مخلوق ؟! لأن الله تعالىٰ هو الذي تولىٰ تأديبه بنفسه ، وأفاض عليه من حقائق حلمه وقدسه ، حيث قال له : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ ، وفسرها جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم حين سأله فقال : (يا محمد ؛ إن الله يأمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك)[1] وكل من أثر له حلم واحتمال . . عرفت له زلة أو

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٩/ ١٠٥) ، وابن مردويه كما في « الدر المنثور » (٣/ ٦٢٨) .

هفوة تنافي الحلم إلا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا يزيد علىٰ كثرة الأذىٰ إلا صبراً ، وعلىٰ جهل الجاهلين ـ وإن بلغ الغاية ـ إلا حلماً ، ولقد قالت عائشة رضي الله عنها : (ما رأيته منتصراً من مظلمة ظلمها قط إلا أن تكون حرمة من محارم الله)[١] ، أي : المتعلقة به تعالىٰ ، كما مر ذلك مبسوطاً في شرح قوله : (لا تحل البأساء منه عرى الصبر) .

ومنه قصة الأعرابي الذي جذبه بردائه حتىٰ أثر في عنقه الشريف وقال له : أعطني من مال الله ، لا من مالك ولا من مال أبيك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ٱلْمَالُ مَالُ ٱللهِ وَأَنَا عَبْدُهُ » ، ثم طلب منه القود فقال : لا ، قال : « لِمَ ؟ » قال : لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة ، فضحك وأمر له بحمل بعيرَيْه .

ومر في قصة اليهودي الذي أسلم : أن من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم أن حلمه يسبق غضبه ، وأنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً .

ولما دخل في غزوة فتح مكة علىٰ قريش وقد أجلسوا في المسجد الحرام وأصحابه ينتظرون أمره فيهم من قتل أو غيره . . قال لهم : « مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال : « أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ ، ٱذْهَبُوا فَأَنْتُمُ ٱلطُّلَقَاءُ »[٢] .

(133)

وَسِعَ ٱلْعَالَمِينَ عِلْماً وَحِلْماً   فَهْوَ بَحْرٌ لَمْ تُعْيِهِ ٱلْأَعْبَاءُ

(وسع) بالكسر (العالمين) جمع عالم ، وللمحققين فيه في الآية كلام منتشر ، لا بأس بتلخيصه وتحريره هنا ، وهو مع اشتقاقه من العلامة : اسم لما يعلم به ، كالخاتم : اسم لما يختم به مع كونه مشتقاً من الختم ، ثم غلب فيما يعلم به الخالق تعالىٰ ، فصار اسماً لكل ما سواه تعالىٰ من الجواهر والأعراض ، فإنها لإمكانها وافتقارها إلىٰ مؤثر واجب لذاته . . تدل علىٰ وجوده ، وجمع ليشمل ما تحته من

---

(١) أخرجه أبو بكر الحميدي في « مسنده » (٢٦٠) .

(٢) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١١٨/٩) ، وابن جرير الطبري في « تاريخه » (٦٠/٣) .

الأجناس المختلفة ، ولا يعارضه أن المفرد ـ وهو العالم ـ أدل على الشمول والاستغراق ؛ إذ الجمع قد يحتمل غير الشمول ؛ لأن الغرض هنا : إفادة أن له أجناساً مختلفة كالجن والإنس والملائكة والأفلاك والدواب والجماد وغير ذلك ، واستغراق جميعها بطريق المطابقة ، ولو قيل : العالم.. لأوهم استغراق بعض أفراد تلك الأجناس فقط ، ولأصحاب حواشي « الكشاف » هنا كلام متباين ، هٰذا أحسنه ، وغلب في جمعه بالواو والياء والنون العقلاء لشرفهم ، وجمع جمع قلة مع أن الظاهر مستدع الإتيان بجمع الكثرة تنبيهاً علىٰ أن العوالم ـ وإن كثرت ـ قليلة في جنب عظمة الله تعالىٰ وكبريائه .

وقيل : العالم : اسم وضع لذوي العلم ، وهو الإنس والملائكة والجن ، وتناوله لغيرهم علىٰ سبيل الاستتباع ، فهو مشتق من العلم ، وقيل : عنىٰ به الناس ، فإن كل واحد منهم عالم من حيث إنه يشتمل علىٰ نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض التي يعلم بها الصانع ، ولذلك سوىٰ بين النظر فيهما فقال تعالىٰ : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ ، وقد بين حجة الإسلام في كتابه « الإنتصار لما في الأجناس من الأسرار » وجه اشتمال الإنسان علىٰ نظير ما في العالم بما فيه طول ، فراجعه فإنه بديع .

ومنه : أن العالم انقسم إلىٰ عوالم : عالم الملك ، وهو الظاهر للحواس ، وإلىٰ عالم الملكوت ، وهو المدرك بالعقل ، وعالم الجبروت ، وهو المتوسط الذي أخذ بطرف كل عالم منهما ، والإنسان كذلك ، فالمشابه للأول أجزاء بدنه ، وللثاني نحو روحه وعقله وإرادته ، وللثالث الإدراكات الموجودة بالحواس ، والقوى الموجودة بأجزاء البدن .

(علماً) تمييز ؛ أي : وسع علمه صلى الله عليه وسلم علوم العالمين الإنس والملائكة والجن ؛ لأن الله تعالىٰ أطلعه على العالم ، فعلم علوم الأولين والآخرين ما كان وما يكون كما مر ، وحسبك في ذلك القرآن الذي أوتيه ومثله معه كما صح عنه[1] ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ ، ويلزم من إحاطته صلى الله

---

(١) أخرجه أبو داوود (٤٥٩٤) ، وأحمد (٤/ ١٣٠) ، والبيهقي في « الدلائل » (٦/ ٥٤٩) ، وغيرهم .

عليه وسلم بالعلوم القرآنية ومثلها الذي أوتيه أيضاً : أنه أحاط بعلوم الأولين والآخرين ، وأن علومهم مندرجة ومنغمرة في علومه صلى الله عليه وسلم .

( ) تمييز ؛ أي : وسع حلمه حلم العالمين بأسرهم ، كما عرف مما سبق : أنه ما من حليم قط إلا وقد عرفت له زلة أو هفوة تخدش في كمال حلمه إلا نبينا صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا يزيده شدة الإيذاء له والجهل عليه إلا حلماً وعفواً وصفحاً ، وبين (حلماً) وما قبله الجناس المضارع[1] .

( ) بسبب جمعه لتلك المعالي التي لم تجتمع لغيره ( ) أي : واسع العلم والحلم وغيرهما من أخلاق نفسه الزكية وصفاتها العلية ، فهو تشبيه بليغ ، أو استعارة علىٰ قول مردود ؛ أي : كالبحر الذي هو خلاف البر والنهر ، سمي بحراً لاتساعه وعمقه ( ) من : أعيا فلان في مشيه ؛ أي : تعب أو وقف ( ) جمع عبء بكسر أوله وبالموحدة والهمز ، وهو : الحمل والثقل من أي شيء كان ؛ أي : لم يكدر بحرَ علمه شك ولا شبهة ، وبحرَ حلمه إيذاء ولا جهالة ، فاستعار (الإعياء) للكدورة ، و(الأعباء) للشبه والجهالات .

وإذا تأملت ما تقدم من أوصاف كماله الباهرة ، وعصمته ونزاهته الظاهرة ، وأنه البحر الذي اندرجت البحار كلها في يمه ، والحليم الكريم الذي دخل كل كريم وحليم تحت حيطة كرمه وحلمه . . علمت أنه صلى الله عليه وسلم لعصمته عن التلفت لما سوى الله تعالىٰ

(134)

مُسْتَقِــلٌّ دُنْيَــاكَ أَنْ يُنْسَــبَ ٱلْإِمْـ ـسَــاكُ مِنْهَــا إِلَيْــهِ وَٱلْإِعْطَــاءُ

( ) أي : محتقر ( ) أي : الأموال التي هي من جملتها ؛ إذ هي في الأصل : اسم لما بين السماء والأرض ( ) أن ينسب إليه أيضاً ( ) منها ؛ لأنها لفنائها وكثرة الاشتغال بها عن المعالي . . حقيقة بمزيد الإعراض عنها ، وعدم الالتفات إلىٰ إمساكها وإخراجها ولو لمستحقها ، احتقاراً

---

(١) وهو : ما إذا كان الاختلاف في حرفين متقاربي المخرج .

لشأنها وتعليماً للأمة عدم الاعتداد بها ، ودليل إعراضه صلى الله عليه وسلم عنها أشد الإعراض خبر الترمذي : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَباً ، فَقُلْتُ : لاَ يَا رَبِّ ، وَلَـٰكِنْ أَشْبَعُ يَوْماً وَأَجُوعُ يَوْماً ، فَإِذَا جُعْتُ . . تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ ، وَإِذَا شَبِعْتُ . . شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ »[1] ، وحكمة هـٰذا التفصيل الاستلذاذ بخطابه تعالىٰ ، وإلا . . فهو عالم بالأشياء كلها جملة وتفصيلاً .

وروى الطبراني بإسناد حسن : أنه صلى الله عليه وسلم كان هو وجبريل على الصفا ، فقال : « يَا جِبْرِيلُ ؛ وَٱلَّذِي بَعَثَكَ بِٱلْحَقِّ مَا أَمْسَىٰ لِآلِ مُحَمَّدٍ سُفَّةٌ مِنْ دَقِيقٍ ، وَلاَ كَفٌّ مِنْ سَوِيقٍ » فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَمَرَ ٱللهُ ٱلْقِيَامَةَ أَنْ تَقُومَ ؟ » قال : لا ، ولـٰكن أمر إسرافيل أن ينزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرافيل فقال : إن الله سمع ما ذكرت ، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرض عليك ، [إن أحببت] أن أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة . . فعلت ، فإن شئت نبياً ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً ، فأومأ إليه جبريل أن تواضع ، فقال : « بَلْ نَبِيّاً عَبْداً » (ثلاثاً)[2] ، فانظر إلىٰ همته العلية كيف عرضت عليه خزائن الأرض فأعرض عنها وأباها ، مع أنه لو أخذها . . لم ينفقها إلا في طاعة ربه ؟! لـٰكنه اختار العبودية المحضة ، فيا لها من همة شريفة رفيعة ما أسناها! ونفس زكية كريمة ما أبهاها! وقد أشار الناظم إلىٰ ما هنا بقوله في « بردة المديح » :

وَرَاوَدَتْـهُ ٱلْجِبَـالُ ٱلشُّـمُّ مِـنْ ذَهَـبٍ

. . . الأبيات الثلاثة[3] ، ومعنى البيت الثالث : وكيف تدعو ضرورة سيد

---

(١) الترمذي (٢٣٤٧) .

(٢) المعجم الأوسط (٦٩٣٣) .

(٣) وهي بتمامها :

وَرَاوَدَتْـهُ ٱلْجِبَـالُ ٱلشُّـمُّ مِـنْ ذَهَـبٍ ... عَـنْ نَفْسِـهِ فَـأَرَاهَـا أَيَّمَـا شَمَـمِ

وَأَكَّـدَتْ زُهْـدَهُ فِيهَـا ضَـرُورَتُـهُ ... إِنَّ ٱلضَّـرُورَةَ لاَ تَعْـدُو عَلَـىٰ ٱلعِصَـمِ

وَكَيْـفَ تَـدْعُـو إِلَـىٰ ٱلـدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَـنْ ... لَـوْلاَهُ لَـمْ تَخْـرُجِ ٱلـدُّنْيَـا مِـنَ ٱلْعَـدَمِ

المعصومين إلىٰ زخرف الدنيا وزينتها وهي وما فيها إنما خلقت لأجله كما صرح به الخبر السابق ؟!

تنبيه : قوله هنا : (مستقل . . .) إلخ أحسن من قوله ثم : (وأكدت زهده فيها ضرورته . . .) لأن بعض العلماء أنكر وصفه صلى الله عليه وسلم بالزهد ، ويؤيده قول محمد بن واسع وقد قيل له : فلان زاهد ، فقال : وما قدر الدنيا حتىٰ يزهد فيها ؟! وإذا أنكر وصفه بالزهد . . فالضرورة من باب أولىٰ ، وفي « السيف المسلول » للتقي السبكي عن « الشفا » وأقره : أن فقهاء الأندلس أفتوا بإراقة دم من وصفه صلى الله عليه وسلم في أثناء مناظرته باليتيم ، ثم زعم أن زهده لم يكن قصداً ، ولو قدر على الطيبات . . أكلها[1] .

وذكر البدر الزركشي عن بعض الفقهاء المتأخرين : أنه كان يقول : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فقيراً من المال قط ، ولا حاله حال فقير ، بل كان أغنى الناس بالله ، فقد كفي أمر دنياه في نفسه وعياله ، وكان يقول في قوله صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَحْيِنِي مِسْكِيناً »[2] : إن المراد به : استكانة القلب ، لا المسكنة التي هي : أن لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته، وكان يشدد النكير علىٰ من يعتقد خلاف ذلك . اهـ

ولو قال : لا المسكنة المرادفة للفقر ، أو المقابلة له . . لكان أنسب لغرضه .

وأما خبر : « الفقر فخري وبه أفتخر » . . فموضوع[3] ، وقد صح : أنه صلى الله عليه وسلم استعاذ من فتنة الفقر كما استعاذ من فتنة الغنىٰ[4] .

فائدة : أكثر القرآن مشتمل علىٰ ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة ، بل هـٰذا هو المقصود بالذات من سائر الشرائع ، كيف وهي عدوة لله ؛ لقطعها طريق الوصول إليه ، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها ، وعدوة لأوليائه ؛ لأنها تزينت لهم بزينتها حتىٰ تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها ، وعدوة لأعدائه ؛ لأنها

---

(١) انظر « الشفا » (ص ٧٦٩) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٢٧٥) ، وابن ماجه (٤١١٦) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ١٢) ، وغيرهم .

(٣) انظر « تلخيص الحبير » لابن حجر (٣/ ١٠٩) ، و« المصنوع » (ص ١٢٨) .

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٦٨) ، ومسلم (٤٨٧٧) .

استدرجتهم بمكرها ، واقتنصتهم بشبكتها حتىٰ وثقوا بها ، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها ؟!

وروىٰ جماعة في قصة ثعلبة بن أبي حاطب الذي أنزل الله فيه : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ . . . ﴾ الآيات : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له : بأن الله يرزقه مالاً ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَ تُطِيقُهُ » فأعاد السؤال ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « أَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ ؟ أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ ٱللهِ ؟ أَمَا وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِيَ ٱلْجِبَالُ ذَهَباً وَفِضَّةً . . لَسَارَتْ . . . » الحديث بطوله[1] .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم رأىٰ شاة ميتة فقال : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَىٰ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّاةِ عَلَىٰ أَهْلِهَا ، وَلَوْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ ٱللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ . . مَا سَقَىٰ كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »[2] .

وفي الخبر الحسن : « ٱلدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ ٱللهِ وَمَا وَالاَهُ ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ »[3] .

وصح : أن أبا بكر رضي الله تعالىٰ عنه دعا بشراب ، فأتي بماء وعسل ، فبكىٰ حتىٰ أبكىٰ أصحابه ، ثم بكىٰ ، ثم مسح عينيه ، فسألوه ، فقال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما الذي تدفع عن نفسك ؟ قال : « هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مُثِّلَتْ لِي ، فَقُلْتُ لَهَا : إِلَيْكِ عَنِّي ، ثُمَّ رَجَعَتْ فَقَالَتْ : إِنَّكَ إِنْ أَفْلَتَّ مِنِّي . . لَمْ يُفْلِتْ مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ »[4] .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٥/ ٢٨٩) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢١٨) ، وابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٠/ ١٣٠) ، وابن قانع في « معجم الصحابة » (٢١٣) ، وقال في « مجمع الزوائد » (٧/ ٣٥) : (. . . وفيه علي بن يزيد الألهاني ، وهو متروك) ، وذكره ابن حجر في « الإصابة » (١/ ١٩٩) ، وقال : (. . . إن صح الخبر ، وأظنه لا يصح) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٤٦٥) .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) ، وقال : (حديث حسن غريب) .

(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٥١٨) ، والحاكم (٤/ ٣٠٩) .

وصح من جملة الحديث المشهور : « فَوَٱللهِ مَا ٱلْفَقْرَ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَلَـٰكِنْ أَخْشَىٰ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ ٱلدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ »(١) .

: أولهما : المراد بالدنيا المذمومة في الأحاديث وغيرها : ما في قوله تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ . . . ﴾ الآية ، ويجمع ذلك : كل ما لَكَ فيه عاجل حظ أو شهوة ، من غير أن يعين علىٰ عمل أخروي ولا يقصد به .

ثانيهما : تعارضت الأحاديث في ذم المال ومدحه ؛ لأنه تعالىٰ مع ما سبق من ذم الدنيا سمى المال خيراً ، وفي الحديث : « نِعْمَ ٱلْمَالُ ٱلصَّالِحُ لِلْمَرْءِ ٱلصَّالِحِ »(٢) ، وكل ما جاء في ثواب الصدقة والضيافة والإحسان والزكاة والحج ونحوها . . فهو ثناء على المال ؛ لأنه يتوصل به إليه ، وفي حديث البيهقي وغيره : « كَادَ ٱلْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْراً »(٣) ، وهو ثناء على المال .

وصح ـ علىٰ نزاع فيه ، ولذلك قال بعض الحفاظ : إنه حسن ، وزعم بطلانه غلط صريح ـ خبر : « ٱللَّهُمَّ ؛ مَنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي ، وَعَلِمَ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ . . فَأَقِلَّ مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِ لِقَاكَ ، وَعَجِّلْ لَهُ ٱلْقَضَاءَ ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي وَلَمْ يُصَدِّقْنِي ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ هُوَ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ . . فَأَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ ، وَأَطِلْ عُمُرَهُ »(٤) ، وطرقه كثيرة مختلفة ، منها ـ وهي صحيحة علىٰ شرط الشيخين ـ : أن أبا ذر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أحبكم أهل البيت ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أَللهِ ؟ » فقال : لله ، فقال : « فَأَعِدَّ لِلْفَقْرِ تِجْفَافاً ، فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَىٰ مَنْ يُحِبُّنَا مِنَ ٱلسَّيْلِ مِنْ أَعْلَى ٱلأَكَمَةِ إِلَىٰ أَسْفَلِها »(٥) مع دعائه صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٥) ، ومسلم (٢٩٦١) ، والترمذي (٢٤٦٢) ، وابن ماجه (٣٩٩٧) ، وغيرهم .

(٢) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٩٩) ، وابن حبان (٣٢١٠) ، وأحمد (٤/١٩٧) .

(٣) شعب الإيمان (٦٦١٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤١٣٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/٣١) .

(٥) أخرجه الحاكم (٤/٣٣١) ، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٣٥٠) ، والبيهقي في « الشعب »

وسلم لخادمه أنس رضي الله تعالىٰ عنه بأن الله يكثر ماله وولده ، رواه الشيخان[١] .

ووجه الجمع : أن المدعو به في الأول من قلة المال والولد المراد منه : قلة فتنتهما ؛ لأن الغالب فيهما الفتن ، كما هو واضح من الآيات والأحاديث ، وفي الثاني من كثرتهما المراد به : كثرة فوائدهما وثمراتهما الأخروية ، فالمال ليس خيراً محضاً من كل وجه ، ولا شراً محضاً من كل وجه ، وإنما هو كالسيف في يد المقاتل ، يقتل به معصوماً تارة ، ومهدراً أخرىٰ ، أو كحية في يد إنسان فيها سَمٌّ وترياق ، ولٰكن سمها أكثر وأغلب ، وأوحىٰ ـ أي أسرع ـ للنفوس وأذهب ، وإذا تأملت أيضاً ما تقرر من كمالاته العلية . . علمت أنه

(135)

شَمْــسُ فَضْــلٍ تَحَقَّــقَ ٱلظَّــنُّ فِيــهِ أَنَّــهُ ٱلشَّمْــسُ رِفْعَــةً وَٱلضِّيَــاءُ

(شمس) سماء العلوم والكمالات بأسرها ، كيف وكل (فضل) تحلىٰ به كل كامل فإنما هو بواسطة استمداده من فضله ؟! وإذا كان الأمر كذلك . . (تحقق) من حق بمعنىٰ ثبت (الظن) يعني : الاعتقاد الجازم المطابق للواقع (فيه) أي : في ذاته وصفاته (أنه) بالنسبة إلىٰ بقية الكمل في إشراقه ورفعته عليهم (الشمس) المشرقة علىٰ هـٰذا العالم النائية عنه (رفعة) فلا يصل إليها أحد منهم (و) أنه (الضياء) المفيض عليهم أضواء الكمالات وخوارق الإمدادات .

وبين (الشمس) و(الضياء) تجنيس مراعاة النظير ، وفيهما التشبيه البليغ ، أو الاستعارة الأصلية المطلقة على القول الذي مر رده ، ومر أوائل الكتاب ما للبلغاء في التشبيه بالشمس ، فراجعه ، لـٰكن ليس كون المشبه به أعلىٰ من المشبه أمراً مطرداً ، بل قد ينعكس الحال ، كما في صلاة التشهد : « كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ »[٢] علىٰ أحد

(١٤٧١) ، دون التصريح باسم أبي ذر رضي الله عنه . والتجفاف ـ بكسر التاء ـ هو : آلة للحرب ، يلبسه الفَرس والإنسان ، ليقيه في الحرب .

(١) البخاري (٦٣٣٤) ، ومسلم (٦٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٠) ، وأبو داوود (٩٦٨) ، والترمذي (٤٨٣) ، والنسائي (٣/ ٤٩) ، وابن ماجه (٩٠٣) ، وغيرهم .

الأجوبة فيه ، وما هنا من ذلك ، كما تنبه الناظم رحمه الله لذلك حيث بين أنه صلى الله عليه وسلم أعلىٰ شأناً في الضياء من الشمس ، فقال ـ عاطفاً بـ(فاء) السببية ؛ إشعاراً بالنكتة التي ذكرنا أنه تنبه لها ـ :

(136)

فَـإِذَا مَـا ضَحَـا مَحَـا نُـورُهُ ٱلظِّـلَّ وَقَـدْ أَثْبَـتَ ٱلظِّـلَالَ ٱلضُّحَـاءُ

(فـ) بسبب أن المشبه قد يكون أعلىٰ من المشبه به . . كان شأنه صلى الله عليه وسلم أنه (إذا ما) لم يتكلم الجمال ابن هشام علىٰ هٰذه في « المغني » مع أنها في القرآن في غير موضع ، وتكلم علىٰ (إذ ما) مع كونها ليست فيه ، وتكلم علىٰ تلك البهاء السبكي في « عروس الأفراح » في (أدوات الشرط) لٰكنه لم يتعرض إلىٰ أن زيادة (ما) حولتها إلى الحرفية أو لا .

قال الجلال السيوطي : (ويحتمل أن يجري فيها قولا « إذ ما » : قول سيبويه : إنها حرف ، والمبرد وغيره : إنها باقية على الظرفية ، ويحتمل أن يجزم ببقائها على الظرفية ؛ لأنها أبعد عن التركيب ، بخلاف « إذ ما ») اهـ

وفيما علل به من الجزم نظر ؛ لأنه قابل للمنع ، فالذي يتجه : جريان الخلاف ، وأن الأصح بقاؤها على الظرفية ؛ لأن (ما) تزاد في نحو ذلك كثيراً ، وحينئذ فيجري فيها أحكام (إذا) غير الفجائية : من أن الغالب : أنها ظرف للمستقبل ، متضمنة معنى الشرط ، وتختص بالجمل الفعلية ولو مقدرة ، كـ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ ، وتحتاج لجواب ، وتقع في الابتداء عكس الفجائية ، وجوابها إما : فعل كما هنا ، أو جملة اسمية مقرونة بـ(الفاء) أو بـ(إذا) الفجائية ، نحو : ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ، أو فعلية طلبية كذلك ، وقد يقدر الجواب لدلالة السياق أو المقام عليه ، ثم المحققون علىٰ أن ناصبها شرطها ، والأكثرون علىٰ أنه ما في جوابها من فعل أو شبهه ، ولا تخرج عن الظرفية عند الجمهور ، وزعمَ الأخفش في : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا ﴾ : أنها مجرورة بـ(حتىٰ) ، وابنُ جني في : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ بناء علىٰ نصب : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ : أن (إذا) الأولىٰ مبتدأ ، والثانية خبر ، والمنصوبان حالان ، وكذا (ليس) ومعمولاها .

نعم ؛ قد تخرج عن الاستقبال فترد للحال ، نحو : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ ، وللماضي ، نحو : ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً . . .﴾ الآية ، فإنها نزلت بعد الرؤية والانفضاض ، وعن الشرطية ، نحو : ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ ، فهي ظرف لـ (هم) المبتدأ ، وزعمُ أنها جوابها بتقدير (فهم) . . غَفْلَة عن أن حذف (الفاء) ضرورة ، وأن (هم) تأكيد لـ(واو) (يغفرون) الذي هو جوابها . . تعسف ، وأن جوابها محذوف . . تكلف بلا ضرورة ، وقد تستعمل لاستمرار الأزمنة ، نحو : ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ ، وقد ينظر فيه بأن الاستمرار هنا وفي نظائره التي استدلوا بها إنما أخذ من قرينة السياق دون موضوع (إذا) ، وتفارق (إن) في أحكام كثيرة منها : أن (إذا) للمتيقن والمظنون الكثير الوقوع ، كما هنا في (إذا ما) ، و(إن) للمشكوك أو الموهوم النادر ، ولا يرد نحو : ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ﴾ لأن الموت لكثرة الغفلة عنه وللجهل بوقته نُزِّل منزلة الموهوم ، ولا نحو : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ لأنه لتخويفهم وإخبارهم بأنه لا بد أن يمسهم شيء من العذاب .

(ضحا) أي : مشىٰ عقب طلوع الشمس ، وهـٰذا ليس لتقييد الجزاء به ؛ إذ محو نوره الظل يكون في هـٰذا الوقت وغيره ، لـٰكنه في هـٰذا الوقت أظهر ؛ لقوة ضياء الشمس ومحو نورها حينئذ (محا نوره) وبين (محا) و(ضحا) التجنيس اللاحق[1] ، وهـٰذا و(الضحاء) تجنيس الاشتقاق (الظل) مفعول ؛ أي : ظل ذاته الكريمة ، أو مطلق الظل مبالغة بل حقيقة ؛ لأن نوره صلى الله عليه وسلم أصل كل نور ، وهو لا يبقىٰ معه ظلمة ومنها الظل ، أو المراد بـ(الظل) : كل ضلالة ونقص ، وبنوره : ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة والعلوم والآداب ، لـٰكن المراد بـ(ضحىٰ) علىٰ هـٰذا : مطلق ظهوره في هـٰذا الكون بأوصافه الكاملة (و) الحال أنه (قد أثبت الظلال) جمع ظل ، وهو : ما تنسخه الشمس أو ينسخها هو ، وأخص منه الفيء ؛ لأنه اسم لما بعد الزوال من الظل ، فهو ما نسخ الشمس ، وقيل : كل ما نسخته فهو فيء وظل ، وكل ما لم تنسخه فهو ظل لا فيء .

(الضحاء) بالضم ؛ أي ارتفاع الشمس ، فنبينا صلى الله عليه وسلم أكمل من

---

(١) وهو : ما إذا كان الاختلاف في حرفين متباعدي المخرج .

الشمس رفعة وضوءاً ؛ لأن نورها يثبت الظل ، ونور نبينا صلى الله عليه وسلم يمحوه ، ويدل على المعنى الأول : أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه إذا مشىٰ في الشمس . . لا يظهر له ظل ؛ لطهارة ذاته عن كل نقص ، ولأن الله تعالى استجاب له دعاءه المشهور أن يجعله كله نوراً ، فكان بدنه في غاية الإضاءة التي لا تحجب ما يقابلها ، وقيل : مد (الضحاء) لضرورة النظم . اهـ

وفيه نظر ، بل الذي في « القاموس » : أن الممدود ـ بفتح أوله ـ : ما قرب من انتصاف النهار كما مر ، ثم ذكر أن المقصور الشمس ، وحينئذ إن أريد بـ(الضحاء) الشمس . . كان مده ضرورة ، أو قرب انتصاف النهار . . كان مده صحيحاً لا ضرورة فيه ، لـٰكن لا يصح إرادة هـٰذا هنا كما هو ظاهر من جعل الناظم جملة (وقد . . .) إلخ حالاً من فاعل (ضحىٰ) .

تنبيه : لك أن تستشكل تركيب قوله : (شمس فضل . . .) إلخ بأن حكمه عليه بأنه شمس الفضل يغني عن قوله : (تحقق الظن . . .) إلخ ؛ لأنه إذا ثبت أولاً أنه شمس الفضل الذي هو اسم لكل كمال . . علم أنه الشمس في الرفعة وأنه (الضياء) ، فقوله : (تحقق الظن . . .) إلخ لا حاجة إليه .

وجوابه : ما أشرت إليه في محله من أن جملة : (تحقق الظن . . .) إلخ حال مؤكدة لما قبلها ، وصاحب الحال الضمير العائد عليه صلى الله عليه وسلم ؛ إذ (مستقل) و(شمس فضل) معطوفان علىٰ (بحر) بحذف حرف العطف ، أو يقدر لكلٍّ مبتدأ ، استئنافاً لتعدد شمائله صلى الله عليه وسلم ، إشارة إلىٰ أن كلاً مستقل كامل في ذاته ؛ لتضمنه للبقية كما مر في شرح قوله : (كل وصف له ابتدأت . . .) إلخ .

ولما ورد علىٰ ظاهر ما قرره ـ نظراً للاحتمال الثاني من أن نوره يمحو الظل ـ ما سبق له صلى الله عليه وسلم أن الغمامة كانت تظله ، بأن يقال : كيف يمحو نوره الظل والغمامة أظلته ؟! فلم لم يمح نوره ظل الغمامة ؟! ولم احتاج إليه مع أنه الضياء الأعظم من ضياء الشمس فلا يؤثر فيه ؟! . . أشار إلىٰ جواب ذلك ، لـٰكن بما تقصر عنه عبارته ببادىء الرأي فقال :

فَكَــأَنَّ ٱلْغَمَــامَــةَ ٱسْتَــوْدَعَتْــهُ مَــنْ أَظَلَّــتْ مِــنْ ظِلِّــهِ ٱلــدُّفَفَـاءُ

(فـ) بسبب محو نوره الظل الحسي علىٰ ما مر . . صار صلى الله عليه وسلم هو الظل المعنوي المعظم علىٰ جميع أتباعه ، حتىٰ (كأن الغمامة) لما أظلته قبل النبوة إرهاصاً وتأسيساً لما سيصير إليه أمره . . أعلمته بأنها (استودعته) الأمة بأسرها ، لـٰكن أصحابه بلا واسطة ، وهم : الدففاء ، ومن بعدهم بواسطة استمداد الأولين من ظله وإمدادهم لمن بعدهم من ذلك الظل ، فالذين بواسطتهم (من) أي : الذين (أظلت) هم (من) بعض (ظله) الأعظم (الدففاء) جمع دافٍّ ، كعلماء جمع عالم ، وهم جيوشه ، سمي الجيوش بذلك ؛ لأنهم يدفون نحو العدو ؛ أي : يسيرون إليه لدفعه واستئصاله .

وحاصل الجواب : أن ذلك التظليل الذي كان قبل النبوة كان لحكمتين : إحداهما : الإرهاص كما تقرر .

وثانيتهما : إعلامه صلى الله عليه وسلم بما سيؤول أمره إليه : من أن الله سيجعل له أمة أكثر الأمم ، وأنهم قرون متفاوتون ، وأن كل قرن مستمد من القرن الذي قبلهم ، وأن الكل مستمدون وممدون من ظله صلى الله عليه وسلم ، فسائر القرون مستمدون من أصحابه ، وأصحابه مستمدون وممدون من ظله ، وحينئذ فلا تنافي بين محو نوره الظل وبقاء الظل مع نوره عند تظليل الغمامة له ؛ لأن المحو هو الأصل المستمر ، والبقاء إنما كان علىٰ خلاف الأصل ؛ للحكمتين المذكورتين :

إحداهما : الإرهاص .

والثانية : الإعلام له بعموم ظله المعنوي على الأمة من أولهم إلىٰ آخرهم .

فتأمل ذلك فإنه مهم ، بل انغلق معنىٰ هـٰذا البيت على الشارح فقال : إنه وجد هـٰذا البيت في نسخة ، وإنه غير مفهوم المعنىٰ ، وسبب انغلاقه عليه جعله الضمير المفعول في : (استودعته) لـ(الظل) لا يقال : بل ما قاله من رجوعه لـ(الظل) يتضح به المعنىٰ ، لـٰكن إن جعلنا (الدففاء) الطيور . . يكون في البيت حينئذ التلميح إلىٰ قصة هي : أن الطيور كانت تظل الأنبياء قبله كداوود وسليمان ، بل بني إسرائيل ، ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ ﴾ وحينئذ فكأنه يقول : الغمامة لما أظلته . .

استودعت الظل للأنبياء الذين أظلتهم الطيور من ظله ؛ لأنا نقول[١] : هٰذا المعنىٰ لا يطابق اللفظ ، سلمناه مع ما فيه من البعد والتكلف[٢] ، فوزن دففاء فعلاء ، وهو إنما يكون جمعاً لفعيل . . إذا كان وصف ذكر عاقل بشروط أخرىٰ ، ولِما دل علىٰ سجية حمد أو ذم بشروط أخرىٰ كشجاع وشجعاء ، وصالح و صلحاء ، وشاعر وشعراء ، وجاهل وجهلاء ، فعلم أنه لا يصح حمله على الطيور أصلاً ؛ لأنه إنما يكون جمعاً لصفة عاقل مذكر أو سجية حمد أو ذم بشرطهما ، علىٰ أن الذي سمع في الطيور دفوف في العقاب ، وفعلاء لا تجمع عليه أصلاً ، ودافٌّ فيما يطير بجناحيه ولا يصُفُّ[٣] ، وهو وصف لغير عاقل ، ودفيف ، وهو ليس وصفاً للطائر ، بل لحركته ، وبتسليم أنه وصف له هو غير عاقل .

فإن قلت : المعنى الصحيح : أن الغمامة لما أظلته . . استودعت الظل الطيور التي أظلت الأنبياء من ظله ، فهلاَّ يحمل النظم عليه ؟

قلت : يعارضه ما تقرر في قاعدة جمع فعلاء ، وبتسليمه تجوزاً في الجمع فالنظم ينبو عن هٰذا المعنىٰ بكل وجه كما هو واضح .

فإن قلت : ظاهر كلام الناظم في « البردة » : أنه احتاج لتظليل الغمامة لتقيه حر الشمس[٤] ، فينافي ما مر من أن تظليلها للحكمتين السابقتين .

قلت : ما أفهمه كلامه ثَمَّ . . يعارضه أن تظليلها لم يكن إلا قبل النبوة إرهاصاً كما مر ، ولو كان لما ذكر . . لكان بعد النبوة أيضاً .

فإن قلت : قد ظلل عليه صلى الله عليه وسلم عند رميه للجمرة بثوب ، وهو يشعر بالاحتياج .

قلت : هٰذا من ضرورة الجبلة البشرية ، وما نحن فيه من حيث الحقيقة والأمور الأصلية . فتأمله .

---

(١) تعليل لقوله قبل أسطر : (لا يقال) .
(٢) قوله : (سلمناه) أي : رجوع الضمير في (استودعته) إلى (الظل) .
(٣) الطائر الذي يصُفُّ هو : الذي لا يحرك جناحه أثناء الطيران كالنسور والصقور .
(٤) وذلك قوله رحمه الله :

مِثْـلَ ٱلْغَمَـامَـةِ أَنَّـىٰ سَـارَ سَـائِـرَةً تَقِيـهِ حَـرَّ وَطِيـسٍ لِلْهَجِيـرِ حَمِـي

وأيضاً فهو صلى الله عليه وسلم برز للشمس في عرفة ولم يظلل ؛ إشارة إلىٰ أن السنة للمحرم أن يبرز للشمس ، وظلل عند الرمي إشارة إلىٰ أنه لا يسن البروز للشمس هنا ، كذا ذكروه ، وعليه فلا إشكال أصلاً ، ومرت قصة تظليل الغمامة ورواياتها في شرح قوله :

وأتـــاهـــا أن الغمـــامـــة والســـر ح أظلتـــــه منهمـــــا أفيـــــاء

وإذا تقرر أن كل فضل مستمد من فضله ، وأن نوره يمحو الظل علىٰ ما سبق في معناه . . علم أنه قد

(138)

خَفِيَـتْ عِنْـدَهُ ٱلْفَضَـائِـلُ وَٱنْجَـا بَـتْ بِـهِ عَـنْ عُقُـولِنَـا ٱلْأَهْـوَاءُ

(خفيت عنده) أي : في جنب ما أوتيه صلى الله عليه وسلم (الفضائل) التي أوتيها غيره من الإنس والملائكة والجن (و) أنه قد (انجابت) أي : انكشفت (به) أي : بسبب ما بثه فينا من علومه وآدابه وأخلاقه (عن عقولنا) معشر أمة الإجابة .

والعقل لغة : المنع ، واصطلاحاً : غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات ، وفيه خلاف طويل أشار إليه في « القاموس » ، وعبارته : (العقل : العلم ، أو بصفات الأشياء حُسنها وقُبحها ، وكمالها ونقصانها ، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين ، أو مطلقٌ لأمورٍ ، أو لقوة بها يكون التمييز بين القبيح والحسن ، ولمعان مجتمعة في الذهن ، يكون بمقدمات يستتب بها الأغراضُ والمصالحُ ، أو لهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلامه ، والحق : أنه نور روحاني ، به تدرك النفوس العلوم الضرورية والنظرية ، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد ، ثم لا يزال ينمو إلىٰ أن يكمل عند البلوغ) اهـ

(الأهواء) أي : الضلالات والنقائص ، فلم يقع في ورطة شيء منها ، كما وقع فيها من أعرض عن الهدىٰ ، وسلك سبيل الردىٰ .

ثم استدل علىٰ ذلك الخفاء وكشف الهوىٰ بما أفاده الاستفهام الاستنكاري ، فقال علىٰ طريق اللف والنشر المرتب :

(139)

أَمَــعَ ٱلصُّبْــحِ لِلنُّجُــومِ تَجَــلٍّ   أَمْ مَــعَ ٱلشَّمْــسِ لِلظَّــلَامِ بَقَــاءُ

(أم) يوجد (مع الصبح للنجوم تجل) يوجد (مع الشمس للظلام بقاء) أي : إنما خفيت الفضائل عنده ؛ لأنه الفجر الصادق ، وغيره من سائر الكمل كالنجوم ، فكما أن النجوم لا يبقىٰ لها نور مع الفجر . . فكذلك سائر الكمل ، وإنما كشف عن عقولنا الأهواء ؛ لأنه الشمس كما مر ، والأهوية والنقائص كالظلام ، فكما أن الظلام لا يبقىٰ مع الشمس . . فكذلك الأهوية والضلالات لا تبقىٰ مع إشراق الشمس من غير حائل بينها وبين ما أشرقت عليه .

وبين (الصبح) و (النجوم) ، و(الشمس) و(الظلام) تجنيس التقابل ، وفي البيت الكلام الجامع .

ولما قرر ما يتعلق بقوله : (شمس فضل) بما بعده إلىٰ هنا ؛ لأنه مناسب له . . عطف بحذف حرفه ، أو استأنف ـ نظير ما مر ـ فقال :

(140)

مُعْجِـزُ ٱلْقَـوْلِ وَٱلْفِعَـالِ كَـرِيـمُ ٱلْـ   ـخَلْـقِ وَٱلْخُلْـقِ مُقْسِـطٌ مِعْطَـاءُ

(معجز القول) لأن الله تعالى امتن عليه بجوامع الكلم التي أوتيها دون غيره ، ومن ثم قال بعض العلماء : إن كلامه معجز كالقرآن ، وكأن الناظم رحمه الله تعالى اعتمد هٰذا القول حيث عبر بما يوافقه وإن احتمل أنه يريد ما يوافق مذهب الأكثرين أن كلامه صلى الله عليه وسلم غير معجز (و) معجز (الفعال) فلا يقدر مخلوق أن يوجد فعلاً مطابقاً لسائر المصالح الظاهرة والباطنة في ذلك الوقت الذي أوجد فيه ذلك الفعل غيره صلى الله عليه وسلم ، وهٰذه هي مرتبة وارث الحضرة الإلٰهية التي لا يدخل أحد إليها إلا بإذنه (كريم الخلق) كما يعلم مما قدمته مبسوطاً في شرح قوله : (فتنزه في ذاته . . .) إلخ[١] (و) كريم (الخلق) ـ بضم أوله ـ كما مر مبسوطاً

(١) إنما بسط ذلك في شرح قول الناظم : (كل وصف له ابتدأت . . .) .

في شرح قوله : (ما سوىٰ خلقه النسيم . . .) إلخ .

وبين (القول) و(الفعل) و(الخَلق) و(الخُلق) تجنيس التقابل مع تجنيس التحريف في الثاني .

(مقسط) أي : عادل في أحكامه وأقواله وأفعاله ، فلا يصدر منه شيء قط إلا علىٰ غاية العدل ، باطناً وظاهراً ، باتفاق كل من رآه وعلم أحواله حتىٰ أعدائه ومناوئيه ، ألا ترىٰ أن قريشاً لما بنوا الكعبة والنبي صلى الله عليه وسلم معهم قبل النبوة ، فوصلوا إلىٰ موضع الحجر الأسود ، واختلفوا فيمن يضعه في محله ، ثم أجمعوا علىٰ أنهم يُحكِّمون أول داخل للمسجد ، فكان النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هـٰذا الأمين ، فحكموه ، فأمر بوضعه في ثوب ، وأمر كل رئيس قبيلة أن يمسك بطرف الثوب ثم يرفعوه ، ففعلوا إلىٰ أن بلغوا به محله فأخذه صلى الله عليه وسلم ووضعه في محله .

وصح : أن رجلاً قال له ـ وهو صلى الله عليه وسلم يقسم ـ : اعدل ، فقال : « وَيْلَكَ ، فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ ؟! خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ »[1] ، وكان يقول : « أَبْلِغُوا حَاجَةَ مَنْ لاَ يَسْتَطِيعُ إِبْلاَغِي ، فَإِنَّ مَنْ أَبْلَغَ حَاجَةَ مَنْ لاَ يَسْتَطِيعُ إِبْلاَغَهَا . . أَمَّنَهُ ٱللهُ يَوْمَ ٱلْفَزَعِ ٱلأَكْبَرِ »[2] وكان لا يؤاخذ أحداً بقول أحد ، ولا يصدق أحداً في أحد .

(معطاء) أي : كثير العطاء الذي يعجز عن أدناه الملوك ، فقد صح عن أنس رضي الله عنه : كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأجود الناس ، واقتصاره علىٰ هـٰذه الثلاثة من جوامع الكلم التي منحها من إمداده صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها من أمهات الأخلاق ؛ إذ في كل إنسان ثلاث قوىً : الغضبية وكمالها الشجاعة ، والشهوانية وكمالها الجود ، والعقلية وكمالها اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل .

وصح عنه أيضاً : ما سئل صلى الله عليه وسلم شيئاً إلا أعطاه ، فجاء رجل فأعطاه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠) ، ومسلم (١٠٦٣) .
(٢) أخرجه بنحوه الترمذي في « الشمائل » (٣٣٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٤٣٠) ، والطبراني (٢٢/ ١٥٥) .

غنماً بين جبلين ، فرجع إلىٰ قومه فقال : أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر[1] .

وأعطىٰ صفوان بن أمية يوم حنين حين أسلم مئة من الغنم ، ثم مئة ، ثم مئة[2] .

وصح عن جابر : ما سئل صلى الله عليه وسلم عن شيء قط فقال : لا[3] ؛ أي : لا ينطق بالرد بـ(لا) ، بل إن كان عنده المسؤول وساغ الإعطاء بأن لم يرضوا ما عنده لما هو أهم.. أعطاه ، وإلا.. سكت ، كما في حديث مرسل[4] ، فحينئذ لا ينافي الحديث الآية : ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهو لا يقولها منعاً للعطاء ، بل اعتذاراً حيث لا ينفع السكوت لنحو جهل السائل ، وفي حديث الترمذي : أنه حمل إليه تسعون ألف درهم ، فقام إليها ، فما رد سائلاً حتىٰ فرغ منها ، وقال لسائل : « مَا عِنْدِي شَيْءٌ ، وَلَـٰكِنِ ٱبْتَعْ عَلَيَّ ، فَإِذَا جَاءَنَا شَيْءٌ.. قَضَيْنَاهُ » ، فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر ، فكره منه ذلك ، فقال أنصاري : أنفق يا رسول الله ؛ ولا تخف من ذي العرش إقلالاً ، فتبسم صلى الله عليه وسلم ، وعرف البشر في وجهه ، وقال : « بِهَـٰذَا أُمِرْتُ »[5] .

وقُوِّم ما أعطاه يوم حنين فكان خمس مئة ألف ألف ، قيل : هـٰذا نهاية الجود الذي ما سمع لأحد مثله .

وصح : أنه أتي بمال من البحرين ، فأمر بصبه في المسجد ، وكان أكثر مال أتي به صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية مرسلة : كان مئة ألف ، فخرج للصلاة فلم يلتفت إليه ، ثم بعدها جلس إليه ففرقه[6] ، ومع هـٰذا الجود الواسع الذائع كان صلى الله عليه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢) ، وابن حبان (٦٣٧٣) ، وأحمد (٣/ ١٧٥) ، وأبو يعلىٰ (٣٣٠٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ١٩) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٣) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٣٤) ، ومسلم (٢٣١١) .

(٤) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٣٦٨) ، وجاء الحديث متصلاً عند ابن حبان (٤٨٣٦) ، وأحمد (٣/ ١٩٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣٠٦) ، وغيرهم .

(٥) الشمائل المحمدية (٤٣٩) ، ولـٰكن دون ذكر أنه حمل إليه تسعون ألف... إلىٰ قوله : فرغ منها .

(٦) أخرجه البخاري (٣١٦٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣٥٦) ، وذكر ابن حجر في

وسلم يعيش عيش الفقراء ، ويأتي عليه الشهران لا يوقد في بيته نار ، وربما ربط الحجر علىٰ بطنه الشريف من شدة الجوع ، وجاءه سبي ، فسألته فاطمة في خادم يكفيها مؤنة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال : « لاَ أُعْطِيكِ وَأَدَعُ أَهْلَ ٱلصُّفَّةِ تَطْوَىٰ بُطُونُهُمْ مِنَ ٱلْجُوعِ »[1] .

وإذا علمت اتصافه صلى الله عليه وسلم بهٰذه الأوصاف الجليلة التي لم يوجد مثلها ولا ما يقاربها في مخلوق غيره.. علمت أن من الواجب علىٰ كل من عرف ذلك أن يقول لمن لم يعرفه حق معرفته :

(141)

لَا تَقِسْ بِٱلنَّبِيِّ فِي ٱلْفَضْلِ خَلْقاً ... فَهُــوَ ٱلْبَحْــرُ وَٱلْأَنَـــامُ إِضَـــاءُ

(لا تقس) من : قست الشيء بغيره : قدرته علىٰ مثاله ؛ أي : لا تشبه (بالنبي) الموصوف بما ذكر وهو نبينا صلى الله عليه وسلم (في الفضل) الجامع لتلك الصفات ، بل ولا في كل وصف منها علىٰ حدته ؛ لأن كل وصف من أوصافه وصل فيه إلىٰ غاية لم يلحقه مخلوق فيها (خلقا) نبياً أو ملكاً أو غيرهما ؛ أي : لا تعتقد أن مخلوقاً يساويه أو يقاربه في وصف من أوصاف كماله ؛ لما مر أول الكتاب في شرح قوله : (لم يساووك في علاك. . .) إلخ .

(فهو) لا غيره (البحر) الجامع لكل وصف من أوصاف الكمال ، البالغ إلى النهاية فيه (والأنام) هو كما في « القاموس » : (كسحاب ، والآنام ـ بالمد ـ والأنيم كأمير : الخلق ، أو الجن والإنس ، أو جميع ما هو علىٰ وجه الأرض) اهـ

والمراد هنا : الأول ، بدليل قوله الآتي : (في العالمين) ، (إضاء) ـ بالكسر والمد ـ جمع أضاة كقناة ، وهي : الغدير ، ويجمع أيضاً علىٰ أضًى كقنًى ، وشتان ما بين البحر والغدير ، ففيه مراعاة النظير ، وكيف لا و

« فتح الباري » (١/ ٥١٧) أن الرواية المرسلة عند ابن أبي شيبة .

(١) أخرجه بنحوه الضياء في « المختارة » (٤٦٥) ، وأحمد (١/ ٧٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٤٨٠) .

كُلُّ فَضْلٍ فِي ٱلْعَالَمِينَ فَمِنْ فَضْـ ـــلِ ٱلنَّبِـيِّ ٱسْتَعَـارَهُ ٱلْفُضَـلَاءُ

(كل فضل) وجد (في العالمين) الإنس والملائكة والجن (فـ) هو كائن (من فضل) ذلك (النبي) الأكرم علىٰ ربه من سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين.

وبين (فضل) و (الفضلاء) تجنيس الاشتقاق .

(استعاره) حال من ضمير الظرف المستقر (الفضلاء) لأنه الممد لهم ؛ إذ هو الوارث للحضرة الإلـٰهية ، والمستمد منها بلا واسطة دون غيره ؛ فإنه لا يستمد منها إلا بواسطته ، فلا يصل منها لكامل شيء إلا وهو من بعض مدده وعلىٰ يديه ، فآيات كل نبي إنما هي مقتبسة من نوره ؛ لأنه كالشمس وهم كالكواكب ، فهي غير مضيئة بذاتها ، وإنما هي مستمدة من نور الشمس ، فإذا غابت . . أظهرت أنوارها ، فهم قبل وجوده صلى الله عليه وسلم إنما كانوا يظهرون فضله ، وأنوارهم مستمدة من نوره الفائض ، ومدده الواسع ، ألا ترىٰ أن ظهور خلافة آدم وإحاطته بالأسماء كلها إنما هو مستمد من جوامع الكلم المخصوص به نبينا صلى الله عليه وسلم ، ثم توالت الخلائق إلىٰ زمن بروز جسمه الشريف ، فلما برز . . كان كالشمس ، اندرج في نوره كل نور ، وانطوىٰ تحت منشور آياته كل آية لغيره من الأنبياء ، فلم يعط أحد منهم كرامة أو فضيلة . . إلا وقد أعطي مثلها أو أعظم منها ، كما سبره الأئمة ووضحوه .

ومنه : أن آدم لما أعطي خلق الله تعالىٰ بيده . . أعطي نبينا أنه شق صدره ، وملأه ذلك الخُلُق النبوي ، فتولىٰ من آدم الخلق الجسمي ، ومن نبينا الخلق النبوي ، ولذا كان هو المقصود من خلق آدم ، ومن ثم لم يكن سجود الملائكة . . إلا لنور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي في جبهة آدم ، كما قاله الفخر الرازي .

وإدريس لما أعطي المكان العليَّ . . أعطي نبينا المعراج الأفخم الأعظم .

ونوح لما نجا هو وقومه . . أعطي نبينا أن الله لم يهلك أمته بعذاب عام ، ووقع في « تفسير الرازي » : أنه أعطي مكان السفينة أنه دعا حجراً وهو علىٰ شط ماء ، فانقلع وسبح إلىٰ أن جاء إليه وشهد له بالرسالة[1] .

---

(١) تفسير الرازي (٣٢/ ١٢٥) .

وإبراهيم لما نجا من النار . . نجا نبينا من نار الحرب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ ، وروى النسائي : أنه احترق جلد طفل كله ، فمسحه صلى الله عليه وسلم فصار صحيحاً[1] ، ولما أعطي مقام الخلة . . أعطي نبينا ذلك ، وزاد بمقام المحبة الأرفع من كل مقام ، ومن ثم يقول إبراهيم في الموقف لما يسأل في الشفاعة العظمىٰ : إنما كنت خليلاً من وراء وراء ، ولما أعطي بناء الكعبة . . أعطي نبينا وضع الحجر الذي هو روحها في محله لما بنته قريش .

ولما أعطي موسىٰ قلبَ العصا حية . . أعطي نبينا صلى الله عليه وسلم حنين الجذع الذي هو أبهر وأغرب ، وذكر الرازي وغيره : أن أبا جهل أراد أن يرميه بحجر ، فرأىٰ علىٰ كتفه ثعبانين ، فانصرف مرعوباً .

واليدَ البيضاء التي بياضها يغشي البصر . . أعطي نبينا صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده عباد بن بشر وأسيد بن حضير ليلاً ، فخرجا وبيد كل عصا ، فأضاء لهما عصا أحدهما ، فمشيا في ضوئها ، فلما افترقا . . أضاءت عصا الآخر ، صححه الحاكم[2] .

وأخرج البخاري في « تاريخه » والبيهقي وأبو نعيم عن حمزة الأسلمي قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فتفرقنا في ليلة ظلماء ، فأضاءت أصابعي حتىٰ جمعوا عليها ظهرهم وما هلك منهم وإن أصابعي لتنير[3] .

وانفراقَ البحر . . أعطي نبينا انشقاق القمر الذي هو أبهر[4] ؛ لأنه تصرف في العالم العلوي ، علىٰ أنه نقل : أن بين السماء والأرض بحراً يسمى المكفوف ، وبحر الأرض بالنسبة إليه كقطرة من البحر المحيط ، فعليه يكون انفرق لنبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء .

---

(١) السنن الكبرىٰ (١٠٧٩٦) بنحوه .
(٢) المستدرك (٣/ ٢٨٨) .
(٣) التاريخ الكبير (٣/ ٩٦) ، ودلائل البيهقي (٦/ ٧٩) ، ودلائل أبي نعيم (٢/ ٧٢١) .
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٣٦) ، ومسلم (٢٨٠٠) .

وتفجيرَ الماء من الحجر . . أعطي نبينا تفجيره من بين أصابعه[1] ، وهو أبلغ ؛ لأن الحجر من جنس الأرض التي ينبع منها الماء .

والكلامَ . . أعطي نبينا مثله ليلة الإسراء ، وزيادة الدنو ، والرؤية بعين البصر ، وشتان بين جبل الطور الذي نودي موسىٰ عليه وما فوق العرش الذي نوجي نبينا عليه .

وهارون الفصاحةَ . . أعطي نبينا أبلغ منها وأبهر ، علىٰ أنها في العبرانية ، والعربية أفصح منها ، ومن ثم لم تكن فصاحته معجزة ، بخلاف فصاحة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فإنها معجزة عند بعضهم ، وكذا عند الكل ، لٰكن بالنسبة لما اشتملت عليه من الإخبار بالمغيبات ، ولم يتحد نبي بها إلا نبينا ، ولقد قال له بعض أصحابه : ما رأينا الذي هو أفصح منك! فقال : « وَمَا يَمْنَعُنِي وَإِنَّمَا أُنْزِلَ ٱلْقُرْآنُ بِلِسَانِي ، لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ؟! »[2] .

ويوسف شطرَ الحسن ، وتأويلَ الرؤيا . . أعطي نبينا الحسن كله ، كما في الحديث ، وعبر عن المرائي فوقعت كما عبر ما لا يدخله الحصر ، وتعبير يوسف إنما كان في ثلاث مرائي ، كما في (سورته) .

وداوود تليينَ الحديد . . أعطي نبينا أن العود اليابس اخضر بين يديه ، وأن شاة أم معبد درت ببركة يده ولم تلد قط كما مر .

وسليمان كلامَ الطير . . أعطي نبينا أنه كلمه الحجر ، وسبح في كفه الحصىٰ ، وكلمه ذراع الشاة المسمومة ، والظبي ، وشكا إليه البعير .

والريحَ التي غدوها شهر ورواحها شهر . . أعطي نبينا البراق ، وهو أسرع من الريح ، بل من البرق الخاطف ، فحمله من الفرش إلى العرش في لحظة واحدة ، وأقل مسافة ذلك قريب سبعة آلاف سنة ، وما فوق العرش إلى المستوىٰ والرفرف . . لا يعلمه إلا الله تعالىٰ .

وأيضاً الريح سخرت لسليمان لتحمله إلىٰ نواحي الأرض ، ونبينا صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠) ، ومسلم (٢٢٧٩) .

(٢) أخرجه الرامهرمزي في « أمثال الحديث » (ص ١٥٦) .

وسلم زويت له الأرض ؛ أي : جمعت حتىٰ رأىٰ مشارقها ومغاربها ، وفرق بين من يسعىٰ إلى الأرض ومن تسعىٰ له الأرض .

وتسخيرَ الجن . . أعطي نبينا أن الله مكنه من شيطان تفلت منه في صلاته ، فأراد أن يربطه بسارية ، وسخر له الجن حتىٰ أسلموا ، ولم يسخروا لسليمان . . إلا في العمل .

وعُدَّ الطير من جملة جنوده ، وأعجب منه حمامة الغار وعنكبوته ، بل هـٰذا أعجب ؛ لأن فيه الحماية من العدد الكثير بالشيء القليل .

وعيسىٰ إبراءَ الأكمه والأبرص ، وإحياءَ الموتىٰ . . أعطي نبينا رد العين إلىٰ محلها بعدما سقطت ، فعادت أحسن ما كانت(١) ، وذكر الرازي : أنه صلى الله عليه وسلم مسح برصىٰ فشفيت(٢) ، والبيهقي : أن رجلاً قال : لا أؤمن بك حتىٰ تحيي لي ابنتي ، فأتىٰ قبرها ، فخاطبها فأجابته ، وتسبيح الحصىٰ وحنين الجذع أبلغ من تكليم الموتىٰ ؛ لأن هـٰذا من جنس من يتكلم .

وبالجملة فقد أوتي صلى الله عليه وسلم مثلهم وزاد بخصائص لا تحصىٰ ، إعلاماً بأنه الممد لهم دائماً .

وعدل عن (استعاروه) ليصفهم بالفضل ؛ أي : هم مع كونهم فضلاء كاملين علىٰ بقية العالم إنما يستمدون من محمد صلى الله عليه وسلم لا علىٰ وجه الأصالة والاستقلال به ، بل علىٰ وجه الاستعارة المستحقة للرد إذا أراده المعير ، ولم لا يكون كذلك وقد

(143)

شُقَّ عَـنْ صَـدْرِهِ وَشُـقَّ لَـهُ ٱلْبَـدْ رُ وَمِـنْ شَـرْطِ كُـلِّ شَـرْطٍ جَـزَاءُ

(شق عن صدره) وفي نسخة : (عن قلبه) ، وكل منهما صحيح ؛ لأنه شق عن صدره أولاً ثم قلبه المرة بعد المرة إلىٰ أن تكرر ذلك الشق أربع مرات أو خمساً ، مبالغة في التطهير والتخليص من الأغيار ، ولم يحصل لأحد من الكمَّل نظير ذلك ولا ما يقاربه ، وقد مر الكلام علىٰ ذلك مستوفىً في مبحث رضاعه صلى الله عليه

---

(١) مر تخريج هـٰذه الأحاديث أول الكتاب في مواضع متفرقة .

(٢) تفسير الرازي (٣٢/ ١٢٥ـ١٢٦) .

وسلم . فراجعه فإنه نفيس (**وشق له**) أي : لأجله صلى الله عليه وسلم (**البدر**) أي : القمر بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين لما كذبه كفار مكة وبالغوا في عناده ، فطلبوا منه آية يريها إياهم تدل علىٰ صدقه ، وهي أن ينشق له القمر نصفين ، فسأل ربه ، فانشق له كذلك ، كما نص عليه القرآن ، وتواترت به الأحاديث ، كما حققه التاج السبكي وغيره ، وأجمع عليه المفسرون وأهل السنة ؛ إعلاماً بصدقه في دعواه الرسالة والوحدانية لله تعالىٰ ، وأن ما يعبدونه باطل لا يضر ولا ينفع ، ولم يقع انشقاقه لغيره صلى الله عليه وسلم ، وهو من أمهات معجزاته ، لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء ؛ لظهوره في ملكوت السماوات ، خارجاً عن جملة طباع ما في هـٰذا العالم المركب من الطبائع ، فلم يطمع أحد في الوصول إليه بحيلة .

وفي رواية ما يوهم تعدد الانشقاق مرتين ، وظاهر كلام بعضهم : حكاية الإجماع عليه ، لـٰكن رد بأن أحداً من أئمة الحديث لم يجزم بذلك ، وبأن من قال مرتين . . أراد فرقتين كما في رواية[1] ، أو فلقتين كما في أخرىٰ[2] .

وفي رواية : أن فرقة كانت فوق جبل حراء ، وأخرىٰ كانت أسفله[3] ، فرواية : أنه كان بمكة المراد منها : أن ذلك كان وهُمْ بمكة قبل الهجرة ، فلا دليل فيه علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم كان بمكة ليلته ، وفي رواية لأحمد : فصار فرقتين ، فرقة علىٰ هـٰذا الجبل ، وفرقة علىٰ هـٰذا الجبل[4] ، وفي رواية : أنه قال لهم : « ٱشْهَدُوا » . فقالوا : سحرنا محمد ، ثم اتفقوا علىٰ أن يسألوا السفار ، فجاؤوا من كل جانب ، وأخبروا به ، فقال بعضهم لبعض : لا يستطيع محمد أن يسحر الناس كلهم[5] .

وإنكارُ جمهور الفلاسفة ومن وافقهم من المبتدعة ذلك . . مبنيٌّ علىٰ إنكارهم خرق الأجرام العلوية والتئامها ، وذلك من جملة كفرهم وتقوُّلِهم بمقتضىٰ عقولهم معاندين للشرائع فيما وردت به .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٦٤) .
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٠٠/ ٤٤) .
(٣) بنحوه عند البخاري (٤٨٦٤) ، ومسلم (٢٨٠٠/ ٤٥) .
(٤) مسند أحمد (٤/ ٨١) .
(٥) أخرجه البيهقي في « الدلائل » (٢/ ٢٦٦) وبنحوه الترمذي (٣٢٨٩) ، وأحمد (٤/ ٨١) .

وأما قول بعض الملاحدة : لو وقع هٰذا . . لنقل متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في معرفته ولم يختص بها أهل مكة ؛ لتوفر الدواعي علىٰ نقل العجائب . . فهو من تهوراته ؛ لأن ما قاله إنما يتوجه لو كان نهاراً ، أو أول الليل والناس مستيقظون ، أما إذا وقع لحظة والناس ـ إلا الفذّ[1] ـ قد ناموا ، ومن لم ينم لم ينظر إلى السماء . . فلا يلزم ما ذكره بوجه ، علىٰ أن الإجماع الموافق للقرآن والسنة لا يخدِش فيه مثلُ هٰذه التخيلات الفاسدة ، وكأن هٰذا الملحد لم يسمع بما هو الواقع البديهي : أن الكسوف قد يدركه أهل قطر دون أهل قطر آخر .

وما قيل : إن القمر دخل في جيبه صلى الله عليه وسلم وخرج من كمه . . باطل لا أصل له .

تنبيه : البدر : القمر ليلة أربعة عشر ، وظاهر تعبير الناظم به دون القمر : أن الشق كان ليلة أربعة عشر ، ولم أر له في ذلك سلفاً ، ولعله أراد بالبدر مطلق القمر ، سمي بذلك ؛ لأنه يبادر الشمس بالطلوع ، كأنه يُعجِلها المغيب ، وقيل : لتمامه .

ويناسب هٰذه المعجزة رد الشمس له صلى الله عليه وسلم بعدما غابت حقيقة لما نام صلى الله عليه وسلم ورأسه في حجر علي بالصهباء قرب خيبر حتىٰ غابت الشمس ولم يمكنه إيقاظه ؛ لاحتمال أنه يوحىٰ إليه ، فلما استيقظ . . سأله صلى الله عليه وسلم : أصلى العصر ؟ قال : لا ، فدعا الله أن يردها عليه ؛ لأنه كان في طاعة الله ورسوله ، فردت ليصلي العصر أداءً ؛ كرامة له صلى الله عليه وسلم ، وهٰذا الحديث طعن في صحته جماعة ، بل جزم بعضهم بوضعه ، وصححه آخرون وهو الحق ، وقول أسماء في الرواية الصحيحة : (فرأيت الشمس بعدما غربت حتىٰ وقعت على الجبال وعلى الأرض ، فقام علي فتوضأ وصلى العصر ، ثم غابت) . . رد لزعم : أنها وقفت ولم ترد ، ولزعم : أن حركتها إنما أبطأت فقط ، وفي رواية سندها حسن : أمر صلى الله عليه وسلم الشمس فتأخرت ساعة من نهار ، ومر أنها ردت عليه بعد الإسراء لما أخبرهم بِعيرهم .

ولا يعارض ذلك كله الحديث الصحيح : « لَمْ تُحْبَسِ ٱلشَّمْسُ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلاَّ لِيُوشَعَ

---

(١) الفذّ : الفرد ، والمراد به هنا : القليل أو النادر .

بْن نُونٍ حِينَ قَاتَلَ ٱلْجَبَّارِينَ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ ، فَلَمَّا أَنْ أَدْبَرَتِ ٱلشَّمْسُ . . خَافَ أَنْ تَغِيبَ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْهُمْ وَيَدْخُلَ ٱلسَّبْتُ فَلاَ يَحِلُّ لَهُ قِتَالُهُمْ فِيهِ ، فَدَعَا ٱللهَ فَرَدَّ عَلَيْهِ ٱلشَّمْسَ حَتَّىٰ فَرَغَ مِنْ قِتَالِهِمْ »[1] ، وذلك لأن المراد : علىٰ أحد غيري ، علىٰ أن كثيرين أو الأكثرين من الأصوليين : أن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه .

وروي حبسها يوم الخندق حين شغل عن صلاة العصر ، وذكر البغوي في تفسير : ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ : أنها حبست لسليمان صلى الله عليه وسلم[2] ، ورُد بأن المراد : الصافنات ؛ لأنها المذكورة دون الشمس .

وبين (شق) و (شق) الجناس التام ، وهو : أن يتفق اللفظان حروفاً وعدداً وهيئة ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ ، واعترض بأن الساعة في الموضعين بمعنىً واحد ، وشرطه : اختلاف المعنىٰ ، وأن لا يكون أحدهما حقيقة والآخر مجازاً ، بل حقيقتين ، وزمان الساعة وإن طال لـٰكنه عند الله تعالىٰ في حكم الساعة الواحدة ، فإطلاق الساعة على القيامة مجاز ، وعلى الآخر حقيقة ، وذلك يخرج الكلام عن التجنيس ، كما لو قلت : ركبت حماراً ، ولقيت حماراً ، يعني : بليداً . اهـ

فإن قلت : هـٰذا يأتي هنا ؛ لأن الشق في الموضعين بمعنىً واحد ، وبتسليم الاختلاف فهو في أحدهما حقيقة ، وفي الآخر مجاز .

قلت : يمكن أن يقال : إنه فيهما مختلف وحقيقي ؛ إذ شق الأجرام الجمادية غير شق الأجرام الحيوانية من حيث الصورة والآلة ، وأيضاً فشق القمر شق جرمه كله ، وشق الصدر إزالة غشائه لا غير ، وكفىٰ بهـٰذا اختلافاً ، ثم المتبادر من كل منهما : أنه حقيقي كما لا يخفىٰ ، قيل : ليس في القرآن من الجناس التام غير هـٰذه الآية ،

---

(١) حديث رد الشمس اختلف فيه العلماء ما بين مثبت له ونافٍ ، انظر « الشفا » (ص ٣٤٧) ، و« فتح الباري » (٦/ ٢٢١) ، و« البداية والنهاية » (٦/ ٦٧١) ، و« سبل الهدىٰ والرشاد » (٩/ ٦٠٥) ، و« تنزيه الشريعة » لابن عراق (١/ ٣٧٨) ، وانظر أيضاً كلام الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه علىٰ « المصنوع » (ص ٢٦٥) .

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٦١) .

واستدرك عليه شيخ الإسلام ابن حجر بآية : ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۝ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ، فإنه استعمل (الأبصار) أولاً بمعنى العيون ، وثانياً بمعنى البصائر ، وقد ينظر فيه بأن استعمال الأبصار في البصائر مجازي ، وقد تقرر أنه لا يكفي ، وقد يجاب بادعاء أنه حقيقة عرفية ، وعلىٰ كل فأقول : إن في القرآن آية أخرىٰ أظهر من تينك ، وهي : ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، فالأول : ما كتبوه بأيديهم المذكور في : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ، والثاني : التوراة والإنجيل ، والثالث : الجنس الشامل لكتب الله كلها ؛ أي : ما هو شيء من كتب الله .

فإن قلت : هٰذا أعم من الثاني ، فليس مغايراً له من كل وجه .

قلت : بل يسمىٰ مغايراً له حقيقة كما صرحوا به ، وعلى التنزل فإن هٰذا التغاير لا يكفي هنا فيكفي التغاير بين اللفظين الأولين ، فيتحقق الجناس التام فيهما .

فإن قلت : لم لم يعدوا منه : ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ. . .﴾ إلخ ؟

قلت : كأنه لكونه هنا مميزاً يمنع تمام التجنيس ، وهو (الباء) الدالة على المقابلة . فتأمله .

فإن قلت : لم اكتفوا في التورية بكون أحدهما مجازاً إلا هنا ؟

قلت : لوضوح الفرق ؛ إذ مبنى التورية علىٰ قصد المعنى البعيد ، والمجاز قد يكون كذلك ، ولا كذلك الجناس التام ، فلم يكف فيه كون أحدهما مجازاً ، ومن ثم أقر بعض المحققين بشرط كونهما حقيقتين ، وعليه يحتمل أن يقال : لا بد أن يكون كلٌّ حقيقةً في الشرع أو في العرف أو في اللغة ، فلا يكفي كون أحدهما حقيقة شرعية والآخر حقيقة لغوية مثلاً ؛ لأن هٰذين كالحقيقة والمجاز ، وقد تقرر أنهما لا يكفيان ، ويحتمل أن يقال : يكفي ذلك ، ويؤيده إطباقهم علىٰ أن الآية فيها الجناس التام ، مع أن حقيقة الساعة لغة أو عرفاً أو شرعاً شيء واحد ، وإنما الاختلاف من حيث إنها في مطلق الزمن حقيقة لغوية ، وفي القيامة حقيقة شرعية ، وهٰذا الثاني أقرب ، ومما يؤيد اشتراط كونهما حقيقتين أنه ما من لفظ غالباً أو دائماً إلا وله حقيقة ومجاز ، فلو قلنا : بأنه يكفي كون أحدهما مجازاً . . لزم وجود التجنيس في غالب الألفاظ أو كلها ، وهو بعيد جداً ، ولك أن تأخذ من قولهم : ليس في القرآن جناس

تام إلا ما مر ـ مع ما فيه ـ من نحو : ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ ، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ ، ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ﴾ ونحو ذلك : أن شرط الجناس التام : أن لا يكون في اللفظ قرينة ظاهرة تدل علىٰ مغايرة معنى اللفظ المتحد ، وهو متجه ؛ لأنه مع فهم التغاير ليس فيه تعمية أصلاً ، ومبنى الجناس التام إنما هو التعمية على السامع ما أمكن ، نظير التورية ، ولم أر لأحد من أهل البديع في هـٰذا المبحث ما يشفي الغليل . فتأمله .

فإن قلت : ما ذكر في (شق) من الاختلاف إنما هو بالنظر لمتعلق الشقين دون موضوعهما ، وذلك لا يكفي .

قلت : هـٰذا وإن كان ظاهرَ كلامهم إلا أنه لا يمنع من أن يلحق به اختلافهما من حيث المتعلق إذا تباينت به صورتهما .

(و) إنما شق له القمر ؛ لأنه شق عن صدره حتىٰ أخرج قلبه ، ثم شق وطهر ، فجوزي علىٰ ذلك ؛ إذ (من شرط كل شرط) وقع في البدن لغرض مقصود أن يكون له (جزاء) أي : من برء من مرض أو غيره ، فكذا هنا ، لما روع صلى الله عليه وسلم بشق قلبه المرة بعد المرة ، وبما حصل له من الخوف والتألم. . جوزي علىٰ ذلك بجزاء عظيم مشابه له في الصورة ، وهو شق القمر الذي هو أظهر معجزاته وأبهرها بعد القرآن .

وفي كلامه الجناس التام بين (شرط) و (شرط) إذ هما مختلفان معنىً وحقيقة ، ولا يقدح فيه كون الأول حقيقة نحوية ، والثاني حقيقة عرفية ، علىٰ أن الأول يحتمل أن يكون بمعنى العلامة ، فيكون ـ مع كون الثاني بمعنى الجرح ـ كلٌّ منهما حقيقة لغوية ، فجاء التجنيس التام اتفاقاً ، وبفرض أن أحدهما مجاز. . يكون فيه التورية ، أو حقيقة أيضاً ـ ولـٰكنه أَبعدُ فَهْماً من اللفظ ـ يكون فيه الجناس التام والتورية ، ومر الكلام فيها مستوفىً ؛ إذ الشرط المراد به في الأول : ما علق بحصوله حصول شيء آخر يسمىٰ جزاء ، وفي الثاني : شق الجلد واللحم ، والجزاء فيه تورية أيضاً ؛ إذ هو يطلق على الجزاء النحوي والجزاء العرفي ، وهو : المجازاة علىٰ صنيع وقع منه ، ومنه : جزيته وجازيته بما صنع ، جزاء ومجازاة .

وَرَمَىٰ بِـالْحَصَـىٰ فَـأَقْصَـدَ جَيْشـاً مَـا الْعَصَـا عِنْـدَهُ وَمَـا الْإِلْقَـاءُ

(و) من معجزاته صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه في غزوة بدر وغزوة حنين (رمىٰ) أعداءه (بالحصىٰ فأقصد) أي : أصاب فأهلك ، ففي « القاموس » : (أقصد السهم : أصاب فقتل مكانه) .

(جيشاً) عظيماً كانوا تألبوا عليه حتىٰ ظن ظان أنهم لا يُبْقون أحداً من المسلمين ، وبيان ذلك : أنه لما التقى الجمعان يوم بدر . . تناول صلى الله عليه وسلم كفاً من الحصىٰ ، فرمىٰ به في وجوههم وقال : « شَاهَتِ ٱلْوُجُوهُ » أي : قبحت وانهزمت ، فلم يبق مشرك ـ مع كثرتهم وقلة ذلك الحصىٰ ـ إلا دخل في عينيه ومنخريه منها شيء ، فانهزموا[1] ، فقتل الله من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ : هـٰذا يوم بدر ، أخذ صلى الله عليه وسلم ثلاث حصيات ، فرمىٰ بحصاة في ميمنة القوم ، وبحصاة في ميسرة القوم ، وبحصاة بين أظهرهم ، وقال : « شَاهَتِ ٱلْوُجُوهُ » ، فانهزموا[2] .

وكذلك روىٰ غير واحد : أنها نزلت في رميه يوم بدر ، وإن كان رمىٰ في غيره ، ولأهل الجبر في هـٰذه الآية غلط لا بأس بذكره ثم رده ، قالوا : فيها سلب فعل النبي صلى الله عليه وسلم عنه وإضافته إلىٰ ربه ، وهو عين الجبر ، وإبطال نسبة أفعال العباد إليهم ، وليس كما زعموا ، وإلا . . لزمهم أن لا تكليف ولا عقاب ، وسر ما في الآية : أن تلك الرمية من البشر لما لم تبلغ هـٰذا المبلغ . . كان منه صلى الله عليه وسلم مبدؤها ، وهو الحذف ، ومن الرب تعالىٰ نهايتها ، وهو الإيصال ، فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه ، ونفىٰ عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته .

ونظير هـٰذا : في الآية نفسها : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٢٠٣) بنحوه .
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٩/ ١٣٦) .



المنفرد بالتأثير ، وأن غيره ليس منه إلا أسباب تظهر للناس .

قيل : ورماهم بالحصىٰ يوم الأحزاب ، وفيه نظر ، وإنما الذي نقل : أنه صلى الله عليه وسلم لما بلغت القلوب الحناجر . . دعا عليهم فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ مُنْزِلَ ٱلْكِتَابِ ، سَرِيعَ ٱلْحِسَابِ ، ٱهْزِمِ ٱلأَحْزَابَ ، اَللَّهُمَّ ؛ ٱهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ »[١] فأرسل الله عليهم الريح ، فرمتهم بالحصىٰ ، وسفت عليهم التراب ، وقلعت أوتاد خيامهم ، فسقطت عليهم ، وكفأت قدورهم ، وسمعوا في أرجاء معسكرهم التكبير وقعقعة السلاح ، فارتحلوا خائبين آيسين ، ومن ثم أخبر صلى الله عليه وسلم : أنهم لا يغزونهم بعد اليوم ، فكان كذلك .

ولما التقى الجمعان يوم حنين . . استقبل المسلمون من هوازن ما لم يروا مثله من السواد والكثرة ، فحملوا حملة واحدة ، فانهزم المسلمون ، ولم يبق معه صلى الله عليه وسلم يومئذ إلا أناس قليلون من أهل بيته : العباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعلي ، والفضل ، وأصحابه : أبو بكر ، وعمر ، وآخرون رضي الله تعالىٰ عنهم ، فأمر صلى الله عليه وسلم أن ينادىٰ في الناس ليرجعوا ، فلما سمعوا نداءه . . أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت علىٰ أولادها يقولون : يا لبيك ، يا لبيك ، فاقتتلوا مع الكفار ، واشتد القتال حتىٰ قال صلى الله عليه وسلم : « حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ » وهو : التنور الذي يخبز فيه ؛ أي : اشتد حر الحرب حتىٰ أشبهت التنور ، وحينئذٍ تناول صلى الله عليه وسلم حصيات من الأرض ، ثم قال : « شَاهَتِ ٱلْوُجُوهُ » ورمىٰ بها في وجوه المشركين ، فما خلق الله منهم إنساناً . . إلا ملأ عينيه من تلك القبضة[٢] ، وفي رواية لمسلم : (قبضة من تراب)[٣] ، والجمع : أنه يحتمل أنه رمىٰ بكل مرة ، أو أنها قبضة واحدة لـٰكنها مختلطة .

وفي رواية عند أحمد وغيره : أن المسلمين لما ولوا . . قال صلى الله عليه وسلم : « أَنَا عَبْدُ ٱللهِ ، أَنَا عَبْدُ ٱللهِ وَرَسُولُهُ »[٤] ثم اقتحم عن فرسه وأخذ كفاً من تراب ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤١١٥) ، ومسلم (١٧٤٢) .
(٢) أخرجه مسلم (١٧٧٥) ، وابن حبان (٧٠٤٩) ، وأحمد (١/ ٢٠٧) بمعناه .
(٣) مسلم (١٧٧٧) .
(٤) مسند أحمد (٣/ ١٩٠) .

فضرب وجوههم وقال : « شَاهَتِ ٱلْوُجُوهُ » ، فلم يبق منهم أحد. . إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً .

ولأحمد والحاكم عن ابن مسعود : فحادت به بغلته ، فقلت : ارتفع رفعك الله ، فقال : « نَاوِلْنِي كَفّاً مِنْ تُرَابٍ » فضرب وجوههم ، وامتلأت عيونهم تراباً ، وجاءه المهاجرون والأنصار ، سيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب ، فولى المشركون الأدبار[1] .

وإذ قد علمت ما ترتب علىٰ رميه صلى الله عليه وسلم بالحصىٰ من تشتيت شملهم ، وافتراق جمعهم وهزيمتهم. . فإن لك أن تقول لمن قال لك : إن إلقاء موسىٰ لعصاه ، والسحرة لحبالهم وعصيهم يعادل الرمي بالحصىٰ : لا تقل ذلك .

(ما) استفهام إنكاري (العصا) التي ألقاها موسىٰ علىٰ حبال سحرة فرعون وعصيهم حتى ابتلعت ذلك (عنده) أي : الحصى المرمي (وما الإلقاء) لتلك العصا علىٰ تلك الحبال والعصي الذي فعله سحرة فرعون ؛ أي : لا تقاس معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم في إلقاء ذلك الحصىٰ بمعجزة موسىٰ عليه الصلاة والسلام في إلقاء عصاه علىٰ ما ذكر ؛ لأن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم أظهر وأبهر ؛ إذ إلقاء موسىٰ لعصاه حاكىٰ إلقاء السحرة لحبالهم وعصيهم ، ومعجزة نبينا لم تحاك قط ، ووصول تلك الحصيات القليلة إلىٰ جميع ذلك الجيش الذي هو ألوف مؤلفة حتىٰ هزمهم عن آخرهم وشتت شملهم. . أبهر من قلب العصا ثعباناً وابتلاعها لتلك الحبال من حيث إنها مع ذلك لم تقهر العدو ولا شتَّتَتْ شملهم ، بل زاد بعدها طغيانه وعتوه علىٰ موسىٰ وقومه .

وجانس بين (الحصىٰ) و(العصا) ، وتفنن بين (رمىٰ) و(الإلقاء)[2] .

تنبيه : أكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية ؛ لبلادتهم وعمىٰ بصيرتهم ، وأكثر معجزات هـٰذه الأمة عقلية ؛ لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ، ولأن هـٰذه الشريعة لما

---

(١) مسند أحمد (١/ ٤٥٣) ، ومستدرك الحاكم (٢/ ١١٧) .

(٢) قوله : (جانس. . .) أي : جناساً مضارعاً ؛ لأن الحرفين اللذين وقع الاختلاف فيهما متقاربا المخرج . والتفنن أو الافتنان : هو الجمع بين فنين مختلفين ، كالمدح والهجاء ، والغزل والرثاء ، وليس مراداً هنا ؛ إذ المراد : مطلق التنوع اللفظي ؛ والله أعلم .

كانت باقية علىٰ صفحات الدهر إلىٰ يوم القيامة . . خصت بالمعجزات العقلية الباقية ؛ ليراها ذوو البصائر ، كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث البخاري : « مَا مِنَ ٱلأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ ٱلْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ ٱلَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْياً أَوْحَاهُ ٱللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً »[1] ، وفي معناه قولان غير متنافيين ؛ إذ يرجع حاصلهما إلىٰ أن المراد : أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم مع كونها حسية تشاهد بالأبصار ، كعصا موسىٰ ، وناقة صالح ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة ، وتستمر إلىٰ يوم القيامة ، لا يمر عصر إلا ويظهر فيه شيء أخبر بأنه سيكون ، فكان من يتبعه لأجلها أكثر ؛ إذ ما يدرك بالعقل يشاهده كل من جاء بعد الأول .

(145)

وَدَعَا لِلْأَنَامِ إِذْ دَهِمَتْهُمْ سَنَةٌ مِنْ مُحُولِهَا شَهْبَاءُ

(و) من معجزاته أيضاً أنه (دعا للأنام) مر تفسيره ، لٰكن المراد به هنا غيره ثَم ؛ إذ هم هنا أهل المدينة ومن ضاهاهم (إذ) أي : وقت ، أو لأجل أن (دهمتهم) أي : غشيتهم (سنة من) أجل (محولها) متعلق بما بعده ؛ أي : شدة جدبها وقحطها (شهباء) أي : لا خضرة فيها ولا مطر ، والسنة : زمن الجدب والمحل ، ومطلق الزمن المخصوص ، فعلى الأول (شهباء) توكيد ، وعلى الثاني تأسيس .

وسبب دعائه : ما في « الصحيحين » : أن الناس أصابتهم سنة علىٰ عهده صلى الله عليه وسلم ، فقام أعرابي وهو صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فقال : يا رسول الله ؛ هلك المال ، وجاع العيال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه وليس في السماء قطعة سحاب ، فما وضعهما حتىٰ صار السحاب أمثال الجبال ، فلم ينزل حتىٰ أصابه المطر ، واستمر إلى الجمعة الأخرىٰ ، فقام ذلك الأعرابي أو غيره فقال : يا رسول الله ؛ تهدم البناء ، وغرق المال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا » فأقلعت السحاب ، وخرجوا يمشون في الشمس ، وسال وادي

---

(١) البخاري (٤٩٨١) .

قَناة شهراً ، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود[1] ، وهو ـ بفتح الجيم ـ : المطر الواسع الغزير .

146

فَـاَسْتَهَلَّـتْ بِـالْغَيْـثِ سَبْعَـةَ أَيَّـا مٍ عَلَيْهِـمْ سَحَـابَــةٌ وَطْفَــاءُ

(فـ) بسبب دعائه صلى الله عليه وسلم (استهلت بالغيث) أي : صبت المطر بشدة (سبعة أيام) كوامل ؛ لما علمت أنه من خطبة الجمعة إلىٰ خطبة الجمعة الأخرىٰ بإلغاء الكسر (عليهم سحابة) فاعل (استهلت) (وطفاء) أي : مسترخية الجوانب ـ لكثرة مائها ـ حال كونها

147

تَتَحَـرَّىٰ مَـوَاضِـعَ الـرَّعْـيِ وَالسَّقْـ ـيِ وَحَيْثُ الْعِطَاشُ تُوهَى السِّقَاءُ

(تتحرىٰ) أي : تقصد تلك السحابة بمائها ، وإسناد ذلك إليها مجاز ، نظير ما يأتي في : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ ، إلا أن يراد الملائكة الموكلون بها (مواضع الرعي) أي : الكلأ الذي يرعىٰ (و) مواضع (السقي) التي يجتمع الماء فيها لتشرب منها البهائم .

وفي (الرعي) و(السقي) مراعاة النظير ، و(السقي) و(السقاء) تجنيس شبه الاشتقاق .

(و) تتحرىٰ أيضاً (حيث العطاش) أي : مواضعهم التي (توهىٰ) بالبناء للمفعول ؛ أي : تخرق (السقاء) منهم فيها ؛ أي : أن تلك السحابة عمت جميع الأماكن بمائها ، حتىٰ إنها تتحرى الأماكن المعطشة التي تتخرق أسقية العطاش فيها ، فيحتاجون إلى الغدران للشرب منها ، وهـٰذا أظهر وأولىٰ مما سلكه الشارح ، كما يعرف بتأملهما ، لا يقال : مواضع السقي تشمل مواضع الشرب ، فلا يحتاج لقوله : (وحيث . . .) إلخ ؛ لأنا نقول : قرينة قرن السقي بالرعي تصرفه إلىٰ سقي البهائم ،

---

(١) البخاري (٩٣٣) ، ومسلم (٩/٨٩٧) . وقناة : وادٍ من أودية المدينة .

فاحتاج في إفادة عمومها إلى التصريح بمواضع شرب العطاش أيضاً .

قال الشارح أيضاً : (وفي قوله : « وحيث العطاش. . . » إلخ اقتباس المثل ، فهو كقولهم : [من الرجز]

خَلِّ سَبِيلَ مَنْ وَهَىٰ سِقَاؤُهُ وَمَنْ هُرِيقَ فِي ٱلْفَلَاةِ مَاؤُهُ

فإنه يضرب لمن لا يستقيم أمره[1] ، فضرب به المثل هنا في المحل والجدب) اهـ ملخصاً ، وفيه نظر ؛ لبعد معنى المثل مما نحن فيه إلا بتكلف ؛ لما تقرر أن مراد الناظم : ما دلت عليه عبارته من ذلك النص علىٰ عموم ذلك الغيث لجميع الأماكن .

(148)

وَأَتَى ٱلنَّاسُ يَشْتَكُونَ أَذَاهَا وَرَخَاءٌ يُؤْذِي ٱلْأَنَامَ غَلَاءُ

(و) لما استمرت عليهم سبعة أيام وكادت أن تهلكهم. . (أتى الناس) إليه صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر كحاله يوم سألوه أن يدعو بها (يشتكون أذاها) أي : تلك السحابة ؛ أي : الماء النازل منها ؛ لقطعه السبل ، وتعطيله المعاش ، وتخريبه البيوت ، وذكر (الناس) مع أن الشاكي واحد ؛ لأن ما به بهم ، فكان الكل شاكين بلسان الحال ، فلذا أسنده إلىٰ كلهم ، ونظيره قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ ﴾ إذ المراد بـ(الناس) الأول واحد كما هنا (ورخاء) أي : سعة من المطر (يؤذي الأنام غلاء) أي : شدة عظيمة ، وأصله : ارتفاع السعر المؤدي إلى الشدة .

وبين (أذاها) و(يؤذي) جناس الاشتقاق ، و (الرخاء) و (الغلاء) جناس التضاد .

(149)

فَدَعَا فَٱنْجَلَى ٱلْغَمَامُ فَقُلْ فِي وَصْفِ غَيْثٍ إِقْلَاعُهُ ٱسْتِسْقَاءُ

(فـ) بسبب أن هـٰذا الرخاء الذي المقصود منه حياة النفوس انتقل إلىٰ ضده وهو

(١) وقال الميداني في « مجمع الأمثال » (١/ ٥٨٣) : (يضرب لمن كره صحبتك وزهد فيك) .

إهلاكها . . (دعا) صلى الله عليه وسلم ربه أن يكشفه عنهم (فانجلى الغمام) أي : السحاب عقب دعائه صلى الله عليه وسلم ، وخرجوا يمشون في الشمس كما مر ، وإذا تقرر هٰذا . . (فقل) أيها العالم بهٰذه الواقعة ما شئت من الكلام الدال على التعجب ، أو فتعجب (في وصف غيث إقلاعه) أي : انكشافه (استسقاء) أي : ذو استسقاء ، علىٰ خلاف المتعارف ؛ إذ الاستسقاء غالباً إنما يكون لطلب وجوده ، لا لطلب رفعه ، وبهٰذا يندفع قول الشارح : (الأحسن : أن الاستسقاء بمعنى السقي) ؛ لأنه يلزمه فوات هٰذه النكتة التي هي سبب التعجب .

(150)

ثُمَّ أَثْرَى ٱلثَّرَىٰ فَقَرَّتْ عُيُونٌ ... بِقُرَاهَا وَأُحْيِيَتْ أَحْيَاءُ

(ثم) بعد ذلك الغيث الواسع النافع ببركة دعائه صلى الله عليه وسلم (أثرى الثرىٰ) أي : كثر المطر الواقع عليه حتىٰ كثرت فوائد التراب ؛ لكثرة إنباته الزرع والثمار المؤدية إلىٰ كثرة الأموال ، من : أثرى الرجل : كثر ماله (فـ) بسبب هٰذه الكثرة (قرت) أي : فرحت واطمأنت ، من : أقر الله عينه ؛ أي : أعطاه حتىٰ لا تطمح عينه إلىٰ من هو فوقه (عيون) لأهل المدينة (بـ) سبب ما زال عنهم من الكرب ، وحصل لهم من الخصب ، وبسبب عمارة (قراها) أي : العيون ، أو المدينة وبلادها بتلك الفوائد الكثيرة بعد خرابها (وأحييت) بعد ما حصل لها من الجدب والشدة ما صيرها كالموتىٰ ، من : أحياه الله فحيي بالفك ، وحي بالإدغام وهو الأكثر (أحياء) جمع حي ؛ أي : قبائل العرب بواسطة إحياء نفوسها ومواشيها .

وفيه تجنيس الاشتقاق في (أثرى الثرىٰ) ، و(قرت) و(قراها) ، و (أحييت) و(أحياء) .

(151)

فَتَرَى ٱلْأَرْضَ غِبَّهُ كَسَمَاءٍ ... أَشْرَقَتْ مِنْ نُجُومِهَا ٱلظَّلْمَاءُ

(فترىٰ) أنت لو شاهدت تلك الواقعة (الأرض غبه) أي : عقب ذلك الغيث المتولد عنه ما يدهش الأبصار من النبات والزهور (كسماء) حال إن جُعلت رأىٰ

بصرية وهو الظاهر ، أو مفعول ثان إن جُعلت علمية (أشرقت) أي : زالت عنها (من) أجل (**نجومها الظلماء**) ففيه تجوز ؛ إذ الإشراق إنما يستعمل للنور ، ووجه الشبه : ما حصل للأرض بإصابة الغيث ، وللسماء من النجوم ، من زوال ظلمتها الحقيقية في السماء ، والمجازية في الأرض .

وبين (الأرض) و (السماء) ، و(الإشراق) و (الظلمة) الطباق ، وتراها أيضاً

(152)

تُخْجِلُ ٱلدُّرَّ وَٱلْيَوَاقِيتَ مِنْ نَوْ رِ رُبَاهَا ٱلْبَيْضَاءُ وَٱلْحَمْرَاءُ

(تخجل) أي : تحير وتدهش (الدر) أي : اللؤلؤ (واليواقيت) وهي فارسي معرب ، وإسناد الخجل إليها مجاز ، وهو علىٰ حذف مضاف ؛ أي : أهلهما ، بمعنىٰ : أن من بأيديهم تلك الجواهر يشاهدونها ليلاً ونهاراً ، لا يملكون نفوسهم عن رؤية تلك الأزهار الغريبة والأعشاب العجيبة (من نور) ـ بفتح النون ـ أي : زهر ، وهو بيان لفاعل (تخجل) الآتي (رباها) ـ بضم الراء ـ : المحال المرتفعة منها ، وخصت ؛ لأن ما بها أنضر وأبهىٰ من بقيتها (البيضاء) راجع لـ(الدر) (والحمراء) راجع لـ(اليواقيت) أي : يخجل نورُها الأبيضُ الدرَّ ، ونورُها الأحمرُ اليواقيتَ ، ففيه اللف والنشر المرتب ، ومراعاة النظير بذكر المعدنين ، والتقابل بذكر الضدين ، ويسمى التدبيج ؛ لأنه ألوان .

وما تقرر : أن الناظم إنما أراد القصة المذكورة التي كانت بالمدينة وصحت بها الأحاديث . . هو الظاهر ، ويجوز أن يريد أيضاً : ما وقع بمكة علىٰ ما ورد : أن قريشاً لما أبطؤوا عن الإسلام ، ودعا عليهم صلى الله عليه وسلم بالقحط ، فأخذتهم سنة حتىٰ هلكوا فيها ، وأكلوا الميتة والعظام . . جاءه أبو سفيان فقال : يا محمد ؛ جئت تأمر بصلة الرحم ، وإن قومك هلكوا ، فادع الله ، فدعا ، فسقوا الغيث ، فأطبقت عليهم سبعاً ، فشكا الناس كثرة المطر ، فسأل الله رفعه[(١)] .

ولما ذكر من صفاته صلى الله عليه وسلم الباهرة ما يشوق كل سامع لشيء منها إلىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٧) ، ومسلم (٢٧٩٨) بنحوه .

رؤية وجهه الكريم صلى الله عليه وسلم . . تمنىٰ ذلك فقال :

(153)

لَيْتَـهُ خَصَّنِـي بِـرُؤْيَـةِ وَجْـهٍ زَالَ عَـنْ كُـلِّ مَـنْ رَآهُ ٱلشَّقَـاءُ

(ليته) هي لتمني ما لا طمع في حصوله ، أو ما فيه عسر (خصني برؤية وجه) أي : ليتني أدركت زمنه لأكون من أصحابه ؛ إذ هم أفضل من جميع من جاء بعدهم عند الأكثرين ، وذهب ابن عبد البر إلىٰ أنه يمكن أن يكون فيمن بعدهم من هو أفضل من بعضهم ؛ للخبر الحسن ، بل قيل : إنه يرتقي إلىٰ درجة الصحة : « مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ ٱلْمَطَرِ ، لاَ يُدْرَىٰ آخِرُهُ خَيْرٌ أَمْ أَوَّلُهُ »[1] ، وللخبر الحسن أيضاً : « لَيُدْرِكَنَّ ٱلْمَسِيحُ أَقْوَاماً إِنَّهُمْ لَمِثْلُكُمْ أَوْ خَيْرٌ ثلاثاً »[2] ، وفي حديث أبي داوود والترمذي : « يَأْتِي أَيَّامٌ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ » قيل : منهم أو منا ؟ قال : « مِنْكُمْ »[3] ويجاب عن الأول : باحتمال أنه قبل أن يعلم أفضلية أصحابه ، فلما علمها . . صرح بها بقوله : « لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِلْءَ ٱلأَرْضِ ذَهَباً . . لَمْ يَبْلُغْ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ »[4] ، وبقوله : « خَيْرُ ٱلْقُرُونِ قَرْنِي »[5] ، وعن الثاني : بأن (أو) فيه تحتمل ذلك أيضاً ، وعن الثالث : بأنهم صرحوا بأن مجرد زيادة الثواب لا يقتضي الأفضلية ، علىٰ أن أفضلية الصحبة لا يعادلها عمل ، ومن ثم لما سئل ابن المبارك عن عمر بن عبد العزيز ومعاوية رضي الله عنهما : أيهما أفضل ؟ . . قال : للغبار الذي دخل في أنف فرس معاوية رضي الله عنه مع رسول الله خير من مئة مثل عمر بن عبد العزيز ، وأشار بعضهم إلىٰ أن

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٢٢٦) ، والترمذي (٢٨٦٩) ، وأحمد (٣/ ١٣٠) ، والبزار (١٤١٢) ، وأبو يعلىٰ (٣٤٧٥) ، وانظر « فتح الباري » (٧/ ٦) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٥٦٧) .

(٣) أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) .

(٤) أخرجه بهـٰذا اللفظ أبو بكر الخلال في « السنة » (٢/ ٤٨١) ، وهو عند البخاري (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤٠) ، وأبي داوود (٤٦٢٥) ، والترمذي (٣٨٦١) ، وابن ماجه (١٦١) بلفظ : « مثل أحد ذهباً » .

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٥١) ، ومسلم (٢٥٣٣) بنحوه .

محل الخلاف في صحابي لم يحصل له إلا مجرد الرؤية ، وأما من زاد علىٰ ذلك بنحو رواية أو غزو . . فلا نزاع فيه .

أو ليتني أراه في الموقف وعلى الحوض وفي الجنة شافعاً نافعاً .

أو ليتني أراه في النوم رؤية تدل على اعتنائه بي ؛ لإخباره صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة بأن من رآه فيه . . فقد رآه حقاً ، وأن الشيطان لا يتمثل بصورته ولا يتشبه بها ، وبأن من رآه فيه . . فقد رآه في اليقظة ، لما تقرر أن الشيطان لا يتشبه به[1] ، فهو وإن أمكن من التصور بأي صورة أراد لم يمكن من التصور بصورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مطلقاً ، وقال جمع : إن رئي بصورته التي كان عليها ، وقال بعضهم : إن رئي بصفته التي قبض عليها حتىٰ عدد شيبه ، وصح عن ابن سيرين وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما يفهمه[2] وفي حديث ضعيف : « إِنِّي أُرَىٰ فِي كُلِّ صُورَةٍ »[3] وصحح النووي وغيره : أنه يرىٰ حقيقة ولو علىٰ غير صفته[4] .

وقال ابن العربي وغيره : لـٰكن رؤيته علىٰ غير صفته مثال ، فرؤيته مقبلاً أو بصورة حسنة كاملة . . تدل علىٰ خير ، وعكسه بعكسه .

وقال عياض في رواية مسلم : « مَنْ رَآنِي . . فَسَيَرَانِي فِي ٱلْيَقَظَةِ »[5] : يحتمل أن المراد : رؤيته علىٰ صفته موجبة لرؤيته في الآخرة علىٰ نوع مخصوص ، كقربه منه ، أو شفاعته له ، وفي هـٰذا أقوال أخر كثيرة .

وقال الغزالي في رؤيته علىٰ صفته : ليس المراد : رؤية ذاته حقيقة ، بل مثال يحكيها على التحقيق ، كما في رؤية الله تعالىٰ ؛ إذ لا صورة له ترىٰ ، بل معرِّف لها من نور أو غيره .

---

(١) انظر البخاري (١١٠) و(٦٩٩٣) ، ومسلم (٢٢٦٦) .

(٢) انظر « مستدرك الحاكم » (٤/ ٣٩٣) ، و« فتح الباري » (١٢/ ٣٨٤) .

(٣) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٣/ ٦٣٦) ، وذكر ابن حجر في « الفتح » (١٢/ ٣٨٤) أن ابن أبي عاصم أخرجه عن أبي هريرة ، ثم قال : (وفي سنده صالح مولى التوأمة ، وهو ضعيف لاختلاطه ، وهو من رواية مَنْ سمع منه بعد الاختلاط) .

(٤) شرح صحيح مسلم (١٥/ ٢٥) .

(٥) مسلم (٢٢٦٦) .

أو ليتني أراه في يقظتي ، بناء علىٰ إمكان ذلك ، وهو ما حكاه ابن أبي جمرة والبارزي واليافعي وغيرهم عن جماعة من التابعين ومن بعدهم : أنهم رأوه في المنام ، فرأوه بعد ذلك في اليقظة ، وسألوه عن أشياء غيبية فأخبرهم بها ، فكانت كما أخبر ، قال ابن أبي جمرة : وهـٰذا من جملة كرامات الأولياء ، فيلزم منكرَها الوقوعُ في ورطة إنكار كراماتهم[1] .

وفي « منقذ الغزالي » : أن أرباب القلوب في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، ويقتبسون منهم فوائد[2] .

وقال البدر حسن الأهدل : وقوعها للأولياء تواترت بأجناسها الأخبار ، وصار العلم بذلك قوياً انتفىٰ عنه الشك ، وما تواترت عليه أخبارهم لم يبق فيه شبهة ، ثم أخذ ـ يعني : الأهدل ـ يبطل ذلك ويفسده ويعظم النكير علىٰ مجوزه بما لا حجة فيه ، ومما يبطل جميع ما دندن به وجاوز فيه الحد : أن من المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم حي في قبره ، وأنه لا يراه في اليقظة الرؤية النافعة إلا ولي ، وأنه لا يبعد : أن من أكرم برؤيته . . أن يكرم بإزالة الحجب بينه وبينه ، فهو صلى الله عليه وسلم ـ مع كونه في قبره ـ يراه الأولياء في اليقظة في قبره ويحادثونه وإن بعدت ديارهم واختلفت مراتبهم في الحالة الواحدة ، ولا يلزم من وقوع ذلك لهم علىٰ جهة الكرامة الباهرة أنهم أصحابه ؛ لأن الصحبة انقطعت بموته صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان من رآه بعد موته وقبل دفنه غير صحابي . . فهـٰؤلاء كذلك بالأولىٰ ، فاندفع قول « فتح الباري » : (هـٰذا مشكل جداً ، ولو حمل علىٰ ظاهره . . كانوا صحابة) اهـ[3]

ومما يؤيد أن الناظم يحتمل أنه أراد ذلك . . أنه تلميذ القطب أبي العباس المرسي ، فهو الذي حلت عليه بركته حتىٰ وصل إلى النظم البالغ الذروة العليا ، والقطب المذكور وارث القطب الأكبر أبي الحسن الشاذلي ، وكل منهما حفظت عنه

---

(١) انظر « بهجة النفوس » لابن أبي جمرة (١/ ١٧٣) و(٢/ ١٤٤٤) ، و« فتح الباري » (١٢/ ٣٨٥) .

(٢) المنقذ من الضلال (ص ٦٩) .

(٣) فتح الباري (١٢/ ٣٨٥) .

رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة ، بل قال أبو الحسن الشاذلي : (لو حجب عني النبي صلى الله عليه وسلم طرفة عين . . ما عددت نفسي مسلماً) والقطب علي ابن القطب محمد بن أبي الوفا ـ وهما من جملة المنتسبين إلى القطب الشاذلي ، ومن ثم قالوا : الطريقة الوفائية خلاصة الطريقة الشاذلية ـ ممن حفظت عنه رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة مراراً ، لا سيما عند قبر والده بالقرافة ، كما هو مسطور في كراماته ، فكون الناظم منسوباً لهـٰؤلاء الواقعةِ لهم الرؤيةُ يقظةً . . يقرب أنه سأل في وقوع ذلك له كما وقع لهم .

ولقد كان شيخي وشيخ والدي الشمس محمد بن أبي الحمايل يرى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة كثيراً ، حتىٰ يقع له أنه يسأل في الشيء فيقول : حتىٰ أعرضه على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يدخل رأسه في جيب قميصه ثم يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه كذا ، فيكون كما أخبر ، لا يتخلف عن ذلك أبداً . فاحذر من إنكار ذلك فإنه السم الوَحِيُّ[1] .

تنبيه : ما ذكرته من مناسبة الأول والثاني . . بعيد ؛ إذ لا يناسبه لفظ : (خصني) ، بل ولا معناه ؛ لأن الذي تمناه رؤيته في حياته ؛ ليكون من أصحابه ، أو في الموقف ، أو في الجنة ، وكل مسلم يتمنىٰ ذلك ، فالتمني أمر عام لا خصوصية فيه ، ومن الثالث قريب ، يناسبه لفظ (خصني) ومعناه ؛ أي : ليته خصني فيما مضىٰ برؤيتي له في النوم الرؤية السابقة ، فالمعنىٰ فيه صحيح ، وكذا الخصوصية ؛ لأن مرائي الناس له في النوم متعددة الأنواع والدلالات ، فلا بدع أن يتمنىٰ وقوع رؤية تخصه دون غيره ، باعتبار ما تدل عليه من اللحظ والإمداد وغيرهما ، ولا نظر إلىٰ كونه مفضولاً بالنسبة لأكثر الأولياء والعلماء ؛ لأن ذلك لا يمنع أنه يحصل له من ذلك الجناب من نوع إمداد ولحظ ما لم يحصل لغيره ، ومن المعنى الرابع قريب أيضاً ، لـٰكن على القول بوقوعه ، وحينئذ ينتج أن أحسن هـٰذه الاحتمالات الذي لا نزاع فيه : هو الثالث .

تنبيه آخر : من المقرر عند المحققين أن (الباء) في حيز الاختصاص وما اشتق منه

---

(١) الوحِيُّ : السريع القتل .

يجوز دخولها على المقصور والمقصور عليه ، فهي هنا داخلة على الأول علىٰ كل من الثالث والرابع ، وأما على الأولين . . فـ(خصني) فيهما بمعنىٰ أعطاني ، والماضي قد يستعمل مراداً به الاستقبال أيضاً .

تنبيه آخر : ما تقرر من أن خص وما أخذ منه يفيد الحصر ، وأنه يفيد في نحو : خصه بكذا قصره عليه قصر قلب تارة ، وإفراد أخرىٰ . . هو المشهور أيضاً ، خلافاً لمن فرق بين الاختصاص والحصر ، وفي « القاموس » : (خصه بالشيء خصاً وخصوصاً وخصوصية وقد يفتح ، وخصيصىٰ ويمد وخصِّيَّة وتخِصَّة فضله بالودّ كذلك) ثم قال : (والتخصيص ضد التعميم) اهـ

ولا يتوهم منه أن الاختصاص غير الحصر ؛ لأنه لا يسمىٰ فضله به إلا إن حصره فيه ، ويؤيده قوله : (والتخصيص ضد التعميم) الصريح في أن التخصيص قصر العام علىٰ بعض أفراده . فتأمل ذلك كله فإنه مهم نفيس .

(زال) أي : تحول ، فـ(زال) هنا تامة لا ناقصة (عن كل من رآه) مؤمناً في حياته صلى الله عليه وسلم ، أو بعد موته في يقظة الرائي ؛ لأن ذلك لا يقع إلا لأكابر الأولياء ، أو في النوم علىٰ صفته التي كان عليها ؛ لما مر أن ذلك يدل على الخير ورؤيته المخصوصة في الآخرة .

(الشقاء) أي : جميع أنواعه ؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كلهم عدول ، كما يشهد له الكتاب والسنة ، نحو : « أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ ، بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ »(1) وما وقع لبعضهم مما يخالف ذلك تداركه الله فيه برحمته ، فوفقه للتنصل من وصمته ، وحباه بجعله من أحبته ، ببركة حلول نظر نبيه صلى الله عليه وسلم .

ولما ذكر ذلك الوجه الكريم ، وزوال الشقاء عن كل من رآه . . أتبعه بذكر صفات وخصوصيات له ذاكراً مع كل ما يناسبه ، كما هو شأن البلغاء فقال :

---

(1) قال ابن الملقن في « خلاصة البدر المنير » (٢/ ٤٣١) : (رواه عبد بن حميد من رواية ابن عمر ، وغيره من رواية عمر وأبي هريرة ، وأسانيدها كلها ضعيفة ، قال البزار : لا يصح هـٰذا الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وانظر « تلخيص الحبير » (٤/ ١٩٠) .

مُسْفِــرٍ يَلْتَقِــي ٱلْكَتِيبَــةَ بَسَّــا　　مــاً إِذَا أَسْهَــمَ ٱلْــوُجُـوهُ ٱللِّقَــاءُ

(مسفر) ذلك الوجه حسناً ، فهو صفة ثانية لـ(وجه) أي : مشرق نوره الذي يكاد يخطف الأبصار (يلتقي) ذلك الوجه أيضاً (الكتيبة) أي : الجيش ـ بالمثلثة أو المثناة ـ من : تكتبت بنو فلان إذا اجتمعوا ، حال كونه (بساماً) أي : مبتسماً يفتر عن مثل سنا البرق ، أو عن مثل حب الغمام (إذا أسهم) أي : غير ، من : سهم ـ بفتح عينه أو ضمها ـ وجهه إذا احمر وتغير (الوجوه اللقاء) للعدو ، فهو في الحالات التي فيها ينزعج غيره ، ويضطرب ويتغير وجهه . . علىٰ غاية من الطمأنينة والثبات والتبسم ؛ لعظيم ما آتاه الله من الشجاعة التي لم يصل غيره إلىٰ أدناها ، وقد صح ـ كما مر ـ عن أنس : أنه كان أشجع الناس ، وأن صياحاً وقع بالمدينة ليلاً ، فخرج صلى الله عليه وسلم إلىٰ أن أبعد فلم ير شيئاً ، فلما رجع . . رأى الناس خارجين فقال : « لَنْ تُرَاعُوا ـ أي : روعاً عن حقيقة ـ مَا رَأَيْنَا مِنْ شَيْءٍ » .

وصح : أنه صرع ركانة مرات ولم يصرع قط ، فقال له متعجباً منه : إن شأنك لعجيب ، وصرع آخر بلغ من شدته أنه كان يقف علىٰ جلد البقرة ، ويتجاذب أطرافه عشرة ؛ لينتزعوه من تحت قدميه ، فيتفرى الجلد ولم يتزحزح عنه .

وصح : أنه في غزوة حنين لما تفرق عنه أصحابه ، ولم يبق معه إلا بضعة عشر . . ثبت صلى الله عليه وسلم علىٰ بغلته ، مع أنها لا تصلح لكر ولا فر ، وهو مع ذلك يركضها إلىٰ وجه العدو ، وينوه باسمه ليعرفه من لا يعرفه قائلاً :　　[من الرجز]

أَنَــا ٱلنَّبِــيُّ لاَ كَــذِبْ　　أَنَــا ٱبْــنُ عَبْــدِ ٱلْمُطَّلِــبْ

فلا شجاعة بعد ذلك ، ومن ثم قال الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم : كنا إذا احمر البأس . . اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أي : جعلناه أمامنا ، واستقبلنا العدو به ، وقمنا خلفه .

وذهب بعض المالكية : إلىٰ أن من قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم هزم . . يستتاب ، فإن تاب وإلا . . قتل ؛ لأنه تنقصه ؛ إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصة نفسه ؛ لعلمه بأن الله تعالىٰ ناصره وحافظه .

واعترضه بعض المالكية بما حاصله : أنه حيث كان ذلك تنقيصاً . . لم يستتب ، ولم تقبل له توبة . اهـ[1]

وقياس مذهبنا ـ خلافاً لمن أخطأ فيه ـ : أنه إن نوىٰ بذلك تنقيصه . . كفر ، وإلا . . فلا ، وإذا قلنا بكفره . . فمذهب بعض أئمتنا : أنه لا تقبل توبته ، وحكىٰ فيه الإجماع ، والمعتمد : قبولها منه .

(155)

جُعِلَتْ مَسْجِداً لَهُ ٱلْأَرْضُ فَٱهْتَزَّ بِـــهِ لِلصَّـــلَاةِ فِيهَـــا حِـــرَاءُ

(جعلت مسجداً له) أي : لذلك الوجه المكرم ، ولأمته بطريق التبع له (الأرض) كلها ، كما أخبر بذلك صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة حيث قال : « أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِٱلرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ ٱلْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ ٱلصَّلَاةُ . . فَلْيُصَلِّ . . . » الحديث[2] .

والمراد بقوله : « مسجداً » : موضع سجود ؛ أي : أن السجود لا يختص بموضع منها دون غيره ، قيل : ويمكن أن يكون مجازاً عن المكان المبني للصلاة ، وهو من مجاز التشبيه ؛ لأنه لما جازت الصلاة في جميعها . . كانت كالمسجد في ذلك .

وقيل : المراد : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، ولغيري مسجداً لا طهوراً ؛ لأن عيسىٰ عليه السلام كان يسيح فيها ويصلي حيث أدركته الصلاة .

وقيل : المراد : أن الصلاة لم تبح إلا في محل يتيقنون طهارته ، بخلاف هـٰذه الأمة ، أبيحت لها في كل الأرض إلا ما يتيقنون نجاسته ، والأصح : الأول ، وهو

---

(١) قال القاضي عياض رحمه الله في « الشفا » (ص ٧٧١) : (وكذلك أقول : حكم من غمصه ، أو عيره برعاية الغنم ، أو السهو ، أو النسيان ، أو السحر ، أو ما أصابه من جروح أو هزيمة لبعض جيوشه ، أو أذىً من عدوه ، أو شدة من زمنه ، أو بالميل إلىٰ نسائه . . فحكم هـٰذا كله لمن قصد به نقصه . . القتل) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) ، واللفظ للبخاري .

أنها لم تبح لمن قبلنا إلا في أماكن مخصوصة ، كالبِيَع والكنائس والصوامع ؛ للخبر المصرح بذلك : « وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ »[1] ، وتوافقه رواية : « وَلَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلأَنْبِيَاءِ أَحَدٌ يُصَلِّي حَتَّىٰ يَبْلُغَ مِحْرَابَهُ »[2] .

وبهٰذين يرد الاحتجاج بقضية عيسى المذكورة بمنع ما ذكر فيها ؛ لدلالة هٰذين علىٰ خلافه ، وبفرض صحته فهو لا ينافي الخصوصية ؛ لأنها ثابتة لنبينا صلى الله عليه وسلم وأمته ، بخلاف عيسىٰ .

(**فـ**) بسبب هٰذا الجعل (**اهتز**) أي : تحرك طرباً وفرحاً (**به**) صلى الله عليه وسلم (**للصلاة**) أي : لأجلها (**فيها**) أي : الأرض (**حراء**) بالكسر والمد ، ويجوز قصره وصرفه وعدمه ، باعتبار المكان والبقعة ، كسائر أسماء الأمكنة ، وهو : الجبل الذي كان صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه قبل النبوة ، وهو مشهور .

ودليل ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان علىٰ حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، فتحركت الصخرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ٱسْكُنْ حِرَاءُ ؛ فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » وفي رواية : وسعد بن أبي وقاص ، ولم يذكر علياً ، أخرجهما مسلم[3] .

وخرجه الترمذي ، وذكر أنه كان عليه العشرة إلا أبا عبيدة ، وقال : « ٱثْبُتْ حِرَاءُ »[4] وفي رواية : « ٱهْدَأْ حِرَاءُ »[5] .

ورواه البخاري في أحد بلفظ : إنه كان معه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم ، فضربه صلى الله عليه وسلم برجله وقال : « ٱثْبُتْ أُحُدُ ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ »[6] .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٢) .
(٢) أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٤/ ١١٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٢/ ٤٣٣) .
(٣) مسلم (٢٤١٧) ، والروايتان عنده تحت هٰذا الرقم ، وفي كل منهما ذكر علي رضي الله عنه .
(٤) الترمذي (٣٧٥٧) .
(٥) الترمذي (٣٦٩٦) ، ولفظه : « اهدأ ، إنما عليك . . . » دون لفظ « حراء » .
(٦) البخاري (٣٦٧٥) .

ورواه النسائي والترمذي في ثبير وهو : جبل مقابل لحراء : أنه صلى الله عليه وسلم كان عليه ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فتحرك حتىٰ تساقطت حجارته بالحضيض ـ أي : الذي في قراره وأسفله ـ فركضه صلى الله عليه وسلم برجله وقال : « ٱسْكُنْ ثَبِيرُ ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ »[1] .

وما أشار إليه الناظم بتعبيره بـ(اهتز) من أن ذلك التحرك إنما كان للطرب والفرح لا للغضب. . نقله شارح « البخاري » ابن التين في أحد ، فقال : (قيل : الحكمة في ذلك : أنه لما رجف. . أراد صلى الله عليه وسلم أن يبين أن هٰذه الرجفة ليست من جنس رجفة الجبل بقوم موسىٰ لما حرفوا الكلم ، وأن تلك رجفة الغضب ، وهٰذه هزة الطرب ، ولهٰذا نص صلى الله عليه وسلم علىٰ مقام النبوة والصديقية والشهادة التي توجب سرور من اتصلت به لا رجفانه ، فأقر الجبل بذلك فاستقر) اهـ

واستشكل ما ذكر بأن الهز طرباً فرع العلم بمن فوقه ، وقوله : « ٱثْبُتْ. . . » إلخ يقتضي أن تحركه لغير السرور ، ويجاب بأنه عُلم من الأحاديث الصحيحة التي منها : « أُحُدٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ »[2] : أن أحداً أودع علماً به صلى الله عليه وسلم ومحبة له وميلاً إليه ، فإذا اهتز لأجل ذلك. . دل علىٰ نوع طيش وخفة ، فناسب أن يركضه صلى الله عليه وسلم برجله الكريمة ، وأن يذكره بأن مقام النبوة والصديقية والشهادة كل منها يقتضي الرزانة وعدم التحرك ، فلما علم الجبل ذلك. . سكن وخضع ، فكان ما منه أولاً هزة الطرب ، وآخراً سكون الحياء والامتثال والأدب ، ويحتمل أنه ارتعد هيبة لجلاله صلى الله عليه وسلم ، فأمره صلى الله عليه وسلم بترك ذلك ، وذكره بأن ما عليه من المقامات الثلاثة السابقة يقتضي هزة الجمال واللقاء المنبئين عن غاية الفرح والسرور .

قال الطبري وغيره : (واختلاف الروايات يحمل علىٰ أنها قصص تكررت)[3] وهو واضح ؛ لأن كلاً منها صحيح ، فلا وجه إلا التعدد ، وأيده شيخ الإسلام الحافظ

---

(١) المجتبىٰ (٦/ ٢٣٥) ، والترمذي (٣٧٠٣) . والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨٢) ، ومسلم (١٣٦٥) .

(٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة (١/ ٢٧٨) .

العسقلاني بعدما توقف فيه بأن الذين معه بحراء أزيد ممن معه بأحد[1] .

فإن قلت : ما وجه التعليل في قول الناظم : (للصلاة فيها) ؟

قلت : كأنه يشير إلىٰ أن الله تعالىٰ لما أقطع نبيه صلى الله عليه وسلم الأرض ، وجعلها كلها مسجداً له ، وشرفها بصلاته فيها . . دخل في ذلك جبالها ، فإذا صعد بعضها . . تذكر الجبل ذلك الجعل وتلك الصلاة اللذين حصل بهما للجبل كبقية الأرض غاية الشرف ، فحينئذ تحرك إعلاماً للأمة بما حصل له مما يوجب السرور والطرب ، ثم رأيت بعضهم جعل ضمير (فيها) للجبل ، وجعل المراد بالصلاة : صلاته صلى الله عليه وسلم فيه لما كان يختلي فيه قبل البعثة ، وهـٰذا كلام ساقط ؛ لأنه لم يعرف أنه صلى الله عليه وسلم صلىٰ قبل النبوة ، ولأن الاهتزاز بعد النبوة بكثير ؛ لرواية : إن العشرة إلا واحداً كانوا معه .

(156)

مُظْهِرٍ شَجَّةَ ٱلْجَبِينِ عَلَى ٱلْبُرْ ءِ كَمَا أَظْهَرَ ٱلْهِلَالَ ٱلْبَرَاءُ

(مظهر) ذلك الوجه الكريم (شجة الجبين) أي : جرح جبينه ، وهو : المنحرف عن الجبهة فوق الصدغ ، وفي التعبير به مسامحة وتجوز ؛ لما يأتي أن الذي شُجَّ جبهتُه ، وفي رواية : وجنته ، والجبين غيرهما ، فالتعبير بـ(الجبين) من مجاز المجاورة (على البرء) أي : فيه أو معه ، من : برىء من المرض ـ بالكسر ـ برءاً ، بالضم ، وبرأ يبرأ بالفتح فيهما ، وهـٰذه الشجة كانت يوم أحد .

أخرج ابن هشام عن أبي سعيد الخدري : أن عتبة بن أبي وقاص أخا سعد بن أبي وقاص ـ أولِ من رمىٰ بسهم في سبيل الله ، وكان صلى الله عليه وسلم يناوله السهام يوم أحد ويقول له : « ٱرْمِ ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » ، قال : فلم يجمع أبويه لغيري[2] ، وكان يفتخر به ويقول : « هَـٰذَا سَعْدٌ خَالِي ـ أي : لأنه زهري ـ فَلْيُرِنِي ٱمْرُؤٌ خَالَهُ »[3] ،

---

(١) انظر « فتح الباري » (٧/ ٣٨) .
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٥٩) ، ومسلم (٢٤١١) .
(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٥٢) ، والحاكم (٤/ ٤٩٨) .

فشتان ما بين هـٰذين الأخوين ـ رمىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فكسرت رَباعِيَته اليمنى السفلىٰ ، وجرح شفته السفلىٰ ، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته ، وأن ابن قمئة جرح وجنته ، فدخلت حلْقتان من المِغْفَر فيها ، ووقع صلى الله عليه وسلم في حفرة ، وفي رواية : وهشموا البيضة علىٰ رأسه ، ورموه بالحجارة حتىٰ رموه لشقه في حفرة . . . الحديث[١] .

وروى الطبراني وغيره : أن عبد الله بن قمئة رمىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فشجه في وجهه ، وكسر رَباعِيَته ، فقال : خذها وأنا ابن قمئة ، فقال صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه : « أَقْمَأَكَ ٱللهُ » ، فسلط الله عليه تيس جبل ، فلم يزل ينطحه حتىٰ قطعه قطعة قطعة[٢] .

وروىٰ أحمد والترمذي والنسائي عن أنس : كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وشج وجهه ، وجعل الدم يسيل علىٰ وجهه ، وجعل يمسحه ويقول : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ؟! » فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[٣] ، وفي مرسل قوي : أن وجهه صلى الله عليه وسلم ضرب يومئذ بالسيف سبعين ضربة ، وقاه الله شرها كلها[٤] .

(كما) مصدرية (أظهر الهلال البراء) بفتح الموحدة ، وهو : أول ليلة من الشهر ؛ أي : أن وجهه الكريم المكرم أظهر آثار تلك الشجة مع برئها ظهوراً واضحاً ، ليس فيه أدنىٰ شين ، بل فيه غاية الجمال ، كظهور الهلال ليلة استهلاله ؛ لحكمتين :

ليتذكر الراؤون ذلك ، والراوون عنهم ما وقع له صلى الله عليه وسلم من المحنة وعظم الصبر عليها حتىٰ يقتدىٰ به في ذلك ، وليعلموا أن تلك الشجة لم تَشِنهُ ـ حاشاه من ذلك ـ بل زادته جمالاً علىٰ جماله صلوات الله عليه وسلامه ؛ لأنها صارت بعد

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٣/ ٧٩) . والمغفر : ما يلبسه المقاتل من الزرد علىٰ رأسه .
(٢) المعجم الكبير (٨/ ١٣٠) .
(٣) مسند أحمد (٣/ ٢٠٦) ، والترمذي (٣٠٠٢) ، والسنن الكبرىٰ (١١٠١١) .
(٤) أخرجه عبد الرزاق في « مصنفه » (٩٧٣٦) .

البرء كالهلال في وجهه ، بل أحسن من الهلال كما قال :

157

سُتِرَ ٱلْحُسْنُ مِنْهُ بِٱلْحُسْنِ فَٱعْجَبْ   لِجَمَــالٍ لَــهُ ٱلْجَمَــالُ وِقَــاءُ

(ستر) ذلك الوجه (**الحسن**) الأصلي (**منه بالحسن**) العارض من الشجة (**فاعجب لجمال**) أصلي (**له الجمال**) العارض .

وفي هٰذا كالذي قبله الجناس التام المتماثل ، بناء علىٰ ما مر مع الكلام عليه في شرح : (شق عن قلبه وشق له البدر) وأما جزم الشارح بأنه من ذلك مع اختلاف موضوعه باعتبار الأصلي والعارض كما تقرر لا من حيث الوضع . . فغير صحيح ، ولو حصل تمام التجنيس بين اللفظين مع اتفاق الوضع واختلاف المراد . . لعدوا منه : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ . . . ﴾ ، ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ . . . ﴾ إلخ .

نعم ؛ يمكن أن يقال : قد يقاس اختلاف المراد باختلاف الوضع حيث لا قرينة تميزه كما هنا ، بخلاف ما في الآيات ، فإن قرينة التغاير فيها ظاهرة مع التجنيس ، فلو عبر الشارح بـ(يحتمل) أو نحوه . . لسلم من الجزم بما كلامهم كالصريح في رده .

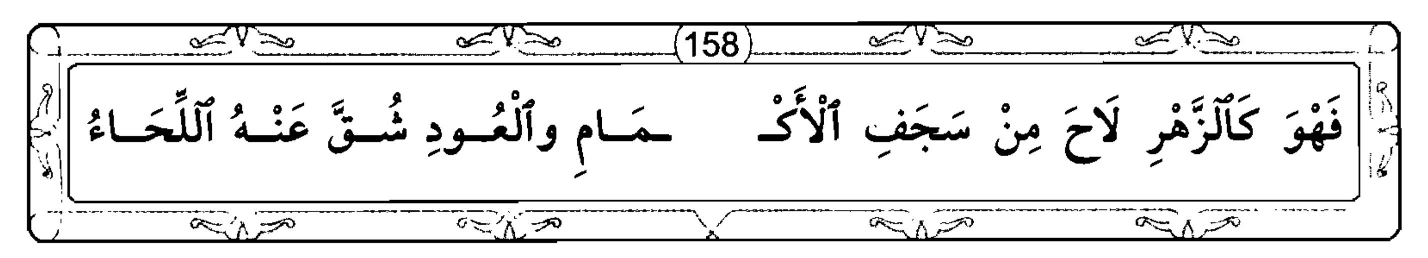
وفي (البرء) و(البراء) الجناس المطرف[(١)] .

(وقاء) وسبب ذلك : أن الله تعالىٰ أعطىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم غاية الجمال التي لم يعطها لمخلوق ، كما مر بدليله ، في باطنه وظاهره ، ويكفيك شاهداً علىٰ ذلك ما مر أن الله تعالىٰ جعله كله نوراً ، ولم يظهر له ظل ، فكان جلده صلى الله عليه وسلم ساتراً لجماله الباطن ، فإذا أزالته الشجة . . ظهر من أنواره الباطنة ما صيرها كالهلال في وجهه ، وصار حينئذ حسن ظاهره مستوراً بما ظهر من حسن باطنه ، فهما

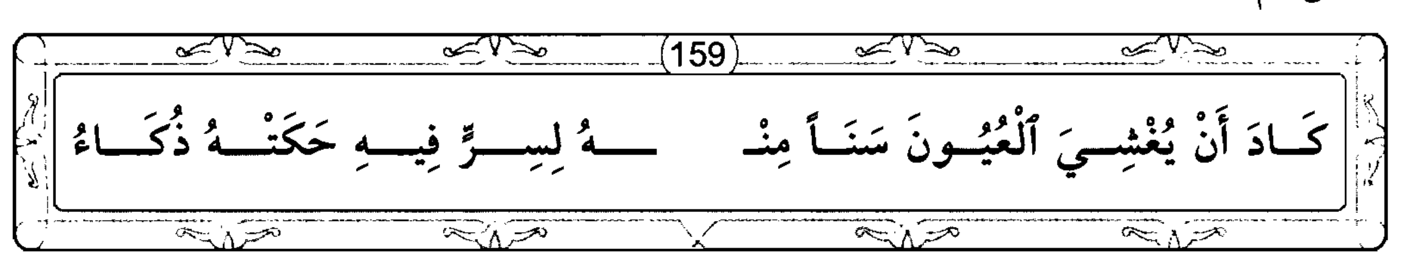
---

(١) كذا في بعض النسخ ، وفي بعضها : (المحرف) ، وكلاهما مجانب للصواب ؛ لأن الجناس المطرف هو : ما كان فيه زيادة حرف أو أكثر في أول الكلمة ، نحو : (حل) و(رحل) ، أما المحرف . . فهو : أن يكون بين الكلمتين اختلاف في الحركات والسكنات مع توافق الحروف نحو : (البَرْد) و(البَرَد) ، وما هنا ليس من هٰذا ولا ذاك ، والصواب : أنه جناس ناقص وحسب ، أو هو جناس مكتنف ؛ لأن حرف الزيادة وقع في وسط الكلمة ، والله أعلم .

جمالان عظيمان صار باطنهما وقاية لظاهرهما ، وهـٰذا مما يستغرب ويتعجب منه ، ولذلك شبهه بتشابيه توضح ذلك وتكشفه فقال :



(**فهو**) أي : ما ظهر من الشجة من باطن بدنه صلى الله عليه وسلم (**كالزهر**) أي : نور النبات إذا (**لاح**) أي : ظهر (**من سجف**) ـ بفتح أوله وكسره[1] ـ أي : ستر (**الأكمام**) هو كالأكِمَّة جمع كِم بالكسر ، وهو : غطاء النَّوْر المشبه به هنا ظاهرُ الجلد (**و**) هو أيضاً مثل (**العود**) الذي يتطيب به إذا (**شق عنه اللحاء**) وهو : قشر الشجر ، من : لحوته ألحوه : قشرته باللحاء ، فظاهر الجلد كاللحاء ، وباطنه كالعود ، وفي هـٰذين التشبيهين ما يعلمك أن جمال باطنه ربما فاق جمال ظاهره ، ومن ثم قال :



(**كاد**) ما ظهر بالشجة (**أن**) وهي وما بعدها سدت مسد مرفوع (كاد) وخبرها ، (**يغشي**) بالغين المعجمة أظهر من المهملة (**العيون**) أي : يغطي عليها (**سناً**) بالقصر ؛ أي : ضوء عظيم خارج (**منه لسر**) عظيم ، وفي نسخ (بِسِرٍّ) (**فيه**) أي : في ذلك الباطن الذي ظهر ، فصيَّره كله ضياء أعظم من ضياء الشمس ، ومن ثم كان أصل ذلك السر لا كماله (**حكته**) أي : شابهته (**ذكاء**) ـ بضم المعجمة ، وعدم الصرف ، وامتناع دخول (أل) عليها ـ أي : الشمس ، وذكرها بعد (سناً) من مراعاة النظير .

وبما تقرر علم أن من أسباب عدم شينه بتلك الشجة : ما أوتيه صلى الله عليه وسلم من الحسن الذي لم يؤته غيره ، ومن ثم

---

(١) أي : مع سكون الجيم ، وحركت هنا لضرورة الوزن ، وبفتح الجيم : دقة الخصر .

(160)

صَانَهُ ٱلْحُسْنُ وَٱلسَّكِينَةُ أَنْ تُظْـ ـهِرَ فِيهِ آثَارَهَا ٱلْبَأْسَاءُ

(صانه) ذلك (الحسن) لو انفرد ، فكيف (و) قد انضم إليه (السكينة) أي : وقار الظاهر مع طمأنينة القلب وعدم تحركه بما يمتحن به من المؤذيات التي لا يسكن عندها غيره (أن تظهر فيه آثارها) هو ضمير الفاعل المتقدم رتبة ، وهو (البأساء) أي : الشدائد ، فلذلك لم يظهر عليه من تلك الشجة إلا غاية الطمأنينة ونهاية الجمال كما مر ، فعلم أنه لِما أودعه الله فيه من كمال الجمال وتمام البهاء في حالة السراء كهو في حالة البأساء . . فلا تؤثر فيه البأساء ٱلبتة .

(161)

وَتَخَالُ ٱلْوُجُوهَ إِنْ قَابَلَتْهُ أَلْبَسَتْهَا أَلْوَانَهَا ٱلْحِرْبَاءُ

(وتخال) أي : تظن أنت (الوجوه إن قابلته) أي : عاينت وجهه ، وجواب (إن) محذوف لدلالة ما قبله عليه ، خجلت من فرط جماله ، وتلونت بالألوان المختلفة ، كما يشاهد ممن قوي خجله ، حتىٰ كأن تلك الوجوه عند ذلك التلون (ألبستها ألوانها) ضمير الفاعل المتقدم رتبة ، وهو (الحرباء) المشهورة ، ومن شأنها أنها تستقبل الشمس وتدور معها كيف دارت ، وتتلون بالألوان العجيبة المختلفة .

(162)

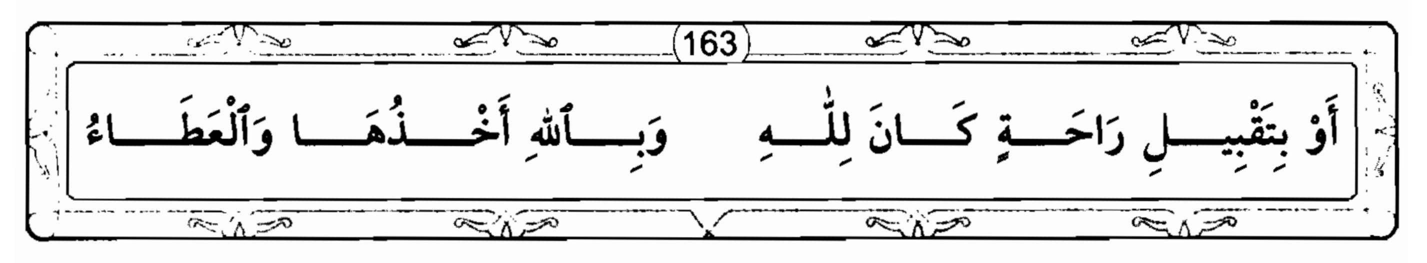
فَإِذَا شِمْتَ بِشْرَهُ وَنَدَاهُ أَذْهَلَتْكَ ٱلْأَنْوَارُ وَٱلْأَنْوَاءُ

(فـ) بسبب هٰذا الجمال الباهر المستلزم لباهر الإفضال والإحسان (إذا شمت) بالمعجمة ، من : شمت البرق : نظرت إلىٰ سحابه (بشره) أي : طلاقة وجهه (ونداه) أي : جوده ، إذا تطلعت إلىٰ مخايله ببصرك . . (أذهلتك) أي : أنستك ما أنت بصدده (الأنوار) الباهرة التي تحصل لك من بشره عند رؤية وجهه (والأنواء)

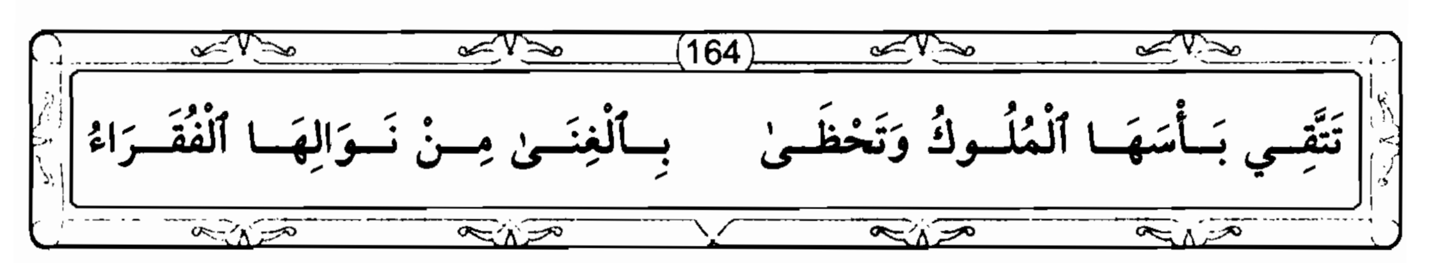
جمع نوء ، وهو : ما تضيف العرب الأمطار إليه من النجم ، أو وقته ، نحو : مطرنا بنوء الثريا ، وهي هنا كناية عن الخيرات الواصلة منه صلى الله عليه وسلم لمن رآه وأمله ، ففيه لف ونشر مرتب ؛ لرجوع (الأنوار) للبشر ، و(الأنواء) للندىٰ .

وفيهما الجناس اللاحق ، ونوع من مراعاة النظير يسمىٰ تشابه الأطراف ، وهو : أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه في المعنىٰ ، نحو : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ، فـ﴿ ٱللَّطِيفُ ﴾ يناسب : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ، و﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ يناسب : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ .

ولما تمنىٰ رحمه الله رؤية الوجه الشريف المكرم ، واستتبعه بأوصافه العلية . . أخذ في تمني تقبيل راحته الكريمة ، ووصفها بأوصافها العلية السنية ، فقال :



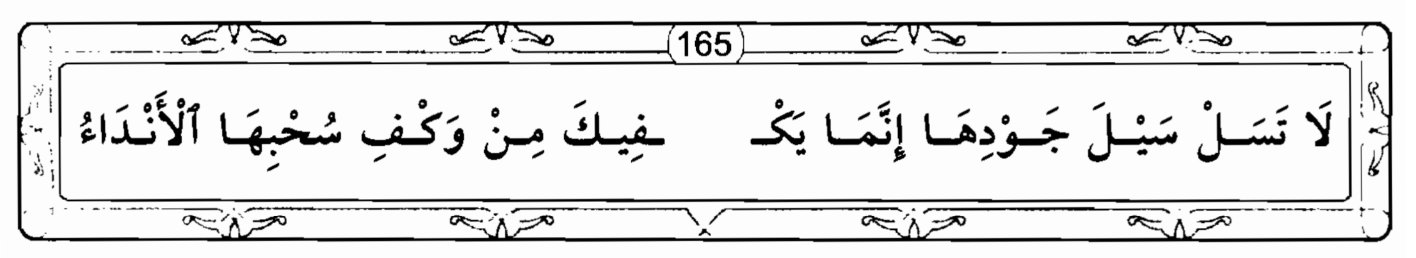
(أو) ليته خصني (بتقبيل راحة) أي : بلثمي في اليقظة أو النوم ـ نظير ما مر ـ لكفه التي (كان لله) أي : لأجله ، ابتغاء لوجهه الكريم دون غرض آخر (وبالله) أي : بسبب شهود إعانته ، وقد كان (أخذها والعطاء) اسم مصدر بمعناه ؛ أي : وإعطاؤها ؛ لبراءتها من كل غرض ينافي الكمال الأعظم ، فلم يقع تصرف منها في شيء منذ أفاض الله تعالىٰ عليها خوارق جوده . . إلا مع شهود سلب كل حول وقوة عما سواه سبحانه وتعالىٰ ، ولهٰذا الشهود الأعظم في تصرفها كانت



(تتقي) بفتح التاءين ؛ أي : تخاف وتحذر (بأسها) أي : شدتها في الحرب (الملوك) كقيصر وكسرىٰ والمقوقس إلىٰ أن أظفره الله بجميعهم (و) كانت (تحظىٰ) أي : تفوز (بالغنىٰ) الحسي والمعنوي (من) بعض (نوالها) أي : عطائها (الفقراء) لأنه صلى الله عليه وسلم كان أجود الناس ، فيعطي عطاءً تعجز عنه

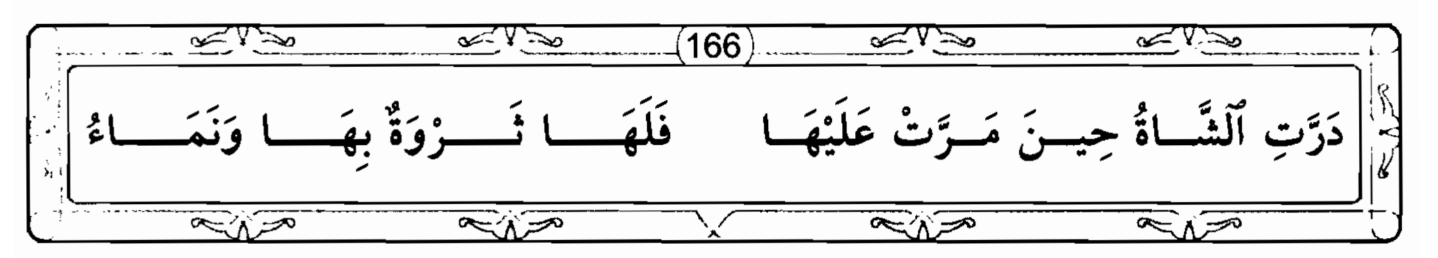
الملوك ، ومع ذلك يعيش عيش الفقراء ؛ لإيثاره علىٰ نفسه وعياله ، وكان جوده كله لله تعالىٰ وفي ابتغاء مرضاته ، ببذل المال تارة للفقراء والمحتاجين ، وتارة ينفقه في سبيل الله ، وتارة يتألف به من يقوي إسلامه ، أو من يسلم بإسلامه نظراؤه .

وبين (الأخذ) و(العطاء) ، و(الملوك) و(الفقراء) ، و(تتقي) و(تحظىٰ) تجنيس التقابل .



(لا تسل) أصله بالهمز ، ثم خفف بحذفه ، كما قرىء به في : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾[1] (سيل) هو : الماء الكثير الجاري ، وبينهما تجنيس التحريف والتصحيف (جودها) بفتح الجيم ، وهو : المطر الغزير ؛ أي : لا تسل هـٰذا الأمر المكنىٰ به عن سعة عطائه وجوده ، فإن هـٰذا شيء لا يقدر أحد من البشر قدره ، بل (إنما) الذي يليق بك أن تسأل ما (يكفيك) وهو أن يصل إليك (من وكف) أي : قطر (سحبها) جمع سحاب (الأنداء) جمع ندىً ، وهو البلل ، علىٰ أن بلل هـٰذا القطر فيه الغنى الكلي ، فمن وصلت إليه بلة من قطرة منه . . كانت سبباً لغناه في الدنيا والآخرة .

ومن أوصاف تلك الراحة الشريفة العلية أيضاً أنها



(درت الشاة) أي : أرسلت لبنها الغزير (حين مرت عليها فـ) بسبب ذلك صار (لها) بعد فقد اللبن منها بالكلية ؛ إذ لم يكن طرقها فحل قط (ثروة) أي : كثرة اللبن (بها) أي : بسبب تلك الراحة الكريمة (ونماء) أي : زيادة في تلك الكثرة .

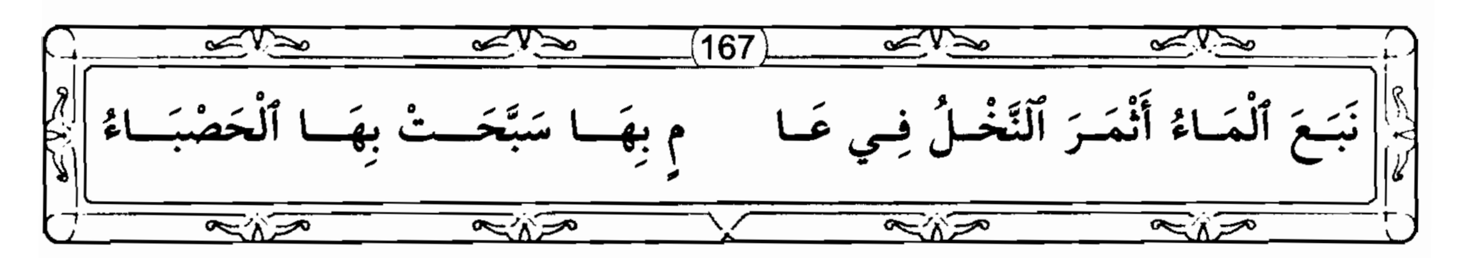
وهـٰذه القصة وقعت له صلى الله عليه وسلم لما خرج من غار ثور مهاجراً إلى

---

(١) أي : ﴿سَالَ سائِل﴾ ، وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر .

المدينة ومعه أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة ، فأخذ بهم الدليل طريق الساحل ، فمروا بقُدَيْد ـ قريب من رابغ ـ علىٰ أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية ، وكانت برزة ، تسقي وتطعم ، وكانوا في غاية القحط والجهد ، فطلبوا منها لبناً ولحماً يشترونه ، فلم يجدوا عندها شيئاً ، فنظر صلى الله عليه وسلم إلىٰ شاة في كسر الخيمة[١] تخلفت عن الغنم لشدة الجوع ، فسألها : « هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ » فقالت : هي أجهد من ذلك ، والله ما ضربها فحل قط ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا ؟ » قالت : نعم ، إن رأيت بها حلَباً . . فاحلبها ، فدعا بالشاة ، فأعقلها ومسح ضرعها بيده وسمى الله ، فتفاجت ودرت ، ودعا بإناء يشبع الجماعة ، فملأه من حلَبها ، وسقى القوم حتىٰ رووا ، ثم شرب آخرهم ، ثم حلب فيه مرة أخرىٰ عللاً بعد نهل ، ثم تركه عندها وذهبوا ، ذكر ذلك أصحاب السير وغيرهم .

ومن أوصاف تلك الراحة الجليلة أيضاً أنه



(نبع الماء) بها ؛ أي : بسببها ، وعدل إليها عن (منها) المتبادر ؛ ليفيد أنه نبع تارة منها ، وتارة ببركتها من غيرها .

أما الأول[٢] . . فقال القرطبي : (قصة نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم قد تكررت منه صلى الله عليه وسلم في عدة مواطن ، في مشاهد عظيمة ، ووردت من طرق كثيرة ، يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي ، ولم يسمع بمثل هٰذه المعجزة عن غير نبينا صلى الله عليه وسلم ، حيث نبع الماء من بين عظمه ولحمه ، وعصبه ودمه)[٣] .

---

(١) الكسر ـ بفتح الكاف وكسرها ـ هو : الجانب .
(٢) أي : نبع الماء من أصابعه .
(٣) انظر « المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم » (٦/ ٥٢) .

وذكر المزني صاحب الشافعي رضي الله عنهما : أن هٰذا أبلغ من نبع الماء من الحجر بضرب موسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ؛ لأن الحجر يؤلف منه خروج الماء ، ولا كذلك البدن .

فمن جملة تلك المواطن : ما ورد في « الصحيحين » عن أنس : أن الناس احتاجوا لصلاة العصر ، فلم يجدوا الماء ، فأتي بوضوء ، فوضع يده في ذلك الإناء ، فنبع الماء من بين أصابعه حتىٰ توضؤوا كلهم رضي الله عنهم[1] ، زاد البخاري : كانوا ثمانين ، وأن الماء نبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه صلى الله عليه وسلم[2] .

وفي رواية لابن شاهين : أنه وقع نظير ذلك في غزوة تبوك لما شكوا إليه ، فطلب فضلة ماء ، فأتي بها ، فصبها في صحفة ، ثم وضع راحتيه فيها ، فتخللت عيون من بين أصابعه ، فرواهم وإبلهم ، وتزودوا منه .

وفيهما عن جابر : أنه صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ من ركوة ، فجاؤوه يشتكون العطش ، فوضع يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فتوضؤوا كلهم ، وكانوا ألفاً وخمس مئة ، بل قال جابر : لو كنا مئة ألف.. لكفانا[3] ، وفي رواية لأحمد عنه : فوالذي ابتلاني ببصري لقد رأيت عيون الماء تخرج من بين أصابعه كأمثال العيون[4] .

وظاهر الروايات : أن الماء نبع من نفس اللحم الكائن في الأصابع ، وهو ما صححه النووي[5] ، وجزم به غيره ، وإنما استدعىٰ قليل ماء تأدباً مع ربه ، فإنه المنفرد بإيجاد المعدومات من غير أصل .

نعم ؛ في رواية عند جماعة : أنه فعل ذلك مرة من غير ماء ، لٰكن استدعىٰ بشن يابسة ، ووضع يده فيها ، فنبعت عيون الماء .

---

(١) البخاري (١٦٩) ، ومسلم (٢٢٧٩) .
(٢) البخاري (٢٠٠) ، وليس فيه ذكر أطراف أصابعه .
(٣) البخاري (٤١٥٢) ، ومسلم (١٨٥٦) .
(٤) مسند أحمد (٣/ ٢٩٢) .
(٥) انظر « شرح صحيح مسلم » (١٥/ ٣٨) .

وأما الثاني[1] . . ففي مسلم : « إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَداً إِنْ شَاءَ ٱللهُ عَيْنَ تَبُوكَ ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّىٰ يُضْحِيَ ٱلنَّهَارُ ، فَمَنْ جَاءَهَا . . فَلاَ يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئاً حَتَّىٰ آتِيَ » فسبق رجلان ومساه قبل أن يأتي ، فسبهما ، ثم اغترفوا له قليلاً ، فغسل به وجهه ويديه ، ثم صب الغسالة في العين ، فجرت العين بماء كثير ، ثم قال : « يَا أَبَا مُعَاذٍ ؛ يُوشِكُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَىٰ مَا هَـٰهُنَا قَدْ مُلِيءَ بَسَاتِينَ وَعُمْرَاناً »[2] . وفي رواية « الموطأ » وغيره : فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق .

وصح ـ علىٰ مقال في بعض رواته ـ أن العطش اشتد بهم في غزوة تبوك حتىٰ كادت رقابهم تنقطع ، وكان الرجل ينحر بعيره ، فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل الباقي علىٰ كبده ، فسأله أبو بكر رضي الله عنه أن يدعو لهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَتُحِبُّونَ ذَلِكَ ؟ » قالوا : نعم ، فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتىٰ سالت السماء ، فانسكبت ، فملؤوا ما معهم من آنية ، ثم ذهبوا ينظرون فلم يجدوها جاوزت العسكر[3] .

وفي « البخاري » في غزوة الحديبية نحو ذلك مرتين ، مرة أمرهم بوضع سهم من كنانته في محل الماء ففاض[4] ، ومرة بوضع يده الشريفة في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه[5] .

ومن أوصاف راحته صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه (**أثمر النخل في عام**) أي : في سنة غرسه (بها) أي : بسبب مس تلك الراحة الكريمة لذلك النخل في قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه التي ذكرها أصحاب السير ، ابن هشام وابن سيد الناس وغيرهما ، وحاصلها : أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة المنورة . . أتاه سلمان وآمن به ، وكان مسترقاً ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يكاتب سيده ، فكاتبه علىٰ

---

(١) أي : نبع الماء من غير أصابعه ، ولـٰكن ببركتها .
(٢) مسلم (٧٠٦/ ١٠) في كتاب الفضائل ، باب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم .
(٣) أخرجه ابن خزيمة (١٠١) ، وابن حبان (١٣٨٣) ، والحاكم (١/ ١٥٩) ، والبيهقي في « الدلائل » (٥/ ٢٣١) .
(٤) البخاري (٢٥٢٩) .
(٥) البخاري (٣٨٣٧) .

غرس ثلاث مئة وَدِيَّة ، وتعهدها حتىٰ تثمر ، وأربعين أوقية ذهباً ، ثم أخبره صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأمر أصحابه أن يعينوه بالوَدِيِّ ، فأعانوه به ، ثم وضعه صلى الله عليه وسلم بيده ، فما مات منها واحدة ، بل أثمرت كلها في عامها .

وفي رواية : فوقعت منها واحدة ، فقلعها صلى الله عليه وسلم وأعادها ، فساوت البقية ، فأداها ، وبقي عليه الذهب ، فجاء للنبي صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المعادن ، فأعطاها له ، فقال : وأين تقع هـٰذه مما علي ؟ قال : « خُذْهَا ، فَإِنَّ ٱللهَ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ » فوزن لهم منها أربعين أوقية[1] .

ومن أوصافها أيضاً أنه (**سبحت بها**) أي : في راحته صلى الله عليه وسلم (**الحصباء**) أي : الحصىٰ ، كما رواه البزار والطبراني في « الأوسط » وغيرهما : أنه صلى الله عليه وسلم كان عنده أبو بكر وعمر وعثمان ، فقبض حصيات ، فسبحن في كفه حتىٰ سمع لهن حس كحس النحل ، فناولهن أبا بكر ، فسبحن في كفه كذلك ، ثم عمر كذلك ، ثم عثمان كذلك ، ثم أخذها الحاضرون فلم تسبح مع أحد منهم[2] .

قال الحافظ شيخ الإسلام العسقلاني : (ليس لحديث تسبيح الحصىٰ إلا طريق واحدة ، مع ضعفها لـٰكنه مشهور عند الناس)[3] اهـ

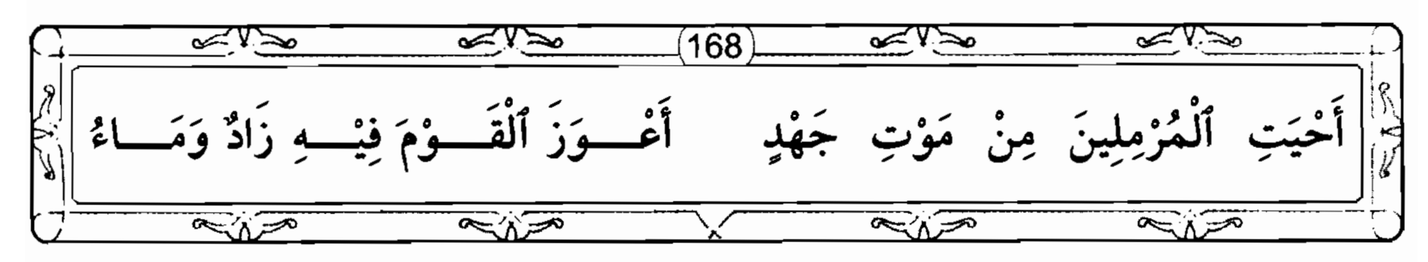
نعم ؛ أخرج البخاري من حديث ابن مسعود : كنا نأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيح الطعام[4] .

وفي « فتح الباري » عن « الشفا » : (أنه صلى الله عليه وسلم مرض ، فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب ، فأكل منه فسبح)[5] .

تنبيه : تسبيح الجماد كالطعام والحصىٰ معناه : أن الله تعالىٰ خلق فيه اللفظ الدال على التنزيه حقيقة ، خرقاً للعادة ، ومع ذلك إضافة التسبيح إليه مجاز ؛ لأن اللفظ إنما يضاف حقيقة لمن قام به .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٠) ، وعيون الأثر (١/ ٨٠) .
(٢) مسند البزار (٤٠٤٤) ، المعجم الأوسط (١٢٦٦) .
(٣) انظر « فتح الباري » (٦/ ٥٩٢) .
(٤) البخاري (٣٥٦٦) .
(٥) فتح الباري (٥/ ٥٩٢) ، وانظر « الشفا » (ص ٣٧٤) .



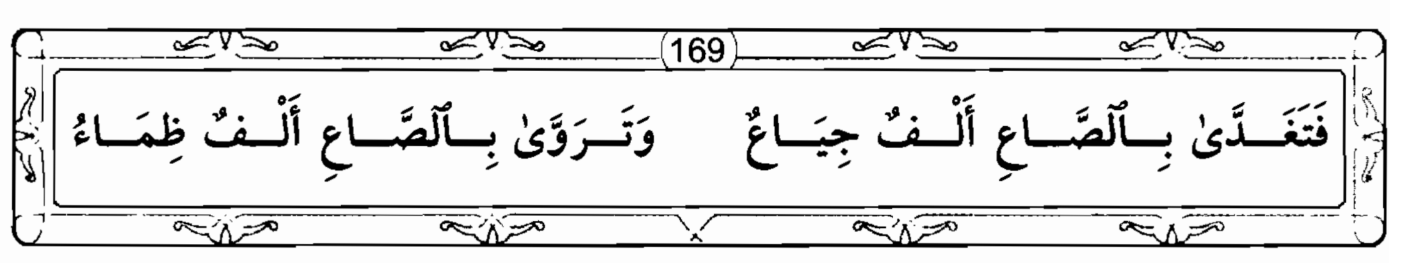
(أحيت المرملين) أي : الذين نفد زادهم من القحط حتىٰ أشرفوا على الموت ، فتسميتهم موتىٰ حتىٰ وصفوا بالحياة مجاز ، كما أن إسناد الإحياء إلى الراحة مجاز أيضاً ، فهو استعارة تبعية (من موت جهد) أي : قحط شديد ، والإضافة بيانية ، مبالغة بادعاء أن ذلك الجهد لما كان سبباً قريباً للموت . . أطلق عليه اسمه (أعوز القوم) عدل إليه عن أعوزهم الذي هو القياس ؛ لإزالة إيهام لفظ (المرملين) أنه خاص بذكورهم ، وإن كان التغليب في مثله شائعاً ذائعاً .

فإن قلت : شمول (القوم) للإناث إنما هو بطريق التبع ، فساوىٰ (المرملين) .

قلت : الفرق بينهما واضح ؛ لأن شمول القوم للإناث لفظي وإن قلنا بالتبعية ، ومن ثم لم يحتج لقرينة ، بخلاف (المرملين) ، فأفاد (القوم) ما لم يفده (المرملين) .

(فيه) أي : في ذلك الجهد (زاد وماء) من : أعوزه الشيءُ إذا احتاج إليه ، عبر بـ(زاد) مع أنه إنما يقال في طعام المسافر ، إشعاراً بأنهم لما حصلت لهم تلك الشدة التي أدت بهم إلى الإشراف على الموت . . صاروا كالمسافرين المشرفين على الهلاك .

وبين (الموت) و(الإحياء) ، و(الزاد) و(الماء) الطباق ، كالري والشبع المفهومين مما يأتي .



(فـ) بسبب إحيائه صلى الله عليه وسلم لهم كثر الله تعالىٰ ـ كرامة ومعجزة له ـ الطعامَ والماء القليل جداً حتىٰ (تغدىٰ) ـ بالدال المهملة ـ أي : أكل وقت

الغداء[1] ، وهو : ما قبل الزوال (**بالصاع**) الواحد ، وهو : قدحان بالكيل المصري تقريباً (**ألف جياع وتروىٰ بالصاع ألف ظماء**) جمع ظامىء ؛ أي : عاطش .

أما تروِّي الألف الظماء بالماء القليل النابع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم تارة ، وببركة دعائه أخرىٰ . . فقد مر الكلام عليه مستوفىً ، والتعبير (**بالصاع**) فيه . . المراد به : الماء القليل جداً ، كما يعلم مما مر ، وإنما ذكره علىٰ جهة مجاز المشاكلة لما قبله ، نحو : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ ، ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ وبـ(الألف) . . المراد به : العدد الكثير ، ففي بعض المواطن كالحديبية كانوا ألفاً وأربع مئة أو خمس مئة ، وفي بعض المواطن كانوا ثلاث مئة ، وفي بعضها كانوا أقل ، وفي غزوة تبوك كانوا ألوفاً مؤلفة .

وأما تغدي الألف الجياع بالصاع . . فهو ما في « الصحيحين » عن جابر رضي الله عنه : أنه رأىٰ بالنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق جوعاً شديداً ، فذهب لامرأته وأخبرها ، فأخرجت صاعاً من شعير ، وشاة داجناً ـ أي : سمينة ـ فذبحتها ، وطحنت الشعير ، فلما وضعت اللحم في البرمة . . ذهب للنبي صلى الله عليه وسلم وأخبره ، وطلب أن يأتي بنفر معه ، فصاح النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا أَهْلَ ٱلْخَنْدَقِ ؛ إِنَّ جَابِراً صَنَعَ سُوراً ، فَحَيَّ هَلاً بِكُمْ » ثم أمره أن لا ينزل البرمة ولا يخبز العجين حتىٰ يجيء ، فلما جاء صلى الله عليه وسلم . . بصق في العجين وبارك في البرمة ، ثم أمرها أن تدعو خابزة تخبز معها ، وأن تغرف من برمتها ولا تنزلها ، فأكلوا وهم ألف حتىٰ تركوه ، وإن عجينهم وبرمتهم كما هما[2] .

وفيهما أيضاً إلا بعض زيادات ففي « مسلم » عن أنس رضي الله تعالىٰ عنه في غزوة الخندق أيضاً : أن عمه زوج أمه أبا طلحة عرف جوع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صوته ، فذكر ذلك لأم سليم زوجته ، فأخرجت أقراصاً من شعير ، ولفتها بخمار ، وأعطتها لأنس ، ولفت طرف الخمار علىٰ رأسه مرتين كالعمامة ، وأرسلته إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجده بالمسجد ـ أي : الموضع الذي أعده

---

(١) كذا في النسخ ، ولعل الصواب : الغداة .

(٢) البخاري (٤١٠١) ، ومسلم (٢٠٣٩) ، والسُّور : كلمة فارسية ، وهو : الطعام الذي يدعىٰ إليه .

لمحاصرة الأحزاب ـ ومعه الناس ، فقال له : « أَرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ ؟ » قلت : نعم ، قال : « أَلِطَعَامٍ ؟ » قلت : نعم ، فقال لمن معه : « قُومُوا » فتقدمهم أنس ، فأخبر عمه ، فقال : يا أم سليم ؛ قد جاء رسول الله بالناس وليس عندنا طعام نطعمهم! فقالت : الله ورسوله أعلم ، فتلقىٰ أبو طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هَلُمِّي يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا عِنْدَكِ » فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت ، وعصرت عكة فأَدَمَتْه ، ثم قال فيه صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقول ، ثم قال : « ٱئْذَنْ لِعَشَرَةٍ »... فأكلوا حتىٰ شبعوا ، فخرجوا ، فقال : « ٱئْذَنْ لِعَشَرَةٍ » وهٰكذا ، فأكلوا وشبعوا وهم ثمانون ، ثم أكل صلى الله عليه وسلم وأهل البيت ، وتركوا بقية[1] ، وفي طرق هٰذه القصة ما يقتضي تعددها .

وإدخالهم عشرة عشرة ؛ لاتحاد القصعة وصغرها ، وقول أنس : (نعم) إما لاستحيائه من كثرة الناس ، فقال ذلك ليتبعه النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، وإما لأن من أرسله ذكر له أنه إذا رأىٰ كثرة الناس.. دعاه وحده .

وفي رواية : أن أبا طلحة قال : إنما أرسلت أنساً يدعوك وحدك ، ولم يكن عندنا ما يشبع من أرىٰ ، فقال : « ٱدْخُلْ ، فَإِنَّ ٱللهَ سَيُبَارِكُ فِيمَا عِنْدَكَ » .

وفي رواية : أنه صلى الله عليه وسلم مسح القرص ، فجعل ينتفخ ويتسع في الجفنة[2] .

وفي أخرىٰ : أن أبا طلحة رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرىء أصحاب الصفة (سورة النساء) وقد ربط علىٰ بطنه حجراً[3] .

وروىٰ مسلم : أنهم في غزوة تبوك جاعوا ، فسأل عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو بفضل أزوادهم ، ثم يدعو الله لهم عليها بالبركة ، ففعل ، فاجتمع شيء يسير ، فدعا صلى الله عليه وسلم بالبركة ، ثم قال : « خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ » ، فما

---

(١) البخاري (٥٣٨١) ، ومسلم (٢٠٤٠) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٥٢٨٥) ، وأبو يعلىٰ (٤١٥١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٥/ ١١١) .
(٣) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣١٢٩) .

تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه ، فأكلوا حتىٰ شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ ٱللهِ . . . » الحديث[1] .

وفيهما عن أنس أيضاً : أن أمه أرسلته إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيسة في تَوْر وهو عروس بزينب ، فأمره أن يدعو من لقي ، فدعا من لقي ، فكانوا زهاء ثلاث مئة ، فوضع صلى الله عليه وسلم يده علىٰ تلك الحيسة ، وتكلم بما شاء الله ، ثم دعا عشرة عشرة ، فأكلوا حتىٰ شبعوا ، فما أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت ؟![2]

وصح عن سمرة بن جندب : أنهم تداولوا قصعة من غدوة إلى الليل ، يقوم عشرة ويقعد عشرة ، قيل له : مم كانت تمد ؟ قال : ما كانت تمد إلا من هـٰهنا ، وأشار إلى السماء[3] .

(170)

وَوَفَـىٰ قَـدْرُ بَيْضَـةٍ مِـنْ نُضَـارٍ دَيْـنَ سَلْمَـانَ حِيـنَ حَـانَ ٱلْـوَفَـاءُ

(و) منها أيضاً أنه (**وفىٰ قدر بيضة**) أي : بيضة دجاج (**من نضار**) أي : من ذهب (**دين سلمان**) الفارسي رضي الله تعالىٰ عنه ، الذي كان من جملة ما كاتبه عليه سيده ، وهو أربعون أوقية من الذهب ، كما مر آنفاً ، مع صغر تلك البيضة ، وعظم ذلك الدين ، لـٰكن ببركة مسه صلى الله عليه وسلم لتلك البيضة براحته الكريمة (**حين حان**) أي : قرب (**الوفاء**) أي : حلول الأجل .

وبين (وفىٰ) و(الوفاء) الجناس الناقص ، ورد العجز على الصدر ، وبين (دين) و(حين) و(حان) الجناس اللاحق .

وسبب هـٰذا الدين علىٰ سلمان : أنه

---

(١) مسلم (٢٧) .
(٢) البخاري (٤٧٩٣) ، ومسلم (١٤٢٨/ ٩٤) ، التَّوْر : إناء من صُفْر أو حجارة .
(٣) أخرجه ابن حبان (٦٥٢٩) ، والترمذي (٣٦٢٥) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٦٧٠٧) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ ٢٣٢) ، وغيرهم .

كَـانَ يُـدْعَـىٰ قِنَّـاً فَـأُعْتِـقَ لَمَّـا أَيْنَعَـــتْ مِـــنْ نَخِيلِـهِ ٱلأَقْنَـاءُ

(كان يدعىٰ قناً) أي : أرق بالباطل ، وملخص قصته ـ كما حكاه هو عن نفسه ـ : أنه من أصبهان ، واجتهد في المجوسية حتىٰ صار رأسها ، فمر بكنيسة نصارىٰ ، فأعجبوه ، فذكر ذلك لأبيه ، فقيده وقال له : دينك ودين آبائك خير من دينهم ، وكان سألهم عن أصل دينهم ، فقالوا : بالشام ، فأرسل إليهم : إذا جاءكم أحد من الشام . . فأخبروني ، ففعلوا ، فحل القيد وتوجه إليها ، فسأل عن أعلمهم ، فدل عليه ، فخدمه إلىٰ أن مات ، ثم خدم من أقيم مقامه ، فلما احتضر . . قال له : بمن توصيني ؟ قال : بفلان بالموصل ، فجاءه فأخبره ، وخدمه ، فلما احتضر . . قال له : بمن توصيني ؟ قال : بفلان بنصيبين ، فجاءه فأخبره ، وخدمه ، فلما احتضر . . ذكر ذلك له ، قال : بفلان بعمورية من أرض الروم ، فلما احتضر . . قال له : يا بني ؛ ما أعلم أحداً علىٰ ما كنا عليه آمرك أن تأتيه ، وإنه أظل زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج من أرض العرب ، يهاجر إلىٰ أرض بين حرتين ، به علامات لا تخفىٰ ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بأرضه . . فافعل .

ثم مات ، فمر بي نفر من كلب ، فقلت لهم : احملوني إلىٰ أرض العرب وأعطيكم ما عندي ، فحملوني ، فلما بلغوا وادي القرىٰ . . ظلموه ، فباعوه من يهودي ، فباعه من ابن عم له من بني قريظة بالمدينة ، قال : فحملني إليها ، فعرفتها ، فبعث صلى الله عليه وسلم بمكة ، فلم أسمع له ذكراً ، ثم هاجر إلى المدينة ، فبينا أنا أجني لسيدي تمراً . . جاءه ابن عمه ، فقال له : قاتل الله بني قَيْلة ـ وهي : أم الأوس والخزرج ـ إنهم الآن لمجتمعون بقباء علىٰ رجل قدم إليهم من مكة اليوم ، يزعمون أنه نبي ، فأخذتني رِعدة شديدة حتىٰ ظننت أني ساقط ، فنزلت ، فقلت لسيدي : ماذا قال لك هـٰذا ؟ فغضب ولطمني لطمة شديدة ، وقال : ما لك ولهـٰذا ؟ أقبل علىٰ عملك .

فلما أمسىٰ . . أخذ شيئاً جمعه وذهب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء ، فقال له : هـٰذه صدقة ، فأمر أصحابه بأكله ولم يأكل ، فجمع شيئاً آخر وأتىٰ به

إليه وهو بالمدينة ، فقال له : هٰذا هدية ، فأكل هو وأصحابه ، ثم جاءه بالبقيع وقد تبع جنازة ، فجعل ينظر إلىٰ ظهره صلى الله عليه وسلم ، فعرف أنه يتأمله لشيء وصف له ، فألقىٰ رداءه عن ظهره ، فرأىٰ خاتم النبوة ، فقص عليه حديثه وأسلم ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يكاتب ، فكاتب ـ نظراً لحالته الراهنة ، وإلا . . فهو من جملة الأحرار الذين هم أتباع حواريي عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ـ علىٰ غرس ثلاث مئة نخلة ، وتعهدها حتىٰ تثمر ، وأربعين أوقية ذهباً ، فغرس له النخل فأثمرت من عامها ، وأعطاه مثل بيضة من ذهب فوفت الأربعين[1] .

(فأعتق) بأداء النجوم (لما أينعت) أي : نضجت (من نخيله) حال من قوله : (الأقناء) جمع قنو ، وهو : العذق ؛ أي : العرجون ، ولأجل ما ذكر عن سلمان أنه بمجرد سماعه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أخذته الرعدة الشديدة وهو علىٰ رأس نخلة يجنيها لسيده ، وشاهده سيده منه ، ومع ذلك الدال علىٰ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه بلغ أمرُه ونعتُه الأباعد والأقارب . . لما فهم أن له تلفتاً إلىٰ سماع خبر النبي صلى الله عليه وسلم . . لطمه لطمة شديدة ؛ لأنه كان من جملة اليهود الذين كانوا يفتخرون على الأنصار بأنه قرب زمن نبي عربي ، يكونون أول من يتبعه ، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم المدينة . . كفر به أكثرهم ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ .

ثم عرض الناظم رحمه الله تعالىٰ لموالي سلمان منكراً عليهم ؛ إذ لم يؤمنوا بنبينا صلى الله عليه وسلم مع ما شاهدوه من حال سلمان ، بل زادوا في الطغيان بضربه ، فقال :

(172)

أَفَــلَا تَعْــذِرُونَ سَلْمَــانَ لَمَّــا   أَنْ عَــرَتْــهُ مِــنْ ذِكْــرِهِ ٱلْعُــرَوَاءُ

(أ) تلطمون سلمان وتمنعونه من الاجتماع بمحمد صلى الله عليه وسلم حتىٰ لا يؤمن به (فلا تعذرون سلمان) أي : ترون له عذراً يمنعكم من إيذائه ومنعه وقد

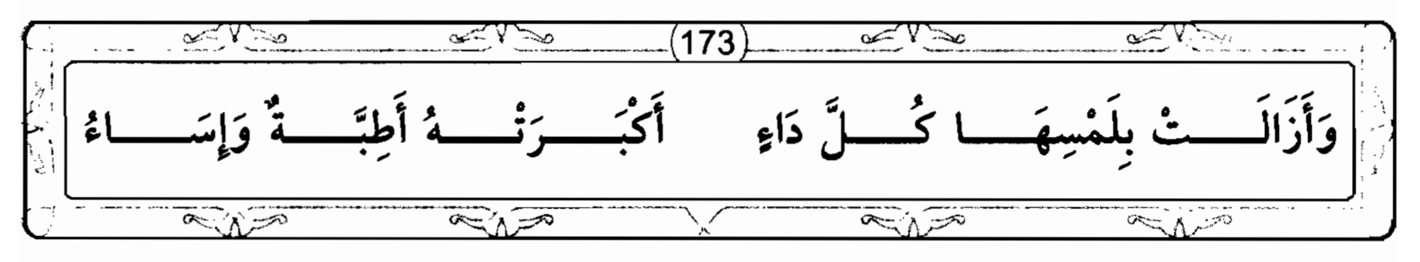
---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (١/ ٢١٤) ، و« عيون الأثر » (١/ ٧٦) .

وضح الدليل عندكم علىٰ نبوته صلى الله عليه وسلم (لما) أي : حين (أن عرته) أي : غشيته (من) أجل (ذكره) أي : ذكر اليهودي لقريبه النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، واجتماع الناس به في قباء (**العرواء**) أي : قوة الحمىٰ ومسها في أول أخذها للإنسان بالشدة والرعدة .

وما ذكرته في تقرير هٰذا البيت المطابق لما في قصة سلمان ، والذي فيه غاية المناسبة للمقام ، وغاية الإنكار على اليهود ورميهم بالعناد والبهتان . . أولىٰ مما وقع للشارح في تقريره علىٰ ما فيه من النظر ، كما يعلم بتأمله .

وبين (عرته) و(العرواء) تجنيس شبه الاشتقاق .



(173)

وَأَزَالَـــتْ بِلَمْسِهَـــا كُــلَّ دَاءٍ أَكْبَـــرَتْـــهُ أَطِبَّـــةٌ وَإِسَـــاءُ

(و) من أوصاف تلك الراحة الكريمة أيضاً أنها(**أزالت بلمسها**) لمن به أمراض أعيت الأطباء (كل داء) به (أكبرته) أي : استعظمته وعجزت عن برئه (أطبة) جمع طبيب ، وهو : العالم بعلم الطب الذي هو : حفظ صحة الإنسان بمنع الواصل إليه ودفع الحاصل (وإساء) بكسر الهمزة ؛ أي : يداوي المرض ، جمع آس ، كراع ورعاء .

روى الدارمي : أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ؛ إن ابني به جنون ، وإنه ليأخذه عند غدائنا وعشائنا ، فمسح صلى الله عليه وسلم صدره ، فقاء من جوفه مثل الجرو الأسود ، فشفي[١] .

فائدة : روى البخاري أن سلمة أصيب يوم خيبر بضربة في ساقه ، فنفث فيها صلى الله عليه وسلم ثلاث نفثات ، فما اشتكىٰ قط[٢] .

---

(١) سنن الدارمي (١٩) .

(٢) البخاري (٤٢٠٦) .

وَعُيُونٌ مَرَّتْ بِهَا وَهْيَ رُمْدٌ فَأَرَتْهَا مَا لَمْ تَرَ ٱلزَّرْقَاءُ

(و) من أوصافها أيضاً أنه برىء بها (عيون) باصرة (مرت بها) أي : تلك الراحة (وهي رمد) أي : معطلة الإبصار (فأرتها) أي : تلك الراحة تلك العيون (ما) أي : الشيء البعيد الذي (لم تر) أي : تراه ، وفيه مع (أرتها) جناس الاشتقاق (الزرقاء) المشهورة بزرقاء اليمامة التي كانت ترىٰ من مسيرة ثلاثة أيام .

روى البخاري في غزوة خيبر : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أَيْنَ عَلِيٌّ ؟ » ـ أي : ليعطيه الراية ويكون الفتح علىٰ يديه ، كما في رواية أخرىٰ ـ قالوا : يشتكي عينيه ، قال : « أَرْسِلُوا إِلَيْهِ » ، فأتي به ، فبصق صلى الله عليه وسلم في عينيه ، ودعا له ، فبرىء حتىٰ كأن لم يكن به وجع[١] .

وعند الطبراني عن علي : فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إلي صلى الله عليه وسلم الراية يوم خيبر[٢] .

وعند الحاكم عنه : فوضع صلى الله عليه وسلم رأسي في حجره ، ثم بصق في راحته ، فدلك بها عيني .

وعند الطبراني : فما اشتكيتها حتى الساعة ، قال : ودعا لي صلى الله عليه وسلم فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَذْهِبْ عَنْهُ ٱلْحَرَّ وَٱلْقَرَّ » فما اشتكيتهما حتىٰ يومي هـٰذا[٣] .

فائدة : روى ابن أبي شيبة والبغوي والطبراني وأبو نعيم : أنه صلى الله عليه وسلم نفث في عيني فديك ، وكانتا مبيضتين لا يبصر بهما شيئاً ، وكان وقع علىٰ بيض حية ، فكان يدخل الخيط في الإبرة ، وإنه لابن ثمانين سنة ، وإن عينيه لمبيضتان[٤] .

---

(١) البخاري (٣٧٠١) .
(٢) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/ ١٢٦) وقال : (رواه الطبراني ، وفيه أحمد بن سهل بن علي الباهلي ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات) .
(٣) المعجم الأوسط (٢٣٠٧) .
(٤) المصنف (٧/ ٤٤٥) ، والمعجم الكبير (٤/ ٢٥) .

وَأَعَـــادَتْ عَلَــىٰ قَتَــادَةَ عَيْنــاً   فَهْــيَ حَتَّــىٰ مَمَــاتِــهِ ٱلنَّجْــلَاءُ

(و) منها أيضاً أنها (أعادت علىٰ قتادة) بن النعمان (عيناً) له ذهبت (فهي حتىٰ) أي : إلىٰ (مماته النجلاء) أي : الواسعة ، والمراد : واسعة النظر .

وقصته : أن عينه أصيبت يوم أحد ، فوقعت علىٰ وجنته ، فأتىٰ بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ إن لي امرأة أحبها ، وأخشىٰ إن رأتني . . تَقْذَرْني ، فأخذها صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة ، وردها إلىٰ موضعها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱكْسُهَا جَمَالاً » ، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما نظراً ، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرىٰ[1] .

وقد وفد علىٰ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجل من ذريته ، فقال له عمر : من أنت ؟ فقال منشداً : [من الطويل]

أَنَا ٱبْنُ ٱلَّذِي سَالَتْ عَلَىٰ ٱلْخَدِّ عَيْنُهُ   فَــرُدَّتْ بِكَــفِّ ٱلْمُصْطَفَــىٰ أَيَّمَــا رَدِّ

فَعَــادَتْ كَمَــا كَــانَــتْ لِأَوَّلِ أَمْــرِهَــا   فَيَا حُسْنَ مَا عَيْنٍ وَيَا حُسْنَ مَا خَدِّ

فوصله عمر ، وأحسن جائزته[2] .

قال السهيلي : (وفي رواية : أصيبت عيناي يوم أحد ، فسقطتا علىٰ وجنتي ، فأتيت بهما النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعادهما مكانهما ، وبصق فيهما ، فعادتا تبرقان ، قال الدارقطني : هـٰذا حديث غريب ، تفرد به عمار بن نصر عن مالك ، وهو ثقة)[3] .

وأخرج الطبراني وأبو نعيم عنه : كنت يوم أحد أتقي السهام بوجهي دون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي ، فأخذتها بيدي ، وسعيت إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآها في كفي . . دمعت

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩٥) .
(٢) انظر « الروض الأنف » (٦/ ٨) .
(٣) الروض الأنف (٦/ ٩) .

عيناه ، فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ قِ قَتَادَةَ كَمَا وَقَىٰ وَجْهَ نَبِيِّكَ بِوَجْهِهِ ، فَٱجْعَلْهَا أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ وَأَحَدَّهُمَا نَظَراً »[1] .

ويجمع بين رواية الواحدة ورواية الثنتين علىٰ تقدير صحتهما بأن أحد الرواة ظن أن الساقط واحدة ، وبعضهم علم أنه ثنتان ، فأخبر كل بحسب علمه ، ومن قواعدهم : أن زيادة الثقة مقبولة ، وبها تترجح رواية الثنتين .

(176)

أَوْ بِلَثْمِ ٱلتُّرَابِ مِنْ قَدَمٍ لَا نَتْ حَيَاءً مِنْ مَشْيِهَا ٱلصَّفْوَاءُ

(أو) ليته خصني في اليقظة أو في النوم نظير ما مر (بلثم) أي : بتقبيل (التراب) المنفصل (من قدم) له صلى الله عليه وسلم موصوفة بأوصاف جليلة كسابقها ، منها : أنها كانت إذا مشت علىٰ حجر (لانت حياء) أي : لأجل أو من جهة استحيائها منها وإجلالها لها (من) أجل (مشيها) أي : تلك القدم الكريمة لها (الصفواء) أي : الحجارة الصلدة ، فاعل (لانت) ، وأعيد ضمير (مشيها) وما بعده عليها لتقدمها رتبة ، ونبه بذلك علىٰ أنه ينبغي لك أيها العاقل أن تستحيي من مخالفتك ما جاء عن نبيك صلى الله عليه وسلم ؛ لأنك إذا علمت أن الحجر الأصم استحيىٰ منه أن يبقىٰ علىٰ صلابته مع مشيه صلى الله عليه وسلم ، فتشق عليه صلابته ، فلان له حتىٰ يسهل عليه مشيه عليه . . فلأنت أولىٰ بالاستحياء منه أن تبقىٰ علىٰ مخالفته ، مع علمك بجليل أوصافه ، وعلي أخلاقه صلى الله عليه وسلم .

ثم هٰذا الذي ذكره الناظم ذكره غيره ممن تكلم على الخصائص ، لٰكن بلا سند .

وعبارة الحافظ السيوطي في « خصائصه » : (ومما أورده رزين ـ أي : صاحب «الصحاح» ـ في « خصائصه » أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا وطىء الصخر . . أثر فيه) .

وذكر الحافظ السرمري الحنبلي تلميذ ابن القيم ذلك في « خصائصه » فقال : (وأما إلانة الحديد لداوود عليه الصلاة والسلام . . فإن إلانة الحديد معروفة بالنار ، وقد ألان الله تعالى الحجارة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرف لين الحجارة

---

(١) المعجم الكبير (١٩/ ٨) ، دلائل النبوة (٢/ ٦٢٢) .

بالنار ولا غيرها ، وهـٰذا أبلغ) ثم قال : (وأعجب من هـٰذا أنه كان إذا مشىٰ على الصخر . . لانت تحت أقدامه ، وإذا مشىٰ على الرمل . . لا يؤثر فيه ، خرقاً للعادة الجارية) وقال في أول كتابه : (ونحن نذكر ما نقل عن كل نبي من المعجزات ، وما ثبت لنبينا صلى الله عليه وسلم من الخصائص ، وما له من الفضائل والفواضل) .

(177)

مَوْطِئِ ٱلْأَخْمُصِ ٱلَّذِي مِنْهُ لِلْقَلْـ ـــبِ إِذَا مَضْجَعِـي أَقَـضَّ وِطَـاءُ

(موطىء) بدل من (التراب) (**الأخمص**) بضم الميم ، المراد به : الجنس ؛ أي : الأخمصين ، وهو من التعبير بالبعض عن الكل ؛ إذ الأخمص من القدم : الموضع الذي لا يلتصق بالأرض منها عند الوطء ، والخمصان المبالغ فيه ، ولا يرد علىٰ كلامه ما رواه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه : (كان صلى الله عليه وسلم إذا وطىء بقدمه . . وطىء بكلها ، ليس له أخمص)[1] وابن عساكر عن أبي أمامة : (كان صلى الله عليه وسلم لا أخمص له ، يطأ علىٰ قدمه كلها)[2] لأن المراد : أن أخمصه معتدل الخمص ، ومن ثم قال ابن الأعرابي : إذا كان خمص الأخمص بقدر لم يرتفع جداً ولم يستو أسفل القدم جداً . . فهو أحسن ما يكون ، وإن استوىٰ أو ارتفع جداً . . فهو مذموم .

(الذي) نعت للمضاف ، ولا يصح كونه نعتاً للمضاف إليه إلا بالتكلف (منه) صفة للمبتدأ الذي هو (وطاء) تقدمت عليه فصارت حالاً (**للقلب**) خبر المبتدأ ، وهو : الفؤاد ، وقد يعبر به عن العقل ، ومر المراد بالقلب والخلاف في العقل .

وذكر القلب بعد الأخمص فيه تجنيس مراعاة النظير .

(إذا **مضجعي**) أي : جنبي الذي أضطجع عليه (**أقض**) ـ بالقاف والمعجمة ـ أي : أصابه القضض ، وهو : التراب الذي يعلو الفراش ، كما في « القاموس » (وطاء) أي : فراش ، وصف ذلك التراب الذي هو موطىء القدمين الشريفتين بأنه لو

---

(١) دلائل النبوة (١/ ٢٧٤) .

(٢) تاريخ دمشق (٣/ ٣٠٠) .

فرض أن مضجعه أصاب تراب فراشه الذي هو من جملة ذلك التراب . . سرىٰ سر ذلك التراب الأكبر إلىٰ قلبه ، فأناره وأراحه من الأغيار ، وصيره علىٰ أكمل الأحوال ، وصانه عن قبائح الخطرات والأهوال ، كما أن الفراش يصون من فرش له عن ذلك ، وهـٰذا أولىٰ وأظهر مما حل به الشارح هـٰذا البيت . فتأملهما .

ومن أوصافها أيضاً أنه

(178)

حَظِـيَ ٱلْمَسْجِـدُ ٱلْحَـرَامُ بِمَمْشَـا ... هَـا وَلَـمْ يَنْـسَ حَظَّـهُ إِيلِيَـاءُ

(حظي المسجد الحرام) يعني : جميع حرم مكة المشرفة ؛ إذ المسجد الحرام يراد به ذلك كثيراً ، كما في القرآن في مواضع كثيرة ، بل كل ما ورد فيه من ذلك المراد به : مكة ، إلا في نحو قوله تعالىٰ : ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ .

(بممشاها) أي : بمشي تلك القدم فيه أي : فضل حرم مكة سائر البقاع ، ما عدا موضع قبره المكرم ، كما عليه أكثر العلماء ، بواسطة ولادة النبي صلى الله عليه وسلم وتربيته ونشأته فيه ، ومن ثم صح من غير نزاع فيه لأحد : أنه صلى الله عليه وسلم قال لمكة : « وَٱللهِ إِنَّكِ لأَحَبُّ أَرْضِ ٱللهِ إِلَىٰ ٱللهِ ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ كُرْهاً مَا خَرَجْتُ »[1] ، والحديث المعارض لذلك الذي يرويه مفضلو المدينة المنورة . . موضوع كما اعترف به إمام المالكية أبو عمر بن عبد البر ، وصرح بأن أفضلية مكة هي الحق عند من ألهم رشده ، وبرىء من التعصب .

(ولم ينس حظه) منه (إيلياء) أي : بيت المقدس ، بل شرفه صلى الله عليه وسلم بمشيه فيه أيضاً ، وصلاته فيه بالأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ليلة الإسراء ، كما جاء ذلك في الأحاديث الصحيحة ، ولم يذكر المدينة ؛ لأنه هو الذي أنشأ شرفها ، كما قال في الحديث الصحيح : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ ٱلْمَدِينَةَ . . . » الحديث[2] .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٧٠٨) ، والترمذي (٣٩٢٥) ، وابن ماجه (٣١٠٨) .
(٢) أخرجه مسلم (١٣٧٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢٠١) .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « حَرَّمْتُ ٱلْمَدِينَةَ » أي : نزل تحريمها علىٰ لساني ولم يسبق زمني ، بخلاف مكة ، فإن تحريمها من يوم خلق الله السماوات والأرض ، كما في حديث البخاري وغيره ، فحديث البخاري وغيره أيضاً : أن إبراهيم حرم مكة[١] . . معناه : أظهر حرمتها لا غير ، جمعاً بين الحديثين ، فإنه متعين ما أمكن ، وليس الكلام فيما أنشىء حرمته ، وإنما الكلام فيما عُرفت حرمته من قبل علىٰ لسان غيره من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام ، لـٰكن ازدادت حرمته ببركة حلوله به ، ومشيه فيه ، فَفَضَل غيرَه حينئذ .

ففضل مكة وبيت المقدس ليس لتقدم حرمتهما قبله صلى الله عليه وسلم ، بل لأجل حلوله ومشيه فيهما .

وبين (حظي) و(حظه) كـ(ورمت) و(رمىٰ) تجنيس شبه الاشتقاق .

ومن أوصافها أيضاً أنها

(179)

وَرِمَـــتْ إِذْ رَمَـــىٰ بِهَـــا ظُلَـــمَ ٱللَّيْــ ـــلِ إِلَــى ٱللهِ خَــوْفُــهُ وَٱلــرَّجَــاءُ

(ورمت) كما في حديث « الصحيحين » : أنه صلى الله عليه وسلم قام من الليل حتىٰ تورمت قدماه ، فقيل له : أتتكلف هـٰذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! فقال : « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟! »[٢] .

وفي رواية لهما عن عائشة رضي الله عنها : قام نبي الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ تورمت قدماه ، وفي رواية : حتىٰ تفطرت قدماه ، فقلت له : لم تصنع هـٰذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! فقال : « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟! » فلما بدن وكثر لحمه . . صلىٰ جالساً ، فإذا أراد أن يركع . . قام فقرأ ثم ركع[٣] .

و(الفاء) للسببية ، والتقدير : أأترك تهجدي فلا أكون عبداً شكوراً ؟! والمعنىٰ :

---

(١) البخاري (٢١٢٩) .
(٢) البخاري (٤٨٣٦) ، ومسلم (٢٨١٩/ ٧٩) .
(٣) البخاري (٤٨٣٧) ، ومسلم (٢٨٢٠) .

أن المغفرة سبب لكون التهجد لمحض الشكر ، فكيف أتركه ؟!

قال ابن بطال شارح « البخاري » : (في هٰذا الحديث أخذ الإنسان علىٰ نفسه بالشدة في العبادة وإن أضر ذلك ببدنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم إذا فعل ذلك مع علمه بما سبق له . . فكيف بمن لم يعلم ذلك ، فضلاً عمن لم يأمن أنه استحق النار ؟!) اهـ

قال بعض المفسرين : قام صلى الله عليه وسلم طول ليله علىٰ قدميه إلا قليلاً ، فلما تورمت قدماه . . كان يقف علىٰ أطراف أصابعه ، فأنزل الله تعالىٰ عليه : ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ أي : طأ الأرض بكل قدميك ، واسترح مما أنت فيه من التعب ، فإننا ما أنزلنا عليك القرآن لتشقىٰ .

(إذ) أي : وقت ، أو لأجل أنه (رمىٰ بها ظلم الليل) فيه استعارة بالكناية ، شبه القدم الشريفة بسهم صائب من حيث إن قيام القدم في طاعة الله تعالىٰ أوجب زوال ظلمة الليل ووحشته ، كما أن رمي السهم في طاعة الله تعالىٰ يزيل سَوْرة عدوه ووطأته ، فتشبيه القدم بالسهم في ذلك استعارة بالكناية ؛ لبنائها علىٰ هٰذا التشبيه المكني في النفس ، وإثبات الرمي لها استعارة تخييلية ، وبهٰذا التقرير البديع المبقي لـ(الباء) علىٰ حالها يندفع زعم الشارح أنها بمعنىٰ (من) أو (عن) وأنه لا يصح بقاؤها علىٰ حالها .

ولما كان قيام الليل كذلك ينشأ إما عن مزيد خوف أو سعة رجاء . . بين الناظم رحمه الله تعالىٰ أن قيامه صلى الله عليه وسلم لم يكن لأجل ذلك ، وإنما كان لمحض الشكر ، كما أفاده قوله صلى الله عليه وسلم : « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟! » مع التلذذ بمناجاة الله تعالىٰ والقيام بين يديه ، وأن خوفه ورجاءه اللذين وصل فيهما إلىٰ غاية لم يصل إليها غيره . . إنما كانا لمحض التقرب بهما إلى الله تعالىٰ فقال :

(إلى الله) خبر مقدم (خوفه) منه تَعَالَىٰ ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَخْوَفُكُمْ مِنْهُ »[1] (والرجاء) أي : وسعة أمله فيما عنده لا إلىٰ غرض آخر ؛ لأن الله تعالىٰ عصمه عن أن ينظر أو يميل إلىٰ غيره طرفة عين ، بل هو دائم المثول في حضرات الشهود الأقدس ، والتملي بمعاني القرب الأنفس .

---

(١) أخرج البخاري نحوه (٢٠) .

ووقع للشارح رحمه الله تعالىٰ حل هـٰذا البيت علىٰ خلاف ما ذكرته ، وما ذكرته أولىٰ وأنسب بمقامه صلى الله عليه وسلم ، كما لا يخفىٰ علىٰ متأمل .

ثم رأيت القرطبي أشار إلىٰ ما ذكرته حيث قال : ظن من سأله في حديث « الصحيحين » المذكور عن سبب تحمله المشقة في العبادة : أنه إنما يعبد الله خوفاً من الذنوب ، وطلباً للمغفرة والرحمة ، فمن تحقق أنه غفر له . . لا يحتاج إلىٰ ذلك ، فأفادهم أن هنا طريقاً آخر للعبادة ، وهو الشكر ؛ إذ هو : الاعتراف بالنعمة ، والقيام بالخدمة ، فمن كثر ذلك منه . . سمي شكوراً ، لـٰكنه قليل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[١] .

وفي الحديث بيان ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه تعالىٰ ، قال العلماء : إنما ألزم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنفسهم بشدة الخوف ؛ لعلمهم بعظيم نعمة الله عليهم ، وأنه تعالى ابتدأهم بها قبل استحقاقها ، فبذلوا مجهودهم في عبادته ؛ ليؤدوا بعض شكره ، مع أن حقوق الله تعالىٰ أعظم من أن يقوم بها العباد . اهـ

وقيام الليل كان في أول الإسلام واجباً عليه صلى الله عليه وسلم وعلىٰ أمته ، كما ذكره الله تعالىٰ في أول (سورة المزمل) ، ثم نسخ بما في آخرها ، ثم نسخ عن الأمة بالصلوات الخمس ، وكذا عنه صلى الله عليه وسلم على الأصح ، كما نص عليه الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه ، ولـٰكن أكثر أصحابه علىٰ أنه لم ينسخ عنه صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أي : عبادة زائدة في فرائضك ؛ لأن الأمر للوجوب ، وقيل : معناه : زيادة خالصة لك ؛ لأن تطوع غيره يكفر ذنبه ، وتطوعه خالص له ؛ لكونه لا ذنب عليه ، فسائر تطوعاته صلى الله عليه وسلم لمحض زيادة الدرجات والقرب ، وأما حديث : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْأَلُكَ ٱلْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ »[٢] . . فهو تعليم لأمته صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر « المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم » (٧/ ١٣٩) .
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٦) ، وأحمد (١/ ١٧٢) ، وأبو يعلىٰ (٧١٥) .

وبين (الخوف) و(الرجاء) المقابلة .

ومن أوصافها أيضاً أنها

(180)

دَمِيَتْ فِي ٱلْوَغَىٰ لِتُكْسِبَ طِيباً ... مَا أَرَاقَتْ مِنَ ٱلدَّمِ ٱلشُّهَدَاءُ

(دميت) أي : خرج دمها (في الوغىٰ) قال الشارح : (هو : الصوت والجلبة ، ويقال للحرب ؛ لما فيها من الصوت والجلبة وكثرة اختلاط الأصوات ، وهو المراد هنا) اهـ

(لتكسب) هي (طيباً ما) أي : الذي (أراقت من الدم) بيان لـ(ما) (الشهداء) جمع شهيد ، فعيل بمعنىٰ فاعل ؛ لأنه يشهد الجنة وما أعد الله له فيها عند طلوع روحه ، أو مفعول ؛ لأن ملائكة الرحمة تشهده عند ذلك ، وهو فاعل (أراقت) أي : من حكم خروج الدم من رجله المشرفة : أن يعود طيب ذلك الدم وبركته علىٰ جميع دم الشهداء حتىٰ تكون رائحة دمهم كريح المسك ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم عن دمهم بأنه كذلك[1] ، وكان ينبغي للناظم أن يذكر هـٰذا من أوصاف يده الكريمة ؛ لأن الذي في « البخاري » : أنه صلى الله عليه وسلم دميت إصبعه فقال: [من الرجز]

هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ ٱللهِ مَا لَقِيتِ[2]

وقد يحمل كلام الناظم : علىٰ ما سبق أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلىٰ ثقيف يدعوهم إلى الله تعالىٰ ، فأبوا ، وأغروا به سفهاءهم ، فرموه بالحجارة إلىٰ أن أدموا رجليه ، فجلس من شدة الألم ، وزيد مولاه يحميه منهم .

فإن قلت : ليس هنا حرب ، والناظم قيد ذلك بـ(الوغىٰ) .

قلت : قد علمت أن أصل الوغىٰ : الصوت والجلبة ، وهـٰذا موجود هنا ، علىٰ أن لنا أن نمنع قولك : ليس هنا حرب ، وسند المنع : أنه أقام عندهم شهراً يدعوهم وهم لا يجيبونه ، بل يغرون به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه .

---

(١) كما في حديث عند ابن حبان (٣١٩١) ، وأحمد (٥/ ٢٤٣) .

(٢) البخاري (٢٨٠٢) .

قال موسىٰ بن عقبة : ورجموا عراقيبه صلى الله عليه وسلم بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدم ، زاد غيره : وكان إذا أذلقته الحجارة.. قعد إلى الأرض ، فيأخذونه بعضديه فيقيمونه ، فإذا مشىٰ.. رجموه وهم يضحكون وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتىٰ لقد شج في رأسه شجاجاً ، وهـٰذا حرب أيُّ حرب ؟! لأن من أقام بين ظهراني العدو يواجههم بما يكرهونه من غير أن ينزجر بزجرهم ، ولا ينكف عنهم بضربهم.. محارب لهم أي محارب ؟!

ويدل لذلك : أن أئمتنا عدوا من المتحاربين الصفين إذا تقابلا بحيث يصل سلاح كلٍّ إلى الآخر وإن لم يقع قتال ، بل ولا سل سيف ، ولا رمي سهم ، تنزيلاً لما بالقوة منزلة ما بالفعل ، فكذلك هنا ، بل أولىٰ ؛ لأنه وجد من جانبهم ضرب وجرح وغيرهما ، ومن جانبه غلظة عليهم ، وسب لهم ولآلهتهم .

وبما قررته يعلم عذر الشارح في صرفه (الوغىٰ) عن معناه الحقيقي إلىٰ معناه المجازي ، وقال : (إنه المراد هنا) أي : كما يقضي به سياق النظم ، لـٰكن كان عليه أن يبين ما يشهد لذلك المراد من كتب السير أو غيرها .

وإذا تقرر أنه صلى الله عليه وسلم قام علىٰ قدمه حتىٰ تورمت ، وأنها دميت في الحرب ؛ ليُكسب طيبُ دمها دمَ الشهداء طيباً

(181)

فَهْيَ قُطْبُ ٱلْمِحْرَابِ وَٱلْحَرْبِ كَمْ دَا ... رَتْ عَلَيْهَا فِي طَاعَةٍ أَرْحَاءُ

(فهي) حينئذ (قطب المحراب و) قطب (الحرب) أي : انتهىٰ إليها الثبات في الصلاة والحرب إلىٰ حالة لم توجد في غيرها ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا أتقىٰ ولا أخشع لله منه ، ولا أشجع منه كما مر ، فهي قطب العبادات والجهاد في سبيل الله ، لا تتحرك ولا تنتقل عن مكانها ، فلذا دارت عليها قبائل العرب الذين أكرمهم الله بطاعته ؛ للاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، والمجاهدة معه ، كما قال : (كم) أي : مرات كثيرة (دارت عليها في طاعة) الله تعالىٰ ، حال من قوله : (أرحاء) أي : قبائل ، وهـٰذا تذييل .

وقطب الرحَىٰ : ما يدور عليه ، ويسمىٰ أمير الجيش قطب رحى الحرب ؛ لأنها إنما تدور عليه .

واستفيد من ذلك : أنها مركز دائرة الوجود ، فهي نقطة الكون المخلوق لأجله ابتداء ، والمتصرف فيه انتهاء .

وبين (المحراب) و(الحرب) تجنيس الاشتقاق[1] .

(182)

وَأُرَاهُ لَــوْ لَــمْ يُسَكِّــنْ بِهَــا قَبْــ ـــلُ حِـرَاءً مَـاجَـتْ بِـهِ ٱلـدَّأْمَـاءُ

(وأراه) أي : أعلم أنه صلى الله عليه وسلم (لو) هي مع شرطها وجوابها سدت مسد المفعول الثاني ، ويصح : أن (ماجت) هو المفعول ، وجواب (لو) محذوف دل عليه (ماجت) .

واعلم : أن الكلام علىٰ (لو) كثر اختلاف العلماء فيه ، وقد أوردت هنا خلاصته ؛ لأنه مما يضطر إلىٰ معرفته ، فأقول : هي شرط للماضي غالباً ، واختلفت عبارات النحاة في معناها حتىٰ قيل : إنهم لم يفهموه .

قال سيبويه : هي حرف لما كان سيقع لوقوع غيره .

وقال البصريون : حرف امتناع لامتناع ، واختلف في مرادهم بذلك ، فقال ابن الحاجب : (مرادهم : امتناع الشرط لامتناع الجواب ، لا عكسه ؛ لأن انتفاء السبب لا يدل على انتفاء مسبَّبه ؛ لجواز أن يكون للشيء أسباب ، واستدل لذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ لأنها مسوقة لنفي تعدد الآلهة بامتناع الفساد ، لا عكسه ؛ إذ لا يلزم من انتفائها انتفاؤه ؛ إذ المراد : فساد نظام العالم عن حالته ، وذلك جائز أن يفعله الإله الواحد سبحانه وتعالىٰ) اهـ

وردوا عليه وأطالوا ، وصوبوا : أن المراد : امتناع جوابها لامتناع شرطها ، كما هو المتبادر للأفهام ، واعترض ذلك بأن الجواب قد لا يمتنع في أماكن كثيرة ، نحو

---

(١) كذا في النسخ ، ولعل الصواب : تجنيس شبه الاشتقاق .

قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ . . . ﴾ الآية ، وقول عمر رضي الله تعالىٰ عنه : (نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله . . لم يعصه)[1] لأن عدم النفود محكوم به ، وجد الشرط أم لا ، وكذلك عدم العصيان ، وجد الخوف أم لا ، فلذلك حرر جمعٌ محققون العبارة عن معناها فقالوا : إنها حرف يقتضي امتناع ما يليه واستلزامَه لتاليه من غير تعرض لنفي التالي ، فقيام زيد من : لو قام زيد . . قام عمرو . . محكوم بانتفائه وبكونه مستلزماً ثبوته لثبوت قيامٍ من عمرو ، وهل لعمرو قيام آخر غير اللازم عن قيام زيد أو ليس له ؟ لا تعرض لذلك .

ثم إن ناسبه بأن لزم الثاني الأولَ عقلاً أو شرعاً أو عادة ولم يخلف المقدمَ في ترتيب التالي عليه غيرُه . . لزم انتفاؤه بانتفائه ، كـ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ففسادهما لازم لتعدد الآلهة علىٰ وفق العادة عند تعدد الحاكم من التمانع في الشيء ، ولم يخلف التعددَ في ترتيب الفساد غيرُه ، فينتفي الفساد بانتفاء التعدد المفاد بـ(لو) وإن خلفه . . لم يلزم ، كـ : لو كان إنساناً . . لكان حيواناً ، فالإنسان لازم للحيوان عقلاً ؛ لأنه جزؤه ، ويخلف الإنسانَ في ترتيب الحيوان غيرُه ، كالحمار ، ويثبت الثاني مع انتفاء الأول إن لم يتأت انتفاؤه وناسبه : إما بالأَولىٰ ، كأثر عمر المرتب فيه عدم العصيان علىٰ عدم الخوف ، وهو بالخوف المفاد بـ (لو) أنسب للترتيب عليه أيضاً في قصده ، والمعنىٰ : أنه لا يعصي الله مطلقاً ، لا مع الخوف ، وهو ظاهر ، ولا مع انتفائه ؛ إجلالاً له تعالىٰ عن أن يعصيه ، أو المساوي ، كقوله صلى الله عليه وسلم في بنت أم سلمة : « لَوْ لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حِجْرِي . . مَا حَلَّتْ لِي ، إِنَّهَا لَابْنَةُ أَخِي مِنَ ٱلرَّضَاعَةِ » رواه الشيخان[2] ؛ أي : لا تحل لي أصلاً ؛ لأن لها وصفين متساويين : المصاهرة والرضاع ، لو انفرد كل منهما . . حرم ، أو الأدون ، كـ : لو انتفت أخوة الرضاع . . ما حلت للنسب الأدونِ منه الرضاعُ .

(لم يسكن) هو (بها) أي : بقدمه الشريف (قبل) بالبناء على الضم (حراء) مفعول (يسكن) ، بالصرف هنا لا غير ؛ لئلا ينزحف الوزن ، وفي غير هـٰذا يجوز كل

---

(١) انظر « المصنوع » للقاري (ص ٢٠٢) .

(٢) البخاري (٥١٠١) ، ومسلم (١٤٤٩) .

منهما بالاعتبارين المعروفين (**ماجت**) أي : تحركت واضطربت (**به**) أي : القدم ، أو النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي نسخة (بها) (**الدأماء**) اعلم : أن الشارح رحمه الله تعالىٰ تكلم علىٰ هـٰذا البيت بما فيه خفاء ونظر ؛ لأنه جعل مفعول (أراه) الثاني : (ماجت) و(لو لم يسكن) شرطاً ، جوابه محذوف ؛ لدلالة الكلام عليه ، وقال في (الدأماء) : هي بالمعجمة ، كأنه أراد بها سرعة الحركة ، وقال في حله : (ومن أوصافه صلى الله عليه وسلم أنه لو لم يسكن بالقدم المذكور حراء لَمَّا أراد التحنث فيه . . ماجت به سرعة الحركة ، واستمر اضطرابه به صلى الله عليه وسلم ، كما أنه لما صعد أحداً . . تحرك به فقال : « ٱثْبُتْ أُحُدُ » ، فذاك تسكين بالقول ، وهـٰذا بالفعل) اهـ

ولم يظهر من هـٰذا الحل مع ما قبله من الإعراب معنىً مطابق للنظم ، وجعلُ سرعة الحركة فاعل (ماجت) . . في غاية الخفاء ، مع عدم المناسبة لما قبله ، علىٰ أنه في « القاموس » لم يذكر الذأماء ـ بالمعجمة ـ أصلاً ، ولا لـذأمه ـ بالمعجمة ـ معنىً مناسباً لسرعة الحركة ولا مقارباً لها أصلاً ، وإنما ذكر لأذامه ما قد يناسب سرعة الحركة ، وهو الرعب ، وعبارته في (ذأمه) بالمعجمة : (كمنعه : حقره وذمه وطرده وخزاه ، والإذآم : الرعب ، وما سمعت له ذأمة : كلمة) اهـ

وإنما ذكر (الدأماء) في المهملة فقال : (دأم الحائط كمنع : دعمه ، وتدأَّم الماءُ الشيءَ : غمره ، والفحلُ الناقةَ : تجللها ، وتداءمه الأمر كتفاعله : تراكم عليه وتزاحم ، والدأماء : البحر) ثم قال : (وجيش مدأم كمنبر : يركب كل شيء) اهـ

والذي يتجه في حله : أن (ماجت) جواب (لو) ، وأن (الدأماء) بالمهملة ، وأنها البحر ، وأن فيها الاستعارة المصرحة ؛ لأنه شبه الجبل بالبحر ؛ لأنه لما تحرك به صلى الله عليه وسلم . . أشبه تحركه حينئذ تحرك البحر براكبه ، وأن (ماجت) استعارة مرشحة ؛ لأنها تناسب المشبه به ، وهو البحر ؛ إذ لا يستعمل ماج إلا في الماء ، كما يصرح به كلام « القاموس » وحينئذ فالمعنىٰ : واعلم : أنه لو لم يسكن صلى الله عليه وسلم بقدمه حراء قبلُ ؛ أي : عند ابتداء تحركه به بقوله له : « ٱثْبُتْ حِرَاءُ » إلىٰ آخر ما مر في شرح قوله : (فاهتز به للصلاة فيها حراء) . . لماج واستمر اضطرابه وتحركه إلىٰ آخر الدهر ؛ لما مر أنها هزة الطرب والسرور برقيه صلى الله عليه وسلم عليه ،

وكان القياس : لو لم يسكن بقدمه قبلُ حراء . . ماج ، لكن لما احتاج إلىٰ تشبيه الجبل بالبحر فيما ذكر . . عدل عن ذلك إلىٰ : (ماجت الدأماء) لإفادة ما في تشبيه الجبل بالبحر من البلاغة المبنية على الاستعارتين المذكورتين .

فإن قلت : الذي مر في حراء أنه إنما قال له : « ٱثْبُتْ حِرَاءُ » أو نحوه ، ولم يضربه بقدمه ، وإنما الذي ضربه بقدمه أحد وثبير ، فمن أين للناظم قوله : (لو لم يسكن بها قبل حراء ؟) .

قلت : كأنه نظر لما في بعض الطرق في « مسند الحارث بن أبي أسامة » إذ فيها : أحد أو حراء بالشك ، وصح في رواية : حراء ، وفي رواية : أحد ، فاقتضىٰ ذلك أن الضرب بالقدم الكريمة في حراء كما أنه في أحد .

ولك أن تحمل النظم علىٰ أن المراد : لو لم يسكن حراء قبلُ ؛ أي : قبل طلوعه عليه هو وأصحابه بقدمه ؛ أي : مشيه عليه ، وإقامته فيه للتعبد قبل النبوة . . لاستمر تموجه واضطرابه حين طلع عليه ثانياً هو وأصحابه ، وحينئذ لا يرد على الناظم شيء إلا أن يقال : المسكن له كل من قدمه وقولِه : « ٱثْبُتْ ـ أو ـ ٱهْدَأْ حِرَاءُ » فلا وجه لتخصيص القدم بالذكر ، وقد يجاب : بأنه لا مانع أن المسكن له كل من الأمرين ، فنسبته إلى القدم لا تنافي أنه لا مسكن غيرها .

ولك أيضاً أن تجعل (الدأماء) الأرض ، تسمية للمحل باسم الحالِّ ، وحينئذ فالمعنىٰ : لو لم يسكن صلى الله عليه وسلم بقدمه الكريمة حراء ؛ أي : بتعبده فيه قبل النبوة . . لماجت به الأرض بعد النبوة فرَحاً وطرباً إلىٰ آخر الدهر .

وخص (حراء) لأنه صلى الله عليه وسلم خصه بتعبده فيه دون غيره .

تنبيه : أشار صلى الله عليه وسلم في أحد إلىٰ أن سبب تحركه به محبته له ، فقال : « أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » رواه الشيخان[1] ، قال الخطابي : والمراد بحب أحد : حب أهل المدينة ، نحو : ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ ورده البغوي ، وتبعوه بأنه لا مانع من حمله علىٰ ظاهره ، ولا ينكر وصف الجمادات بحب الأنبياء والأولياء وأهل الطاعة ، نظير

---

(١) البخاري (١٤٨٢) ، ومسلم (١٣٩٣) .

ما مر في حنين الجذع لَمَّا فارقه صلى الله عليه وسلم ، وحديث « إِنَّ حَجَراً كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ ٱلنُّبُوَّةِ » .

وروى البزار وأبو نعيم حديث : « لَمَّا أُوحِيَ إِلَيَّ . . جَعَلْتُ لاَ أَمُرُّ بِشَجَرٍ وَلاَ حَجَرٍ إِلاَّ قَالَ : ٱلسَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ »[1] .

ولما ذكر جملة كثيرة من معجزاته صلى الله عليه وسلم التي من شاهدها . . آمن به من فوره . . بين أن الكفار الذين شاهدوها ولم تزدهم إلا ضلالاً حقيقون بأن يقال في شأنهم :

(183)

عَجَبــاً لِلْكُفَّـــارِ زَادُوا ضَــلاَلاً   بِــاَلَّــذِي فِيــهِ لِلْعُقُــوْلِ ٱهْتِــدَاءُ

(عجباً) بدل من اللفظ بفعله ، وهو : الأمر المستغرب الخارج عن قياس العقول (للكفار) أي : منهم حال كونهم (زادوا ضلالاً بـ) معجزة القرآن وغيره (الذي فيه) أي : في كل فرد من أفراده (للعقول) السليمة الخلية عن العناد والخذلان والحسد والغل ، ومر الكلام على العقل وما فيه من الخلاف (اهتداء) إلى الدين الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وإلىٰ صحة ما تحدىٰ به ، ويصح أن يراد : العقول لابالقيدين المذكورين ، حملاً للاهتداء علىٰ ما يشمل ما بالقوة وما بالفعل ؛ إذ المعجزة فيها الاهتداء بالقوة وإن قارنها عناد أو خذلان .

وبين (الضلال) و(الاهتداء) ، و(الجن) و(الإنس) الآتيين الطباق .

ووجه التعجب منهم واضح ، فإنهم كانوا ـ مع ما شاهدوه من الآيات والمعجزات التي ترشد العقول إلى الحق ـ لا يزدادون لما عندهم من الحسد والتلبيس على الضعفاء منهم . . إلا إباءً وكفراً وتمرداً ، كما قال تعالىٰ عنهم : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ .

---

(١) ذكره الهيثمي في « المجمع » (٨/ ٢٦٢) ، وعزاه للبزار ، وهو عند أبي نعيم في « الدلائل » (٢/ ٥٠١) .

(184)

وَٱلَّـــذِي يَسْـــأَلُـــونَ مِنْـــهُ كِتَـــابٌ   مُنْـــزَلٌ قَـــدْ أَتَـــاهُـــمْ وَٱرْتِقَـــاءُ

(و) عجباً أيضاً من (الذي يسألون منه) علىٰ جهة التعنت والعناد ، وهو كثير منه (كتاب منزل) معه صلى الله عليه وسلم عليهم من السماء (قد أتاهم) به صلى الله عليه وسلم وهم يشاهدونه (وارتقاء) منه إليها ، وغير ذلك مما حكاه الله تعالىٰ عنهم بقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ وقالوا له أيضاً : لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلداً ، ولا أقل ماءً ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل ربك فليسير عنا هـٰذه الجبال التي ضيقت علينا ، وليبسط لنا في بلادنا ، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام ، وليبعث لنا من مضىٰ من آبائنا ، وليكن فيهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فإن صدقوك . . صدقناك .

وما قررته في هـٰذا البيت أولىٰ مما قرره الشارح فيه من أن (الذي) مبتدأ ، خبره (كتاب) و(ارتقاء) معطوف عليه ؛ لأنه حينئذ لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده ، مع ما فيه من غموض المعنىٰ ، بخلاف ما ذكرته ، فإن مناسبته لما قبله واضحة ، وكذا لما بعده ، كما يدل عليه الاستفهام التعجبي الإنكاري عليهم في قوله :

(185)

أَوَلَـــمْ يَكْفِهِـــمْ مِـــنَ ٱللهِ ذِكْـــرٌ   فِيـــهِ لِلنَّـــاسِ رَحْمَـــةٌ وَشِفَـــاءُ

(أ) يقولون ذلك كله ويتعنتون به(ولم يكفهم) عن ذلك كله (من الله) حال من فاعل (يكف) وهو (ذكر) واصل إليهم ، وتسميته ذكراً جاءت في آية مراداً به الشرف ، كما في : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ وفي أخرىٰ مراداً به أنه مذكر لكل ما ينفع ، ومحذر عن كل ما يضر (فيه للناس) والجن ، بل والملائكة (رحمة)

باهتداء المؤمنين به ، وتأخير عذاب الاستئصال عن الكافرين ببركة كونه بين ظهرانيهم (وشفاء) من كل داء ظاهر أو باطن حسي أو معنوي ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ وتخصيص المؤمنين ؛ لأنهم المقصودون بذلك بالذات ، وغيرهم بطريق التبع .

وإنما قلت : (والملائكة) لقول بعض أكابر أئمتنا : إن الملائكة لم يعطوا فضيلة حفظ القرآن ، لـٰكنهم حريصون على استماعه من غيرهم .

قال العلماء : لم ينزل الله تعالىٰ من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن ، فهو للداء شفاء ، ولصدأ القلوب جلاء ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال الفخر الرازي وغيره : (و« من » ليست للتبعيض ، بل للجنس ، والمعنىٰ : وننزل من هـٰذا الجنس الذي هو القرآن شفاء من الأمراض الروحانية ، كالاعتقادات الفاسدة في الإلـٰهية والنبوة والمعاد ، وفي القرآن من النصوص القاطعة بفساد تلك ما يكفي ويشفي ، وكالأخلاق المذمومة ، وفيه أوضح بيان لأنواعها ، وحض على اجتنابها ، ومن الأمراض الجسمانية بالتبرك بقراءته عليها)[1] لـٰكن مع الخلوص وفراغ القلب عن الأغيار ، وقربه وإقباله على الله تعالىٰ بكليته ، وعدم أكل الحرام ، وعدم رين الذنوب ، وعدم استيلاء الغفلة على القلب ، وصح حديث : « إِنَّ ٱللهَ لاَ يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ »[2] وقراءته ممن هـٰذه حالته علىٰ أي مرض كان مبرئة له وإن أعيا الأطباء ، ومن ثم قال بعض الأئمة : متىٰ تخلف الشفاء . . فهو إما لضعف تأثير الفاعل ، أو لعدم قبول المحل المنفعل ، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء ، كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية ، وقد روي حديث : « مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بِٱلْقُرْآنِ . . لاَ شَفَاهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[3] .

نعم ؛ روى ابن ماجه : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خَيْرُ ٱلدَّوَاءِ ٱلْقُرْآنُ »[4] .

---

(١) انظر « التفسير الكبير » (٢١/ ٣٤) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) .

(٣) انظر « كشف الخفاء » (٢/ ٢٣٢) .

(٤) ابن ماجه (٣٥٣٣) .

وعن العارف الإمام الكبير أبي القاسم القشيري رحمه الله تعالىٰ : أن ولده اشتد به مرض ، فانزعج عليه ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ، فشكا إليه ما بولده ، فقال له : أين أنت من آيات الشفاء ؟ أي : وهن ست آيات مشهورة ، فكتبها ، ومحاها بماء ، وسقاها له ، فكأنما نشط من عقال[1] .

ثم استطرد بذكر شيء مما اشتمل عليه القرآن العزيز من المعجزات الباهرة ، والآيات الظاهرة ، فمن ذلك ، بل أبهره في قمع المعارض وإدحاض الجاحد أنه

(186)

أَعْجَزَ ٱلْإِنْسَ آيَةٌ مِنْهُ وَٱلْجِنَّ   فَهَلَّا يَأْتِي بِبَعْضِهَا ٱلْبُلَغَاءُ

(أعجز) قيل : علم إعجازه ضروري ، والأصح : أن محله فيمن شاهد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو علم وجوه الإعجاز ، وظاهره : أن المشاهد يحصل له العلم الضروري بإعجازه وإن لم يعلم وجوه الإعجاز ، ولا يستبعد ذلك ؛ لأن من كشف عن قلبه الغطاء عند المشاهدة . . يحصل له قطعاً العلم الضروري أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من عند الله ، وأنه معجز للخلق عن محاكاته ؛ لأن هٰذا أمر يدركه الذوق السليم وإن لم يمكن صاحبه أن يعبر عنه ، بل لو ادعىٰ مدعٍ أن ذلك قد يحصل لبعض حذاق العوام . . لم يبعد ، لا سيما وكل أحد يدرك فرقاً بديهياً بين القرآن وغيره عند سماعهما .

(الإنس آية) عبر بها تبعاً للقاضي ، ولم يبال بأن الذي عليه الجمهور : أن أقل ما وقع به التحدي أقصر سورة منه ، وهي ثلاث آيات ، ومثلها طلب منهم صلى الله عليه وسلم أن يأتوا بمثله ، فعجزوا ، فطلب أن يأتوا بعشر سور من مثله ، فعجزوا ، فطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ، فكان أقل ما طلب منهم قدر أقصر سورة من سوره ، وذلك لأن في دليل الجمهور شيئاً ؛ إذ لا يلزم من كونه لم يطلب منهم دون السورة أنهم قادرون علىٰ أقل منها ؛ لأن المشاهدة قاضية بأنهم عجزوا حتىٰ

---

(١) انظر « طبقات الشافعية الكبرىٰ » للسبكي (٥/ ١٥٨) .

عن بعض الآية المفيد ، كما يفيده قول الناظم الآتي : (أو بعضها)[1] لأن في ارتباطها بما قبلها وبعدها أنواعاً من بدائع الحكم لا يحيط بها غيره صلى الله عليه وسلم ، فالحق : أنهم عاجزون عن محاكاة آية من آياته حتىٰ : ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أو بعضها المفيد ، لـٰكن مع النظر لمناسبتها لما قبلها وما بعدها .

وأما التصريح بأنه لم يقع العجز إلا عن ثلاث آيات . . فترده المشاهدة الخارجية ؛ إذ لم يسمع عن أحد قط أنه حاكىٰ شيئاً (منه ، و) أعجز (الجن) آيةٌ منه أيضاً ، وذكرهم كالإنس ؛ لأن التحدي وقع لهم أيضاً ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم مبعوث إليهم إجماعاً ، وزعمُ أنهم إنما ذكروا تعظيماً لإعجازه ؛ لأنهم ليسوا من أهل اللسان العربي . . يرد بأن الآية تقتضي أنهم يحسنون اللسان العربي ، فادعاء خلافه يحتاج لدليل ، قيل : ولم يذكر الملائكة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم ليس مرسلاً إليهم ، ويرد بأن الأصح خلافه ، ومن ثم قال بعضهم : إنهم منويون في الآية أيضاً ، وأنهم لا يقدرون علىٰ معارضته ؛ أي : وكأن حكمة عدم ذكرهم عصمتهم عن المخالفة ، فلم يحسن تحديهم ، وعلىٰ كل فلم يستطع أحد من الفريقين في زمنه صلى الله عليه وسلم ولا بعده أن يأتي بمثل سورة ، أو يأتي بمثل آية منه علىٰ نظمه البديع ، وتأليفه المنيع ، وعذوبة منطقه ، وما فيه من الأمثال والإخبار بالمغيبات ، ودلائل البعث والنبوة ، والأخلاق الكريمة وضدها ، وهـٰذا مقتبس من قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

وحينئذ (فهلا) هي في أصلها للتحضيض ، والمراد بها هنا : التهكم ، ونظيره من حيث إن (لولا) بمعنىٰ (هلاّ) فيثبت لهـٰذه ما لتلك : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ . . . ﴾ الآية ، فهي هنا للتوبيخ والتنديم ، فكذلك (هلاّ) هنا لتوبيخ من يزعم إمكان المعارضة ، كبعض أهل الضلال والإلحاد .

(يأتي ببعضها) أي : الآية ، والمراد : بعضها المفيد ، وفي نسخة شرح عليها الشارح : (به) والأحسن عود ضميره علىٰ ما ذكر من الآية ، وأعاده على القرآن ،

---

(١) الذي سيأتي قوله : (يأتي ببعضها) ، وكلاهما فيه تصحيف ، ولا يستقيم معه الوزن ، والصواب : (يأتي به) وهي نسخة اعتمد عليها شارحها العلامة الجوجري ، كما سيشير إليه ابن حجر بعد قليل ، والله أعلم .

وما قلناه أبلغ (**البلغاء**) جمع بليغ ، والفرق بين الفصاحة والبلاغة : أن الأولىٰ : خلوص اللفظ من تنافر الحروف والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي ، ويوصف بها الكلام والمتكلم والكلمة ، والثانية : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، بأن يدل علىٰ ما يقتضيه حال المتكلم أو المخاطب أو المحكي من تنكير ، أو إطلاق ، أو تقديم ، أو إضمار ، أو إيجاز ، أو فصل ، وضد كل ، ويوصف بها ما عدا الكلمة ، وبلاغة المتكلم : ملكة يقتدر بها علىٰ إيراد الكلام البليغ غير محتاج إلىٰ تعقب أو استدراك .

وأفاد الناظم رحمه الله تعالىٰ بهٰذا : أن البلغاء فضلاً عن غيرهم ، مع أنهم العرب الفصحاء ، والخطباء البلغاء ، والشعراء الفهماء في قريش وغيرهم ، والمتقدمون في اللسن والتبيان ، والرؤساء في قوانين المعاني والبديع والبيان ، والفرسان في ميادين الفصاحة ، والشجعان في مهامه البلاغة . . أظهروا عُوار عجزهم عن المعارضة[1] ، وعثار عقلهم عن المناقضة ، ومن ثم كان عجزهم عن ذلك أعجب في الآية ، وأوضح في الدلالة من إحياء الموتىٰ ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ لأن قوم عيسىٰ لم يكونوا يطمعون في ذلك ، ولا يتعاطون علمه ، وقريش كان أعلىٰ أربهم ومنتهىٰ طلبهم التفنن في أفننة الفصاحة ، والتنزه في رياض البلاغة ، والتقدم في أعاجيب الخطابة وأساليب البراعة ، فدل عجزهم عنه مع ذلك علىٰ أنه إنما هو لكونه من أعلام نبوته ، وبراهين رسالته ، وهٰذه حجة قاطعة ، ومحجة ساطعة ؛ إذ محال أن يلبثوا ثلاثاً وعشرين سنة عن السكوت عن معارضة آية منه ، المستلزمة لنقض أمره ، وتفريق أتباعه ، وزوال شوكته ، وحيازة مرتبته ، مع قدرتهم عليها ، وطلبها منهم ، وقتل أكابرهم ، وسبي ذراريهم ، وهو لا يزداد إلا تقريعاً لهم بعجزهم ، حتىٰ يكشف من نقصهم ما كان مستوراً ، وقال لهم : إن زعمتم أني افتريته ؛ لعلمي بأخبار الأمم . . فأتوا بمفترَىً مثله ، فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولا تكلفه مِصْقَع[2] ، وإلا . . لظهر ووجد من يستجيده ، ويحامي عنه ، ويزعم بمجرد الدعوىٰ أنه عارض وناقض ، فإذا لم يوجد ذلك مع أن كثيراً منهم هجاه ، وعارض شعراء أصحابه ، وخطباء أمته . . قطع بعجزهم وتحيرهم وانقطاعهم ، ومن ثم قال الخطابي : وقد كان

---

(١) العوار : العيب .

(٢) المِصْقَع : البليغ ، أو العالي الصوت ، أو الذي لا يرتج عليه في كلامه ولا يتتعتع .

صلى الله عليه وسلم أعقل خلق الله وقد قطع القول بأن ما أتىٰ به من عند ربه معجز ، وأنهم لا يأتون بمثل أقصر سورة منه ، فلولا أنه علىٰ بينة واضحة من ربه ، وإلا . . لم يقطع بشيء من ذلك ، علىٰ أنه لم يزل ينادي عليهم بالعجز عن معارضته ، وبالتقصير عن بلوغ الغرض في مناقضته ، فلم يستطع أحد منهم أن يناوئه ، ولم يرفع رأسه إلىٰ أن يباريه ، بل رضيت هممهم السوية ، وأنفسهم الأبية ؛ إذ كانوا آنف شيء وأشده حمية بسفك الدماء ، وهتك الحرم .

ولذلك قال العلماء رضي الله عنهم : من أعلىٰ وجوه إعجاز القرآن أن فصاحته وبلاغته خرقت عادة العرب ، مع أنهم أوتوا منهما ما لم يؤته غيرهم ؛ لأنهم كانوا يأتون منهما على البداهة بالأمر الأعجب ، ويُدْلون به إلىٰ كل سبب ، فيخطبون بديهاً عند شدة الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويترسلون في أوديتهما ، فيأتون منهما بالسحر الحلال ، ويتطوقون من دررهما أجمل من سمط الجمال ، فلا يشك عاقل أنهما طوع مرادهم ، وسلك قيادهم ، فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب قديم ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ بهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته علىٰ كل مقول ، وهم أفصح ما كانوا في هٰذا الباب مقالاً ، وأشد ما وجدوا في الخطابة والشعر منالاً ، صارخاً فيهم في كل وقت وحين ، مقرعاً لهم علىٰ رؤوس الملأ أجمعين : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ وإلا . . فأنتم المردودون إلىٰ أسفل سافلين ، ثم لم يزل يقرعهم ويوبخهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحط أعلامهم ، ويسب آلهتهم ، ويستبيح نفوسهم وأموالهم ، وهم لا يزدادون إلا تقهقراً عن المعارضة ، لم يأتوا بمقال ، صابرون على الجلاء والقتل والصغار والإذلال ، ناكصون عن معارضته ، محجوبون عن مماثلته ، مخادعون أنفسهم بالتشغيب والتكذيب ، والاعتراف بالافتراء في قولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ و﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ و﴿ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ و﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ والمباهتة والرضا بالدنية ، كقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ و﴿ فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ والادعاء ـ مع ظهور غاية العجز عليهم ـ بقولهم : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ﴾ وقد قال لهم تعالىٰ : ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ فما فعلوا وما قدروا ؛ إذ لو أطاقوا أدنىٰ معارضة . . لبادروا إليها ، وأفحموا الخصم الذي كانوا محافظين علىٰ إطفاء نوره ، وإخفاء أموره ، مع طول

الأمد ، وكثرة العدد ، وتظاهر الوالد وما ولد ، بل أبسلوا فأيسوا[١] ، وقطعوا فانقطعوا ، هـٰذا كله والآتي إليهم به مكث بين ظهرانيهم أربعين سنة أمياً ، لا يحسن نظم كتاب ، ولا عقد حساب ، ولا تعلم سحراً ، ولا أنشد شعراً ، ولا يحفظ خبراً ، ولا روىٰ أثراً ، حتىٰ أكرمه الله تعالىٰ بالوحي المنزل ، والكتاب المفصل ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

روى البيهقي وغيره : أن عتبة بن ربيعة قام من جمع قريش إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد وحده ، فعرض عليه المال وغيره ؛ ليكف عما هو فيه ، فقال له : « ٱسْمَعْ مِنِّي » ، وقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . . . ﴾ إلىٰ أن بلغ السجدة ، فسمع ما أبهره ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : أنت وذاك ، فقام إلىٰ أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به! فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، فوالله ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ، أطيعوني معشر قريش ، وخلوا بينه وبين ما هو فيه ، فليكونن له نبأ ، ولما بلغ : ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ . . أمسكت فمه ، وناشدته الرحم أن يكف ، وقد علمتم أنه إذا قال شيئاً . لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب[٢] .

وروى ابن إسحاق والبيهقي : أن الوليد بن المغيرة ـ وكان زعيم قريش في الفصاحة ـ طلب منه أن يقرأ عليه ، فقرأ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ . . . ﴾ الآية ، فاستعاده إياها ، فأعادها ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[٣] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يُعلىٰ ، وما يقول هـٰذا بشر ، وما فيكم أعلم مني بالشعر ، وأجمعوا فيه رأياً قبل حضور وفود العرب في الموسم ؛ لئلا يكذب بعضكم بعضاً ، فقالوا : نقول : كاهن ، قال : ما هو بزمزمته ولا بسجعه ، قالوا : مجنون ، قال : ما هو بخنقه ولا بوسوسته ، قالوا : شاعر ، قال قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه ، وقريضه وبسيطه ومقبوضه ، ما هو بشاعر ،

---

(١) أبسلوا ؛ أي : أخذوا قليلاً قليلاً ، أو أسلموا للهلكة .
(٢) دلائل النبوة (٢/ ٢٠٤) .
(٣) الطلاوة ـ بتثليث الطاء ـ هي : الحسن والبهجة والقبول .

قالوا : ساحر ، قال : ما هو بنفثه ولا بعقده ، وما أنتم قائلون من هـٰذا شيئاً . . إلا وأنا أعلم أنه باطل[1] .

وروى الحاكم : أن هـٰذا الشقي لما رق لقراءة القرآن عليه . . جاءه اللعين أبو جهل فقال : يا عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ؛ لأنك أتيت محمداً للمال ، فقال : قد علموا أني من أكثرهم مالاً ، قال : فقل فيه ما يعلم قومك أنك كاره له ، فقال : ماذا أقول ؟ وذكر ما مر من مدح القرآن ، قال : لا يرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه ، قال : فدعني حتىٰ أفكر ، فلما فكر قال : هـٰذا سحر يؤثر[2] ؛ أي : ينقله عن غيره .

فتأمل قضاء هـٰؤلاء الأشقياء علىٰ أنفسهم بالعناد المحض ، والسَّفْساف القبيح[3] ، والتقول الباطل ، ومع ذلك لم يزدادوا إلا ضلالاً وعناداً ، وطغياناً وفساداً .

وما أحسن ما قيل : لو وجد مصحف بفلاة . . لشهدت العقول السليمة بأنه من عند الله ، فكيف وقد جاء علىٰ يدي أصدق الخلق صلى الله عليه وسلم ، وقال : إنه من عند الله ، وتحداهم بأقصر سورة منه ، فعجزوا ؟!

هـٰذا وقد علم مما تقرر وجوه الإعجاز إجمالاً ، وأما تفصيلها . . فقد بينها الأئمة بما حاصلها : أنه ينحصر مقصود إعجازه في أمور أربعة ، وعدها بعضهم أكثر من ذلك ، وهو يرجع إلىٰ ما قلناه .

أحدها : ما فيه من الإيجاز والبلاغة والتراكيب بحيث وصل في كل منها ومن مراتب البلاغة فيها إلى المرتبة العليا لفظاً ومعنًى ؛ لصدوره ممن أحاط علمه بجميع مراتب الألفاظ ومعانيها ، فلا يضع لفظة عقب لفظة إلا إذا لم يوجد غيرها أبلغ ولا أنسب منها ، وغيره ليس كذلك ، ومن ثم لما سمع أعرابي قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ . . سجد وقال : سجدت لفصاحة هـٰذا الكلام ، ولما سمع نصراني قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ . . . ﴾ الآية . . قال : جمعت هـٰذه الآية ما أنزل علىٰ عيسىٰ من أمر الدنيا وأمر الآخرة .

---

(١) دلائل النبوة (٢/ ١٩٨ـ١٩٩) .

(٢) المستدرك (٢/ ٥٠٦) .

(٣) السَّفْساف : الرديء من كل شيء ، والأمر الحقير .

ولقد رام بعض سخفاء العقول محاكاة بعض قصار المفصل ، فأتىٰ من الهذيان بالعجب العجاب ، كقول مسيلمة الكذاب اللعين : يا ضفدع ؛ كم تنقنقين ؟ أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشراب تمنعين ، وقوله ـ محاكياً لـ(النازعات) و(الذاريات) ـ : والزارعات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، لقد فضلتم علىٰ أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر .

وقال آخر : ألم تر كيف فعل ربك بالحبلىٰ ، أخرج من بطنها نسمة تسعىٰ ، من بين شراسيف وأحشا[1] .

وقال آخر : الفيل ، وما الفيل ؟! وما أدراك ما الفيل ؟! له ذنب وثيل[2] ، ومشفر طويل ، فإن ذلك من خلق ربنا لقليل .

ثانيها : أنه مع كونه من جنس كلام العرب خارج عن سائر فنونه من النظم والسجع ، والخطب والشعر ونحوها ، فحير عقولهم حتىٰ لم يهتدوا إلىٰ مثل شيء منه ؛ إذ لا مثال له يحتذىٰ عليه ، ولا إمام يرجع عند الاشتباه إليه ، ولقد رام قوم من المتأخرين ـ انتهت إليهم فصاحة وقتهم ـ شيئاً من محاكاته ، فاعترتهم هيبة فطمتهم عن ذلك .

ومنهم من فصل كلاماً وجعله سوراً ، فسمع صبياً يقرأ : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ فتاب ومحا ما عمل .

ثالثها : تأثيره في النفوس والقلوب ، بحيث تجد من اللذة والحلاوة عند سماعه ما لم تجده عند سماع غيره ، ومن ثم كان قارئه وسامعه لا يمله ، بل كلما زاد تكريره . . زادت حلاوته ، واتضحت طلاوته .

رابعها : ما فيه من الإحاطة بعلوم الأولين والآخرين ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ ومن الإخبار بالمغيبات مما كان وما يكون، نحو: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا ﴾

---

(١) الشراسيف : مفردها شرسوف ـ بوزن عصفور ـ وهو : غضروف معلق بكل ضلع ، أو مسقط الضلع ، وهو : الطرف المشرف على البطن .

(٢) الثيل ـ بفتح الثاء وكسرها ـ هو : وعاء قضيب البعير وغيره ، أو هو : القضيب نفسه .

فما فعل مثله مخلوق ، ولا تمنى الموت يهودي ، وهـٰذه أيضاً من أبهر المعجزات .

قال بعض المحققين : (إعجازه من وجهين : إما لذاته من حيث لفظه ومعناه المخصوصان ؛ إذ تأليفه ليس علىٰ هيئة ما يتعاطاه البشر ؛ إذ لا يصح أن يقال له : رسالة ولا خطابة ولا شعر ولا سجع ، وفنون كلام العرب لا تخرج عن ذلك ، وإما لصرف الناس عن معارضته ، والإعجاز في هـٰذا ظاهر أيضاً إذا اعتبر ، وذلك أنه ما من صناعة محمودة أو مذمومة . . إلا وبينها وبين قوم مناسبة خفية واتفاق جملي ، ولهـٰذا تجد هـٰذا يؤثر حرفة ؛ لانشراح صدره لها ، وذاك يكرهها وينشرح لأخرىٰ . . . وهـٰكذا ، فلما دعا الله أهل الخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة لسانهم إلىٰ معارضة القرآن ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، ولم يتصدوا لمعارضته . . لم يخف علىٰ أولي الألباب أن صارفاً صرفهم عن ذلك ، وأي إعجاز أبلغ من ذلك ؟!) اهـ ملخصاً .

وحاول بذلك توجيه القول بالصَّرفة[1] ، مع أنه للنظَّام من المعتزلة ، لـٰكن أفسدوه بأن قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ . . . ﴾ الآية . . دليل ظاهر علىٰ عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة . . لم تبق فائدة لاجتماعهم ؛ لأنه حينئذ بمنزلة اجتماع الموتىٰ ، وليس عجز الموتىٰ مما يحتفل بذكره ، هـٰذا مع أن الإجماع منعقد علىٰ إضافة الإعجاز إلى القرآن ، والقول بالصرفة يلزمه إضافته إلى الله تعالىٰ لا إلى القرآن ، وحينئذ يلزمه زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي ، وفيه خرق لإجماع الأمة : أن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم العظمىٰ باقية ، ولا معجزة له باقية أظهر من القرآن ، ويلزم الصَّرفة أيضاً أنه لا فضيلة للقرآن علىٰ غيره .

فإن قلت : القول بعجزهم مع بقاء قدرتهم فيه الجمع بين النقيضين ، وهو محال .

قلت : معنىٰ قدرتهم : أن هممهم توجهت إلى المحاكاة ؛ لظنها القدرة عليها ، فعجزت ، وعلى القول بالصَّرفة لم يتوجهوا لمعارضته أصلاً ؛ لقطعهم من نفوسهم بعجزها ، وأنه لا قدرة لها عليها البتة .

---

(١) الصَّرفة هي : أن الله صرف العرب عن أن يعارضوا القرآن ويأتوا بمثله ؛ أي : إن بمقدورهم ذلك ، ولـٰكن الله سلبهم إياه ، وعليه فالإعجاز ليس في ذات القرآن ، بل في غيره .

فإن قلت : توجه الهمم إليها مع العجز عنها في نفس الأمر . . لا يسمىٰ قدرة .

قلت : ممنوع ، بل يسمىٰ قدرة باعتبار العرف وقطع النظر عن الغايات ، ولا شك أن أهل فن البلاغة لا يقطعون بسلب القدرة عن المحاكاة ابتداء ، بل بعد الاختبار . فتأمله ؛ لتعلم سقوط ما قيل : كيف يخاطبون بالتحدي مع القطع بعجزهم عنه ؟!

ونظير ذلك : خطاب مَنْ عَلم اللهُ منه عدمَ الإيمان بالإيمان ، كأبي جهل وأبي لهب ، نظراً لقدرتهما عليه باعتبار الظاهر ، وإعراضاً عن النظر للغايات والعواقب .

ومن المفاسد أيضاً : قول فريق ضُلاَّل : إن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما تأخروا عنه ؛ لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه . . لوصلوا إليه به ، وآخرين : إن العجز إنما وقع من الموجودين ، وأما من بعدهم . . ففي قدرتهم الإتيان بمثله .

ومما يرد عليهم أن جماعة ممن انتهت إليهم الرياسة في الفصاحة تعرضوا لمعارضته ، كابن المقفع والمعري والمتنبي ونظرائهم ، فلم يأتوا إلا بما تمجه الأسماع ، وتنبو عنه الطباع ، ونادىٰ عليهم بالخزي والانقطاع ، وصيرهم مُثلة وسخرية وضُحْكة إلىٰ أن تاب أكثرهم ، وأظهر ندمه ونسكه .

ولاشتمال القرآن الكريم علىٰ ما لا يحصىٰ من العلوم والمغيبات ، وأحوال العالم الدنيوي والأخروي ، وغير ذلك من العجائب . . كان

(187)

كُـلَّ يَـوْمٍ تُهـدِي إِلَـىٰ سَـامِعِيـهِ مُعْجِـزَاتٍ مِـنْ لَفْظِـهِ ٱلْقُـرَّاءُ

(كل يوم) أي : وقت (تهدي) فاعله (القراء) أي : توصل ، وأفاد التعبير به تشبيه المعجزات بالتحف المهداة ، فهو استعارة بالكناية ، تتبعها استعارة تخييلية (إلىٰ سامعيه معجزات) مر بيان المعجزة بما يتعين الوقوف عليه ؛ ليعلم منه أن المراد بها هنا : الأمر الغريب وإن لم يصدق عليه حد المعجزة السابق ، مبتدأة (من لفظه) لعذوبته وانسجامه ، وجزالة معناه ، وغاية إيجازه مع غاية بلاغته ، وبيانه مع فصاحته ، وخروجه عن جنس كلام العرب حتىٰ صار جنساً آخر متميزاً عنه مع اتحاد الحروف والاصطلاح ، وكثرة أخباره الصادقة ، تارة عن الأمم الماضية ، وأخرىٰ عن المغيبات ، وما فيه من العلوم التي لا يمكن حصرها .

ونقل الإمام ابن سراقة من أصحابنا : أن كل واحد من هٰذه رأىٰ قومٌ أنه سبب إعجاز القرآن ، ثم اعترضهم بأنهم كلهم ما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره ، وتبعه البدر الزركشي فقال : أهل التحقيق علىٰ أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق ؛ لاشتماله على الكل ؛ فنسبته إلىٰ أحدها ـ أي : وحده ـ تحكم ، بل فيه غير ذلك ، ككونه لايزال غضاً طرياً على الألسنة وفي الأسماع ، وجمعه صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين ؛ إذ لا يجتمعان غالباً في كلام البشر ، وكونه مستدركاً علىٰ جميع الكتب قبله ، فهي مفتقرة إليه وهو غني عنها ، ومن ثَم كان أبهر في الإعجاز من سائر معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل ومعادلاً للكل ؛ لأن سبيلها واحد ، وهو مخالفة العادة ، وهو كثير كما تقرر في وجوه إعجازه .

وسئل بعضهم : ما موضع الإعجاز من القرآن ؟ فقال : هٰذا شبيه بقولك : ما موضع الإنسان من الإنسان ؟ ومعناه : أنه ليس للإنسان موضع من الإنسان ، بل متىٰ أشرت إلىٰ جملته . . فقد حققته ودللت علىٰ ذاته ، كذلك القرآن ؛ لشرفه لا يشار إلىٰ شيء منه إلا وكان ذلك المعنىٰ آية في نفسه ، ومعجزة لمحاوله ، وهدىً لقائله ، وليس في قدرة البشر الإحاطة بأسرار الله تعالىٰ من كتابه ، فلذلك طارت العقول ، وتاهت البصائر عنده .

واختلفوا في تفاوته في مراتب الفصاحة بعد اتفاقهم علىٰ بلوغه الذروة العليا كما مر ، فاختار القاضي : المنع ، وإنما المتفاوت إدراك الناس له .

واختار أبو نصر القشيري وغيره : تفاوته ، وتبعهم ابن عبد السلام ، ولم يأت كله بالأفصح ؛ لئلا يخرج عن نمط كلام العرب ، فجاء علىٰ نمط كلامهم ؛ ليتم ظهور بقاء العجز عن معارضته .

(القراء) لأن من سمع ألفاظ القرآن وتدبرها حق تدبرها . . علم من كل لفظ منها باعتبار ما دل عليه أمراً معجزاً لا يعارض ولا يناقض .

وإذا بلغ القرآن في الجلالة التي مرت الإشارة إليها ما لم يبلغه غيره . . كان حقيقاً بأنه كما قال رحمه الله :

(188)

تَتَحَلَّىٰ بِهِ ٱلْمَسَامِعُ وَٱلْأَفْـ ـوَاهُ فَهْوَ ٱلْحُلِيُّ وَٱلْحَلْوَاءُ

(**تتحلىٰ به**) أي : بسماعه (**المسامع**) من التحلية بألفاظه (و) تتحلىٰ بألفاظه (**الأفواه**) من الحلواء (**فهو الحلي**) راجع للأول (**والحلواء**) راجع للثاني ، ولا يخفىٰ ما فيه من اللف والنشر .

(189)

رَقَّ لَفْظاً وَرَاقَ مَعْنًىٰ فَجَاءَتْ فِي حُلَاهَا وَحَلْيِهَا ٱلْخَنْسَاءُ

(**رق**) أي : حسن (**لفظاً**) أي : من جهته ، فلا تجد لفظة منه فيها ما ينافي كمال الرقة الموجبة للفصاحة من تنافر أو تعقيد (**وراق**) أي : تصفىٰ من شوائب النقص ، فأعجب كل ناظر فيه (**معنًىٰ**) أي : من جهته ، فلا تجد معنًىٰ من معانيه إلا وهو واصل في الإحكام ووضوح المراد الغاية القصوىٰ .

وفي (رقَّ) و(راق) ، و(الحلي) و(الحلواء) الجناس ، كـ(حلاها) و(حليها) و(صور) و(سور) ، و(النظائر) و(النظراء) الآتيات ، و(المسامع) و(الأفواه) ، و(اللفظ) و(المعنىٰ) مراعاة النظير ، كـ(الرقة) و(الصفاء) ، و(الآيات) و(الحروف) و(الهجاء) الآتيات وفيما بعدها اللف والنشر المرتب .

(**فـ**) بسبب كون سوره رقت وراقت (**جاءت**) فاعله (الخنساء) ، وما قبله حال منه ؛ أي : حال كونها (**في حلاها**) أي : صفاتها الجميلة (**وحليها**) أي : زينتها (**الخنساء**) بنت عمرو ، وخصها من بين كثيرات سُمِّين بذلك ؛ لأنها كانت شاعرة مُفْلِقة[١] ، كما يأتي بسط الكلام في ترجمتها .

شبه سور القرآن في صفاتها العلية ، وترتيبها بما أودعته من الأسرار البهية ، بامرأة بلغت من الزينة وأوصاف الحسن ما لا يمكن التعبير عنه .

---

(١) شاعر مفلق : أي مُجيد .

(190)

وَأَرَتْنَا فِيهِ غَوَامِضَ فَضْلٍ ... رِقَّةٌ مِنْ زُلَالِهِ وَصَفَاءُ

(وأرتنا) أي : أوضحت لنا ، وفاعله (رقة) الآتي (فيه) أي : في القرآن (غوامض) أي : خفايا (فضل) كالعلوم والمعارف المستنبطة منه التي لا حد لها ولا غاية ، ومن ثم جاء عن علي رضي الله عنه : لو شئت أن أوقر بعيراً من تفسير (سورة الضحىٰ) . . لفعلت (رقة) كائنة (من زلاله) الزلال : ماء في غاية الحلاوة والبرودة ، يوجد في أجواف صخور توجد في نحو الثلج ، تشبه الحيوان ، وليست في الحقيقة بحيوان كما قاله بعض أكابر أئمتنا (وصفاء) من ذلك الزلال ، شبه آيَ القرآن في محاسن أساليبها ، وصفاء مواردها ، الموحيين لمن حدَّق في خفاياهما حديدَ نظره ، وحقق في غَورِهما دقيقَ فكره ببرد اليقين ، وصفاء القلب عن كل سوىً حتى اطلع علىٰ سائر الغوامض من العلوم الإلـٰهية ، والمعارف الاختصاصية ، والمواهب الرحمانية ، والمآرب الروحانية ، بما في غاية العذوبة والبرودة ، وصفاء الجوهرية ورقتها ، بحيث لا يمنع من رؤية ما تحته مما من شأنه أن يخفىٰ .

وبهـٰذا الذي قررته من برد اليقين وصفاء القلب يعلم أن ذلك إنما يحصل لمن انصقلت مرآة فكره ، كما أشار لذلك بكلام جامع بديع علىٰ عادته فقال :

(191)

إِنَّمَا تُجْتَلَى ٱلْوُجُوهُ إِذَا مَا ... جُلِيَتْ عَنْ مِرْآتِهَا ٱلْأَصْدَاءُ

(إنما تجتلى الوجوه) أي : تظهر ظهوراً واضحاً لا خفاء معه بوجه (إذا) قوبلت بالمرآة ، إذا (ما) زائدة (جليت) أي : أزيلت ، وبين هـٰذا و(تجتلىٰ) تجنيس الاشتقاق (عن مرآتها) بكسر الميم والمد (الأصداء) فكذلك مرآة القلوب ، لا تجتلىٰ لها العلوم والمعارف من القرآن . . إلا إذا جليت عنها أصداء الأغيار ، وأذابت قواها فيما هي بصدده آناء الليل وأطراف النهار .

(192)

سُـــوَرٌ مِنْــهُ أَشْبَهَــتْ صُــوَراً مِنَّـــــا وَمِثْــلُ ٱلنَّظَــائِــرِ ٱلنُّظَــرَاءُ

(سور) جمع سورة ، وهي : الطائفة المخصوصة المسماة باسم مخصوص توقيفي (منه) لبيان الجنس ؛ لأن ما يأتي ليس خاصاً ببعض سُوَره ، بل يشملها كلها (أشبهت) لاشتمال كل منها علىٰ مفادات من العلوم وغيرها ، مستقلة بها لا تتوقف علىٰ ما في الأخرىٰ ، ومن ثم وقع التحدي بأقصر سورة منه (صوراً) جمع صورة ، وصورة الشيء : شكله (منا) في اشتمال كل منها علىٰ عقل وإدراك وفهم وخلق لا يشاركه فيه غيره ، ولا يتوقف علىٰ ما في غيره ، وكأن الناظم رحمه الله تعالىٰ قصد بهـٰذا التشبيه الرد علىٰ من زعم أن الإعجاز إنما هو بمجموع القرآن لا بكل سورة من سوره ؛ لأن ما فيه من أنواع الإعجاز السابقة إنما يستفاد من مجموعه ، وهـٰذه مقالة فاسدة لا يعول عليها ؛ لمنافاتها لقوله تعالىٰ : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ كما مر بيانه ، فالصواب : خلاف هـٰذه المقالة ، بل قائلوها معتزلة لا يقام لهم وزن (ومثل النظائر) جمع نظير (النظراء) جمع نظير أيضاً ، وهو المثل والمناظر ، ويطلق النظائر على الأماثل والأفاضل ، وكل منهما يصح أن يكون مراداً هنا خلافاً للشارح ، وهـٰذا ساقه كالمثل لما قبله ، فيكون من التذييل ؛ أي : ومثل تلك السور التي هي نظائر ـ كما قال ابن مسعود رضي الله عنه : (ولقد عرفت النظائر التي كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي عشرون سورة)[1] ـ الأماثل والأفاضل الذين يتناظرون في التحلي بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل .

(193)

وَٱلْأَقَـاوِيـلُ عِنْـدَهُـمْ كَـٱلتَّمَـاثِيـــــلِ فَــلَا يُــوهِمَنَّــكَ ٱلْخُطَبَــاءُ

(والأقاويل) جمع قول ، والمراد به هنا : اللفظ المفيد (عندهم) أي : الكفار ، ظرف للمبتدأ ، أو لخبره ، وهو (كالتماثيل) ـ جمع تمثال ـ وهو : الصورة ، يعني :

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٥) ، ومسلم (٨٢٢) .

أن تقولهم في القرآن وافتراءهم عليه بما يقدح في حقيقته أمر مزخرف مموه بالأباطيل ، كما أن التصاوير التي يخترعها المصورون كذلك ، فكما أن هـٰذه لا وجود لها في الحقيقة ولا اعتبار بها . . فكذلك تقولهم المذكور ، وإذا تقرر لك أن جميع ما قالوه في القرآن باطل قطعي البطلان . . (**فلا يوهمنك الخطباء**) أي : فاحذر أن يوقع مزخرفو الكلمات بتشدقهم وتفاصحهم في ذهنك أدنىٰ ريب أو شك في شيء من أوصاف القرآن التي مر بيان بعضها ، وما ينبه علىٰ ما بقي منها .

(194)

كَـمْ أَبَـانَـتْ آيَـاتُـهُ مِـنْ عُلُـومٍ عَـنْ حُـرُوفٍ أَبَـانَ عَنْهَـا ٱلْهِجَـاءُ

(كم) أي : مرات كثيرة (**أبانت**) أي : أوضحت (**آياته**) جمع آية ، وهي لغة : العلامة ، واصطلاحاً : قرآن مركب من جمل ولو تقديراً ، ذو مبدأ ومقطع ، مندرج في سورة ، قاله الجعبري ، ويشكل عدهم نحو : ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ في (المدثر) آيةً ؛ إذ ليس في هـٰذه جمل ولا تقدير ، فالأولىٰ : قول غيره : طائفة من القرآن ، منقطعة عما قبلها وما بعدها ، لـٰكن قوله : (من القرآن) الأولىٰ : أن يقول بدله : من السورة .

وسميت الآية بذلك ؛ لأنها علامة علىٰ صدق الآتي بها ، وعلىٰ عجز المتحدين بها ، ويأتي قريباً عد آيِ القرآن .

(من) زائدة في الإثبات ، كما هو رأي جماعة (**علوم**) لا غاية لها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وفي حديث الترمذي وغيره « سَتَكُونُ فِتَنٌ » قيل : وما المخرج منها ؟ قال : « كِتَابُ ٱللهِ ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ »[١] .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال : (من أراد العلم . . فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين)[٢] قال البيهقي : يعني : أصول العلم ، وأخرج عن الحسن : أنزل الله مئة وأربعة كتب ، أودع **علومها** أربعة منها ، التوراة والإنجيل

---

(١) الترمذي (٢٩٠٦) .

(٢) سنن سعيد بن منصور (١) .

والزبور والفرقان ، ثم أودع علوم الثلاث الفرقان[1] ؛ أي : مع زيادات لا تنحصر ، ومن ثم قال الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه : جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة ، وجميع السنة شرح للقرآن ، وقال أيضاً : جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن ، وما ثبت ابتداء بالسنة فهو في الحقيقة مأخوذ منه ؛ لأنه أوجب علينا اتباعه صلى الله عليه وسلم ، ولهٰذا قال مرة بمكة : سلوني عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله تعالىٰ ، فامتحن بدقائق ، فاستنبطها من القرآن ، منها : لو قتل محرم زنبوراً . . هل عليه جزاء ؟ فاستنبط لهم منه : أنه لا جزاء عليه ؛ لأن عمر رضي الله عنه أمر بقتله ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « ٱقْتَدُوا بِٱللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ »[2] والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ . . . ﴾ الآية[3] ، وتبعه ـ أعني : الشافعي ـ العلماء علىٰ ذلك ، فقال واحد : ما قال صلى الله عليه وسلم شيئاً ، أو حكم أو قضىٰ بشيء . . إلا وهو أو أصله في القرآن ، قرب أو بعد .

وقال آخر : ما من شيء في العالم . . إلا وهو فيه ، فقيل له : فأين ذكر الخانات فيه ؟ فقال : في قوله تعالىٰ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ فهي الخانات .

وقال آخر : ما من شيء . . إلا ويمكن استخراجه من القرآن لمن فهَّمه الله تعالىٰ ، حتىٰ إن عمره صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وستين سنة استنبط من آخر (سورة المنافقين) لأنها آخر رأس ثلاث وستين سورة ، وأعقبها بـ(التغابن) لظهوره بفقده صلى الله عليه وسلم .

وقال آخر : لم يحط بالقرآن إلا المتكلم به ، ثم نبيه صلى الله عليه وسلم فيما عدا ما استأثر الله تعالىٰ بعلمه ، ثم ورث عنه معظم ذلك أعلام الصحابة ، مع تفاوتهم فيه بحسب تفاوت علومهم ، كأبي بكر رضي الله عنه ، فإنه أعلمهم ، بنص ابن عمر

---

(١) شعب الإيمان (٢٣٧١) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) ، وابن ماجه (٩٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢١٢) ، وأحمد (٥/ ٣٨٢) ، والبزار (٢٨٢٧) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٧٢) .

(٣) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٥/ ٢١٢) .

رضي الله عنهما وغيره ، وكعلي رضي الله عنه ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الحسن ، خلافاً لمن زعم وضعه : « أَنَا مَدِينَةُ ٱلْعِلْمِ ، وَعَلِيٌّ بَابُهَا »[1] ومن ثم قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : (جميع ما أثرته لكم من التفسير فإنما هو عن علي رضي الله عنه) وكابن عباس رضي الله عنهما ، حتىٰ إنه قال : (لو ضاع عقال بعيري . . لوجدته في كتاب الله) .

ثم ورث عنهم التابعون معظم ذلك ، ثم تقاصرت الهمم عن حمل ما حمله أولـٰئك من علومه وفنونه ، فنوعوا علومه أنواعاً ؛ ليضبط كل طائفة علماً وفناً ، ويتوسعوا فيه بحسب مقدرتهم ، ثم أفرد غالب تلك العلوم وتلك الفنون التي كادت أن تخرج عن الحصر ، وقد بين هـٰذا القائل وجه استنباط غالبها منه بتآليف لا تحصىٰ .

وقال آخر : علومه خمسون وأربع مئة علم ، وسبعة آلاف علم ، وسبعون ألف علم ؛ علىٰ عدد كلم القرآن ، مضروبة في أربعة ؛ إذ لكل كلمة ظهر وبطن ، وحد ومطلع ، ويضم لذلك اعتبار تركيب ما بينهما من روابط ، لـٰكن هـٰذا لا يحصيه إلا المتكلم به تعالىٰ .

نعم ؛ أُمُّ علومه ثلاثة : توحيد ، ووعظ ، وحكم ، ومن ثم سميت (الفاتحة) أمه ؛ لاشتمالها علىٰ هـٰذه الثلاثة ، و(الإخلاص) ثلثه ؛ لاشتمالها على الأول .

وقال ابن جرير : (الثلاثة : التوحيد ، والأخبار ، والديانات) .

وقال آخر : اشتمل القرآن علىٰ كل شيء ، كما قال تعالىٰ : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ أما العلوم . . فلا تجد مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها ، وفيه عجائب المخلوقات ، وملكوت السماوات والأرض ، وما في الأفق الأعلىٰ وتحت الثرىٰ ، وبدء الخلق ، وأسماء مشاهير الأنبياء والملائكة ، وعيون أخبار الأمم السابقة ، وشأنه صلى الله عليه وسلم وغزواته ، وأخباره إلىٰ مماته صلى الله عليه وسلم ، ثم شأن أمته من بعده ، وبدء خلق الإنسان إلىٰ موته ، وأمارات الساعة ، وجميع أحوال البرزخ والمحشر ، والجنة والنار .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/١٢٦) ، وقال : (صحيح الإسناد) ، واعترضه الذهبي ، وأخرجه الطبراني في « الكبير » (١١/٥٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/٦٧) ، والعقيلي في « ضعفائه » (٣/١٤٩) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/١٨١) .

وزعم الجاحظ : أنه لا يوجد فيه شيء من المذهب الكلامي الذي هو : احتجاج المتكلم علىٰ ما يريد إثباته بحجة تقطع الخصم علىٰ طريقة أرباب الكلام ، ولا من النوع المنطقي الذي تستنتج منه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة .

وردوا عليه بأنه مشحون من ذلك ؛ إذ ما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد ينبني منه كليات العلوم العقلية. . إلا وكتاب الله قد نطق به ، وقد بين الإسلاميون من أهل هٰذه العلوم كثيراً من ذلك ، منه : أن من أول (سورة الحج) إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ خمس نتائج ، تستنتج من عشر مقدمات ، بل فيه الإشارة حتىٰ لعلم الهندسة ، بل لأشكل ما فيه ، وهو الشكل الثلاثي ، بقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ. . . ﴾ الآية .

قال الأئمة : إنما أوردت حججه علىٰ عادة العرب دون دقائق المتكلمين ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ ولأن من استطاع أن يفهم غيره بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون. . لا ينبغي له أن ينحط إلى الأغمض الذي لا يفهمه إلا الأقلون ، وإلا. . كان ملغزاً ، ومن ثم أخرج تعالىٰ مخاطباته في محاجة خلقه في أجلىٰ صورة وأوضحها ؛ ليفهم العامة ما يقنعهم ، أو يلزمهم الحجة بسببه ، والخاصة ما يليق بهم من دقائق المعارف التي هي منتهىٰ كل ومبلغ أربه .

ومن عجيب تلك الآيات : أنها أبانت تلك العلوم التي لا غاية لها حال كونها متولدة (عن) بينها وبين (من) الجناس اللاحق (**حروف**) قليلة بالنسبة إليها .

أخرج ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما قال : جميع آيِ القرآن ستة آلاف آية ، وست مئة آية ، وست عشرة آية ، وجميع حروف القرآن ثلاث مئة ألف حرف ، وثلاثة وعشرون ألف حرف ، وست مئة حرف ، وأحد وسبعون حرفاً .

وهٰذه الحروف ليس المراد بها حروف التهجي ، بل مسمياتها ، فحروف التهجي أسماء كاشفة عن تلك المسميات ، كما قال :

(أبان) أي : كشف (**عنها الهجاء**) أي : التهجي ، وهو تعديد الحروف بذكر أسمائها ، فإنك إذا قلت : ضرب مركب من (ض ر ب). . فقد عددت الحروف البسيطة التي هي مادة الكلمة قبل أن تحصل صيغة ، والمراد هنا : أنه يتهجىٰ بالأسماء

عن المسميات حتىٰ يتبين موضوع كل ، وبيانه : أن الحرف الذي أول زيد مثلاً له مسمّىً هو (ز) والخطأ فيه بحذف هاء السكت لا يؤثر ؛ لأنه للتعليم ، وله اسم وهو (الزاي) لأنه تعتريه سائر علامات الاسم ، ومن ثم قال سيبويه : قال الخليل يوماً وقد سأل أصحابه : كيف تقولون إذا أردتم أن تتلفظوا بـ(الكاف) التي في ذلك ، و(الباء) التي في ضرب ؟ فقيل : نقول : (كاف) (باء) ، فقال : إنما جئتم بالاسم ولم تتلفظوا بالحرف ، وقال : أقول : (كِهْ) (بِهْ) ، فحروف القرآن من الأول ، وحروف التهجي من المراد من الثاني .

ودليل تسميتها حروفاً الخبر الصحيح : « مَنْ قَرَأَ حَرْفاً مِنْ كِتَابِ ٱللهِ تَعَالَىٰ . . فَلَهُ حَسَنَةٌ ، وَٱلْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، لاَ أَقُولُ : ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ ، بَلْ أَلِفٌ حَرْفٌ ، وَلاَمٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ »[1] .

فتسمية كل حرفاً إما لغة ، أو مجازاً باعتبار مدلوله .

(195)

فَهْيَ كَٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ أَعْجَبَ ٱلزُّرَّ ... اعَ مِنْهَـــا سَنَـــابِـــلٌ وَزَكَـــاءُ

(فهي) أي : حروف القرآن وإن غزرت معانيها وكثرت أحكامها . . لا يستبعد منها ذلك وإن كانت قليلة جداً بالنسبة لما يستفاد منها ؛ لأن لها مثالاً يقربها نوع قرب ، كحروف أسماء الأعداد ، وإلا . . فشتان ما بينهما ؛ إذ ما يأتي له أمد معلوم يفنىٰ فيه عن قرب ، وهـٰذه مستمرة النمو والزيادة علىٰ ممر الأعصار ، وتوالي الأزمان في هـٰذه الدار ، بل وفي دار القرار ، كما يدل عليه الحديث الصحيح أنه : « يُقَالُ لِلْقَارِىءِ فِي ٱلْجَنَّةِ : ٱقْرَأْ وَٱرْقَ ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي ٱلدُّنْيَا »[2] ويأتي ذلك قريباً بزيادة .

وذلك المثال هو إما : أنها كحروف أسماء الأعداد ؛ فإنها مع كونها ألفاظاً محصورة لا ينتهي الوهم إلى المعدود بها ، وإما أنها (كالحب) الذي يلقيه الزراع

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٩٨٣) .

(٢) أخرجه ابن حبان (٧٦٦) ، وأبو داوود (١٤٥٩) ، والترمذي (٢٩١٤) ، وأحمد (٢/ ١٩٢) .

(والنوىٰ) الذي يلقيه الغارس بالأرض ، فينشأ عن الأول من السنابل والحبوب ما لا يكاد يحصىٰ ولا يتناهىٰ ، ومن الثاني من الثمر ما هو كذلك ، وفي هـٰذه الحالة (أعجب) فاعله يأتي ، فقول الشارح : (إن فيه ضميراً لـ« الحب » و« النوىٰ » وأن فاعله « سنابل ») . . سهو منه ؛ إذ كيف يتصور في فعل أن له فاعلين ، ضميراً وظاهراً في حالة واحدة[1] ؟!

(الزراع) والغراس ، كما يدل عليه ذكر (النوىٰ) فهو اكتفاء كـ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ أي : والبرد ، وفيه أيضاً اللف والنشر المرتب ؛ لعود (الزراع) لـ(الحب) ، و(الغراس) لـ(النوىٰ) وعود (السنابل) للأول ، و(الزكاء) لهما .

(منها) أي : تلك الزروع والأشجار (**سنابل وزكاء**) أي : نمو يفوت الحصر ، بحيث لو اجتمع أهل الأرض على استقصاء عددها . . لما أطاقوه ، فقد علمت أن المتناهي هنا كما يحصل منه ما لا يتناهىٰ . . فكذلك حروف القرآن هي متناهية ، ويحصل منها من العلوم والمعارف ما لا يتناهىٰ ، وهـٰذا المثال المراد به التقريب لا غير ، كما عرف مما مر ، وإلا . . فشتان ما بين الأمرين ، ألا ترىٰ أن عدم تناهي تلك الحبوب والثمار إنما هو في مدة قليلة ثم تفنىٰ عن قريب ؟! وأما تلك الحروف . . فإن معانيها لا تتناهىٰ في الدنيا ولا في الآخرة ، ففي الحديث الصحيح أنه : « يُقَالُ لِلْقَارِىءِ فِي ٱلْجَنَّةِ : ٱقْرَأْ وَٱرْقَ ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي ٱلدُّنْيَا » وبه يعلم أنه يقرأ ويتلذذ بالقراءة ، ومن لازم ذلك تلذذه بمعانيها ، وما يفتح الله به على القراء من أنواع المعارف اللائقة بتلك الدار وتلك الذوات التي تم فيها التأهل ، وذلك أمر لا يتناهىٰ أبداً .

ومن عجيب شأن الكفار : أنهم مع هـٰذه المعجزات والآيات البينات كلها استمروا علىٰ ما هم عليه من غاية الإعراض والإنكار .

(196)

فَـأَطَـالُـوا فِيـهِ ٱلتَّـرَدُّدَ وَٱلـرَّيْـ ـبَ فَقَـالُـوا سِحْـرٌ وَقَـالُـوا ٱفْتِـرَاءُ

(**فأطالوا فيه التردد والريب**) أي : الشك ، عطف مرادف (**فقالوا**) ـ كما

---

(١) وعليه فالفاعل هو (سنابل) ، وجملة : (أعجب . . .) في محل نصب حال .

حكاه الله تعالىٰ عنهم في كتابه العزيز ، فهو تلميح ـ مرة : إنه (**سحر**) أي : تمويه لا حقيقة له ، وأصل السحر لغة : كل ما لطف مأخذه ورق (**وقالوا**) مرة أخرىٰ : إنه (افتراء) أي : كذب ، ومرة : أساطير الأولين. . . إلىٰ غير ذلك من افترائهم واقتراحهم ، ومباهتتهم وتلبيسهم ، وضلوا فيما قالوا ، ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ والله المتفضل بإنزاله ﴿ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ، ﴿ لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ وكل ذلك ينادي عليهم بالبوار والعناد ، وأنهم لا عقل لهم ولا رأي ولا استعداد .

(197)

وَإِذَا ٱلْبَيِّنَاتُ لَمْ تُغْنِ شَيْئاً ... فَالْتِمَاسُ ٱلْهُدَىٰ بِهِنَّ عَنَاءُ

(و) لٰكن ليس ذلك بكثير علىٰ من عدم التوفيق ، ولم يبصر سواء الطريق ؛ لما هو مقرر في العقول السليمة من الحكم البديعة الجامعة أنه (إذا) كانت (البينات) أي : الحجج القطعية البرهان ، الواضحة البيان (لم تغن) أي : هم ؛ أي : تفدهم (شيئاً) من الهدىٰ (فالتماس الهدىٰ بهن) أي : طلبه منهم بتلك الحجج بعد اليأس من إيمانهم (عناء) أي : تعب لا يفيد شيئاً .

(198)

وَإِذَا ضَلَّتِ ٱلْعُقُولُ عَلَىٰ عِلْـ ... ـمٍ فَمَاذَا تَقُولُهُ ٱلنُّصَحَاءُ

(وإذا ضلت) عن طريق الحق (العقول) جمع عقل ، وسبق الكلام عليه مستوفىً (علىٰ) أي : مع (علم) منها بتلك الطرق ؛ أي : أضلها بارئها (فماذا تقوله) أي : فأي قول تقوله الأنبياء (النصحاء) وقولهم حينئذ لا يفيد شيئاً ؟!

والبيت الأول مقتبس من قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

والثاني من قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وبما قررت به كلامه يعلم أن هٰذين البيتين من الكلام البديع الجامع .

تنبيه : لا يتوهم من النظم : أنه مخالف لقول الأئمة : أجمعت الأمة على التكليف بالمحال لغيره ، كتكليف أبي جهل مثلاً بالإيمان مع علم الله تعالىٰ بأنه لا يؤمن ، وذلك لأن التكليف بذلك إنما هو بالنظر للحالة الراهنة المنطوي عنا عاقبتها ، فهم بالنسبة إليها مكلفون بالإيمان ؛ لقدرتهم عليه ظاهراً ، وإن كانوا عاجزين عنه باطناً ؛ لعلم الله تعالىٰ بأنهم لا يؤمنون ؛ لأن هـٰذا لا نظر إليه ، وإلا . . لارتفع الاختيار ، وثبت القول بالجبر المنابذ لما جاءت به الشرائع ، فاحذر أن تميل إليه فتزل قدمك ، ويحق ندمك ، واستحضر قوله تعالىٰ : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ .

فوائد : منها : قيل : حكمة تنزيه القرآن عن الشعر مع أن الوزن يورث الكلام عذوبة : أن قصارىٰ أمر الشاعر التخييل بتصوير الباطل في صورة الحق ، والإفراط في الإطراء ، والمبالغة في الذم ، والإيذاء دون إظهار الحق ، ولهـٰذا نزه الله تعالىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم عنه ، ومن ثم قال بعض الحكماء : لم ير متدين صادق اللهجة مُفلِقاً في شعره ـ أي : غالباً ـ وما وقع فيه علىٰ صورة الشعر . . لا يسماه ؛ لأن شرطه القصد ، ومن ثم لم تعارضه العرب ، ولو اعتقدوه شعراً . . لعارضوه ، وقيل : دون البيتين ليس شعراً ، وقيل : الرجز كذلك .

ومنها : سئل الغزالي عن قوله تعالىٰ : ﴿ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ فقال : (الاختلاف مشترك بين معان ، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه ، بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن ، فليس نظمه مختلفاً ، ولا بعضه يدعو للدين وبعضه يدعو للدنيا ، بخلاف كلام البشر ؛ لاختلاف قواهم وأغراضهم وأحوالهم) .

ومنها : أن سائر كتب الله تعالىٰ لا إعجاز فيها من حيث النظم والتأليف ؛ لأن ألسنتهم لا تفي بذلك ، بخلاف الإخبار بالغيوب ، فإن الكل جميعاً يشترك فيه ، ولكون ألسنتهم كذلك كان كل ما في القرآن حكاية عنهم إنما هو حكاية لمعنىٰ ألفاظهم ، ذكره ابن جني وغيره .

ومنها : وقع في القرآن آيات مشتبهات من حيث النظم ، كإيراد القصة الواحدة في سور وفواصل مختلفة ، كـ﴿ وَكُلَا ﴾ ﴿ فَكُلَا ﴾ ، ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ ، ﴿ سَنَزِيدُ ﴾ ﴿ وَسَنَزِيدُ ﴾ ، وذلك كثير ، وقد أفرد خلائق الجواب عن ذلك بتآليف مستقلة ، ومن حيث إيهام التعارض عند عدم التأمل ، نحو : ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، وأول من تكلم في الجواب عن ذلك ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما ، ثم تبعه الأئمة ، حتىٰ أفرد بعضهم ذلك بالتآليف ، كما ألفوا في مختلف الحديث ، وبيان الجمع بين الأحاديث المتعارضة ، ومن حيث إنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالىٰ بعلمه ، أو علمه أيضاً الراسخون في العلم ، وهو مبحث طويل ، فلا بأس بذكر خلاصته ، وهي :

قيل : القرآن كله محكم ، كما في آية ، وقيل : كله متشابه ، كما في آية ، والأصح : انقسامه إليهما ، والمراد بـ: ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ : أتقنت وتنزهت عن نقص يلحقها ، وبـ: ﴿ مُتَشَٰبِهًا ﴾ : أنه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز ، ثم المحكم : ما عرف المراد منه ، قيل : ولو بالتأويل ، والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه ، كالساعة ، والحروف المقطعة أوائل السور ، وفيهما أقوال أخر ، ثم المتشابه : هل علم ؟ فيه قولان ، منشؤهما : هل الوقف علىٰ ﴿ ٱلْعِلْمِ ﴾ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ وعليه طائفة قليلة ، كمجاهد والضحاك ، وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال النووي : (إنه الأصح ؛ لأنه يبعد أن يخاطب الناس بما لا سبيل لأحد من الخلق إلىٰ معرفته)[1] وابن الحاجب : إنه المختار ، والأكثرون من الصحابة فمن بعدهم خصوصاً أهل السنة : أن الوقف علىٰ ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ من قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وهو أصح الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وعد ابن السمعاني اختيار الأول هفوة ، وجمع بعضهم بأن من المتشابه ما يمكن الوقوف عليه ، ومنه ما لا يمكن ، فصح الوقفان بهٰذا الاعتبار .

ومن المتشابه ذكر آيات الصفات التي فيها ذكر نحو الاستواء واليد والعين ، وجمهور أهل السنة منهم أكثر السلف وأهل الحديث : علىٰ تفويض معناها المراد منها إلى الله تعالىٰ ، مع تنزيهه عن ظواهرها .

وذهب الخلف : إلىٰ تأويلها بما يليق بجلاله تعالىٰ ، وكان إمام الحرمين يميل إلىٰ هٰذا ، ثم رجع عنه فقال : الذي نرتضيه ديناً وندين الله تعالىٰ به عقلاً . . اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا علىٰ ترك التعرض لمعانيها ، وتبعه ابن الصلاح فقال : علىٰ ذلك

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/ ٢١٨) .

مضىٰ صدر الأمة وساداتها ، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها ، وإليها دعا أئمة الحديث ، والفخر فقال وأحسن فيما قال : (لا يصرف اللفظ عن ظاهره إلا بدليل منفصل ، وهو إما لفظي ، وهو لا يعتبر هنا ؛ لأنه مظنون ؛ إذ القطع به يتوقف على انتفاء الاحتمالات العشر ، وهو مظنون ، وإما عقلي ، وهو إنما يفيد صرف اللفظ عن ظاهره ؛ لاستحالته ، دون إثبات المعنى المراد ؛ لأنه ترجيح مجاز علىٰ مجاز ، وتأويل علىٰ تأويل ، وذلك إنما يكون بلفظي ، وقد تقرر أنه لا يفيد إلا الظن ، وهو لا يعول عليه في المسائل الأصولية القطعية) قال : (فلهٰذا اختار الأئمة المحققون من السلف والخلف ـ بعد إقامة الدليل القاطع علىٰ أن حمل اللفظ علىٰ ظاهره محال ـ تركَ الخوض في تعيين التأويل)[١] اهـ

وتوسط ابن دقيق العيد فقال : يقبل التأويل إن قرب في لسان العرب ، نحو : ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ﴾ أي : في حقه وما يجب له ، لا إن بعد ؛ أي : كتأويل : ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ بـ(استولىٰ) .

ولما فرغ من الحجاج مع المشركين ، وبين ما آل إليه أمرهم . . شرع في الكلام مع أهل الكتابين ؛ ليبين ما آل إليه أمرهم أيضاً فقال :

(199)

قَـوْمَ عِيسَـىٰ عَـامَلْتُـمُ قَـوْمَ مُـوسَـىٰ ‏ ‏ ‏ ‏ بِـالَّـذِي عَـامَلَتْكُـمُ الْحُنَفَـاءُ

يا (قوم) وحذف حرف النداء جائز إلا في الندبة والاستغاثة ومع الضمير ، وكذا مع اسم الإشارة واسم الجنس علىٰ قول فيه (**عيسىٰ**) المدعوين بالنصارىٰ (**عاملتم قوم موسىٰ**) وهم اليهود (**بـ**) التصديق بكتابهم ، وهو التوراة (**الذي عاملتكم**) بنظيره ، وهو التصديق بكتابكم الذي هو الإنجيل (**الحنفاء**) أي : المسلمون ، جمع حنيف ، وهو المائل عن كل دين إلى الدين الحق .

ثم بين ما أبهمه في البيت قبله بقوله :

---

(١) انظر « التفسير الكبير » (٧/ ١٦٩ـ١٧٠) .

(200)

صَدَّقُوا كُتُبَكُمْ وَكَذَّبْتُمُ كُتْبَهُمُ إِنَّ ذَا لَبِئْسَ ٱلْبَوَاءُ

(صدقوا) أي : قوم عيسىٰ (كتبكم) وهي التوراة وما بعدها كالزبور (وكذبتم كتبهم) وهي الإنجيل ، وجمعه للمشاكلة ، أو لتنزيله منزلة كتب متعددة ، وفي هـٰذا التفات ؛ لأن قوم عيسىٰ خوطبوا أولاً ، وأعيد عليهم ضمير الغيبة ، وقوم موسىٰ بالعكس .

وبين (موسىٰ) و(عيسىٰ) الجناس اللاحق ، كـ(قابيل) و(هابيل) الآتيين ، و(التصديق) و (التكذيب) الطباق .

(إن ذا) الذي فعلتموه معشر اليهود (لبئس البواء) أي : الصنيع الذي رجعتم به القهقرىٰ ، وهـٰذا مقتبس من قوله تعالىٰ : ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ .

(201)

لَوْ جَحَدْنَا جُحُودَكُمْ لَاسْتَوَيْنَا أَوَ لِلْحَقِّ بِٱلضَّلَالِ ٱسْتِوَاءُ

(لو جحدنا) من الجحد ، وهو الإنكار عن علم (جحودكم) أي : مثله ، بأن أنكرنا كتابكم كما أنكرتم كتابنا وكتاب عيسىٰ (لاستوينا) نحن وأنتم (أ) يكون ذلك منا ؟! لا يتصور ذلك ، كيف (و) ليس (للحق) وهو ما نحن عليه من التصديق بجميع كتب الله ورسله (بالضلال) وهو ما هم عليه من التصديق بالبعض والكفر بالبعض (استواء ؟!) أي : مساواة ، بل بينهما غاية التضاد ، فالحاصل : أننا لم نجحد شيئاً من كتب الله تعالىٰ ، وإنما وقع الجحد من اليهود لكتاب النصارىٰ ، ومن النصارىٰ لكتاب اليهود ، خلاف ما يوهمه النظم ، قال تعالىٰ : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي : المكذب لهم في ذلك ، وكأن الشارح أخذ من هـٰذا قوله : (إنما وقع التجاحد بين أهل الكتاب ؛ إذ التعبير بالتفاعل مصرح بما ذكر مما يخالف النظم ويوافق ظاهر الآية) اهـ

وقد يقال : لا يلزم من ادعاء كل فرقة في الأخرىٰ ما ذكر في إنكار كتابهم ؛ إذ

لا مانع أن النصارىٰ قائلون في اليهود ذلك مع قولهم : إنهم ليسوا علىٰ شيء ، باعتبار تبديلهم وتغييرهم ، فصح ما في النظم ، ويحتمل إرجاع ضمير (صدقوا) و(كتبهم) إلى الحنفاء ، وضمير الخطاب في (كتبكم) و(كذبتم) للفريقين اليهود والنصارىٰ ، ويكون ذلك تفسيراً لـ(عاملتكم الحنفاء) وفي السياق ما يؤيد كلاًّ من الاحتمالين ، لـٰكن الأول أقرب .

ولما كان من المعلوم المستقر أن اليهود أشد الناس حسداً ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وأنهم حسدوا عيسىٰ حتىٰ قتلوه في زعمهم الفاسد ، واستمر حسدهم للنصارىٰ من بعده حتىٰ قالوا : ﴿ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ الموجب لقول النصارىٰ فيهم ذلك أيضاً ، وأن الطائفتين حسدوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته حتىٰ وقع منهم من العناد ما لا يصدر عن سخفاء العقول فضلاً عن غيرهم . . شرع الناظم في بيان ذلك كله منهم علىٰ وجه بديع فقال :

(202)

مَـا لَكُـمْ إِخْـوَةَ ٱلْكِتَـابِ أُنَـاسـاً   لَيْـسَ يُـرْعَـىٰ لِلْحَـقِّ مِنْكُـمْ إِخَـاءُ

(ما لكم) أي : أيُّ حال حصل لكم معشر الفريقين ؟! يا (إخوة الكتاب) المراد به : الجنس الشامل لكتابيهما ، سماهم بذلك ؛ لأنه لما جمعهم ما فيه من التكاليف والأحكام . . صاروا مستوين فيه ، كاستواء الإخوة في الانتساب إلىٰ أصل واحد ، حال كونكم (أناساً ليس) شأنكم أنه (يرعىٰ للحق منكم إخاء) ـ بكسر الهمزة ـ نائب فاعل (يرعىٰ) ويجوز أنه اسم (ليس) ونائب فاعل (يرعىٰ) ضميره ؛ أي : مؤاخاة ؛ أي : ليس يصدر منكم مراعاة للدين الحق بالقيام بما يجب له من الحقوق التي منها تصديق محمد صلى الله عليه وسلم ، عملاً بما في كتبكم من التصريحات الكثيرة بنبوته وعموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

وفي (إخاء) مع (إخوة) رد العجز على الصدر ، وبين (الإخوة) و(الإخاء) جناس الاشتقاق ، كـ(الشهادة) و(الشهداء) الآتي .

ومن عدم رعايتكم لذلك أنه

(203)

يَحْسُدُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْأَخِيرَ وَمَا زَا	لَ كَذَا ٱلْمُحْدَثُونَ وَٱلْقُدَمَاءُ

(يحسد الأول الأخير) كما وقع لليهود أنهم حسدوا عيسىٰ صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ زعموا أنهم قتلوه وصلبوه ، وما درى الملاعين أنه شبه لهم مثلُه فقتلوه ، ونجاه الله تعالىٰ منهم ، ثم رفعه إلى السماء ؛ لينزل آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، مصلياً وراء المهدي رضي الله عنه أول نزوله ؛ ليعلم أنه نزل تابعاً لهـٰذه الأمة ، عاملاً بشريعة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومنها : أنه لا يقبل الجزية ، بل يقتل كل يهودي ونصراني في الأرض ؛ لأن نوعاً ما من الشبهة المجوِّزة لقبول الجزية منهم ارتفع بنزوله وتكذيبه لهم (وما زال كذا) أي : كهـٰذا المذكورَ من حسد الأول للأخير (المحدثون والقدماء) من لدن آدم إلى اليوم .

(204)

قَدْ عَلِمْتُمْ بِظُلْمِ قَابِيلَ هَابِيـ	ـلَ وَمَظْلُومُ ٱلْإِخْوَةِ ٱلْأَتْقِيَاءُ

(قد) هي للتحقيق (علمتم) يا أهل الكتاب (بظلم قابيل) من إضافة المصدر إلىٰ فاعله ، وهو أول أولاد آدم ، وهم أربعون ، جاؤوا له من حواء في عشرين بطناً ، في كل بطن ذكر وأنثىٰ ، وبارك الله تعالىٰ في نسله في حياته حتىٰ بلغوا أربعين ألفاً (هابيل) بشدخه رأسه بين حجرين ، وهو ثاني أولاد آدم صلى الله عليه وسلم ؛ حسداً له على الدين ، من أجل كون الله تعالىٰ تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربانه ، فحينئذ قال له : ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ فأجابه : بأنه يستسلم لقضاء الله ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، كما أفاد ذلك ما حكاه الله تعالىٰ عنه بقوله عز قائلاً : ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى . . .﴾ الآية ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « كُنْ خَيْرَ ٱبْنَيْ آدَمَ ، كُنْ عَبْدَ ٱللهِ ٱلْمَقْتُولَ ، وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ ٱللهِ ٱلْقَاتِلَ »[١] .

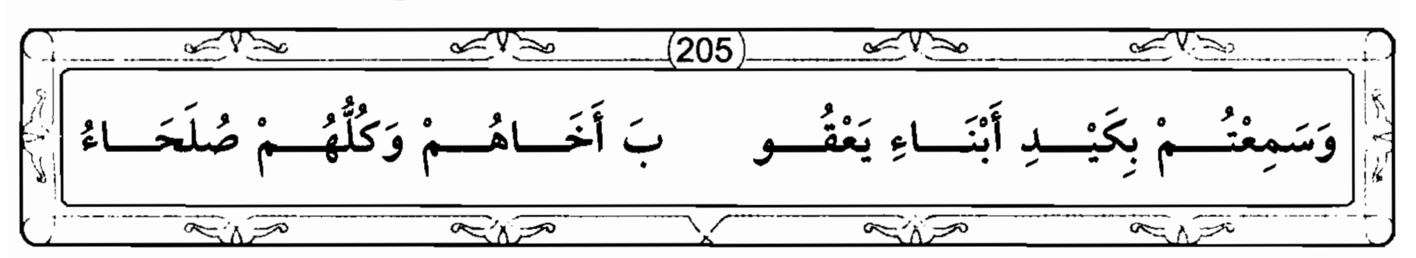
---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٩٦٢) ، وأبو داوود (٤٢٥٨) ، وابن ماجه (٣٩٦١) ، وأحمد (٤/٤١٦) بمعناه .

وجاء : أن سبب حسده له : أنه تزوج أخت هابيل ، واسمها لبوذا ، وكانت ليست كجمال أخته التي تزوجها هابيل ، وكان من شريعة آدم عليه السلام أن اختلاف بطون حواء بمنزلة اختلاف الأنساب ، فكان يزوج ذكور كل بطن لإناث الآخر ، وبالعكس ، وهو مع مخالفته لظاهر الآية يمكن تأويله بأنه لا مانع من أن حسده بسببين : أخروي ، وهو ما في الآية ، ودنيوي ، وهو ما ذكر ، علىٰ أنه جاء في القصة : أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أمر قابيل أن يزوج أخته لهابيل ، فامتنع وقال : أختي أحسن ، لا أمكنه منها ، ولا أرضىٰ أخته.. أمرهما أن يقربا قرباناً لله تعالىٰ ، وكانت العلامة علىٰ قبوله إذ ذاك نزول نار من السماء تأكله ، فقرب كل منهما قربانه ، فتقبل قربان هابيل ، فزاد حسده[1] إلىٰ أن قتله .

وبين (الأول) و(الأخير) ، و(المحدثون) و(القدماء) جناس الطباق ، كـ(وفيتم) و(خانوا) ، و(أحسنتم) و(أساؤوا) ، و(الآباء) و(الأبناء) ، و(عرفوه) و(أنكروه) الآتيات .

(ومظلوم الإخوة) الإضافة فيه بمعنىٰ (من) ويصح ـ بتكلف ـ كونها بمعنىٰ (في) وأخبر عنه بالجمع ؛ لأنه للجنس الصادق بالجمع وقسيميه (الأتقياء) لأنهم الذين يصبرون على احتمال الأذىٰ ، ولا ينتقمون لأنفسهم ، وهـٰذا فيه نحو إرسال المثل ؛ للاستدلال به علىٰ ما قبله ، وكذا : (وما زال...) إلخ ، وعلم من قولي : (وهـٰذا فيه...) إلخ أنه ليس المراد بالإخوة هنا : خصوص قابيل وهابيل حتىٰ يجاب عنه بأنه أراد بالإخوة الأخوين ، بناء على القول : بأن أقل الجمع اثنان .



(و) قد (سمعتم) هو لليقين ؛ لأن المراد في كل : العلم (بكيد أبناء يعقوب) المسمىٰ في القرآن بـ(إسرائيل) أي : عبد الله بن إسحاق الذبيح عند الأكثرين ، لـٰكن الأشهر : أنه أخوه إسماعيل بن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم (أخاهم) يوسف

---

(١) أي : حسد قابيل لهابيل .

صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا خلاف في نبوته ، كما هو مبسوط في قصته المصدرة بقوله تعالىٰ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أي : لأنها سيقت علىٰ أسلوب لم يسق عليه غيرها من بقية القصص (و) لا يتوهم من كيدهم له المحكي عنهم في قصتهم ، ولا من ذكرهم إثر (قابيل) الكافر اللعين : أن ذلك ينافي صلاحهم ؛ لاتفاق العلماء علىٰ أنهم (كلهم صلحاء) عدل إليه عن أنبياء ؛ لأنه الأمر المتفق عليه كما تقرر ، أو لقوة الخلاف عنده في عدم نبوتهم ، بخلاف يوسف عليه السلام ، فإنه لا خلاف في نبوته ، لـٰكن الحق : أنها ظاهر الآية أو صريحها ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ إذ الأسباط هم : أولاد يعقوب ، وقد ذكرت الآية أنه أنزل عليهم شيء يجب الإيمان به غير ما أنزل علىٰ آبائهم ، وذلك الشيء هو الوحي كما هو المتبادر ، بل صرحت به آية : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وحينئذ فنفي نبوتهم المستلزم لنفي الوحي إليهم . . مناقض لصريح الآية . فتأمله .

ولا ينافي نبوتهم ما حكي عنهم في تلك القصة ؛ لأنه إنما صدر عنهم عن تأويلات تراها شريعتهم ، ومما يقرب ذلك : أن العلماء اتفقوا علىٰ صلاحهم ، وأن تلك الأمور التي جرت منهم لم تؤثر في صلاحهم ، فكذا في نبوتهم ، علىٰ أن في عصمة الأنبياء قبل النبوة خلافاً ، محل بسطه كتب الأصول .

(206)

حِينَ أَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ جُبٍّ ‏ ‏ ‏ ‏ وَرَمَوْهُ بِالْإِفْكِ وَهْوَ بَرَاءُ

(حين) ظرف لـ(كَيْد) ، (**ألقوه في غيابة جب**) وهو : البئر التي لم تطو ، وغيابته : قعره ، وكادوه بذلك خوفاً من تقدمه ـ مع كونه أصغرهم ـ عليهم الذي أنبأت عنه رؤياه المذكورة أول السورة ؛ إذ الأحد عشر كوكباً أمثال لهم ؛ لأنهم أحد عشر ، والشمس والقمر أبوه وخالته ، وسجود الكل له دخولهم تحت أمره وطاعته ، وكان الأمر كذلك ، كما في آخر السورة ، فإنهم لما جاؤوا إليه مع أبيهم وخروا له سجداً . . قال : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ ، وليس في التعبير بنزغ الشيطان

بينه وبينهم ما يقدح في نبوتهم على القول بها ، قال تعالىٰ لأفضل خلقه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ معناه : وإما يستخفنك غضب يحملك علىٰ ترك الإعراض عن المكذبين لك . . . والنزغ : أدنىٰ حركة ، أمره تعالىٰ أنه متىٰ تحرك عليه أدنىٰ غضب علىٰ عدوه ، وأراد الشيطان إلقاء أدنىٰ وسوسة إليه . . أن يستعيذ به تعالىٰ ؛ ليكفيه أمره ، وهٰذا من تمام عصمته صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يسلط عليه بأكثر من التعرض له بهٰذا الأمر الذي لا تأثير له من غير قدرة له عليه .

(و) من كيدهم له أيضاً : أنهم (**رموه بالإفك**) حيث قالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ يريدون يوسف (**وهو براء**) أي : بريء منه .

وفي تسمية الناظم هٰذا إفكاً نظر ظاهر ، بل لا يصح ، كيف وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالىٰ : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ قال : « سَرَقَ يُوسُفُ صَنَماً لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، فَكَسَرَهُ وَأَلْقَاهُ عَلَىٰ ٱلطَّرِيقِ ، فَعَيَّرَهُ إِخْوَتُهُ بِذَلِكَ »[1] .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : سرقته التي عابوه بها أخذه صنماً كان لأبي أمه ، وإنما أراد بذلك الخير[2] .

وروىٰ نحو ذلك جماعة عن زيد بن أسلم وسعيد بن جبير وابن جريج ، وزاد : أن أمه أمرته بذلك ؛ لأنها كانت مسلمة[3] .

قال الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه : كان زيد هٰذا من العالمين بالقرآن .

فالحاصل : أنه وقع منه صورة سرقة ، فذكروها تعييراً له ، فهم لم يكذبوا ، وإنما الذي وقعوا فيه أنهم عيروه بما لا عار فيه ، بل بما فيه غاية الرفعة والمدحة ، كما ذكرته في كتاب « سعادة الدارين في صلح الأخوين » وذكرت فيه أيضاً نحو ما سبق ، وملخصه :

اعلم : أن واقعة يوسف مع إخوته واقعة عجيبة ، تشتمل علىٰ غرائب وعجائب ،

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر المنثور » (٤/ ٥٦٤) وعزاه لابن مردويه .

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٢٠) .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٣/ ٢٠) ، وكذلك رواية سعيد بن جبير .

وحكم وأحكام ، وعبر وأمثال ، وذل وانخفاض ، وعلو وارتفاع ، وعلىٰ حسن عاقبة الصبر وخشية عاقبة الحسد ، وعلىٰ نصر المحق وإن لم يكن له أعوان ولا أنصار ، وعلىٰ خذلان المبطل وإن كان أعوانه وأنصاره الوزراء والملوك فضلاً عن غيرهم ، وعلىٰ أن التباغض والتحاسد بين الإخوة أمر قديم قلَّما يسلم منه حميم أو نديم وإن كملوا وجلُّوا ، وعلت مراتبهم ، وزكت معادنهم ومذاهبهم ؛ لما أن إخوة يوسف وقع منهم ما وقع مع كونهم صلحاء ، بل أنبياء بنص قوله تعالىٰ : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا. . . ﴾ الآية .

اتفقوا علىٰ أن المراد بالأسباط : أولاد يعقوب ، فكوننا أمرنا بالإيمان بما أنزل إلىٰ أبيهم وبما أنزل إليهم ظاهراً. . نصٌّ في أنه أنزل عليهم ما يجب علينا الإيمان به إجمالاً ، وهـٰذا صريح في نبوتهم ، وعليه فقد يستشكل ما وقع منهم في هـٰذه القصة من الأمور الكثيرة التي ظواهرها يجب تنزيه الأنبياء صلى الله عليهم وسلم عنها ، بناء على الأصح ، بل الصواب : أن الأنبياء جميعهم الرسل وغيرهم معصومون قبل النبوة وبعدها من صغائر المعاصي وكبائرها ، سهوها وعمدها ، ويجاب بأن ذلك يتأتىٰ علىٰ مذهب كثيرين ، بل نقل عن الأكثرين أن العصمة إنما هي بعد النبوة لا قبلها ، والأولىٰ : أن يجاب بأن هـٰذه الأمور إنما تستشكل علىٰ قواعد شرعنا ، أما علىٰ شرعهم. . فنحن لا ندري ، وبفرض أنه يوافق شرعنا في ذلك فيحتمل أن لهم تأويلاً سوغ لهم ارتكاب ما فعلوه .

وتعبير كثيرين كالناظم ببغضهم وحسدهم ونحو هـٰذا من العبارات التي ظاهرها لا يليق بهم. . إنما هو بناء علىٰ عدم نبوتهم ، كما هو قول فيهم .

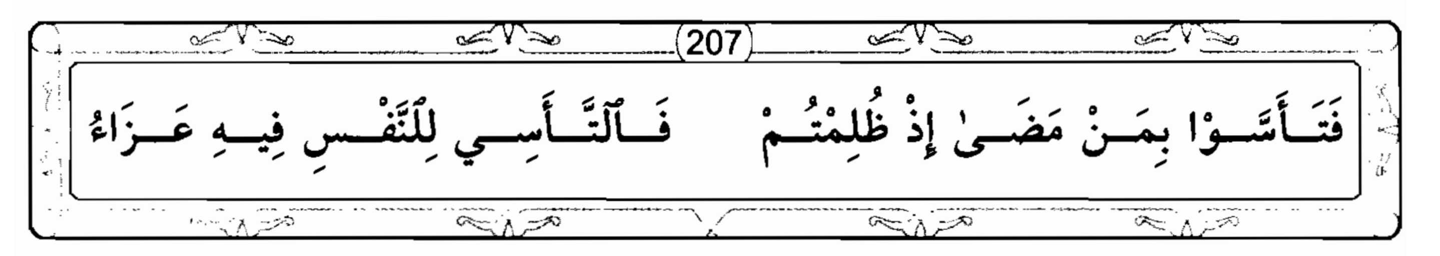
وأخرج ابن جرير وابن المنذر : أن أبا عمرو قيل له : كيف تقرأ : ﴿نَرۡتَعۡ وَنَلۡعَبۡ﴾ ـ بالنون ـ وهم أنبياء ؟! فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء[1] .

والحاصل : أنه يجب علينا الإيمان بنزاهتهم وبراءتهم من كل ما لا يليق بهم . اهـ عبارة الكتاب المذكور .

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٩٤) .

وإذ قد علمتم معشر المسلمين ما وقع لمن قبلكم من الشدائد والمحن وصبروا عليها ، ففازوا برضا الله تعالىٰ ومحبته . .



(فتأسوا) أي : تعزوا ؛ إذ التأسي التعزي ، من : تأسيت بفلان تعزيت به ؛ أي : حملت حالي علىٰ حاله ، ففي التأسي تسكين النفس على الأمر المشق ، وتصبيرها عليه ، والتعزي : الحمل على الصبر بوعد الأجر ، فمعنى التأسي والتعزي واحد ، أو متقارب ، وساغ ذكرهما على الأول ؛ لاختلاف لفظهما (بمن مضىٰ) قبلكم من الكمل في ذلك (إذ) أي : وقت ، أو لأجل أن (ظلمتم) من الكفار بما رموكم به من الحسد والبغضاء ، والعداوة والقتال (فالتأسي) في المصائب لا سيما بالكمل (للنفس فيه عزاء) أي : تسل وتصبر يحملها علىٰ أن لا يصدر منها إلا كمال الأخلاق ، والإعراض عن النظر إلىٰ ما يصدر من أهل النفاق والشقاق . وهـٰذا من التذييل .

(208)

أَتُرَاكُمْ وَفَيْتُمُ حِينَ خَانُوا أَمْ تُرَاكُمْ أَحْسَنْتُمُ إِذْ أَسَاؤُوا

(أتراكم) الفاعل لأهل الكتاب ، والمفعول للمسلمين ؛ أي : أتظنكم أهل الكتاب (وفيتم) بما عاهدتم الله عليه ، فأظهرتم الحق ودمتم على العمل به (حين) ظرف لـ(وفيتم) الواقع موقع المفعول الثاني (خانوا) ما عاهدوا الله عليه ، فكتموا الحق وأبوا قبوله من غيرهم (أم) متصلة ؛ لأنها معادلة للهمزة السابقة (تراكم) أهل الكتاب (أحسنتم) في اتباع نبيكم في جميع ما جاء به ، فلم تغيروا منه شيئاً قط ، ولم تبدلوا في حياته ولا بعد وفاته (إذ أساؤوا) الطريق ، فلم يستمروا على العمل بما جاءتهم به رسلهم ، بل بدلوه وغيروه ؛ إيثاراً لما ينالونه من أتباعهم من الحظوظ الدنيوية .

(209)

بَـلْ تَمَـادَتْ عَلَـى ٱلتَّجَـاهُـلِ آبَـا ءُ تَقَفَّـتْ آثَـارَهَـا ٱلْأَبْنَـاءُ

(بل) لا يرون شيئاً من ذلك ، وإنما الذي حملهم علىٰ عدم اتباع الأنبياء صلى الله عليهم وسلم أنه (تمادت) أي : تتابعت واستمرت (على التجاهل) الموجب لرفض الحق واتباع الباطل ؛ أي : إظهار الجهل من نفوسهم ، مع علمهم بالحق وأنهم علىٰ خلافه ، ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ فأظهرتم غير الحق ودمتم على العمل به (آباء) بينه وبين (الأبناء) الطباق كما مر (تقفت) أي : تبعت (آثارها) الباطلة (الأبناء) ، ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

(210)

بَيَّنَتْـهُ تَـوْرَاتُهُـمْ وَٱلْأَنَـاجِيـ ـلُ وَهُـمْ فِـي جُحُـودِهِ شُـرَكَـاءُ

(بينته) أي : الحق الذي من جملته نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته (توراتهم) المنزلة علىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، من : أوريت الزند قدحته لتخرج ناره ، والنار تستلزم النور (والأناجيل) المنزلة علىٰ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ـ من : نجل الشيء أخرجه ـ التي لهم ، كما حكاه الله تعالىٰ عنهم بقوله عز قائلاً : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ .

ولا ينافي هـٰذا جمع الناظم له ، لأنه باعتبار أفراده ، وهـٰذا من أعظم الأدلة علىٰ صحة نبوته وعموم رسالته صلى الله عليه وسلم ، وعلىٰ أنه صلى الله عليه وسلم على البينة الواضحة من أمره ؛ لأنه صرح بذلك علىٰ رؤوس أهل الكتابين ، ولم يخش أن أحداً منهم يقول : ليس ذلك في كتابنا ، فإذ قد صرح بذلك ولم يعترضوه . . كانوا عالمين به ، وكان تخلفهم عن اتباعه لمحض العناد والحسد ، قال تعالىٰ : ﴿ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ ، ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ ، ﴿ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ .

وأخرج ابن عساكر في « تاريخ دمشق » : أن ابن سلام لما سمع بمخرج النبي صلى الله عليه وسلم بمكة . . ذهب إليه ، فقال له : « أَنْتَ ٱبْنُ سَلَامٍ عَالِمُ يَثْرِبَ ؟ » قال : نعم ، قال : « أَنْشُدُكَ بِٱللهِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلتَّوراةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ ، أَتَجِدُنِي فِي ٱلتَّوْرَاةِ ؟ » قال : انسب ربك ، فأرتج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له جبريل : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . . . ﴾ إلخ ، فقرأها ، فقال ابن سلام : أشهد أنك رسول الله ، وأن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان ، وإني لأجد صفتك في كتاب الله تعالىٰ ـ أي : التوراة ـ يا أيها النبي ؛ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولاسخاب في الأسواق ، ولا تجزي السيئة بمثلها ، ولـٰكن تعفو وتصفح ، ولن يقبضه الله حتىٰ تستقيم به الملة المعوجة حتىٰ يقولوا : لا إلـٰه إلا الله ، يفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً[1] .

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن كعب رضي الله عنه ، والبخاري عن عمرو بن العاصي رضي الله تعالىٰ عنه : أنهما نقلا عن التوراة والإنجيل نحو ذلك وزيادة عليه[2] .

وفي التوراة : تجلى الله من طور سيناء ـ أي : بتكليمه موسىٰ عليه ـ وأشرف من ساعير ـ اسم جبل ؛ أي : بتكليمه عيسىٰ عليه ـ واستعلن من جبال فاران ؛ أي : جبال بني هاشم المطلة علىٰ شعبهم بمكة بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم منها إلىٰ جميع الخلق ، كما يشير إليه تعبيره بـ(استعلن) .

وفي الإنجيل كالتوراة من ذلك ما يضيق عنه هـٰذا المحل .

(**وهم**) أي : اليهود والنصارىٰ (**في جحوده**) أي : ذلك الحق الذي بينه كتاباهما ، وهو الإنكار بعد العلم (**شركاء**) أي : مشتركون ، فلعنة الله عليهما .

---

(١) تاريخ دمشق (٣/ ٣٨٧) . **سخاب** ـ بالسين المهملة ـ من السخب ، وهو : ارتفاع الصوت في الخصومة ، ومثله الصخب .

(٢) دلائل البيهقي (١/ ٣٧٣ـ٣٧٤) ، ودلائل أبي نعيم (١/ ٨٠) ، والبخاري (٢١٢٥) .

(211)

إِنْ تَقُولُوا مَا بَيَّنَتْهُ فَمَا زَا لَتْ بِهَا عَنْ عُيُونِهِمْ غَشْوَاءُ

(إن) شرطية (تقولوا) يا أهل الكتاب (ما) نافية (بينته) أي : التوراة والأناجيل الحق المذكور (فما زالت بها) أي : التوراة والأناجيل (عن عيونهم غشواء) - بالمعجمة والمهملة - أي : عن بصائرهم ظلمة مانعة لهم عن إبصارهم الحق ، من قولهم : ركب فلان العشواء إذا كان قد خبط أمره علىٰ غير بصيرة ، وقولهم : ركب متن عمياء ، وخبط خبط عشواء ، وهي الناقة التي لا تبصر أمامها ، فهي تخبط بيديها علىٰ كل شيء ، ففيه الإشارة للمثل المذكور ، والاستعارة بالكناية ؛ لأنه شبه العيون بالبصائر ، والعشواء بالظلمة المذكورة ، والاستعارة التخييلية في إثبات الظلمة للعيون ، والترشيحية في قوله : (ما بينته) لأنه يناسب المشبه به .

(212)

أَوْ تَقُولُوا قَدْ بَيَّنَتْهُ فَمَا لِلْ أُذْنِ عَمَّا تَقُولُهُ صَمَّاءُ

(أو تقولوا قد بينته) كما هو الحق (فما) أي : فأي شيء حصل (للأذن) أي : لآلة سمعكم حتىٰ إنها (عما تقوله) التوراة والأناجيل ، وإسناد القول إليهما فيه الاستعارتان السابقتان آنفاً ، وكذا في قوله الآتي : (من طحنتهم . . .) إلخ ، وقوله : (وكساهم . . .) إلخ (صماء ؟!) أي : غير سامعة له سماع قبول ؛ أي : فلا موجب للإعراض عن ذلك إلا محض العناد والحسد .

(213)

عَرَفُوهُ وَأَنْكَرُوهُ وَظُلْماً كَتَمَتْهُ ٱلشَّهَادَةَ ٱلشُّهَدَاءُ

(عرفوه) أي : الحق السابق معرفة يقينية ببواطنهم (وأنكروه) بظواهرهم ، كما قال تعالىٰ عنهم : ﴿ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وبين (عرفوه) و(أنكروه) الطباق ، وذلك نتيجة الإلزام السابق (وظلماً) مفعول لأجله (كتمته) أي : الحق المذكور

(الشهادة) بدل اشتمال من (كتمته) أي : كتمت الشهادة به (**الشهداء**) الذين هم أهل الكتابين ؛ لأنهم عرفوا صفة النبي صلى الله عليه وسلم وصفة دينه معرفة قطعية ، ثم أنكر ذلك رؤساؤهم حسداً وعناداً ومباهتة وتلبيساً علىٰ ضعفائهم ؛ ليبقىٰ ما ينالونه منهم .

ونكتة إيقاع الظاهر موقع المضمر ؛ إذ الأصل : كتموا الشهادة به . . التسجيل عليهم بما قررته : أنهم بلغوا من العلم به صلى الله عليه وسلم وبحقيقة دينه مبلغ رؤية الشمس ، ومع ذلك كتموه .

ومما يدل لقوة علم الشاهد اشتراط إتيانه بلفظ الشهادة ؛ لأنها أبلغ من العلم ، كما يفيده الحديث الصحيح : « عَلَىٰ مِثْلِ هَـٰذِهِ ـ أي : الشمس ـ فَٱشْهَدْ » ومن ثم لم يكف قوله : أعلم .

(214)

أَوَ نُـــورُ ٱلْإِلَـٰـــهِ تُطْفِئُـــهُ ٱلْأَفْـ ـــوَاهُ وَهْـوَ ٱلَّـذِي بِـهِ يُسْتَضَـاءُ

(أ) تكتمون ذلك وتظهرون الضلال (**ونور الإلـٰه**) الذي هو النبوة والرسالة ، و(الإلٰه) : المعبود بالحق (**تطفئه**) من : أطفأت النار أذهبت حرها (**الأفواه**) أي : الألسنة المتقولة بالباطل ، وهـٰذا من الكلام البديع الجامع ، لا يكون ذلك ، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ وكيف يطفأ ذلك النور الإلـٰهي (**وهو الذي به يستضاء**) ظاهراً وباطناً ؟! أي : يبصر الحق من الباطل ، والصادق من الكاذب .

(215)

أَوَلَا يُنْكِـــرُونَ مَـــنْ طَحَنَتْهُـــمْ بِـرَحَـاهَـا عَـنْ أَمْـرِهِ ٱلْهَيْجَـاءُ

(أ) يستمرون علىٰ ضلالهم وادعاء أنهم محقون ، وينكرون نبوته صلى الله عليه وسلم (**ولا ينكرون من طحنتهم**) أي : أهلكتهم (**برحاها**) أي : أسلحتها (**عن أمره الهيجاء**) أي : حربه صلى الله عليه وسلم ، لا ينبغي ذلك ، بل الذي ينبغي لهم

الرجوع عن الضلال ، والاعتراف بأنهم إن استمروا عليه.. طحنهم صلى الله عليه وسلم برحا حربه كما طحن آباءهم وأبناءهم وأهاليهم ، بجلاء بني النَّضير إلىٰ أرض الشام ، وألزمهم أن لا يحمل كل واحد منهم إلا حمل بعير من غير السلاح ، وقتلِ بني قريظة .

(216)

وَكَسَاهُمْ ثَوْبَ ٱلصَّغَارِ وَقَدْ طُلَّـ ـتْ دِمَاءٌ مِنْهُمْ وَصِينَتْ دِمَاءُ

(و) لشدة بأسه وظهور نصرته صلى الله عليه وسلم عليهم (كساهم ثوب الصغار) أي : الذل ، كضرب الرق علىٰ غير المقاتلين من بني قريظة ، استعار اللباس للصغار علىٰ حد : ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ ثم قرنه بما يلائم المشبه به وهو الكسوة ، وبما يلائم المشبه وهو طلول دماء وصون دماء ، فالأولىٰ ترشيحية ، والثانية تجريدية .

(و) الحال أنه (قد طلت) أي : دفقت (دماءٌ منهم) كبني قريظة (وصينت دماء) منهم كبني النضير ، أو المراد : دماء المسلمين ؛ لأن الله تعالىٰ جعل لهم الغلبة والدائرة علىٰ أعدائهم .

وإذا تقرر اتصاف أهل الكتابين بتلك القبائح الشنيعة.. حق لهم أن يقال في حقهم :

(217)

كَيْفَ يَهْدِي ٱلْإِلَـٰهُ مِنْهُمْ قُلُوباً حَشْوُهَا مِنْ حَبِيبِهِ ٱلْبَغْضَاءُ

(كيف يهدي) أي : يوصل (الإلـٰه منهم قلوباً حشوها) أي : ملؤها (من) هي بمعنى (اللام) المعدية (حبيبه) صلى الله عليه وسلم ، متعلق بقوله : (البغضاء) أي : شدة البغض لحبيبه صلى الله عليه وسلم ، ويصح ـ علىٰ بعد ـ أنها للتعليل ؛ أي : من أجله ، أو البدل ؛ أي : حشوها بغضه بدل حبه .

وفي هـٰذه الاستعارتان السابقتان أيضاً[١] .

(218)

خَبِّرُونَا أَهْلَ ٱلْكِتَابَيْنِ مِنْ أَيْـ ـــنَ أَتَاكُمْ تَثْلِيثُكُمْ وَٱلْبَدَاءُ

(خبرونا) أي : أعلمونا يا (أهل الكتابين) التوراة والإنجيل (من أين) استفهام إنكاري (أتاكم تثليثكم) أي : ادعاؤكم معشر النصارىٰ أن الله ثالث ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس (و) من أين لكم معشر اليهود (البداء) بالموحدة والمهملة ، من : بدا ظهر ، وهو كما يأتي ظهور مصلحة بعد خفائها ، وبنوا علىٰ ذلك امتناع النسخ ؛ أي : لم يأتكم واحد من هـٰذين عن دليل صحيح ، بل عن محض سفههم وعنادكم .

تنبيه : حكى ابن الصلاح عن بعضهم : أن لفظ البداء غير صحيح لغة ؛ لأنه من : بدا بدواً ، ثم رده بأن ابن دريد ذكره ، قال التبريزي : هو بالمد من قولهم : بدا لي في الأمر ؛ أي : تغير رأيي فيه عما كان ، ونقله الزركشي عن صاحب « المحكم »[٢] عن سيبويه ، وقال السهيلي : الاسم البداء ، ولا يقال في المصدر ، قال : ومن أجل أن البدو الظهور كان البداء في وصف الباري سبحانه وتعالىٰ محالاً ؛ لأنه عز وجل لا يبدو له شيء كان عنه غائباً .

ويجيء بدا بمعنىٰ أراد ، كما في حديث الأقرع والأعمىٰ والأبرص : « بَدَا للهِ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ »[٣] أي : أراد لا ظهر ؛ لأنه كفر كما يأتي .

(219)

مَا أَتَىٰ بِٱلْعَقِيدَتَيْنِ كِتَابٌ وَٱعْتِقَادٌ لَا نَصَّ فِيهِ ٱدِّعَاءُ

(ما أتىٰ بالعقيدتين) المذكورتين (كتاب) من كتب الله تعالىٰ أبداً (واعتقاد)

---

(١) وهما الاستعارة الترشيحية والاستعارة التجريدية .

(٢) في (أ) : (عن صاحب التلخيص) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٤) ، والحديث عند مسلم أيضاً (٢٩٦٤) لـٰكن بلفظ : « فأراد الله أن يبتليهم » .

هو : جزم الذهن بالحكم ، ثم إن طابق ذلك الحكم ما في نفس الأمر ـ كاعتقادنا ـ.. فصحيح ، وإلا ـ كاعتقادهم ـ.. فباطل (**لا نص فيه**) أي : **في إثباته** ، وعبر بـ(النص) وهو : ما لا يحتمل لفظه غير معنىً واحد معين ؛ بأن خلا عن الاحتمالات العشر المقررة في محلها ، دون الدليل الأعم من ذلك ؛ لأن الاعتقاديات لا يكفي فيها الدليل الظني (**ادعاء**) أي : باطل ؛ لأنه اختراع في الدين بمجرد التشهي ، وكالنص حكم العقل القطعي ، فالاعتقاد المستند إليه صحيح وإن لم يرد فيه نص ، بل لو ورد النص بخلافه.. وجب تأويل النص إليه ، كآيات الصفات وأحاديثها ؛ إذ ظاهرها محال على الله تعالىٰ عقلاً ، فوجب صرفها عنه بتأويلها بما يوافق العقل .

وأنكر جمع متأخرون من الحنابلة تأويلها ؛ لزللهم باعتقاد ظواهرها من التجسيم أو الجهة ، وأطالوا في ذلك بما كان سبباً لمحقهم وسحقهم في الدنيا والآخرة .

(220)

وَٱلدَّعَاوَىٰ مَا لَمْ تُقِيمُوا عَلَيْهَا بَيِّنَاتٍ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءُ

(**والدعاوىٰ**) التي تقولون بها معشر اليهود والنصارىٰ ، بفتح الواو وكسرها كالفتاوىٰ (ما) مصدرية ظرفية (**لم تقيموا عليها بينات**) أي : أدلة قطعية ؛ لأن الكلام في الاعتقاديات وهي لا يفيد فيها الظن (**أبناؤها**) أي : نتائجها (**أدعياء**) أي : باطلة ، و(الدعي) في الأصل : من ينتسب إلىٰ شخص بالكذب ، ومن يتبناه الإنسان وليس بابن له وإن عرف نسبه .

شبه دعاويهم بوطء الزنا ، بجامع فساد كل وقبحه وعدم الاعتداد بما ينشأ عنه ؛ لأنه ناشىء عن أصل فاسد ، وهـٰذا استعارة بالكناية ، ثم خيل لها بذكر ما هو من لوازم المشبه به الذي هو وطء الزنا ، وهم الأبناء الذين هم نتيجته ، ثم رشح لها بذكر الأدعياء المناسب للمشبه به .

وبين (الأدعياء) و(الدعاوىٰ) تجنيس الاشتقاق وشبهه ، كـ(خلطوها) و(الخلطاء) ، و(الصفات) و(وصفه) الآتيان .

وفي النظم القياس الاقتراني ، المركب من مقدمتين حمليتين ، المنتج إنتاج الشكل

الأول ، فالأولىٰ : الاعتقاد الذي لا نص فيه دعوىٰ ، والثانية : الدعوىٰ بلا بينة باطلة ، ينتج : الاعتقاد الذي لا نص فيه باطل .

تنبيه : فرق النصارىٰ ثلاثة : نسطورية ويعقوبية وملكية ، ولكل فرقة اعتقاد معروف ، وقد أشار الناظم للبحث مع الكل والرد عليهم إجمالاً ، وأكثر الكلام مع القائلين بالتثليث ؛ لأنهم أكثر وأشد كفراً ، ثم خصوا بالذكر في قوله عز قائلاً : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ . . . ﴾ الآية .

(221)

لَيْتَ شِعْرِي ذِكْرُ ٱلثَّلَاثَةِ وَٱلْوَا حِدِ نَقْصٌ فِي عَدِّكُمْ أَمْ نَمَاءُ

(ليت) حرف تمنٍّ (شعري) أي : علمي ؛ أي : ليتني علمت بما يقولونه انضباطاً حتىٰ أتكلم معكم في رده بأبلغ مما هنا ، وهو (**ذكر الثلاثة**) الصادر منكم تارة حيث قلتم : إن الله ثالث ثلاثة ؛ الأب والابن وروح القدس (و) ذكر (الواحد) الصادر منكم تارة أخرىٰ حيث ادعيتم توحيده (**نقص في عدكم أم نماء**) أي : زيادة ، فحيث ذكرتم التثليث كان ذكركم الواحد نقصاً ، وحيث ذكرتم الواحد كان ذكركم التثليث زيادة ، وهٰذا تناقض عجيب لا يصدر عن عاقل ؛ لأنكم تارة تثبتون تعدد الإلٰه ، وتارة تثبتون عدم تعدده ، ولذا قال متعجباً منهم :

(222)

كَيْفَ وَحَّدْتُمُ إِلَٰهاً نَفَى ٱلتَّوْ حِيدَ عَنْهُ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَبْنَاءُ

(**كيف وحدتم**) أيها القائلون بالتثليث (**إلٰهاً نفى التوحيد عنه الآباء والأبناء**) اللذان أثبتموهما في دعواكم التثليث .

(223)

أَإِلَٰهٌ مُرَكَّبٌ مَا سَمِعْنَا بِإِلَٰهٍ لِذَاتِهِ أَجْزَاءُ

(أ) يمكن أن يوجد (**إلٰه مركب**) من ثلاثة أجزاء أو أقل أو أكثر ؟! لأننا

(ما سمعنا بإلـه لذاته أجزاء) أو جزآن ، لا يوجد إلـه كذلك ، بل ولا تعقلناه ؛ لأنه مما يحيله العقل بالبديهة ، كما أنها تحيل تعدده ، كما يدل عليه برهان التمانع المذكور في قوله تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1] .

وبيان إحالة العقل لما ذكر : أنه لو فرض إلـه مركب من أجزاء أو متعدد.. قيل لهم :

(224)

أَلِكُلٍّ مِنْهُمْ نَصِيبٌ مِنَ ٱلْمُلْـ ـكِ فَهَلَّا تَمَيَّزُ ٱلْأَنْصِبَاءُ

(ألكل منهم نصيب) أي : جزء (من الملك) فإن قالوا : نعم.. قيل لهم : (فهلا) وفي نسخة : (فلم لا) وحذفت ألف (ما) الاستفهامية لدخول الجار عليها ، نحو : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ .

(تميز) بالبناء للفاعل ؛ أي : تتميز ، أو للمفعول (الأنصباء) أي : نصيب كل من الآلهة حتىٰ يكون ذلك التمييز دليلاً علىٰ ما زعمتموه ، ولا تميز ، فلا تعدد كما هو بديهي .

وبين (الثلاثة) و(الواحد) ، و(النقص) و(النماء) جناس التقابل ، كـ(الحاجة) و(الاضطرار) ، و(الإماتة) و(الإحياء) الآتيات .

فإن قالوا : لكل نصيب أو أنصباء ، لـٰكنهم خلطوها.. قيل لهم :

---

(١) برهان التمانع : هو امتناع وجود إلـٰهين لعالم واحد ، وشرحه : أنه لو كان في الوجود إلـٰهان.. فقد يتفقان ، وقد يختلفان ، فإن اختلفا.. فلا يمكن أن ينفذ مرادهما ؛ لئلا يجتمع الضدان ، ونفوذ مراد أحدهما يثبت عجز الآخر ، فتنتفي عنه الألوهية ، أما إن اتفقا.. فلا يمكن أن ينفذ مرادهما معاً ؛ لأن فيه اجتماعَ مؤثرين علىٰ أثر واحد ، وهو محال ، ولا يمكن أن ينفذ مرادهما مرتباً ؛ لأن تعلق قدرة الأول بشيء يسد الطريق أمام قدرة الثاني للتعلق به ، وأيضاً يلزم من تعلق قدرة الثاني بهـٰذا الشيء تحصيل الحاصل ، وهو محال أيضاً ، وهـٰذا يسمىٰ برهان التوارد . انظر« شرح الجوهرة » للباجوري (ص ٧٩) .

أَتَـرَاهُــمْ لِحَــاجَــةٍ وَٱضْطِــرَارٍ خَلَطُــوهَــا وَمَــا بَغَــى ٱلْخُلَطَــاءُ

(أتراهم) أي : أتظنهم (لحاجة) أي : احتياج (واضطرار) وهو : شدة الحاجة إلى الشيء بحيث لا يجد مندوحة عنه (خلطوها) خلطاً يمنع تميزها ، فإن قالوا : نعم. . قلنا لهم : الإلـٰه لا يحتاج ولا يضطر لشيء مطلقاً ؛ لأنه غني بذاته عن غيره ، فاحتياجه واضطراره دليل قطعي علىٰ عدم ألوهيته ، فإن قالوا : خلطوها لا لحاجة ولا لاضطرار. . قلنا : أيتصور وجود شركة دائمة بين شريكين فأكثر (و) الحال أنه (ما) نافية (بغىٰ) أي : ظلم (الخلطاء) أي : الشركاء ؛ أي : بعضهم علىٰ بعض ، لا يتصور ذلك ، بل متىٰ وجدت شركة دائمة بين شريكين. . وجد التمانع والتنازع المستلزم كل منهما جوازَ خراب هـٰذا العالم المشاهد ؛ لأنهما إن استويا في القوة. . تمانعا ولم يقع فعل من أحدهما ، وإن تفاوتا. . وقع مراد الغالب فقط وتخلف مراد المغلوب ، فيلزم ألا يتم نظام هـٰذا العالم ؛ لأن الغرض وقوع الشركة وعدم التميز ، واحتمال توافقهما دائماً الذي يجوزه العقل. . لا نظر إليه ؛ لأنه مما تحيله العادة التي هي مناط الأدلة القرآنية والسلائق العربية ، فليس ذلك دليلاً إقناعياً ، خلافاً لمن وهم فيه ، بل ألزم قائلَه الكفر بعضُ المتأخرين وألف فيه ، لـٰكنه إلزام باطل كما هو جلي ، وكون العادة تحيل ذلك مما لا يحتاج لبيان ؛ لأن كل من عرفها حكم أن الشريكين في الإيجاد والإمداد لا يتصور دوامهما على الموافقة ؛ لأن من شأن النفس أن لا تريد بقاء شريك معها ، وكل ذلك باطل ؛ لأنا نشاهد هـٰذا العالم باقياً علىٰ أكمل وجوه الإتقان ، وأحكم قواعد الشروط والأركان ، ويلزم من ذلك انتفاء الشريك مطلقاً ، وأن الإلـٰه سبحانه وتعالىٰ لا شريك له مطلقاً ، وبيان بطلان التعدد من وجه آخر ، وبيانه : أن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام كان يركب الحمار كما عرف ذلك بالتواتر عنه ، وحينئذ يقال لهم :

(226)

أَهُــوَ ٱلـرَّاكِـبُ ٱلْحِمَــارَ فَيَــا عَجْـ ـــزَ إِلَـٰــهٍ يَمَسُّـــهُ ٱلْإِعْيَــاءُ

(أ) تقولون في حال ركوب عيسى الحمار : (هو) أي : الإله (الراكب الحمار)

فإن قلتم : إنه هو . . فركوبه يستدعي حدوثه وتعبه ، وهو يستدعي عجزه ، والإلـه لا يكون عاجزاً ولا حادثاً ، وما زعمتموه يلزمه عجزه وحدوثه ، وحينئذ (**فيا عجز إلـه**) تعجب من دعواهم المستلزمة ذلك (**يمسه الإعياء**) أي : التعب .

(227)

أَمْ جَمِيعٌ عَلَى ٱلْحِمَارِ لَقَدْ جَلَّ حِمَارٌ بِجَمْعِهِمْ مَشَّاءُ

(أم) ـ متصلة ؛ لمعادلتها للهمزة ـ تقولون الثلاثة الذين زعمتموهم آلهة (**جميع على الحمار**) فيقال لكم : (**لقد جل**) حينئذ (**حمار بجمعهم**) أي : الآلهة ؛ أي : مجموعهم (**مشاء**) صيغة مبالغة من مشىٰ ، وقبح إلـه يحتاج إلىٰ أن يمشي به حمار ، فالجملة الخبرية في النظم تفيد التعجب مما يترتب علىٰ ما فيها .

(228)

أَمْ سِوَاهُمْ هُوَ ٱلْإِلَـٰهُ فَمَا نِسْبَةُ عِيسَىٰ إِلَيْهِ وَٱلِٱنْتِمَاءُ

(أم) ـ متصلة ؛ لمعادلتها للهمزة ـ تقولون : (**سواهم**) أي : الثلاثة الذين على الحمار (**هو الإلـه فـ**) بسبب ذلك (ما) استفهامية (**نسبة عيسىٰ إليه**) خبر (نسبة) (**والانتماء ؟!**) هو الانتساب ، فهو عطف مرادف علىٰ (نسبة) أي : أخبروني عن انتماء عيسىٰ وانتسابه إلى الإلـه حينئذ ، هل يوجب التثليث الذي زعمتموه وكل عاقل يجزم بأنه لا يوجبه ، بل ولا يقتضيه ؟!

وقوله : (فيا عجز إلـه . . .) وما بعده تذييل متكرر .

(229)

أَمْ أَرَدْتُمْ بِهَا ٱلصِّفَاتِ فَلِمْ خُصَّتْ ثُلَاثٌ بِوَصْفِهِ وَثُنَاءُ

(أم) متصلة كذلك (**أردتم بها**) أي : بالثلاثة التي زعمتم أنها آلهة (**الصفات**) القائمة بذات الإلـه ، والصفة : ما دل علىٰ معنًى زائد على الذات (**فلم**) مر آنفاً الكلام عليها (**خصت ثلاث**) بالصرف للوزن (**بوصفه**) أي : الإلـه (**وثناء ؟!**) بضم

أولهما معدولين عن : ثلاث ثلاث ، واثنين اثنين ، والمراد هنا : ليس ذلك التكرير ، بل نفس الثلاثة فقط عند من ينظر إلىٰ مجموع الثلاثة ، والاثنين فقط عند من ينظر إلى الإلـه بالحقيقة والإلـه بالتجوز ، فإن الأول واحد فقط ، والثاني اثنان فقط ، وعلىٰ كل فالصفات لا تنحصر في اثنين ولا في ثلاث ، فادعاء التثليث تحكم صرف وهو لا يقول به عاقل .

(230)

أَمْ هُوَ ٱبْنٌ لِلهِ مَا شَارَكَتْهُ ... فِي مَعَانِي ٱلْبُنُوَّةِ ٱلْأَنْبِيَاءُ

(أم) تقولون : (هو) أي : عيسىٰ عليه السلام (ابن لله) فيقال لكم : لم اختص عيسىٰ بذلك حتىٰ إنه (ما) نافية (شاركته في معاني البنوة الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام ؟! بل عيسىٰ وبقية الأنبياء في ذلك علىٰ حد سواء ، فادعاء البنوة لعيسىٰ تحكم باطل أيضاً .

(231)

قَتَلَتْهُ ٱلْيَهُودُ فِيمَا زَعَمْتُمْ ... وَلِأَمْوَاتِكُمْ بِهِ إِحْيَاءُ

(قتلته) أي : عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام (اليهود) حال كون قتلهم له إنما هو (فيما) أي : في التقول الذي (زعمتم) معشر النصارىٰ ، والزعم أصله وموضوعه : قول الكذب ، ومن ثم قالت العرب : زعموا مطية الكذب ، وقد يستعمل بمعنىٰ قال مجرداً عن التكذيب ، كقول أم هانىء للنبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : زعم ابن أمي ـ أي : علي رضي الله عنه ـ أنه قاتل من أجرته ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِىءٍ »[1] .

وكيف تزعمون ذلك (و) الحال أنه (لأمواتكم به) أي : بسبب عيسىٰ عليه السلام (إحياء) وهو : رد الروح إلى الجسد بعد مفارقتها له ؛ لأنه كان فيكم يحيي الموتىٰ ، فكيف يحيي الموتىٰ ويتمكن منه من يقتله ؟! فتصديقكم لليهود في ذلك شاهد صدق

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧) ، ومسلم (٣٣٦/ ٨٠) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها .

علىٰ سخافة عقولكم ، وأن لا مُسكة لها ولا تثبُّت ؛ لأنكم تقعون في التناقض الصريح ولا تتنبهون له ، وعلىٰ كل حالة

(232)

إِنَّ قَـوْلاً أَطْلَقْتُمُـوهُ عَلَـى ٱللهِ   تَعَـالَـىٰ ذِكْـراً لَقَـوْلٌ هُـرَاءُ

(إن قولاً) مما حكي عنكم كقولكم بالتثليث (أطلقتموه على الله تعالىٰ) عما تقولونه أنتم وأمثالكم علوّاً كبيراً (ذكراً) أي : ثناءً وتعظيماً له في قولكم : الله ثالث ثلاثة (لقول هراء) بضم الهاء من : هرأ الكلام إذا كثر في الخطأ ، وفي نسخ بالزاي من قولهم : هُزْأَة بالتسكين ؛ أي : مهزوء به ، وبالتحريك ؛ أي : يهزأ بالناس ، ويصح أن (ذكراً) تمييز من (تعالىٰ) أي : تعالىٰ ذكره ، وهـٰذا من القول البديع الجامع .

(233)

مِثْـلَ مَـا قَـالَـتِ ٱلْيَهُـودُ وَكُـلٌّ   لَـزِمَتْـهُ مَقَـالَـةٌ شَنْعَـاءُ

(مثل) يجوز نصبه حالاً ؛ أي : لقول هراء حال كونه مثل ، أو نعتاً لمصدر محذوف ، ورفعه خبر مبتدأ محذوف ؛ أي : هو مثل (ما قالت اليهود) أي : قولهم بالبداء ، فالتشبيه من حيث مطلق الكفر ، وإن تباين تفصيل كل من المقالتين (وكل) من الفريقين (لزمته) أي : لزمت دعواه (مقالة شنعاء) أي : قبيحة جداً .

(234)

إِذْ هُمُ ٱسْتَقْرَؤُوا ٱلْبَدَاءَ وَكَـمْ سَـا   قَ وَبَـالاً إِلَيْهِـمُ ٱسْتِقْـرَاءُ

(إذ هم استقرؤوا البداء) أي : تتبعوه حتىٰ قالوا ـ ما عدا العيسوية منهم ـ : لا يجوز عقلاً ولا سمعاً على الله نسخ ملة بملة ؛ لأنه يوهم البداء ، وهو : ظهور مصلحة له بعد خفائها حتىٰ ينسخ ما مضىٰ لأجلها ، ووافقهم بعض غلاة الرافضة ، ومنهم من جوزه عقلاً ومنعه شرعاً ، وأما قول بعض المسلمين : الحكم الثابت

لا يرتفع ، بل ينتهي فلا يكون نسخاً . . ممنوع ، بل هو نسخ ، وحينئذ فالخلاف لفظي .

واعلم : أن شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ناسخة لجميع الشرائع إجماعاً ، واختلفوا في شريعة عيسىٰ عليه السلام : هل هي ناسخة لشريعة موسىٰ عليه السلام أو مخصصة ؟ والأظهر : أنها مخصصة لا ناسخة ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

قال الإمام في « تفسيره » : (روي : أن الرسل تبقىٰ بعد موسىٰ كلهم علىٰ شريعته إلا شريعة عيسىٰ) .

تنبيه : ذكر الإمام أيضاً في « المطالب العالية » في الحكمة في نسخ الشرائع كلاماً حسناً فقال : (الشرائع منها ما يعرف نفعه بالعقل معاشاً ومعاداً ، فهـٰذا يمتنع طروء النسخ عليه ، كمعرفة الله تعالىٰ ، وطاعته أبداً ، ومجامع هـٰذه الشرائع العقلية أمران : التعظيم لأمر الله ، والشفقة علىٰ خلق الله تعالىٰ ، ومنها سمعية لا يعرف الانتفاع بها إلا من السمع ، وهـٰذا يمكن طروء نسخه وتبديله ، وحكمة نسخه : أن الأعمال البدنية إذا واظب عليها الخلف عن السلف . . صارت كالعادة ، وظن أنها مطلوبة لذاتها ، فيمتنع الوصول بها لما هو المقصود من الأعمال إلىٰ معرفة الله تعالىٰ وتمجيده ، بخلاف ما إذا تغيرت تلك الطريق ، وعلم أن المقصود من الأعمال إنما هو رعاية أحوال القلب والروح في المعرفة والمحبة ، فإن الأوهام تنقطع عن الاشتغال بتلك الصور والظواهر إلىٰ تطهير السرائر) .

وقال غيره : حكمته : أن الخلق طبعوا على الملالة من الشيء ، فوضع في عصر كل رسول شريعة جديدة ؛ لينشطوا في أدائها ، وأعظم حكمة إظهار شرف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه نسخ بشريعته شرائعهم ، وشريعته صلى الله عليه وسلم لا ناسخ لها .

ومن حكم النسخ أيضاً : ما فيه من حفظ مصالح العباد ، كطبيب يأمر بدواء في يوم ، وبآخر في يوم ثان . . . وهـٰكذا بحسب المصلحة وإن كان الثاني أبعد .

تنبيه آخر : ما زعمه اليهود : أن النسخ يستلزم البداء . . باطل ؛ لما تقرر أن المصالح الداعية للنسخ ترجع إما لأحوال المكلفين ، أو الأزمنة ، وذلك لا يستلزم ،

بل ولا يقتضي أن الله تعالىٰ ظهر له شيء بعد أن لم يكن ، وزعم اليهود : أنه يستلزمه ، فمنعوا النسخ ، وزعم كفرة الرافضة : أنه يجوز البداء عليه ؛ لوقوع النسخ منه ، وهٰذا أغلظ من الأولين من كفر اليهود ، فعلم الجواب عن قولهم : الفعل إما حسن فيستحيل النهي عنه ، أو قبيح فيستحيل الأمر به ، فالنسخ محال على التقديرين ، وبيانه : أن التحسين والتقبيح العقليين باطلان ، وبتسليمهما فالعقل العادي قاطع بأن الفعل قد يكون مصلحة في وقت ، مفسدة في وقت آخر ، وكذا بالنظر للمكلف ، يكون مصلحة في حق واحد ، مفسدة في حق آخر ، ولا مانع أن علمه تعالىٰ يتعلق بأن حرمة كذا تنتهي بوقت أو فعل كذا .

قالوا : والسمع يمنع النسخ أيضاً ؛ لأن اللفظ الدال علىٰ شرع موسىٰ عليه السلام إما أن يدل على الدوام ، فإن ضم إليه ما يقتضي نسخه . . فهو تناقض ، وإن لم ينضم له ذلك . . كفىٰ في العمل به مرة ، فلا يتصور فيه نسخ .

قالوا : ومما يمنعه أيضاً ما علم بالتواتر من قول التوراة : تمسكوا بالسبت أبداً ، وجوابه : أنهم في زمن بختنصر قتلوا حتىٰ لم يبق منهم إلا دون عدد التواتر ، بل قيل : إنهم لم يبق منهم إلا ستة أطفال ، علىٰ أن الأبد كثيراً ما يراد به الزمن الطويل ، كما في التوراة في صور كثيرة .

(وكم) أي : مرات كثيرة (**ساق وبالاً**) أي : عذاباً (**إليهم استقراء**) وفي هٰذين كـ (قالت) و(مقالة) السابقين جناس الاشتقاق كرد العجز على الصدر وفي (المسخ) و(النسخ) ، و(نسخ) و(مسخ) الجناس اللاحق ، و(خالفوهم) و(حالفوهم) الجناس المضارع ؛ لقرب المخرج ، والمصحف . وقوله : (وكم . . .) إلخ من التذييل البديع .

(235)

وَأَرَاهُمْ لَمْ يَجْعَلُوا ٱلْوَاحِدَ ٱلْقَهَّـ ـارَ فِي ٱلْخَلْـقِ فَـاعِـلاً مَـا يَشَـاءُ

(وأراهم) أي : أعلم أنهم لقولهم بذلك ـ أعني : امتناع النسخ ؛ لئلا يلزم البداء ـ (**لم يجعلوا**) أي : لم يعتقدوا (**الواحد**) في ذاته وصفاته وأفعاله ، فلا شريك له بوجه ما (**القهار في الخلق**) أي : للخلق علىٰ نفوذ ما أراده فيهم ، ويصح تعلقه بـ

(فاعلاً) فـ(في) علىٰ حالها (فاعلاً ما يشاء) لأن امتناع النسخ عليه يستلزم قهره وعجزه .

(236)

جَوَّزُوا ٱلنَّسْخَ مِثْلَ مَا جُوِّزَ ٱلْمَسْـ ـخُ عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ فُقَهَاءُ

(جوزوا النسخ) جواب (لو) الآتية ، تجويزاً (مثل ما) مصدرية (جوز المسخ عليهم لو أنهم فقهاء) أي : فهماء ، ولا فهم لهم ؛ إذ لا أبلد في الفرق منهم .

والنسخ **لغة** : الإزالة والتغيير والنقل ، كـ : نسخت الشمس الظل ، والريح التراب ، ونسخت الكتاب .

وشرعاً : بيان انتهاء حكم شرعي بخطاب آخر شرعي ، وزيد فيه : متراخ ؛ ليخرج نحو الاستثناء ، ورد بأن الكلام لا يعرف حكمه إلا بانتهائه ، فلا يحتاج للاحتراز عن ذلك بهـٰذا القيد ؛ أي : لو ثبت أنهم فقهاء . . لجوزوا النسخ ؛ لأنه ـ كما علم من حده ـ لا يلزم عليه محذور البتة ، وزعمهم البداء باطل لا يعول عليه ، ومما يدل علىٰ جوازه ووقوعه ما علمه اليهود من وقوع المسخ ، وهو : تحويل الصورة إلىٰ أقبح منها في كثيرين منهم في زمن موسىٰ عليه السلام ؛ لما خالفوه في السبت ، فمسخهم الله تعالىٰ قردة وخنازير ، كما قصه الله تعالىٰ علينا في كتابه العزيز .

وكيف يمنعون النسخ و

(237)

هُوَ إِلَّا أَنْ يُرْفَعَ ٱلْحُكْمُ بِٱلْحُكْـ ـمِ وَخَلْقٌ فِيهِ وَأَمْرٌ سَوَاءٌ

(هو) ليس فيه (إلا أن يرفع الحكم) الشرعي ؛ أي : استمراره وتعلقه ، فعلم أن المراد بالحكم : تعلقه بالمكلف بعد أن لم يكن ، أو نفسه ، لـٰكن من حيث دوامه ، بمعنىٰ تكرره ، لا ذاته التي هي خطاب الله تعالى المتعلق بفعل المكلف من حيث هو مكلف اقتضاء أو تخييراً ؛ لأنه قديم ، وما ثبت قدمه استحال عدمه .

ثم النسخ يكون إلىٰ بدل ، ولا إلىٰ بدل ، فإن كان إلىٰ بدل . . زيد في الحد

(بالحكم) الشرعي ، وإن كان لا إلىٰ بدل.. لم يزد ذلك (وخلق) أي : إيجاد (فيه) أي : المسخ للصورة الثانية بعد إذهاب الصورة الأولىٰ (وأمر) أي : تصرف برفع الحكم الأول وإيجاد الثاني (سواء) لما تقرر أن المسخ فيه رفع الصورة الأولىٰ وخلفها الصورة الثانية ، والنسخ فيه رفع الحكم الأول وخلفه الحكم الثاني ، فإذا جوزتم الأول.. لزمكم أن تجوزوا الثاني ، وإلا.. فأنتم سفهاء معاندون لا يلتفت إليكم .

وكيف تستبعدون النسخ وإنما غايته إن كان لبدل : أن فيه حكمين : المنسوخ ، وهو المراد بقوله :

(238)

وَلِحُكْـمٍ مِـنَ ٱلـزَّمَـانِ ٱنْتِهَـاءٌ وَلِحُكْـمٍ مِـنَ ٱلـزَّمَـانِ ٱبْتِـدَاءُ

(ولحكم من الزمان انتهاء) والناسخ ، وهو المراد بقوله : (ولحكم من الزمان ابتداء) ولا ينافي هـٰذا تفسيره النسخ بالرفع ؛ لما علمت أن المراد : رفع تعلقه بالمكلف أو دوامه ، وهو (الانتهاء) المذكور هنا ، وقول الشارح : إنه إشارة إلىٰ تفسيرين في النسخ.. غير صحيح ؛ لأن حقيقة الرفع مستحيلة ، فوجب تأويل التعبير به بما قلناه ، كما هو المقرر في محله . فتأمله .

وعلىٰ كل فجواز النسخ أولىٰ من جواز المسخ ؛ لأن ذلك في الأحكام ، وهـٰذا في الذوات ، سواء جعلنا النسخ رفعاً أم بياناً ، وسواء جعلنا المسخ في صورتهم حتىٰ صار أقاربهم من المؤمنين لا يعرفونهم وهم يعرفونهم ؛ إذ يجيء القرد إلىٰ قريبه ، ويتمسح به وتدمع عيناه ، فيقول له : ألم ننهكم عن المخالفة ؟ فيشير إليه برأسه : أن نعم[1] ، أم في قلوبهم فقط علىٰ ما ذكره مجاهد ، والنظم مشير إلىٰ هـٰذه القصة ، ففيه تلميح .

وبين (ابتداء) و(انتهاء) طباق .

وإذا أردتم أيها المسلمون المبالغة في إدحاض حجتهم..

---

(١) أخرج الحاكم (٢/ ٣٢٢) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ٩٢) نحوه .

(239)

فَسَلُوهُمْ أَكَانَ فِي مَسْخِهِمْ نَسْـ ــخٌ لِآيَاتِ ٱللهِ أَمْ إِنْشَاءُ

(فسلوهم) قائلين لهم : (أكان في مسخهم) التفت عن خطابهم مبالغة في تحقيرهم ؛ أي : جعلهم قردة في الصورة كما هو المشهور ، أو في قلوبهم ؛ وجعلها كقلوب القردة لا تقبل هداية مع بقاء ذواتهم علىٰ ما زعمه مجاهد (نسخ لآيات الله) وهي الصورة الأولىٰ مع إحكامها ، أو للإدراك الأول بناء علىٰ قول مجاهد (أم إنشاء) لإيجاد صورة مستقلة وحكم مستقل يتعلق بها ، أو للإدراك كذلك ؟! فإن قالوا بالأول . . فقد ناقضوا أنفسهم ولزمتهم الحجة ، أو بالثاني . . فهو مكابرة للحس ، والحق : أن المسخ متردد بين إنشاء الخلق وبين النسخ ؛ لأنه بالنسبة للصورة الأولىٰ نسخ ، وبالنسبة للصورة الثانية المتجددة القبيحة إنشاء .

لا يقال : قد لا يعترفون بطرو التغيير علىٰ قلوبهم ، بناء علىٰ قول مجاهد ؛ لأنهم اعترفوا به في قلوبهم بقولهم : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي : مغطاة بأغشية خاصة لا يصل إليها ما جئت به .

(240)

وَبَدَاءٌ فِي قَوْلِهِمْ نَدِمَ ٱللهُ عَلَىٰ خَلْقِ آدَمٍ أَمْ خَطَاءُ

(وبداء) بالمد ، وسبق معناه ، وهو مبتدأ خبره (في قولهم) الثابت عنهم : (ندم الله علىٰ خلق آدم أم خطاء) المشهور فيه القصر ، ويجوز مده كما جرىٰ عليه الناظم ، وهو عطف علىٰ (بداء) أي : سلوهم عن قولهم هـٰذا أهو عن قصد منهم أم عن خطأ منهم ؟ فإن قالوا : عن قصد . . كان عين البداء الذي أنكروه ؛ لأنه يستلزم جهل الله تعالىٰ بعواقب الأمور ، وحينئذ فكيف يمنعون النسخ فراراً من لازمه عندهم وهو البداء ؟! هـٰذا تناقض قبيح ، وإن قالوا : إنه خطأ منهم . . فيكفيهم الاعتراف به علىٰ نفوسهم ، وأنهم في غاية السفاهة والغباوة ، وسبيلهم الاعتراف بالبداء لا بالخطأ ، فاتضح بطلان زعمهم : استحالة النسخ حذراً من البداء .

وسلوهم أيضاً عما لا يمكنهم إنكاره ؛ لأنه أمر محسوس ورد القرآن علىٰ طِبْقه ،

فقولوا لهم : أعلامة الليل والنهار كل منهما باقية ، فلا تزول إحداهما بالأخرىٰ ؟

(241)

أَمْ مَحَـا ٱللهُ آيَـةَ ٱللَّيْـلِ ذُكْـراً بَعْـدَ سَهْـوٍ لِيُـوجَـدَ ٱلْإِمْسَـاءُ

(**أم محا**) أي : أذهب (**الله آية**) أي : علامة (**الليل**) اسم جنس جمعي ، واحده ليلة ، كتمر وتمرة ، وأتىٰ بالنهار بدله . . . وهٰكذا إلىٰ يوم القيامة (**ذكراً**) ـ بضم الذال المعجمة ـ تمييز ؛ أي : من جهة الذكر ؛ أي : العلم والتعمد (**بعد سهو ليوجد الإمساء** ؟!) أي : الدخول في المساء ، وهو ما بعد الزوال ، والمناسب أن يراد به هنا ما بعد الغروب ؛ أي : سلوهم هل هٰذا المحو واقع أم لا ؟ وبفرض وقوعه فهل هو عن عمد بعد سهو أو عن سهو ابتداء ؟ فإن قالوا بالأول . . لزمهم القول بالنسخ ؛ لأنه بمنزلته ، أو بالثاني من الترديد الأول . . فقد كابروا الحس ، أو من الترديد الثاني . . لزمهم القول بالبداء ؛ لأن من يجوز السهو يجوز البداء ؛ لأنه بمنزلته ، فلم منعوا النسخ حذراً منه ؟

وقد بين تعالىٰ حكمة اختلاف الليل والنهار في غير ما آية ، فقال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ . . .﴾ الآيات ، وقال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي : يخلف أحدهما الآخر ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ وقال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ .

والحاصل : أن الحكمة كما تقتضي دوام أشياء بلا تبدل ولا تغير تقتضي تبدلها وتغيرها .

وفي (ذكراً) بعد (سهو) جناس التطابق كـ(حرم) و(التحليل) ، و(جحدوا) و(آمن) الآتيات .

(242)

أَمْ بَـدَا لِـلْإِلَـٰهِ فِـي ذَبْـحِ إِسْحَـا قَ وَقَـدْ كَـانَ ٱلْأَمْـرُ فِيـهِ مَضَـاءُ

(**أم بدا للإلٰه في ذبح إسحاق**) حيث أمر به ثم نسخه (**و**) الحال أنه (**قد كان**

الأمر فيه) أي : بذبحه من الله تعالىٰ لخليله إبراهيم عليه السلام في النوم (مضاء) أي ماضٍ نافذ ، وفي نسخ : (قضاء) بالقاف ؛ أي : حتم ، وذلك لأن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي ؛ أي : سلوهم عما وقع للخليل عليه السلام أنه أمر بذبح ولده أمراً جازماً ، ثم عند إرادته له لما أضجعه علىٰ جنبه نسخه الله تعالىٰ ، فأمره بتركه وفداه بذبح عظيم .

وما يقال : إن الرقبة كسيت نحاساً ، وأنه مر بالسكين عليها فلم تؤثر ونحو ذلك مما يذكره الخطباء والقصاص . . فكله لم يثبت فيه شيء .

فإن قالوا : إن الأمر بالفداء وترك الذبح نسخ للأمر بالذبح . . لزمهم القول بالنسخ مطلقاً ، أو غير نسخ . . لزمهم الجهل المفرط والغباوة الشنيعة .

تنبيه : ما جرىٰ عليه الناظم أن الذبيح إسحاق . . هو ما عليه الأكثرون ، قيل : وأجمع عليه أهل الكتابين ، لـٰكن سياق الآية والمشاهدة بأن إسماعيل هو الذي كان بمكة ومنىٰ ولم ينقل قط أن إسحاق حج ولا أتىٰ تلك الأماكن . . قاضيان بأنه إسماعيل ، وهوالتحقيق ، كيف وقد صح ما يصرح بذلك ؟!

روى الحاكم في « المستدرك » : أن الصنابحي قال : حضرنا مجلس معاوية رضي الله تعالىٰ عنه ، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، فقال بعضهم : الذبيح إسماعيل ، وقال بعضهم : الذبيح إسحاق ، فقال معاوية : سقطتم على الخبير ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه أعرابي فقال : يا رسول الله ؛ خلفت البلاد يابسة والماء يابساً ، وضاع العيال ، فعد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه ، فقلنا : يا أمير المؤمنين ؛ وما الذبيحان ؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمر ـ أي : في المنام ـ بحفر زمزم . . نذر لله إن سهل الله له أمرها أن ينحر بعض ولده ، فأخرجهم فأسهم ـ أي : أقرع ـ بينهم فخرج السهم لعبد الله ، فأراد ذبحه ، فمنعه أخواله من بني مخزوم وقالوا : أرض ربك ، وافد ابنك ، ففداه بمئة ناقة ، فهو الذبيح ، وإسماعيل الثاني[١] ، وهـٰكذا رواه ابن مردويه والثعلبي في « تفسيريهما »[٢] .

---

(١) المستدرك (٢/ ٥٥٤) .

(٢) الدر المنثور (٧/ ١٠٥) ، وتفسير الثعلبي (٨/ ١٥٢) .

وسلوهم أيضاً فقولوا لهم :

(243)

أَوَمَا حَرَّمَ ٱلْإِلَـٰهُ نِكَاحَ ٱلْـ ... أُخْتِ بَعْدَ ٱلتَّحْلِيلِ فَهْوَ ٱلزِّنَاءُ

(أ) تنكرون النسخ (و) تقولون : (ما حرم الإلـٰه نكاح الأخت بعد التحليل) في زمن آدم عليه السلام ، أو تقولون : حرمه بعد أن حلله ، وعليه (فهو) أي : نكاحها (الزناء) موجب للرجم ، ومد الزنا لغة ، فإن قالوا : حرمها بعد أن أحلها . . فهـٰذا صريح في النسخ الذي أنكروه ، وإن قالوا : لم يحرمها ، أو لم يحلها . . فهو عناد محض ، وقائله لا يخاطب ولا يكالم .

وإذ قد بان لك قبيح جهلهم وتناقضهم وعنادهم . . فأمسك عن حجاجهم .

(244)

لَا تُكَذِّبْ أَنَّ ٱلْيَهُودَ وَقَدْ زَا ... غُوا عَنِ ٱلْحَقِّ مَعْشَرٌ لُؤَمَاءُ

(لا تكذب أن اليهود و) الحال أنهم (قد زاغوا) أي : مالوا (عن الحق) من وجوه عديدة سفهاً وحسداً (معشر) أي : قوم (لؤماء) جمع (لئيم) ، وهو : الدنيء الأصل الشحيح النفس .

(245)

جَحَدُوا ٱلْمُصْطَفَىٰ وَآمَنَ بِـٱلطَّا ... غُوتِ قَوْمٌ هُمْ عِنْدَهُمْ شُرَفَاءُ

(جحدوا) بدل من (زاغوا) (المصطفىٰ) أي : المختار ، من الصفوة ، أو المصفىٰ من كل نقص ؛ أي : أنكروا نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم بعد علمهم بها علماً يقيناً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ .

(و) الحال أنه قد (آمن بالطاغوت) أي : الشيطان وكل ما عبد من دون الله أو صد عن عبادته ، فطاغوت من الطغيان (قوم هم عندهم شرفاء) هـٰذا كالذي بعده بيان لعظيم لؤمهم وزيغهم عن الحق ؛ إذ جحدوا الحق الأظهر من الشمس ، وأقروا مَنْ آمن

بالباطل ومدحوهم علىٰ ذلك ، بل عدوهم مع ذلك من شرفائهم .

ثم ظاهر النظم : أن المؤمن بالطاغوت فرقة من اليهود لا كلهم ، وليس كذلك ، بل كلهم آمنوا به ، كما يصرح به قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قال المفسرون : هم اليهود ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ من أشرافهم ، أو كفار العرب ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ وعجيب من الشارح حيث أخذ النظم علىٰ ظاهره ، واستدل له بالآية مع أنها إنما تدل على الكل لا البعض ، ويصح أن المراد : وآمن بالطاغوت قوم من قريش هم عندهم شرفاء ، ومعنى الآية حينئذ : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي : اليهود ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي : كفار العرب الذين آمنوا بالجبت والطاغوت ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ ويدل علىٰ هٰذا : أن حيي بن أخطب لما ذهب إلىٰ قريش وغيرهم ليحرضهم علىٰ قتاله صلى الله عليه وسلم ومعه أشراف من اليهود . . سألوهم : أنحن خير ديناً من محمد ؟ قالوا : نعم ، ففرحوا وخرجوا لقتاله صلى الله عليه وسلم .

تنبيه : جعْلُ (الواو) للحال لا للعطف الدال عليه حذفها من (قتلوا) الآتي . . أولىٰ من قول الشارح : إنها عاطفة ، وإن المسوغ للعطف وصف (قوم) بالجملة بعده ؛ أي : لما قررته فيه : أن مدحهم للمؤمنين بالطاغوت مع جحدهم لنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم فيه غاية الغباوة واللؤم ، وأحوجه إلىٰ ذكر المسوغ قولهم : شرط قبول عطف الجملة على الأخرىٰ أن يكون بينهما مناسبة لجهة جامعة ، نحو : زيد يكتب ويشعر . وقد يقال : في النظم دلالة لما فعله الشارح ؛ لأنه أتىٰ بأربع جمل : ثنتين بلا (واو) وثنتين بـ(واو) نظراً للمناسبة المعتبرة في ذلك ، وبيانه : أن إيمانهم بالطاغوت مع جحدهم نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم فيه ما مر ، وكذلك اتخاذهم العجل مع قتلهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأما (قتلوا) مع ما قبله . . فلا مناسبة ظاهرة بينهما ، فلم يعطف عليه قوله :

(246)

قَتَلُوا ٱلْأَنْبِيَاءَ وَٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْـلَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ

(قتلوا) بدل بعد بدل ، أو عطف بحذف حرفه بناء علىٰ أنه يمكن مناسبته لما قبله

(الأنبياء) كزكريا ويحيىٰ وغيرهما ، جاء : أنهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً ، ثم أقاموا سوق نقلهم ومعايشهم (**واتخذوا العجل**) إلـٰهاً ومعبوداً مع أن السامري هو الذي صاغه لهم بحضرتهم من الحلي الذي استعاره من القبط قبل غرقهم ، وألقىٰ فيه قبضة من تراب أخذه من تحت حافر فرس جبريل الذي جاء به لفرعون حين دخل وراءهم البحر لما انفرق لهم ؛ لأنه كان أحجم عن دخوله ، فبمجرد أن ألقىٰ فيه تلك القبضة خور العجل ، فقال لهم : هـٰذا إلـٰهكم وإلـٰه موسىٰ ، فراج علىٰ عقولهم السخيفة كلامه[١] ، فاعتقدوه إلـٰهاً ومعبوداً ، كما قصه الله تعالىٰ علينا مبسوطاً في القرآن ، ومن ثم كان في كلامه اقتباس كقوله : (**ألا**) حرف تنبيه لاستفراغ وسع السامع في إلقاء سمعه لما بعدها (**إنهم هم السفهاء**) ولـٰكن لا يشعرون ، فجهلهم مركب ، فلا أسفه ولا أغبىٰ منهم ، جمع سفيه ، وهو : من زاد نقص عقله حتىٰ حصلت له خفة وطيش ، وسخافة رأي ، وانطماس بصيرة ، ومن ثم لم ينظروا إلىٰ كونه محدثاً بحضرتهم من جماد ، والإلـٰه لا يكون كذلك عند من له أدنىٰ عقل وتمييز ، ثم بين أدنىٰ أنواع سفههم بقوله ملمحاً لما وقع لهم :

(247)

وَسَفِيهُ مَنْ سَاءَهُ ٱلْمَنُّ وَٱلسَّلْـ ـوَىٰ وَأَرْضَاهُ ٱلْفُومُ وَٱلْقِثَّاءُ

(وسفيه) خبر مقدم ، أو مبتدأ ، وسوغ الابتداءَ به وقوعه بياناً لما قبله كما تقرر (من ساءه) أي : أحزنه (**المن**) وهو نوع من الحلوىٰ يسمى الترنجبين ، كان ينزل عليهم وهم في التيه في غاية الاضطرار (**والسلوىٰ**) وهو السماني ، طير من أشهى الطيور لحماً ، وأنفعها وأطيبها غذاء ، كان يأتيهم إلىٰ محالهم فرقاً فرقاً فيمدون أيديهم إليه ويأخذون منه ما شاؤوا (**وأرضاه الفوم**) أي : الثوم ، كما قرىء به ، وقيل : الحنطة ، وهو بعيد من السياق ؛ لأن الحنطة ليست من الأدنىٰ (**والقثاء**) بل سأل فيهما وفي نظائرهما ، قال تعالىٰ تبكيتاً لهم بعد ما ذكر أنه أنزل عليهم المن والسلوىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا

---

(١) راج : نفق .

وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ .

ففي كلامه اقتباس ، وطباق بين (ساءه) و(أرضاه) ، ومراعاة النظير في (المن) و(السلوىٰ) ، و(الفوم) و(القثاء) .

(248)

مُلِئَتْ بِٱلْخَبِيثِ مِنْهُمْ بُطُونٌ	فَهْيَ نَارٌ طِبَاقُهَا ٱلْأَمْعَاءُ

(**ملئت بالخبيث**) وهو ما سألوه من الفوم وما معه (**منهم**) صفة تقدمت فصارت حالاً (**بطون**) ليناسب ما انطوت عليه من الغل والحسد والغباوة والسفاهة ، أو المراد : ملئت بطونهم بالداء الخبيث العضال الذي لا دواء له ، وهو الغل وما بعده ، وإلىٰ هٰذا يرشد ما رتبه عليه بقوله : (**فهي نار**) أي : مشتملة علىٰ ما يؤدي إلى النار ، أو سماها ناراً باعتبار المآل كما في : ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ (**طباقها**) أي : النار (**الأمعاء**) أي : المصارين ؛ أي : معىً فوقه نار ، ثم معىً فوقه نار . . . وهٰكذا ، وإلى الأول يرشد قوله : (ملئت بالخبيث) المشعر بأن بطونهم صارت به كنارٍ ذات طباق ، وطباقها هي أمعاؤهم النجسة ، ويصح أن المراد : أن بطونهم صارت كنارٍ ذات طباق بعضها فوق بعض ، وطباقها أمعاؤهم ؛ إذ الخبيث الذي ملئت به بطونهم هو نحو الربا والسحت ، فإذا دخلها . . جذبته المصارين إليها وبعضها فوق بعض ، وأيضاً الخبيث بعضه أشد عذاباً من بعض ، فبعضه فوق بعض ؛ لتفاوت عذابهم بالنسبة إلىٰ أكلهم واكتسابهم ، هٰذا على الأصح عندنا في الأصول : أنهم مخاطبون بفروع الشريعة ، فيعاقبون عليها بخصوصها في الآخرة ، وعلىٰ مقابله هم كفروا من وجوه عديدة ، بعضها أشد من بعض .

(249)

لَوْ أُرِيدُوا فِي حَالِ سَبْتٍ بِخَيْرٍ	كَانَ سَبْتاً لَدَيْهِمُ ٱلْأَرْبِعَاءُ

(لو) شرطية (**أريدوا في حال سبت**) مصدر سبت اليهود ؛ أي : عظموا سبتهم بالسكون فيه عما عدا العبادة ، وأصل السبت : القطع (**بخير**) (الباء) زائدة للتأكيد كما هو رأي جماعة ، وكل من الظرفين متعلق بـ (أريدوا) علىٰ أن الثاني مفعول ،

ويصح كون الأول حالاً من (خير) أي : لو أراد الله لليهود في حال سبتهم الذي فرض عليهم تعظيمه خيراً (. . **كان سبتاً لديهم**) أي : عندهم (**الأربعاء**) بتثليث (الباء) هٰذا من حيث ترتبه علىٰ ما قبله بطريق الملازمة المستفادة من (لو) . . في غاية الإشكال ، ولم ينبه الشارح علىٰ ذلك ، أو لم يتنبه له ، وإنما تكلم علىٰ بعض مفرداته فقط ، ومنها قوله : (والسبت آخر الأسبوع ، والأربعاء رابعه ، وقيل : السبت أوله ، والأربعاء : خامسه) .

وقد يقال : كأن الناظم نظر إلىٰ أن السبت القطع كما مر وإلىٰ أن الأربعاء محل النور الحسي ؛ لما يأتي أن الله تعالىٰ خلق النور فيه[1] ، فيكون محلاً للنور المعنوي الذي هو الوصل ، فكأنه يقول : لو أريد بهم الخير . . لجعل قطعهم وصلاً ، ولا ينافي ذلك قوله : (هو يوم مبارك) لأنه باعتبار ما فرض الله تعالىٰ عليهم من تعظيمه وتخصيصه بالعبادة ، وما نحن فيه باعتبار أنه لو أريد بهم تمام الخير . . جعل محل عبادتهم مؤذناً بوصلهم الذي من شأنه أن ينشأ عن العبادة ، وأما إذا جعل محل عبادتهم مؤذناً بقطعهم باعتبار أصل مدلوله . . فهٰذا مما يؤذن بنقصهم ، وأنه لم يرد بهم كمال الخير .

ومما يوضح هٰذا : أن الله تعالى ادخر لهٰذه الأمة يوم الجمعة المؤذن بغاية الوصل ؛ إذ مقام الجمعية هو مقام الوصل الذي هو أكمل المقامات وأفضلها ، وجعل لليهود يوم السبت المؤذن بقطيعتهم وحرمانهم ، وللنصارى الأحد المؤذن بوحدتهم وتفردهم عن مواطن الخيرات والسعادات ، فكان فيما خصت به كل أمة من الأيام دليل علىٰ أحوالها وما يؤول إليه أمرها ، فنبه الناظم رحمه الله تعالىٰ علىٰ هٰذه الحقيقة العرفانية ، والحكمة الربانية ، زيادة في مدح هٰذه الأمة وذم غيرها ، أو يقال : إن الناظم أراد بذلك : أنهم لو أريد بهم الخير . . لكانت الأيام كلها عندهم سبتاً ؛ ليحيوها جميعها بالعبادة ، وأما تخصيص يوم منها بالعبادة دون بقية الأسبوع . . فهو من جملة ما أريد بهم من خلاف الخير ، وعلىٰ هٰذا ـ مع ما فيه من البعد والتكلف ـ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٩) ، وابن خزيمة (١٧٣١) ، وابن حبان (٦١٦١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (١٠٩٤٣) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/٩) ، وأحمد (٢/٣٢٧) ، وأبو يعلىٰ (٦١٣٢) .

يكون معنىٰ حال سبتهم ذكر شأنه ، ويكون ذكر الأربعاء للمثال لا للتقييد ، ويكون قوله : (هو يوم مبارك. . .) إلخ رجوعاً إلىٰ مدح ما شرع لهم ، ولا ينافي ما قبله ؛ لأن بركته لا تنافي أن تعطلهم عن العبادة بقية الأسبوع غيرُ خير .

واعلم : أن قول الشارح : (والسبت. . .) إلخ عجيب منه ؛ إذ ما حكاه بـ (قيل). . هو الذي صح به الخبر وعليه الأكثرون ، وهو مذهبنا كما في (الروضة) و« أصلها » ، ونقله في « شرح المهذب » عن الأصحاب ، بل قال السهيلي في « روضه » : (لم يقل بأن أوله الأحد إلا ابن جرير) .

واستدل له في « شرح المهذب » بخبر مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : « خَلَقَ ٱللهُ ٱلتُّرْبَةَ يَوْمَ ٱلسَّبْتِ ، وَخَلَقَ فِيهَا ٱلْجِبَالَ يَوْمَ ٱلأَحَدِ ، وَخَلَقَ ٱلشَّجَرَ يَوْمَ ٱلإِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ ٱلْمَكْرُوهَ يَوْمَ ٱلثَّلاَثَاءِ ، وَخَلَقَ ٱلنُّورَ يَوْمَ ٱلأَرْبِعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا ٱلدَّوَابَّ يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ ٱلْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فِي آخِرِ ٱلْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ ٱلنَّهَارِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْعَصْرِ إِلَىٰ ٱللَّيْلِ »[1] ولهـٰذا الخبر صوب الإسنوي كالسهيلي وابن عساكر : أن أوله السبت ، وجرى النووي في موضع آخر علىٰ ما يقتضي أن أوله الأحد ، فقال في يوم الإثنين : (سمي به ؛ لأنه ثاني الأيام)[2] إلا أن يجاب بأنه جرىٰ في توجيه التسمية المكتفىٰ فيه بأدنىٰ مناسبة على القول الضعيف .

نعم ؛ انتُصر لكون أوله الأحد الذي جزم به القفالُ من أصحابنا بأن الخبر السابق تفرد به مسلم ، وقد تكلم فيه الحافظ علي بن المديني والبخاري وغيرهما ، وجعلوه من كلام كعب ، وأن أبا هريرة إنما سمعه منه ، ولـٰكن اشتبه علىٰ بعض الرواة فجعله مرفوعاً ، ويجاب بأن من حفظ الرفع حجةٌ علىٰ من لم يحفظه ، والثقة لا يرد حديثه بمجرد الظن ، ولأجل ذلك أعرض مسلم عما قاله أولـٰئك واعتمد الرفع ، وخرج طريقه في « صحيحه » فوجب قبولها ، ومن ثم انتصر ابن عساكر لكون أوله السبت بما حاصله : أن تأييد ابن جرير لكون أوله الأحد بأن هـٰذا العالم خلق في ستة أيام ، وآدم

---

(١) انظر « المجموع » (٨/ ٣٧٢) .

(٢) المجموع (٦/ ٤١٢) .



خلق يوم الجمعة ، إنما يصح بتقدير أن يوم الجمعة داخل في السبت التي خلق فيها العالم ، ولم يصح ذلك ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم فسر خلق الأشياء ، وجعل خلق آدم في اليوم السابع ، وهو يوم الجمعة ، ولم يثبت أنه خلق آخر الأيام ، وإنما أخبر تعالىٰ أنه خلق العالم في ستة أيام ، فآخرها يوم الخميس ، وخلق آدم بعد الفراغ من خلقها ، إشارة لكونها خلقت لمصالحه ولبنيه ، وسياق خبر مسلم المذكور ظاهر في ذلك ، ويؤيده أيضاً الخبر الصحيح : أن الله تعالىٰ هدانا ليوم الجمعة ، وأضل عنه اليهود والنصارىٰ[1] ؛ أي : لأن اليهود لما اعتقدوا أن أول الأسبوع الأحد. . كان الجمعة سادساً ، فأخذوا السابع وهو السبت ، والنصارىٰ لما اعتقدوا أن أوله الإثنين . . أخذوا الأحد ، وأما هـٰذه الأمة . . فاعتقدوا أن أوله السبت ، فأخذوا السابع وهو يوم الجمعة .

قال : (ولا حجة في اشتقاق نحو الأحد من الواحد. . . وهـٰكذا ؛ لأن هـٰذه التسمية لم تثبت بأمر من الله ولا من رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلعل اليهود وضعوها علىٰ مذهبهم ، فأخذتها العرب عنهم ، ولم يرد في القرآن إلا الجمعة والسبت ، وليسا من أسماء العدد) اهـ علىٰ أن هـٰذه التسمية لو ثبتت . . لم يكن فيها دليل ؛ لأن العرب تسمي خامس الورد أربعاً . . . وهـٰكذا ، وهـٰذا هو الذي أخذ منه ابن عباس رضي الله عنهما قوله الذي كاد أن ينفرد به : إن يوم عاشوراء هو يوم تاسع المحرم ، وتاسوعاء ثامنه . . . وهـٰكذا .

(250)

هُــوَ يَــوْمٌ مُبَــارَكٌ قِيــلَ لِلتَّصْـ ـــرِيـفِ فِيـهِ مِـنَ ٱلْيَهُـودِ ٱعْتِـدَاءُ

(هو) أي : يوم السبت (**يوم مبارك**) لأن الله تعالى ابتدأ فيه خلق هـٰذا العالم كما مر ، خلافاً لما زعمته اليهود : أنه ابتدأه يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، قالوا : فنحن نستريح فيه كما استراح الرب فيه ، وهـٰذا من جملة غباوتهم وسفاهتهم ، ومن ثم رد الله تعالىٰ عليهم بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ أي : تعب ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ؛ إذ لا يتصور التعب إلا من حادث مفتقر

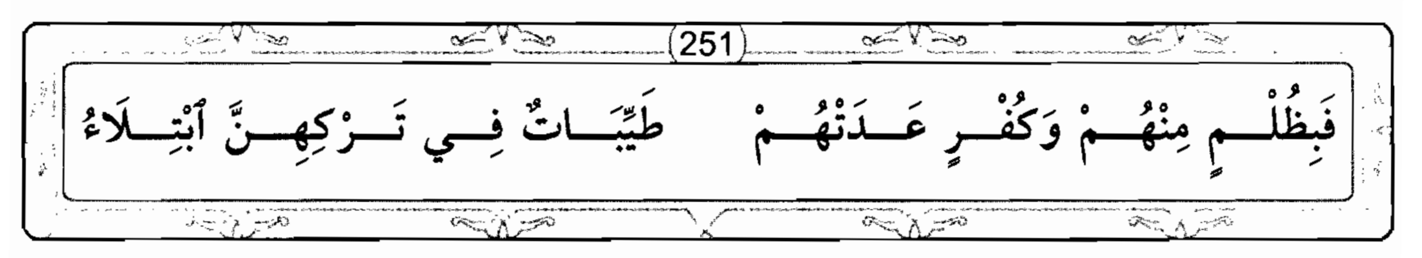
---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٦) ، والنسائي (٣/ ٨٧) .

للغير في الأسباب ، والله سبحانه وتعالىٰ بخلاف ذلك كله ، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي : أن نوجده فوراً فلا يتخلف عن الإرادة ، فقوله : ﴿ كُن ﴾ كناية عن ذلك .

(قيل) بناه للمجهول لضيق النظم ، فلا يتوهم أنه قول ضعيف (**للتصريف**) أي : للتصرف (**فيه**) ببيع أو نحوه (**من اليهود اعتداء**) أي : ظلم وعدوان كان سبباً لمسخ كثيرين منهم قردة وخنازير ، وذلك لما أمروا أن يجردوه للعبادة . . اعتدىٰ فيه ناس منهم في زمن داوود عليه الصلاة والسلام ، اثنا عشر ألفاً ، فاصطادوا فيه ، وكانوا بأيلة ـ قرية علىٰ جانب البحر ـ فابتلاهم الله تعالىٰ بأن ألهم السمك يوم السبت أنه ما يبقىٰ حوت في البحر إلا ورفع خرطومه أو خرج ، فإذا مضى السبت . . تفرق السمك ونفر ، فأجمع رأي جماعة منهم علىٰ حيلة يمسكون بها السمك ، وتمنعهم عن الاصطياد يوم السبت ، فحفروا يوم الجمعة حفراً بجانب البحر ، وجعلوا فيها جداول من البحر ، فصارت تمتلىء منه يوم السبت ، ويأخذونه يوم الأحد ، فشووا وأكلوا ، فشم جيرانهم فسألوهم ، فأخبروهم بالحيلة ، فقالوا : إن الله معذبكم ، ثم لما لم يعاجلوا بالعقوبة . . تبعهم جماعة ثم جماعة حتىٰ صاروا قدر الثلث ، وسكت قدر الثلث ، واعتزلهم الثلث الباقي ، فبنوا بينهم حائطاً ، فأصبحوا وقد مسخ الثلث الأول قردة وخنازير ، وكذا الثاني علىٰ خلاف فيه ؛ أي : لأن الآية فيهم محتملة ، ومن ثم قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : لا أدري ما فعل بالساكتة ، نجاها أم مسخها كذلك ؟

قال مالك : (يؤخذ من هٰذا تحريم الحيلة ، ووجوب سد الذرائع) اهـ ويرد : بأن المقرر في الأصول : أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا ، فإن ورد في شرعنا ما يوافقه بالدليل . . فهو شرعنا لا غيره .


(251)

فَبِظُلْـمٍ مِنْهُـمْ وَكُفْـرٍ عَـدَتْهُـمْ طَيِّبَـاتٌ فِـي تَـرْكِهِـنَّ ٱبْتِـلَاءُ

(فبظلم) متعلق بـ (عدتهم) ، (منهم) وهو : وضع الشيء في غير محله ، كخيانتهم في السبت ، وأخذهم الربا ، وأكلهم أموال الناس بالباطل (**وكفر**) من عطف الأخص ؛ لزيادة الاهتمام به (**عدتهم**) أي : فاتتهم (**طيبات**) من الرزق

حرمها الله تعالىٰ عليهم ، وهـٰذا مقتبس من قوله تعالىٰ : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . . . ﴾ الآية ، ومن شأن الطيبات أنه يوجد (في تركهن) الذي تحتم الأمر به (ابتلاء) أي : اختبار ومحنة للعبد تكون سبباً لفلاحه أو هلاكه .

(252)

خُـدِعُـوا بِـٱلْمُنَـافِقِيـنَ وَهَـلْ يُنْـ ـفَـقُ إِلَّا عَلَـى ٱلسَّفِيـهِ ٱلشَّقَـاءُ

(خدعوا) أي : يهود المدينة وما قرب منها ، بدل من (زاغوا) لـٰكن ذاك عام ، وهـٰذا خاص ؛ لتقييده بالظرف بعده (بالمنافقين) من الأوس والخزرج الذين قهرهم الإسلام ، فأظهروه واتخذوه جنة من القتل مع بقائهم علىٰ كفرهم باطناً ، وكان هـٰؤلاء مع اليهود ؛ لأنهم مثلهم باطناً ، فكانوا يدسون إليهم المكر والخديعة ، وكانت أحبار اليهود هم الذين يتعنتون على النبي صلى الله عليه وسلم ، فينزل القرآن مكذباً لهم تارة ، ومجيباً عن شبههم أخرىٰ ، ومنبهاً علىٰ أحوال المنافقين الذين هم معهم باطناً أخرىٰ ، ومعنىٰ كونهم خدعوا بهم : أنه أريد بهم المكروه من حيث لا يعلمون ، بسبب المنافقين الذين كانوا يصدونهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فينخدعون لهم لغباوتهم وسفاهتهم كما قال : (وهل ينفق إلا على السفيه الشقاء) أي : وما ينفق الشقاء إلا على السفهاء ، وهم اليهود لا غير ، شبه الشقاء الحاصل لهم بدراهم تصرف وتخرج في الشر ، فهي استعارة بالكناية ، وأثبت لها ما هو من لوازم المشبه به ، وهو الإنفاق تخييلاً .

وجعل الشارح (ينفق) من النفاق ؛ أي : الرواج ، فعليه شبه الشقاء بالسلعة المعروضة للبيع ، وأثبت لها النفاق تخييلاً ، ورشح أو جرد بذكر السفه الملائم للمشبه أو المشبه به .

(253)

وَٱطْمَـأَنُّـوا بِقَـوْلِ ٱلْأَحْـزَابِ إِخْـوَا نِهِـمُ إِنَّنَـا لَكُـمْ أَوْلِيَـاءُ

(واطمأنوا) في زعمهم بما كانوا يترقبونه من النبي صلى الله عليه وسلم (بـ) سبب (قول الأحزاب) أي : طوائف أهل مكة ومن كان معهم من قبائل العرب الذين تجمعوا لحربه صلى الله عليه وسلم بعد وقعة أحد (إخوانهم) في الكفر لهم : (إننا

لكم أولياء) أي : متوالون ومتفقون علىٰ حرب محمد صلى الله عليه وسلم ، وسبب ذلك : أن جماعة من اليهود ، منهم اللعين حيي بن أخطب : ازدادت عداوتهم له صلى الله عليه وسلم حتىٰ قدموا علىٰ قريش بمكة ، فدعوهم لحربه صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : نكون معكم عليه حتىٰ نستأصله ، فوافقوهم ، ثم ذهبوا لغطفان وذكروا لهم ذلك ، فوافقوهم ، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان قبل إسلامه ، وغطفان ومن معهم من أهل نجد وقائدها عُيَينة بن حِصْن ، فاجتمعوا في عشرة آلاف ، واليهود قاطعون بأنهم بذلك يستأصلون المسلمين .

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق ؛ لأن العرب لم تكن تعرفه ، فاجتهد فيه صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه ، فلما وصل العدو إليه . . خرج إليهم في ثلاثة آلاف ، فمكثوا نحو عشرين يوماً أو خمسة عشر يوماً ـ وهو الأشهر ـ لا قتال بينهم إلا الرمي بالنبل والحصىٰ ، ثم اشتد الحرب ، فجاء نُعَيم بن مسعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : إني أسلمت ولم يعلم بي قومي ، فمرني بما شئت ، فأمره بأن يخذِّل عنهم ما استطاع ، فإن الحرب خدعة ، فذهب إلىٰ بني قريظة وكان نديمهم في الجاهلية ، فحسن لهم التخلف عن معاونة قريش إلا إن أخذوا منهم رهناً ، وخوفهم علىٰ أموالهم وأولادهم ، فقالوا : أشرت بالرأي .

ثم ذهب إلى العرب وقال لهم عن اليهود مثل ذلك ، وأنهم ندموا علىٰ ذلك ، وأرسلوا لمحمد صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأرسلوا رسلهم لقريظة ، فذكروا لهم ذلك ، فاعتقدوا صدق نعيم ، وانحل عزمهم ، فخذلهم الله تعالىٰ ، وأرسل عليهم الريح في ليال شديدة البرد ، فكفأت قدورهم ، وطرحت خيامهم ، وبلغه صلى الله عليه وسلم تخالفهم وما هم فيه ، فقال لحذيفة بن اليمان : « ٱذْهَبْ فَٱنْظُرْ مَا فَعَلَ ٱلْقَوْمُ ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا » فدخل بينهم ، فسمع أبا سفيان يقول : لينظر الرجل منكم مَنْ جليسه ، قال حذيفة : فأخذت بيد من بجنبي ، فقلت : من أنت ؟ فقال : فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : والله يا معشر قريش ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ثم أمرهم بالرحيل وارتحل ، ولولا عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أن : لا تحدث شيئاً . . لقتلته بسهم ، ثم

سمعت غطفان ما وقع لقريش ، فرجعوا أيضاً ، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم . . رجع إلى المدينة وقال : « لاَ تَغْزُوَنَّكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَهَا أَبَداً ، وَلَـٰكِنْ أَنْتُمْ تَغْزُونَهُمْ » فكان كذلك[١] .

ولما وضعوا السلاح . . جاء جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق علىٰ بغلة عليها قطيفة ديباج ، وفي رواية البخاري : أنه لما وضع السلاح . . اغتسل ، فأتاه جبريل فقال له : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه ، اخرج إليهم ـ أي : بني قريظة ـ فإني عامد إليهم ، ومزلزل بهم[٢] ، وفي رواية : قم فشد عليك سلاحك ، فوالله لأدقنهم دق البيض على الصفا ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً : يا خيل الله اركبي ، فذهب إليهم في ثلاثة آلاف مقاتل ، وستة وثلاثين فرساً ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، أو خمسة عشر ، وقذف تعالىٰ في قلوبهم الرعب ، فعرض عليهم رئيسهم الإيمان ، وحلف لهم أنه نبي مرسل ، وأنه الذي يجدونه مكتوباً عندهم في كتابهم ، فأبوا ، فقال : الليلة السبت ، فلعلهم أمنونا ، فانزلوا لعلكم تصيبون منهم ، فقالوا : نفسد سبتنا ، ونحدث فيه ما لم يحدث فيه مَنْ قبلنا إلا من علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ .

ثم اشتد عليهم الحصار ، فنزلوا علىٰ حكم النبي صلى الله عليه وسلم ، فحكَّم فيهم سعدَ بن معاذ سيد الأوس ، فحكَمَ فيهم : بأن تقتل رجالهم ، وتقسم أموالهم ، وتسبىٰ ذراريهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ ٱللهِ تَعَالَىٰ ٱلَّذِي حَكَمَ بِهِ » فأمر صلى الله عليه وسلم بهم فأدخلوا المدينة ، وحفر لهم أخدوداً في السوق ، وجلس صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه ، وأخرجوا إليه ، فضربت أعناقهم ، وكانوا ما بين ست مئة إلىٰ سبع مئة[٣] ، ولا ينافيه الرواية الصحيحة : أنهم كانوا أربع مئة مقاتل ؛ لأن الباقين أتباع .

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٣/ ٢١٤) ، و« طبقات ابن سعد » (٢/ ٦٥) ، و« عيون الأثر » (٢/ ٧٦) و« البداية والنهاية » (٤/ ٤٧٥) .

(٢) البخاري (٤١١٧) ، وليس فيه : فإني عامد إليهم ، ومزلزل بهم .

(٣) انظر « سيرة ابن هشام » (٣/ ٢٣٣) ، و« طبقات ابن سعد » (٢/ ٧٤) ، و« عيون الأثر » (٢/ ٩٤) ، و« البداية والنهاية » (٤/ ٤٩٩) .

وبما تقرر علم أن الأحزاب :

(254)

حَالَفُوهُمْ وَخَالَفُوهُمْ وَلَمْ أَدْ ... رِ لِمَاذَا تَخَالَفَ ٱلْحُلَفَاءُ

(حالفوهم) أي : اليهود ؛ أي : عاهدوهم مع الأيمان المغلظة علىٰ حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (وخالفوهم) في ذلك ، فرحلوا عنهم وأسلموهم للنبي صلى الله عليه وسلم حتىٰ قتلهم عن آخرهم (**ولم أدر لماذا تخالف الحلفاء**) وأراد بنفي الدراية علىٰ طريقة : تجاهل العارف إغراءً للسامع على البحث عن سبب ذلك وإن كان ظاهراً ، وهو أن الله تعالىٰ أراد خذلانهم بتفريق كلمتهم ، واستئصال شأفتهم .

تنبيه : تجاهل العارف سماه السكاكي سوق المعلوم مساق غيره ، وهو سؤال المتكلم عما يعلمه علىٰ سبيل التعجب ، أو الإنكار ، أو التوبيخ كما هنا ، أو التقرير ، نحو : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ .

(255)

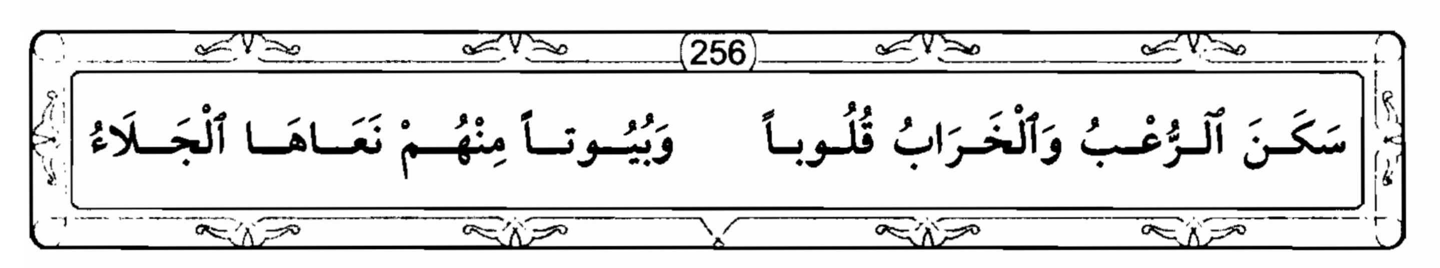
أَسْلَمُوهُمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ لَا مِيـ ... ـعَادُهُمْ صَادِقٌ وَلَا ٱلْإِيلَاءُ

(أسلموهم) أي : المنافقون ـ عبد الله بن أبي وأصحابه ـ اليهودَ المسمين ببني النَّضير (**لأول الحشر**) المقتبس من قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

أي : في أول حشرهم وإجلائهم من جزيرة العرب إلى الشام ، أو من محلهم إلىٰ محل آخر ، وإنما كان أولاً ؛ لأنهم لم يصبهم قبل نظير ذلك ، أو في أول حشرهم إلى القتال ؛ لما يأتي في قصتهم : أنهم عزموا على القتال ففشلوا ، وألقى الله الرعب في قلوبهم ، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله عنه لمن بخيبر من هٰؤلاء ومن أهلها إلى الشام ، أو في أول حشر الناس إلى الشام ؛ لأنها فتحت بعد ذلك بقليل ، وقصدها

الناس للإقامة بها ، وعليه فآخر حشرهم بها عند قيام الساعة ؛ لأنها أرض المحشر .

(لا ميعادهم) أي : المنافقين لليهود أنهم ينصرونهم على النبي صلى الله عليه وسلم (صادق) لأنهم سولوا لهم قتالهم وأنهم يعينونهم ، ثم تخلفوا عنهم (ولا الإيلاء) أي : الحلف منهم لهم صادق أيضاً .



(سكن الرعب) أي : هيبة النبي صلى الله عليه وسلم ، وخشية انتقامه منهم ، وظن ظفره عليهم (والخراب) الآتي لدورهم (قلوباً) من اليهود المحصورين وغيرهم من أهل خيبر وغيرها ، وهـٰذا راجع للأول (وبيوتاً منهم) راجع للثاني ، ففيه لف ونشر مرتب (نعاها) أي : أخبر تلك البيوت بموت أهلها المعنوي ، من : نعاه له نعواً ونعياً ونعياناً : أخبر بموته (الجلاء) أي : خروجهم من ديارهم ، شبهه في كونه معلماً بقهرهم وزوال شوكتهم المشبه بالموت بإنسان مخبر بما ينفع ويضر ، فهي استعارة بالكناية ، وذكر النعي الملائم للمشبه به استعارة تخييلية .

وعجيب من الشارح حيث لم يتكلم علىٰ هـٰذه الجملة ، مع ما علمته فيها من الاستعارتين المذكورتين ، بل فيها استعارة ثالثة ، كما أشرت إليها بقولي : (المشبه بالموت) .

وظاهر النظم : أن واقعة بني النَّضير هـٰذه بعد الخندق المشار إليها بقوله السابق : (واطمأنوا . . .) إلخ ، وهو ما أوهمه كلام بعض أهل السير ، لـٰكنه مردود بأن بني قريظة هم الذين ظاهروا الأحزاب ، وأما بنو النَّضير . . فلم يكن لهم في الأحزاب ذكر ، بل كانوا من أعظم الأسباب في جمع الأحزاب ، وما وقع من إجلائهم ، فإنه كان من رئيسهم حيي بن أخطب ، وهو الذي حسن لبني قريظة الغدر وموافقة الأحزاب حتىٰ كان من هلاكهم ما كان ، فكيف يصير السابق لاحقاً ؟!

وخلاصة ما قاله أهل السير في واقعة بني النَّضير : أنه صلى الله عليه وسلم خرج إليهم يستعينهم في دية قتيلين قتلهما بعض حلفائهم ، فأظهروا له الإجابة ، ثم تواعدوا

وهو صلى الله عليه وسلم جالس إلىٰ جنب جدار لبعض بيوتهم علىٰ أن يصعد واحد منهم ، ويلقي عليه صخرة ليستريحوا منه ، فنهاهم بعضهم وقال : والله لَيُخْبَرَنَّ بما هممتم به ، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه ، فلما صعد الرجل لذلك . . أخبر به صلى الله عليه وسلم ، فقام مظهراً أنه يقضي حاجة ، وترك أصحابه في مجلسهم ، ورجع مسرعاً إلى المدينة ، فطلبه أصحابه فأخبرهم ، ونزل في ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ الآية ، فأمر صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم ، فسار وحاصرهم ست ليال ، فتحصنوا بالحصون ، فقطع النخل وحرقها وخرب ، ولما وقع في نفوس بعض المسلمين شيء من ذلك . . نزل : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ . . . ﴾ الآية ، واللينة : أصناف التمر ما عدا العجوة والبرني ، ففي الآية أنه صلى الله عليه وسلم لم يحرق من نخلهم إلا ما ليس بقوت ، وكانوا يقتاتون العجوة ، وفي الحديث « ٱلْعَجْوَةُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ »[1] ، وثمرها يغذي أحسن غذاء ، والبرني أيضاً كذلك ، وكان رهط من بني عوف من الخزرج منهم ابن أُبي بعثوا إليهم : أن اثبتوا وتمنعوا ، فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم . . قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم . . خرجنا معكم ، فتربصوا ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجْليهم عن أرضهم ، ويكف عن دمائهم ، وفي رواية ابن سعد : أنهم لما هموا بالغدر . . أرسل إليهم محمد بن مسلمة : أن اخرجوا من بلدي ، وقد أجلتكم عشراً ، فمن رئي منكم بعدها . . ضربت عنقه ، فشرعوا في التجهيز ، فأرسل إليهم ابن أُبي بأنهم يمتنعون ، ويمدهم بمن ينصرهم ، فأرسلوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : لا نخرج ، فأظهر التكبير ، وكبر المسلمون بتكبيره ، فسار إليهم وعلي يحمل رايته ، فلما رأوه . . قاموا علىٰ حصونهم يرمون بالنبل والحجارة ، وخذلهم ابن أبي وغيره ، فحاصرهم خمسة عشر يوماً ، ثم قال لهم : « ٱخْرُجُوا وَلَكُمْ دِمَاؤُكُمْ وَمَا حَمَلَتِ ٱلإِبِلُ إِلاَّ ٱلدِّرْعَ » فنزلوا علىٰ ذلك ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، فلحقوا بخيبر ثم إلى الشام والحيرة علىٰ ست مئة بعير[2] .

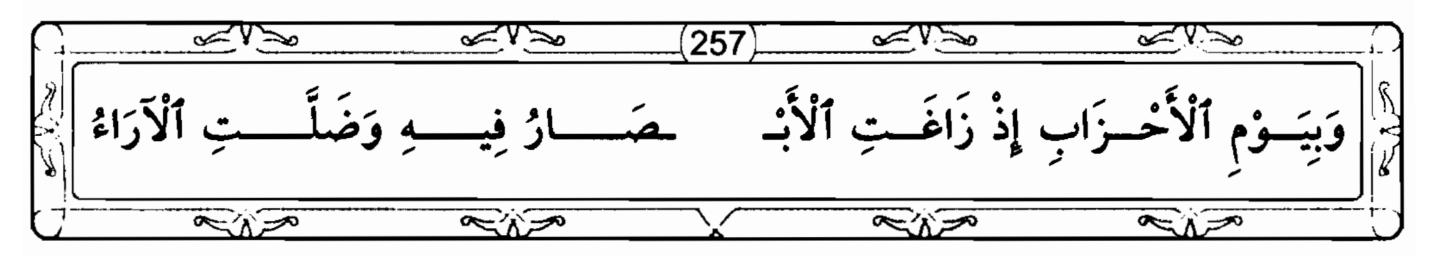
---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٦٦) ، وابن ماجه (٣٤٥٣) ، وغيرهما .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (٣/ ١٩٠) ، و« طبقات ابن سعد » (٢/ ٥٧) ، و« عيون الأثر »

=

ولكون القاهر لهم مجرد الرعب كان ما بقي من أموالهم له صلى الله عليه وسلم ، فقسمه بين المهاجرين ؛ ليرفع مؤونتهم عن الأنصار .



(و) خدعوا أيضاً ـ أي : بنو قريظة ـ منهم (بيوم الأحزاب إذ زاغت الأبصار) منهم (فيه وضلت الآراء) وذلك أن الأحزاب لما أقبلوا ونزلوا حوالي المدينة ، وخرج صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، فجعلوا ظهورهم إلىٰ سَلْع ، والخندق بينه وبين القوم . . خرج عدو الله حيي بن أخطب حتىٰ أتىٰ كعباً القرظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، فأغلق كعب دونه باب حصنه ، وقال له : إنك امرؤ مشؤوم ، وإني عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، فإني لم أر منه إلا وفاء وصدقاً ، فقال : ويلك افتح ، ولم يزل به حتىٰ فتح ، فقال : يا كعب ؛ جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش ، أنزلتهم بمجتمع الأسيال ، ومن دونه غطفان ، وقد عاهدوني علىٰ أن لا يرجعوا حتىٰ يستأصلوا محمداً ومن معه ، ولم يزل به حتىٰ نقض عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغه ذلك ، فعظم البلاء واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتىٰ ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم أن ظهر النفاق في بعض المنافقين ، وأنزل الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ . . . ﴾ الآيات ، وقال رجال ممن معه : ﴿ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ ثم وقع ما مر من أن الله تعالىٰ خذل الأحزاب ، وبدد شملهم ، وجعل الدائرة عليهم ، والغلبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وأهلك بني قريظة عن آخرهم كما مر .

وبما تقرر علم أن في كلام الناظم في هـٰذا البيت والذي قبله تلميحاً من وجوه عديدة .

=

(٢/ ٦٦) ، و« البداية والنهاية » (٤/ ٤٥٥) .

(258)

وَتَعَـــدَّوْا إِلَـــى ٱلنَّبِـــيِّ حُـــدُوداً   كَـــانَ فِيهَـــا عَلَيْهِـــمُ ٱلْعَـــدْوَاءُ

(وتعدوا) ظاهر سياقه : أن الضمير للنصارىٰ واليهود والمنافقين ، ويجوز عوده لمطلق الكفرة الشامل لكفار العرب وغيرهم ؛ أي : تجاوزوا حتىٰ وصل إيذاؤهم (إلى النبي) صلى الله عليه وسلم (حدوداً) حدها الله تعالىٰ لهم ، ومنعهم من مجاوزتها ، فلم يقفوا عندها ، فلذلك (كان فيها) أي : في مجاوزتها (عليهم) أحد الظرفين حال ، والآخر خبر (العدواء) أي : بعدهم عن النجاة ، ووقوعهم في الهلاك الأبدي ، وفي هـٰذا تلميح إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

وبين (تعدوا) و(العدواء) جناس شبه الاشتقاق ، وهو أو شبهه بين (نهتهم) و(انتهت) ، و(البذيء) و(البذاء) ، و(الخيل) و(الخيلاء) ، وكذا (عفا) و(عَفْـو) ، و(سـواه) و(سـواء) ، و(أحجمـت) و(الحَجـون) ، و(أحلـم) و(الحليم) الآتيات .

(259)

وَنَهَتْهُــمْ وَمَــا ٱنْتَهَــتْ عَنْــهُ قَــوْمٌ   فَـــأُبِيــدَ ٱلْأَمَّـــارُ وَٱلنَّهَّـــاءُ

(ونهتهم) أي : أولـٰئك المعتدين قوم منهم عن استمرارهم علىٰ ما هم عليه من مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم وإيذائه قائلين لهم : إنه لرسول الله حقاً (وما انتهت عنه) أي : عن مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم وإيذائه (قوم) بل استمروا علىٰ ما هم عليه من إيذائه والأمر به (فـ) بسبب ذلك (أبيد) أي : أهلك (الأمار) منهم بإيذائه صلى الله عليه وسلم (والنهاء) عن اتباعه ؛ لبقاء كل من الفريقين علىٰ ضلاله ، ومر أن عتبة بن ربيعة لما اشتد إيذاء قريش له صلى الله عليه وسلم. . ذهب إليه لينهاه ، فقرأ عليه (فصلت) فرجع إلىٰ قومه ومدح القرآن ، وأمرهم أن يخلوا بينه وبين ما هو فيه ، وبين لهم أن القرآن ليس بسحر ولا شعر ولا كِهانة ، وأنه صلى الله عليه وسلم ليس به جنون ، وأنه ليكونن لقوله نبأ ، فقالوا له : سحرك محمد بلسانه ، فقال :

افعلوا ما بدا لكم ، فلم يزدهم ذلك إلا طغياناً وإيذاء له بالقول والفعل ، وقتل عتبة يوم بدر مشركاً .

وبين (الأمار) و(النهاء) جناس الطباق ، كـ (نهتهم) و(ما انتهت) ، وكـ (الغدو) و(العشاء) ، و(القطع) و(الوصل) ، و(التقريب) و(الإقصاء) ، و(الملام) و(الإطراء) ، و(التباين) و(الوفاء) الآتيات .

(260)

وَتَعَاطَوْا فِي أَحْمَدٍ مُنْكَرَ الْقَوْ لِ وَنُطْقُ الْأَرَاذِلِ الْعَوْرَاءُ

(وتعاطوا في أحمد) نبينا صلى الله عليه وسلم ، وخصه بالذكر ؛ لأنه لم يسم به أحد قبله ، كما رواه مسلم ، وأما محمد . . فسمي به قبله خمسة عشر نفساً ، كما بينه الحافظ العسقلاني رحمه الله تعالىٰ[(١)] .

(منكر القول) أي : القول المنكر الذي ينكره سامعه ، بل المتلفظ به ؛ لعلمه بقبحه وفساده ، وأن الحامل له عليه إنما هو محض عناد أو حسد ، فقالوا مرة : ساحر، ومرة: كاهن، ومرة: مجنون ، كما سبق ذلك مبسوطاً في بيان إعجاز القرآن .

وطاف صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر وعثمان رضي الله تعالىٰ عنهما ، فلما مر بأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف . . أسمعوه بعض ما يكره ، ثم أراد أبو جهل الأخذ بمجامع ثوبه صلى الله عليه وسلم ، فدفعه عثمان رضي الله عنه ، فوقع على استه ، ودفع أبو بكر رضي الله عنه أميةَ ، والنبي صلى الله عليه وسلم عقبةَ ، ثم قال : « وَٱللهِ لاَ تَنْتَهُونَ حَتَّىٰ يَحِلَّ بِكُمْ عِقَابُهُ عَاجِلاً » فما منهم إلا من أخذته رعدة ، وجعل صلى الله عليه وسلم يقول لهم : « بِئْسَ ٱلْقَوْمُ أَنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ » ثم قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم : « أَبْشِرُوا ، فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ مُظْهِرٌ دِينَهُ ، وَمُتِمٌّ كَلِمَتَهُ ، وَنَاصِرٌ نَبِيَّهُ ، إِنَّ هَؤُلاَءِ ٱلَّذِينَ تَرَوْنَ مِمَّا يَذْبَحُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ عَاجِلاً » قال عثمان رضي الله عنه : فوالله لقد رأيتهم ذبحهم الله تعالىٰ بأيدينا[(٢)] .

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٥٦) .
(٢) أخرجه الضياء في « المختارة » (٣٨٢) .

ومن إيذاء المنافقين قولهم يوم الخندق : محمد يعد أصحابه أن ينفق كنوز قيصر وكسرىٰ وأحدنا اليوم لا يأمن علىٰ نفسه أن يذهب إلى الغائط[١] ، وقد حقق الله تعالىٰ ما قاله نبيه صلى الله عليه وسلم ، فملك الله المسلمين كنوز كسرىٰ وقيصر في زمن عمر وعثمان رضي الله تعالىٰ عنهما .

ثم ذيل بجملة مشتملة علىٰ معنىً ما قبلها ، جارية مجرى الأمثال ، فليس تتميماً خلافاً للشارح ؛ لأنه المأتي به لمجرد المبالغة والتأكيد ، ولا تكميلاً ؛ لأنه المأتي به لدفع الإيهام .

نعم ؛ في ذلك اضطراب بين أهل البديع . . فقال : (ونطق) أي : منطوق (الأراذل) أي : الأسفال الأخساء الذين لا مروءة لهم ولا عقل . . الكلمة (العوراء) أي : القبيحة الساقطة ، أي : شأنهم النطق بالفحش ، وهـٰؤلاء كذلك ، كيف و

(261)

كُلُّ رِجْسٍ يَزِيدُهُ ٱلْخُلُقُ ٱلسُّو ءُ سَفَاهاً وَٱلْمِلَّةُ ٱلْعَوْجَاءُ

(كل رجس) أي : قذر وغضب قائم بهم (يزيده) ما جبلوا عليه وهو (الخلق السوء) ـ بفتح السين وضمها ـ أي : القبيح (سفاهاً) ـ بفتح السين ـ من : (سفه) بالضم (سفاهاً) و(سفاهة) ، ومصدر المكسور[٢] (سفهاً) ، وهو : ضد الحلم ، وسببه : خفة العقل وطيشه (و) يزيده سفاهة أيضاً وبعداً عن الخير (الملة) أي : الشريعة ، سميت بذلك ؛ لأنها تملىٰ وتكتب (العوجاء) أي : الباطلة ، شبهها بطريق عوجاء لا تهدي سالكها إلىٰ مطلوبه ، بل يتيه ويضل فيها ، علىٰ سبيل الاستعارة المكنية ، ثم أثبت لها العوج تخييلاً ، وأولـٰئك الأراذل اجتمع فيهم الوصفان : الخلق السوء ، والتمسك بالملة الباطلة ، فتضاعفت سفاهتهم .

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ٣١) .
(٢) أي : سفه بكسر الفاء .

(262)

فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْقَوْ	مِ وَمَا سَاقَ لِلْبَذِيِّ ٱلْبَذَاءُ

(فـ) بسبب ازديادهم من السفاهة والجهل (انظروا) أيها العقلاء (كيف) هي وما بعدها سدت مسد مفعولي (انظروا) ، وأما قول الشارح : (كيف) في موضع المفعول الثاني ، و(عاقبة القوم) المفعول الأول.. فهو إنما يصح بفرض زيادة (كان) ، ولا محوج لذلك كما عرف مما قررته (كان) تامة (عاقبة) أي : مآل ومصير (القوم) المعروفين بما ذكر ، وهي خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ . . . ﴾ الآية ، ففيه اقتباس (و) انظروا (ما) هو بصلته سد مسد المفعولين أيضاً ، وعجيب من الشارح حيث لم يبين إعرابه مع احتمال وجه آخر فيه غير ما ذكر ، لـٰكن ما ذكرته أولىٰ كما هو واضح (ساق للبذي) اللسان كهـٰؤلاء (البذاء) ـ بالمعجمة ـ أي : بذاؤهم ؛ أي : فحشهم ، وهو تخلفهم عن عز الدنيا وسعادة الآخرة .

وفيه تشبيه (البذي) بدابة مسوقة ، و(البذاء) بسائقها ، وهما استعارتان مكنيتان ، وإثبات السوق لـ(البذاء) علىٰ جهة كونه فاعله ، ولـ(البذي) علىٰ جهة كونه واقعاً عليه.. تخييل .

(263)

وَجَدَ ٱلسَّبَّ فِيهِ سَمّاً وَلَمْ يَدْ	رِ إِذِ ٱلْمِيمُ فِي مَوَاضِعَ بَاءُ

(وجد) البذي (السب) أي : الشتم (فيه) أي : النبي صلى الله عليه وسلم (سَماً) أي : مهلكاً وأي مهلك! وبين (السب) و(السم) الجناس المضارع (ولم يدر) ذلك البذي أن سبه هو عين السم القاتل لوقته لفظاً (إذ الميم في مواضع) حال من الخبر ، وهو (باء) كقولهم في بيد : ميد ، وهي لغة مازن ، قال المازني : دخلت على الخليفة الواثق ، فقال لي : ممن الرجل ؟ قلت : من بني مازن ، قال : أي الموازن ، مازن تميم ، أم مازن قيس ، أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلمني بكلام قومي ، وقال : با اسبك ؟ يريد : ما اسمك ؟ وهي لغة قومي ، يبدلون

الميم باء ، والباء ميماً ، قال : فكرهت أن أجيبه علىٰ لغة قومي ؛ لئلا أواجهه بالمكر ، فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ؛ ففطن لما قصدت وأعجب به ؛ أي : وفيه أيضاً سب لنفسه ، ثم قال لي : اجلس فاطبئن ، يريد : فاطمئن[1] .

وقال ابن جني في « سر الصناعة » : (أخبرنا أبو علي بإسناده إلى الأصمعي قال : كان أبو سوار الغنوي يقول : با اسبك ؟ يريد : ما اسمك ؟ فهـٰذه الباء بدل من الميم) اهـ[2]

والمعنىٰ : لأنه أهلكهم كما يهلك السَّم ، بل هو أبلغ من السَّم ؛ لأن إهلاك السَّم في الدنيا ، وله أدوية تزيله ، وإهلاك السب في الدنيا والآخرة ، ولا دواء له .

(264)

كَـانَ مِـنْ فِيـهِ قَتْلُـهُ بِيَـدَيْـهِ فَهْـوَ فِـي سُـوءِ فِعْلِـهِ ٱلـزَّبَّـاءُ

(كان من) أجل ما صدر من (فيه) أي : فم البذي ، حال من الضمير المستتر في الخبر ، وهو (بيديه) ، (قتله) لنفسه (بيديه) وقتل الإنسان لنفسه أشد من قتل غيره له (فـ) بسبب ذلك (هو) أي : البذي القاتل لنفسه المذكور (في) الاتصاف بما وقع منه (سوء فعله) بنفسه المرأة المشهورة بالملك القاهر في العرب التي هي (الزباء) ـ بفتح الزاي وتشديد الموحدة ـ أي : شبهها ، فإنها تناولت خاتماً مسموماً ، فمصته حتىٰ قتلت نفسها ، وقالت : بيدي لا بِيَدك يا عمرو ، فكان قتلها لنفسها بسبب ما تناولته بفمها من يدها لما ظفر بها عمرو ابن أخت جَذِيمة الأبرش ؛ لما كان بينهما ، خوفاً من تعذيبه إياها .

وحاصل القصة ـ وهي طويلة ذكرها الإخباريون وابن هشام وابن الجوزي وغيرهم ـ : أن جَذِيمة بن عامر التنوخي ، وقيل : الأزدي ، وهو أول من ساس العرب ، وأول من اتخذت له الشموع وأوقدت بين يديه ، وأول من اجتمع له الملك بأرض العراق من

---

(١) انظر القصة بتمامها في « وفيات الأعيان » لابن خلكان (١/ ٢٨٤) ، و« سير أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي (١٠/ ٣١١) ، و« شذرات الذهب » لابن العماد (٣/ ٢١٧) .

(٢) سر صناعة الإعراب (١/ ١١٩) .

قبل أزدشير ، وكان أبرص ، فكنوا عن ذلك بالأبرش والوضَّاح ، قيل : كان لا يأنف من الأبرص ، لأن في العرب من يفتخر بذلك. . كان له أخت أحبها نديمه عدي بن نصر الإيادي ، فوافقها علىٰ أن ينكحها منه إذا غلب السكر عليه ، فسأله حينئذ في ذلك ، فأنكحه إياها ، وأشهد عليه ، فدخل بها ، فلما أصبح وعلم بذلك. . تغيب عدي ، فلم يعرف له أثر ، فولدت له ولداً سمي عمراً ، فأحبه جَذِيمة ، ثم اختطفته الجن ، ثم ردوه ، فزاد حظاً عند خاله .

وكان أبو الزَّبَّاء ـ وسميت بذلك لكثرة شعرها ؛ إذ كان يجللها ويسحب من ورائها ـ ملك ما بين الفرس والروم ، فغزاه جَذِيمة الأبرش وقتله قبل بعثة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وطردها ، فلحقت بالروم ، وجمعت الجيوش ، واستخلصت من جَذِيمة ملك أبيها ، وابتنت لها بجانب الفرات قصراً حصيناً ، فحدثت جَذِيمة نفسه بخطبتها ؛ لأنها بكر وأجمل أهل عصرها ، وطمع في ملكها ، فأرسل إليها ، فأظهرت له غاية الفرح والسرور ، وأرسلت له بهدية سنية ، فاستشار في المسير إليها ، فبالغ قصير بن سعد في منعه ، وفي أن ذلك مكيدة منها ، فلم يصغ إليه وسار إليها ، فلما قرب منها. . أعاد الاستشارة ، فأعاد قصير رأيه ، فلم يصغ إليه وسار ، وكانت أمرت عسكرها إذا وصل أن يحيطوا به ويمنعوا من معه ، ففعلوا ، وقصير معه ، فلما رأىٰ ذلك. . ركب فرس جَذِيمة التي تسبق الريح بجريها ، وفر بها ، ثم أُدخل جَذِيمة عليها وليس معها إلا جواري ، وكانت ربَّت شعر عانتها حولاً كاملاً ، فكشفتها له وقالت : أمتاع عروس ترىٰ ؟ فقال : بل متاعَ أمة بظراء ، ثم قالت : خذن بيد سيدكن وبعل مولاتكن فأجلسنه على النطع[1] ، ففعلن ، ثم أمرتهن بفصد عروق يديه ، ففعلن ، ووضع له طست ، فنزف دمه فيه إلىٰ أن قضىٰ نحبه ، فأمرت به فدفن .

ثم أقبل قصير علىٰ عمرو وأخبره الخبر ، وأمره أن يأخذ بثأره منها ، فأفهمه أنه لا قدرة له عليها ، فقال له : اجدع أنفي وأذني ، واضرب ظهري حتىٰ يؤثر فيَّ ، ففعل به ذلك ، وقيل : أبىٰ ، ففعل قصير بنفسه ذلك ، ثم ذهب إليها مستجيراً بها من عمرو ، فراجت عليها حيلته ، وأكرمت منزله ، ثم قال لها : إن لي بالعراق مالاً كثيراً

---

(١) النطع ـ بكسر النون وفتحها ـ هو : بساط من الجلد .

وذخائر ، فسفريني لآتي به ، ففعلت ، فرجع إليها بأموال هائلة ، ثم عاد إلى العراق ثانياً ، فرجع إليها بأكثر من الأول ، فازدادت مكانته عندها ، ولم يزل يتلطف حتىٰ عرف سرداباً جعلته تحت الفرات ، تصعد منه إلىٰ قصرها ، وبابه من جانب الفرات الآخر ، ثم خرج ثالثاً ، فرجع بأكثر من ذلك كله ، فزادت مكانته عندها ، وعولت عليه في أمورها ، فأظهرت له أنها تريد غزواً ، وأنه يذهب ويأتيها بالعبيد والعُدَد ، فقال لها : إن لي في بلاد عمرو ألف بعير وخزانة مال وسلاح ، فأعطته ما أراد من المال ، وقالت : الملك يحسن لمثلك ، فعاد إلىٰ عمرو وقال : أصبت الفرصة منها ، فقال له عمرو : مر بما شئت ، فقال : الرجال والأموال ، فعمد إلىٰ ألفي رجل من فُتَّاك قومه ، فحملهم علىٰ ألف بعير ، علىٰ كل بعير اثنان في غرارتين سوداوين ، وعمرو منهم ، وساق الخيل والكراع والسلاح ، وكان يكمن النهار ويسافر الليل ، ثم دخل عليها ، فقال : انظري إلى العير ، فنظرت فقالت : [من الرجز]

مَـــا لِلْجِمَـــالِ مَشْيُهَـــا وَئِيـــدَا ... أَجَنْـــدَلاً يَحْمِلْـــنَ أَمْ حَـــدِيـــدَا

أَمِ ٱلـــرِّجَـــالَ جُثَّمـــاً قُعُـــودَا ... أَمِ ٱلـــرِّجَـــالَ فِـــي الْغِـــرَارِ ٱلسُّـــودَا

ولما وصلت العير المدينة . . طعن بواب جولقاً بمخصرة بيده ، فضرط من إصابته ، فأراد الصياح ، فضربه قصير بسيفه فقتله ، ثم حلت الجواليق ، فخرج الرجال ، ودخل عمرو باب السرداب ليصعد إلى الزَّبَّاء ، فلما رأته . . مصت خاتماً في يدها مسموماً ، وقالت : بيدي لا بِيَد عمرو ، فماتت ، وقيل : إن عمراً قتلها بسيفه ، واحتوىٰ علىٰ بلادها[١] .

(265)

أَوْ هُوَ ٱلنَّحْلُ قَرْصُهَا يَجْلِبُ ٱلْحَتْـ ... ـــفَ إِلَيْهَـــا وَمَـــا لَـــهُ إِنْكَـــاءُ

(أو هو) في سوء فعله (النحل) أي : شبهه ، ثم بين وجه الشبه فقال : (قرصها) أي : لسعها لغيرها (يجلب الحتف) أي : الموت (إليها) عقب لسعها

---

(١) انظر « تاريخ الطبري » (١/ ٦١٣) ، و« الكامل » لابن الأثير (١/ ٣١٣) ، و« المنتظم » لابن الجوزي (١/ ٣٣٥) .

(و) الحال أن لسعها (ما) نافية (له إنكاء) أي : قتل ولا جرح ، بل ولا دم ولا تأثير قوي في الملسوع ، فكل منهما قتل نفسه بما خرج من فيه مع أنه لا مصلحة تعود عليهما مما كان سبباً لهلاكهما .

(266)

صَـرَعَـتْ قَـوْمَـهُ حَبَـائِـلُ بَغْـيٍ مَـدَّهَـا ٱلْمَكْـرُ مِنْهُـمُ وَٱلـدَّهَـاءُ

(صرعت قومه) صلى الله عليه وسلم الذين أرسله الله إليهم فلم يؤمنوا به ؛ أي : ألقتهم قتلىٰ بين يديه (حبائل) جمع (حبالة) ، وهي : التي يصاد بها ، وناصبها يسمى الحابل (بغي) عليه صلى الله عليه وسلم (مدها) أي : تلك الحبائل إليه (المكر) حال كونه (منهم) وهو : إبطان السوء مع إظهار خلافه (والدهاء) هو ـ بالكسر والمد ـ : جودة الرأي ، وفي كلامه استعارة بالكناية من حيث تشبيه القوم الذين حاربوه صرعىٰ بين يديه صلى الله عليه وسلم بصيود مصروعة بين يدي الصياد ، ومن حيث تشبيه البغي بشبكة الصياد ، ومن حيث تشبيه المكر والدهاء بالصائد كما تقتضيه نسبة المد إليهما ، أو بحبال الشبكة التي يمدها الصائد حتىٰ يقع فيها الصيد ، وتخييلية بإثبات المد اللازم للمشبه به ، وترشيحية بذكر الصرع اللائق بالمشبه .

وبما تقرر علم أن في كلامه ثلاث استعارات مكنيات :

الأولىٰ : تشبيه القوم بالصيد ، وجرد لها بذكر الصرع والمكر والدهاء لهم ، ورشح أو خيل لها بذكر الحبائل والمد .

والثانية : تشبيه البغي بالشبكة ، وخيل لها بإثبات الحبائل له ، ورشح بذكر المد ، وجرد بذكر الصرع الملائم للبغي .

والثالثة : تشبيه المكر والدهاء بالصائد علىٰ ما مر ، وخيل بإثبات المد ، ورشح بذكر الحبائل ، وجرد بذكر الصرع هنا أيضاً ؛ إذ لا مانع من اشتراك مكنيتين أو أكثر في كون الشيء الواحد تخييلاً أو ترشيحاً أو تجريداً للكل ، اعتباراً لكل علىٰ حدتها بما يناسبها .

(267)

فَأَتَتْهُمْ خَيْلٌ إِلَى ٱلْحَرْبِ تَخْتَا لُ وَلِلْخَيْلِ فِي ٱلْوَغَىٰ خُيَلَاءُ

(فـ) بسبب مكرهم ودهائهم (أتتهم) من قبله صلى الله عليه وسلم ما أوجب عود تلك الحبائل إليهم ، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فلا يمكرون به مكراً ، ولا يكيدون به كيداً . . إلا عاد عليهم ، وكيف لا وكلما تحزبوا لحربه ، وحاولوا إخفاء أمره . . بدد الله جمعهم ، وقتل سادتهم ، وأظهر أمره عليهم ، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فمن ذلك أنهم أتتهم (خيل إلى الحرب تختال) أي : يتبختر بها راكبوها تيهاً وعجباً (وللخيل) النفائس وعليها الشجعان (في الوغىٰ) أي : الحرب ، متعلق بقوله : (خيلاء) أي : كبر وترفع عن الوقوع في وهدة[1] ، أو الاصطدام بنحو شجرة ، وهـٰذا تذييل .

(268)

قَصَدَتْ فِيهِمُ ٱلْقَنَا فَقَوَافِي ٱلطَّـ ـعْنِ مِنْهَا مَا شَانَهَا ٱلْإِيْطَاءُ

(قصدت فيهم) أي : في أبدانهم (القنا) أي : الرماح ، جمع قناة ، وفي هـٰذه الاستعارة المشهورة في قوله تعالىٰ : ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[2] ولا ينافي ذلك عد كثيرين له من أنواع المجاز ، باعتبار أن فيه إضافة الفعل إلىٰ ما لا يصح منه ، وهو الإرادة التي هي من صفات الحي ؛ لأن ذلك مبني علىٰ تشبيه ميله للوقوع بإرادته له ، والاستعارة مجاز علاقته المشابهة ، ومن ثم قيل : زوج المجاز بالتشبيه فتولد بينهما الاستعارة ، وهل هي مجاز لغوي أو عقلي ؟ خلاف ، والأصح : الأول ؛ لأنها موضوعة للمشبه به ، لا للمشبه ولا لأعم منهما ، فـ (أسد) في : رأيت أسداً يرمي . . موضوع للسبع ، لا للشجاع ولا للحيوان الجريء (فـ) بسبب قصدها لهم كانت (قوافي الطعن) أي : الطعنات المشبهة بالقوافي في تتابعها حال كون ذلك

---

(١) الوهدة : الأرض المنخفضة .

(٢) وهي : الاستعارة التصريحية التخييلية .

الطعن (منها) أي : تلك الرماح (ما شانها) أي : عابها ، وفي نسخ : (شانه) أي : الطعن (الإيطاء) لأنه لم يوجد فيها ؛ إذ السالبة تصدق بنفي الموضوع .

وهو : تكرير القافية المتحدة لفظاً ومعنىً قبل عدد مختلف فيه عندهم[1] ، المشبه الطعناتِ الواردة علىٰ محل واحد من غير أن تؤثر التالية شيئاً لم تؤثره المتلوة ، وهو معيب في المشبه به ؛ لأنه يدل علىٰ عِي الشاعر وتقصيره ، والمشبه ؛ لأنه يدل علىٰ قصر ساعد الشجاع وعدم تمكنه وتحريره ، وهـٰذا الحل أولىٰ مما سلكه الشارح كما يعلم بتأمله .

نعم ؛ قوله : (ولكثرة ما عملت رماحهم في أجساد عدوهم تأتي الطعنة الثانية مكان الأولىٰ حتىٰ كأنهما واحدة لسرعة الطعن) . . يقرب حله .

(269)

وَأَثَـارَتْ بِـأَرْضِ مَكَّـةَ نَقْعـاً ظُـنَّ أَنَّ ٱلْغُـدُوَّ مِنْهَـا عِشَـاءُ

(وأثارت) أي : رفعت تلك الخيل لما ركضت في مَهامهِ الحرب (بأرض) العدو في الأقطار الحجازية وغيرها حتىٰ في (مكة) في غزوة الفتح لما ازدحمت قرب دخولها (نقعاً) أي : غباراً أظلم الجو منه حتىٰ (ظن أن الغدو) أي : وقته ، وهو : ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس (منها) أي : من أجل تلك الخيول التي أثارت ذلك النقع ، أو من أجل تلك الغَبَرة المفهومة من الغبار الذي أثارته تلك الخيول (عشاء) أي : وقتها ، وهو : إذا غاب الشفق الأحمر ، وقضية كلام الشارح ، بل صريحه أن المراد : العشاء بفتح العين ، وفسره بأنه ما بين الغروب والعتمة ، وفيه نظر ، وما ذكرته أولىٰ وأسلم مما تكلفه .

وفي قوله : (وأثارت . . . نقعاً) تلميح إلىٰ قوله تعالىٰ في (سورة العاديات) : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ .

وخلاصةُ شيء من هـٰذه الغزوة التي حصل بها ذلك الفتح الذي هو أعظم فتوح الإسلام ؛ لأن الله تعالىٰ أعز به دينه ورسوله وجنده وحرمه وبلده وبيته ، واستبشر به

---

(١) الراجح أنه فيما دون سبعة أبيات .

أهل السماء ، وضربت أطناب عزه علىٰ مناكب الجوزاء ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأشرق به وجه الدهر ضياء وابتهاجاً :

وسببها : أنه وقع الصلح بالحديبية : أنه صلى الله عليه وسلم لا يتعرض لمن دخل في عقد قريش ، وأنهم لا يتعرضون لمن دخل في عقده ، وكان ممن دخل في عقده خزاعة ، وفي عقدهم بنو بكر ، وكانا متعاديين ، فخرج بعض بني بكر وبني خزاعة فاقتتلوا ، فأمد قريش بني بكر ، فخرج أربعون من خزاعة إليه صلى الله عليه وسلم يخبرونه ويستنصرونه ، فقام صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه ويقول : « لاَ نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْكُمْ بِمَا أَنْصُرُ بِهِ نَفْسِي » ولما أحس أبو سفيان بمجيئهم . . جاء إلى المدينة ليجدد العهد ويزيد في المدة ، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم ، فرجع ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف ، ثم لحقه ألفان لليلتين من رمضان سنة ثمان ، فلما كان بقُدَيد . . عقد الألوية والرايات ، ودفعها إلى القبائل ، ثم لما نزل مرَّ الظهران . . أمرهم أن يوقدوا عشرة آلاف نار ، فوافاهم أبو سفيان أرسلته قريش ليأخذ لهم أماناً ؛ لعلمهم بتجهيزه صلى الله عليه وسلم إليهم ، فلما رأىٰ تلك النيران . . أبهره أمرها ، فأدركه الحرس ، فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم بعد تمنع وتهديد ، فسأل العباس رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم أن يظهر له فخراً في قومه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ . . فَهُوَ آمِنٌ » وقال للعباس : « ٱحْبِسْهُ عِنْدَ خَطَمِ ٱلْجَبَلِ حَتَّىٰ يَنْظُرَ إِلَىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ » وفي رواية : « ٱحْبِسْهُ عِنْدَ مَضِيقِ ٱلْوَادِي حَتَّىٰ تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ ٱللهِ فَيَرَاهَا » فحبسه ، فمرت به القبائل كتيبة كتيبة وهو يسأل عن كلٍّ ، فيبينها له العباس ، فيقول : ما لي ولها ؟ ولما مرت به كتيبة الأنصار وصاحب رايتها سعد بن عبادة . . قال له سعد : يا أبا سفيان ؛ اليوم يوم الملحمة ـ أي : الحرب ـ اليوم تستحل الحرمة ـ أي : الكعبة ـ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره علىٰ لسان علي كرم الله وجهه بدفع الراية لابنه قيس ، وأخبر أبا سفيان أنه لم يأمر بقتل قريش ، وأن اليوم يوم المرحمة ، وأن الله يعز قريشاً ، وخشي سعد أن ابنه يقع منه شيء أيضاً ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فدفعها للزبير ، وكانت راية النبي صلى الله عليه وسلم في كتيبة المهاجرين مع الزبير أيضاً ، فبعثه ومعه المهاجرون وخيلهم ، وأمره أن يدخل من أعلىٰ مكة ، وأن يغرز

رايته بالحَجون ، ولا يبرح حتىٰ يأتيه . كذا ذكره موسىٰ بن عقبة وغيره .

وقول الشارح : (إنه صلى الله عليه وسلم أمر الزبير أن يدخل مكة من كدىً بالضم) تصحيف ، وصوابه : من كداء بالفتح والمد ، وقوله : (وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء بالفتح) لم أر في الروايات المعتمدة ما يشهد له ، وإنما الذي صح : أنه صلى الله عليه وسلم دخل من أعلاها ، وخالد من أسفلها ، ورواية عكس ذلك ضعيفة لا يعول عليها ، ولعل الشارح أخذ من الرواية الآتية عن مسلم ، وأنت خبير بأنه ليس فيها نص بـ (كُدىً) ولا (كَداء) وبعث خالد بن الوليد في قبائل ليدخل من أسفل مكة ، ويغرز رايته عند أدنى البيوت ، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم إلا إن قوتلوا ، ولما دخل خالد من أسفل مكة . . قوتل ، فقاتلهم حتىٰ أدخلهم المسجد من باب الحَزْوَرة ثم كف ، ولما قال له صلى الله عليه وسلم : « لِمَ قَاتَلْتَ وَقَدْ نَهَيْتُكَ ؟ » . . قال : كففت يدي ما استطعت ، فقال : « قَضَاءُ ٱللهِ خَيْرٌ »[1] .

وصح في « مسلم » وغيره : أنه صلى الله عليه وسلم بعث علىٰ أحد المُجَنِّبتين خالد بن الوليد ، وبعث الزبير على الأخرىٰ ، وبعث أبا عبيدة على الذين بغير سلاح ، فقال : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؛ ٱهْتِفْ لِي بِٱلأَنْصَارِ » فهتف بهم فجاؤوا ، فأطافوا به ، فقال لهم : « أَتَرَوْنَ إِلَىٰ أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ ؟ » ثم قال بإحدىٰ يديه على الأخرىٰ : « ٱحْصُدُوهُمْ حَصْداً حَتَّىٰ تُوَافُونِي بِٱلصَّفَا » قال أبو هريرة : فانطلقنا ، فما نشاء أن نقتل أحداً منهم . . إلا قتلناه ، فجاء أبو سفيان فقال : يا رسول الله ؛ أبيحت خضراء قريش ، لا قريش بعد اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ . . فَهُوَ آمِنٌ »[2] ومن هـٰذا أخذ الأكثرون أن مكة فتحت عَنْوة ، ويرد بأنه صلى الله عليه وسلم لم ينص إلا علىٰ أوباشهم الذين من شأنهم الجهل والمبادرة بالقتال في غير محله ، وهـٰذا كقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ . . فَهُوَ آمِنٌ » . . ظاهر في أن الكلام إنما هو فيمن قاتل ؛ ليوافق الروايات الأخرى المقيدة بذلك ، وبهـٰذا يقوىٰ

---

(١) انظر « سيرة ابن هشام » (٤/ ٣٨٩) ، و« الكامل » لابن الأثير (٢/ ١١٥) ، و« المنتظم » (٢/ ٣٩٢) ، و« عيون الأثر » (٢/ ٢١٢) ، و« البداية والنهاية » (٤/ ٦٧٢) .

(٢) مسلم (١٧٨٠) .

ما ذهب إليه إمامنا الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه : أنها فتحت صلحاً ، كما هو قضية التأمين الذي وقع منه صلى الله عليه وسلم لمن دخل دار أبي سفيان ، أو أغلق بابه ، أو دخل المسجد ، ولم يقع قتال من جهة أعلىٰ مكة التي دخل منها صلى الله عليه وسلم ، والعبرة بها لا بغيرها ، علىٰ أن القتال الذي وقع في غيرها إنما كان دفعاً لقتالهم كما مر ، وعلم مما تقرر في القصة : أنه صلى الله عليه وسلم أمر أكثر أصحابه بأن يدخلوا من الحَجُون ، وهو كداء ـ بالفتح والمد ـ وكان معهم في كتيبته الخضراء ؛ لكثرة ما معهم من السلاح ، وهو علىٰ ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرىٰ منهم إلا الحِدَق من الحديد ، فرأىٰ أبو سفيان ما لا قبل له ، فقال للعباس : لقد أصبح ملك ابن أخيك ملكاً عظيماً ، فقال : ويحك ، إنه ليس بملك ، ولـٰكنها نبوة ، قال : نعم ، وأمر صلى الله عليه وسلم بقية أصحابه أن يدخلوا من أسفلها ، وهو كدىً ـ بالضم والقصر ـ ولذا قال :

(270)

أَحْجَمَتْ عِنْدَهُ ٱلْحَجُونُ وَأَكْدَىٰ عِنْدَ إِعْطَائِهِ ٱلْقَلِيلَ كُدَاءُ

(أحجمت) أي : كفت وأمسكت (عنده) أي : عند ذلك النقع الذي حصل بمكة لما اجتمعت فيها جنود الإسلام ـ مع ما هم فيه من كثرة الخيل والسلاح ـ الداخلون من أعلاها وأسفلها (الحجون) ـ بفتح الحاء ـ وهو : الجبل المطل علىٰ مقبرة مكة المسماة بالمعلاة ، وذلك هو كداء ـ بالفتح والمد ـ أي : أن الفرقة التي كانت بالحَجُون وإن أثارت فيه من النقع شيئاً كثيراً . لـٰكنه قليل بالنسبة لما في مكة ، فأمسك عن محاكاة ما بمكة (وأكدىٰ) أصله : قلة الخير ، والمراد هنا : قلة التراب (عند) حال من (كَداء) (إعطائه) أي : كداء ؛ لتقدمه رتبة ، والمصدر مضاف للمفعول ، وفاعل الإعطاء النبي صلى الله عليه وسلم (القليل) من الناس ، مفعول المصدر الثاني (كُداء) ـ بضم الكاف والمد لغة قليلة فيه ـ أي : وقل غبار كداء الذي هو أسفل مكة ؛ لأن الفرقة الداخلين منه الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم له كانوا قليلين .

وعجيب من الشارح حيث لم يبين لهـٰذا الشطر معنىً ملائماً ، مع كونه أوهم ضبط (كداء) بالفتح ، وهو فاسد ؛ لأن المفتوح الحجون السابق في الشطر الأول ، أو

قريب منه ، كما يصرح به كلام أئمتنا في المناسك وغيرهم .

فإن قلت : هـٰذا البيت وإن كان فصيحاً لفظاً ؛ لما فيه من الجناس والمجاز من حيث التعبير بالمحل عن الحال ، والمجاز والاستعارة من حيث إسناد الإحجام والمنع اللذين هما من صفات الحي إلىٰ غيره ، علىٰ حد : ﴿ جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ كما مر بيانه آنفاً . لـٰكنه ركيك معنىً ؛ إذ لا حاصل له ؛ لأن من المعلوم أن ما بمكة من مجموع الفرقتين الداخلتين من أعلىٰ وأسفل ، وأن ما من مجموعهما أكثر مما من كل منهما ، ومثل هـٰذا ليس له كبير جدوىٰ .

قلت : بل فيه معنىً يستفاد وله جدوىٰ ؛ لخفائه ، وهو أن دخوله صلى الله عليه وسلم وأكثر أصحابه كان من الحجون ، والبقية من كُدىً ، ووجه أخذه من النظم واضح ، فإنه خص إعطاء القليل بكُدىً ، فدل علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم والكثيرين دخلوا من الحجون ، ويصح أن يراد نفس البقعتين مبالغة .

وعليه فيصح أن يكون (أحجمت) معطوفاً علىٰ (أثارت) بحذف حرف العطف ، ففيها ضمير هو الفاعل يعود على الخيل ، وأن (أكدىٰ) مبني للمفعول ، والتقدير : أن من قوة تلك الخيول أنها قهرتهم حتىٰ أماكنهم ، فكفت الحجون ومنعت كُدىً عن أن ينتصرا لأهلهما لو تصور منهما ذلك ، لا سيما وخيل كُدىً كانت قليلة ، ويصح بقاء النظم علىٰ إعرابه الأول ، وهو أن (الحجون) فاعل ، وأن (أكدىٰ) مبني للفاعل ، وأن المراد : أنه صلى الله عليه وسلم نصر عليهم نصراً باهراً حتىٰ إن بقاعهم ساعدته عليهم ، والتقدير : أن الحجون وكُدىً منعاهم عن أن يمدوا أعينهم إليه صلى الله عليه وسلم ، أو إلىٰ أحد من عسكره، وفي هـٰذا وما قبله من المبالغة ما لا يخفىٰ عظيم وقعه عند الفصحاء .

وبين (الحجون) و(كُداء) جناس معنوي .

(271)

وَدَهَــتْ أَوْجُهــاً بِهَــا وَبُيُــوتــاً   مَــلَّ مِنْهَــا ٱلْإِكْفَــاءُ وَٱلْإِقْــوَاءُ

(ودهت) أي : أهلكت تلك الخيول والخيالة (أوجهاً) من الناس (بها) ـ أي : بمكة ـ قاتلت ، كما مر ـ في الرواية المصرحة بذلك ، المحمولة عليها الرواية

المطلقة ، وكذا جماعة لم يقاتلوا ، لـٰكن كانوا يبالغون في إيذائه صلى الله عليه وسلم وإظهار هجوه ، فأمر بقتلهم وإن كانوا معلقين بأستار الكعبة ، وعد منهم ستة رجال ، وأربع نسوة (و) أهلكت (بيوتاً) كان أهل مكة يرجعون إلىٰ أهلها (مل) أي : سئم (منها الإكفاء) وهو في الشعر : المخالفة بين هجاء أو آخره ، كأن يكون بعضها ميماً والآخر باء ، وهنا : انكفاء تلك الوجوه على الناس لعلها تحميها أو تجيرها (والإقواء) أصله : من قولهم : منزل قواء ؛ أي : لا أنيس به ، وأقوت الدار وقوت ؛ أي : خلت ، ثم استعمل في الشعر مراداً به : أن تختلف حركات إعراب الروي .

وبما قررت به كلامه هنا وفيما قبله في : (قصدت فيهم القنا . . .) إلخ . . يعلم أنه استعار (القوافي) للطعن المتتابع ، ورشح بذكر (الإيطاء) ولمح بذكر (البيوت) ترشيحاً لبيوت الشعر المرشح بها وبذكر ما يختص بها من (الإقواء) و(الإكفاء) إلى الاستعارة الأولىٰ ، وفيهما تورية ولف ونشر مشوش[1] ؛ لأنه رجع (الإقواء) لـ(البيوت) باعتبار لمح بيوت الشعر ، و(الإكفاء) لـ(الوجوه) ؛ لأن الرأس إذا قطع . . انكفأت الوجوه وتحولت ، واستعمل (الإقواء) في الخلو من حيث بيت السكن ، وفي تغيير القافية من حيث بيت الشعر ، وكذلك (الإكفاء) من حيث تغيير حركة الروي .

(272)

فَـدَعَـوْا أَحْلَـمَ ٱلْبَـرِيَّـةِ وَٱلْعَفْـ ـوُ جَـوَابُ ٱلْحَلِيـمِ وَٱلْإِغْضَـاءُ

(فـ) بسبب ما حصل لأهل مكة من الخوف الذي ظنوا أنه مهلك لهم عن آخرهم (دعوا) محمداً صلى الله عليه وسلم (أحلم البرية) ـ بالهمز في الأصل ـ أي : الخلق ؛ أي : طلبوا منه يوم الفتح أن يعفو عنهم ، وأن لا يعاقبهم بما مضىٰ منهم مما كانوا أوصلوه إليه من الإيذاء الذي لا يتحمله غيره صلى الله عليه وسلم ، فأجابهم إلى

(١) الظاهر : أنه من اللف والنشر المرتب ؛ لأن لفظ (الإكفاء) مقدم علىٰ لفظ (الإقواء) في النظم ، فلعله سبق نظر ، أو اعتمادٌ علىٰ نسخة أخرىٰ من النظم ، والله أعلم .

العفو قائلاً لهم : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ » كما يأتي (والعفو) عمن سأله (جواب الحليم) من : حلم ـ بالكسر ـ إذا ترك الانتقام بحق[1] (والإغضاء) أي : إرخاء الجفون من الحياء .

وفي ذكر (الحِلم) و(العفو) و(الإغضاء) مراعاة النظير .

(273)

نَاشَدُوهُ ٱلْقُرْبَى ٱلَّتِي مِنْ قُرَيْشٍ ‏ ‏ قَطَعَتْهَا ٱلتِّرَاتُ وَٱلشَّحْنَاءُ

(ناشدوه) بدل من (دعوا) (القربىٰ) أي : حلفوه علىٰ أن يصل قرابتهم ويعفو عنهم ، أو بالقربىٰ علىٰ حذف الجار ؛ أي : حلفوه بالقرابة (التي) بينهم وبينه أن يعفو عنهم ، التي وصلت إليه (من) سائر بطون (قريش) وهم ولد النضر بن كنانة أحد أجداده صلى الله عليه وسلم ، حال كون تلك القربىٰ (قطعتها الترات) بفوقيتين جمع ترة ، وهي مصدر (وتر) أي : قتل له قتيل ولم يدرك دمه (والشحناء) أي : التباغض والتحاسد الذي كان بينهم .

(274)

فَعَفَا عَفْوَ قَادِرٍ لَمْ يُنَغِّصْـ ‏ ‏ ـهُ عَلَيْهِمْ بِمَا مَضَىٰ إِغْرَاءُ

(فـ) بسبب تلك المناشدة (عفا) صلَّى الله عليه وسلم عنهم (عفو قادر) لأنه صلى الله عليه وسلم كان يسهل عليه إبادتهم عن آخرهم (لم ينغصه) أي : يكدر ذلك العفو (عليهم بـ) سبب (ما مضىٰ) منهم ، صفة (إغراء) تقدمت عليه فصارت حالاً (إغراء) من : أغريت الكلب بالصيد ؛ أي : حملته على اصطياده ، وهو فاعل (ينغص) أي : لم يكدر عفوه عنهم إغراء سفهائهم وجهلائهم فيما مضىٰ حال كونه منهم حتىٰ بالغوا في إيذائه بما لا يتحمله مخلوق كما تحمله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) قوله رحمه الله : (حلم بالكسر) لعل صوابه : بالضم ؛ لأن قولهم : حلم الجلدُ ـ بالكسر ـ معناه : أصابه الحَلَم ، وهو دود صغير يفسد الجلد ويثقبه ، والله أعلم .

وخلاصة ما أشار إليه الناظم : أنه صلى الله عليه وسلم لما كان الغد من يوم الفتح . . قام خطيباً في الناس ، فحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه ، ومجده بما هو أهله ، ثم قال : « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ؛ إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ ٱللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ، لاَ يَحِلُّ لِامْرِىءٍ يُؤْمِنُ بِٱللهِ تَعَالَىٰ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَماً ، أَوْ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ فِيهَا بِقِتَالِ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم . . فَقُولُوا لَهُ : إِنَّ ٱللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِيَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ـ أي : من الفجر إلى العصر ـ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا ٱلْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِٱلأَمْسِ ، فَلْيُبَلِّغِ ٱلشَّاهِدُ ٱلْغَائِبَ »[1] ثم قال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، ثم قال : « ٱذْهَبُوا فَأَنْتُمُ ٱلطُّلَقَاءُ »[2] أي : من الأسر والاسترقاق ، وفي رواية أنه قال لهم : « أَقُولُ لَكُمْ : كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ »[3] .

وسر هٰذا العفو وهٰذه الوُصلة منه صلى الله عليه وسلم بعد القطع : أنه ناظر إلى الله تعالىٰ دون غيره .

(275)

وَإِذَا كَانَ ٱلْقَطْعُ وَٱلْوَصْلُ لِلهِ   تَسَاوَى ٱلتَّقْرِيبُ وَٱلإِقْصَاءُ

(وإذا كان القطع والوصل لله) كما هو حال النبي صلى الله عليه وسلم (تساوىٰ) عند فاعل ذلك (التقريب) للأقارب والبعداء (والإقصاء) أي : الإبعاد للأقارب والبعداء ، ولم يُميَّز بأحدهما قريب ولا أجنبي ؛ لأن النظر لرضا الله تعالىٰ وامتثال أمره لا غير ، وهٰذا من القول البديع الجامع .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣١) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ١٨٥) ، والبيهقي في « الدلائل » (٥/ ٨٢) .
(٢) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ١١٨) .
(٣) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٩/ ١١٨) ، وبنحوه في « الدلائل » (٥/ ٨٦) .

وَسَـــوَاءٌ عَلَيْـــهِ فِيْمَـــا أَتَـــاهُ   مِـــنْ سِـــوَاهُ ٱلْمَـــلَامُ وَٱلْإِطْـــرَاءُ

(وسواء) بفتح السين والمد ، ويجوز كسرها والقصر[١] ، وهو فيهما بمعنىٰ : مستو ، ويستعمل الأول بمعنىٰ : التمام ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ ، ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ وبمعنى الوسط ، ومنه : ﴿ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وبمعنىٰ غير ، قيل : ومنه : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو وهم ، وإنما هي بمعنىٰ : وسطه (عليه) أي : الذي تقريبه وإقصاؤه لله لا غير ، وأجل من اتصف بهـٰذه المرتبة نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ لأن خلقه القرآن ، يرضىٰ برضاه ، ويسخط بسخطه ، وهـٰذا خبر مقدم ، ويصح كونه مبتدأ (فيما أتاه من سواه) كلاهما حال من المبتدأ أو الخبر ، وهو (الملام) بالسب والتنقيص (والإطراء) أي : المبالغة في المدح حتىٰ بغير الواقع ، أي : سواء عليه اللوم والإطراء حال كونهما مندرجين فيما أتاه من غيره من خير أو شر ؛ أي : استوىٰ عنده مدح الغير وذمه ؛ لأنه ليس ناظراً إلىٰ نفسه ، وإنما نظره إلىٰ تصريف الحق في خلقه بما أراده منهم .

تنبيه : ما وقع للناظم هنا من حذف همزة التسوية بعد (سواء) والعطف بـ(الواو) . . هو ما درج عليه الفقهاء في كتبهم ، وهو لغة وإن كانت خلاف الأشهر الشائع من ذكر الهمزة والعطف بـ(أم) وقد صرح في « الصحاح » بتلك اللغة فقال : (تقول : سواء علي قمت أو قعدت) وكذلك في « القاموس » فقال : (وسواء تطلب اثنين ، سواء زيد وعمرو ؛ أي : ذوا استواء ، من استويا وتساويا : تماثلا) وقد صرح سيبويه بالمسألة أتم تصريح ، وأوضحها أكمل إيضاح ، فقال كما في « البديع » عنه : (إذا كان بعد سواء همزة استفهام . . فلا بد من « أم » اسمين كانا أو فعلين ، وإن كان بعدها فعلان بغير ألف الاستفهام . . عطف الثاني بـ« أو » ، تقول : سواء علي قمت أو قعدت ، وإن كانا اسمين بلا ألف . . عطف الثاني بـ« الواو » ، تقول : سواء علي زيد وعمرو ، وإن كان بعدها مصدران . . كان الثاني بـ« الواو » أو حملاً عليها) اهـ

(١) جواز ذلك في غير النظم ؛ لأن المدَّ متعين هنا لأجل الوزن ، والله أعلم .

فعلم صحة ما عليه الفقهاء ، واندفع قول ابن هشام : (إن ذلك لحن ، وإن ما في « الصحاح » سهو ، وإن قراءة : ﴿أو لم تنذرهم﴾ من الشذوذ بمكان) اهـ[١] فاستحضر ذلك فإنه مهم .

(277)

وَلَــوَ ٱنَّ ٱنْتِقَــامَــهُ لِهَــوَى ٱلنَّفْـ ـــسِ لَــدَامَــتْ قَطِيعَــةٌ وَجَفَــاءُ

(و) من ثم (لو) مر فيها في بحث أوصاف قدمه صلى الله عليه وسلم ما ينبغي مراجعته ؛ لعزته ونفاسته (أن انتقامه) صلى الله عليه وسلم ؛ أي : غضبه واستيفاء الذي صدر منهم كان (لهوى النفس) الأمارة بالسوء ، والمطبوعة على التكبر على الغير ، وحب التميز عليه بما يقهره ويذله له . . (لدامت قطيعة) للرحم (وجفاء) أي : إبعاد لها ، ولـٰكنه لم يكن كذلك ، وإنما كان لله تعالىٰ ، فقطعهم حيث قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، ووصلهم ـ غير ناظر لما سبق منهم ؛ من قتل أصحابه لا سيما بأحد ، والتمثيل بهم ، وشج وجهه ، وكسر رَباعِيَته ـ حيث وصلوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وكيف لا وقد

(278)

قَـامَ لِلَّهِ فِـي ٱلْأُمُـورِ فَـأَرْضَـى ٱللَّهَ مِنْـــهُ تَبَـــايُـــنٌ وَوَفَـــاءُ

(قام) صلى الله عليه وسلم (لله) وحده ، لا لهوىً ، ولا لحظ ، ولا لرعاية رحم أو صديق ، وفي نسخة : (بالله) أي : مستعيناً به (في الأمور) جميعها (فـ) بسبب قيامه لله تعالىٰ ، أو به (أرضى الله) تعالىٰ (منه) صلى الله عليه وسلم ، وهو متعلق بـ (أرضىٰ) أو حال من فاعله ، وهو (تباين) لأعداء الله تعالىٰ (ووفاء) لأولياء الله من غير تعويل علىٰ حظ سوىٰ رضا الله ، ولهـٰذا كان

---

(١) مغني اللبيب (١/ ٦٣) .



(279)

فِعْلُـــهُ كُلُّـــهُ جَمِيـــلٌ وَهَـــلْ يَنْـ ـضَـــحُ إِلَّا بِمَـــا حَـــوَاهُ ٱلْإِنَـــاءُ

(فعله) صلَّى الله عليه وسلم (كله جميل) لصدوره علىٰ أمتن قوانين الاعتدال ، وأحق موازين الكمال (و) لا بدع في ذلك ؛ إذ (هل) أي : ما (ينضح) أي : يسيل مما فيه علىٰ ظاهره (إلا بما حواه) عائد علىٰ متقدم الرتبة ، وهو (الإناء) أي : لا ينضح الإناء إلا بما فيه ، فمن امتلأ إناء قلبه خيراً . . كانت أفعاله المشبهة بما ينضحه الإناء كلها خيراً ، ومن امتلأ إناء قلبه شراً . . كانت أفعاله كلها شراً ، وليس أحد متحلياً بمعالي هـٰذه الصفات الباهرة . . إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

وهـٰذا من التذييل ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ ويصح أن يكون من التتميم ، وفيه التلميح إلى المثل السائر ، وهو : كل إناء بالذي فيه ينضح[1] .

(280)

أَطْـــرَبَ ٱلسَّـــامِعِيـــنَ ذِكْـــرُ عُـــلَاهُ يَـــا لَـــرَاحٍ مَـــالَـــتْ بِـــهِ ٱلنُّـــدَمَـــاءُ

(أطرب السامعين) أي : أسرهم وأفرحهم ونشطهم إلىٰ محبته واتباعه وامتثال جميع ما برز من حضرته صلى الله عليه وسلم (ذكر علاه) لأنهم يجدون لذلك رونحة تفوق رونحة الراح (يا) حرف استغاثة (لراح) أي : خمر ، مستغاث ، ولذا فتحت لامه ، سميت بذلك ؛ لأن شاربها يستريح ويرتاح من هموم الدنيا ما دام سكراناً بها (مالت) أي : سكرت وتواجدت (به) أي : الراح المستعار لذكر علاه صلى الله عليه وسلم ، فهو مذكر لفظاً ومعنىً ، فاندفع ما قد يقال : الراح : الخمر ، وهي مؤنثة ، وتذكيرها شاذ (الندماء) أي : شاربو الخمر ، سموا بذلك ؛ لأنهم يتنادمون ؛ أي : يتخاطبون عليها بالأشعار التي فيها مدحها وغير ذلك ، وفي هـٰذا استعارة تصريحية ، واستعارة ترشيحية ؛ لأنه شبه ذكر علاه في إطرابه لسامعيه بالراح في إطرابها لشاربها ،

---

(١) هو في « مجمع الأمثال » للميداني (٣/ ٧٠) ولفظه : (كل إناء يرشح بما فيه) ويروىٰ : (ينضح) .

ثم قرن بذلك ما يلائم المستعار منه ، وهو ذكر الميل والندماء .

واعلم : أن هـٰذا الموصوف بهـٰذه المعالي الذي أطرب السامعين ذكر علاه هو

(281)

أَلنَّبِـــيُّ ٱلْأُمِّـــيُّ أَعْلَـــمُ مَـــنْ أَسْـــنَـــدَ عَنْـــهُ ٱلـــرُّوَاةُ وَٱلْحُكَمَـــاءُ

(النبي الأمي) نسبة إلىٰ الأم ، وهو : من لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، كأنه علىٰ أصل ولادة أمه ، أو مثلها ؛ إذ الغالب في النساء عدم الكتابة ، وقيل : نسبة لأم القرىٰ ؛ أي : مكة ، وقيل : غير ذلك ، ومع كونه صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب . . أطلعه الله تعالىٰ علىٰ علوم الأولين والآخرين ، وجعله القدوة العظمىٰ لكل مخلوق في كل علم وحلم ، وحكمة وخلق حسن ، وسائر أوصاف الكمال ، وبوأه من الإحاطة بجميع مصالح الدنيا والدين ، وقوانين سياسات العالم ، ومتفرقات الشرائع ، وعوارف المعارف . . ما لم يصل لشأوه مخلوق ، وهـٰذا مقتبس من قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ . . . ﴾ الآيات .

(أعلم) الخلق جميعاً حتىٰ (من) أي : من الأنبياء والمرسلين الذين (أسند) أي : روىٰ (عنه الرواة والحكماء) أي : العلماء الذين يضعون كل شيء في محله ، فهو من عطف الأخص على الأعم ، ولما قدم كثيراً من أوصافه صلى الله عليه وسلم ، وأحواله وسيره ومغازيه . . انتقل بطريق لطيف إلىٰ ذكر دار مولده وبعثته ، ودار مهاجَره ؛ لأنهما شرفا به علىٰ سائر الأمكنة ، وإلىٰ ذكر زيارته وتأكدها ، والإشارة إلىٰ أنها من أفضل القربات وأنجح المساعي ، وقد ألفت فيها كتاباً حافلاً لم أسبق إلىٰ مثله ، مشتملاً علىٰ جميع ما يتعلق بها ، وسميته : « الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم » وفيه أبلغ الرد والتضليل لمن نازع في ندبها بما يكون سبباً لسواد وجهه وتبابه[1] في الدنيا والآخرة ، فقال كانياً عن منة الله تعالىٰ عليه بإشارته أنه هيأ له أسباب تلك الزيارة من الزاد والراحلة الموصوفة بالصفات الحسنة الآتية ، حتىٰ كأنها مخاطبة

(١) التباب : الخسران والهلاك .

له تقول : فزر علىٰ ظهري ، فإني أحملك ذهاباً وإياباً ، مع السلامة من التعثر ، والراحة من السير المتعب :

(282)

وَعَــدَتْنِــي ٱزْدِيَــارَهُ ٱلْعَــامَ وَجْنَــا ءُ وَمَنَّــتْ بِــوَعْــدِهَــا ٱلْــوَجْنَــاءُ

(وعدتني) ذكر الموعود في حيزها كما هنا : يوجب اشتراكها بين الخير والشر ، وإنما يقع التمييز بالقرائن ، وحذفه يعينه للخير ، ويعيَّن للشر أوعد (ازدياره) أي : النبي صلى الله عليه وسلم ، افتعال من : الزيارة ، وإبدال الدال من التاء في نحو ذلك مطرد ، وهو منصوب بنزع الخافض ؛ أي : بزيارته صلى الله عليه وسلم هـٰذا (العام وجناء) أي : ناقة قوية ، من : الوجن ، وهي : الأرض الصُّلبة (ومنت) أي : أنعمت (بوعدها) أي : بموعودها (الوجناء) المذكورة ، وهـٰذا ـ كما علم مما وطَّأت به أولاً ـ كناية منه عن نيته للزيارة في تلك السنة ، وإعداده ذلك المركوب لها ، فهو إخبار عن لسان حال ذلك المركوب .

وبما تقرر من أن (أل) في (الوجناء) للعهد الذكري اندفع قول الشارح : بين (وجناء) و(الوجناء) جناس ، والعجب منه أنه صرح مع ذلك بأن (أل) للعهد المستلزم لاتحاد اللفظين ، وأن الأول هو عين الثاني .

(283)

أَفَــلَا أَنْطَــوِي لَهَــا فِــي ٱقْتِضَــائِيـ ـــهِ لِتُطْــوَىٰ مَــا بَيْنَنَــا ٱلْأَفْــلَاءُ

(أ) يليق بي أن أترك الزيارة أو أتباطأ عنها (فلا أنطوي) أي : أضم نفسي علىٰ تلك الوجناء التي منت علي بما ذكر (لها) أي : لأجلها ؛ ليسهل سيرها بي ، فإن حسن سير المركوب من حسن ركوب راكبه (في) حصول (اقتضائيه) أي : طلبي منها لذلك الموعود ، فالمصدر مضاف للفاعل وهو (الياء) و(الهاء) مفعوله ، فإن أريدت الإضافة إليها أيضاً . كانت هـٰذه الإضافة غير صحيحة ؛ لأنه اجتمع فيها آلتا تعريف ، وهو الإضافة إلىٰ كل من الضميرين ، وقد قالوا : لا يجوز اجتماع آلتي

تعريف علىٰ معرف واحد ، قالوا : وإنما جاز في إضافة الصفة من اسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهة وأمثلة المبالغة اقترانُ المضاف دون سائر المضافات بـ(أل) لأن إضافة الصفة إلىٰ معمولها لا تفيد تعريفاً ، بل تخفيفاً ، فليس هنا محذور اجتماع أداتي تعريف ، بخلاف بقية المضافات . اهـ

نعم ؛ جرىٰ لنا قول : إن إضافة المصدر إلىٰ مرفوعه أو منصوبه غير محضة ، فعليه يجوز ما وقع في النظم ؛ لأنه لم يجتمع أداتا تعريف . فتأمله .

أما إذا لم يرد الإضافة لـ(الهاء) وإنما أريد بقاؤها علىٰ نصبها . . ففيه ارتكاب ضرورة اتصال الضمير مع إمكان انفصاله .

(لتطوىٰ) بالبناء للفاعل أو المفعول ، والأول أولىٰ ؛ إذ لا يلزم عليه زيادة (ما) بخلاف الثاني (ما) أي : المسافة البعيدة التي (بيننا) أي : بيني وبين ذلك القبر المكرم على الحالِّ به أفضل الصلاة والسلام (**الأفلاء**) جمع فلاة كما في « القاموس » وعبارته : (والفلاة : القفر ، أو المفازة لا ماء فيها) ثم قال : (والصحراء الواسعة ، جمعه فلاً وفلوات وفُلِيٌّ وفِلِيٌّ ، جمع جمعه أفلاء) اهـ

وبه يندفع ما للشارح هنا ، وجوز فيه الشارح كسر الهمزة مصدراً ؛ أي : المسير إلىٰ فلاة بعد أخرىٰ ، ولا يلزم علىٰ بنائه للفاعل ، وأن (الأفلاء) جمع اتحاد الفاعل والمفعول ؛ لأنهما مختلفان بالاعتبار وبالحقيقة ؛ إذ النظر في تلك المسافة المطوية إلى السير البعيد ، وفي (الأفلاء) إلى الأمكنة المقفرة ، ولا شك أن السير غير محله . فتأمله .

وبين (أنطوي) و(لتطوىٰ) جناس الاشتقاق ، كهو أو شبهه بين (مباركها) و(البركة) ، و(حاورتها) و(الحوراء) ، و(حنين) و(حنت) ، و(نضت) و(الإنضاء) ، و(الخلاص) و(الخلصاء) الآتيات .

(284)

بِــأَلُـوفِ ٱلْبَطْحَــاءِ يُجْفِلُهَــا ٱلنِّيـ ـــلُ وَقَـدْ شَـفَّ جَـوْفَهَـا ٱلْإِظْمَـاءُ

(بـ) وجناء (ألوف) صيغة مبالغة من : ألف كعلم ، متعلق بـ (تطوىٰ) وكان القياس بها ، لـٰكنْ أظهرَ ؛ لإفادة وصفها بهـٰذا الوصف الممدوح (البطحاء) المعهودة

ذهناً ، وهي مكة وتوابعها ، وأصل الأبطح والبطحاء : مسيل متسع فيه دقاق الحصىٰ ، وهـٰذا وما بعده لسان حاله أبرزه علىٰ لسان حالها ، مبالغة في أن به من تلك الأوصاف ما لو كان لراحلته إدراك . . لكانت مثله فيها ؛ لما تشاهده من حاله (**يجفلها**) أي : يزعجها ويقلقها (**النيل**) أي : أرض مصر عن الإقامة بها مع أنها وطنها ومرباها ؛ لشدة شوقها إلى التملي بتلك الأنوار ، والتعفر بتراب تلك الآثار .

وبين (الإلف) و(الإجفال) جناس الطباق .

(**و**) الحال أنه (**قد شف**) أي : شرب رطوبة جوفها ، أو أنحل (**جوفها الإظماء**) أي : شدة العطش في طريقها ، فهي راضية بهـٰذه المشقة المؤدية إلى التلف في جنب ما أملته في تلك الحضرة من مزايا الإنعام وخفايا التحف ، ولأجل ذلك

(285)

أَنْكَـرَتْ مِصْـرَ فَهْـيَ تَنْفِـرُ مَـا لَا حَ بِنَـــاءٌ لِعَيْنِهَـــا أَوْ خَـــلَاءُ

(**أنكرت**) أرض (**مصر**) لأنها لا تؤمل فيها من تلك المواهب العلية معشار ما أملته في تلك الحضرة الأحمدية ، والساحة المصطفوية المحمدية (**فـ**) بسبب هـٰذا الإنكار المسبب عن ذلك الأمل (**هي تنفر**) ـ بكسر الفاء وضمها ـ أي : تجد في الهرب من مصر إلىٰ تلك الحضرة العلية (**ما**) مصدرية ظرفية (**لاح**) أي : ظهر من أرض مصر (**بناء لعينها أو خلاء**) أي : فضاء ، ولا ينافي هـٰذا قوله : (بألوف البطحاء) لأنها تألفها لتقطعها حتىٰ تصل إلىٰ مطلوبها ، فعند توجهها إليه تجد في السير ، وتنفر إلىٰ جهة مقصدها ، سواء لاح لها في غير تلك الحالة بناء أو فضاء .

وفسر الشارح (الخلاء) بالحشيش الرطب ، ويوجه بنظير ما ذكرته أنها تجد في السير إلىٰ جهة مطلبها وإن ظهر لها في غيرها قُوتُها الذي هو الحشيش الرطب ، وهـٰذا فيه من زيادة المبالغة ما لا يخفىٰ عظيم وقعه ، لـٰكن يبعده مقابلته بـ(البناء) بخلاف ما ذكرته .

وقوله : (أو المراد به : ما بين أبنية مصر ، وهو أقرب) اهـ . . هو في غاية البعد كما لا يخفىٰ .

فَـأَفَضَّـتْ عَلَـىٰ مَبَـارِكِهَـا بِـرْ كَتُهَـا فَـالْبُـوَيْـبُ فَـالْخَضْـرَاءُ

(فأفضت) من الفضيض ، وهو : الماء العذب أو السائل (علىٰ مباركها بركتها) هي : أول محل يلي طريق الحجاز ، يجتمع الحجاج فيه للتأهب لسفرهم ، ولذلك كان مجمعاً عظيماً ، يجلب إليه كل ما يحتاجه الحجاج ، سميت بذلك ؛ لأن ماء النيل يأتي إليها ، فيمكث فيها زمناً طويلاً ، وكانت فضاء صرفاً ، فعمر فيها القطب الرباني البرهان المتبولي رضي الله تعالىٰ عنه من نحو سبعين سنة جامعاً ، وجعل فيه مجاورين يقرؤون القرآن ، فعادت بركته عليهم ، حتىٰ ذكر بعض صالحيهم ممن أدركناه يؤم بالجامع الأزهر أنه اشتهىٰ زيارة أمه بالعجم وهو ثَم ، فاستأذن الشيخ في السفر لتلك البلاد ، فلم يأذن له ، ودخل إلىٰ خلوته والناس يقرؤون القرآن علىٰ بابها ، فرأىٰ نفسه ببلده عند أمه ، فسلم عليها ، وأقام عندها أربعة أشهر يعدها بالأيام والليالي ، ثم اشتاق للشيخ ، فرأىٰ نفسه في خلوته ، فخرج فرأى القراء قد قرؤوا في تلك المدة نحو ربع القرآن .

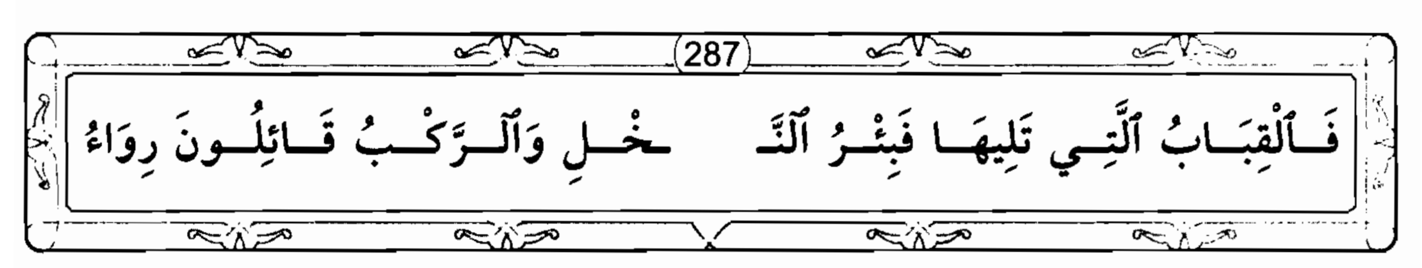
وهـٰذا من بعض كرامات الأولياء أن الله تعالىٰ يطوي لهم الأرض ، ويفسح لهم في الزمن ، ووقع لهم من نظائر ذلك ما لا يحصىٰ ، وإنكار اتساع الزمن القليل دون طي الأمكنة . . تحكم ؛ لأن كليهما من حيز الكرامة ، فإذا جاز أحدهما . . جاز الآخر . فتأمله .

ثم بنى الشيخ ثُم الناس حول ذلك الجامع أبنيةً وبساتين لا زالت تتسع ببركته حتىٰ صارت الآن قرية كبيرة .

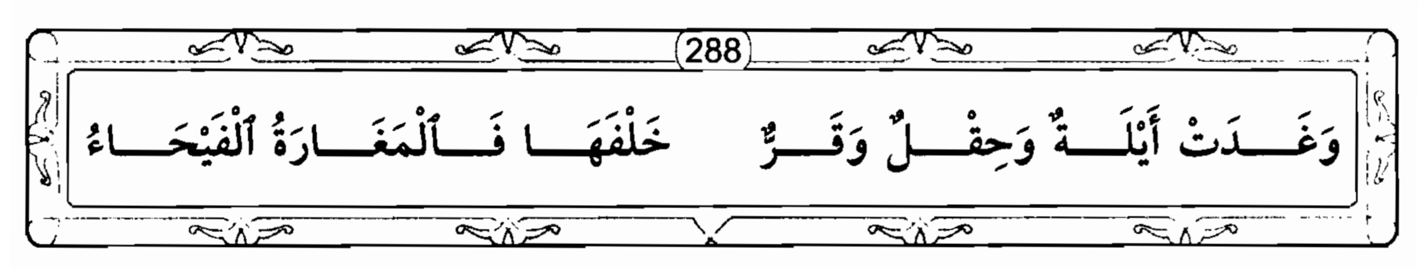
أي : فأفاضت البركة علىٰ مبارك تلك الناقة من الماء العذب ما أرواها وراكبها ومن معه .

(فـ) بعد البرْكة منازل للحجاج في هـٰذا الطريق أكثرها مشهور لغالب الحجاج ، فلا حاجة لنا إلىٰ مزيد بيانها ، هي (البويب) وإنما حملت النظم علىٰ هـٰذا ؛ لإيهامه أن (أفضت) عام في الكل ، وهو غير مراد إن أراد به ما ذكرناه ، فإن أراد به أنه من الفضاء ؛ أي : فاتسعت علىٰ مبارك الناقة بركتها لمزيد سعتها . . صح عطف ما بعده عليه من غير حاجة إلى التأويل الذي ذكرته .

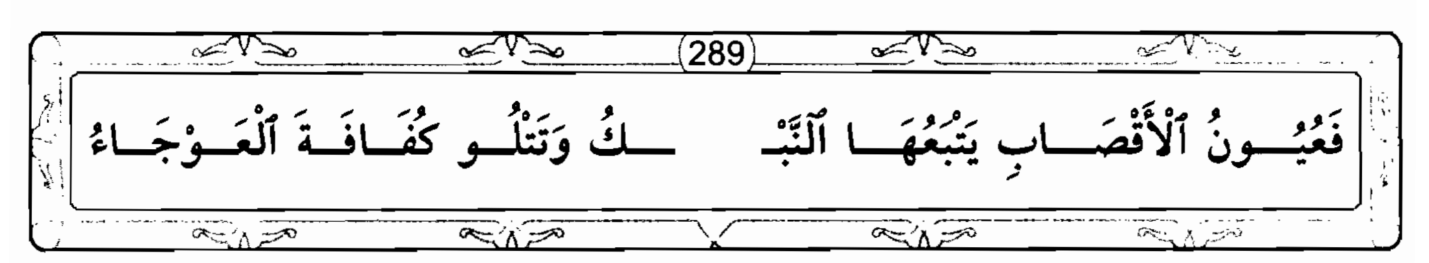
وعجيب من الشارح حيث حمله على المعنى الأول ولم ينبه علىٰ عطف ما بعده عليه الذي لا يصح إلا برعاية ما ذكرته ؛ لأن تلك المنازل أكثرها قفر معطش لا ماء فيه أصلاً (**فالخضراء**) وهي قريبة من المحل المسمى الآن بعجرود ، وفيه بئر ماء مر مسهل ، وبجانبها بركة تملأ من بيت المال ، يعم احتياج الحجاج إليها ، وكان ذلك من أصله حدث بعد الناظم ، وإنما قلت : (من أصله) لأن بِركته معلومة الحدوث في أوائل هـٰذا القرن .


(287)
فَٱلْقِبَابُ ٱلَّتِي تَلِيهَا فَبِئْرُ ٱلنَّـ ـخْلِ وَٱلرَّكْبُ قَائِلُونَ رِوَاءُ

(**فالقباب التي تليها**) أي : المنازل السابقة ؛ أي : الوادي المسمىٰ بوادي القباب ؛ أي : زير الرمل المشبهة لارتفاعها وبياضها بالقباب البيض الحسية (**فبئر النخل**) وبجانبها بركة تملأ من بيت المال أيضاً ، وماؤها أحسن من التي قبلها بكثير ، ولذا قال : (**والركب قائلون**) عندها ؛ أي : مستريحون وقت القيلولة (**رواء**) من الماء ـ بكسر أوله ـ جمع ريان أو رياء .

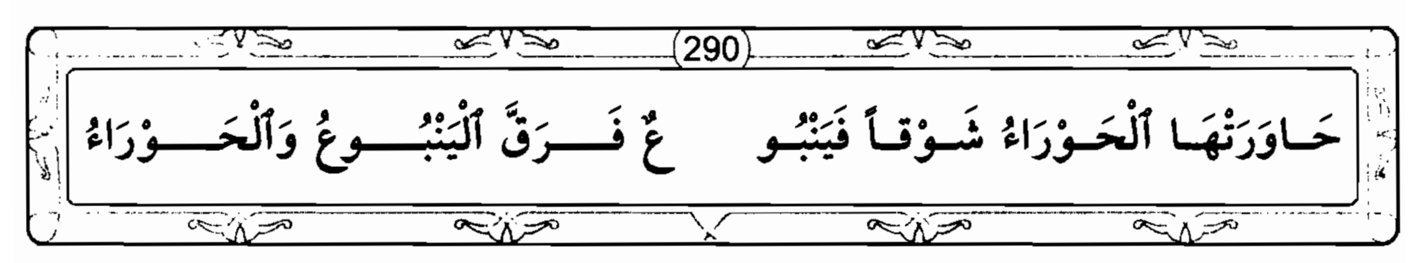

(288)
وَغَدَتْ أَيْلَةٌ وَحِقْلٌ وَقَرٌّ خَلْفَهَا فَٱلْمَغَارَةُ ٱلْفَيْحَاءُ

(**وغدت أيلة**) أي : عقبتها (**وحقل**) محل بعدها قريب منها ، تسميه العامة مدور حقن (**وقر**) ليس هـٰذا الاسم مشهوراً عند الناس اليوم (**خلفها**) أي : الناقة ؛ لكونها جاوزتها (**فالمغارة**) المنسوبة إلىٰ شعيب النبي صلى الله عليه وسلم (**الفيحاء**) أي : الواسعة .


(289)
فَعُيُونُ ٱلْأَقْصَابِ يَتْبَعُهَا ٱلنَّبْـ ـكُ وَتَتْلُو كُفَافَةَ ٱلْعَوْجَاءُ

(**فعيون الأقصاب**) سميت بذلك ؛ لكثرة ما فيها من القصب الفارسي (**يتبعها**

النبك) هـٰذا أيضاً ليس بمشهور ، وفي « القاموس » : (النبك ـ بالنون فالموحدة ـ : بلد بين حمص ودمشق) (وتتلو) النبك (كفافة) وبها قبر ولي يسمى : مرزوقاً الكفافي ، مشهور البركة ، وله ذرية كثيرون مشهورون بالصلاح ، وللحجاج فيه اعتقاد وتعظيم خارج عن الحد (العوجاء) أي : المنحرفة عن جادة الطريق ، وجعلَ الشارحُ (كفافة) مفعول (تتلو) و(العوجاء) فاعله ، فعليه هما محلان متغايران ، وفيه نظر ؛ لأنه ليس ثَم محل يعرف بالعوجاء أصلاً ، فالموافق للخارج ما ذكرته .



(حاورتها) أي : حادثت الناقة (الحوراء) فيما هي بصدده (شوقاً) منها لما الناقة مشتاقة له وسائرة إليه ، وإثبات الشوق للجمادات غير منكر ؛ لقوله تعالىٰ ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وهـٰذا مانع لحمله على التسبيح بلسان الحال ؛ إذ لو كان مراداً لم يقل : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ . . . ﴾ إلخ ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » .

(فينبوع) حاورتها شوقاً أيضاً ، وهي بلدة معروفة من جملة الحجاز الذي هو مكة والمدينة واليمامة وقراها ، فقد ذكروا أن ينبوع هـٰذه من جملة قرى المدينة (فـ) بسبب محاورتها لهما (رق الينبوع والحوراء) المذكوران ؛ لسماعهما ما يتعلق بالزيارة ، ومشاهدتهما للزائرين .

291

لَاحَ بِٱلدَّهْنَوَيْنِ بَدْرٌ لَهَا بَعْـ ـدَ حُنَيْنٍ وَحَنَّتِ ٱلصَّفْرَاءُ

(لاح) أي : ظهر (بالدهنوين) أي : فيهما ، تثنية دهناء ، إما لكونه غلب اسمها ، وهو : الدهناء ، محل قبيل بدر علىٰ مجاورتها ، أو أن ثَم محلين كل يسمىٰ بالدهناء (بدر) وهو الآن قرية عامرة ، به عين كبيرة ونخيل ، ومحل الوقعة المشهورة به التي أعز الله بها الإسلام ، مشهور ، يزار ويتبرك بمن دفن به من الشهداء وغيرهم .

وفي (بدر) تورية مرشحة بـ(لاح) المناسب للمعنى الغير المراد .

وبقربه آية باقية من آياته صلى الله عليه وسلم وهي سماع صوت هائل كصوت طبل الحرب في الجو ، اشتهر على الألسنة أن هٰذا لأجل نصرته صلى الله عليه وسلم والفرح بها ، وقد أنكره قوم فقالوا : لا حقيقة له ، وإنما هي أصوات الريح تسمع في ذلك الوادي عند قوة هبوبها ؛ لأن في أوله جبلين عظيمين من الرمل ، فإذا مشى الإنسان بينهما وقوي عصف الريح . . سمع ذلك الصوت .

وقال آخرون من أئمة المتأخرين : (بل له حقيقة ؛ لأنا ذهبنا إلىٰ ذلك المحل وأقمنا به حتىٰ سمعناه والجو ساكن لا ريح به البتة ، وتكرر سماعنا له المرة بعد المرة) اهـ

وأقول : وقع لي أيضاً سماعه مرات متعددة في سفرات متعددة حيث لا ريح ولا حركة دواب ولا مشاة ثَم ، ولقد كنت في بعضها مرافقاً لجمعٍ جمٍّ من وجوه مكة ورؤسائها وعلمائها من المالكية والحنفية ، فجرى الكلام بينهم في ذلك ، فمنهم من أنكره ، ومنهم من أثبته ، ثم وقع الاتفاق على الذهاب لذلك المحل ، والرقي إلىٰ أعلى الجبلين ؛ ليحاط بسبب ذلك الصوت ، فذهبنا وأقمنا عليه نحو ربع النهار ونحن لا نسمع شيئاً ، وقد هدأ الريح ولا أحد ثَم غيرنا ، وليس لأحد منا حركة ، ففي آخر الأمر سمعنا ذلك الصوت الهائل مرة واحدة فقط ، فانصرفنا ومن المنكرين من رجع ومنهم من أصر علىٰ إنكاره ، ولقد جاءنا فقيه ساكن يؤذن ويؤم في مسجد البلد ، فسئل ، فحلف أنهم ليلة الإثنين والجمعة يسمعون ذلك الصوت من أول الليل إلىٰ آخره ، وفي غيرهما لا يسمعون إلا أحياناً ، فالله سبحانه وتعالىٰ أعلم بحقيقة ذلك .

(لها) أي : للناقة (بعد) ـ وفي نسخة (قبل) ـ ما لاح لها أرض (حنين) يقال : إنه جبل صغير قريب بدر ، والظاهر : أن الناظم اعتمد في هٰذا علىٰ ما هو المشهور في ألسنة العامة ؛ إذ لم يذكر في « القاموس » غير حنين المذكور في الآية الذي هو عين بين مكة والطائف ، وظاهر قول الشارح : (إن نسخة « قبل » أوضح ؛ لأن حنيناً بعد بدر) . . أن لما ذكره الناظم مستنداً ، لـٰكن لا يكفي هٰذا مع كون « القاموس » الجامع المستوعب لم يذكره إلا كما مر (وحنت) لتلك الناقة وما هي فيه (**الصفراء**) قرية معروفة منحرفة عن طريق أهل مصر ، لا يمرون عليها إلا عند ذهابهم للزيارة .

(292)

وَنَضَتْ بَزْوَةٌ فَرَابِغُ فَالْجُحْـ ـفَةُ عَنْهَا مَا حَاكَهُ الْإِنْضَاءُ

(ونضت) أي : خلعت (بزوة) أي : خَبْتُها المشهور[١] ، وإسناد ذلك إليه وإلىٰ ما بعده مجازي (فرابغ فالجحفة) محل بُعيد رابغ ، كان بلدة مشهورة لليهود ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم ربه أن ينقل حمى المدينة إليها ، فكان لا يمر بها أحد حتى الطائر إلا حُمَّ ، وهي ميقات الحجاج المتوجهين من هٰذه الطريق كما صح به الخبر[٢] (عنها) أي : عن تلك الناقة ؛ لما أنها استبشرت بقطعها لتلك الأماكن (ما) أي : ثوب التعب الذي (حاكه) أي : نسجه (الإنضاء) أي : الهزال ، شبه الهزال بحائك الثوب ، والثوب بأثر الهزال من حيث إن الهزال يوجب للبدن من التعب ما يعمه ويستر قُوَّته كما يستر الثوب البدن ، ثم خيل بإثبات ما هو من لوازم المشبه به ، وهي الحياكة ، ورشح له بذكر الخلع ، فهي استعارة بالكناية ، تتبعها استعارة تخييلية وترشيحية .

(293)

وَأَرَتْهَا الْخَلَاصَ بِئْرُ عَلِيٍّ فَعُقَابُ السُّوَيْقِ فَالْخَلْصَاءُ

(وأرتها) أي : أبصرت تلك الناقة (الخلاص) من التعب (بئر) فاعل (علي) وهي من آخر الخبت الذي بعد رابغ إلىٰ مكة (فعقاب السويق) بعدها بقليل (فالخلصاء) أي : المحل المشهور الآن بخليص ، فيه عين واسعة وبركة كبيرة .

(294)

فَهْيَ مِنْ مَاءِ بِئْرِ عُسْفَانَ أَوْ مِنْ بَطْنِ مَرٍّ ظَمْآنَةٌ خَمْصَاءُ

(فهي) أي : تلك الناقة (من ماء بئر عسفان) المشهورة (أو من) ماء عيون

---

(١) الخبت : الأرض الواسعة .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣) ، ومسلم (١١٨١) .

(بطن مر ظمآنة) أي : عطشانة (خمصاء) أي : جوعانة ؛ لأن العادة أن الحجيج إذا وصلوا لنحو عُسْفان . . اشتد شوقهم ، فاشتغلوا عن سقي دوابهم وإطعامها إلىٰ أن يدخلوا مكة .

(295)

قَـرَّبَ ٱلـزَّاهِـرُ ٱلْمَسَـاجِـدَ مِنْهَـا بِخُطَـاهَـا فَـٱلْبُـطْءُ مِنْهَـا وَحَـاءُ

(قرب الزاهر) المشهور ، قبيل ذي طُوىٰ (المساجد) المعروفة بمساجد عائشة رضي الله عنها بالتنعيم (منها) أي : الناقة ؛ أي : أن وصولها للمساجد جعل الزائر قريباً منها ؛ لأن المسافة بينهما نحو ميلين (بخطاها) أي : بسبب شدة جريها لما أحست بالوصول (فالبطء) الحاصل (منها وحاء) ـ بمهملة قبلها واو مفتوحة ـ أي : سرعة ، وكأن مراده : أنها لما أحست بالوصول . . انقلب بطؤها سرعة ، بمعنى : أن بطأها زال وخلفته سرعة شديدة .

(296)

هَـٰـذِهِ عِـدَّةُ ٱلْمَنَـازِلِ لَا مَـا عُـدَّ فِيـهِ ٱلسِّمَـاكُ وَٱلْعَـوَّاءُ

(هـٰذه) المذكورات (عدة) غالب (المنازل) بين مصر ومكة التي عليها المعول ؛ لأن بها تعلم طريق الوصول إلىٰ تلك المعاهد ، ويتضح سلوك الوافد ، وينشط ببيانها القاصد (لا ما) أي : منازل القمر الثمانية والعشرون التي (عد فيه) ذكَّره نظراً للفظ (ما) (السماك) الأعزل الذي هو من منازل القمر ، ولهم سماك آخر يسمى : السماك الرامح ، لـٰكنه ليس من المنازل (والعواء) منزلة من منازل القمر ، وهي خمسة أنجم ، فلا يعتد بهـٰذه كالاعتداد بتلك .

(297)

فَكَـأَنِّـي بِهَـا أُرَحِّـلُ مِـنْ مَكَّـ ـةَ شَمْسـاً سَمَـاؤُهَـا ٱلْبَيْـدَاءُ

(فكأني بها) أي : علىٰ تلك الناقة (أرحل من مكة) إلىٰ عرفة ؛ لأن الحج

عرفة ، كما صح به الخبر[١] ، ولأنها باب الملك الذي يقف به السائلون ، ويلوذ به المحتاجون ، ثم إلىٰ مزدلفة للمبيت بها ؛ لأنه نسك واجب أو مندوب أو ركن كالوقوف أقوال ، أصحها عندنا : الأول ، ولأن فيها مقام الجمع الأكبر ، ومن ثم سميت : جمعاً .

وفي حديث ـ في سنده ضعف ـ : أنه صلى الله عليه وسلم دعا ربه بعرفة أن يكفر عن أمته بالحج حتى التبعات فلم يستجب له ، فدعا بذلك في مزدلفة فاستجاب له[٢] .

ثم إلىٰ منىً للرمي والمبيت بها ، ثم إلىٰ بقية المشاعر التي حول مكة وبها .

(**شمساً**) أي : حال كون تلك الناقة كالشمس في ارتفاعها ؛ لرفعة ما هي قاصدته ، وقوةِ سيرها ؛ لما عندها من عظيم الشوق ، فتشبيهها بالشمس استعارة بالكناية ، وإثبات السماء لها تخييل ، وذكر (الرحيل) و(البيداء) تجريد ؛ لملاءمتهما للمشبه الذي هو الناقة (**سماؤها**) أي : تلك الناقة المشبهة بالشمس كما تقرر (**البيداء**) أي : المفازة الواسعة ، تشبيه بليغ ، شبه الناقة بالشمس كما مر ، وشبه البيداء التي هي محل سيرها بالسماء التي هي محل سير الشمس بجامع السعة .

ولما ذكر مكة . . استطرد لذكر ما شرفها الله تعالىٰ به علىٰ سائر البلاد فقال :

(298)

مَوْضَعُ ٱلْبَيْتِ مَهْبِطُ ٱلْوَحْيِ مَأْوَى ٱلرُّ ... سْلِ حَيْثُ ٱلْأَنْوَارُ حَيْثُ ٱلْبَهَاءُ

(**موضع البيت**) أي : الكعبة ، بالجر بدل من (مكة) بدل بعض من كل ، وبالرفع خبر (هي) محذوفاً ، وعليه فمعنىٰ كونها موضعه : أنه في بعضها ، وفيه اقتباس من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ . . . ﴾ الآية .

(**مهبط الوحي**) نعت ، أو بدل بعد بدل ، أو معطوف بحذف العاطف علىٰ ما فيه

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢٨٢٢) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٥/٢٥٦) ، وابن ماجه (٣٠١٥) .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠١٣) ، وأحمد (٤/١٤) ، وأبو يعلىٰ (١٥٧٨) .

من الضعف والشذوذ ، وكذا يقال فيما بعده ؛ أي : محل نزوله علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة .

والوحي لغة : الإشارة وكل كلام خفي ، وشرعاً : ما جاء به النبي المبعوث عن ربه علىٰ لسان الملك ، أو بالإلهام ، أو في النوم ، أو الإلقاء في الرُّوع (مَأوىٰ) من : أوىٰ فلان إلىٰ منزله (الرسل) الكرام ، بل وسائر الأنبياء عليهم السلام ، ومر تعريف النبي والرسول أول الكتاب ؛ لأنه ما من نبي إلا حج البيت كما في حديث[1] ، واستثناء صالح وهود لاشتغالهما بأمر قومهما لم يصح (حيث) ظرف مكان ، فهو كالذي بعده بدل مما قبله (الأنوار) الإلـٰهية منزلة ثَم ، وقدرت هـٰذا ؛ لأن الأصح : منع إضافة (حيث) إلى المفرد[2] ؛ أي : تنزلها دائماً علىٰ قلوب الطائفين والعاكفين والركع السجود (حيث البهاء) أي : الحسن المعنوي المكنىٰ به عن حصول ملائم النفس من الحكم والمعارف المفاضة علىٰ أهل هـٰذه الحضرة الإلـٰهية والمعاهد الربانية ، حققَ الله لنا ذلك فيها بمنه وكرمه آمين .

وراعى النظير بذكر (الوحي) و(الرسل) ، و(الأنوار) و(البهاء) ، وكذا (الطواف) وما بعده فيما يأتي .

(299)

حَيْثُ فَرْضُ ٱلطَّوَافِ وَٱلسَّعْيُ وَٱلْحَلْـ ـقُ وَرَمْيُ ٱلْجِمَارِ وَٱلْإِهْدَاءُ

(حيث فرض الطواف) في حج أو عمرة ، وأما خارجهما . . فهو حيث لم ينذر سنة مؤكدة ، ورد فيه فضائل جمة تحمل من أحاط بها علىٰ مزيد الإكثار منه ، بل قال بعض أئمتنا : إنه للغرباء أفضل من الصلاة ؛ لأنه عبادة خاصة بهـٰذا المحل لا توجد في غيره .

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٥/ ١٧٧) موقوفاً علىٰ عروة بن الزبير .

(٢) تضاف (حيث) إلى المفرد علىٰ نُدرة في ذلك ، ومنه :

ونطعنهم حيث الكلى بعد ضربهم ... ببيض المواضي حيث لَيِّ العمائم

انظر « مغني اللبيب » (١/ ١٧٧) .

واختلفوا في أيما أفضل أركان الحج ، هو ، أو الوقوف بعرفة ؟ فقال جمع : هو ؛ لأنه ملحق بالصلاة ، فيشترط فيه شروطها ، بخلاف الوقوف ؛ فإنه أمر عادي لا يشترط فيه شيء ، ولذا لم يقبل الصرف .

وقال آخرون : بل الوقوف ؛ للحديث الصحيح : « ٱلْحَجُّ عَرَفَةُ » أي : معظمه ذلك ؛ لأن مَن أدركها . . أدركه ، بخلاف الطواف ، ولأنه المتكفل بمغفرة الذنوب وقضاء المآرب ، كما في الأحاديث الصحيحة ، ولأنه يشترط وقوعه حال الإحرام المشعر بغاية الذل والافتقار ، بخلاف بقية الأركان ، وهـٰذا أصح كما حررناه في كتبنا الفقهية[١] .

(و) حيث (**السعي**) أي : فرضه في أحدهما أيضاً ، بناء علىٰ أنه ركن لا واجب ، كما هو مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه (و) حيث (**الحلق**) أو التقصير في أحدهما أيضاً ؛ أي : فرضه ، بناء على الراجح عندنا : أنه ركن (و) حيث (**رمي الجمار**) أي : إيجابه لا علىٰ جهة الركنية (و) حيث (**الإهداء**) أي سَوق الهدي إلىٰ مكة ثم ذبحه بها وتفرقته علىٰ ثلاثة من مساكينها المقيمين بها أو الغرباء ، والأولون أولىٰ إلا أن يكون الغرباء أحوج .

والمراد بمكة : كل الحرم ، وهـٰذا محله إن نذر ذلك ؛ لأن المعروف من مذهبنا الذي هو مذهب الناظم : أن أصل الإهداء سنة ولو لغير الحاج ، ومن ثم كان صلى الله عليه وسلم يرسله إليها من المدينة وهو مقيم بها ، لا واجب ، وهـٰذه السنة كانت في زمن السلف من مشاهير السنن ، ثم تناساها الناس وأعرضوا عنها بالكلية .

ويصح أن يريد بـ(الإهداء) : كل دم وجب في النسك أو توابعه ، أثم بسببه كالحلق تعدياً أم لا كالتمتع ، وموضع تفاصيل ذلك كله كتب الفقه والمناسك .

وذكره الفرض في الطواف فقط موهم أنه فرض دائماً فلا يتنفل به ، وأن ما بعده ليس بفرض ، مع أن منه ما هو ركن ولا يتصور ندبه ولا وجوبه في النسك وهو السعي والحلق ، وما هو واجب لا ركن وهو الرمي ، وما هو واجب تارة وهو ما حصل لترفه

---

(١) انظر « تحفة المحتاج » بهامش « حواشي الشرواني » (٤/ ٩٥) .

أو جناية ، ومندوب أخرىٰ وهو ما فعل تطوعاً ؛ أي : من غير سبب ، وكأن الناظم وكل أمر هـٰذا التفصيل للشهرة ، وأنه ليس بصدد بيان ذلك .

(300)

حَبَّــذَا حَبَّــذَا مَعَــاهِــدُ مِنْهَــا   لَــمْ يُغَيِّــرْ آيَــاتِهِــنَّ ٱلْبَــلَاءُ

(حبذا حبذا) تأكيد لفظي وهو سائغ هنا ، ومر أول الكتاب الكلام علىٰ (حبذا) بما ينبغي مراجعته[١] (معاهد) جمع معهد ، وهو في الأصل : المنزل الذي يعود إليه مفارقوه دائماً ، وهـٰذه المواضع كذلك ؛ لأن من فارقها . . فهو عائد إليها بالفعل تارة وبالعزم أخرىٰ (منها) أي : مكة ، امتازت علىٰ بقيتها ، كالكعبة ومسجدها ، ودار خديجة ، والصفا والمروة ، ومحل ولادته صلى الله عليه وسلم ، وغير ذلك من المواضع المأثورة بها وبالحرم ، كمنىً ومزدلفة ، بل وخارجه كعرفة (لم يغير آياتهن) أي : علاماتهن الدالة علىٰ شرفهن من تعظيم الأمة لهن ، وازدحامهم على التبرك بزيارتهن ، والقيام بحقوقهن (البلاء) بفتح الباء ؛ أي : طول المدة الذي من شأنه أن يغير الأشياء عما هي عليه ، وذلك لأن الله تعالىٰ صانها من التغير ؛ لحرمتها لديه ، وفضلها عنده ، وليستمر لهـٰذه الأمة التمتع بها إلىٰ آخر الدهر .

(301)

حَــرَمٌ آمِــنٌ وَبَيْــتٌ حَــرَامٌ   وَمَقَــامٌ فِيــهِ ٱلْمُقَــامُ تَــلَاءُ

(حرم) محرم بحرمة الله تعالىٰ من يوم خلق السماوات والأرض كما في الحديث الصحيح[٢] ، وحديثُ : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ »[٣] المراد به : أنه أظهر حرمتها التي كانت خفيت على الناس ، فلا تعارض بين الحديثين .

وهـٰذا بدل من : (موضع) بدل كل من بعض ، علىٰ حد : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ في

---

(١) عند شرح قوله : (حبذا عقد سؤدد وفخار) البيت رقم (١١) .
(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٤) ، ومسلم (١٣٥٣) .
(٣) أخرجه البخاري (٢١٢٩) ، ومسلم (١٣٦٠) .

(مريم) بناء علىٰ إثبات ذلك البدل ، كما هو رأي قوم قالوا به ولم ينظروا لإنكار الجمهور له ، ولا لمن منع الاستدلال بالآية ، نظراً إلىٰ أن (أل) في : ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ للجنس ، فيصدق بالجمع أيضاً ، فلا بعض محقق يبدل منه الكل ، أو للعهد الخارجي ؛ لأنه لا خارج حتىٰ يكون معهوداً ، أو الذهني ؛ لأن مدخول (اللام) حينئذ بمنزلة النكرة ، وهي موضوعة لفرد ، وكأن وجه عدم نظرِ مُثبتِ ذلك البدل لما ذكر من وجوه المنع : أنه نظر إلىٰ أن جنات عدن علم على الجنان الثمانية الموجودة الآن ، والجنة حيث أطلقت إنما يتبادر منها واحدة من تلك الثمانية ، فصح ادعاء أنه بدل بعض من كل بهٰذا الاعتبار[١] ، وأما تجويز أنه بدل كل من كل ، نظراً إلىٰ أن جنات عدن علم كما تقرر ، وموضوعه شخصي ، فيكون إبدالَ علم من نكرة ، وذلك أقرب إلىٰ كونه بدل كل من كل . . فقد يجاب عنه بأن هٰذا المدلول الشخصي أكثر في الخارج من مدلول النكرة الذي هو الفرد المنتشر ، وذلك أقرب إلىٰ كونه بدل كل من بعض منه إلىٰ كونه بدل كل من كل .

وبهٰذا الذي قررته مما يكفي مثله في إثبات ذلك الرأي المخالف لرأي الجمهور . . يندفع ما أطال به السيد من التشنيع علىٰ من أثبته ، كيف وقائله لا يبعد توجيه كلامه بنحو ما ذكرته ؟! وكل ما قرب مأخذه ، بل أو احتمل . . لا تشنيع به علىٰ قائله .

ويجوز فيه العطف نظيرَ ما مر ، وأنه خبر مبتدأ محذوف .

وحدوده[٢] معروفة في كتب الأئمة وعند أهل تلك الأماكن من أكثر نواحيه .

(آمن) أي : يأمن مَنْ فيه من شن الغارات واستباحة الحرمات ، بل كان الإنسان يرىٰ قاتل أبيه فيه فلا يتعرض له ، ولما دخله الطوفان . . لم تعد فيه دابة علىٰ دابة ، وكان رجل من قوم أبرهة فيه فلم يصبه من رمي الأبابيل شيء حتىٰ خرج منه ، هٰذا في الجاهلية ، وأما بعد بعثته صلى الله عليه وسلم . . فالمراد : أمن صيده وشجره ونباته ، وكذا لُقطَته وترابه عن أن يتعرض أحد إليها بقتل أو قلع أو قطع أو تملك أو نقل إلا

---

(١) كذا في جميع النسخ ، والصواب : أنه بدل كل من بعض ، كما يعلم مما قرره أولاً ، وقد ذكر السيوطي هٰذا النوع من أنواع البدل في « الإتقان » (٢/ ٨٥٩) ، وفي « همع الهوامع » (٣/ ١٧٩) .

(٢) أي : الحرم .

ما استثني ، وهٰذا مقتبس من قوله تعالى : ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ ، وفيه كـ(بيت حرام) الآتي نوع تلميح .

(وبيت حرام) أي : ذو حرمة باهرة وعزة قاهرة ، وهٰذا اقتباس من قوله تعالى : ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ .

(ومقام) بفتح الميم ، هو مقتبس من قوله تعالى : ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهو الحجر الذي نزل لإبراهيم الخليل علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام من الجنة ، كما صح به الحديث ، ليقوم عليه عند بنائه الكعبة إذا طال البناء ، فكان يعلو به إلىٰ أن يضع الحجر في محله ، ثم يقصر به إلىٰ أن يتناول الحجر من إسماعيل صلى الله عليهما وعلىٰ نبينا وسلم ، وفيه أثر قدميه الكريمتين ، وهو الذي نادىٰ عليه لما فرغ من بناء الكعبة : أيها الناس ؛ إن الله قد بنىٰ لكم بيتاً فحجوا إليه ، فسمعته النطف في الأصلاب والأجنة في الأرحام فأجابوه بلبيك ، وفي رواية : أنه نادىٰ بذلك على الحَجون ، ولا تنافي ؛ لاحتمال أنه نادىٰ مرتين .

قال الأئمة : وبقاؤه من غير أن يتعرض له أحد في الجاهلية ، مع كثرة السيول التي كانت تدخل الحرم ، وتزحزح ما هو أكبر منه بأضعاف مضاعفة.. من آيات الله الباهرة .

واختلفوا في موضعه الموجود فيه اليوم : هل هو الذي كان به في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو لا وإنما كان عند باب الكعبة ، فرده عمر رضي الله تعالىٰ عنه إلىٰ موضعه اليوم اجتهاداً منه ؟ قولان ، أصحهما : الأول .

ومن الغرائب ما قيل : المراد : الحجر الذي وضع الخليل عليه رجليه لما جاء بعد موت هاجر ليزور إسماعيل فرآه غائباً ، فسأل زوجته عن حاله فشكت ، فقال لها : مري زوجك يغير عتبة بابه ، فجاء فأخبرته فطلقها ، ثم جاء وقد تزوج أخرىٰ فوجده غائباً ، فسألها عن حالهم فأثنت ، ثم أمرته بالنزول لتطعمه فأبىٰ ، فوضعت له حجراً ليغتسل عليه ، فوضع قدمه عليه وأمال لها رأسه فغاصت قدمه فيه ، ثم حولته فغاصت الأخرىٰ فيه ، ثم قال لها : مري زوجك فليلزم عتبة بابه .

(فيه) أي : البيت الحرام ، أو الحرم ، ولا يصح عوده لـ(المقام) نظيرَ : ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ .

(المقام) بضم الميم وجوز بعضهم فتحها ؛ أي : الإقامة (تلاء) بفتح الفوقية ؛ أي : جوار لمحل تنزل الرحمات وإقالة العثرات ، وكأنه أخذ هٰذا من أن أهل مكة يُسَمَّون جيران الله ؛ أي : بيته وحرمه ، والعجب من الشارح حيث لم يبين معنىٰ هٰذه القطعة مع خفائها واشتراكها بين معان ـ كما في « القاموس » ـ لا يناسب منها هنا إلا هٰذا .

وبين (حرم) و(حرام) جناس الاشتقاق ، كهو أو شبهه بين (مقام) و(المقام) ، وما يأتي من (قضينا) و(القضاء) ، و(رمينا) و(رماء) ، و(تنشر) و(نشر) ، و(شمت) و(شممت) ، و(قباب) و(قباء) ، و(رحضتها) و(الرحضاء) ، و(حططنا) و(يحط) ، و(قرأنا) و(الإقراء) ، و(سمحنا) و(يسمح) ، و(ذهلنا) و(أذهل) .

(302)

فَقَضَيْنَا بِهَا مَنَاسِكَ لَا يُحْـ ـمَدُ إِلَّا فِي فِعْلِهِنَّ ٱلْقَضَاءُ

(**فقضينا**) أي : أدينا ؛ إذ القضاء يطلق على الأداء لغة كما في : قضيت الدين (**بها**) أي : بمكة وما ينسب إليها كعرفة ومزدلفة ومنىً (**مناسك**) جمع منسك ، من النسك ، وهو : العبادة ؛ أي : أركان الحج والعمرة وواجباتهما وسننهما (**لا يحمد إلا في فعلهن القضاء**) أي : لا يحمد الأداء حمداً مخصوصاً في فعل عبادة إلا في فعلهن ، كيف وقد تميزن بِبِرِّ الحج المتكفل بالجنة من غير عمل آخر ، وبخروج فاعله من الذنوب كيوم ولدته أمه ، وبكونه أشعث أغبر ، وبمنعه من مألوفاته الحسية والمعنوية ، وبفراقه لأهله ووطنه ، وبتكفير تَبِعاته ، علىٰ ما فيه من الخلاف المذكور ، وبكونه لا يضع قدماً أو يرفعها إلا كتب الله له من الثواب ما لا يحيط به إلا المتفضل به .

وبقولي : (مخصوصاً) يندفع ما يورد على النظم : أن غيرَ الحج الأفضلَ منه والمساويَ له والمفضولَ عنه . . يحمد فاعله أيضاً .

تنبيه : بما قررت به قوله : (فقضينا) و(القضاء) يندفع ما للشارح هنا ، ومن

جملته قوله : (لا يفسر « القضاء » آخر البيت بالفعل ، ويتعين أنه الفراغ أو ضد الأداء) ففسر القضاء بما ليس معناه لغة ولا شرعاً ، وبما لا يتصور في الحج وهو قوله : (أو ضد الأداء) علىٰ أن استعمال القضاء بمعنى الأداء أشهر من الشمس لغة وشرعاً .

وقد حقق بعض المتأخرين : أن القضاء لا يتصور في الحج ؛ لأنه : ما فُعلَ خارجَ وقته ، والحج وقته العمر ، وتضيقه بخوف نحو عضب أو موت لا يقتضي أنه لو بان الأمر علىٰ خلاف ظنه . . يكون قضاء فيما بعد ذلك الوقت ، إلا على الوجه الضعيف في نظيره في صلاة يضيق عليه فعلها في الوقت ثم بان خلاف ما ظنه أنها تصير قضاء وإن فعلت في الوقت ، وليس كذلك ، بل المعتمد ـ خلافاً لكثيرين ـ : أنها أداء ، كما اتفق عليه الأصوليون أن القضاء : ما يفعل خارج الوقت المقدر له شرعاً .

تنبيه ثان : لا يتوهم أن ما وقع في النظم من تقديم المستثنى المختلف فيه ؛ لأن محل ما قاله الجمهور من منع تقديمه إنما هو إذا كان أول الكلام نحو : إلا زيداً قام القوم ، وجوزه الكوفيون ، فإن تقدم على المستثنىٰ منه وعامله فقط . . ففيه مذاهب ، والذي عليه الأخفش وصححه أبو حيان . . جوازه إن كان العامل متصرفاً فقط ، نحو :

أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ ٱللهَ بَاطِلُ[1]

فالاستثناء من ضمير (باطل) العامل في ذلك الضمير ، وما هنا لا تقدم فيه علىٰ مستثنىً منه ؛ لأنه مقدر كما قدرته ، ولا علىٰ عامله ، وإنما هو علىٰ حد :

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلاَّ ٱلنَّبِيُّونَ شَافِعُ[2]

---

(١) هـٰذا صدر بيت من الطويل ، وعجزه :

وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

وهو للبيد بين ربيعة العامري رضي الله عنه في « ديوانه » (ص١٤٥) .

(٢) هـٰذا عجز بيت من الطويل ، وصدره :

فَإِنَّهُمُ يَرْجُونَ مِنْهُ شَفَاعَةً

وهو لحسان بن ثابت رضي الله عنه في « ديوانه » (١/ ٢٦٧) ، ولـٰكنه بنصب (النبيون) . فليتنبه .

وحكىٰ سيبويه : ما لي إلا أبوك أحد ، قال : فيجعلون (أحد) بدلاً ، و(أبوك) مبدلاً منه .

قال ابن عصفور : ولا يقاس علىٰ هـٰذه اللغة ، وقد قاسه الكوفيون والبغداديون وابن مالك ، وعليه فلا اعتراض على المتن .

(303)

وَرَمَيْنَا بِهَا ٱلْفِجَاجَ إِلَىٰ طَيْـ ـبَةَ وَٱلسَّيْرُ بِٱلْمَطَايَا رِمَاءُ

(ورمينا بها) أي : الناقة (الفجاج) جمع فج ، وهو الطريق ؛ أي : ألقيناها فيها لتسير بنا (إلىٰ طيبة) هي المدينة علىٰ مشرِّفها أفضل الصلاة والسلام ، سميت بذلك لأن الله تعالىٰ طيبها لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فجعلها دار هجرته ، ومحل نصرته ، وموضع تربته ، ولها أسماء أخر كثيرة جداً (والسير بالمطايا) جمع مطية ، وهي الدابة تمطو ؛ أي : تجد في سيرها (رماء) مصدر راميته ؛ أي : تشبه سير السهم إذا رمي به .

(304)

فَأَصَبْنَا عَنْ قَوْسِهَا غَرَضَ ٱلْقُرْ بِ وَنِعْمَ ٱلْخَبِيئَةُ ٱلْكَوْمَاءُ

(فـ) بسبب أن سيرها يشبه سير السهم أشبهت القوس ، وحينئذ (أصبنا عن قوسها غرض القرب) أي : المدينة المشبهة بالغرض في كونه المقصود بالرمي أو السير ، فتشبيه الناقة بالسهم استعارة بالكناية ، وإثبات الرمي استعارة تخييلية ، وذكر (القوس) و(الغرض) ترشيح ، ويصح كونها شبهت بالقوس ، فهي استعارة بالكناية أيضاً ، وإثبات القوس لها تخييل ، وذكر (السهم) و(الإصابة) و(الغرض) ترشيح (ونعم الخبيئة) ـ أي : الذخيرة ـ الناقة (الكوماء) هي المخصوص بالمدح ، وهو خبر مبتدأ محذوف أو عكسه ، فقول الشارح : إنه صفة (الخبيئة) ليس في محله ، وهي ـ أعني : (الكوماء) ـ العظيمة السنام .

(305)

فَـرَأَيْنَـا أَرْضَ ٱلْحَبِيـبِ يَغُـضُّ ٱلطَّـ ـــرْفَ مِنْهَــا ٱلضِّيَــاءُ وَٱلــلَّأْلَاءُ

(فرأينا) أي : أبصرنا المدينة وما حواليها التي شرفها الله تعالىٰ بأن جعلها (أرض الحبيب) أي : حبيب رب العالمين ، فتميز صلى الله عليه وسلم بمقام المحبة الذي هو أجل وأعلىٰ من مقام الخلة ؛ لأن المحبة الكاملة تستدعي الخلة وزيادة .

أي : أرض المدينة وما حواليها (**يغض**) أي : يخفض (**الطرف**) مفعول (منها) أي : من أجل الجلالة التي حفتها (**الضياء**) المشرق عليها حساً ومعنىً (**واللألاء**) أي : البرق اللامع علىٰ صفحاتها المشار به إلىٰ مواهب الحق المفاضة على الزائرين .

وفي (الضياء) و(اللألاء) مراعاة النظير .

(306)

فَكَـأَنَّ ٱلْبَيْـدَاءَ مِـنْ حَيْـثُ مَـا قَـا بَلَـــتِ ٱلْعَيْـــنُ رَوْضَـــةٌ غَنَّـــاءُ

(فكأن) ـ بالتشديد وقد تخفف ، نحو : ﴿ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ ـ للتشبيه المؤكد ؛ لأن الأكثر أنه مركب من (كاف) التشبيه و(أن) المؤكدة ، فالأصل في نحو : كأن زيداً أسد : إنه كأسد ، قدم حرف التشبيه اهتماماً به ففتحت (أن) لدخول الجار عليها ، قال بعضهم : وإنما تستعمل حيث يقوى الشبه حتىٰ يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به أو غيره ؟ ولذلك قالت بلقيس : ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ قيل : وترد للظن والشك فيما إذا كان خبرها غير جامد (**البيداء**) من تلك الأرض ، وهو : اسم لمحل قريب من ذي الحليفة المشهور اليوم بأبيار علي (من) للتعليل أو ابتداء الغاية ، وكل منهما خفي ، فالأحسن : أنها زائدة علىٰ مذهب الأخفش وجماعة (**حيث ما**) (ما) زائدة (**قابلت العين**) الناظرة إليها (**روضة غناء**) أي : كثيرة العشب والنبات والأزهار والثمار .

(307)

وَكَــأَنَّ ٱلْبِقَــاعَ زُرَّتْ عَلَيْهَــا طَــرَفَيْهَــا مُــلَاءَةٌ حَمْــرَاءُ

(وكأن البقاع) أي : الأماكن التي حول المدينة المنورة لكثرة ما يغشاها من الأنوار والأضواء المنزلة علىٰ ضريحه المكرم صلى الله عليه وسلم (زرت عليها) أي : البقاع (طرفيها) عائد لقوله : (ملاءة) ـ بضم أوله ـ وهي ثوب عريض ، أو ثوبان ملفوفان ، كذا قيل ، وعبارة شرحي لـ« شمائل الترمذي » : (الملاءة ـ بالضم والمد ـ وهي ـ كما في « القاموس » ـ : كل ثوب لم يضم بعضه إلىٰ بعض بخيط ، بل كله نسج واحد ، وفي « النهاية » : هي الإزار ، وفي « الصحاح » : هي الملحفة ، ولا تنافي ؛ لصدقها على التعريف الأول بكل من هـٰذين) اهـ

وبها يعلم أن الثوبين الملفوفين ملاءتان لا ملاءة واحدة .

(حمراء) شبه تلك الأنوار والأضواء التي غشيت تلك البقاع وعمتها من سائر جوانبها بخيمة حمراء شَدَّت علىٰ ما فيها أزرارَها في عراها من سائر جوانبها .

(308)

وَكَــأَنَّ ٱلْأَرْجَــاءَ تَنْشُــرُ نَشْــرَ ٱلْـ ـمِسْكِ فِيهَا ٱلْجَنُوبُ وَٱلْجِرْبِيَاءُ

(وكأن الأرجاء) أي : نواحي المدينة المنورة (تنشر) أي : تذيع (نشر) أي : ريح (المسك فيها) أي : تلك الأرجاء (الجنوب) وهي الريح التي تقابل الشمال (والجربياء) ـ بكسر الجيم ككيمياء ـ وهي ـ كما في « القاموس » ـ : الشمال أو بردها ، أو الريح بين الجنوب والصبا ، وهي التي تثير السحاب ، وهي المراد هنا .

(309)

فَــإِذَا شِمْــتَ أَوْ شَمَمْــتَ رُبَــاهَــا لَاحَ مِنْهَــا بَــرْقٌ وَفَــاحَ كِبَــاءُ

(فإذا شمت) بكسر الشين المعجمة ؛ أي : نظرت إلىٰ سحائب البرق التي تمطر في تلك البقاع (أو شممت) في « القاموس » : (شممته بالكسر أشمه بالفتح ،

وشمَمته أشمه بالضم)[1] (رباها) جمع ربوة بتثليث الراء ، وهي : ما ارتفع من الأرض (لاح) أي : ظهر ، وهو راجع لـ (شمت) (منها) أي : تلك البقاع (برق) راجع للأول (وفاح) راجع لـ (شممت) ، ففيه لف ونشر مرتب ، (كباء) ـ بوزن كساء ـ عود البخور ، أو ضرب منه ؛ أي : ريحه ، من : كبىٰ ـ بالتشديد ـ ثوبه ؛ أي : بخره .

وبين (فاح) و(لاح) جناس مضارع .

(310)

أَيَّ نُــورٍ وَأَيَّ نَــوْرٍ شَهِــدْنَــا ‏ ‏ ‏ ‏ يَــوْمَ أَبْــدَتْ لَنَــا ٱلْقِبَــابَ قُبَــاءُ

(أي نور) باهر (وأي نور) ـ بفتح أوله ـ أي : زهر نضير ، وبينهما الجناس المحرف ، ومنه حديث : « ٱللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي » (شهدنا) أي : شهدناهما ؛ أي : رأيناهما بأبصارنا وبصائرنا (يوم) ظرف لــ (شهدنا) (أبدت لنا القباب) التي هناك (قباء) محل مشهور بينه وبين المدينة نحو ثلاثة أميال .

(311)

قَــرَّ مِنْهَــا دَمْعِــي وَفَــرَّ ٱصْطِبَــارِي ‏ ‏ ‏ ‏ فَــدُمُــوعِــي سَيْــلٌ وَصَبْــرِي جُفَــاءُ

(قر منها دمعي) أي : كثر وانهمل من أجل ما شهدته حسرة علىٰ ما مضىٰ لي من فراقه ، أو فرحاً بوصولي إليه ، أو خوفاً من التقصير بعدم رعاية الأدب في تلك الحضرة الجليلة (وفر) أي : ذهب (اصطباري) لا سيما بعد أن وصلت إلىٰ هـٰذه الربىٰ ، وأنخت رحلي بقبا .

وبين (قر) و(فر) الجناس المصحف .

(فدموعي سيل) عظيم (وصبري جفاء) بضم الجيم ؛ أي : زبد ، فكما أن السيل يذهب بذلك الزبد في أسرع وقت فكذلك دموعي تذهب بصبري فلا يبقىٰ عندي

---

(١) أي : هو من باب فرح ونصر .

منه شيء ، وهـٰذا من جناس التذييل ، كقوله الآتي : (وكم أذهل صبّاً . . .) إلخ ، وفيه لف ونشر مرتب .

(312)

فَتَرَى ٱلرَّكْبَ طَائِرِينَ مِنَ ٱلشَّوْ قِ إِلَىٰ طَيْبَةٍ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

(فـ) بسبب ما ذكر أن ما شوهد يوجب كثرة الدمع وفناء الصبر (ترىٰ) أيها المخاطب (الركب طائرين) أي : جادين في السير ، حاثّين لدوابهم ليستخرجوا منها أقصىٰ ما يمكنها من الإسراع (من) أجل (الشوق إلىٰ طيبة) المشرفة ، فكيف بمشرِّفها عليه أفضل الصلاة والسلام ؟! (لهم ضوضاء) أي : أصوات عالية بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم .

وعبارة « القاموس » : (الضوضى) مقصورة : الجلبة وأصوات الناس ، لغة في المهموزة) اهـ وبها يعلم رد ما قاله الشارح .

(313)

فَكَأَنَّ ٱلزُّوَّارَ مَا مَسَّتِ ٱلْبَأْ سَاءُ مِنْهُمْ خَلْقاً وَلَا ٱلضَّرَّاءُ

(فكأن) عطف علىٰ (فترى) (الزوار ما مست البأساء) أي : شدة السفر ومشقته (منهم خلقاً ولا الضراء) تأكيد لما قبله ، وكيف يمسهم شيء من ذلك و

(314)

كُلُّ نَفْسٍ مِنْهَا ٱبْتِهَالٌ وَسُؤْلٌ وَدُعَاءٌ وَرَغْبَةٌ وَٱبْتِغَاءُ

(كل نفس) منهم يتكرر (منها ابتهال) أي : تضرع إلى الله تعالىٰ في أن يُقيل عِثارَها ويقبل آثارها (وسؤل) أي : توسل إلى الله تعالىٰ بأحب خلقه إليه (ودعاء) إطناب (ورغبة) فيما عند الله تعالىٰ من جزيل الثواب (وابتغاء) أي : طلب لما عند الله تعالىٰ .

(315)

وَزَفِيـرٌ تَظُـنُّ مِنْـهُ صُـدُوراً   صَـادِحَـاتٍ يَعْتَـادُهُـنَّ زُقَـاءُ

(وزفير) أي : تواتر النفس وصعوده لشدة ما يعتري القلب من خشية المؤاخذة بما فرط منه ، وتفسير الشارح له تارة باغتراق النفس للشدة[1] وتارة بحبسه . . فيه قصور عن ذكر تصاعده الذي لا بد منه في حده (تظن) أيها المخاطب (منه) أي : من أجل كثرة ذلك الزفير وشدته بحيث يسمع له صوت في الصدور ، ومن ثم جاء : أن صدره صلى الله عليه وسلم لشدة ما عنده من الخوف كان يسمع له أزيز كأزيز المرجل[2] (صدوراً) مفعوله الأول ، طيوراً (صادحات) أي : مصوتات (يعتادهن زقـاء) بالزاي والقاف ؛ أي : صوت عال ، والحاصل : أن ذلك الزفير من شدته ظهر له في صدورهم صوت أشبه صوت الطيور الصادحات اللاتي يعتادهن التصويت بشدة وعلو صوت .

(316)

وَبُكَـاءٌ يُغْـرِيـهِ بِـٱلْعَيْـنِ مَـدٌّ   وَنَحِيـبٌ يَحُثُّـهُ ٱسْتِعْـلَاءُ

(وبكاء يغريه بالعين) أي : يحمله علىٰ ملازمته لها (مد) أي : سيل من الدموع نشأ عن حرقة القلب لفراق المحبوب ، أو خشية قطيعته ، أو عن فرحه بلقيا الحبيب والمثول في حضرته (ونحيب) وهو : رفع الصوت بالبكاء (يحثه) أي : يحصله ويزيد فيه (استعلاء) أي : علو الصوت بشدة وتتابعه بالبكاء .

(317)

وَجُسُـومٌ كَـأَنَّمَـا رَحَضَتْهَـا   مِـنْ عَظِيـمِ ٱلْمَهَـابَـةِ ٱلرُّحَضَـاءُ

(وجسوم كأنما رحضتها) أي : غسلتها ، ولذا سمي المغتسل مرحاضاً (من

---

(١) اغتراق النفَس : استيعابه في الزفير .

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٩٠٠) ، وابن حبان (٦٦٥) ، والنسائي (٣/١٣) ، وأحمد (٤/٢٥) ، وغيرهم . والمرجل : القدر من النحاس .

عظيم المهابة) أي : الجلالة التي استولت علىٰ قلوبهم لما أناخوا رحالهم بتلك الحضرة الجليلة (**الرحضاء**) أي : العرق الكثير من أثر الحمى ؛ أي : جسوم قام بها من عظيم المهابة ما أزعجها إزعاجاً يتولد عنه كثرة عرقها حتىٰ كأنه غسلها .

(318)

وَوُجُــوهٌ كَــأَنَّمَــا أَلْبَسَتْهَــا	مِــنْ حَيَــاءٍ أَلْــوَانَهَــا ٱلْحِــرْبَــاءُ

(**ووجوه**) تتلون بألوان مختلفة ؛ لشدة ما عندهم من القلق والخوف والحياء منه صلى الله عليه وسلم عند القدوم عليه بوصف التقصير وعدم كمال الاتباع له ، حتىٰ (**كأنما ألبستها من**) أجل (**حياء**) بالمد ، ومر تفسيره وأنه غريزي باعتبار أصله ، ومكتسب باعتبار كماله (**ألوانها الحرباء**) دويبة مشهورة ، ذات ألوان متعددة ، تستقبل الشمس برأسها .

(319)

وَدُمُــوعٌ كَــأَنَّمَــا أَرْسَلَتْهَــا	مِــنْ جُفُــونٍ سَحَــابَــةٌ وَطْفَــاءُ

(**ودموع**) من شدة البكاء والحزن علىٰ عدم القيام بواجب تلك الحضرة ومشرِّفها عليه أفضل الصلاة والسلام (**كأنما أرسلتها من جفون سحابة وطفاء**) أي : مسترخية الجوانب لكثرة مائها ، شبه ما عندهم من الحزن الباعث لهم علىٰ غزارة الدمع وكثرة تتابعه بسحابة مملوءة ماء ، ثم جرد بذكر الجفون ، ورشح بذكر الوطف ، وخيل بإثبات السحابة للمشبه ، ففيه أربع استعارات .

وفي قوله : (كل نفس. . .) إلىٰ هنا من مراعاة النظير والانسجام البديع الذي هو : سهولة الألفاظ وعذوبتها بحيث شابهت الماء العذب الذي من شأنه الانسجام والسيلان والرقة والحلاوة. . ما لا يخفىٰ علىٰ ذي ذوق عظيمُ بلاغته ، ومر له كثير من هـٰذا النوع .

(320)

فَحَطَطْنَا ٱلرِّحَالَ حَيْثُ يُحَطُّ ٱلْـ ـــوِزْرُ عَنَّا وَتُرْفَعُ ٱلْحَوْجَاءُ

(فـ) بعد أن وصلنا إلىٰ ذلك القبر المكرم صلى الله على الحالِّ به وسلم علىٰ ما بينا مما مر شرحه بقوله : (كل نفس . . .) إلىٰ هنا (حططنا الرحال) بفِناء كرمه صلى الله عليه وسلم نستمطر سحائب القبول والإنعام ، ونستقيل عثرات التقصير والآثام ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

(حيث) أي : في مكان (يحط الوزر) أي : الإثم والثقل (عنا) فيه بشفاعة مشرِّفه عليه أفضل الصلاة والسلام (وترفع) عنا بلحظه وإسعافه وإمداده صلى الله عليه وسلم (الحوجاء) أي : الحاجة بفَناء النفوس وطلوع البدور وشروق الشموس حتىٰ نَصل إلى العيان ، ونستغني عن الاستدلال والبرهان .

وبين (الحط) و(الرفع) طباق .

(321)

وَقَرَأْنَا ٱلسَّلَامَ أَكْرَمَ خَلْقِ ٱللهِ مِـــنْ حَيْـــثُ يُسْمَــعُ ٱلْإِقْـــرَاءُ

(وقرأنا السلام أكرم) أي : علىٰ أكرم (خلق الله) وأفضلهم كما مرت أدلته مستوفاة أول هٰذا الشرح ، واقتدى الناظم في هٰذا بالسلف ، فإنه جاء السلام عليه صلى الله عليه وسلم عند قبره عن ابن عمر وغيره من السلف ، بل قال المجد اللغوي : السلام عليه صلى الله عليه وسلم عند قبره أفضل من الصلاة عليه عنده ؛ أي : للأخبار الكثيرة الواردة فيه ، كخبر : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي . . إِلاَّ رَدَّ ٱللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامَ »[1] ، ويعارضه الحديث الصحيح : (إِنَّهُ تَعَالَىٰ يُصَلِّي هُوَ

---

(١) أخرجه أبو داوود (٢٠٣٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٥/٢٤٥) ، وأحمد (٢/٥٢٧) دون لفظ : « عند قبري » .

وَمَلاَئِكَتُهُ عَلَىٰ ٱلْمُصَلِّي عَلَيَّ فِي ٱلصَّلاَةِ ٱلْوَاحِدَةِ عَشْراً)[1] وفي رواية : « مِئَةً » ، وصلاة الله تعالىٰ أفضل من رده صلى الله عليه وسلم وإن كان رده دعاءً لا يرد ، علىٰ أنه صلى الله عليه وسلم يرد الصلاة عليه كالسلام ، فالأولى : أن توجه أفضلية السلام بأنه شعار اللقاء والتحية ، فحينئذ تختص أفضليته بحالة اللقاء عند كل زيارة ، أما إذا سلم سلام اللقاء . . فالصلاة بعده أولىٰ من استمرار السلام وإن كان باقياً في مقام الزيارة ، ويدل لذلك صنيع العلماء ، فإنهم لما ذكروا أن الزائر يبدأ بالسلام . . ذكروا أنه يختم بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

(من حيث) أي : من مكان وقوفنا بتلك الحضرة الذي (**يسمع الإقراء**) للسلام منه ، وفيه رد العجز على الصدر ، وما اقتضاه كلامه من أن زائره صلى الله عليه وسلم إذا صلىٰ وسلم عليه عند قبره . . يسمعه سماعاً حقيقياً ، ويرد عليه من غير واسطة ، وأن من صلىٰ أو سلم عليه من بعيد . . لا يسمعه إلا بواسطة . . تدل عليه أحاديث كثيرة ذكرتها في كتابي « الدر المنضود في الصلاة والسلام علىٰ صاحب المقام المحمود » صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، وذكرت منها جملة في « الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم » ، ومنها ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم ـ بسند جيد ، وقيل : إنه غريب ـ : « مَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ عِنْدَ قَبْرِي . . سَمِعْتُهُ ، وَمَنْ صَلَّىٰ عَلَيَّ مِنْ بَعِيدٍ . . أُعْلِمْتُهُ »[2] وصح ـ وإن نوزع فيه ـ : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ ٱللهُ إِلَيَّ رُوحِي حَتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمَ » وصح ـ من غير نزاع فيه يعتد به ـ : « مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمُ ٱلْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ قُبِضَ ، وَفِيهِ ٱلنَّفْخَةُ ، وَفِيهِ ٱلصَّعْقَةُ ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ ٱلصَّلاَةِ فِيهِ ، فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » قالوا : يا رسول الله ؛ وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ أي : بوزن ضربت ، يعني : بليت ، قال : « إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ ٱلأَنْبِيَاءِ »[3] وفي رواية زيادة : « فَنَبِيُّ ٱللهِ حَيٌّ يُرْزَقُ »[4] وبقيت

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤) ، وابن خزيمة (٤١٨) ، وابن حبان (٩٠٤) ، وغيرهم بمعناه .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٥٨٣) ، وانظر « ضعفاء العقيلي » (٤/ ١٣٦) .

(٣) أخرجه ابن خزيمة (١٧٣٣) ، وابن حبان (٩١٠) ، وأبو داوود (١٠٤٠) ، والنسائي (٣/ ٩١) ، وابن ماجه (١٠٨٥) .

(٤) عند ابن ماجه (١٦٣٧) .

أحاديث أخر متعارضة ، جمعت بينها في الكتاب السابق بأنه صلى الله عليه وسلم يبلغ الصلاة والسلام إذا صدرا من بُعد ، ويسمعهما إذا كانا عند قبره الشريف ، ومع سماعه لهما يبلغهما أيضاً ، زيادة في إكرام الزائر والاعتناء بشأنه ، والاستمداد له بذلك ، سواء ليلة الجمعة وغيرها .

وأما رده صلى الله عليه وسلم . . فهو عام لمن عند قبره ولغيره ؛ لأنه صح : أن من سلم علىٰ قبر أخيه المؤمن سمعه ورد عليه ، فلو اختص رده صلى الله عليه وسلم بزائره . . لم تكن له خصوصية بذلك ، وكفى الزائر تمييزاً أنه صلى الله عليه وسلم يسمع صوته من غير واسطة ، ويكفي المصلي والمسلم من بعيد وقريب رده صلى الله عليه وسلم .

ومعنىٰ رد روحه صلى الله عليه وسلم السابق : رد نطقه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم حي على الدوام ، فروحه لم تفارقه أبداً ، وصح : « ٱلْأَنْبِيَاءُ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ »[١] .

والأحاديث في ذلك كثيرة جمعها الإمام البيهقي في جزء[٢] ، واستدل بها علىٰ دوام حياة الأنبياء حياة مخصوصة أعلىٰ وأتم من حياة الشهداء المنصوص عليها في القرآن .

(322)

وَذَهِلْنَا عِنْدَ ٱللِّقَاءِ وَكَمْ أَذْ هَلَ صَبّاً مِنَ ٱلْحَبِيبِ لِقَاءُ

(وذهلنا) أي : غبنا عن إحساسنا ، أو غبنا عما نحن بصدده (عند اللقاء) لما استولىٰ علينا من سبحات ذلك الجلال ، ونسمات ذلك الجمال (و) لا بدع في هٰذا الذهول ؛ إذ (كم أذهل صباً) أي : شديد الصبابة التي هي : رقة الشوق وغلبة استيلائه (من الحبيب) أي : المحبوب ، وهو متعلق بقوله : (لقاء ؟!) لأن من شأنه أنه يذهل الصب ويخرس المحب ويغيبهما عما عدا المحبوب والاستلذاذ بشهوده وأنسه .

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٣٤٢٥) .

(٢) وسماه : « إثبات عذاب القبر » .

(323)

وَوَجَمْنَا مِنَ ٱلْمَهَابَةِ حَتَّىٰ ... لَا كَلَامٌ مِنَّا وَلَا إِيمَاءُ

(ووجمنا) بفتح الجيم ؛ أي : سكتنا عن الكلام عند اللقاء وبعده ما دمنا في تلك الحضرة العلية ، فلم يبق فينا متسع له (من) أجل (المهابة) أي : الإجلال والمخافة (حتىٰ) اجتمع علينا أمران لا يوجد اجتماعهما إلا في نحو هٰذا المقام ، وهما : (لا كلام منا) بما نريده (ولا إيماء) منا بوجهٍ إلىٰ ما نطلبه ، وذلك حال من قهره الجلال ، واستولت عليه خوارق الأحوال .

وَكَمْ رُمْتُ بَثَّ الشَّوْقِ عِنْدَ لِقَائِهِ ... فَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا مَا نَطَقْتُ وَلاَ حَرْفَا[1]

(324)

وَرَجَعْنَا وَلِلْقُلُوبِ ٱلْتِفَاتَا ... تٌ إِلَيْهِ وَلِلْجُسُومِ ٱنْثِنَاءُ

(ورجعنا) إلىٰ بلادنا (وللقلوب التفاتات) كثيرة جداً برعاية المقام (إليه) أي : نبينا صلى الله عليه وسلم ، بمعنى : أنها مستحضرة للمثول بين يديه صلى الله عليه وسلم والاستمداد منه صلى الله عليه وسلم مع إدامة الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم (وللجسوم) جمع جسم ، وجسم الشيء : جِرمه الناتىء من الأرض (انثناء) أي : انعطاف إلى البقاء في حضرته أبداً إن تيسر ، وإلا . . فإلىٰ تكرر زيارته صلى الله عليه وسلم .

(325)

وَسَمَحْنَا بِمَا نُحِبُّ وَقَدْ يَسْـ ... ـمَحُ عِنْدَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلْبُخَلَاءُ

(وسمحنا) أي : جدنا (بما) أي : بنفيس لا يجود أحد بمثله ، وهو التمتع بتلك الحضرة العلية الذي (نحب) دوامه وعدم مفارقته ، ولٰكن ضرورتنا إلى العود لديارنا

---

(١) البيت من الطويل .

لأجل القيام بمن فيها تخفف الملام عنا ؛ إذ الضرورات تبيح المحظورات ، وأيضاً فإننا وإن كنا بخلاء بهٰذا الفراق لنا أسوة بالبخلاء في ذلك (وقد) وقع يقيناً أنه (يسمح عند الضرورة) التي لا يستطاع معها الترك (البخلاء) بالأموال وغيرها .

وبين (السماح) و(البخل) الطباق .

ولما تمم مقصد زيارته صلى الله عليه وسلم المتكفلة بكل خير . . شرع يناديه صلى الله عليه وسلم بكنيته المختصة به والمناسبة لطلبه من أن يخصه من تلك القسمة التي ولاها الحق له ، ويقسم عليه بأقسام كثيرة كلها تتضمن ما هو بصدده من مدحه والثناء عليه ، استعطافاً له ؛ لينظر إليه بما يفوز به في الدنيا والآخرة ، ويأمن به من كل محنة باطنة وظاهرة ، ومن ثم خص جواب أقسامه بقوله الآتي : (الأمان الأمان . . .) إلخ فقال :

(326)

يَا أَبَا ٱلْقَاسِمِ ٱلَّذِي ضِمْنَ إِقْسَا مِـي عَلَيْـهِ مَـدْحٌ لَـهُ وَثَنَـاءُ

(يا أبا القاسم) هٰذه كنيته صلى الله عليه وسلم التي اختص بها ، فلا يجوز لأحد التكني بها مطلقاً على الأصح عندنا ، سواء في زمنه صلى الله عليه وسلم وبعده ، لمن اسمه محمد وغيره ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « تَسَمَّوا بِٱسْمِي وَلاَ تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي »[١] والعبرة ـ كما تقرر في الأصول ـ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هنا ، فإن سبب النهي : أن اليهود كانوا ينادونه بذلك ، فيلتفت صلى الله عليه وسلم إليهم ، فيقولون له : لا نعنيك ، فنهى الناس عن التكني بذلك ، ومن هٰذا أخذ بعض أئمتنا : أن المنع خاص بزمن حياته صلى الله عليه وسلم ، وبعضهم : أنه خاص بمن اسمه محمد ، وتكنية علي كرم الله تعالىٰ وجهه ولده محمد ابن الحنفية بذلك بإذن منه صلى الله عليه وسلم إن صح . . خصوصية له[٢] ، وتكنيته غيره بذلك اجتهاد منه .

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٢١٣١) .
(٢) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٩/ ٣٠٩) .

ووجه مناسبة اختصاص تلك الكنية به صلى الله عليه وسلم : الإعلام بأنه صلى الله عليه وسلم هو الخليفة الأعظم عن الله تعالىٰ في جميع شؤونه ، لا سيما مقام قسمة الأرزاق والعلوم والمعارف والطاعات ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أيضاً : « إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَٱللهُ يُعْطِي »[1] ولأجل هٰذا عدوا من خصائصه صلى الله عليه وسلم : أنه أعطي مفاتيح الخزائن ، قال بعض العلماء : وهي خزائن أجناس العالم ؛ ليخرج لهم بقدر ما يطلبون ، فكل ما ظهر في هٰذا العالم فإنما يعطيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي بيده المفاتيح ، وكما اختص الله تعالىٰ بمفاتيح الغيب الكلي فلا يعلمها إلا هو . . كذلك اختص صلى الله عليه وسلم بإعطائه مفاتيح الخزائن الإلـٰهية ، فلا يخرج منها شيء إلا علىٰ يديه صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إنما كني بذلك ؛ لأنه كان له ولد من خديجة رضي الله عنها يسمى القاسم .

(الذي ضمن) من : تضمن كذا اشتمل عليه (إقسامي عليه) ـ بكسر الهمزة ـ بالأقسام الكثيرة الآتية في نيل مطلوبي منه صلى الله عليه وسلم (مدح له) فرقوا بينه وبين الحمد بأمور :

أحدها : أن الحمد على الجميل الاختياري ، والمدح علىٰ ما لا اختيار للعبد فيه كالحسن .

ثانيها وثالثها : أن الحمد إنما يكون عن علم وبصفة كمال ، والمدح يكون عن ظن وبصفة مستحسنة وإن كان فيها نقص ما .

رابعها : أن في الحمد من التعظيم والفخامة ما ليس في المدح ، والحمد اختص بالفضلاء وبالعقلاء والعظماء ، وأكثر إطلاقاً على الله تعالىٰ .

وقول « الكشاف » : (إنهما أخوان)[2] أي : متشابهان لا مترادفان ، قاله الطيبي ، وقال السيد : بل مترادفان ، واستدل له بكلام « الفائق »[3] ، وانتصر بعض

---

(١) أخرجه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧/ ١٠٠) .
(٢) الكشاف (١/ ٥١) .
(٣) (١/ ٣١٤) .



المحققين للأول بما ليس هـٰذا محل بسطه ، وأكثر العلماء علىٰ أن الحمد مختص بالاختياري ، والمدح أعم .

(وثناء) هو على القول الأخير مرادف للمدح ؛ لأنه لا يكون إلا في الخير الاختياري وغيره ، والمدح علىٰ ذلك القول كذلك ، وبه ـ كما تقرر أن عليه أكثر العلماء ـ يندفع قول الشارح : (هـٰذا من مراعاة النظير) وعلىٰ ما قبل الأخير يكون فيه مراعاة النظير في الجملة ، وعليه يحمل كلام الشارح : (أما الحمد والمدح . . ففيهما تقابل ، أو مراعاة النظير ، أو ترادف) .

(327)

بِـاْلْعُلُـومِ اْلَّتِـي عَلَيْـكَ مِـنَ اْللهِ　　بِـلَا كَـاتِـبٍ لَهَـا إِمْـلَاءُ

(بالعلوم) أي : أقسم عليك بها لتشفعن لي بما يؤمنني من كل مكروه ؛ بأن يعطيني الله الأمان منه ، وكذا يقال في الأقسام الآتية ، فالمراد بها هنا : الشفاعة والاستعطاف ليجاب سؤاله ، ومن ثم قال بعض أصحابنا في : أقسم وأقسمت عليك لتفعلن كذا : إنه لا يكون يميناً إلا إن نواه ، وجعلها أول الأقسام ؛ لأن مرتبة العلم لا أعلىٰ منها ، بل ولا مساوي لها ، ومن ثم لم يؤمر صلى الله عليه وسلم بالسؤال للزيادة مما هو عليه إلا العلم : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ وهو : صفة يتجلىٰ بها المذكور لمن قامت به تجلياً يمنع من احتمال النقيض (التي) تنزلت (عليك من الله) حال كونها (بلا كاتب) من الكَتْب وهو الجمع ، وإنما الموصل (لها) إليك (إملاء) أي : إقراء من جبريل ، وهـٰذا الذي قررته في إعراب هـٰذا البيت أولىٰ مما سلكه الشارح . فتأمله .

وبين (القاسم) و(الإقسام) جناس مطلق ، و(الكتابة) و(الإملاء) طباق .

(328)

وَمَسِيـرِ اْلصَّبَـا بِنَصْـرِكَ شَهْـراً　　فَكَـأَنَّ اْلصَّبَـا لَـدَيْـكَ رُخَـاءُ

(و) أقسم عليك بما أوتيته أيضاً من (مسير الصبا) وهي : الريح اللينة التي مهبها مطلع الشمس عند استواء الليل والنهار ، وهي مراد الحسن في قوله : (فإذا جعلت

ظهرك إلىٰ باب الكعبة . . فالصبا مقابلك ، وهي مستقبل باب الكعبة)[1] وقول إسرائيل بن يونس : الصبا ما جاء من قبل وجه الكعبة ، وتطلق علىٰ ما يهب من يمين هـٰذا المطلع إلىٰ قريب سهيل ، ويساره إلىٰ قريب القطب الشمالي .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : أن ما بين مطلع الشمس والجدي يسمىٰ صبا ، ويسمىٰ شمالاً[2] ، وبتسميته صبا صرح عثمان الأعرج من السلف حيث قال : (حد الصبا من مطلع الشمس إلىٰ كرسي بنات نعش)[3] .

وفي « القاموس » : (الشمال : الريح التي تهب من قِبَل الحجر) أي : بكسر الحاء ، ثم قال : (والصحيح : أنه ما مهبه بين مطلع الشمس وبنات نعش ، أو من مطلع الشمس إلىٰ مسقط النسر الطائر) ، وفيه : (والصبا : ريح مهبها من مطلع الثريا إلىٰ بنات نعش ، والدبور : ريح تقابل الصبا ، والجنوب : ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيل إلىٰ مطلع الثريا) .

ولهـٰذه الريح أثر بين في نصرته صلى الله عليه وسلم في وقعة الخندق المسماة بالأحزاب كما مر .

(بنصرك) أي : بسببه ، وهو الرعب الذي قطع قلوب أعدائه ، وأخمد شوكتهم ، وبدد جموعهم (شهراً) مقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم : « نُصِرْتُ بِٱلصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِٱلدَّبُورِ »[4] مع قوله صلى الله عليه وسلم : « أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ ٱلأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِٱلرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ . . . » الحديث[5] ، ومنها يعلم أن الصبا كانت تسير بسبب نصرته صلى الله عليه وسلم ، وهو الرعب ؛ أي : الخوف منه ، المزعج لأعدائه صلى الله عليه وسلم مسافة شهر من سائر نواحي المدينة ، فلم يرفع أحد منهم رأساً إلا اختطفته لوامع سيوف نصره ، وقواصف أسنة قهره .

والتحديد بالشهر إشارةٌ إلىٰ أن ما يستولي عليه لا تزيد مسافته في حياته علىٰ شهر ،

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٤/ ١٣٢٦) .
(٢) العظمة (٤/ ١٣٣٦) .
(٣) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٤/ ١٣٣٥) .
(٤) أخرجه البخاري (١٠٣٥) ، ومسلم (٩٠٠) .
(٥) أخرجه البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) .

فلا ينافي أن ملك أمته يزيد علىٰ ذلك بكثير ، واحترازٌ عن غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن رعبهم إن وجد لا يصل لهـٰذه المسافة .

وفي رواية : « وَنُصِرْتُ عَلَىٰ ٱلْعَدُوِّ بِٱلرُّعْبِ وَلَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ »(١) قال بعضهم : والظاهر : اختصاصه به مطلقاً ، وإنما جعل الغاية شهراً ؛ لأنه لم يكن بين بلده صلى الله عليه وسلم وبين أحد من أعدائه أكثر من شهر ، وهـٰذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتىٰ لو كان وحده بغير عسكر ، وهل هي حاصلة لأمته من بعده ؟ فيه احتمالان ، أظهرهما ـ كما تقضي به المشاهدة ـ : أنهم رزقوا من ذلك حظاً وافراً .

(فكأن الصبا لديك رخاء) وهي : الريح اللينة المسخرة لسليمان صلى الله عليه وسلم ، غدوها شهر ورواحها شهر ، لـٰكن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم أظهر وأعظم ؛ لأن تلك سخرت لذات سيدنا سليمان ، وهـٰذه سخرت لصفة من صفات نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهي هيبته ، وأيضاً فتلك إنما كانت تسير بعد أمر سليمان لها ، وهـٰذه تسير بأمر ربها من غير توسط أمر من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو من تشبيه الأعلىٰ بالعلي ، نظير : « كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » في صلاة التشهد علىٰ أحد الأجوبة فيه .

وفي ذكر (الرخاء) بعد (الصبا) مراعاة النظير .

تنبيه : أصول الرياح أربعة : الصبا ، وهي التي تهب من جهة باب الكعبة ، وهي حارة يابسة ، والدبور من ورائها ، باردة رطبة ، والجنوب من جهة يمينها ، حارة رطبة ، والشمال من جهة شمالها ، باردة يابسة .

وأشرت بقولي : (أصول) إلىٰ أن لهم فروعاً كالنكباء ، وفسرها بعض السلف بأنها بين الصبا والجنوب ، وأطال في « القاموس » الكلام فيها ، وحاصله : (والنكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين ، أو بين الصبا والشمال ، أو نكب الرياح أربع : الأزيب نكباء الصبا والجنوب ، والصبابية ـ وتسمى النكيباء أيضاً ـ نكباء الصبا والشمال ، والجربياء نكباء الشمال والدبور ، وهي نيحة الأزيب ، والهيف نكباء الجنوب والدبور ، وهي نيحة النكيباء) .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٢) .

وتفسير كل بما ذكر فيه هو الأصل ، فلا ينافي ما مر آنفاً من إطلاق بعضها علىٰ خلاف ما فسرت به هنا ، وفي « القاموس » : (والجنوب : ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيل إلىٰ مطلع الثريا) .

تنبيه ثان : روىٰ مسلم : أن الشمال ريح الجنة التي تهب عليهم[1] ، وينافيه الحديث الذي أخرجه ابن جرير وابن مردويه وابن أبي الدنيا وأبو الشيخ : « رِيحُ ٱلْجَنُوبِ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ، وَهِيَ مِنَ ٱللَّوَاقِحِ ، وَفِيهَا مَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَٱلشَّمَالُ مِنَ ٱلنَّارِ ، تَخْرُجُ فَتَمُرُّ بِٱلْجَنَّةِ ، فَتُصِيبُهَا نَفْحَةٌ مِنْهَا ، فَبَرْدُهَا مِنْ ذَلِكَ »[2] ويجاب بأن ما ذكر في الحديث الأخير هو حال الشمال في الدنيا ، فخروجها أولاً من النار ، ثم تتكيف بريح الجنة وبردها ، وحكمة ذلك : جمعها للقوة النارية والقوة البردية ؛ لأن من شأن الأولىٰ كثرة الحركة وشدة الإنضاج ، والثانية ملاءمة النفس وإزالة أكدارها ، فهـٰذا حالها في الدنيا ، وما في الحديث الأول هو حالها في الآخرة ، فأهل الجنة لا يرون سواها ، كما يصرح به قوله : « وهي ريح الجنة . . . » إلخ ، وبهـٰذا يعلم : أن الشمال أفضل الرياح ؛ لأن حديث : « ٱلْجَنُوبُ مِنْ رِيحِ ٱلْجَنَّةِ »[3] وحديث : « رِيحُ ٱلْجَنُوبِ مِنَ ٱلْجَنَّةِ » غاية أمرهما أنهما يدلان علىٰ أن ريح الجنوب من بعض رياح الجنة ، وما دل عليه حديث الشمال من ذكر حالها وما اختصت به في الدنيا والآخرة . . أعلىٰ مما دل عليه حديث الجنوب . فتأمله .

فإن قلت : جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الجنوب سيد الأرواح ، واسمها عند الله الأزيب[4] .

قلت : هو معارض بما جاء عن قيس بن سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله تعالىٰ عنهما : الشمال ملح الأرض ، ولولا الشمال . . لأنتنت الأرض[5] ، فهـٰذه فائدة جليلة دنيوية نشأت عن خروجها أولاً من النار خلت عنها الجنوب ، فلتكن

---

(١) مسلم (٢٨٣٣) .
(٢) تفسير الطبري (١٤/ ١٥) ، والدر المنثور (١/ ٣٩٨) ، والعظمة (٤/ ١٣٠٥) .
(٣) أخرجه الضياء في « المختارة » (٢٥٢٨) .
(٤) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٤/ ١٣٣٩) .
(٥) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٤/ ١٣٣٧) .

الشمال أفضل ، أو يقال : كل منهما أفضل من وجه ، فالجنوب لكونها تخرج أولاً من الجنة ، والشمال لكونها هي التي تهب علىٰ أهل الجنة فيها ، هـٰذا كله بفرض تكافؤ سند الحديثين ، وليس الأمر كذلك أصلاً ، إذ سند حديث مسلم لا يوازيه شيء ، وحينئذ لا يعارض حديثه شيء من الأحاديث الأخر ؛ لأنها ليست في رتبته ، بل ولا قريب منها ؛ لأنها من حيز الضعيف ، وهو لا يعارض الصحيح أصلاً ، وفي أثر عثمان الأعرج : أنه ذكر الأرواح الأربعة وحدَّ كلٍّ فقط ، إلا الشمال فزاد أنها تمر بجنة عدن ، فتأخذ من طيب عرفها ، وفيه : أن الأربعة مساكنها تحت أجنحة الكَروبيين حملة العرش ، وأنها تهيج فتقع بعجلة الشمس ، فتعين الملائكة علىٰ جرها ، ثم تهيج من عجلة الشمس فتقع في البحر ، ثم تهيج من البحر فتقع برؤوس الجبال ، ثم تهيج من رؤوس الجبال فتقع في البر ، ثم ذكر أن حد الشمال من كرسي بنات نعش إلىٰ مغرب الشمس ، وحد الدبور منه إلىٰ مطلع سهيل ، والجنوب منه إلىٰ مطلع الشمس ، والصبا منه إلىٰ كرسي بنات نعش[١] .

فإن قلت : علم مما تقرر أن كلاًّ من الجنوب والشمال له مزية ، بخلاف الصبا مع أنها التي خدمته صلى الله عليه وسلم ، وكان القياس أن تكون نُصْرتُه صلى الله عليه وسلم بأَحَدِ ذينك ؛ ليكون الأفضل ولو من وجه ، بل كان القياس اختصاص ذلك بالشمال ؛ لما تقرر أنها الأفضل مطلقاً .

قلت : إن أخذنا بما عرف مما مر أن الشمال تطلق علىٰ ما يعم الصبا . فالأمر واضح ، وإن قلنا بتغايرهما كما هو الأصل . . فحكمة ذلك ـ والله أعلم ـ : أن وقت مهب الصبا هو المعين علىٰ قتاله العدو ، بخلاف وقت مهب الشمال ، وقد يكون في المفضول مزية ، بل مزايا لا توجد في الفاضل . فتأمل ذلك كله فإنه مهم أي مهم ، مع أني لم أر أحداً أشار لشيء من ذلك .

قال بعض المفسرين : والريح مسكنها تحت الأرض الثانية كما ورد في الحديث الصحيح ، وفيه : « لَمَّا أَرَادَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُهْلِكَ عَاداً . . أَمَرَ خَازِنَ ٱلرِّيحِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ رِيحاً لِيُهْلِكَهُمْ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ؛ أُرْسِلُ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ مَنْخَرِ ٱلثَّوْرِ فَقَالَ لَهُ ٱلْجَبَّارُ

---

(١) مر تخريجه قبل نحو صحيفتين .

سُبْحَانَهُ : كُنْتَ تُكْفِىءُ ٱلأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، لَـٰكِنْ أَرْسِلْ عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ ٱلْخَاتَمِ »[1] قال في الحديث : « وَٱلأَرْضُ ٱلثَّالِثَةُ فِيهَا حِجَارَةُ جَهَنَّمَ ، وَٱلرَّابِعَةُ فِيهَا كِبْرِيتُ جَهَنَّمَ ، وَٱلْخَامِسَةُ فِيهَا حَيَّاتُ جَهَنَّمَ ، وَٱلسَّادِسَةُ فِيهَا عَقَارِبُ جَهَنَّمَ ، وَٱلسَّابِعَةُ فِيهَا سَقَرُ ، وَفِيهَا إِبْلِيسُ مُصَفَّدٌ بِٱلْحَدِيدِ » قال فيه : « فَإِذَا أَرَادَ ٱللهُ أَنْ يُطْلِقَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ . . أَطْلَقَهُ » رواه الحاكم[2] ، وقال الحافظ المنذري : (إنه صحيح ولم يخرجه الشيخان)[3] ولا ينافي هـٰذا قول الشارح السابق ، وفيه أن الأربع مسكنها تحت أجنحة الكَروبيين حملة العرش ؛ لجواز أن تكون أجنحة الكَروبيين تحت الأرض الثانية ؛ لما ورد : أن أقدامهم تحت الأرض السابعة . اهـ

(329)

وَعَلِــــيٍّ لَمَّـــا تَفَلْـــتَ بِعَيْنَيْـ ـــهِ وَكِلْتَـاهُمَـا مَعـاً رَمْـدَاءُ

(و) أقسم عليك بمعجزتك العظمىٰ منها ما هو مع (**علي**) كرم الله وجهه في غزوة خيبر (**لما**) سرت إليها ، ودفعت الراية وكانت سوداء لعلي رضي الله عنه ، ففتح بعض حصونها ، وأرسلت أبا بكر رضي الله عنه لحصن آخر ، فقاتل ورجع بلا فتح ، فأرسلت عمر رضي الله عنه فقاتل ورجع بلا فتح وقد جهد ، فقلت : « لأُعْطِيَنَّ ٱلرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ ٱللهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ ، يَفْتَحُ ٱللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ » فتشوف كل أحد لذلك ، فسألت عن علي رضي الله عنه ، فقيل : به رمد ، فدعوت علياً ، فجاء وإنسان يقوده من شدة الرمد ، فحينئذ (**تفلت بعينيه وكلتاهما معاً**) حال مؤكدة (رمداء) ثم قلت له : « خُذْ هَـٰذِهِ ٱلرَّايَةَ وَٱمْضِ بِهَا حَتَّىٰ يَفْتَحَ ٱللهُ عَلَيْكَ »[4] فبرأتا لما خالطهما ريقك الذي هو الشفاء الأكبر .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٩٤) .
(٢) المستدرك (٤/ ٥٩٤) .
(٣) انظر « الترغيب والترهيب » (٤/ ٣٧٤) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧/ ٣٥) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/ ٦١) ، وأصله عند البخاري (٢٩٤٢) ، ومسلم (٢٤٠٥) .

فَغَـدَا نَـاظِـراً بِعَيْنَـيْ عُقَـابٍ   فِـي غَـزَاةٍ لَهَـا ٱلْعُقَـابُ لِـوَاءُ

(فغدا) أي : ذهب بتلك الراية يضرب بعينيه المثل في حدة الإبصار كما يضرب ببصر العقاب الذي هو سيد الطيور كما في « الكامل » ، ومن ثم قال : (ناظراً بعيني عقاب) ومن أمثال العرب : أبصر من عقاب[١] ، ولما غدا وهو كما ذكر . . هرول هرولة حتىٰ ركز رايته في رَضْم من حجارة تحت الحصن[٢] ، فقال له يهودي من باب الحصن : من أنت ؟ قال : علي بن أبي طالب ، فقال اليهودي : علوتم وحق ما أُنزل علىٰ موسىٰ بن عمران ، فما رجع حتىٰ فتح الله علىٰ يديه ، وعند قتاله ضربه اليهودي فطرح تُرسه من يده ، فأخذ باباً تترس به ، واستمر يقاتل حتىٰ فتح الله عليه .

ومن كبر ذلك الباب أن ثمانية أرادوا أن يقلبوه فلم يستطيعوا ، وحمل أيضاً باب الحصن علىٰ ظهره حتىٰ صعد المسلمون عليه ففتحوها ، فجروه بعد ذلك ، فلم يحمله إلا أربعون رجلاً ، هـٰذا كله (في غزاة) معهودة من أعظم الغزوات وأجل الفتوحات ، وهي غزوة خيبر ، كانت مدينة كبيرة ، ذات حصون ومزارع ، علىٰ ثمانية برد من المدينة إلىٰ جهة الشام ، وكانت سنة سبع (**لها العقاب لواء**) أراد باللواء الراية ، وهي العلم الضخم ؛ لأن الذي كان يومئذ راية لا لواء ، ولم يعرف له صلى الله عليه وسلم الرايات إلا بخيبر ، وقبلها كانت الألوية فقط .

نعم ؛ قال عياض في « مشارقه » : اللواء : الراية ، وعليه فلا تجوز في النظم ، وتلك الراية كانت تسمى العُقاب ؛ لأنها سوداء ، ولون العُقاب أسود ، وكانت من برد لعائشة رضي الله تعالىٰ عنها ، ذكر ذلك كله أهل السير وغيرهم كالحافظ الدمياطي وغيره .

وبين (عقاب) و(العقاب) الجناس التام .

وأما قول الشارح : (إن التي تسمى العقاب بيضاء ، وإنها التي أعطاها لعلي) . .

---

(١) انظر « مجمع الأمثال » (١/ ٣١١) .

(٢) الرضم ـ بسكون الضاد وتفتح ـ هو : صخور عظام .

فهو مخالف لما رأيته من كلام أهل السير ، علىٰ أنه ناقض ذلك حيث قال : (وقوله : « لها العقاب لواء » يحتمل أن العقاب كانت تحوم علىٰ لحوم القتلىٰ كأنها رايات مرتفعة) اهـ

وهـٰذا احتمال لا يقوله إلا من لم يطلع علىٰ ما سبق أن رايته صلى الله عليه وسلم يومئذ كانت سوداء تسمى العقاب ، ثم يحتمل أن هـٰذه هي التي أعطاها صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه ، ويحتمل أنه أعطاه غيرها كما أعطى اثنين رايتين غير راية علي كرم الله تعالىٰ وجهه .

ونقل بعض أهل السير عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : أن علياً رضي الله عنه هو الذي كان معه لواء النبي صلى الله عليه وسلم في كل زحف[١] .

وعن سعيد بن المسيب : أن راية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد مرط أسود ، وراية الأنصار يقال لها العقاب ، وفي هـٰذا نظر ؛ لما مر أن الرايات لم تعرف إلا يوم خيبر ، وأما تسمية راية الأنصار يوم أحد بالعقاب . . فهو جري على الغالب علىٰ ما عليه أهل اللغة : أن كل راية تسمى العقاب ، كما أن راية النبي صلى الله عليه وسلم تسمىٰ بذلك ، وعليه فقول الناظم : (لها العقاب لواء) لا يختص بخيبر ، خلافاً لما يوهمه صنيعه .

(331)

وَبِـــرَيْحَـــانَتَيْـــنِ طِيبُهُمَـــا مِنْـــكَ ٱلَّـذِي أُوْدِعَتْهُمَـا ٱلـزَّهْـرَاءُ

(و) أقسم عليك أيضاً (بريحانتين) وهما سيدنا الحسن وسيدنا الحسين كرم الله وجههما ورضي الله عنهما وأمهما وأبيهما ، وفي تسميتهما بذلك اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري : « هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ ٱلدُّنْيَا »[٢] وفي رواية « إِنَّ ٱبْنَيَّ هَـٰذَيْنِ رَيْحَانَتَايَ مِنَ ٱلدُّنْيَا »[٣] (طيبهما) حسّاً ومعنىً وفضلهما علىٰ غيرهما

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١١١) ، وابن عبد البر في « الإستيعاب » (٣/ ٢٧) .

(٢) البخاري (٣٧٥٣) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٧٠) بمعناه .

رضي الله عنهما إنما هو حاصل (منك) لأنهما بَضعتان منك مع ما لاحظتهما به من المزايا والخصوصيات ، وكان طيب رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفاً مشهوراً بين الصحابة يضرب به المثل وإن لم يتطيب ، بل كانت أم أنس تأخذ من عرقه صلى الله عليه وسلم ليتطيبوا به[1] ؛ لباهر ريحه (الذي) نعت لـ(طيبهما) (أودعتهما) ـ بالبناء للمفعول ـ فاطمة (الزهراء) رضي الله عنها ، مبتدأ خبره ما قبله ، وهو الصلة والموصول ، كذا ذكره الشارح ، ولا يصح ؛ لخلو جملة الصلة عن عائد للموصول ، وجُوِّز البناء للفاعل وأن المفعول الثاني محذوف ؛ أي : الذي الزهراء أودعتهما إياه ، وفيه قلاقة وحذف من غير دليل ، فالصواب : أن (الذي) نعت لـ(الريحانتين) بتأويلهما بالمذكور أو نحوه ، ونظير ما ذكرته في (الذي) : قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو داوود : « هَـٰذَانِ مِنِّي »[2] يعني : الحسن والحسين ، ونظيره أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ . قال أبو حيان : يجوز استعمال (الذي) بمعنىٰ (الذين) لـٰكن يجب كون ضمير الصلة ضمير الجمع اعتباراً بمعناه ، ثم قال : والذي نختاره ـ أي : في قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ـ أنه أفرد لفظاً وإن كان تحته أفراد ، فيكون التقدير : كمثل الجمع الذي استوقد ، وقيل في الآية : (الذي) بمعنى الجنس ، فلا يختص بالواحد ، وقيل : حذفت نونه تخفيفاً ، وقيل : موصوفه لفظ مفرد ، وكل ذلك يأتي فيما نحن فيه . فاستفده .

وأشار بقوله : (أودعتهما) إلىٰ ما هو من خصائصه صلى الله عليه وسلم : أن أولاد بناته ينسبون إليه صلى الله عليه وسلم في الكفاءة وغيرها ، ووجه تلك الإشارة : أنه جعل فاطمة رضي الله عنها مستودعة ، فهو الذي أودعها تلك الذرية ؛ لتخرج منها منسوبة إليه .

وسميت بـ(الزهراء) لأنها لم تحض كما في حديث رواه الغساني ، وروى الخطابي : « ٱبْنَتِي فَاطِمَةُ حَوْرَاءُ آدَمِيَّةٌ لَمْ تَحِضْ وَلَمْ تَطْمُثْ ، وَإِنَّمَا سَمَّاهَا ٱللهُ تَعَالَىٰ فَاطِمَةَ ؛ لأَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ فَطَمَهَا وَذُرِّيَّتَهَا وَمُحِبِّيهَا عَنِ ٱلنَّارِ » .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨١) ، ومسلم (٢٣٣١) .

(٢) أبو داوود (٤١٢٨) ، والذي فيه أنه صلى الله عليه وسلم قال عن الحسن رضي الله عنه : « هذا مني ، وحسين من علي » .

وقد ذكر الناظم علياً وفاطمة وابنيهما رضي الله عنهم ، ويأتي ذكر شيء من فضائلهم بلا أسانيد ، وقد استوعبتها بذكر أسانيدها وبيان أحكامها وما يتعلق بها في كتابي « الصواعق المحرقة لإخوان الضلال والرفض والابتداع والزندقة » الذي لم يؤلف في هـٰذا الباب أجمع منه .

وأخرج الطبراني والخطيب : « إِنَّ ٱللهَ جَعَلَ ذُرِّيَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ فِي صُلْبِهِ ، وَجَعَلَ ذُرِّيَّتِي فِي صُلْبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ »[١] . وفي حديث رجاله ثقات إلا واحداً فمختلف فيه : أنه صلى الله عليه وسلم خطب وهو محاصر الطائف فمما قال : « أُوصِيكُمْ بِعِتْرَتِي خَيْراً ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ ٱلْحَوْضُ ، وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُقِيمُنَّ ٱلصَّلاَةَ ، وَلَتُؤْتُنَّ ٱلزَّكَاةَ ، أَوْ لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلاً مِنِّي أَوْ كَنَفْسِي يَضْرِبُ أَعْنَاقَكُمْ » ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه وقال : « هُوَ هَـٰذَا »[٢] .

توفي كرم الله وجهه شهيداً عن ثلاث وستين سنة ، ضربه عبد الرحمن بن ملجم المرادي في جبهته رضي الله عنه ليلة الجمعة سابع عشر شهر رمضان سنة أربعين وهو خارج إلىٰ صلاة الصبح بعد أن استيقظ سحراً وقال للحسن رضي الله عنهما : إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم الليلة ، فشكا إليه ما لقي ، فقال له : « ٱدْعُ عَلَيْهِمْ » فدعا أنه يبدل خيراً منهم ، وأنهم يبدلون شراً منه ، وأكثر في تلك الليلة من الخروج والنظر إلى السماء وهو يقول : والله ما كذبت ولا كذبت ، وإنها لليلة التي وعدت ، ومات رضي الله عنه ليلة الأحد ، واختلف في موضع قبره ؛ لأنه أخفي خوفاً من أن ينبشه الخوارج ، وفي رواية : أنهم حملوه ليدفنوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فند الجمل الذي يحمله رضي الله عنه فلم يُدْرَ أين ذهب ، فلذلك قال أهل العراق : إنه في السحاب .

(332)

كُنْـتَ تُـؤْوِيهِمَـا إِلَيْـكَ كَمَـا آ وَتْ مِـنَ ٱلْخَـطِّ نُقْطَتَيْهَـا ٱلْيَـاءُ

(كنت) على الدوام (تؤويهما) أي : تضمهما رضي الله عنهما (إليك) لمزيد

---

(١) المعجم الكبير (٣/ ٤٣) ، وتاريخ بغداد (١/ ٣٣٣) .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٠) ، والبزار (١٠٥٠) .

محبتك لهما ، وشفقتك عليهما ، ومن ثم صح : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « نَظَرْتُ إِلَىٰ هَـٰذَيْنِ ٱلصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّىٰ قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا »[1] .

وأخرج الترمذي والطبراني : « هَـٰذَانِ ٱبْنَايَ ، وَٱبْنَا ٱبْنَتِي ، ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا »[2] ، والترمذي : « أَحَبُّ أَهْلِ بَيْتِي إِلَيَّ ٱلْحَسَنُ وَٱلْحُسَيْنُ »[3] ، وأحمد وابن ماجه والحاكم : « مَنْ أَحَبَّ ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَينَ . . فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَبْغَضَهُمَا . . فَقَد أَبْغَضَنِي »[4] ، وجاء من طرق صح بعضها : « ٱبْنَايَ ٱلْحَسَنُ وَٱلْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ، وَأَبُوهُمَا خَيْرٌ مِنْهُمَا »[5] .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم : « وَأَبُوهُمَا خَيْرٌ مِنْهُمَا » حجة لما عليه أهل السنة : أن الأئمة الأربعة أفضل من أهل البيت .

نعم ؛ ما فيهم من البَضعة الكريمة لا يعادله عمل ، وبه يوجه قول بعض المتأخرين بتفضيل الحسنين علىٰ غيرهما ؛ أي : من حيث تلك البَضعة وإن كان غيرهما ممن ذكر أفضل منهما علماً وعملاً ومعرفة . فتأمله .

تنبيه : قوله صلى الله عليه وسلم : « سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ » مشكل ؛ لأنهما ماتا غير شابين ، ولأن الجنة ليس فيها شباب ؛ لأن الوارد : أن جميع الناس من أهل الجنة يكونون علىٰ خلقة أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، ثم يدخلونها وهم كلهم مستوون في هـٰذا السن الذي هو سن الكهولة ، وأعدل الأسنان وأشرفها ، فلهـٰذا اختير كونهم عليها ، وحينئذ فليس في الجنة شباب ولا كهول ولا شيوخ ، فأي شباب هما سيداهم ؟

ويجاب بأن المراد بالشباب : الذين ماتوا شباباً ، فهما سيدا هـٰؤلاء من غير

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٧٤) ، وأحمد (٥/ ٣٥٤) .
(٢) الترمذي (٣٧٦٩) ، والمعجم الكبير (٣/ ٤٩) ، وليس عنده : « هذان ابناي ، وابنا ابنتي » .
(٣) الترمذي (٣٧٧٢) .
(٤) مسند أحمد (٢/ ٢٨٨) ، وسنن ابن ماجه (١٤٣) ، المستدرك (٣/ ١٦٦) .
(٥) أخرجه ابن عساكر (١٣/ ٢٠٩) .

استثناء ، بخلاف الكهول والشيوخ ، فإنهما قد يسودانهم وهم الأكثر ، وقد لا كأبيهما والأئمة الثلاثة قبله ونحوهم .

والحاصل : أنهما سادا شباب الناس على الإطلاق ، وغير الشباب فيهم تفصيل ، فلذا ذكر الشباب فقط ، ويحتمل أن المراد : شبابها فرضاً ، وخُصُّوا ؛ لأن النفس إنما تتشوف غالباً لمن هو علىٰ سِنِّها الذي فضلت فيه علىٰ غيرها من أهل ذلك العصر .

ثم رأيت بعضهم قرر الإشكال بنحو ما ذكرته ، لـٰكن ما ذكرته أظهر في الإشكال ، ورأيت عنه أجوبة لثلاثة من الأئمة فيها بعض مخالفة سهلة لما ذكرته وزيادة علىٰ ما ذكرته ، وسأشير لذلك ، منها : أجوبة ثلاثة لابن الحاجب ، منها واستظهره : (أنه سماهم باعتبار ما كانوا عليه عند مفارقة الدنيا ، ولذلك يصح أن يقال للصغير الذي يموت : من صغار أهل الجنة ، والشيخ المحكوم بصلاحه : من شيوخ أهل الجنة ، فهما سيدا شباب أهل الجنة بهـٰذا الاعتبار ، وحسن الإخبار عنهما بذلك وإن كانا لم ينتقلا عن الدنيا شابين ؛ لأنهما كانا عند الإخبار كذلك) اهـ

وهـٰذا يرجع عند التأمل الصادق إلىٰ قولي : (ويحتمل أن المراد : شبابها فرضاً . . .) إلخ ، بل إن زاد صدق تأمله . . رأىٰ أن التعبير بما ذكرته أوضح .

وجوابه الثاني : (أن يراد أنهما سيدا شباب أهل الجنة باعتبار ذلك الوقت الذي كانا فيه شابين) قال : (ولا يرد علىٰ هـٰذين الجوابين إلزام أنهما سيدا المرسلين ؛ لأنهما شباب في الجنة ؛ لأنهم غير داخلين في شباب أهل الجنة على المعنيين جميعاً) اهـ

وقوله : (لأنهما شباب في الجنة) والذي بنىٰ عليه أيضاً بعض ما سبق عنه . . ممنوع ، وإنما الذي دل عليه حديث كونهم يدخلونها علىٰ سن أبناء ثلاث وثلاثين[1] ، وهو سن الكهولة ؛ إذ الشباب إلى الثلاثين ، والكهولة إلى الأربعين ، ثم منها شيخوخة ، وحينئذ صح ما أجبت به دون بعض ما أجاب به .

وله جواب ثالث مبني علىٰ أن أهل الجنة شباب ، وقد علمت ضعفه ؛ لأن الواقع خلافه ، فلا حاجة لذكره ، علىٰ أنه في ذاته فيه غموض وعدم وفاء بالمقصود وإن سلم

---

(١) أخرجه الضياء في « المختارة » (٢٧١٧) ، والترمذي (٢٥٤٥) ، وأحمد (٢/ ٢٩٥) .

ما بناه عليه كما يعلم بتأمله لمن وقف عليه .

وأجاب غيره بأن معناه : أنهما أفضل من مات شابّاً في سبيل الله من أهل الجنة ، ولم يُرد : أنهما من الشباب ؛ لأنهما ماتا وقد كهلا ، بل ما يفعله الشباب من المروءة ، كما يقال : فلان فتىً وإن كان شيخاً ، يشير إلىٰ مروءته وفتوَّته ، أو أنهما سيدا أهل الجنة سوى الأنبياء والخلفاء الراشدين ، وذلك لأن أهل الجنة كلهم في سن واحد وهو الشباب ، وليس فيهم شيخ ولا كهل . اهـ

وقوله : (وهو الشباب) مردود .

وأجيب أيضاً بأنه يمكن أن يراد بهما الآن سيدا شبابٍ هم من أهل الجنة من شباب هٰذا الزمان . اهـ

وليس فيه كبير تمدح ، فينافي الغرض من ذكره صلى الله عليه وسلم ذلك مدحاً لهما .

والحاصل : أن الذي يتجه في هٰذا المقام وبه يحصل الجواب الواضح : أن الذين كتبت لهم السعادة المعبر عنهم بكونهم أهل الجنة شباب وكهول وشيوخ ، وأن الحسنين تميزا في حال شبابهما ، بل صغرهما بفضائل علىٰ من هو في سنهما حينئذ لا تحصىٰ ولا يستثنىٰ منهم أحد ، بل في حال شبابهما فضلا جميع الشباب الموجودين حينئذ من غير استثناء ، بل الشباب مطلقاً من غير استثناء أيضاً ؛ إذ لا نعلم وهما في شبابهما أن شاباً قبلهما ولا بعدهما ساواهما فضلاً عن كونه فضَلَهما ، وإذا تقرر هٰذا . . فلأجل كونهما فضلا الشباب من غير استثناء ، بخلاف الكهول والشيوخ ؛ فإنهما لم يفضلاهما على الإطلاق في حالة من الحالات . . خص الشباب بالذكر ، وأضافهما إلى الجنة باعتبار أنه يقال لمن هو في حال شبابه وقد كتب سعيداً : هٰذا من شباب الجنة ؛ أي : من الموصوفين الآن بكونهم من الشباب وكونهم من أهل الجنة ، وحينئذ اتضحت حكمة ذكر الشباب ، واتضحت إضافتهم إلى الجنة ، واتضح أنه لا يحتاج إلى استثناء الخلفاء الأربعة فضلاً عن الأنبياء ، واتضح أن في هٰذا من التمدح لهما ورفعة قدرهما وبيان تميزهما ما لا يخفىٰ عظيم وقعه . فتأمله لتستريح من تلك الأجوبة المطولة مع ما فيها مما سبق ومما في هٰذا الجواب الذي هو أصوبها وأوضحها .

(كما آوت) بالمد ، فيتعين للوزن وإن جاز القصر في أصل الكلمة (من الخط) حال من الفاعل (نقطتيها الياء) أي : إيواء كإيواء (الياء) لنقطتيها حال كونها من جملة حروف الخط ، وكأنه أخذ هٰذا التشبيه من حديث البخاري عن الحسن رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ بيدي فيقعدني علىٰ فخذه ، ويقعد الحسين علىٰ فخذه الأخرىٰ ، ويضمنا ثم يقول : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَرْحَمُهُمَا فَٱرْحَمْهُمَا »[1] ومما صح عن أسامة بن زيد رضي الله تعالىٰ عنهما قال : طرقت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فخرج وهو مشتمل علىٰ شيء ، قلت : فما هٰذا ؟ فكشفه فإذا حسن وحسين علىٰ وركيه ، فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ هَـٰذَانِ ٱبْنَايَ وَٱبْنَا ٱبْنَتِي ، ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا »[2] .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم أقبل وقد حمل الحسين علىٰ رقبته ، فقال رجل : نعم المركب ركبت يا غلام ، فقال صلى الله عليه وسلم : « وَنِعْمَ ٱلرَّاكِبُ هُوَ »[3] .

ووجه التخصيص بـ(الياء) : أنها خاتمة الحروف ، كما أنه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا نظر إلىٰ أن (الألف) أفضل الحروف ؛ لأنها مادة كل حرف ، فهي الآخر في الحقيقة ، كما أنها الأول كذلك ، وهٰكذا شأن نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه أولهم خلقاً ورتبة ، وآخرهم وجوداً وبعثاً ، فعنصره صلى الله عليه وسلم الكريم مندرج ومنبث في جميع الأنبياء بالفعل تارة بالنسبة لمن في عمود نسبه ، وبالقوة أخرىٰ بالنسبة لمن ليس في عموده .

(333)

مِنْ شَهِيدَيْنِ لَيْسَ يُنْسِينِيَ ٱلطَّفُّ　　مُصَـابَيْهِمَـا وَلَا كَـرْبَـلَاءُ

(من) بيان لـ(الريحانتين) وحينئذ فلا تجريد فيه خلافاً لما زعمه الشارح (شهيدين) أما شهادة الحسن ـ وكانت ولادته في نصف شعبان بالمدينة سنة ثلاث من

---

(١) البخاري (٦٠٠٣) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٦٩٦٧) ، والترمذي (٣٧٦٩) .
(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٨٤) .

الهجرة[1] ـ : فسببها : أن يزيد بن معاوية أرسل إلىٰ زوجته جعدة الكندية : أنها تسمه ويتزوجها ، وبذل لها مئة ألف درهم ، ففعلت ، فمرض أربعين يوماً ومات ، فبعثت ليزيد بما وعدها فأبىٰ .

وفي سنة موته رضي الله عنه أقوال ، والأكثرون : أنها سنة خمسين[2] ، وجهد به الحسين رضي الله عنه أن يخبره بمن سمه فأبىٰ ، وقال : الله أشد نقمة ، وأجد كبدي تقطع ، وإني لعارف من أين دهيت ، فبحقي عليك لا تكلمت في ذلك بشيء ، ثم قال رضي الله عنه : وأقسم عليك أن لا تريق في أمري محجمة دم ، ومن جملة كلامه لأخيه رضي الله عنهما لما احتضر : يا أخي ؛ إن أباك استشرف لهـٰذا الأمر المرة بعد المرة ، فصرفه الله عنه إلى الثلاثة قبله ، ثم ولي فنوزع حتىٰ جرد السيف فما صفت له ، وإني والله ما أرىٰ أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة ، وربما يستخفنك سفهاء الكوفة فيخرجونك ، وقد كنت طلبت من عائشة أن أدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابت ، فإذا مت.. فاطلب منها ، وما أظن القوم إلا سيمنعونك ، فإن فعلوا.. فلا تراجعهم ، فلما مات.. سأل الحسين عائشة رضي الله عنها فقالت : نعم ، وكرامة ، فمنعهم مروان ؛ لأنه كان والي المدينة ، فلبس الحسين ومن معه السلاح حتىٰ رده أبو هريرة رضي الله عنهما ، ثم دفن بالبقيع إلىٰ جنب أمه رضي الله تعالىٰ عنهما ، وكان مروان يكثر من أذيته ، فلما مات.. بكىٰ في جنازته ، فقال له الحسين : أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه ؟! فقال : إني كنت أفعل ذلك إلىٰ أحلم من هـٰذا ، وأشار بيده إلى الجبل[3] .

وكان مروان هـٰذا أشد الناس بغضاً لأهل البيت ، وكأن هـٰذا هو سر الحديث الذي صححه الحاكم : أن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله تعالىٰ عنه قال : كان لا يولد لأحد مولود إلا أتي به النبي صلى الله عليه وسلم فيدعو له ، فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال : « هُوَ ٱلْوَزَغُ ٱبْنُ ٱلْوَزَغِ ، ٱلْمَلْعُونُ ٱبْنُ ٱلْمَلْعُونِ »[4] .

---

(١) انظر « الإصابة » (١/ ٣٢٧) .
(٢) انظر « الإصابة » (١/ ٣٣٠) .
(٣) انظر « تهذيب الكمال » (٦/ ٢٢٠) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣/ ٢٤٥) .
(٤) المستدرك (٤/ ٤٧٩) .

ورویٰ أيضاً حديثاً من جملته قول عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا مروان ومروان في صلبه[1] .

نعم ؛ في الحديث الصحيح : أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه : أن من شتمه أو لعنه أو دعا عليه . . أن يكون ذلك رحمة له وزكاة وكفارة وطهارة .

ومن فضائل الحسن رضي الله عنه ما صح : أنه صلى الله عليه وسلم كان يحمله علىٰ عاتقه ويقول : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ »[2] وصح : « مَنْ أَحَبَّنِي . . فَلْيُحِبَّهُ ، وَلْيُعْلِمِ ٱلشَّاهِدُ ٱلْغَائِبَ »[3] « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أُحِبُّهُ ، وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ » ، « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ ، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ » ، ثلاث مرات[4] وفي رواية : فجعل يفتح فمه ، ثم يدخل فمه في فمه ويقول ذلك[5] ، وفي أخرى : « مَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ هَـٰذَيْنِ وَأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا . . كَانَ مَعِي فِي دَرَجَتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[6] .

وصح : أنه حج خمساً وعشرين حجة ماشياً وإن النجائب لتقاد بين يديه ، وخرج عن ماله مرتين ، وقاسم الله تعالىٰ ماله ثلاث مرات[7] .

وكرمه رضي الله عنه باهر ، وحكاياته فيه أبهر ، ولم تسمع منه كلمة فحش قط إلا قوله مرة عن مخاصمة : ليس له عندنا إلا ما أرغم أنفه .

وجاء من طرق كثيرة بعضها صحيح : أنه صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر : « إِنَّ ٱبْنِي هَـٰذَا ـ أي : الحسن رضي الله عنه ـ سَيِّدٌ ، وَسَيُصْلِحُ ٱللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ

---

(١) المستدرك (٤/ ٤٨١) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٤٩) ، ومسلم (٢٤٢٢) .
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٧٣) ، وأحمد (٥/ ٣٦٦) .
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣١) .
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٢) .
(٦) أخرجه الضياء في « المختارة » (٤٢١) ، والترمذي » (٣٧٣٣) ، وأحمد (١/ ٧٧) ، وغيرهم .
(٧) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٤/ ٣٣١) دون قوله : (وخرج عن ماله مرتين) ، وأخرج الحاكم (٣/ ١٦٩) قوله : (حج خمساً وعشرين حجة ماشياً وإن النجائب لتقاد معه) .

عَظِيمَتَيْنِ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ »[1] وقد حقق الله له ذلك ؛ فإن أباه رضي الله عنهما لما توفي . . تولى الخلافة بمبايعة أهل الكوفة ، فكان آخر الخلفاء الراشدين بنص جده صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الصحيح : « ٱلْخِلاَفَةُ بَعْدِي ثَلاَثُونَ سَنَةً »[2] فمدة خلافته رضي الله عنه هي الستة أشهر الباقية منها ، وعند مضيها سار إلىٰ معاوية في أربعين ألفاً ، فلما تراءى الجمعان . . علم الحسن أنه لن تغلب إحدى الطائفتين حتىٰ يذهب أكثر الأخرىٰ ، فرضي بالنزول لمعاوية عن الخلافة شفقة على الأمة بشروط قبلها معاوية ، فنزل له ، وحينئذ صار هو الإمام الحق ، وقبل ذلك كان متغلباً ، لٰكن لاجتهاده لم يكن آثماً ، بل مأجوراً .

وأما شهادة الحسين رضي الله عنه ، وكانت ولادته لخمس خلون من شعبان سنة أربع .

ومن فضائله رضي الله تعالىٰ عنه حديث : « حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ ، أَحَبَّ ٱللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً ، حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ ٱلأَسْبَاطِ »[3] وفي رواية : « ٱلْحَسَنُ وَٱلْحُسَيْنُ سِبْطَانِ مِنَ ٱلأَسْبَاطِ »[4] .

وجاء من طرق صحح الحاكم بعضها : أن جبريل عليه السلام ـ وفي رواية : مَلَكُ القَطْر ، ولعلهما واقعتان ـ جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره أن الحسين رضي الله عنه مقتول ، وأراه من تربة الأرض التي يقتل فيها ، فأعطاه لأم سلمة رضي الله عنها ، وأخبرها أنه يوم قتله يتحول دماً ، فكان كذلك ، وشم صلى الله عليه وسلم ذلك التراب فقال : « رِيحُ كَرْبَلاَءَ »[5] .

وفي رواية : فأشار جبريل بيده إلى الطَّفِّ ؛ أرض بالعراق بناحية الكوفة ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٤) ، وابن حبان (٦٩٦٤) ، وغيرهما بألفاظ متقاربة .
(٢) أخرجه ابن حبان (٦٩٤٣) ، والبزار (٣٨٢٨) ، وغيرهما .
(٣) أخرجه ابن حبان (٦٩٧١) ، والترمذي (٣٧٧٥) ، وابن ماجه (١٤٤) ، وأحمد (٤/ ١٧٢) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٣٢) .
(٥) رواية أن الملَكَ جبريلُ أخرجها الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٠٨) ، ورواية أنه ملَك القطر أخرجها ابن حبان (٦٧٤٢) ، وأحمد (٣/ ٢٤٢) .

ولا تخالف ؛ لأن ذلك الموضع يسمىٰ بكربلاء وبالطف ، كذا قاله بعضهم ، وقال غيره : كربلاء قريب من موضع يقال له : الطف ، بقرب الكوفة .

وروى الطبراني : « أَمَّا ٱلْحَسَنُ . . فَلَهُ هَيْبَتِي وَسُؤْدَدِي ، وَأَمَّا حُسَيْنٌ . . فَلَهُ جَرَاءَتِي وَجُودِي »[1] ، والبغوي وغيره : « سَمَّىٰ هَارُونُ ٱبْنَيْهِ شَبَّراً وَشَبِّيراً ، وَإِنِّي سَمَّيْتُ ٱبْنَيَّ ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَيْنَ » وجاء : أن العرب لم تسم بهما في الجاهلية .

. . فسببها[2] : أن يزيد لما استخلف سنة ستين . . أرسل لعامله بالمدينة : أن يأخذ له البيعة على الحسين رضي الله عنه ، ففر لمكة خوفاً علىٰ نفسه ، فأرسل إليه أهل الكوفة : أن يأتيهم ؛ ليبايعوه ويمحي ما هم فيه من الجور ، فنهاه ابن عباس رضي الله عنهما ، وبين له غدرهم وقتلهم لأبيه ، وخذلانهم لأخيه ، وأمره أن لا يذهب بأهله إن ذهب ، فأبىٰ ، فبكى ابن عباس وقال : واحسيناه ، وقال له ابن عمر رضي الله عنهما نحو ذلك ، فأبىٰ ، فقبل ما بين عينيه وقال : أستودعك الله من قتيل ، وكذلك نهاه ابن الزبير رضي الله تعالىٰ عنهم ، بل لم يبق أحد بمكة إلا حزن عليه لمسيره رضي الله عنه ، ولما بلغ أخاه محمد ابن الحنفية . . بكىٰ حتىٰ ملأ طستاً بين يديه .

وقدم أمامه رضي الله عنه مسلم بن عقيل ، فبايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألفاً ، فأرسل إليه يزيدُ ابنَ زياد فقتله ، وسار الحسين غير عالم بذلك ، فلقي الفرزدق ، فسأله فقال : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، ولما قرب من القادسية . . تلقاه من أخبره الخبر وأمره بالرجوع ، فهم بالرجوع ، فقال أخو مسلم المقتول : لا ، حتىٰ نأخذ بثأرنا أو نقتل ، ثم سار ، فلقيه أوائل خيل ابن زياد ، فعدل إلىٰ كربلاء ، فجهز إليه ابن زياد عشرين ألف مقاتل ، فلما وصلوا إليه . . التمسوا منه نزوله علىٰ حكم ابن زياد وبيعته ليزيد ، فأبىٰ ، فقاتلوه ، وكان أكثر مقاتليه الكاتبين إليه والمبايعين له ، فلما جاءهم . . فروا عنه إلىٰ عدوه ، فحارب ذلك العدد الكثير ومعه من أهله نيف وثمانون ، فثبت في ذلك الموقف ثباتاً باهراً ، ولولا أنهم حالوا بينه وبين الماء . . ما قدروا عليه ، ولمَّا استحرَّ القتلُ[3] في أهله حتىٰ بلغوا

---

(١) المعجم الكبير (٢٢/ ٤٢٣) .

(٢) قوله : (فسببها) جواب قوله : (وأما شهادة الحسين . . .) قبل نحو نصف صحيفة .

(٣) استحرَّ القتلُ : اشتدَّ وكثر .

خمسين . . صاح : أمَا ذابٌّ يذب عن حريم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! فخرج يزيد بن الحارث رجاء شفاعة جده ، فقاتل بين يديه حتىٰ قتل ، ثم فني أصحابه وبقي بمفرده ، فحمل عليهم وقتل منهم كثيراً من شجعانهم ، فكثروا عليه حتىٰ حالوا بينه وبين حريمه ، فصاح : كفوا سفهاءكم عن النساء والأطفال ، فكفوا ، ثم لم يزل يقاتلهم إلىٰ أن أثخنوه بالجراح[١] ؛ لأنه رضي الله عنه طعن إحدىٰ وثلاثين طعنة ، وضرب أربعاً وثلاثين ضربة ، ومع ذلك غلب عليه العطش إلىٰ أن سقط إلى الأرض .

فحزوا رأسه يوم الجمعة عاشر المحرم عام إحدىٰ وستين ، ووضعه قاتله بين يدي عبيد الله بن زياد متبجحاً بأنه قتل خير الناس ، فأمر بضرب عنقه وقال : إذا علمت أنه كذلك . . فلم قتلته ؟ وقتل معه من إخوته وبنيه وبني أخيه الحسنِ رضي الله عنه ، ومن أولاد جعفر وعقيل رضي الله عنهم أجمعين تسعة عشر رجلاً[٢] .

قال الحسن البصري : ما كان علىٰ وجه الأرض لهم يومئذ شبيه .

وجعل ابن زياد الرأس في طست ، وجعل يضرب ثناياه بقضيب ويدخله أنفه ، ويتعجب من حسن ثغره ، فبكىٰ أنس رضي الله عنه وقال : كان أشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال له زيد بن أرقم : ارفع قضيبك ، فوالله لطالما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل ما بين هاتين الشفتين ، وبكىٰ ، فأغلظ عليه ابن زياد وهدده بالقتل ، فقال رضي الله عنه : لأحدثنك بما هو أغيظ عليك من هـٰذا ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أقعد حسناً علىٰ فخذه اليمنىٰ ، وحسيناً علىٰ فخذه اليسرىٰ ، ثم وضع يده علىٰ يافوخهما ، ثم قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنِّي أَسْتَوْدِعُكَ إِيَّاهُمَا وَصَالِحَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » فكيف كانت وديعة النبي صلى الله عليه وسلم عندك يا ابن زياد[٣] ؟!

ولما دخل قصر الإمارة بالكوفة . . أمر بالرأس فوضع علىٰ ترس عن يمينه والناس

---

(١) أثخنوه : أوهنوه .

(٢) انظر « تاريخ الطبري » (٥/ ٣٨٢) ، و« المنتظم » لابن الجوزي (٤/ ١٤٢) ، و« الكامل » لابن الأثير (٣/ ١٤٧) ، و« سير أعلام النبلاء » (٣/ ٢٨٠) ، و« البداية والنهاية » (٨/ ٥٦٨) ، و« شذرات الذهب » (١/ ٢٧٣) .

(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٥/ ١٨٥) بنحوه .

سماطان[1] ، ثم أنزله وجهزه مع رؤوس أصحابه وسبايا آل الحسين رضي الله عنه إلىٰ يزيد ، فلما وصلوا إليه. . قيل : ترحم عليه ، والمشهور : أنه جعل ينكت الرأس بالخيزران ، وجمع بأنه أظهر الأول وأخفى الثاني ، قيل : والعجب كل العجب من ضرب يزيد ثنايا الحسين بالقضيب ، وحمل آل النبي صلى الله عليه وسلم علىٰ أقتاب الجمال موثقين في الحبال والنساء مكشوفات الوجوه والرؤوس . اهـ

ولا عجب ؛ فإن يزيد بلغ من قبائح الفسق والانحلال عن التقوىٰ مبلغاً لا تستكثر عليه صدور تلك القبائح منه ، بل قال أحمد ابن حنبل بكفره ، وناهيك به ورعاً وعلماً يقضيان بأنه لم يقل ذلك إلا لقضايا وقعت منه صريحة في ذلك ، ثبتت عنده وإن لم تثبت عند غيره كالغزالي ، فإنه أطال في رد كثير مما نسب إليه كقتل الحسين ، فقال : لم يثبت من طريق صحيح أنه قتله ولا أمر بقتله ، ثم بالغ في تحريم سبه ولعنه ، وكابن العربي المالكي ، فإنه نُقل عنه ما يقشعر منه الجلد ، أنه قال : لم يقتل يزيدُ الحسينَ إلا بسيف جده ـ أي : بحسب اعتقاده الباطل أنه الخليفة ـ والحسين باغ عليه ، والبيعة سبقت ليزيد ، ويكفي فيها بعض أهل الحل والعقد ، وبيعته كذلك ؛ لأن كثيرين أقدموا عليها مختارين لها ، هـٰذا مع عدم النظر إلى استخلاف أبيه له ، أما مع النظر لذلك . . فلا يشترط موافقة أحد من أهل الحل والعقد علىٰ ذلك .

ويرد بأن هـٰذا إنما هو بعد استقرار الأحكام وانعقاد الإجماع علىٰ تحريم الخروج على الجائر ، أما قبل ذلك . . فكان الأمر منوطاً بالاجتهاد ، واجتهاد الحسين رضي الله تعالىٰ عنه اقتضىٰ جواز أو وجوب الخروج علىٰ يزيد ؛ لجَوْره وقبائحه التي تصم عنها الآذان ، فهو ـ أعني : الحسين رضي الله تعالىٰ عنه ـ محق بالنسبة لما عنده ، لا سيما إن رأىٰ ما رأىٰ أحمد من كفره ، وبه يرد أيضاً ما قيل : نظير ذلك حال معاوية مع الحسن رضي الله عنهما قبل نزوله عن الخلافة ، ومع علي كرم الله وجهه ، فإنه كان متغلباً باغياً عليهما ، لـٰكنه غير آثم لاجتهاده ، فالحسين رضي الله عنه كذلك . اهـ فتأمل ذلك ، فإن كلام الأئمة فيه كالمتنافي ، ولا يزول الإشكال فيه إلا بما قررته . فاستفده .

---

(١) السِّماط : الصف .

ومما يبطل توجيه تلك الكلمة : ما ذكرته في « مختصر تاريخ الخلفاء » للحافظ السيوطي : أن رجلاً سمىٰ يزيد أمير المؤمنين ، فأمر عمر بن عبد العزيز خامس أو سادس الخلفاء الراشدين ـ ولا يرد الحسن رضي الله تعالىٰ عنه على الذين عبروا بالأول ؛ فإنه وإن كان منهم بنص الحديث الصحيح علىٰ أن الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم ثلاثون سنة ، ومدة خلافته ستة أشهر تكملة هٰذه الثلاثين ؛ لأنها لم تطل ، ولم يدن له ما دان للأربعة من جميع بلاد الإسلام ، فكأنه اندرج في خلافة أبيه ، فهما كرجل واحد ، فهو من الأربعة ، وحينئذ تعين أن خامسهم عمر رضي الله تعالىٰ عنه ـ بضربه عشرين سوطاً[١] ، فهٰذا صريح في أنه كان متغلباً بالشوكة لا إماماً ؛ لأن الذين هم أهل الحل والعقد حينئذ أكره أكثرهم علىٰ بيعته ، كما صرحت به في المختصر المذكور تبعاً لأصله ، وأقلهم من أجلاء الصحابة هربوا إلىٰ مكة ، ويأتي قريباً بعض ذلك مع زيادة عليه .

ولما وصلوا دمشق . . أقيموا علىٰ درج الجامع حيث يقام الأسارىٰ والسبي ، وقيل : إن يزيد أرسل برأس الحسين ومن بقي من أهله إلى المدينة ، فكفن رأسه ، ودفن عند قبر أمه بقبة الحسن ، وقيل : أعيد إلى الجثة بكربلاء بعد أربعين يوماً من قتله ، ثم سلط الله على ابن زياد وقومه مَنْ قتلهم شر قِتلة ، ولما نزل الذين أرسلهم ابن زياد بالرأس أول منزل . . جعلوا يشربون بالرأس ، فخرجت عليهم من الحائط يد معها قلم من حديد ، فكتبت سطراً بدم : [من الوافر]

أَتَـــرْجُـــو أُمَّـــةٌ قَتَلَـــتْ حُسَيْنـــاً ... شَفَـــاعَـــةَ جَـــدِّهِ يَـــوْمَ ٱلْحِسَـــابِ ؟!

فهربوا وتركوا الرأس ، ثم عادوا وأخذوه ، أو أخذه غيرهم وقدم به علىٰ يزيد[٢] .
ومما ظهر يوم قتله رضي الله عنه من الآيات : أن السماء أمطرت دماً ، وأن أوانيهم ملئت دماً ، وأن السماء اشتد سوادها ؛ لانكساف الشمس حينئذ حتىٰ رئيت النجوم ، واشتد الظلام حتىٰ ظن الناس أن القيامة قد قامت ، وأن الكواكب ضربت بعضها

---

(١) قوله : (بضربه . . .) الجار : متعلق بالفعل (أمر) في قوله قبل أسطر : (فأمر عمر . . .) .
(٢) انظر « المعجم الكبير » (٣/ ١٢٣ـ١٢٤) ، و« تاريخ دمشق » (١٤/ ٢٤٣) وما بعدها ، و« تهذيب الكمال » (٦/ ٤٤٢) .

بعضاً ، وأنه لم يرفع حجر إلا رئي تحته دم عبيط[1] ، وأن الورس انقلب رماداً ، وأن الدنيا أظلمت ثلاثة أيام ثم ظهرت فيها الحمرة ، وقيل : احمرت ستة أشهر ، ثم لا زالت الحمرة ترىٰ بعد ذلك .

وعن ابن سيرين رحمه الله تعالى : أُخبِرنا أن الحمرة التي مع الشفق لم تكن حتىٰ قتل الحسين ، وقال ابن الجوزي : وحكمة ذلك : أن غضبنا يؤثر حمرة الوجه ، والحق تنزه عن الجسمية ، فأظهر تأثير غضبه علىٰ من قتل الحسين بحمرة الأفق ؛ إظهاراً لعظيم الجناية .

وكما أظهر الله تعالىٰ عظيم الجناية على الحسين بذلك الأمر الباهر . . أظهره علىٰ ولد ولد الحسين زيد صاحب المذهب المشهور رضي الله تعالىٰ عنه ، فإن بني أمية استخفوا به فقتلوه وحرقوه ، فانتقم الحق تعالىٰ ممن فعل به حتىٰ سلط عليه من فعل به مثل ما فعل بزيد وأقبح بكثير ، كما هو مبسوط في قصته مع هشام المشهورة ، وفيها من الكرامات الباهرة لأهل البيت ما أوجب ذكر حاصلها ؛ لتطلع أيها المحب فتزداد محبتك ، أو المبغض فتتوب وترجع إلى الله تعالىٰ .

اعلم أني ذكرت في كتابي « أسنى المطالب في صلة الأقارب » ما لفظه :

تنبيه آخر : مما يؤيد ما ذكرته في التنبيه الذي قبل هـٰذا : ما وقع لهشام بن عبد الملك ، حيث قطع رحم زيد بن علي ، فقتله قومه الذين أرسلهم إليه وحرقوه بالنار ، فسلط الله عليه من أخرجه من قبره وأحرقه بالنار جزاء له وفاقاً ، وشرح ذلك : أن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله تعالىٰ عنهم كان يدخل علىٰ هشام بن عبد الملك بن مروان من فجار بني أمية وظلمتهم ، فكان يقع بينهما محاورات ، فيفحمه زيد حتىٰ يخجل بين جنده وفي عز مملكته ، ومن ذلك أنه قال : أنت زيد المؤمل للخلافة ، وما أنت وذاك وأنت ابن أمة ؟ فقال له زيد : إن الأمة لو قصرت بولدها عن بلوغ الغاية . . لما بعث الله نبياً هو ابن أمة وجعله أبا العرب وأبا خير النبيين ، وهو إسماعيل بن إبراهيم صلى الله علىٰ نبينا وعليهما وسلم ، فكانت أمه مع أم إسحاق كأمي مع أمك ، وما تقصيرك برجل أبوه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) الدم العبيط : الخالص الطري .

وجده علي بن أبي طالب ؟! فلما خرج. . قال هشام لجلسائه : ألستم زعمتم أن أهل هـٰذا البيت قد انقرضوا ، ألا لعمر الله ما انقرض قوم هـٰذا خلفهم .

ودخل عليه مرة أخرىٰ ، فرأىٰ عنده يهودياً يسب ـ قيل : كان يسب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كان يسب آلَه ـ فانتهره زيد وقال : يا كافر ؛ أما والله لئن تمكنت منك. . لأختطفن روحك ، فقال هشام : مه يا زيد ؛ لا تؤذ جليسنا ، فخرج قائلاً : من استشعر حب البقاء. . استدثر الذل إلى الفناء ، وهاج حينئذ على الخروج علىٰ هشام ، فأطاعه من أهل الكوفة خمسة عشر ألف مقاتل وبايعوه ، وبايعه جماعة من الأئمة ، قيل : منهم أبو حنيفة رضي الله تعالىٰ عنه ، وأمده بمال عظيم ، فخرج أواخر المحرم سنة اثنتين وعشرين ومئة ، وخرج معه من القراء والفقهاء وأهل البصائر خمسة آلاف في زي لم ير الناس مثلهم ، ثم خذله الذين بايعوه وتأخروا عنه ، فقال : أين الناس ؟ فقيل له : احتبسوا في المسجد ، فقال : لا يسعهم عند الله خذلانهم لنا ، فعاد إليهم وأمرهم بالخروج فأبوا ، فقال : يا أهل الكوفة ؛ اخرجوا من الذل إلى العز وإلىٰ خير الدنيا والآخرة ، فأبوا .

فأقبل جنود هشام ، فحمل عليهم زيد رضي الله تعالىٰ عنه ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، فلم ينجع فيهم ذلك شيئاً[١] ، ودخلوا الكوفة ، فتفرقت أصحابه عنه ، فلم يتأثر بذلك وحاربهم يوم الأربعاء والخميس ، فحمل عليهم وقتل من فرسانهم كثيرين ، فأصيب آخر يوم الجمعة بنشابة في جبينه ، فجيء له بطبيب ، فنزعها فمات من ساعته ، ودفن في قناة ، وأجري عليه الماء ؛ لئلا يعرفوا قبره ، ثم دلوا عليه ، فصلب علىٰ جذع نخلة عرياناً ، فنسجت العنكبوت علىٰ عورته لوقته ، فلم يرها أحد ، فكان ذلك من كراماته الباهرة .

ثم أنزلوه وحرقوه حتىٰ صار رماداً فذروه في الهواء ، فلما كان زمن السفاح أول خلفاء بني العباس ـ وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ـ. . أمر بامرأة هشام المذكور فشدخ رأسها بالعمد ، وأمر بقطع ثدييها وقتلها قصاصاً في أم ولد أو زوجة كانت لزيد رضي الله تعالىٰ عنه قتلوها ، ثم أمر بهشام فنبش من قبره فوجد

---

(١) نجع فيه الدواء ؛ أي : نفع وأثر .

بحاله ؛ لأنه كان طلي بالصَّبِر ؛ لئلا يتغير[1] ، فأقاموه وجلدوه حتىٰ تناثر لحمه ثم حرقوه بالنار ، وفعلوا به كما فعل بزيد رضي الله تعالىٰ عنه جزاءً وفاقاً ، فتأمل نصر الله تعالىٰ حتىٰ علىٰ يد الأعداء ، فإن غالب بني العباس كانوا يكرهون ذرية الحسين ؛ لأنهم ينازعونهم في الملك ويخرجون عليهم كثيراً ، ومع ذلك أظهر الله الانتقام من هشام لزيد علىٰ يد من يكره بني زيد وبني عمه .

(ليس ينسيني) ككل مسلم كامل الإيمان (**الطف**) أي : بذكر ما وقع فيه ، ومر أنه أرض بالعراق ، وأنه يسمىٰ كربلاء أو قريب منها ، وقبره به معروف يزار ويتبرك به (**مصابيهما**) أي : مجموعهما ، علىٰ حد قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ إذ هما إنما يخرجان من الملح فقط ؛ أي : مصاب الحسين رضي الله عنه ؛ لأن قتله به ، وأما قتل الحسن . . فمر أنه كان بالمدينة ، ولم يكن قتله بالسَّم ظاهراً ، وإنما علم به نزر من الناس (**ولا كربلاء**) بل كل منهما يذكرني بذلك المصاب ، حتىٰ إني أتصور في كل أرض أنها هي ، وظاهره : أنه مغاير للطَّفِّ ، ومر أنه قول ، وكأن الناظم لمَّح بهـٰذا إلىٰ ما رواه ابن سعد عن الشعبي : أن عليّاً كرم الله تعالىٰ وجهه لما مر بكربلاء عند مسيره إلىٰ صفين . . وقف وسأل عنها ، فقيل : كربلاء ، فبكىٰ حتىٰ بل الأرض من دموعه ، ثم قال : دخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي . . . القصة الآتية في شرح قوله : (فابكهم . . .) إلخ .

(334)

مَـا رَعَـىٰ فِيهِمَـا ذِمَـامَـكَ مَـرْؤُو ... سٌ وَقَـدْ خَـانَ عَهْـدَكَ ٱلـرُّؤَسَـاءُ

(**ما رعىٰ فيهما ذمامك**) ـ بالمعجمة ـ أي : حرمتك أيها النبي الكريم مع أنه يجب علىٰ كل أحد رعايتهما والوفاء بهما ، ولا يحصل ذلك إلا بالقيام بجميع ما لهما من العهود والحقوق والحرمة والجلالة ، ومن بغض شانئهما واعتقاد أنه علىٰ غاية من الحماقة والضلالة والجراءة والتهور (**مرؤوس**) أي : تابع كجعدة في الحسَنِ ، وابن زياد وأتباعه في الحسين رضي الله تعالىٰ عنهما (**و**) الحال أنه (**قد خان عهدك**

---

(١) الصَّبِر : عصارة شجر مرٍّ .

الرؤساء) أي : المتبوعون من الظلمة الطغاة المتمردين كيزيد فيهما ؛ لتسببه في قتلهما ، لكنهما رضي الله عنهما فازا بمنزلة الشهادة العظمىٰ ، وباء بخزي الدنيا والأخرىٰ ، وقول بعضهم : لا ملام علىٰ قتلة الحسين ؛ لأنهم إنما قتلوه بسيف جده الآمر بسله على البغاة وقتالِهم . . لا يعول عليه ؛ لأن يزيد لم تنعقد بيعته عند الحسين رضي الله عنه وغيرِه ممن لم يبايعوه ، والمبايعون له مكرهون على البيعة كما هو معروف .

وغاية أمر يزيد : أنه جائر فاسق متغلب ، وحرمة الخروج على الجائر التي جرىٰ عليها الإجماع محلها بعد استقرار الأمور وانقضاء تلك الأعصار ، وأما تلك الأعصار . . فكان أهلها مجتهدين ، فلم يدخلوا تحت حيطة رأي غيرهم ، ولذلك خرج علىٰ يزيد أيضاً ابن الزبير رضي الله عنهما ، ولم يبال ببيعته ولا اعتد بها كجماعة آخرين امتنعوا منها وهربوا ، ومر آنفاً ما له تعلق بذلك مع زيادة .

وروى ابن السكن أنه صلى الله عليه وسلم قال وقد أشار إلى الحسين رضي الله عنه : « إِنَّ ٱبْنِي هَـٰذَا يُقْتَلُ بِأَرْضِ ٱلْعِرَاقِ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ . . فَلْيَنْصُرْهُ » وبه يرد قول البعض المذكور ، ومما يرده أيضاً : ما ترتب علىٰ قتل الحسين مما مر بعضه .

وبين (رعى) و(خان) و(المرؤوس) و(الرؤساء) جناس الطباق .

(335)

أَبْدَلُوا ٱلْوُدَّ وَٱلْحَفِيظَةَ فِي ٱلْقُرْ ... بَىٰ وَأَبْدَتْ ضِبَابَهَا ٱلنَّافِقَاءُ

(أبدلوا) أي : هـٰؤلاء المذكورون (الود) بتثليث الواو ؛ أي : المودة التي حرضهم الله عليها في الآية الآتية ببغضهم وقتالهم وإلحاق الإيذاء لهم بكل طريق أمكن ، حتىٰ إن القرمطي سباهم ، فبيعت الشريفة في عسكره بأربعة دراهم ، والشريف بدرهمين ؛ لكثرة من سباه منهم (و) أبدلوا أيضاً (الحفيظة) أي : الحمية (في) نصر (القربىٰ) ومحبتهم ؛ أي : قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم آل البيت النبوي ؛ يعني : تركوا هـٰذين وأخذوا ضدهما ، فقطعوا مودتهم وتخلفوا عن نصرتهم ، ولم يمتثلوا قول الله تعالىٰ في حقهم الدال علىٰ غاية رفعتهم : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ . . . ﴾ الآية .

وقد اختلف المفسرون في ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ، والذي جاء عن الحسن بن علي كرم الله وجههما بسند حسن : أنهم أهل البيت ، فإنه خطب الناس خطبة بليغة فيها : أنا الحسن ابن محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، ثم قال : وأنا من أهل البيت الذين افترض الله عز وجل مودتهم وموالاتهم ـ زاد في رواية : علىٰ كل مسلم ـ فقال فيما أنزل علىٰ محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ، وفي رواية ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ قال : اقتراف الحسنات مودتُنا أهل البيت[1] .

وجاء عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما بسند فيه شيعي غال لـٰكنه صدوق : أنها لما نزلت . . قالوا : يا رسول الله ؛ مَنْ قرابتك هـٰؤلاء الذين وجبت علينا محبتهم ؟ قال : « عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَٱبْنَاهُمَا »[2] وروىٰ غير واحد نحو ذلك عن علي رضي الله تعالىٰ عنه .

وأخرج الطبراني عن زين العابدين رضي الله عنه : أنه لما جيء به أسيراً عقب مقتل أبيه الحسين رضي الله تعالىٰ عنهما ، وأقيم علىٰ درج مسجد دمشق . . قال بعض جفاة أهل الشام : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة ، فقال له : أما قرأت : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال : وأنتم هم ؟ قال : نعم .

ولا ينافي ذلك ما هو المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما وأتباعِه من حملها علىٰ غير ما ذكر ، كما في « البخاري » وغيره عنه أن المراد : لا تؤذوني يا معشر قريش بقرابتي فيكم[3] ، وفي رواية عنه : أنهم لما أبوا أن يبايعوه . . أنزل الله عليه ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يَا قَوْمِ ؛ إِذَا أَبَيْتُمْ أَنْ تُبَايِعُونِي . . فَٱحْفَظُوا قَرَابَتِي وَلاَ تُؤْذُونِي » ويؤيده : أن السورة مكية ، ورواية نزولها بالمدينة ضعيفة وإن أمكن نزولها مرتين كما قيل به في (الفاتحة) ، ووجه عدم المنافاة : أن من ذكره صلى الله عليه

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٧٢) .

(٢) ذكره في « مجمع الزوائد » (٧/ ١٠٦) ، وقال : (رواه الطبراني من رواية حرب بن الحسن الطحان ، عن حسين الأشقر عن قيس بن الربيع ، وقد وثقوا كلهم ، وضعفهم جماعة ، وبقية رجاله ثقات) .

(٣) البخاري (٣٤٩٧) ، و(٤٨١٨) .

وسلم وخص بقريش . . اقتصر على المقصود بالذات ، ومن ذكر أهل البيت وعمم في كل مسلم . . ذكر ما هو المقصود بالتبع ، فكل من المرادين صحيح من غير منافاة ولا تعارض بينهما ، ومن ثم كان ابن جبير وهو من أجل تلامذة ابن عباس يفسر تارة بهٰذا وتارة بهٰذا .

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : « إِلاَّ أَنْ تُوَادُّوا ٱللهَ تَعَالَىٰ »[1] ولا منافاة أيضاً ؛ لأن من جملة موادته تعالىٰ موادة رسوله وأهل بيته .

وادعاء نسخ الآية قول مردود لا يلتفت إليه ، فلا يجوز اعتقاده كما قاله البغوي وغيره[2] ، وقد صح ـ خلافاً لما وهم فيه ابن الجوزي ـ حديث : « أَحِبُّوا ٱللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي »[3] وصح أيضاً : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَحَدَّثُونَ ، فَإِذَا رَأَوُا ٱلرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي . . قَطَعُوا حَدِيثَهُمْ ، وَٱللهِ لاَ يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ ٱلإِيمَانُ حَتَّىٰ يُحِبَّهُمْ للهِ وَلِقَرَابَتِهِمْ مِنِّي »[4] وفي خبر أحمد : أنه صلى الله عليه وسلم قال لمن اشتكىٰ علياً رضي الله عنه : « وَٱللهِ لَقَدْ آذَيْتَنِي » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آذَىٰ عَلِيّاً . . فَقَدْ آذَانِي »[5] .

وروىٰ أحمد والترمذي حديث : « مَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ حَسَناً وَحُسَيْناً وَأَبَاهُمَا وَأُمَّهُمَا . . كَانَ مَعِي فِي ٱلْجَنَّةِ »[6] زاد أبو داوود : « وَمَاتَ مُتَّبِعاً لِسُنَّتِي » وبها يعلم بطلان قول الرافضة : تنفع محبتهم مع مخالفة السنة .

(وأبدت) أي : أظهرت (ضبابها) عائد لفاعل (أبدت) وأراد بـ (الضباب) : اليرابيع ؛ لأن النافقاء لا تكون إلا لها (النافقاء) هي إحدىٰ جحري اليربوع ، يكتمها ويظهر غيرها حتىٰ لا يصاد ، وهو موضع من جحره ، يجعل الحاجز بينه وبين الفضاء قريباً جداً ، حتىٰ إذا دخل عليه من الجحر الأخرى المسماة بالقاصعاء . . ضرب النافقاء

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٤٣) ، وأحمد (١/ ٢٦٨) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٧٥) .
(٢) انظر « تفسير البغوي » (٤/ ١٢٥) .
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥٠) ، والترمذي (٣٧٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٠٨) .
(٤) أخرجه الضياء في « المختارة » (٤٧٢) ، وابن ماجه (١٤٠) .
(٥) مسند أحمد (٣/ ٤٨٣) .
(٦) مسند أحمد (١/ ٧٧) ، والترمذي (٣٧٣٣) .

برأسه ، فانشق وخرج هارباً منه ، ولهٰذا يقال : نفق اليربوع تنفيقاً ، ومنه اشتقاق المنافق في الدين كما في « الصحاح » .

وفي النظم تشبيه المكَرَة بالحسنين رضي الله عنهما حتىٰ فعلوا معهما ما فعلوا. . باليربوع في مكره المذكور ، فهو استعارة تصريحية ، وفي ذكر (النافقاء) استعارة ترشيحية ، أو تشبيه ما عند أولـٰئك من النفاق بـ (النافقاء) بالجامع الآتي ، فهي حينئذ استعارة مصرحة ، رشحت بذكر (الضباب) أو تشبيه (النافقاء) بما عند أولـٰئك من النفاق الذي حملهم علىٰ أن فعلوا بأهل البيت ما فعلوا ، فتشبيه (النافقاء) بنفاق أولـٰئك استعارة بالكناية ، والجامع أن (النافقاء) يظهر اليربوع منها فيهرب من صياده ، وكذلك نفاق أولـٰئك أظهرهم حتىٰ هربوا من الدين وفعلوا ما فعلوا ، وإثبات اليربوع استعارة تخييلية ، ويصح أن يكون استعارة بالكناية أيضاً ؛ لتشبيه (الضباب) بأولـٰئك في المكر ، وإضافتهم إلىٰ ضمير (النافقاء) تخييلية .

(336)

وَقَسَتْ مِنْهُمْ قُلُوبٌ عَلَىٰ مَنْ ‌ ‌ ‌ ‌ بَكَتِ ٱلْأَرْضُ فَقْدَهُمْ وَٱلسَّمَاءُ

(**وقست**) أي : غلظت واشتدت (**منهم**) أي : المكَرَة الفَجَرة المذكورين ، وهو حال من قوله : (**قلوب**) فوصل إليهما رضي الله عنهما ثم إلىٰ ذريتهما منهم غاية الإيذاء والاستهتار بحقهم الواجبِ رعايتُه عليهم ، ولم تلن لهم تلك القلوب قط ؛ لأن الله تعالىٰ أراد لها الشقاوة والعذاب الأليم (**علىٰ من**) أي : أولـٰئك الأئمة الذين هم بُدور الدنيا ، ومن ثم قال الحسن البصري رحمه الله تعالىٰ في الذين قتلوا مع الحسين من أهله : ليس لهم شبيه علىٰ وجه الأرض .

(**بكت الأرض فقدهم والسماء**) وهـٰذا اقتباس من مفهوم قوله تعالىٰ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ إذ مفهومه : أن المؤمن تبكي عليه السماء والأرض ، أما الأرض. . فمَحالٌ سجود المؤمن وعباداته ، وأما السماء. . فمَحالٌ تصاعد أعماله ، وإذا كان هـٰذا في مطلق المؤمنين كما علم من الآية ، بمعنى : أنهما يتأسفان علىٰ ما فاتهما من أعمالهما وثوابهما. . فما بالك بآل البيت النبوي والنسب العلوي ؟!

ويصح أن يكون المراد ببكائهما : بكاء أهلهما ، وهو واضح ، ولـٰكن الأول

أبلغ ، ولا مانع من حمله على الحقيقة ؛ لأنه ممكن ورد به الشرع ، فلا يخرج عن ظاهره إلا بدليل .

(337)

فَـٱبْكِهِـمْ مَـا ٱسْتَطَعْـتَ إنَّ قَلِيـلاً فِـي عَظِيـمٍ مِـنَ ٱلْمُصَـابِ ٱلْبُكَـاءُ

(فابكهم) أيها الصالح للخطاب (مَا استطعت) أي : مدة دوام استطاعتك ، تأسياً بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بجبريل عليه السلام ، ثم علي رضي الله عنه .

روى ابن سعد عن الشعبي ، قال : مر علي كرم الله وجهه بكربلاء عند مسيره إلىٰ صفين ، فوقف وسأل عن اسم هٰذه الأرض ، فقيل له : كربلاء ، فبكىٰ حتىٰ بل الأرض من دموعه ، ثم قال : دخلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : « كَانَ عِنْدِي جِبْرِيلُ آنِفاً ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّ وَلَدِي ٱلْحُسَيْنَ يُقْتَلُ بِشَاطِىءِ ٱلْفُرَاتِ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ : كَرْبَلاَءُ ، ثُمَّ قَبَضَ جِبْرِيلُ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ أَشَمَّنِي إِيَّاهَا ، فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنَيَّ أَنْ فَاضَتَا » .

وأخرج الترمذي : أن أم سلمة رضي الله عنها رأت النبي صلى الله عليه وسلم باكياً وبرأسه ولحيته التراب ، فسألته ، فقال : « قُتِلَ ٱلْحُسَيْنُ آنِفاً »[1] . وكذلك رآه ابن عباس رضي الله عنهما نصف النهار أشعث أغبر ، بيده قارورة فيها دم يلتقطه ، فسأله ، فقال : « دَمُ ٱلْحُسَيْنِ وَأَصْحَابِهِ ، لَمْ أَزَلْ أَتَتَبَّعُهُ مُنْذُ ٱلْيَوْمِ » فنظروا فوجدوه قد قتل في ذلك اليوم[2] .

فإن قلت : الأمر بالبكاء ينافيه الحديث الصحيح : « فَإِذَا وَجَبَتْ . . فَلاَ تَبْكِيَنَّ بَاكِيَةٌ »[3] ومن ثم قال أئمتنا : يكره البكاء بعد الموت .

قلت : ليس المراد بالبكاء المأمور به هنا : حقيقته ، بل لازمه من التأسف والحزن

---

(١) الترمذي (٣٧٧١) .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٩٧) ، وأحمد (١/ ٢٤٢) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ١١٠) .

(٣) أخرجه النسائي في « الكبرى » (٧٤٥٥) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ١٩١) .

علىٰ ما حصل للدين وأهله ، من استباحة حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودم بنيه وأهله ، ومن غاية الاستهتار بحقهم والفرح بمصابهم ، ومن زوال أنوار النبوة وعلومها وتقاها وزهدها وكمالاتها بفقدهم ، وذلك كله مصاب لا يساويه مصاب ، فحق لكل أحد أن يحزن علىٰ ذلك ويتأسف عليه ، وأن يأمر به غيره ويدعو إليه .

فإن قلت : كيف نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البكاء وبكىٰ كما في الحديث المذكور ؟

قلت : المنهي عنه إنما هو البكاء بعد الموت ؛ لوقوع اليأس به ، فوجود البكاء حينئذ ربما دل علىٰ نوع تبرم بالقضاء ، والواقع هنا البكاء منه صلى الله عليه وسلم قبله ، وهو محض رحمة الله حينئذ ، وبهٰذا يتبين عدم الاحتياج للجواب ، بل عدم صحته : بأن المنهي عنه البكاء الاختياري ، والذي وقع منه صلى الله عليه وسلم لعله اضطراري ، أو بيان للجواز ، أو أطلق منه البكاء علىٰ مجرد دمع العين لإبراهيم وهو لا كراهة فيه ، ومن ثم لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم على ابن لإحدىٰ بناته . . قيل له : ما هٰذا ؟ ـ أي : وقد نهيت عن البكاء ـ فقال : « إِنَّهَا رَحْمَةٌ ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ ٱللهُ مِنْ عِبَادِهِ ٱلرُّحَمَاءَ »[1] فبين أن مجرد دمع العين لا محذور فيه ولا كراهة . فتأمله .

ثم تمم رحمه الله ما أمر به من البكاء بما يصلح أن يكون دليلاً حاملاً عليه فقال :

(إن) جزءاً (قليلاً) أي : قليل (في) مقابلة (**عظيم من المصاب**) لا سيما مصاب الأمة بالحسنين وأهل بيتهما رضي الله تعالىٰ عنهم ، وبين (قليلاً) و(عظيم) طباق ، وفيه اشتقاق ورد العجز على الصدر (**البكاء**) وإن كثر ، وهو : الصوت الذي يكون مع الدمع ، وأما المقصور . . فهو الدمع فقط ، وغير القليل قتل قاتليهم ، ودوام نصرتهم بإشادة ذكرهم ، وإدامة الثناء عليهم ، والرد علىٰ أعدائهم وغير ذلك .

(338)

كُـلُّ يَـوْمٍ وَكُـلُّ أَرْضٍ لِكَـرْبِـي مِنْهُـمُ كَـرْبَـلَا وَعَـاشُـورَاءُ

(كل يوم وكل أرض لكربي) أي : لأجل ما حصل لي من الكرب ، وهو : الغم

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٤) ، ومسلم (٩٢٣) .

الذي يأخذ النفس بحيث يخشىٰ فوتها (**منهم**) أي : بسبب ما حصل لهـٰذين الإمامين وأهل بيتهما من القتل والأسر والسب والإيذاء (**كربلا**) راجع لـ (كل أرض) (**وعاشوراء**) راجع لـ(كل يوم) ، ففيه لف ونشر مشوش ؛ أي : زادني ذلك الكرب حتىٰ إن كل أرض حللت بها تصورت أنها الأرض التي قتل فيها الحسين ، وكل يوم أصبح علي تصورت أنه يوم عاشوراء الذي قتل فيه ، فكربي عم جميع ما أنا فيه من الأزمنة والأمكنة ، فلا يفارقني الغم بالانتقال من أرض لأخرىٰ ، ولا من زمن لآخر .

وبين (كربي) و(كربلا) جناس شبه الاشتقاق ، كهو وجناس الاشتقاق بين (تأوي) و(آوت) ، وفي (فوضت) و(تفويضي) ، و(طبتم) و(طاب) ، و(سدتم) و(سودته) ، و(وزر) و(الزوراء) ، و(القاسم) و(إقسامي) ، و(ابكهم) و(البكاء) بعضها تقدم ، وبعضها يأتي .

(339)

آلَ بَيْتِ ٱلنَّبِيِّ إِنَّ فُؤَادِي ... لَيْسَ يُسْلِيهِ عَنْكُمُ ٱلتَّأْسَاءُ

(آل بيت النبي) وهم : مؤمنو بني هاشم والمطلب ، وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ أكثر المفسرين أنها نزلت في علي وفاطمة والحسنين رضي الله تعالىٰ عنهم ، وقيل : نزلت في نسائه صلى الله عليه وسلم ، ونسب لابن عباس ، وكان مولاه عكرمة ينادي به في السوق ، ورُدَّ : بتذكير ضمير ﴿ عَنكُمُ ﴾ وما بعده .

وقال جمع : نزلت فيهما ، ورجحه جمع بأنهن سبب النزول فيدخلن قطعاً ، ويدل له : ما صح عن أم سلمة رضي الله عنها : قلت : يا رسول الله ؛ أنا من أهل البيت ؟ قال : « بَلَىٰ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى »[1] . ولدخول آل البيت خبر مسلم : أنه أدخل أولـٰئك الأربعة تحت كساء وقرأ الآية[2] ، وصح : أنه صلى الله عليه وسلم جعل هـٰؤلاء تحت

---

(١) أخرج أحمد (٦/ ٢٩٦) نحوه .
(٢) مسلم (٢٤٢٤) .

كساء وقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ هَؤُلاَءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي ، أَذْهِبْ عَنْهُمُ ٱلرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً »[1] .

وفي حديث حسن : أنه صلى الله عليه وسلم اشتمل على العباس وبنيه بمُلاءة ثم قال : « يَا رَبِّ ؛ هَـٰذَا عَمِّي وَصِنْوُ أَبِي ، وَهَؤُلاَءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَٱسْتُرْهُمْ مِنَ ٱلنَّارِ كَسَتْرِي إِيَّاهُمْ بِمُلاَءَتِي هَـٰذِه » . فقالت أُسْكُفَّة الباب وحوائط البيت : آمين ، ثلاثاً . فعلم أن المراد بأهل البيت في الآية : أهل بيت سكنه صلى الله عليه وسلم ، وهن أمهات المؤمنين ، وأهل بيت نسبه ، وهم مؤمنو بني هاشم وبني المطلب ، وصح هـٰذا عن زيد بن أرقم ، والأشهر : أن هـٰؤلاء هم آله المذكورون في قوله : « ٱللَّهُمَّ ؛ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ » وقيل : المراد بآله هنا : كل مؤمن ، واختير ، وخبر : « آلِي كُلُّ مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ » ضعيف بالمرة ، وآل البيت الذين حرمت عليهم الصدقة المرادون في جميع ما جاء في فضل آل البيت أو الآل أو ذوي القربىٰ ، وأولـٰئك الأربعة هم المرادون في آية المباهلة ، كما يصرح به ما صح عنه صلى الله عليه وسلم فيها .

(إن فؤادي) أي : قلبي (ليس) فعل جامد ، معناه : نفي مضمون الجملة في الحال ، ونفي غيره بالقرينة ، وقيل : هي لنفي الحال وغيره ، وقواه ابن الحاجب بقوله تعالى : ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ .

قال ابن مالك : (وترد للنفي العام المستغرق المراد به الجنس ، كـ« لا » التبرئة ، وهو مما يغفل عنه ، وخرج عليه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾) اهـ

ويصح إرادة هـٰذا المعنى الأخير في النظم .

(يسليه عنكم التأساء) ـ بفوقية أوله ـ أي : ما يحصل لي من الشدائد والمحن ، وفي « القاموس » : (تأساه : آذاه واستخف به) بل محبتكم مقيمة فيه على الدوام ، لا تزلزلها محنة ، ولا تنقصها شدة .

وفي الحديث : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ بِي حَتَّىٰ يُحِبَّنِي ، وَلاَ يُحِبُّنِي حَتَّىٰ يُحِبَّ ذَوِيَّ ، أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ ، وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمْ ، وَعَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُمْ ، أَلاَ

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٧١) ، وأحمد (٦/ ٣٠٤) .

مَنْ آذَىٰ قَرَابَتِي . . فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي . . فَقَدْ آذَىٰ ٱللهَ تَعَالَى »[١] .

وفي الحديث أيضاً : « إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ . . لَنْ تَضِلُّوا : كِتَابَ ٱللهِ وَعِتْرَتِي »[٢] فتأمل كونه صلى الله عليه وسلم قرنهم بالقرآن في أن التمسك بهما يمنع الضلال ويوجب الكمال .

وأشار إلىٰ أن ما عنده ملازم له ، لا يفارقه بسلو ولا تسل ولا بغيرها من الوفاء بحقهما ، والتحزن والتحسر لمصابهما ، إنما هو مع تفويضه الأمور إلىٰ بارئها كما قال :

(340)

غَيْرَ أَنِّي فَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى ٱللهِ ‌‌ وَتَفْوِيضِي ٱلْأُمُورَ بَرَاءُ

(غير) أي : إلا (أني) فهو استثناء منقطع (فوضت أمري) في ذلك كله (إلى الله) الفاعل لما يشاء ، والمقدر لما يريد ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ (وتفويضي الأمور) إلىٰ من هو مقدرها ومدبرها (براء) أي : مبرىء للمفوض كذلك اعتمادَه علىٰ شيء من حوله وقوته ، وذلك متعين علىٰ كل مسلم فضلاً عن كامل ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : « لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِٱللهِ : بَرَاءَةٌ مِنَ ٱلشِّرْكِ ، وَكَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ ٱلْجَنَّةِ »[٣] .

وفي (فوضت) و(تفويضي) جناس الاشتقاق ، وجملة : (وتفويضي . . .) إلخ تذييل .

(341)

رُبَّ يَوْمٍ بِكَرْبَلَاءَ مُسِيءٍ ‌‌ خَفَّفَتْ بَعْضَ وِزْرِهِ ٱلزَّوْرَاءُ

(رب) للتقليل (يوم بكربلاء مسيء) باعتبار ما وقع فيه من قتل الحسين ومن معه

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٩٧٧) ، والترمذي (٣٨٧٠) قطعةً منه .
(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٨٦) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٦٦) .
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٨٤) ، ومسلم (٢٧٠٤) بنحوه .

رضي الله عنهم بها (**خففت بعض وزره**) أي : ثقل ذلك الخطب الجسيم ، والمصاب العظيم على النفوس التي عندها غيرة لآل البيت النبوي عليهم السلام (**الزوراء**) فيها مع (وزره) شبه الاشتقاق ، وهي : ناحية ببغداد ؛ أي : ما وقع من خلفائها بني العباس الذين هم من جملة آل البيت من أخذهم ببعض ثأر ابن عمهم الحسين وغيره من آل البيت بالخروج علىٰ بني أمية ؛ لأنهم عاثوا وجاروا ولم يراقبوا الله ولا رسوله طرفة عين في آل البيت الطاهرين المطهرين ، الكاملين المكملين ، الجامعين بين العلوم الشرعية ، والمعارف الربانية ، والأسرار الإلـٰهية ، والكرامات الباهرة ، والمعالي الفاخرة ، ثم بنزع الخلافة منهم بعد أن نصرهم الله عليهم فقتلوهم شر قِتلة ، كما قال :

(342)

وَٱلْأَعَـادِي كَـأَنَّ كُـلَّ طَـرِيـحٍ مِنْهُـمُ ٱلـزِّقُّ حُـلَّ عَنْـهُ ٱلْـوِكَـاءُ

(**والأعادي**) الذين هم أولـٰئك الفسقة الفجرة (**كأن كل طريح**) أي : مطروح (**منهم**) إلى الأرض ببوارق السيوف ، ولوامع الأسنة الموجبة لتوالي الحتوف (**الزقُّ**) المنتفخ الملقىٰ بالأرض الذي (**حل عنه الوكاء**) وهو : ما يشد به رأس الزق ، ولا زالوا يتبعونهم حتىٰ قطعوا دابرهم عن آخرهم ، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وهـٰذه القصة مبسوطة في التواريخ ، كـ« تاريخ الخلفاء » للسيوطي ، ثم في اختصاري له ، فعليك بطلبها من محلها إن شئت .

يا

(343)

آلَ بَيْـتِ ٱلنَّبِـيِّ طِبْتُـمْ فَطَـابَ ٱلْـ ـمَدْحُ لِـي فِيكُـمُ وَطَـابَ ٱلـرِّثَـاءُ

(آل) فهو منادىً ، وأصله : أهل ، أبدلت (الهاء) همزة ساكنة ، وقبلها همزة متحركة ، فأبدلت الساكنة ألفاً على القاعدة ، ولا يضاف إلا إلى الأشراف كما هنا ، وإنما قيل : آل فرعون ؛ لأنه كان متصوراً بصورة الأشراف .

(بيت النبي) مر آنفاً بيانهم (طبتم) أصولاً وفروعاً ونفوساً ، وأفعالاً وأقوالاً وصفات ، وظاهر النظم : أن المراد بالطيب في : (وبريحانتين طيبهما منك) : غير المراد به هنا ، وهو محتمل ، ويحتمل أنه في الموضعين للطيب ظاهراً وباطناً ، وأن الطيب ثَم لهما ، وهنا للباقين ، وهو الوجه ؛ لأن ذاك في خصوصهما ، وهـٰذا في عموم أهل البيت ، كما دلت عليه الآية السابقة : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ إذ هي منبع فضائلهم ؛ لاشتمالها علىٰ غرر من مآثرهم ، والاعتناء بشأنهم ، حيث ابتدئت بـ(إنما) المفيدة لحصر إرادته تعالىٰ إذهاب الرجس عنهم ، وهو الإثم ، أو الشك فيما يجب الإيمان به ، وتطهيرهم من سائر الأخلاق والأحوال المذمومة ، وفي أحاديث تحريمهم على النار ، وهو فائدة ذلك التطهير وغايته ؛ إذ منه إلهام الإنابة إلى الله تعالىٰ ، وإدامة الأعمال الصالحة ، ومن ثم لما ذهبت عنهم الخلافة الظاهرة ؛ لكونها صارت مُلكاً عَضوضاً[1] ، ولذا لم تتم للحسن رضي الله عنه . . عوضوا عنها الخلافة الباطنة ، حتىٰ ذهب قوم إلىٰ أن قطب الأولياء في كل زمن لا يكون إلا منهم .

وحكمة ختم الآية بـ﴿ تَطْهِيرًا ﴾ المبالغة في وصولهم لأعلاه ، وفي رفع التجوز عنه ، ثم تنوينه تنوين التعظيم والتنكير المشير إلىٰ أنه تطهير بديع ليس من جنس ما يتعارف ويؤلف ، ثم أكد صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله ـ وقد جعل علىٰ علي وفاطمة والحسنين كساء وقرأ الآية ـ : « ٱللَّهُمَّ ؛ هَؤُلاَءِ أَهْلُ بَيْتِي ، أَذْهِبْ عَنْهُمُ ٱلرِّجْسَ ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » .

وفي رواية : « إِنَّ هَؤُلاَءِ آلُ مُحَمَّدٍ ، فَٱجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ »[2] وفي أخرى : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَهْلِي أَذْهِبْ عَنْهُمُ ٱلرِّجْسَ ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » ثلاثاً[3] .

---

(١) الملك العَضوض : الذي فيه تعسفٌ وظلم .
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٢٣) ، وأبو يعلىٰ (٧٠٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٥٣) .
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٨) .

وصح حديث : « إِنَّ مِثْلَ أَهْلِ بَيْتِي مِثْلُ سَفِينَةِ نُوحٍ ، مَنْ رَكِبَهَا . . نَجَا ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا . . هَلَكَ »[١] .

وحديث : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِي مِنْ بَعْدِي »[٢] .

وحديث : « سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لاَ أَتزَوَّجَ إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِي ، وَلاَ يَتزَوَّجَ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي . . إِلاَّ كَانَ مَعِي فِي ٱلْجَنَّةِ ، فَأَعْطَانِي ذَٰلِكَ »[٣] .

وحديث : « وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ ٱللهِ ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي » .

وحديث : « أَنَا حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ ، وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمَ »[٤] قاله لعلي وفاطمة وولديهما .

وحديث : « إِنَّ لِكُلِّ بَنِي أَبٍ عَصَبَةً يَنْتَمُونَ إِلَيْهَا إِلاَّ وَلَدَ فَاطِمَةَ فَأَنَا وَلِيُّهُمْ وَعَصَبَتُهُمْ ، وَهُمْ عِتْرَتِي ، خُلِقُوا مِنْ طِينَتِي ، وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ بِفَضْلِهِمْ ، مَنْ أَحَبَّهُمْ . . أَحَبَّهُ ٱللهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ . . أَبْغَضَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ »[٥] .

وحديث : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُبْغِضُنَا أَهْلَ ٱلْبَيْتِ أَحَدٌ إِلاَّ أَكَبَّهُ ٱللهُ فِي ٱلنَّارِ »[٦] .

(**فطاب المدح لي فيكم**) وإن لم أستوف واجب حقكم ، ومعالي شرفكم ؛ لأن الله ورسوله أثنيا عليكم بما تنقطع دونه الأعناق ، ودون الوصول إلىٰ غايته ، والإحاطة بشيء من نهايته (**وطاب**) لي فيكم (**الرثاء**) وهو : تعداد محاسن موتاكم .

وفي (طبتم) و(طاب) الاشتقاق ، و(المدح) و(الرثاء) الطباق .



(١) أخرجه البزار (٣٩٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٤٥) .
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣١١) ، وأبو يعلىٰ (٥٩٢٤) .
(٣) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣٨٥٦) .
(٤) أخرجه ابن حبان (٦٩٧٧) ، والترمذي (٣٨٧٠) .
(٥) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ٣١٣) .
(٦) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٥٢) .

أَنَـا حَسَّـانُ مَـدْحِكُـمْ فَـإِذَا نُحْـ ـتُ عَلَيْكُـمْ فَـإِنَّنِـي ٱلْخَنْسَـاءُ

(أنا حسان مدحكم) أي : أنا المشبه في الاعتناء بمدحكم علىٰ أقصىٰ ما يمكن من وجوه البلاغة وقوانين الفصاحة بحسان بن ثابت رضي الله عنه ، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي كان يَنْصِب له منبراً في مسجده صلى الله عليه وسلم ينافح عليه كفار قريش ، ويرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدعو له بقوله عليه الصلاة والسلام : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَيِّدْهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ »[١] .

ومن بلاغته رضي الله عنه : أنه لما أراد أن يهجو قريشاً . . أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ما من بطن من بطون قريش إلا وله إليها قرابة ، فقال : لأَسُلنَّك منهم كما تسل الشعرة من العجين[٢] ، ورآه عمر رضي الله تعالىٰ عنهما ينشد شعراً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إليه شزراً[٣] ، فقال : كنت أنشده فيه بين يدي من هو خير منك وهو يقول : « ٱللَّهُمَّ ؛ أَيِّدْهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ » ثم استَشهَد بعضَ الصحابة علىٰ ذلك ، فشهدوا له به .

(فإذا نحت) أي : رفعت صوتي بالبكاء (عليكم . . فإنني الخنساء) بنت عمرو بن الشريد من سراة ، قبائل منهم قيس عيلان .

قيل : قدمت علىٰ رسول الله مع قومها بني سليم الموالين له صلى الله عليه وسلم ، ولذا حضر معه منهم يوم فتح مكة وحرب حنين ألف رجل ، ونظرت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها عليها ثوب الحزن ، فأخبرتها بأنه صلى الله عليه وسلم نهىٰ عنه ، فاعتذرت بأنها لم تعلم بالنهي ، ثم ذكرت سببه ، وهو : أن زوجها افتقر ، فسألت أخاها ، فقاسمها ماله ، فافتقر ، فسألته ، فقاسمها ماله ، ثم الثالثة كذلك ، والرابعة كذلك ، فعاتبته زوجته ، فأجابها : بأنها كفته عارها ، ولما هلك . . مزقت خمارها ، ولبست

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣) ، ومسلم (٢٤٨٥) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣١) ، ومسلم (٢٤٨٩) .
(٣) الشزر : نظر الغضبان بمُؤْخِر العين .

من شَعَر صِدارها[1] ، قالت : فلما هلك . . اتخذت هـٰذا الثوب .

قيل لجرير : من أشعر الناس ؟ قال : أنا لولا هـٰذه ، قيل له : بم فضلتك ؟ قال : بقولها : [من البسيط]

إِنَّ ٱلـزَّمَـانَ وَمَـا تَفْنَـىٰ عَجَـائِبُـهُ — أَبْقَـىٰ لَنَـا ذَنَبـاً وَٱسْتُـؤْصِـلَ ٱلـرَّاسُ

أَبْقَـىٰ لَنَـا كُـلَّ مَجْهُـولٍ وَفَجَّعَنَـا — بِـٱلْحَـالِمِيـنَ فَهُـمْ هَـامٌ وَأَرْمَـاسُ

إِنَّ ٱلْجَدِيـدَيْـنِ فِي طُولِ ٱخْتِلاَفِهِمَـا — لاَ يَفْسُـدَانِ وَلَـٰكِـنْ يَفْسُـدُ ٱلنَّـاسُ

وأجمع علماء الشعر : أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها .

أي : فإنني مُشْبِهها في نوحها علىٰ أخيها صخر ، ورثائها له بالمعاني البديعة ، والمباني البليغة ، ومحاسن الثناء ، وجوامع الرثاء ، ومنه : [من الوافر]

أَلاَ يَـا صَخْـرُ إِنْ أَبْكَيْـتَ عَيْنـاً — لَقَـدْ أَضْحَكْتَنِـي دَهْـراً طَـوِيـلاَ

إلىٰ أن قالت :

إِذَا قَبُـحَ ٱلْبُكَـاءُ عَلَـىٰ قَتِيـلٍ — رَأَيْـتُ بُكَـاءَكَ ٱلْحَسَـنَ ٱلْجَمِيـلاَ

ومنه أيضاً : [من الوافر]

يُـؤَرِّقُنِـي ٱلتَّـذَكُّـرُ حِيـنَ أُمْسِـي — وَيَـرْدَعُنِـي عَـنِ ٱلأَحْـزَانِ نُكْسِـي[2]

عَلَـىٰ صَخْـرٍ وَأَيُّ فَتَـىً كَصَخْـرٍ — لِيَـوْمِ كَـرِيهَـةٍ وَطِعَـانِ خَلْـسِ

ثم قالت :

وَمَـا يَبْكُـونَ مِثْـلَ أَخِـي وَلَـٰكِـنْ — أُعَـزِّي ٱلنَّفْـسَ عَنْـهُ بِـٱلتَّـأَسِّـي

ومنه : [من المتقارب]

أَعَيْنَـيَّ جُـودَا وَلاَ تَجْمُـدَا — أَلاَ تَبْكِيَـانِ لِصَخْـرِ ٱلنَّـدَا

أَلاَ تَبْكِيَـانِ ٱلْجَـرِيءَ ٱلْحَمِيـدَا — أَلاَ تَبْكِيَـانِ ٱلْفَتَـىٰ ٱلسَّيِّـدَا

طَـوِيـلُ ٱلنِّجَـادِ رَفِيـعُ ٱلْعِمَـا — دِ سَـادَ عَشِيـرَتَـهُ أَمْـرَدَا

---

(١) الصِّدار : قميص قصير تلبسه المرأة .

(٢) النكس : معاودة المرض بعد البرء .

ومنه : [من البسيط]

وَإِنَّ صَخْـــراً لَتَــأْتَــمُّ ٱلْهُــدَاةُ بِـــهِ كَــأَنَّـــهُ عَلَـــمٌ فِـــي رَأْسِـــهِ نَـــارُ

سأل الخليفة المهدي الفضل عن أفخر بيت قالته العرب ، فذكر له هـٰذا ، فأعطاه ثلاثين ألف درهم بعد أن شكا أن عليه ديناً عشرة آلاف درهم .

ورآها عمر رضي الله تعالىٰ عنه تطوف باكية لاطمة لخدها ، معلقة نعل صخر في خمارها ، فوعظها ، فقالت : رزئت فارساً لم يرزأ أحد مثله ، فقال : إن في الناس من هو أعظم رزيئة منك ، وإن الإسلام قد غطىٰ ما كان قبله ، وإذاً لا يحل لك لطم وجهك ، ولا كشف رأسك ، فكفت .

وحضرت حرب القادسية مع بنيها أربعة رجال ، فحرضتهم على الثبات أبلغ تحريض ، ثم قالت : فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، وجللت ناراً علىٰ أرواقها . . فتيمموا وطيسها ، وجالدوا ربيسها[1] . . تظفروا بالنعيم والكرامة ، في دار الخلد والمقامة ، فتقدموا حتىٰ قتلوا كلهم ، فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة .

وكان عمر رضي الله تعالىٰ عنه يعطيها رضي الله عنها أرزاقهم لكلٍّ مئتان حتىٰ قبض رضي الله تعالىٰ عنه وعنهم[2] .

(345)

سُـدْتُـمُ ٱلنَّـاسَ بِـٱلتُّقَـىٰ وَسِـوَاكُـمْ سَـــوَّدَتْـــهُ ٱلْبَيْضَـــاءُ وَٱلصَّفْـــرَاءُ

(**سدتم الناس**) أيها الحسنان وذريتهما . . فالمراد بـ(الناس) بالنسبة إليهم : الكل ، لـٰكن بالنسبة لما فيهم من البَضعة الكريمة التي لا يعادلها شيء ، وأما بقية آل البيت . . فالمراد بـ(الناس) بالنسبة إليهم : من عدا الصحابة رضي الله عنهم ، هـٰذا كله بالنظر إلى النسب ، وأما بالنظر إلى السيادة (**بالتقىٰ**) . . فهو خاص بالمتقين

---

(١) الربيس : المضروب أو المصاب بمال أو غيره ، والمراد به هنا : الشجاع .

(٢) انظر « الإستيعاب » (٤/ ٢٨٧) ، و« الإصابة » (٤/ ٢٧٩) .

منهم ، وخصهم بذلك ؛ لكونه جاء عن كثيرين منهم من التقوىٰ والزهد والعبادة والعلم والمعرفة ما لم يجىء عن غيرهم ، وبهٰذا يجاب عما يورد على النظم : أن السيادة من حيث التقىٰ لا تختص بهم ، والكلام إنما هو فيما اختصوا به ، ووجه الجواب : تميزهم علىٰ أكثر الناس بتقىً لم يصل إليه غيرهم .

والمعنى : كما سدتم الناس بالنسب . . سدتموهم بزيادة التقى الذي لا يوجد في غيركم ، ومر أن جماعة قالوا : إن القطب لا يكون إلا منهم ، ومع ذلك كله ففي النظم إيهام إلا أن يقال : سيادتهم الناس بالنسب أشهر من أن تذكر .

ودليل الأول ـ أعني : السيادة من حيث النسب الذي هو أشرف الأنساب ـ : آية المباهلة ، قال بعض محققي المفسرين فيها : لا دليل أقوىٰ من هٰذا علىٰ فضل فاطمة وعلي وابنيهما ؛ أي : لأنها لما نزلت . . دعاهم صلى الله عليه وسلم ، فاحتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، ومشت فاطمة خلفه ، وعلي خلفهما ، فعلم : أنهم المراد من الآية ، وأن أولاد فاطمة وذريتهم رضي الله عنهم يسمون أبناءه ، وينسبون إليه نسبة حقيقية نافعة في الدنيا والآخرة ، ويدل لذلك : ما صح أنه صلى الله عليه وسلم خطب فقال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ : إِنَّ رَحِمَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم لاَ تَنْفَعُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، بَلَىٰ ، وَٱللهِ ؛ إِنَّ رَحِمِي مَوْصُولَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ . . . » الحديث[1] .

وأخرج الطبراني في حديث : « إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ ذُرِّيَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ فِي صُلْبِهِ ، وَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ ذُرِّيَّتِي فِي صُلْبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ »[2] وروىٰ غيره نحو ذلك من طرق ، وفي بعضها زيادة : « إِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ . . دُعِيَ ٱلنَّاسُ بِأَسْمَاءِ أُمَّهَاتِهِمْ سَتْراً عَلَيْهِمْ . . إِلاَّ هَـٰذَا وَذُرِّيَّتَهُ ، فَإِنَّهُمْ يُدْعَوْنَ بِأَسْمَائِهِمْ لِصِحَّةِ وِلاَدَتِهِمْ » .

وذكرُ ابنِ الجوزي ذلك في « العلل المتناهية » . . مردود بأن كثرة طرقه ترقيه إلىٰ درجة الحسن ، بل الصحة .

ويؤيده : ما صح عن عمر رضي الله تعالىٰ عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٧٤) ، وأحمد (٣/ ١٨) ، وأبو يعلىٰ (٢/ ٤٣٣) .

(٢) المعجم الكبير (٣/ ٤٣) .

عليه وسلم يقول : « كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ يَنْقَطِعُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مَا خَلاَ سَبَبِي وَنَسَبِي »[1] وفي رواية : زيادة الصهر والحسب : « وَكُلُّ بَنِي أُنْثَىٰ عَصَبَتُهُمْ لِأَبِيهِمْ مَا عَدَا وَلَدَ فَاطِمَةَ ؛ فَإِنِّي أَنَا أَبُوهُمْ وَعَصَبَتُهُمْ »[2] .

وجاء في حديث آخر بسند رجاله من أكابر أهل البيت : أن عمر رضي الله عنه قال ذلك لما زوجه علي رضي الله عنهما بنته من فاطمة أم كلثوم ، وإنكار جماعة من متأخري أهل البيت أن علياً لم يزوجها لعمر رضي الله عنهم . . ليس في محله ، وإقرار الصحابة لعمر علىٰ هـٰذا الاستدلال صريح في رد ما عارضه من أقاويل شاذة في هـٰذه المسألة ، لا سيما ما لبعض بني أمية في ذلك .

ودليل الثاني ـ أعني : النظر إلىٰ أن السيادة بالتقوىٰ ـ ما صح : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ . . دعا صلى الله عليه وسلم جميع بطون قريش ، فعمَّ وخصَّ ، وقال للكل : « لاَ أُغْنِي عَنْكُم مِنَ ٱللهِ شَيْئاً غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبِلاَلِهَا »[3] أي : سأصلها بصلتها ، ومعنىٰ ذلك : أنه لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً ، لـٰكن الله تعالىٰ يملكه نفع أقاربه ، بل وأمته بشفاعته الخاصة والعامة .

وأخرج الطبراني حديث : « إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلاَءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَىٰ ٱلنَّاسِ بِي ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، إِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْكُمُ ٱلْمُتَّقُونَ مَنْ كَانُوا حَيْثُ كَانُوا »[4] .

وصحح الحاكم حديث : « وَعَدَنِي رَبِّي فِي أَهْلِ بَيْتِي مَنْ أَقَرَّ مِنْهُمْ بِٱلتَّوْحِيدِ وَلِي بِٱلْبَلاَغِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ »[5] .

وأخرج أحمد حديث : « وَٱلَّذِي بَعَثَنِي بِٱلْحَقِّ نَبِيّاً لَوْ أَخَذْتُ بِحَلْقَةِ ٱلْجَنَّةِ . . مَا بَدَأْتُ إِلاَّ بِكُمْ » .

---

(١) أخرجه الضياء في « المختارة » (١٠١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٧/ ٦٣) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ٤٤) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٤٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ٣١٣) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٤) ، وابن حبان (٦٤٦) ، والترمذي (٣١٨٥) ، والنسائي (٦/ ٢٤٨) ، وأحمد (٢/ ٣٣٣) .

(٤) المعجم الكبير (٢٠/ ١٢٠) .

(٥) المستدرك (٣/ ١٥٠) .

وجاء في أحاديث ضعيفة : « إِنَّ فَاطِمَةَ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَحَرَّمَهَا ٱللهُ وَذُرِّيَّتَهَا عَلَىٰ ٱلنَّارِ »[١] .

وفي رواية : أن علياً كرم الله وجهه قال : يا رسول الله ؛ لم سميت فاطمة ؟ قال : « لأَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ فَطَمَهَا وَذُرِّيَّتَهَا عَنِ ٱلنَّارِ »[٢] .

نعم ؛ أخرج الطبراني بسند رجاله ثقات : « إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُ مُعَذِّبِكَ وَلاَ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِكَ »[٣] وورد : « يَا عَبَّاسُ ؛ إِنَّ ٱللهَ غَيْرُ مُعَذِّبِكَ وَلاَ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِكَ » .

ولا ينبغي لأحد من أهل البيت أن يغتر بذلك ؛ لأنه استفيد من قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق : « إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلاَءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَىٰ ٱلنَّاسِ بِي ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، إِنَّ أَوْلِيَائِي ٱلْمُتَّقُونَ. . . » إلخ ، وحديث البخاري ومسلم : « إِنَّ آلَ بَنِي فُلاَنٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ ٱللهُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِين »[٤] . . أن نَفْع رحمه وقرابته وشفاعته للمذنبين من أهل بيته وإن لم ينتف ، لـٰكن ينتفي عنهم بسبب عصيانهم ولاية الله ورسوله ؛ لكفرانهم نعمة قرب النسب إليه صلى الله عليه وسلم بارتكابهم ما يسوءه صلى الله عليه وسلم عند عرض عملهم عليه ، ومن ثم يُعرِض صلى الله عليه وسلم عن بعض من يقول منهم في القيامة : يا محمد ـ يريد أن يشفع له ـ فيقول صلى الله عليه وسلم : « لاَ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً » كما في الحديث[٥] .

وتأمل قول الحسن بن الحسن السبط رضي الله تعالىٰ عنهما لبعض الغلاة فيهم : ويحكم ، أحبونا لله ، فإن أطعنا الله. . فأحبونا ، وإن عصينا الله. . فأبغضونا ، ويحكم ، لو كان الله نافعاً بقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير عمل بطاعته. . لنفع بذلك من هو أقرب إليه منا ـ أي : كأبي طالب ـ والله إني لأخاف أن يضاعَف للعاصي منا العذابُ ضعفين ، وأن يؤتى المحسنُ منا أجرَه مرتين .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥٢) ، والبزار (١٨٢٩) .

(٢) ذكره الديلمي في « الفردوس » (١/ ٣٤٦) .

(٣) المعجم الكبير (١١/ ٢١٠) .

(٤) البخاري (٥٩٩٠) ، ومسلم (٢١٥) .

(٥) أخرجه البخاري (١٤٠٢) ، ومسلم (١٨٣١/ ٢٧) .

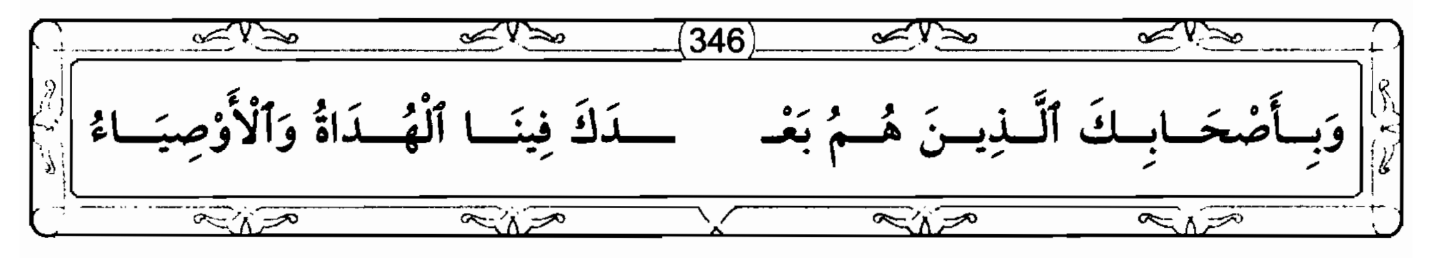
وكأنه أخذ ذلك من قوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ .

وقال موسىٰ بن علي بن الحسين بن علي عن أبيه عن جده : إنما شيعتنا من أطاع الله وعمل أعمالنا .

وبه يعلم : أن الفرقة المسماة بالشيعة ليسوا من شيعة آل البيت ، وإنما هم من شيعة إبليس لعنهم الله ، كما في الحديث الذي رواه الدارقطني وقال : إن له عنده طرقاً كثيرة : « يَا أَبَا ٱلْحَسَنِ ؛ أَنْتَ وَشِيعَتُكَ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَإِنَّ قَوْماً يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَكَ ، يُصَغِّرُونَ ٱلإِسْلَامَ ثُمَّ يَلْفِظُونَهُ ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ ٱلسَّهْمُ مِنَ ٱلرَّمِيَّةِ ، لَهُمْ نَبَزٌ ، يُقَالُ لَهُمُ : ٱلرَّافِضَةُ ، فَإِنْ أَدْرَكْتَهُمْ . . فَقَاتِلْهُمْ فَإِنَّهُمْ مُشْرِكُونَ » وفي رواية : قالوا : يا رسول الله ؛ ما العلامة فيهم ؟ قال : « لاَ يَشْهَدُونَ جُمُعَةً وَلاَ جَمَاعَةً ، وَيَطْعَنُونَ عَلَىٰ ٱلسَّلَفِ » .

(**وسواكم**) الذين يدعون سيادة وينقمون عليكم كسفهاء بني أمية ، أو المراد : (وسواكم) أي : غيركم الذين لم يعملوا بعملكم . . لا سيادة لهم في الدين أصلاً ، بل ولا في الدنيا عند الكمل ، وإنما (**سودته**) عند الجهلاء مثله ، وأفرد الضمير نظراً للفظ (سوى) (**البيضاء**) أي : الفضة البيضاء (**والصفراء**) أي : الذهب ؛ أي : طمع الناس في ماله ، فتخصيص هـٰذين لشدة الاحتياج والتطلع إليهما أكثر من غيرهما .

وفي (سدتم) و(سودته) الاشتقاق ، و(البيضاء) و(الصفراء) التدبيج .



(و) أقسم عليك (**بأصحابك**) جمع صاحب وهو : من اجتمع مؤمناً ولو طفلاً وأعمىٰ بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته ومات مؤمناً .

وحذفُ الشارح كشيخه الجلال المحلي رحمهما الله تعالىٰ لهـٰذا الأخير . . فيه نظر وإيهام وإن وقع في صنيع أحمد ابن حنبل رضي الله عنه في « مسنده » ما يؤيد ذلك ، كما بينته في محل آخر .

(**الذين هم بعدك فينا الهداة**) أي : الدالون للأمة على الله بما يجب له ويجوز ويستحيل عليه ، وعلىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم كذلك ، وعلىٰ شريعته ، وعلىٰ تهذيب النفوس وكمال الأخلاق والجهاد في الله تعالىٰ ، وغير ذلك مما يليق بكل مما ذكر ، وهٰذا مقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم : « أَصْحَابِي كَٱلنُّجُومِ ، بِأَيِّهِمُ ٱقْتَدَيْتُمُ . ٱهْتَدَيْتُمْ » واستخلص من هٰذا المقام أخص أفراده بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ٱقْتَدُوا بِٱللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ » .

(**والأوصياء**) أي : الذين وصيتهم بالقيام بأمور الدين والمجاهدة عليها ، ففتحوا الأمصار والبلاد ، وساسوا الأمة ، ونشروا فيها علوم الكتاب والسنة حتىٰ خضعت لمعاليهم الرؤوس ، وباد أهل الزيغ عن آخرهم ، فلم يبق منهم رئيس ولا مرؤوس .

وإنما حملت (الأوصياء) علىٰ ما ذكرت ؛ رداً علىٰ من زعم : أنه صلى الله عليه وسلم وصىٰ بالخلافة لأبي بكر أو لعلي ، ووجه الرد : أن الذي دلت عليه صرائح السنة ، ووقع عليه إجماع من يعتد به : أنه صلى الله عليه وسلم لم يوص في أمر الخلافة بشيء صريح ، وإلا . . لهلكت الأمة لو خالفوا ذلك النص ، فاقتضت المصلحة العامة وشفقته صلى الله عليه وسلم علىٰ أمته : أن لا ينص عليها صريحاً ، وإنما أشار إلىٰ أنها لأبي بكر رضي الله عنه بإشارات تقرب من التصريح ، كما بينتها في الكتاب السابق ذكره ، ولعل تلك المصلحة التي ذكرناها في عدم التصريح هي التي ظهرت له صلى الله عليه وسلم لما طلب في مرض موته دواة وقرطاساً ؛ ليكتب فيه ما لا يضلون معه ، فكثر عنده اللغط[1] ، فمن مريد للكتابة ؛ ليقع التصريح وينقطع العذر ، ومن مريد لعدمها كعمر رضي الله عنه ، خشية من مخالفة النص المؤدية إلىٰ هلاك المخالف ، فلذا ترك صلى الله عليه وسلم الكتابة .

والدليل علىٰ أنه إنما ترك لمصلحة : أنه مكث بعد ذلك المجلس أياماً ولم يذكر ذلك ولا طلبه ، ولو كان فيما طلبه مصلحة عائدة علىٰ أحد . . لم يترك ذكره وإن وقع أعظم مما وقع ، فسكوته صلى الله عليه وسلم أوضح دليل علىٰ ما تقرر .

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤) ، ومسلم (١٦٣٧/ ٢٢) .

(347)

أَحْسَنُوا بَعْدَكَ ٱلْخِلَافَةَ فِي ٱلدِّيـ ـنِ وَكُلٌّ لِمَا تَوَلَّىٰ إِزَاءُ

(أحسنوا بعدك) أي : بعد وفاتك (الخلافة) عنك (في الدين) بالقيام بجميع ما يجب أو تحسن مراعاته من الأمور الظاهرة والباطنة ، حيث أجمعوا على استخلاف أبي بكر رضي الله عنه ، ثم على استخلافه لعمر رضي الله عنه ، ثم على استخلاف أصحاب الشورىٰ رضي الله عنهم لعثمان رضي الله عنه ، ثم علىٰ مبايعة علي رضي الله عنه ، ثم مبايعة ابنه الحسن ، ثم بعد نزول الحسن لمعاوية رضي الله عنه ، ثم علىٰ ولاية معاوية رضي الله تعالىٰ عنهم ، وحيث نصبوا كلهم نفوسهم لمجاهدة الأعداء ونشر العلوم إلىٰ أن تحملها عنهم التابعون ، ثم مَنْ بعدهم ، جزاهم الله تعالىٰ عن الإسلام والمسلمين خيراً .

(وكل) منهم (لما تولىٰ) في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته من الخلافة والإمارة ، أو القضاء ، أو تجهيز الجيوش وحفظ الثغور والحصون ، وغير ذلك من أمور الدنيا والدين ، علىٰ أن جميع أمورهم إنما كانت للدين لا غير (إزاء) بكسر الهمزة وفتح الزاي ككتاب ؛ أي : قيم بما تولاه ، أهل له في أي بقعة أو زمن كان ، كيف وهم جميعهم رضي الله عنهم عدول كما نطق به القرآن ؟! ومن وقعت له منهم هفوة . . فقد كفرت عنه بحد أو توبة .

(348)

أَغْنِيَاءُ نَزَاهَةً فُقَرَاءُ عُلَمَاءُ أَئِمَّةٌ أُمَرَاءُ

(أغنياء نزاهة) أي : من جهة النزاهة والتعفف عن جمع المال وإن كان من جهة يقطع بحلها ؛ لأن محط نظرهم إنما هو التجرد المطلق عن سائر القواطع عن الله تعالىٰ ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ ٱلْغِنَىٰ بِكَثْرَةِ ٱلْعَرَضِ ـ أي : المال ـ وَإِنَّمَا ٱلْغِنَىٰ غِنَىٰ ٱلنَّفْسِ »[1] أي : بالله عما سواه ، سواء كان بيده مال أم لا ، ومن كان

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١) .

منهم بيده مال كابن عوف وعثمان والزبير رضي الله تعالىٰ عنهم . . فإنما كان خازناً لله تعالىٰ ، يصرفه في مصارفه الشرعية ، فهو مقتنيه لذلك ، لا لفخر ولا لمباهاة ، ولا لمحبة جمع لذلك الحطام الفاني ، ولذلك جاء : أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أعتق ثلاثين ألف رقيق[1] ، وتصدق هو وعثمان رضي الله عنهما في غزوة تبوك بما يبهر العقل ، وكان للزبير رضي الله عنه ألف عبد يؤدي إليه الخراج ، وما مات إلا وعليه قدر كثير جدّاً من الديون ، وكون المخلَّفِ عن ابن عوف رضي الله عنه ربعُ ثمنه ثمانون ألف دينار . . لا ينافي ما تقرر أنه إنما كان خازناً لله تعالى ؛ لأن الخازن ليس معناه أنه يخرج جميع ما في يده دفعة واحدة ، بل يبقيه ويخرج منه ما هو المطلوب منه في كل حال أو زمن ، وأما إخراجه صلى الله عليه وسلم لجميع ما كان يدخل في يده دفعة واحدة . . فهو إما لاحتياجه لذلك لسد ضرورات أصحابه رضي الله عنهم ، أو لأن حاله صلى الله عليه وسلم في الأمور الخارقة للعادة لا يقدر غيره على التأسي به فيها ، ولا يكلف بذلك .

وتخلف ابن عوف عن الفقراء في دخول الجنة الوارد . . إما لكونه يقف ليشفع ، أو ليسأل سؤال تكريم عما أنعم الله به عليه ، أو جبراً لخاطر الفقراء بذلك ، وكل ذلك غير قادح في فضله رضي الله تعالىٰ عنه .

هم (فقراء) أي : غالبهم ، بل كلهم ؛ لأن ذوي الغنىٰ منهم كانوا خزاناً لله تعالىٰ كما مر ، فلا يعدون من الأغنياء إلا باعتبار الصورة ، وأما باعتبار الحقيقة . . فهم علىٰ غاية من الافتقار إلى الله تعالىٰ ببواطنهم وظواهرهم ، لا يشهدون لنفوسهم مالاً ولا غنىً ، وإنما يعدون أنفسهم خزنة لا غير .

وبما تقرر في معنىٰ غناهم وفقرهم : يعلم أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر ، وهي مسألة كثر الاختلاف فيها ، والحق منه : ما قررته ؛ لما علمت أن الغنىٰ هو الذي ختم به أمره صلى الله عليه وسلم ، وهو كان دائم الترقي في الكمالات ، فلولا أن الغنىٰ مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر . . لما ختم له به قبل موته .

قيل : ومحل الخلاف في الفقر مع الصبر كما تقرر ، وأما الفقر مع الرضا . . فهو

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٠٨) .

أفضل قطعاً . اهـ وفيه نظر واضح ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان في ابتداء أمره مع فقره علىٰ غاية من الرضا لم يصل إليها غيره ، ومع ذلك لم يختم له إلا بالغنىٰ مع الشكر كما تقرر ، وبفرض صحة هـٰذا القول فغالب فقراء الصحابة رضي الله عنهم يفضلون أغنياءهم ؛ لأنهم راضون بفقرهم قطعاً .

وبين (الأغنياء) و(الفقراء) التضاد ، وكذا بين (أئمة) و(أمراء) ، وبين (الرخص) و(الإغلاء) الآتيات .

هم (علماء أئمة) لأنهم ورثوا من علومه صلى الله عليه وسلم ما تميزوا به علىٰ جميع من جاء بعدهم ، وفي الحديث : « أَصْحَابِي كَٱلنُّجُومِ ، بِأَيِّهِمُ ٱقْتَدَيْتُمُ . . ٱهْتَدَيْتُمْ » وهـٰذا بالنسبة لأكثرهم رضي الله عنهم أجمعين ، وإلا . . فقد جاء : أن نحو الحسن البصري كان يفتي الصحابة في زمنه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه في خطبة الوداع : « رُبَّ مُبَلَّغٍ ـ أي : بفتح اللام ـ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ »[1] .

هم (أُمَرَاءُ) أي : كثيرون منهم تولوا الإمارة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم في زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم فقاموا بحقوقها ، وبروا وعدلوا ، ومن ثم لما رمىٰ بعض المتهورين سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالىٰ عنه لما كان أميراً على الكوفة بعدم العدل فيهم . . دعا عليه بدعوات استجيبت فيه عاجلاً حتىٰ صار عبرة للناس ، ومنها : أن الله يطيل عمره ويعرضه للفتن ، فكان وهدب حاجبيه قد سقط علىٰ عينيه من الكبر يتعرض للجواري في الأسواق ، ويقول : شيخ سوء أصابته دعوة العبد الصالح سعد رضي الله تعالىٰ عنه[2] .

ومما يدل علىٰ أنهم أغنياء نزاهة لا غير : أنهم

(349)

زَهِدُوا فِي ٱلدُّنَا فَمَا عُرِفَ ٱلْمَيْـ ـــلُ إِلَيْهَـا مِنْهُـمْ وَلَا ٱلـرَّغْبَـاءُ

(زهدوا في الدنا) بضم الدال ، وحكى ابن قتيبة كسرها ، من الدنو ؛ أي :

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٤١) ، ومسلم (١٦٧٩) .

(٢) أخرج هـٰذه القصة البخاري (٧٥٥) ، وابن حبان (١٨٥٩) .

القرب ؛ لسبقها للأخرىٰ ، وقيل : لدنوها من الزوال ، وهي : ما علىٰ وجه الأرض ، وقيل : كل المخلوقات من الجواهر والأعراض ، وتطلق علىٰ كل من ذلك مجازاً كما هنا ، فإن المراد بها هنا : الأموال وتوابعها من نحو الجاه والكبر والفخر والخيلاء ، ولفظها مقصور بلا تنوين حيث لا لام فيها ، وحكي تنوينها ، واستشكل ابن مالك استعمالها منكرة كما في الحديث[1] ، وأجاب بأنها انخلعت عنها الوصفية ، وأجريت مجرىٰ ما لم يكن وصفاً قط ، كرجعىٰ .

ثم الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم في الزهد فيها ـ وهو : أخذ ما يحتاج إليه من الحلال ، وترك ما لا يحتاج إليه منه ـ علىٰ قسمين ، فأكثرهم ترك السعي في تحصيلها بالكلية ، واشتغل بالعلوم والمعارف ونشرها ، وبالعبادات حتىٰ لم يُبق من أوقاته شيئاً إلا وهو مشغول بشيء من ذلك ، وكثير منهم حصلوها ، لـٰكن كانوا فيها خُزاناً لله تعالىٰ كما مر ، وهـٰذا لا ينافي زهدهم فيها ؛ لأنهم لم يمسكوها لأنفسهم ، بل لإخراجها علىٰ مستحقيها بحسب نظرهم واجتهادهم .

وإذا تقرر أن زهدهم بقسميهم فيها حقيقي . . (فما عرف الميل إليها منهم) بنوع التفات ولا إقبال ؛ لحقارتها في أعينهم (ولا الرغباء) أي : الزيادة في تحصيلها ، وهـٰذا علم من نفي الميل بالأولىٰ ، فذكره مجرد إيضاح ، وفيه من البديع ذكر النظير والتذييل ، ولا ينافي هـٰذا ثناؤه صلى الله عليه وسلم على المال بقوله : « نِعْمَ ٱلْمَالُ ٱلصَّالِحُ فِي يَدِ ٱلرَّجُلِ ٱلصَّالِحِ »[2] ودعاؤه صلى الله عليه وسلم به لأناس من أصحابه ، كابن عوف وأنس رضي الله عنهما وغيرهما ، فكثرت أموالهم جدّاً ؛ لأن المال له جهتان : جهة خير ، بصرفه في الطاعات ، والإعانة فيه علىٰ قيام أمور الديانات ، وبالنظر إليها يثنىٰ عليه ، وجهة شر ، بصرفه في ضد ذلك ، وبالنظر إليها يذم ويقبح ، ولهـٰذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الوارد بسند حسن خلافاً لمن وهم فيه : « ٱللَّهُمَّ ؛ مَنْ أَحَبَّنِي فَأَقِلَّ مَالَهُ ، وَأَمِتْ وَلَدَهُ . . . » الحديث[3] ، وقد بسطت الكلام

---

(١) هو قوله صلى الله عليه وسلم : « . . . فمن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها . . . » كما في « البخاري » (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٩٧) .
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٣٣) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٨٥) .

علىٰ ذلك مع استيعاب ما ورد في مدح الدنيا وذمها والجمع بين تلك الأحاديث في كتابي « سعادة الدارين في صلح الأخوين » بما لا يستغنىٰ عن مراجعته .

(350)

أَرْخَصُوا فِي ٱلْوَغَىٰ نُفُوسَ مُلُوكٍ حَارَبُوهَا أَسْلَابُهَا إِغْلَاءُ

(أرخصوا في الوغىٰ) أي : بسبب الحرب الواقع منهم لأعدائهم في الوقائع المشهورة ، ومر أن إطلاق الوغىٰ على الحرب مجاز لا حقيقة (نفوس ملوك) كثيرين ، فكيف بغيرهم ؟! (حاربوها) بقوة عزم وشدة حزم ، وصدق نية وإخلاص طوية ، فنصرهم الله تعالىٰ عليهم بقتل بعضهم تارة ، وإزالة ملك آخرين أخرىٰ (أسلابها) بفتح الهمزة ، جمع سلب بفتح اللام ، وهو : ثياب القتيل وفرسه ، وما عليها من آلات السلاح والنقد ، وجنيبة تقاد بين يديه ، وليس المراد خصوص جمع القلة ؛ لأنه جمع مضاف لـ (الملوك) الذي هو جمع الكثرة ، وإضافة الجمع تفيد عمومه ، إما في الأفراد ، وهو التحقيق ، أو في المجموع ، وعليه كثيرون (إغلاء) بكسر الهمزة ، اسم مصدر لغلا السعر بمعنى اسم الفاعل ؛ أي : غالية الأثمان ، وفي بعض النسخ ضبطه بفتح الهمزة ، وكأنه جمع غال ، كداء وأدواء ، وبه يندفع قول الشارح : (لا وجه له) اهـ بل وجهه أظهر من الأول ؛ لأن حمل المصدر واسمه على الجمع يحتاج لتأويل كما أشرت إليه ، بخلاف حمل الجمع على الجمع ، وأما قوله على المعنى الأول : (إن المعنى : أنه كما كان القتل إرخاصاً للنفوس . . فـ « الأسلاب » ـ أي : أخذها ـ إغلاء للأسلاب) وقال قبله على المعنى الأول أيضاً : (وكأنه ـ أي : الناظم ـ يقول : إنهم كما أرخصوا نفوس محاربيهم بالقتل . . فقد أغلوا أسلابهم بواسطة كثرة ما سلبوه واجتمع عندهم من الأسلاب ، فقابل بين إرخاص الأنفس وإغلاء الأموال التي هي الأسلاب المأخوذة ممن قتلوه ؛ لكثرة ما قتلوه وسلبوه) اهـ . ففي كل من المعنيين بُعد وخفاء ، والوجه : أن المعنى : أنهم كما أرخصوا تلك النفوس . . عوضهم الله تلك الأسلاب الغالية الأثمان ، علىٰ حد : رجل عدل ؛ أي : عادل ، ورجال عدل ؛ أي : عادلون ، فكما أن المصدر هنا أول باسم

الفاعل . . فكذا فيما نحن فيه . . يؤول (الإغلاء) بالغالية ، وهـٰذا هو المعنىٰ علىٰ فتح الهمزة ، فتساوى المكسور والمفتوح .

(351)

كُلُّهُمْ فِي أَحْكَامِهِ ذُو ٱجْتِهَادٍ وَصَوَابٍ وَكُلُّهُمْ أَكْفَاءُ

(كلهم في أحكامه) جمع حكم ، والحكم الشرعي : خطاب الله المتعلقُ بفعل المكلف بالاقتضاء أو التخيير ، وحكم الحاكم يظهر ذلك ، ويطلق أيضاً عند الأصوليين على النِّسَب التامة المثبتة تارة والمنفية أخرىٰ ، كما في قولهم : الفقه : العلم بالأحكام الشرعية ، وهـٰذا هو المراد هنا ، خلافاً لما يوهمه كلام الشارح (ذو اجتهاد) صحيح ؛ لتوفر شروط الاجتهاد كلها في جميعهم بزيادة ، ولذلك لم يعرف عن أحد منهم أنه قلد غيره في مسألة من المسائل ، وكان الناس يستفتون كل من رأوه منهم فيفتيه باجتهاده ، ولا يعترض أحد منهم علىٰ أحد إلا إن كان هناك نص صريح خولف ، فيذكر له ، فمنهم من يرجع إليه ، ومنهم من يؤوله أو يعارضه بمثله ، وهـٰذا رد علىٰ قوم سلبهم الله الدين والعقل ، وسلط عليهم الحمق والجهل ، فاعتقدوا أنهم ذوو هوىً أو نفس ، أو حظ أو بغض ، حاشاهم الله من ذلك ، بل لم يخترهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم إلا وهم علىٰ أكمل الأوصاف وأجلها .

(و) ذو (صواب) يعني : وذو ثواب ، ولو عبر به . . لكان أولىٰ ؛ لأن إبقاءه علىٰ حقيقته إنما يتأتىٰ على القول الضعيف : إن كل مجتهد مصيب ، وإن حكم الله تعالىٰ تابع لظن المجتهد ، أما على الأصح : أن المصيب واحد ، وأن له أجرين كما صح به الخبر[1] ، أو عشرة أجور كما في رواية[2] ، وللمخطىء أجراً واحداً كما صح به الحديث أيضاً . . فلا يقال : كلهم ذو صواب ، بل صوابه : ذو ثواب كما تقرر . فتأمله .

فعلى الأول : كل من علي ومعاوية رضي الله تعالىٰ عنهما مصيب .

وعلى الثاني : علي رضي الله تعالىٰ عنه مصيب ، له أجران ، أو عشرة أجور ،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦) .

(٢) عند الدارقطني في « سننه » (٤/ ٢٠٣) ، وأحمد (٢/ ١٨٧) .

ومعاوية مخطىء في خروجه علىٰ عليّ ، له أجر واحد .

والاجتهاد : بذل الوسع في تحصيل المقصود ، ثم إن وافق ما عند الله . . فصواب وإلا . . فخطأ .

فإن قلت : يمكن تأويل النظم بأن مراده : ذو صواب عند نفسه ، باعتبار أنه يتحتم عليه العمل بما ظنه وإن لم يكن صواباً في نفس الأمر .

قلت : هو تأويل بعيد ، علىٰ أن هـٰذا لو كان مراده . . لم يسغ له فيه هـٰذا الإطلاق الموهم .

(وكلهم أكفاء) أي : متكافئون في أصل الصحبة والفضيلة ، والعلم والاجتهاد ، وإبراز الأحكام لا لحظ ولا لهوىً ، وإنما يتفاوتون في الزيادة في ذلك ، وحينئذ فلا ينافي ذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما : أبو بكر أعلمنا ، ولا سؤال عمر لعلي رضي الله عنهما فيجيبه ، فيقول : لا قدس الله أمة لست فيها يا أبا الحسن ، ولا تقديم عمر لابن عباس رضي الله عنهم علىٰ أكابر مشيخة المهاجرين والأنصار ؛ لأنه كان يجد عنده من العلم ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له : بأن الله يفقهه في الدين ، ويعلمه التأويل[1] ما ليس عندهم ، ولا سؤال معاوية لعلي رضي الله عنهما بالإرسال إليه في المشكلات فيجيبه ، ولقد قال له أحد ابنيه : لم تجيب عدونا ؟ فقال : أما يكفينا أنه احتاج إلينا وسألنا ؟

وأجمعوا علىٰ أن أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ـ والأصح : عثمان ثم علي ـ ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة ، ثم أهل بدر ، ثم أهل بيعة الرضوان ، وقيل : أهل أحد رضي الله عنهم .

(352)

رَضِـــيَ ٱللهُ عَنْهُـــمُ وَرَضُـــوا عَنْـــهُ فَـأَنَّـىٰ يَخْطُـو إِلَيْهِـمْ خَطَـاءُ

(رضي الله عنهم ورضوا عنه) اقتباس من قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ

---

(١) أخرجه الضياء في « المختارة » (١٦٧) ، وأحمد (١/٢٦٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/٢٦٣) ، وأصله في « الصحيحين » .

﴿ٱلْأَوَّلُونَ . .﴾ إلىٰ أن قال : ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ .

ورضا الله عن العبد : تأمينه من سخطه ، وإحلاله تعالىٰ دارَ كرامته ، ورضا العبد عنه : أن لا يختلج في سره أدنىٰ حزازة من وقوع قضاء من أقضية الحق به ، بل يجد لذلك في قلبه برد اليقين ، وثلج الصدر ، وشهود المصلحة العظمىٰ ، وزيادة الطمأنينة .

وبين (رضي) و(رضوا) اشتقاق كـ(يخطو) و(خطاء) الآتيين .

(فـ) بسبب ما ذكر من أوصافهم وختمها بما في الآية في حقهم (أنىٰ) استفهام إنكاري تعجبي ؛ أي : كيف (**يخطو إليهم**) أي : يصل إليهم ؛ إذ الخُطوة : ما بين القدمين (**خطاء**) وهو ـ بالمد للوزن لغة في الخطأ بالقصر ـ : نقيض الصواب ، يعني : لا يخطىء أحد منهم خطأ يأثم به ؛ لما مر أنهم كلهم مجتهدون رضي الله عنهم ، وأن المجتهد إذا أخطأ . . له أجر ، وهـٰذا كالذي قبله مأخوذ من عدة أحاديث ذكرتها في « الصواعق المحرقة » السابق ذكره مع ذكر مخرجها ، وهنا أذكر منها جملة عرية عن ذلك ؛ اتكالاً علىٰ أسانيدها ثَم .

منها : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ ٱخْتَارَنِي ، وَٱخْتَارَ لِي أَصْحَاباً ، فَجَعَلَ لِي مِنْهُمْ وُزَرَاءَ وَأَنْصَاراً وَأَصْهَاراً ، فَمَنْ سَبَّهُمْ . . فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ ٱللهِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يَقْبَلُ ٱللهُ مِنْهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً »(١) أي : فرضاً ولا نفلاً ، وفي رواية : « فَمَنْ حَفِظَنِي فِيهِمْ . . حَفِظَهُ ٱللهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ، وَمَنْ لَمْ يَحْفَظْنِي فِيهِمْ . . تَخَلَّىٰ ٱللهُ عَنْهُ ، وَمَنْ تَخَلَّىٰ ٱللهُ عَنْهُ . . يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ » ، « إِذَا أَرَادَ ٱللهُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي خَيْراً . . أَلْقَىٰ حُبَّ أَصْحَابِي فِي قَلْبِهِ » ، « أَصْحَابِي كَٱلنُّجُومِ ، بِأَيِّهِمُ ٱقْتَدَيْتُمُ . . ٱهْتَدَيْتُمْ » ، « ٱللهَ ٱللهَ فِي أَصْحَابِي ، لاَ تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ . . فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ . . فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ . . فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي . . فَقَدْ آذَىٰ ٱللهَ ، وَمَنْ آذَىٰ ٱللهَ . . يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ »(٢) « مَا شَأْنُكُمْ وَشَأْنَ أَصْحَابِي ؟ ذَرُوا لِي أَصْحَابِي ، ذَرُوا لِي أَصْحَابِي ، فَوَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً . .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٣٢) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/ ١٤٠) .
(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٦٢) ، وأحمد (٥/ ٥٤) .

مَا أَدْرَكَ مِثْلَ عَمَلِ أَحَدِهِمْ يَوْماً وَاحِداً »[١] وفي رواية الشيخين وغيرهما : « لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَوَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً . . مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ »[٢] ، « مَنْ لَمْ يَحْفَظْنِي فِي أَصْحَابِي . . لَمْ يَرِدْ عَلَيَّ ٱلْحَوْضَ وَلَمْ يَرَنِي »[٣] ، « خَيْرُ ٱلنَّاسِ قَرْنِي ٱلَّذِي أَنَا فِيهِ ، ثُمَّ ٱلَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ ٱلَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، وَٱلْبَاقِي أَرَاذِلُ »[٤] أي : غالبهم .

وفي رواية متفق عليها : « خَيْرُ ٱلْقُرُونِ قَرْنِي ، ثُمَّ ٱلَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ ٱلَّذِينَ يَلُونَهُمْ . . . » الحديث ، وهم أول داخل في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .

ولا مقام أعظم من مقام قوم ارتضاهم الله عز وجل لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصرته .

(353)

جَـاءَ قَـوْمٌ مِـنْ بَعْـدِ قَـوْمٍ بِحَـقٍّ وَعَلَـى ٱلْمَنْهَـجِ ٱلْحَنِيفِـيِّ جَـاؤُوا

(جاء) إلى النبي صلى الله عليه وسلم (قوم) من الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين (من بعد قوم) . . . وهـٰكذا ، السابقون الأولون ، ثم الذين بعدهم . . . وهـٰكذا إلىٰ وفاته صلى الله عليه وسلم .

وكأن الناظم أشار بهـٰذا إلىٰ ما في أول « صحيح البخاري » عن هرقل أنه سأل أبا سفيان رضي الله تعالىٰ عنه عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : أيزيدون أم ينقصون ؟ فقال : بل يزيدون ، وأنه هل يرتد منهم أحد سخطة لدينه ؟ فقال : لا ، فبين له أن من شأن الرسل أن أصحابهم كذلك[٥] .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٨/ ٣٩٢) .
(٢) البخاري (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤٠) .
(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣/ ٤٦٣) .
(٤) أخرجه البخاري (٢٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٣٣) ، دون قوله : « والباقي أراذل » .
(٥) البخاري (٧) .

فعلم : أن مجيء الصحابة قوماً من بعد قوم من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم ، واندفع ما قد يقال : أي فائدة في هٰذه الجملة من كلام الناظم ؟ وهل هي إلا مجرد إخبار بواقع لا يترتب عليه فائدة ؛ إذ لا فرق بين مجيئهم إليه دفعة أو دفعات ، وكلهم متلبسون (بحق) فلا مطعن فيهم لطاعن ، وما نقمه الرافضة ونحوهم عليهم . . فلم يصح منه شيء أصلاً ، وإنما هو من مقالات الجاهلين ، ووضع المفترين .

(وعلى المنهج) أي : الطريق الواضح (الحنيفي) أي : المستقيم الذي لا انحراف فيه ولا اعوجاج (جاؤوا) كلهم رضي الله عنهم وتابعوهم بإحسان . . . وهٰكذا ، « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ ٱللهِ وَهُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكَ »[1] .

(354)

مَا لِمُوسَىٰ وَلَا لِعِيسَىٰ حَوَارِيُّـ ـونَ فِي فَضْلِهِمْ وَلَا نُقَبَاءُ

(ما لموسىٰ) كليم الله تعالىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام (ولا لعيسىٰ) روح الله تعالىٰ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام (حواريون) جمع حَوَارِيٍّ ، وهو : الناصر ، وجعل ذلك علماً بالغلبة علىٰ أصحاب عيسى ؛ لأنهم كانوا يحورون الثياب ؛ أي : يقصرونها ، أو من الحُوَّارَىٰ ؛ أي : الدقيق الأبيض ؛ لبياض ألوانهم رحمهم الله (في فضلهم) بشهادة نص : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ وحديث : « خَيْرُ ٱلْقُرُونِ ـ وفي رواية : خَيْرُ ٱلنَّاسِ ـ قَرْنِي » ، وحديث المناجاة : أن موسىٰ رأىٰ لهٰذه الأمة في اللوح المحفوظ أوصافاً باهرة ، فقال : يا رب ؛ فاجعلني منهم[2] (ولا نقباء) في فضلهم أيضاً ، وهو لف ونشر مشوش ؛ إذ الحواريون لعيسىٰ ، والنقباء لموسىٰ علىٰ نبينا وعليهما الصلاة والسلام .

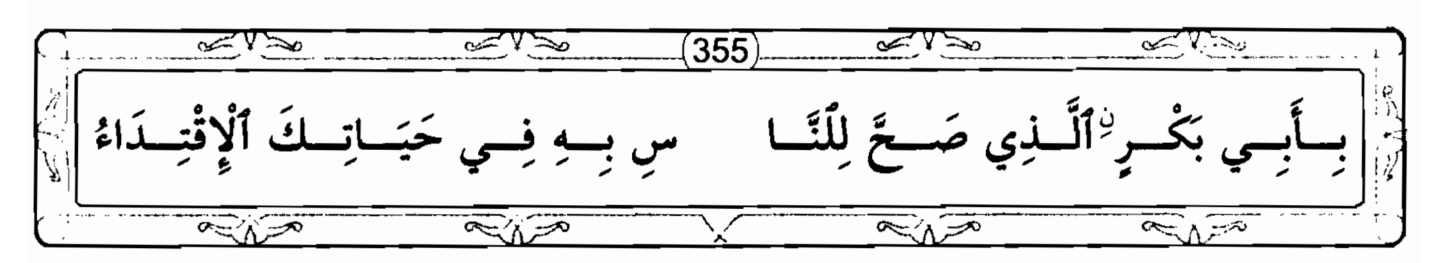
ولما أقسم رحمه الله بالصحابة كلهم رضي الله عنهم إجمالاً . . خصص العشرة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١) ، ومسلم (١٩٢٠) .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في « تفسيره » (٩/ ٤٥) .

المقطوع لهم بالجنة ، مرتباً للأربعة الأُوَلِ منهم علىٰ ترتيبهم في الأفضلية والأحقية بالخلافة ، فقال :



وأقسم عليك (بأبي بكر) الصديق رضي الله تعالىٰ عنه ، فهو عطف علىٰ (بالعلوم) بحذف حرفه ، ويصح أنه وما بعده أبدال تفصيلية من : (بأصحابك) (الذي) تميز عن سائر الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم بما كان كالصريح في أنه الخليفة الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه أفضلهم ، بل أفضل ما عدا الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، كما صح به حديث : « مَا طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَلاَ غَرَبَتْ عَلَىٰ أَحَدٍ بَعْدَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلْمُرْسَلِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ »[(١)] وهو ما صح من طرق كثيرة بحيث اشتهر ، بل تواتر وصار معلوماً بالضرورة[(٢)] ، كما قاله الأشعري رحمه الله ، فلذا لم يسع أحداً من المبتدعة إنكاره (**صح للناس به في حياتك الإقتداء**) فاعل (صح) ، والظروف متعلقة به .

فمن تلك الطرق : ما أخرجه الشيخان : اشتد مرض النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِٱلنَّاسِ » فقالت عائشة رضي الله تعالىٰ عنها : يا رسولَ الله ؛ إنه رجل رقيق ، إذا قام مقامك . . لم يستطع أن يصلي بالناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِٱلنَّاسِ » فعادت ، فقال : « مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِٱلنَّاسِ ، فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ » فأتاه الرسول ، فصلىٰ بالناس في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٣)] .

وفي رواية : أنها راجعته فلم يرجع لها ، فقالت لحفصة : قولي له : يأمر عمر ،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٢٥) .
(٢) انظر « سبل الهدىٰ والرشاد » (١٢/ ١٩٧) .
(٣) البخاري (٦٧٨) ، ومسلم (٤٢٠) .

فقالت له ، فاشتد غضبه ، وقال : « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ »[1] .

وفي أخرى : أن الحامل لعائشة رضي الله عنها علىٰ ذلك خوفها تشاؤم الناس به بقيامه مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه[2] .

وفي أخرى : أنه أمرهم بالصلاة وكان أبو بكر رضي الله عنه غائباً ، فتقدم عمر ، فكبر ـ وكان صيّتاً ـ فقال صلى الله عليه وسلم بعد أن أخرج رأسه مغضباً : « لاَ ، يَأْبَىٰ ٱللهُ وَٱلْمُسْلِمُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ » ثلاثاً[3] .

وفي أخرى : أنه فجر الإثنين يوم موته كشف سَجْف حجرته ، فرآهم في صلاة الصبح وأبو بكر رضي الله عنه يصلي بهم ، فتبسم وضحك ، فنكص أبو بكر علىٰ عقبيه ، ظناً أنه يريد الخروج إليهم ، وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم ، فرحاً به صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليهم بيده : أن أتموا صلاتكم ، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر ، فتوفي صلى الله عليه وسلم ضحىً[4] .

وفي البيت التلميح إلىٰ هـٰذه القصة ، قال العلماء : فيه أوضح دليل علىٰ أنه أفضل الصحابة مطلقاً ، وأحقهم بالخلافة ، وأولاهم بالإمامة ، ومن ثم أجمعوا علىٰ ذلك ؛ لأن تقديمه بحضرة المهاجرين والأنصار مع قوله : « يَؤُمُّ ٱلْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ ٱللهِ »[5] أي : أعلمهم بالقرآن . . صريح في أنه أعلمهم بالقرآن مطلقاً ، وقد استدل الصحابة أنفسهم بهـٰذا علىٰ أنه أحق بالخلافة ، منهم علي ، قال : لقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي بالناس وإني لشاهد وما أنا بغائب ، وما بي مرض ، فرضينا لدنيانا ما رضيه النبي صلى الله عليه وسلم لديننا .

وما أحسن قول من قال : صلىٰ بالناس ثمانية أيام والوحي ينزل ، فسكت الله ، وسكت رسوله ، وسكت المؤمنون!

---

(١) البخاري (٦٧٩) ، ومسلم (٤١٨/ ٩٥) .
(٢) أخرجه مسلم (٤١٨/ ٩٤) ، وابن حبان (٦٨٧٤) ، وأحمد (٦/ ٢٢٩) .
(٣) أخرجه الضياء في « المختارة » (٣١٤) ، وأبو داوود (٤٦٢٧) ، وأحمد (٤/ ٣٢٢) .
(٤) أخرجه البخاري (٦٨٠) ، ومسلم (٤١٩) .
(٥) أخرجه مسلم (٦٧٣) ، وابن خزيمة (١٥٠٧) ، وابن حبان (٢١٢٧) .

ومن الظواهر أو الصرائح على خلافته أيضاً : ما أخرجه مسلم : أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها في مرض موته : « ٱدْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ وَأَخَاكِ حَتَّىٰ أَكْتُبَ كِتَاباً ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّىٰ مُتَمَنٍّ ، وَيَقُولَ قَائِلٌ : أَنَا أَوْلَىٰ ، وَيَأْبَىٰ ٱللهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ »[1] .

وفي رواية : « ٱكْتُبُوا لأَبِي بَكْرٍ كِتَاباً لاَ يَخْتَلِفُ عَلَيْهِ أَحَدٌ » ثم قال : « دَعِيهِ ، مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ يَخْتَلِفَ ٱلْمُؤْمِنُونَ فِي أَبِي بَكْرٍ »[2] .

وصح : أن قوماً سألوا أنساً : أن يسأل لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلىٰ من يدفعون إليه زكاتهم بعده ، فسأله ، فقال : « إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ »[3] .

وأخرج الشيخان : أن امرأة أتته صلى الله عليه وسلم ، فأمرها أن ترجع إليه ، فقالت : أرأيت إن جئتك ولم أجدك ؟ ـ كأنها تقول : بعد الموت ـ فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنْ لَمْ تَجِدِينِي . . فَأْتِ أَبَا بَكْرٍ »[4] .

ومنها : ما أخرجه الشيخان من عدة طرق : (أنه صلى الله عليه وسلم رأىٰ أنه علىٰ بئر لم تطو ، فنزع منها بدلو ، فأخذ الدلو من يده أبو بكر ، فنزع بها دلواً أو دلوين ، ثم أخذها عمر من أبي بكر ، فاستحالت في يده غَرْباً ـ أي : دلواً كبيرة ـ فاستسقىٰ منها حتىٰ ضرب الناس بِعَطَن ؛ أي : حتىٰ رووا)[5] قال العلماء : هـٰذا إشارة إلىٰ خلافة أبي بكر رضي الله عنه وقصر مدته ، وطول مدة عمر رضي الله عنه ، وكثرة الفتوح وظهور الإسلام في زمنه .

وبقيت أدلة أخرىٰ سمعية آيات وأحاديث كثيرة تدل علىٰ أحقية خلافته ، وأنه أعلمهم وأفضلهم رضي الله عنهم ، بينتها أتم بيان في كتابي « الصواعق » السابق ذكره .

---

(١) مسلم (٢٣٨٧) .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (١١٦٣) .

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٧٧) .

(٤) البخاري (٣٦٥٩) ، ومسلم (٢٣٨٦) .

(٥) البخاري (٣٦٧٦) ، ومسلم (٢٣٩٣) .

وَٱلْمُهَــدِّي يَــوْمَ ٱلسَّقِيفَــةِ لَمَّــا أَرْجَــفَ ٱلنَّــاسُ إِنَّــهُ ٱلــدَّأْدَاءُ

(والمهدي) أي : المسكن للفتنة والاضطراب في أمر الخلافة (يوم السقيفة) التي لبني ساعدة من الأنصار رضي الله عنهم حين اجتمعوا بعد دفنه صلى الله عليه وسلم فيها إلىٰ سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنه ليولوه (لما) أي : حين (أرجف الناس) أي : اضطربوا في أمر الخلافة .

وبين (المهدي) أي : المسكن و(أرجف) ، و(القرباء) و(الأباعد) ، و(تقرب) و(تبعد) المطابقة .

(إنه) تعليل لـ(المهدي) ، ولا ينافيه كسر (إن) لأنها مع كونها للاستئناف قد تفيد التعليل أيضاً ، كما صرحوا به في : « إِنَّ ٱلْحَمْدَ وَٱلنِّعْمَةَ لَكَ » في التلبية (الدأداء) أي : المسكن للاضطراب لا غيره ، وكأن مراده : أنه المشهور قديماً وحديثاً بأنه يسكن الفتن ويجلي كربتها .

وفي « الصحيحين » عن عمر رضي الله عنه : أنهم لما دفنوا النبي صلى الله عليه وسلم . . تخلف علي والزبير ومن معهما في بيت فاطمة ، وتخلفت الأنصار بأجمعهم في سقيفة بني ساعدة ، واجتمع المهاجرون إلىٰ أبي بكر ، فقال له عمر : انطلق بنا إلى الأنصار ، فذهبوا إليهم ، فلما جلسوا . . قام خطيبهم ، فخطب وأثنىٰ على الله ، ثم مدح الأنصار وأطنب ، بحيث لم يترك آية أو خبراً جاء فيهم إلا ذكره ، ثم ذكر أن قوماً يريدون أن يستبدوا بالأمر عليهم ، ثم سكت ، فأراد عمر رضي الله عنه أن يخطب بما زوره ـ أي : جمعه في قلبه ـ فأشار إليه أبو بكر بالسكوت ، ثم خطب وأثنىٰ على الأنصار ، ثم بين أن الخلافة لا تكون إلا في قريش ، واحتج بالحديث الصحيح : « ٱلأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ » ثم قال : قد رضيت لكم إما عمر وإما أبا عبيدة ، وأخذ بيدهما وقال : بايعوا من شئتم منهما ، فقام الحباب بن المنذر ، وتحمس وترفع ، ثم قال : منا أمير ومنكم أمير ، فكثر اللغط ، وخيفت الفتنة ، فبادر عمر وقال لأبي بكر ، ابسط يدك ، فبسطها ، فبايعه ، فتبعه المهاجرون ثم الأنصار ، فقال قائل : قتلتم سعد بن

عبادة ـ أي : لأنه كان به بعض مرض ـ فقال عمر رضي الله عنه : قتله الله[1] ؛ أي : لأن الاجتماع عنده ربما كان سبباً للفتنة ، فساغ لعمر في اجتهاده ، وأنه بالنسبة إليه كالشيخ بالنسبة إلىٰ تلميذه ، يؤدبه بما يراه أن يقول في حقه ذلك .

وصح : أن عمر رضي الله عنه احتج على الأنصار بإمامة أبي بكر ، فرجعوا عما كانوا فيه وقالوا : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[2] ، ولما بايعوه.. صعد وجلس من الغد على المنبر ، فقام عمر رضي الله عنه ، فتكلم قبله ، فحمد الله وأثنىٰ علىٰ أبي بكر ، ثم قال : قوموا فبايعوه ، فبايعه الناس بيعة العامة ، فخطب أبو بكر رضي الله عنه ، ثم قال : وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت.. فأعينوني ، وإن أسأت.. فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله.. فلا طاعة لي عليكم ، ثم نظر فلم ير الزبير ، فدعا به فجاء ، فتكلم عليه ، فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ؛ فبايعه ، ثم نظر فلم ير عليّاً ، فدعا به ، فجاء فتكلم عليه ، فقال : لا تثريب يا خليفة رسول الله ؛ فبايعه ، واستدل كل منهما حينئذ علىٰ أحقيته بالخلافة بأنه صاحب الغار ، وبتقديمه للإمامة .

وحكى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره : أن الصحابة أجمعوا علىٰ خلافة أبي بكر الصديق لم يتخلف عنها أحد منهم ، ثم تبعهم من بعدهم من أهل السنة والجماعة إلى الآن ، ثم هلم جرّاً ، وكذا أكثر الفرق .

وأقسم عليك بأبي بكر الفاعل لذلك حال كونه كرم الله تعالىٰ وجهه

(357)

أَنْقَذَ ٱلدِّينَ بَعْدَ مَا كَانَ لِلدِّيـ ـنِ عَلَىٰ كُلِّ كُرْبَةٍ إِشْفَاءُ

(أنقذ) بالقاف فالمعجمة (الدين) وهو : ما جاء به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ؛ أي : نجاه بإزالة كل شبهة عنه ، وأهلَه بإزالة أسباب الفساد بينهم (بعد ما)

---

(١) البخاري (٦٨٣٠) .

(٢) أخرجه الضياء في « المختارة » (٢٢٩) ، والحاكم (٣/ ٦٧) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٨/ ١٥٢) ، وأحمد (١/ ٢١) .

مصدرية (كان) أي : وجد (للدين) متعلق هو وما بعده باسمها[1] ، وهو (إشفاء) (علىٰ كل كربة) أي : غم يأخذ النفس ، ويصح كونها ناقصة ، و(للدين) خبرها (إشفاء) أي : إشراف وقرب يخشىٰ منه أن لا يجتمع للإسلام بعده شمل أبداً ، ومن ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه : والله لولا أبو بكر . . ما عبد الله بعد محمد صلى الله عليه وسلم أبداً .

وأيضاً : فكلهم يوم وفاته طاشت عقولهم حتىٰ تكلموا بكلمات غير منتظمة . . إلا أبا بكر رضي الله عنه ، فإنه كان غائباً ، فلما حضر . . دخل وكشف عن الوجه الكريم ، وقبله وقال : لقد طبت حيّاً وميتاً ، لا يجمع الله عليك بين موتتين ، ثم خرج فتلا عليهم : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إلى : ﴿ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ ، فلما سمعوها . . ردت إليهم عقولهم ، فتلوها وقالوا ، حتىٰ عمر ، فإنه أنكر موت النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ذهب إلىٰ ربه ، فأسكته أبو بكر فسكت ، فأقبل على الناس ، فصغوا إليه وتركوا عمر ، فقال : يا أيها الناس ؛ من كان يعبد محمداً . . فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله . . فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا الآية . . فقالوا : كأننا لم نسمعها إلا حينئذ ، فكان هو المثبت لهم حينئذ ، وإلا . . لم يجتمع لهم شمل .

وأيضاً : اختلفوا في محل دفنه اختلافاً شديداً كاد أن يفضي إلى الفتنة ، فروىٰ لهم الحديث : « إِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ يُدْفَنُ فِي ٱلْمَحَلِّ ٱلَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ »[2] فرجعوا إليه ، وزال ما كان بينهم .

وأيضاً : اختلفوا في إرثه صلى الله عليه وسلم اختلافاً شديداً حتىٰ روىٰ لهم الحديث المشهور : « نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ »[3] فرجعوا إليه .

وبهـٰذا علم : أنه رضي الله عنه كان أحفظهم للسنة ، وإنما سبب قلة الرواية عنه

---

(١) لو قال : (بفاعلها) . . لكان أصوب ؛ لأنه فسر قول الناظم : (كان) بـ(وجد) فجعلها تامة ، ثم قال بعد قليل : (ويصح كونها ناقصة) . فليتنبه .

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٦٢٨) ، والبزار (١٨) ، وأبو يعلىٰ (٢٢) بنحوه .

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٠٤) ، ومسلم (١٧٥٧) .

قصر مدة خلافته ، واشتغاله بقتال المرتدين ، ومانعي الزكاة ، ومسيلمة الكذاب .

وحال كونه

(358)

أَنْفَقَ ٱلْمَالَ فِي رِضَاكَ وَلَا مَنٌّ ... وَأَعْطَىٰ جَمّاً وَلَا إِكْدَاءُ

(أنفق المال) الكثير الذي كان يملكه ؛ أي : صرفه في مصارف الخير حتىٰ نفد جميعه (في) أي : بسبب ، أو من أجل (رضاك) يا رسول الله ، كما جاء به القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ إلىٰ آخر السورة . قال ابن الجوزي رحمه الله : أجمعوا أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه[1] ، ففيها التصريح بإنفاقه لماله ، وبأنه ﴿ ٱلْأَتْقَى ﴾ ، وهوالأكرم ، بدليل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، والأكرم هو : الأفضل ، كما صرح به الحديث الصحيح : « مَا صَحِبَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلْمُرْسَلِينَ أَجْمَعِينَ ، وَلاَ صَاحِبَ (يسٓ) ـ أي : المذكور في (سورة يسٓ) أي : حبيب النجار ـ أَفْضَلُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ »[2] رضي الله عنه .

وصح حديث أنه : « لَيْسَ فِي ٱلنَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِن أَبِي بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي . . لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، وَلَـٰكِنْ خُلَّةُ ٱلإِسْلاَمِ أَفْضَلُ ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَـٰذَا ٱلْمَسْجِدِ إِلاَّ خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ »[3] أي : لأنه سيصير خليفة يحتاج إلىٰ ملازمة المسجد .

وأخرج الترمذي حديث : « مَا لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلاَّ وَقَدْ كَافَأْنَاهُ مَا خَلاَ أَبَا بَكْرٍ ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَداً يُكَافِئُهُ ٱللهُ بِهَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ »[4] .

---

(١) انظر « زاد المسير في علم التفسير » (٩/ ١٥١) .

(٢) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٤/ ٧٠) ، وذكره الطبري في « الرياض النضرة » (٢/ ٣٢) من كلام الليث بن سعد .

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٤) ، ومسلم (٢٣٨٢) .

(٤) الترمذي (٣٦٦١) .

والطبراني : « مَا أَحَدٌ عِنْدِي أَعْظَمَ يَداً مِنْ أَبِي بَكْرٍ ، وَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، وَأَنْكَحَنِي ٱبْنَتَهُ »[١] .

والترمذي : « رَحِمَ ٱللهُ أَبَا بَكْرٍ ، زَوَّجَنِي ٱبْنَتَهُ ، وَحَمَلَنِي إِلَىٰ دَارِ ٱلْهِجْرَةِ ، وَأَعْتَقَ بِلاَلاً مِنْ مَالِهِ ، وَمَا نَفَعَنِي مَالٌ فِي ٱلإِسْلاَمِ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ »[٢] .

ولا ينافيه حديث البخاري : أنه صلى الله عليه وسلم لم يأخذ منه الراحلة إلى الهجرة إلا بالثمن[٣] ؛ لاحتمال أنه أبرأه منه .

وصح : أنه كان بينه وبين عمر رضي الله عنهما شيء ، فسأله أن يغفر له فأبىٰ ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فندم عمر ، فأتىٰ منزل أبي بكر فلم يجده ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل وجهه يتمعر حتىٰ أشفق أبو بكر ، فجثا علىٰ ركبتيه وقال : يا رسول الله ؛ أنا كنت أظلم منه ، مرتين ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ ٱللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ ، فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقَ ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي »[٤] فما أوذي أبو بكر بعدها .

وفي رواية في قصة نظير هـٰذا : « أَلاَ تَدَعُونَ لِي صَاحِبِي ؟ مَا شَأْنُكُمْ وَشَأْنَهُ ؟ فَوَٱللهِ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ إِلاَّ عَلَىٰ بَابِ بَيْتِهِ ظُلْمَةٌ . إِلاَّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ ، فَإِنَّ عَلَىٰ بَابِهِ ٱلنُّورَ ، وَلَقَدْ قُلْتُمْ : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ ، وَأَمْسَكْتُمُ ٱلأَمْوَالَ وَجَادَ لِي بِمَالِهِ ، وَوَاسَانِي وَٱتَّبَعَنِي »[٥] .

وأخرج أحمد وآخرون عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ » فبكىٰ أبو بكر رضي الله عنه وقال : هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله ؟[٦] .

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ١٥٣) .
(٢) الترمذي (٣٧١٤) ، وليس فيه هنا قوله : « وما نفعني مال. . . » وهو موجود بنحوه عنده برقم (٣٦٦١) .
(٣) البخاري (٣٩٠٦) .
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦١) . تمعَّر وجهه : تغير .
(٥) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ١٠٩) .
(٦) مسند أحمد (٢/ ٢٥٣) .

وفي رواية عن ابن المسيب مرسلاً : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقضي في مال أبي بكر رضي الله عنه كما يقضي في مال نفسه صلى الله عليه وسلم[1] .

وأخرج ابن عساكر : أنه أسلم وله أربعون ألف دينار[2] ، وفي رواية : أربعون ألف درهم ، فأنفقها علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

والبغوي وابن عساكر : أنه كان عند النبي صلى الله عليه وسلم وعليه عباءة قد خلها في صدره بخلال ، فنزل عليه جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ؛ ما لي أرىٰ أبا بكر عليه عباءة قد خلها في صدره بخلال ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « يَا جِبْرِيلُ ؛ أَنْفَقَ مَالَهُ عَلَيَّ قَبْلَ ٱلْفَتْحِ » قال : فإن الله تعالىٰ يقرأ عليه السلام ويقول له : أراضٍ أنت عني في فقرك هـٰذا أم ساخط ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : أأسخط علىٰ ربي ؟ أنا عن ربي راضٍ ، ثلاثاً[4] وسنده غريب ضعيف جداً .

وفي رواية : أن جبريل عليه السلام هبط متخللاً بطنفسة ، وأخبر أن الله تعالىٰ أمر ملائكته أن يتخللوا بها كأبي بكر[5] ، قال الحافظ ابن كثير : (وهـٰذا منكر جداً ، لولا أنه كالذي قبله يتداوله كثير من الناس . . لكان الإعراض عنهما أولى) .

وصح عن عمر رضي الله عنه : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ، فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ـ أي : ما سبقته يوماً ـ فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟ » فقلت :

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٣٩٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣/ ٥٩) .

(٢) تاريخ دمشق (٣٠/ ٦٦) .

(٣) عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (٨/ ٤٤٨) .

(٤) تفسير البغوي (٤/ ٢٩٥) ، وتاريخ دمشق (٣٠/ ٧١) .

(٥) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/ ٦٠) ، وفيه محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن ثابت الأشنائي ، قال عنه الخطيب بعد ذكر الحديث : (وقد سمعت بعض شيوخنا ذكره فقال : كان يضع الحديث) ، وقد ذكر السيوطي هـٰذا الحديث في « اللآلىء المصنوعة » (١/ ٢٩٣) ، وقال : (موضوع ، عمله الأشنائي) .

مثله ، فأتىٰ أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : « يَا أَبَا بَكْرٍ ؛ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ » فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، فقلت : لا أسبقه إلىٰ شيء أبداً[1] .

(و) الحال أنه (لا من) منه عليك فيما أنفقه وإن كثر ، وإنما المنة لك عليه وعلىٰ غيره ، كما اعترف بذلك هو وغيره .

والمن : ذكر النعمة علىٰ جهة الافتخار ، ومن ثم حرم تحريماً غليظاً ـ علىٰ نحو متصدِّقٍ ـ المنُّ على المتصدَّق عليه ؛ بأن يعدد عليه ما أعطاه له ، أو يذكره لمن لا يحب إطلاعه عليه ، قال تعالى : ﴿ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ .

(وأعطىٰ) لله تعالىٰ عطاء (جماً) أي : كثيراً في وجوه الخير العامة والمصالح الدائمة ، منها : إعطاؤه ثمن محل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، كما جاء في حديث الهجرة : أنه صلى الله عليه وسلم لما وصل قباء وأقام به بضعة عشر يوماً ركب صلى الله عليه وسلم ناقته ، ونهىٰ أن يأخذ أحد بزمامها ، وقال : « دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » . فاستمرت إلىٰ أن بركت عند محل مسجده صلى الله عليه وسلم ، ثم سارت وهو عليها حتىٰ بركت علىٰ باب دار أبي أيوب الأنصاري من بني النجار ، أحد أخوال جد النبي صلى الله عليه وسلم عبد المطلب ، وكانت دارهم أوسط دور الأنصار وأفضلها ، ثم قامت وبركت في مبركها الأول ، وألقت باطن عنقها بالأرض ، ثم صوتت من غير أن تفتح فاها ، فنزل صلى الله عليه وسلم عنها وقال : « هَٰذَا ٱلْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى » ، ثم ساوم بني النجار في تلك البقعة ، فاشتراها منهم بعشرة دنانير وزنها من مال أبي بكر ، وكان قد خرج بماله كله ، فكان له من السبب في ذلك المسجد الأعظم ما اقتضىٰ وصول ثوابه إلىٰ حد لا يقدر قدره .

واشترىٰ أيضاً جماعة أسلموا ، فعذبهم أهل مكة العذاب الأليم ، منهم بلال رضي الله عنه ، وأعتقهم .

(ولا إكداء) أي : ولم يقطع إعطاءه ، بل استمر عليه حتىٰ توفاه الله تعالىٰ .

---

(١) أخرجه الضياء في « المختارة » (٨١) ، والحاكم (١/ ٤١٤) ، وأبو داوود (١٦٧٥) ، والترمذي (٣٦٧٥) .

وَأَبِـي حَفْـصٍ ٱلَّـذِي أَظْهَـرَ ٱللهُ بِـهِ ٱلـدِّيـنَ فَـأَرْعَـوَى ٱلـرُّقَبَـاءُ

(وأبي) أي : وأقسم عليك بأبي (حفص الذي أظهر الله به الدين) كما جاء في سبب تسميته بالفاروق .

أخرج أبو نعيم في « الدلائل » وابن عساكر عن ابن عباس : أنه سئل عن سبب تسميته بالفاروق ، فذكر أن حمزة رضي الله عنه أسلم قبله بثلاثة أيام ، وأنه خرج إلى المسجد ، فسب أبو جهل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبر حمزة ، فأخذ قوسه ، وجاء فضرب بها أحد صدغي أبي جهل فقطعه ، فسالت الدماء ، فأصلحت بينهما قريش مخافة الشر ، والنبي صلى الله عليه وسلم مختف بدار الأرقم ، فانطلق حمزة فأسلم ، وبعده بثلاثة أيام أنكر عمر علىٰ من أسلم ، فقال له : إن أختك وختنك ـ أي : سعيد بن زيد ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ قد أسلما ، فجاء فضرب رأس أخته فأدماه ، فقالت له : كان ذلك علىٰ رغم أنفك ، فاستحيا حين رأى الدماء ، وجلس وسألها أن تريه الكتاب ، فقالت : لا يمسه إلا المطهرون ، فاغتسل ، فأخرجوا إليه صحيفة فيها : بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿طه ۞ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ . . .﴾ الآيات ، فعظمت في صدره ، فقال له خبَّاب ـ وكان النبي صلى الله عليه وسلم أرسله لتعليم أخته وزوجها ـ : إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإني سمعته أمس يقول : « ٱللَّهُم ؛ أَعِزَّ ٱلإِسْلاَمَ بِعَمْرِو بْنِ هِشَامٍ ـ أي : أبي جهل ـ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ » فقال : دلني عليه ، فتوشح سيفه ، وذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فضرب الباب ، فاستجمع القوم ، فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا : عمر ، قال : وعمر ؟! افتحوا له الباب ، فإن أقبل . . قبلناه ، وإن أدبر . . قتلناه ، فسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج فتشهد عمر ، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد ، فقلت : يا رسول الله ؛ ألسنا على الحق ؟ قال : « بَلَىٰ » قلت : ففيم الإخفاء ؟! فخرجنا صفين : أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتىٰ دخلنا المسجد ، فنظرت قريش إلي وإلىٰ حمزة ، فأصابتهم كآبة شديدة ، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم

الفاروق يومئذ ، وفرق الله بي بين الحق والباطل[1] .

وفي رواية : أنه لما أظهر إسلامه . . صاروا يضربونه ويضربهم حتىٰ أجاره خاله ، قال : فما زلت أَضرِب وأُضرَب حتىٰ أعز الله الإسلام .

وصح : أنه لما أسلم . . نزل جبريل فقال : يا محمد ؛ قد استبشر أهل السماء بإسلام عمر[2] ، وأن المشركين قالوا : قد انتصف القوم اليوم منا[3] ، وأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] ، وأن ابن مسعود قال : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر[5] ، وقال أيضاً : كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمامته رحمة ، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي إلى البيت حتىٰ أسلم عمر ، فقاتلهم حتىٰ تركونا وسبيلنا[6] ، وأن حذيفة قال لما أسلم[7] : كان الإسلام كالرجل المقبل ؛ لا يزداد إلا قوة ، فلما قتل . . كان الإسلام كالرجل المدبر ؛ لا يزداد إلا ضعفاً[8] .

(فـ) بسبب قوته في الله تعالىٰ ، وشدة شكيمته[9] كما علم مما تقرر (ارعوىٰ) أي : رجع وأقلع وانكف (الرقباء) أي : الأعداء عما كانوا عليه من الإفساد في الدين ، وعدم النصح له ، وكثرة إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة بالأمور العظيمة التي كانوا يفعلونها معهم .

---

(١) تاريخ دمشق (٤٤/ ٢٩) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٦٨٨٣) ، والحاكم (٣/ ٨٤) ، وابن ماجه (١٠٣) .
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٨٤) ، والطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٠٤) .
(٤) ذكره ابن كثير في « تفسيره » (٢/ ٣٢٤) عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير ، ثم قال : (وفي هـٰذا نظر ؛ لأن الآية مدنية ، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى الحبشة ، وقبل الهجرة إلى المدينة ، والله أعلم) .
(٥) أخرجه البخاري (٣٦٨٤) .
(٦) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (٣/ ٢٧٠) .
(٧) أي : لما أسلم عمر رضي الله عنه .
(٨) أخرجه الحاكم (٣/ ٨٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٤٨٦) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٣٧٣) وعندهم بدل (إلا قوة) : (إلا قرباً) ، وبدل (إلا ضعفاً) : (إلا بعداً) .
(٩) الشكيمة : الأنفة ، والانتصار من الظلم ، وعدم الانقياد .

(360)

وَٱلَّـذِي تَقْـرُبُ ٱلْأَبَـاعِـدُ فِـي ٱللهِ　　　إِلَيْـــهِ وَتَبْعُـــدُ ٱلْقُـــرَبَـــاءُ

(و) هو أيضاً الإمام العدل القوي في الله تعالىٰ (الذي) ينطق الحق علىٰ لسانه وقلبه ، فلذلك (تقرب الأباعد) عنه في النسب (في) أي : بسبب ، أو لأجل رضا (الله إليه) متعلق بـ(تقرب) ، فيكونون بذلك أولىٰ عنده من أقاربه الذين ليسوا كذلك كما قال آنفاً .

وفي هـٰذا البيت من أنواع البديع : العكس ، نحو : ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ. . .﴾ الآية ، والاكتفاء ، وهو : حذف شيء دل عليه ما قبله كما قررته ، ورد العجز على الصدر ، والإرصاد ، وهو : أن يتقدم على الروي ما يشعر به ، نحو : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ. . .﴾ الآية .

(وتبعد) عنه (القرباء) أي : أقرباؤه إذا لم يوافقوه علىٰ طاعة الله تعالىٰ ، فعلم : أنه لا يحابي قريباً ولا صديقاً[١] ، وأنه لا رياء عنده ولا سمعة ، ولا حمية ولا عصبية ، وأن محط نظره إنما هو الله تعالىٰ لا غير ، وطاعة ربه هي المقربة منه ، وضدها هو المبعد عنه .

(361)

عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ مَنْ قَوْلُهُ ٱلْفَصْـ　　　ـلُ وَمَـنْ حُكْمُـهُ ٱلسَّـوِيُّ ٱلسَّـوَاءُ

(عمر بن الخطاب من) موصولة (قوله الفصل) أي : الفاصل بين الحق والباطل (ومن حكمه السوي) أي : الذي لا اعوجاج فيه (السواء) تأكيد ؛ أي : المعتدل ، وهـٰذا أولىٰ من جعل الشارح (السوي) صفة (حكم) ، و(السواء) خبره ؛ لاقتضائه تغايرهما ، وليس كذلك .

---

(١) أي : لا يختصه بشيءٍ دون غيره ، ولا يميل إليه .

فَـرَّ مِنْـهُ ٱلشَّيْطَـانُ إِذْ كَـانَ فَـارُو   قـاً فَلِلنَّـــارِ مِـــنْ سَنَـــاهُ ٱنْبِـرَاءُ

(فر) أي : هرب (منه الشيطان) أي : إبليس وكل عاتٍ متمرد جني أو أنسي (إذ) أي : لأجل أنه (كان فاروقاً) ظاهره : أن سبب تلقيبه بالفاروق كون الشيطان فر منه ، وليس مراداً ؛ لما مر أن سببه : أن الله فرق به بين الحق والباطل ، كما صحت به الأحاديث (فـ) بسبب ما منحه الله من النور الذي يفرق به بين الحق والباطل ، ويفر الشيطان منه بسببه (للنار) التي هي أصل الشيطان (من سناه) بالقصر ؛ أي : ضوئه (انبراء) أي : انمحاء ، والأصل في ذلك : أحاديث صحيحة ، منها حديث : « يَا ٱبْنَ ٱلْخَطَّابِ ؛ وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ ٱلشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجّاً قَطُّ إِلاَّ سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ »[١] .

وحديث « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ ٱلْحَقَّ عَلَىٰ لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ » .

وأنه ما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال عمر . . إلا نزل القرآن علىٰ نحو ما قال[٢] .

وحديث : « لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ . . لَكَانَ عُمَرَ بْنَ ٱلْخَطَّابِ »[٣] .

وحديث : « إِنَّ ٱللهَ وَضَعَ ٱلْحَقَّ عَلَىٰ لِسَانِ عُمَرَ يَقُولُ بِهِ »[٤] .

وحديث : « إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَيَفِرُّ مِنْكَ يَا عُمَرُ »[٥] وفي رواية : « إِنِّي لأَنْظُرُ إِلَىٰ شَيَاطِينِ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ »[٦] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٣) ، ومسلم (٢٣٩٦) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨٢) ، وقوله : (وأنه ما نزل . . .) إلخ . . من كلام ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٨٥) ، والترمذي (٣٦٨٦) ، وأحمد (٤/ ١٥٤) ، والطبراني في « الكبير » (١٧/ ٢٩٨) .

(٤) أخرجه أبو داوود (٢٩٥٥) ، وابن ماجه (١٠٨) ، وأحمد (٥/ ١٦٥) .

(٥) أخرجه الترمذي (٣٦٩٠) ، وأحمد (٥/ ٣٥٣) بنحوه .

(٦) أخرجه الترمذي (٣٦٩١) ، والنسائي في « الكبرى » (٨٩٠٨) .

وفي أخرىٰ : « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ : أَقْرِىءْ عُمَرَ ٱلسَّلاَمَ وَقُلْ لَهُ : إِنَّ رِضَاهُ حُكْمٌ ، وَإِنَّ غَضَبَهُ عِزٌّ »[1] .

وفي أخرى : « ٱلْحَقُّ بَعْدِي مَعَ عُمَرَ حَيْثُ كَانَ »[2] .

وفي أخرى : « إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَمْ يَلْقَ عُمَرَ مُنْذُ أَسْلَمَ إِلاَّ خَرَّ لِوَجْهِهِ »[3] .

وفي أخرى : « عُمَرُ مَعِي ، وَأَنَا مَعَ عُمَرَ ، وَٱلْحَقُّ بَعْدِي مَعَ عُمَرَ حَيْثُ كَانَ »[4] .

وصح حديث : « مَا طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ عَلَىٰ خَيْرٍ مِنْ عُمَرَ »[5] .

وروىٰ أحمد وغيره : أنه صلى الله عليه وسلم قال له : « يَا أُخَيَّ ؛ أَشْرِكْنَا فِي صَالِحِ دُعَائِكَ ، وَلاَ تَنْسَنَا »[6] .

والشيخان : أنه صلى الله عليه وسلم قال : « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ . . شَرِبْتُ لَبَناً حَتَّىٰ أَنْظُرَ إِلَىٰ ٱلرِّيِّ يَجْرِي فِي أَظْفَارِي ، فَنَاوَلْتُهُ عُمَرَ » قالوا : فما أولته يا رسول الله ؟ قال : « الْعِلْمُ »[7] وأنه رآه وعليه قميص يجره ، قالوا : فما أولته يا رسول الله ؟ قال : « ٱلدِّينُ »[8] .

وصح : أنه من الملهمين الذين ينطق الحق علىٰ لسانهم[9] .

363

وَٱبْنِ عَفَّانَ ذِي ٱلْأَيَادِي ٱلَّتِي طَا ... لَ إِلَى ٱلْمُصْطَفَىٰ بِهَا ٱلْإِسْدَاءُ

(وابن) أي : وأقسم عليك بذي النورين أبي عمرو عثمان بن (عفان) رضي الله

---

(١) أخرجه الضياء في « المختارة » (١٢٧) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٤٨) .
(٢) أخرجه البزار (٢١٥٤) .
(٣) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٤/ ٣٠٥) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٨/ ٢٨٠) .
(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ٩٠) ، والترمذي (٣٦٨٤) .
(٦) مسند أحمد (٢/ ٥٩) .
(٧) البخاري (٣٦٨١) ، ومسلم (٢٣٩١) .
(٨) البخاري (٢٣) ، ومسلم (٢٣٩٠) .
(٩) أخرج البخاري (٣٦٨٩) ، ومسلم (٢٣٩٨) نحوَه .

عنه (ذي) أي : صاحب (الأيادي) أي : النعم ، وهـٰذا في اليد بمعنى الجارحة ، جمع أيدٍ جمع يد ، فأتىٰ به الناظم في البيت بمعنى النعمة أيضاً (التي طال) أي : عظم وامتد (إلى المصطفىٰ) على الخلق كلهم ؛ أي : المختار ، فهو من الاصطفاء ، وقيل : المصطفى : المنقىٰ من كل شين وكدر ، فهو من التصفية (بها) متعلق بقوله : (الإسداء) أي : الإعطاء .

(364)

حَفَرَ ٱلْبِئْرَ جَهَّزَ ٱلْجَيْشَ أَهْدَى ٱلْـ ـهَـدْيَ لَمَّـا أَنْ صَـدَّهُ ٱلْأَعْـدَاءُ

(حفر البئر) أي : بئر رُومة ، وذلك أنها كانت ليهودي في الأَشْهَر ، فقدم صلى الله عليه وسلم المدينة وليس بها ماء يستعذب غيرها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَفَرَ بِئْرَ رُومَةَ ـ أو : مَنِ ٱشْتَرَاهَا ـ . فَلَهُ ٱلْجَنَّةُ »[١] فاشتراها عثمان بعشرين ألف درهم وحفرها ، وهي موجودة إلى الآن ، وثوابها مستمر له إلىٰ يوم القيامة .

وفي رواية : أن عثمان رضي الله عنه لما سمع قوله صلى الله عليه وسلم فيها : « إِنَّهَا نِعْمَ ٱلْبِئْرُ » . . اشترىٰ نصفها بمئة بكرة وتصدق بها ، واقتسماها يوماً لهـٰذا ويوماً لهـٰذا ، فجعل الناس يستقون منها في يوم عثمان ليومين ، فلما رأىٰ صاحبها أن قد امتنع منه ما كان يصيبه من ثمن الماء الذي يبيعه منها . . باع من عثمان النصف الثاني بشيء يسير ، فتصدق عثمان بها كلها .

تنبيه : تعبير الناظم بالحفر تبع فيه بعض الرواة ، وكأنه لم يبال بقول من قال : ذكر الحفر وهَم من بعض الرواة ، وإنما المعروف أنه اشتراها .

ويجاب بأنه لا مانع أنه اشتراها ، ثم زاد في تعميقها ، مبالغة في تكثير مائها ؛ لعموم احتياج الناس إليها ، ثم رأيت بعض المتأخرين صرح بنحو ذلك .

---

(١) ذكره البخاري معلقاً في (المساقاة) باب الشرب ، وفي (المناقب) باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأخرجه الضياء في « المختارة » (٣٤٩) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٦/ ١٦٧) ، وغيرهم .

وفي رواية : أن القربة منها كانت تباع بمد ، وأنه صلى الله عليه وسلم طلب من صاحبها أن يبيعها له ، فاعتل بأن له عيالاً وليس له غيرها ، فبلغ عثمان ، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم[1] .

(**جهز الجيش**) أي : جيش العسرة في غزوة تبوك .

أخرج الترمذي : أنه صلى الله عليه وسلم حث علىٰ جيش العسرة ، فقال عثمان : يا رسول الله ؛ علي مئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حض صلى الله عليه وسلم على الجيش ، فقال عثمان رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ علي مئتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حض صلى الله عليه وسلم علىٰ جيش العسرة ، فقال عثمان رضي الله عنه : يا رسول الله ؛ علي ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « مَا عَلَىٰ عُثْمَانَ ما فَعَلَ بَعْدَ هَـٰذِهِ »[2] ، وفي رواية : حمل عثمان في جيش العسرة علىٰ ألف بعير وسبعين فرساً[3] .

وصح : أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة ، فنثرها في حجره ، فجعل يقلبها بيده ويقول : « مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ ، مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ »[4] ، وفي رواية : أنه بعث بعشرة آلاف دينار ، فصبت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فجعل يقلبها ويقول : « غَفَرَ ٱللهُ لَكَ يَا عُثْمَانُ مَا أَسْرَرْتَ وَمَا أَعْلَنْتَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ، مَا يُبَالِي مَا عَمِلَ بَعْدَهَا » .

وصح : أنه لما حوصر . . أشرف عليهم فقال : أنشدكم بالله ، ولا أنشد إلا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ ٱلْعُسْرَةِ . . فَلَهُ ٱلْجَنَّةُ » فجهزته ، ألستم تعلمون أن

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٤١) .
(٢) الترمذي (٣٧٠٠) .
(٣) ذكره الحافظ المزي في « تهذيب الكمال » (١٩/ ٤٥٠) عن قتادة .
(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ١٠٢) ، والترمذي (٣٧٠١) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ حَفَرَ بِئْرَ رُومَةَ . . فَلَهُ ٱلْجَنَّةُ » فصدقوه بما قال[١] .

وصح عن أبي هريرة رضي الله عنه : اشترىٰ عثمان الجنة من النبي صلى الله عليه وسلم مرتين : حيث حفر بئر رومة ، وحيث جهز جيش العسرة[٢] .

وصح : أنه استشهد أقواماً من الصحابة علىٰ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ يَشْتَرِي هَـٰذَا ٱلْمِرْبَدَ وَيَزِيدُهُ فِي مَسْجِدِنَا وَلَهُ ٱلْجَنَّةُ وَأَجْرُهُ فِي ٱلدُّنْيَا مَا بَقِيَ دَرَجَاتٌ لَهُ ؟ » فاشتريته بعشرين ألفاً وزدته في المسجد . . فشهدوا له ، فقال الخوارج عليه : صدقوا ، ولـٰكنك غيرت ، ثم ذكر تجهيز جيش العسرة وحفر البئر فصدقوه ، فقال الخوارج عليه : صدقوا ، ولـٰكنك غيرت ، فقال : ويلكم ، كيف يكون من هـٰذا له مغيراً ؟! ثم ذكر أنهم سيقولون ذلك في غيره ، فكان كذلك في علي خرجوا عليه ، فاستشهد الصحابة علىٰ خصوصياته فشهدوا له ، فقالوا : صدقوا ، ولـٰكنك غيرت .

وفي رواية : أن محمد بن أبي بكر لما دخل علىٰ عثمان وكان مع الخارجين عليه . . استشهده : أن النبي صلى الله عليه وسلم زوجه ابنتيه وقال : « لَوْ كَانَ عِنْدَنَا شَيْءٌ . . زَوَّجْنَاهُ » وأنه بايع عنه في بيعة ٱلرضوان ، وأنه قال : « مَنْ يَشْتَرِي هَـٰذَا ٱلنَّخْلَ فَيُقِيمُ قِبْلَةَ ٱلْمَسْجِدِ وَلَهُ مِثْلُهُ فِي ٱلْجَنَّةِ ؟ » فاشتراه عثمان ، وأن المسلمين اشتد جوعهم ، فبسط لهم علىٰ أنطاعِ الحُوَّارَىٰ بالسمن والعسل[٣] ، فكان أول خبيص الحلوىٰ في الإسلام ، وأنهم ظمئوا ظمأ شديداً ، فحفر لهم بئر رومة ، فأعظم عليها النفقة ، ثم تصدق بها على المسلمين ، الضعيف فيهم والقوي سواء ، وأن الميرة انقطعت عن المدينة[٤] ، فجاع الناس ، فاشترىٰ خمس عشرة راحلة طعاماً ، فأخذ ثلاثاً ، وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم ثنتي عشرة ، فدعا له بالبركة فيما أعطىٰ وما أمسك ، وأنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بألف أصفر ، فصبها في حجره ،

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في (الوصايا) باب : إذا وقف أرضاً أو بئراً واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين .

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٠٧) .

(٣) الحُوَّارَى : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق .

(٤) الميرة : الطعام ونحوه مما يجلب للبيع ويُدَّخر .



فقال : « مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ » وأنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير بحراء ، فرجف بهم ، فضربه بقدمه وقال : « ٱثْبُتْ حِرَاءُ ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » كل ذلك ومحمد يقول : نعم[1] .

تنبيه : قال ابن مالك : من أحسن شواهد قول الكوفيين وآخرين : إن (أو) ترد بمعنىٰ (الواو) هٰذا الحديث الأخير .

(أهدى الهدي) إلىٰ مكة وأرسله إليها عام الحديبية ، حين توجه صلى الله عليه وسلم إليها ومعه ألف وأربع مئة في ذي القعدة سنة ست يريد العمرة ، فمنعته قريش من دخول الحرم (لما) أي : حين (أن صده) عن الدخول إليها (الأعداء) أي : المشركون ، وكأن وجه تخصيصه بذلك : أن هديه رضي الله عنه وصل إلىٰ مكة ، بخلاف هدي غيره ، لٰكن إنما ذلك لعزة قومه بها دون غيره ، ففي الخصوصية حينئذ تأمل ، بل قضية أدبه الآتي من تركه الطواف : ترك إرساله الهدي حيث لم يرسله صلى الله عليه وسلم .

ويجاب باحتمال أنه أخر هديه لغيبته حتىٰ حضر بعد ذبحهم لهديهم ، فحينئذ هو لم يرسله إلا وقد أيسوا من إرسال هديهم ، فلا مخالفة فيه للأدب .

وتفسيري لـ(لما) هٰذه بـ(حين) . . هو ما ذهب إليه جماعة ، وقال ابن مالك : إنها بمعنىٰ (إذ) لأنها مختصة بالماضي ، وبالإضافة إلى الجملة ، وهي تقتضي جملتين وجدت الثانية عند وجود الأولىٰ ، ولذا يقال فيها : حرف وجود لوجود ، وجوابها : إما ماضٍ ، أو جملة اسمية مقرونة بـ(الفاء) أو بـ(إذا) الفجائية ، و﴿ يُجَٰدِلُنَا ﴾ في قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ . . . ﴾ الآية . . مؤول بـ(جادلنا) خلافاً لابن عصفور ، وقد ترد للاستثناء ، نحو : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ في قراءة من شدد الميم .

وفي هٰذا كـ (السوي) و(السواء) ، و(تبعد) و(الأباعد) ، و(تقرب) و(القرباء) ، و(أدب) و(الأدباء) جناس الاشتقاق أو شبهه .

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (١٣٠١) .

وَأَبَى أَنْ يَطُوفَ بِٱلْبَيْتِ إِذْ لَمْ   يَدْنُ مِنْهُ إِلَى ٱلنَّبِيِّ فِنَاءُ

(وأبىٰ) رضي الله تعالىٰ عنه لما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلىٰ أهل مكة ومعه الكتاب الذي فيه ما وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمرو المرسل إليه من أهل مكة ؛ ليقع الصلح بينهم علىٰ أنه يرجع في هـٰذه السنة ولا يدخل مكة ؛ لئلا يقول الناس : إنه دخلها كرهاً علىٰ أهلها ، ثم يعود إليها معتمراً السنة القابلة ويدخلها والأسلحة في غلفها ؛ ليكون ذلك علامة على الصلح ، وعلىٰ وضع الحرب بينهم عشر سنين ، ثم نقضوا الصلح ، فكان ذلك سبباً لفتح مكة في السنة الثامنة ، ولما أرسله . . أمسك سهيل بن عمرو عنده بدله .

وفي رواية : أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر : « ٱذْهَبْ فَٱسْتَأْذِنْ لَنَا لِيُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْكَعْبَةِ » فقال : يا رسول الله ؛ ليس هناك أحد من بني عمي يمنعني ، ولـٰكن أرسل عثمان ؛ فإن بني عمه يمنعونه ، فأرسله ليكلم أشراف قريش في أن يرجعوا عن صده عن دخول مكة ، وأن يمكنوه من دخولها لأداء ما جاء بقصده من الاعتمار وتعظيم البيت بالبدن والهدي دون القتال ، فكلمهم فلم يمتثلوا ، وعلىٰ كل من القولين احتبسوه عندهم وقالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت . . فطف ، فأبىٰ ؛ أي : امتنع حينئذ (أن يطوف بالبيت إذ) تعليلية (لم يدن) أي : يقرب (منه) أي : البيت (إلى النبي) صلى الله عليه وسلم ، متعلق بـ (يدن) (فناء) وهو : ما امتد من جوانبه ، ولما احتبسوه . . بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن عثمان قتل ، فدعا الناس إلىٰ بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت ، وقيل : (علىٰ أن لا يفروا) ذكره الحافظ مغلطاي[١] .

ولما بايعه الناس علىٰ ذلك . . وضع صلى الله عليه وسلم يمينه علىٰ شماله وقال : « هَـٰذِهِ عَنْ عُثْمَانَ » وفي « البخاري » : (فقال النبي صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى :

(١) الإشارة إلىٰ سيرة المصطفىٰ (ص٢٧٦) .

« هَـٰذِهِ بَيْعَةُ عُثْمَانَ » فضرب بها علىٰ يده اليسرىٰ . . .) الحديث[١] ، وفي رواية للترمذي : أن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله ، فضرب بإحدىٰ يديه على الأخرىٰ ، فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم[٢] .

ولما سمع المشركون بهـٰذه البيعة . . خافوا وأرسلوا عثمان وجماعة من المسلمين .

وفي هـٰذه البيعة نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ .

(366)

فَجَزَتْهُ عَنْهَا بِبَيْعَةِ رِضْوَا ... نِ يَدٌ مِنْ نَبِيِّهِ بَيْضَاءُ

(فـ) بسبب ما وقع من عثمان ، من امتثاله أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذهابه إلى العدو ولم يبال باحتمال كونهم يقتلونه ؛ لشدة ما كانوا عليه من عداوتهم للمسلمين ، لا سيما لأكابرهم كعثمان ، ومن تأدبه مع النبي صلى الله عليه وسلم الأدب البالغ بتركه الطواف مع إذنهم له فيه (جزته عنها) أي : تلك الفعلة التي فعلها من الذهاب إليهم والامتناع من الطواف (ببيعة) أي : في بيعة (رضوان) سميت بذلك ؛ لما في الآية الثانية من رضا الله عنهم بسببها (يد من نبيه) أي : عثمان (بيضاء) أي : بالغة في الكرم الذي عم الأنام منها إلىٰ مبلغ ضوء الشمس وعمومه للعالم ، ولم لا تجازيه تلك اليد البيضاء بذلك ، والذي وقع منه من الامتناع من الطواف لأجل غيبة النبي صلى الله عليه وسلم وعدم تمكينهم له من الدخول

(367)

أَدَبٌ عِنْدَهُ تَضَاعَفَتِ ٱلْأَعْـ ... ـمَالُ بِٱلتَّرْكِ حَبَّذَا ٱلْأُدَبَاءُ

(أدب) عظيم جدّاً (عنده) رضي الله تعالىٰ عنه ، ومن عجيب هـٰذا الأدب : أنه

---

(١) البخاري (٣٦٩٨) .

(٢) الترمذي (٣٧٠٢) .

حصل فيه أمر عظيم ، وفضل مستغرب جسيم ، وذلك أنه مع كونه تركاً لفعل العبادة (تضاعفت الأعمال) التي في ذلك الفعل وهو الطواف ؛ أي : ثوابها (بـ) سبب (الترك) لذلك العمل لأجله صلى الله عليه وسلم ، فكان الترك هنا أفضل من الفعل لو وقع منه ؛ لأنه ليس فيه هـٰذا الأدب الذي بلغ به عثمان من السبق ما لم يبلغه غيره ، فلذا حق أن يقال فيه وفي أمثاله علىٰ سبيل المدح : (**حبذا الأدباء**) فهو تتميم بديع ، وعثمان رضي الله عنه من أجل الأدباء ؛ لأنه كان عنده من الحياء الذي هو منشأ الأدب ما لم يكن عند غيره ، وهو من أجلهم ، كيف وقد صح : أنه صلى الله عليه وسلم قال في حقه وقد استحىٰ صلى الله عليه وسلم منه لما دخل عليه فجمع ثيابه : « أَلاَ أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ ٱلْمَلاَئِكَةُ ؟ »[1] .

وروي من غير طريق : « أَشَدُّ أُمَّتِي حَيَاءً عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ »[2] ، « عُثْمَانُ أَحْيَىٰ أُمَّتِي وَأَكْرَمُهَا »[3] ، « عُثْمَانُ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ تَسْتَحِي مِنْهُ ٱلْمَلاَئِكَةُ »[4] ، « إِنَّ ٱلْمَلاَئِكَةَ لَتَسْتَحِي مِنْ عُثْمَانَ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ »[5] ، « إِنَّمَا تَشَبَّهَ عُثْمَانُ بِأَبِينَا إِبْرَاهِيمَ »[6] ، « عُثْمَانُ وَلِيِّي فِي ٱلدُّنْيَا ، وَوَلِيِّي فِي ٱلآخِرَةِ »[7] ، « لَوْ أَنَّ لِي أَرْبَعِينَ ٱبْنَةً . . زَوَّجْتُكَ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ حَتَّىٰ لاَ تَبْقَىٰ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ ، وَمَا زَوَّجْتُكَ إِلاَّ بِٱلْوَحْيِ مِنَ ٱللهِ تَعَالَىٰ »[8] .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم ذكر فتنة يعرفها ، فمر عثمان ، فقال : « هَـٰذَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠١) ، وابن حبان (٦٩٠٧) ، وأحمد (٦/ ٢٨٨) .
(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (١٢٨١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٦) .
(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٦) .
(٤) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٨٥٩٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/ ٨٦) .
(٥) أخرجه أبو يعلىٰ (٦٩٤٧) .
(٦) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/ ٢٨) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ١٣٢) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٣/ ١٧٣) .
(٧) أخرجه الحاكم (٣/ ٩٧) ، وأبو يعلىٰ (٢٠٥١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/ ٢٥) .
(٨) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/ ٤٢) دون قوله : « وما زوجتك إلا بالوحي . . . » .

يَوْمَئِذٍ عَلَىٰ ٱلْهُدَىٰ » وأنه قال له : « إِنَّ ٱللهَ مُقَمِّصُكَ قَمِيصاً ـ أي : موليك الخلافة ـ فَإِنْ أَرَادَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ عَلَىٰ خَلْعِهِ . فَلاَ تَخْلَعْهُ حَتَّىٰ تَلْقَانِي »[1] فلذلك قال لهم يوم الدار : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي عهداً وأنا صابر عليه .

وفي « البخاري » : أن بعض أعدائه جاء إلى ابن عمر ورماه بأنه فر يوم أحد ، وأنه تغيب عن بدر وعن بيعة الرضوان ، فرد عليه ابن عمر : بأن الله غفر له وعفا عنه ما وقع منه يوم أحد ، وأن تغيبه عن بدر إنما كان بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليمرض ابنته رقية ، وقال له : « إِنَّ لَكَ أَجْرَ مَنْ شَهِدَ بَدْراً وَسَهْمَهُ » وبأن غيبته عن بيعة الرضوان إنما هو لكونه أعز أهل مكة ، فأرسله في حاجته ، فكانت بيعة الرضوان ، فضرب صلى الله عليه وسلم إحدىٰ يديه على الأخرىٰ فقال : « هَـٰذِهِ لِعُثْمَانَ »[2] .

قال العلماء : ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره ، ولهـٰذا سمي ذا النورين .

وقال وهو محصور يراد قتله : إنه اختبأ عند ربه عشراً ، إنه رابع أربعة في الإسلام، وأنكحه صلى الله عليه وسلم ابنتيه ، ولا تغنىٰ ، ولا تمنىٰ ، ولا وضع يمينه علىٰ فرجه منذ بايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما مرت به جمعة منذ أسلم إلا وأعتق فيها رقبة ، فجملة من أعتقه : ألفان وأربع مئة رقبة تقريباً ، ولا زنىٰ ، ولا سرق جاهلية ولا إسلاماً ، وجمع القرآن علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(368)

وَعَلِيٌّ صِنْوِ ٱلنَّبِيِّ وَمَنْ دِيـ ـنُ فُؤَادِي وِدَادُهُ وَٱلْوَلَاءُ

(وعلي) أي : وأقسم عليك بعلي ، وسبق منه الإقسام به أيضاً ، وإنما لم يكتف به ؛ لأن ذلك وقع تبعاً للمعجزة المقصودة بالذات ، وهي برء عينيه بتفله صلى الله عليه وسلم فيهما ، وليبين ما هو مذهب أهل السنة وأكثر الفرق من أن الخلافة والأفضلية بينهم علىٰ هـٰذا الترتيب ، فأحق الصحابة بالخلافة وأفضلهم أبو بكر ، ثم عمر ، وهـٰذا إجماعٌ من الصحابة ومن بعدهم ـ كما حكاه جماعة من الأئمة منهم الشافعي

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٥/ ١٩٢) .
(٢) البخاري (٣٦٩٨) .

رضي الله تعالىٰ عنه ـ قطعيٌّ لا نزاع فيه يعتد به ، ثم عثمان ، ثم علي ، وهٰذا ما عليه الأكثرون ، فهو ظني لا قطعي ، وخالف فيه سفيان الثوري ومالك وغيرهما ، فقالوا بأفضلية علي وإن كان عثمان أحق منه بالخلافة ؛ لإجماع أهل الشورىٰ ثم الصحابة علىٰ خلافته مع الإشارة إليها من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما سبقت الإشارة إلىٰ ذلك ، ومما يصرح بأفضليته علىٰ علي ما صح عن ابن عمر : كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، فنخير أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : كنا معاشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن متوافرون نقول : أفضل هٰذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم نسكت[٢] .

وهل تجب محبتهم برعاية أفضليتهم ؟ فيه تفصيل ، وهو : أنها إن كانت من حيث الدين والعلم ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وجب ترتيبها كترتيبهم المذكور ، وإن كانت لنحو قرابة وإحسان . . لم تجب رعايتها لذلك .

(صنو النبي) صلى الله عليه وسلم ؛ أي : مثله ؛ لاجتماعهما في أصل واحد ، وهو عبد المطلب ، فهما كنخلتين أصلهما واحد ، وفي حديث الترمذي : « فَإِنَّمَا عَمُّ ٱلرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ »[٣] وهو من هٰذا القبيل (ومن) أي : الذي (دين) أي : اعتقاد (فؤادي) أي : قلبي (وداده) أي : حبه (والولاء) أي : مناصرته والذب عنه ، والرد علىٰ من نازع في خلافته ولم يبال بوقوع الإجماع عليها ، وعلىٰ من خرجوا عليه ونازعوه الأمر ورموه بما هو بريء منه ، وذلك عملاً بما صح عنه صلى الله عليه وسلم ، وهو : « ٱللَّهُمَّ ؛ وَالِ من وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ »[٤] ، « إِنَّ عَلِياً مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ، وَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي »[٥] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٥) .
(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٠/ ٣٤٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٦٣) .
(٣) الترمذي (٣٧٥٨) .
(٤) أخرجه ابن حبان (٦٩٣١) ، والضياء في « المختارة » (٤٨٠) ، وابن ماجه (١١٦) ، وغيرهم .
(٥) أخرجه ابن حبان (٦٩٢٩) ، والترمذي (٣٧١٢) ، وأحمد (٤/ ٤٣٧) .

ولتأكد الذب عنه ؛ لكثرة أعدائه من بني أمية والخوارج الذين بالغوا في سبه وتنقيصه مدة ألف شهر حتىٰ على المنابر. . خصه الناظم بذلك ، ولهٰذا اشتغل جهابذة الحفاظ ببث فضائله رضي الله عنه ؛ نصحاً للأمة ، ونصرة للحق ، ومن ثم قال أحمد : (ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي رضي الله عنه)[١] .

وقال إسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري : لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الصحاح الحسان أكثر مما ورد في حق علي ، فمن ذلك ما صح : « إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّهُ ، وَإِنَّ رَسُولَهُ يُحِبُّهُ » بل روى الترمذي : أنه كان أحب الناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والظاهر أن المراد بالناس : بنو هاشم ؛ حتىٰ لا ينافي ما مر أن أبا بكر كان أحب الناس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن آية المباهلة لما نزلت. . دعا النبي صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وابنيهما وقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ هَؤُلاَءِ أَهْلِي » ، وأنه قال : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَعَلِيٌّ سَيِّدُ ٱلْعَرَبِ » ، لٰكن اعترض تصحيح الحاكم لهٰذا[٢] ، وأنه قال : « مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ. . فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ ، ٱللَّهُمَّ ؛ وَالِ مَنْ وَالاَهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ » رواه ثلاثون صحابياً ، « إِنَّ ٱللهَ أَمَرَنِي بِحُبِّ أَرْبَعَةٍ وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ ، مِنْهُمْ عَلِيٌّ »[٣] ، وأنه « لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يُبْغِضُهُ إِلاَّ مُنَافِقٌ »[٤] ، وأنه « مَنْ سَبَّهُ. . فَقَدْ سَبَّ ٱلنَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم »[٥] وأنه « يُقَاتِلُ عَلَىٰ ٱلْقُرْآنِ كَمَا قَاتَلَ ٱلنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَىٰ تَنْزِيلِهِ »[٦] وأنه : « يَهْلِكُ فِيهِ ٱثْنَانِ : مُحِبٌّ مُفْرِطٌ ، وَمُبْغِضٌ مُبْهِتٌ »[٧] ، وأن قاتله اللعين ابن ملجم « أَشْقَىٰ ٱلآخِرِينَ ، كَمَا أَنَّ عَاقِرَ ٱلنَّاقَةِ أَشْقَىٰ ٱلأَوَّلِينَ »[٨] .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٠٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٤١٨) .

(٢) انظر « المستدرك » (٣/ ١٢٤) وبهامشه «التلخيص»، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٨٨).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٣٠) ، والترمذي (٣٧١٨) ، وابن ماجه (١٤٩) ، وأحمد (٥/ ٣٥٦) .

(٤) أخرجه مسلم (٧٨) ، والترمذي (٣٧٣٦) ، والنسائي (٨/ ١١٥) ، وابن ماجه (١١٤) .

(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ١٢١) ، وأحمد (٦/ ٣٢٣) .

(٦) أخرجه ابن حبان (٦٩٣٧) ، والحاكم (٣/ ١٢٢) ، وأحمد (٣/ ٣٣) .

(٧) أخرجه الحاكم (٣/ ١٢٣) ، وأحمد (١/ ١٦٠) ، وأبو يعلىٰ (٥٣٤) بنحوه .

(٨) أخرجه الحاكم (٣/ ١٤٠) ، والنسائي في « الكبرى » (٨٤٨٥) ، وأحمد (٤/ ٢٦٣) .

(ووزير ابن عمه) النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي : ناصره ، وحامل كل ثقل نابه صلى الله عليه وسلم ، ونائب عنه (في المعالي) الدينية والدنيوية ، جمع العلا ، وهو : الرفعة والشرف ، وأصل هٰذا : الحديث الصحيح : أنه لما خلفه على المدينة في غزوة تبوك . . قال : يا رسول الله ؛ خلفتني مع النساء والصبيان ؟ فقال : « أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي ؟ »[١] ومر الكلام عليه في شرح : (أودعتهما الزهراء) .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه : « عَلِيٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ، وَلاَ يُؤَدِّي عَنِّي إِلاَّ عَلِيٌّ »[٢] ، والترمذي : « أَنْتَ أَخِي فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ »[٣] ، والخطيب : « عَلِيٌّ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ رَأْسِي مِنْ بَدَنِي »[٤] ، وابن عدي : « عَلِيٌّ يَعْسُوبُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَٱلْمَالُ يَعْسُوبُ ٱلْمُنَافِقِينَ »[٥] ، والبزار : « عَلِيٌّ يَقْضِي دَيْنِي »[٦] ، والنسائي والحاكم : « إِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ سَبْعَةَ نُجَبَاءَ ، وَأُعْطِيتُ أَنَا أَرْبَعَةَ عَشَر : عَلِيٌّ ، وَٱلْحَسَنُ ، وَٱلْحُسَيْنُ ، وَجَعْفَرٌ ، وَحَمْزَةُ ، وَأَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ . . . » الحديث ، وأحمد : « أَنْتَ أَخِي وَأَبُو وَلَدِي ، تُقَاتِلُ عَلَىٰ سُنَّتِي . . . » الحديث .

قال ابن عباس : نزلت في علي ثلاث مئة آية .

وليست الوزارة خاصة به رضي الله تعالىٰ عنه ، فقد أخرج الترمذي حديث : « مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٦) ، ومسلم (٢٤٠٤) .
(٢) مسند أحمد (٤/١٦٤) ، والترمذي (٣٧١٩) ، والسنن الكبرىٰ (٨٠٩١) ، وابن ماجه (١١٩) .
(٣) الترمذي (٣٧٢٠) .
(٤) تاريخ بغداد (٧/١٢) .
(٥) الكامل في ضعفاء الرجال (٤/٢٢٩) . واليعسوب في الأصل : فحل النحل ، والمراد به هنا : السيد والمقدم .
(٦) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٩/١١٦) ، وعزاه للبزار .

مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَلَهُ وَزِيرَانِ مِنْ أَهْلِ ٱلسَّمَاءِ ، وَوَزِيرَانِ مِنْ أَهْلِ ٱلأَرْضِ ، فَأَمَّا وَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ ٱلسَّمَاءِ.. فَجِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، وَأَمَّا وَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ ٱلأَرْضِ.. فَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ »[1] .

وصح حديث : « هَـٰذَانِ : ٱلسَّمْعُ وَٱلْبَصَرُ »[2] ، وفي رواية : « إِنَّهُمَا مِنِّي بِمَنْزِلَةِ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ مِنَ ٱلرَّأْسِ »[3] .

وأخرج الطبراني وأبو نعيم : « إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ أَمَدَّنِي بِأَرْبَعَةِ وُزَرَاءَ ، ٱثْنَيْنِ مِنْ أَهْلِ ٱلسَّمَاءِ ، جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، وَٱثْنَيْنِ مِنْ أَهْلِ ٱلأَرْضِ ، أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ »[4] ، وابن عساكر : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَزِيرَيْنِ ، وَوَزِيرَايَ وَصَاحِبَايَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ »[5] بل قد يستشكل ذكره الوزارة فيه دونهما مع أنها لم ترد فيه لفظاً وصحت فيهما .

وقد يجاب بأنها وردت فيه بمعناها علىٰ وجه أبلغ من لفظها ، وهو قوله : « أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ » فإن هـٰذه الوزارة المستفادة من هـٰذا التي هي كوزارة هارون أخصُّ من مطلق الوزارة الواردة فيهما ، ومن ثم أخذ منها الشيعة : أنها تفيد النص علىٰ أنه الخليفة بعده ، وهو كذلك لولا ما يأتي قريباً من المبطل لذلك الاستنباط .

ومما يؤيد هـٰذه الوزارة الخاصة كونه صلى الله عليه وسلم آخاه دون غيره ، وأرسله مؤذناً على الناس بـ(براءة) في الموسم مع أن الخليفة على الحجيج أبو بكر ؛ لأن العرب لا يقبلون من يبلغ عن الكبير إلا إذا كان من أهله وجلدته ، وأنه استخلفه بمكة عند الهجرة حتىٰ أدىٰ ودائعه وقضىٰ ما عليه وأتاه بأهله ، فهـٰذه كلها مؤذنة بوزارة خاصة لم توجد في غيره ، فلذا ذكرها فيه فقط ، علىٰ أنه وصفه بما هو أعظم منها وأجل .

(**ومن الأهل تسعد الوزراء**) تذييل مناسب لما قبله ، وفيه رد العجز على الصدر .

---

(١) الترمذي (٣٦٨٠) .
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٩) ، والترمذي (٣٦٧١) .
(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/ ٦٧) .
(٤) المعجم الكبير (١١/ ١٤٤) ، وحلية الأولياء (٨/ ١٦٠) .
(٥) تاريخ دمشق (٤٤/ ٦٥) .

ومن تلك السعادة : ما أمده صلى الله عليه وسلم به من المؤاخاة ، فقد أخرج الترمذي : آخىٰ صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، فجاء علي تدمع عيناه ، فقال : يا رسول الله ؛ آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ أَخِي فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ »[1] .

ومنها : العلوم التي أشار إليها بقوله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا مَدِينَةُ ٱلْعِلْمِ ، وَعَلِيٌّ بَابُهَا » وفي رواية : « فَمَنْ أَرَادَ ٱلْعِلْمَ . . فَلْيَأْتِ ٱلْبَابَ » وفي أخرىٰ عند الترمذي : « أَنَا دَارُ ٱلْحِكْمَةِ ، وَعَلِيٌّ بَابُهَا »[2] ، وفي أخرىٰ عند ابن عدي : « عَلِيٌّ بَابُ عِلْمِي »[3] .

واختلفوا في حكم هـٰذا الحديث : فجماعة منهم النووي رحمه الله تعالىٰ علىٰ أنه موضوع ، والحاكم صححه ، وصوب بعض الحفاظ المطلعين : أنه حديث حسن .

وصحَّ : أنه صلى الله عليه وسلم أرسله إلى اليمن ليقضي بينهم ، فقال : لا أدري ما القضاء ؟ فضرب صدره بيده صلى الله عليه وسلم ثم قال : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱهْدِ قَلْبَهُ ، وَثَبِّتْ لِسَانَهُ » قال علي كرم الله وجهه : فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين[4] .

وقيل له : ما لك أكثر الصحابة حديثاً ؟ فقال : إني كنت إذا سألته . . أنبأني ، وإذا سكتُّ . . ابتدأني[5] ، وكان عمر رضي الله عنه يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن ـ يعني : علياً ـ ولم يكن أحد من الصحابة يقول : سلوني . . إلا علي ، وذكر عند عائشة رضي الله عنها فقالت : إنه أعلم من بقي بالسنة .

وقال مسروق : انتهىٰ علم الصحابة إلىٰ عمر وعلي وابن مسعود .

---

(١) الترمذي (٣٧٢٠) .

(٢) الترمذي (٣٧٢٣) .

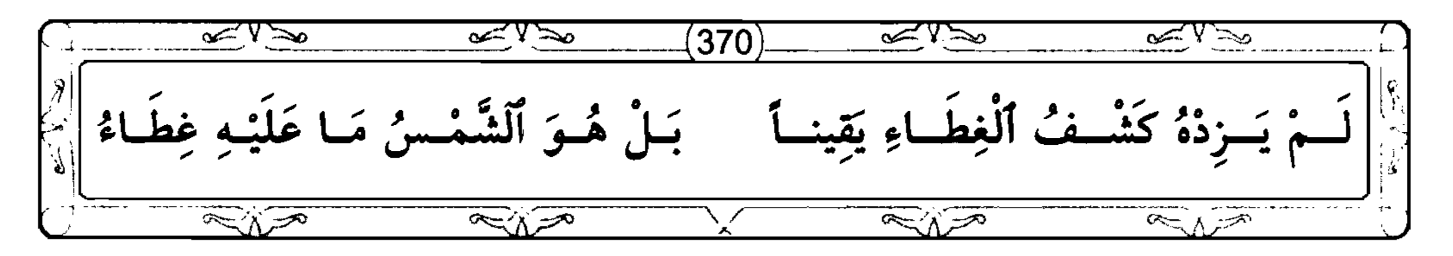
(٣) الكامل في ضعفاء الرجال (٤/ ١٠١) ، ولفظه عنده : « علي عيبة علمي » ، والعيبة : وعاء يوضع فيه المتاع .

(٤) أخرجه البزار (٩١٢) ، وابن سعد في « الطبقات » (٢/ ٣٣٧) .

(٥) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٢/ ٣٣٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٣٧٧) .

وقال علي : والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت ؟ وأين نزلت ؟ وعلىٰ من نزلت ؟ إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ، ولساناً ناطقاً[١] ، وقال : سلوني عن كتاب الله ؛ فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار ؟ أم في سهل أم في جبل[٢] ؟

ولأجل هٰذه العلوم الكثيرة التي أفيضت عليه من تلك الحضرة النبوية


(370)
لَمْ يَزِدْهُ كَشْفُ الْغِطَاءِ يَقِيناً بَلْ هُوَ الشَّمْسُ مَا عَلَيْهِ غِطَاءُ

(لم يزده كشف الغطاء يقيناً) كما أخبر بذلك عن نفسه بقوله : لو كشف الغطاء . . ما ازددت يقيناً ؛ أي : لأنه حصل عنده من البراهين القطعية علىٰ حقيقة التوحيد ومتعلقاته ، والإيمان وصدق الرسل فيما جاؤوا به . . ما لا يزيد اليقين فيه عند رؤية ذلك عِياناً ، واحترز بنفي زيادة اليقين نفسه عن زيادة ثمراته ؛ فإن عاقلاً لا يشك أن عين اليقين أقوىٰ من علم اليقين ، وأن حق اليقين أقوىٰ من عين اليقين ، ودليله : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ فأثبت لنفسه حقيقة الإيمان ويقينه ، وطلب زيادة الطمأنينة برؤية العِيان ، فلا منافاة فيه لما قاله علي كرم الله وجهه ، خلافاً لمن وهم فيه .

(بل) للانتقال (هو) أي : علي في فضله وعلمه وزهده ، وتقدمه علىٰ من عدا الخلفاء الثلاثة قبله ، وحقية خلافته ، وقيامه فيها بما قام بها من قبله وزيادة (الشمس) أي : مثلها في الظهور والإضاءة التي لا يلتفت فيها إلىٰ تقول متقول ، ولا عناد معاند ، كيف وهو رضي الله عنه مع ذلك (ما عليه غطاء ؟!) أي : ساتر ، بل هو ظاهر لكل أحد .

---

(١) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٢/ ٣٣٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٣٩٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٦٧) .

(٢) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٢/ ٣٣٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٧/ ١٠٠) .

وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : كانت لعلي ثماني عشرة منقبة ، ما كانت لأحد من هـٰذه الأمة[1] ، وأبو يعلىٰ عن عمر : أعطي ثلاث خصال ، لأَن يكون لي خصلة منها أحب إلي من أن أعطىٰ حمر النعم : تزوجه ابنته ، وسكناه المسجد ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر[2] ، وصح عن ابن عمر نحوُ ذلك .

وأخرج الطبراني والخطيب حديث : « إِنَّ ٱللهَ جَعَلَ ذُرِّيَّةَ كُلِّ نَبِيٍّ في صُلْبِهِ ، وَجَعَلَ ذُرِّيَّتِي فِي صُلْبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ »[3] .

وما أحسن قولَ حكيم له لما دخل الكوفة : والله يا أمير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زينتك ، ورفعتها وما رفعتك ، وهي أحوج إليك منك إليها ، وقولَ أحمد وقد سأله ولده عن علي ومعاوية رضي الله عنهما : اعلم أن علياً كان كثير الأعداء ، ففتش له أعداؤه شيئاً فلم يجدوا ، فجاؤوا إلىٰ رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً منهم له .

وصح خلافاً لمن نازع فيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم نام في حجره وهو يوحىٰ إليه ، فغربت الشمس ولم يصل العصر ، فلما سري عنه صلى الله عليه وسلم وعلم أنه لم يصل . . دعا الله أن يرد الشمس ، فعادت حتىٰ ظهر ضوءها على الحيطان ، فصلىٰ ثم غابت ، وفي هـٰذا كرامة له باهرة ، ولعل الناظم أشار إليها بتشبيهه بالشمس .

تنبيه : مما يدل علىٰ أن الله سبحانه وتعالى اختص علياً من العلوم بما تقصر عنه العبارات : قوله صلى الله عليه وسلم : « أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ » وهو حديث صحيح لا نزاع فيه ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا دَارُ ٱلْحِكْمَةِ » .

ورواية : « مَدِينَةُ ٱلْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا » قد كثر اختلاف الحفاظ وتناقضهم فيه بما يطول بسطه ، وملخصه : أن لهم فيه أربعة آراء :

صحيح ، وهو ما ذهب إليه الحاكم ، ويوافقه قول الحافظ العلائي ، وقد ذكر له طرقاً ، وبين عدالة رجالها ، ولم يأت أحد ممن تكلم في هـٰذا الحديث بجواب عن هـٰذه الروايات الصحيحة عن يحيىٰ بن معين ، وبين رد ما طعن به في بعض رواته

---

(١) المعجم الأوسط (٨٤٢٧) بنحوه .

(٢) مسند أبي يعلىٰ (٥٦٠١) .

(٣) المعجم الكبير (٣/ ٤٣) ، وتاريخ بغداد (١/ ٣٣٣) .

كشريك القاضي بأن مسلماً احتج به ، وكفاه بذلك فخراً واعتماداً عليه ، وقد قال النووي في حديث رواه في البسملة رداً علىٰ من طعن فيه : (يكفينا أن نحتج بما احتج به مسلم)[1] ولقد قال بعض معاصريه : ما رأيت أحداً قط أورع منه في علمه .

حسن ، وهو التحقيق ، ويوافقه قول شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر : (رجاله رجال الصحيح إلا عبد السلام الهروي فإنه ضعيف عندهم) اهـ

وسبقه إلىٰ آخر كلامه كلام الحافظ العلائي ، فقال عن الهروي : (هـٰذا تكلموا فيه كثيراً) اهـ

ويعارض ذلك تصويب أبي زرعة علىٰ حديثه ، ونقل الحاكم عن يحيىٰ بن معين : أنه وثقه ، فثبت أنه حسن مقارب للصحيح ؛ لما علمت من قول ابن حجر : إن رواته كلهم رواة الصحيح إلا الهروي ، وإن الهروي وثقه جماعة وضعفه آخرون .

ضعيف ، أي : بناء علىٰ رأي من ضعف الهروي .

موضوع ، وعليه كثيرون أئمة حفاظ ، كالقزويني وابن الجوزي ، وجزم ببطلان جميع طرقه ، والذهبي في « ميزانه »[2] وغيره ، وهـٰؤلاء وإن كانوا أئمة أجلاء لـٰكنهم تساهلوا تساهلاً كثيراً كما علم مما قررته ، وكيف ساغ الحكم بالوضع مع ما تقرر أن رجاله كلهم رجال الصحيح إلا واحداً فمختلف فيه ؟! ويجب تأويل كلام القائلين بالوضع بأن ذلك لبعض طرقه لا كلها .

وما أحسن قول بعض الحفاظ في أبي معاوية أحد رواته المتكلم فيهم بما لا يسمع : (هو ثقة مأمون من كبار المشايخ وحفاظهم ، وقد تفرد به عن الأعمش فكان شاذّاً ، وأي استحالة في أنه صلى الله عليه وسلم يقول مثل هـٰذا في حق علي ؟!) وقولَ بعض المحققين : (وتمسكَ الشيعة بهـٰذا الحديث علىٰ أن أخذ العلم والحكمة مختص بعلي لا يتجاوزه إلىٰ غيره إلا بواسطته ؛ لأن الدار إنما يدخل إليها من بابها ، ولا حجة لهم فيه ؛ إذ ليس دار الجنة بأوسع من دار الحكمة ، ولها ثمانية أبواب) اهـ

---

(١) المجموع (٣/ ٢٩٧) .

(٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال (١/ ٤١٥) .

وفي حديث عند الواحدي لكنه ضعيف : « وَعَلِيٌّ بَابُهَا ، وَأَبُو بَكْرٍ مِحْرَابُهَا . . . » الحديث .

واحتج بعض من لا تحقيق عنده على الشيعة بأن (علي) اسم فاعل من العلو ؛ أي : علي بابها ، فلا ينال لكل أحد ، وهو بالسَّفساف أشبه ، لا سيما وفي رواية رواها ابن عبد البر في « إستيعابه » : « أَنَا مَدِينَةُ ٱلْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا ، فَمَنْ أَرَادَ ٱلْعِلْمَ . . فَلْيَأْتِهِ مِنْ بَابِهِ »[1] إذ مع تحديق النظر في هـٰذه الرواية لا يبقىٰ تردد في بطلان ذلك الرأي . فاستفد هـٰذا .

وعلم مما قدمته : أنه الحقيق بالخلافة بعد الأئمة الثلاثة بالإجماع ، ولا اكتراث ولا التفات إلىٰ من زعم أنه لا إجماع علىٰ خلافته .

وهو أول من أسلم ، قال بعض الحفاظ : إجماعاً ـ أي : من الصبيان ـ واعتد بإسلامه حينئذ ؛ لأن الإسلام إذ ذاك كان منوطاً بالتمييز ، ولم يعبد وثناً قط ، ومن ثم اختص بـ(كرم الله وجهه) ، وألحق به الصديق في ذلك ، وآخاه النبي صلى الله عليه وسلم ، وزوجه فاطمة بالوحي ، وهو أحد العلماء الربانيين ، والشجعان المشهورين ، والزهاد والخطباء المعروفين ، وحفظ القرآن ، وعرضه علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلىٰ بعد موته صلى الله عليه وسلم[2] ، فكتب كتاباً فيه العلوم الجمة ، حتىٰ قال ابن سيرين : لو ظفرت بذلك الكتاب . . لظفرت بالعلم كله .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم . . أمره أن يقيم بعده بمكة حتىٰ يؤدي عنه ودائعه ، ثم يلحقه بأهله ، ففعل ، وأرسله صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة ـ وكان الأمير فيها على الحج أبا بكر رضي الله تعالىٰ عنه ـ فأذن في الناس بالموسم بمنىً بـ(سورة براءة) لأن العرب لا يعتدُّون بما يجيء علىٰ لسان الكبير إلا إذا كان الرسول فيه من أهله ، ومن ثم جاء في حديث رجاله ثقات إلا واحداً فمختلف فيه : أنه صلى الله عليه وسلم خطب يوماً وهو محاصر الطائف عقب فتح مكة فقال : « أُوصِيكُمْ بِعِتْرَتِي خَيْراً ، وإِنَّ مَوْعِدَكُمُ ٱلْحَوْضُ ، وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُقِيمُنَّ ٱلصَّلَاةَ ، وَلَتُؤْتُنَّ ٱلزَّكَاةَ ، أَوْ لأَبْعَثَنَّ

---

(١) الإستيعاب (٣/ ٣٨) وهو بدون سند .

(٢) في (أ) : (قبل موته) .

إِلَيْكُمْ رَجُلاً مِنِّي ـ أو : كَنَفْسِي ـ يَضْرِبُ أَعْنَاقَكُمْ » ثم أخذ بيد علي وقال : « هُوَ هَـٰذَا » .

وشهد معه صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها ، وكان له فيها اليد البيضاء إلا تبوك ؛ لأنه استخلفه على المدينة ، وقال له لما قال له حينئذ : أتخلفني مع النساء والصبيان ؟ : « أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَىٰ إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي ؟ »[1] .

وبكونه إنما قال له ذلك حينئذ بَطَلَ تمسك الشيعة به : علىٰ أنه الخليفة المقدم على الكل ، علىٰ أن هارون مات في حياة موسىٰ صلى الله عليه وسلم ، فلا دليل فيه للخلافة بعد الموت أصلاً .

توفي كرم الله وجهه شهيداً عن ثلاث وستين سنة ، ضربه اللعين عبد الرحمٰن بن ملجم بسيف مسموم في جبهته فأوصله دماغه ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة أربعين وهو خارج إلىٰ صلاة الصبح بعد أن استيقظ سحراً وقال للحسن رضي الله عنه : إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، فشكا إليه ما لقي ، وقال له : ادع لي ، فدعا له أن يبدله خيراً منهم ، وأنهم يبدلون شرّاً منه ، وأكثر تلك الليلة من الخروج والنظر إلى السماء وهو يقول : والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ، وإنها الليلة التي وعدت ، وكان عنده إوز ، فلما خرج إلى الصلاة . . صِحْنَ عليه ، فطردن عنه ، فقال : دعوهن ؛ فإنهن نوائح .

وقيل : لم يمت إلا ليلة الأحد ، وله أسوة بالخليفتين قبله عمر وعثمان رضي الله عنهم ؛ فإن كلاًّ منهما قتل شهيداً مظلوماً .

أما عمر رضي الله عنه . . فقتله مجوسي عبد للمغيرة بن شعبة ؛ لكونه شكا إليه ثقل خراجه فلم يشكه ؛ لعلمه بقدرته عليه وزيادة ؛ لكثرة صنائعه ، فكمن له إلىٰ أن ضربه بخنجر صنعه له وهو في ثاني ركعة من صلاة الصبح يصلي بالمسلمين ، ومن تمام سعادته دفنه مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه أرسل ولده بعد أن طعن يستأذن عائشة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٦) ، ومسلم (٢٤٠٤) .

في ذلك ، فقالت : كنت أعددت هـٰذا المكان لنفسي ، ولأوثرنه به ، فاشتد فرحه بذلك .

وأما عثمان رضي الله عنه . . فاجتمع علىٰ قتله أوباش أربعة آلاف[1] ، مجمعون من مصر وغيرها ، فحاصروه إلىٰ أن قتلوه في أوسط أيام التشريق والمصحف بين يديه ، سنة خمس وثلاثين وهو ابن ثمان وثمانين سنة ، وقيل : أكثر ، وقيل : أقل ؛ توهماً منهم أنه أراد قتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما ، وهو بريء من ذلك ، وإنما افتعله بعض أهله ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يمكنهم الدفع عنه ، لـٰكنه منعهم من أن يقاتلوا محاصريه لما قال له زيد بن ثابت رضي الله عنه : إن الأنصار بالباب يقولون : إن شئت . . كنا أنصاراً لله ـ مرتين ـ فقال رضي الله عنه : لا حاجة لي في ذلك ، كفوا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي عهداً وأنا صابر عليه ، ومن ثم كان عنده في الدار مماليكه الكثيرون ، فأرادوا : أن يمنعوا عنه ، فقال : من أغمد سيفه . . فهو حر ؛ لأنه علم بإخبار النبي صلى الله عليه وسلم أنه مقتول مظلوم ، وأنه على الهدىٰ ، وأنه لا مخلص له من القتل ، وأمره أن لا يعزل نفسه كما صح في الحديث ، وهو : « يَا عُثْمَانُ ؛ إِنَّكَ سَتُؤْتَىٰ ٱلْخِلاَفَةَ مِنْ بَعْدِي ، وَسَيُرِيدُكَ ٱلْمُنَافِقُونَ عَلَىٰ خَلْعِهَا ، فَلاَ تَخْلَعْهَا ، وَصُمْ فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ تُفْطِرْ عِنْدِي »[2] كما مر ذلك في الأحاديث .

وصح : أن عثمان أشرف من كوة ، فقال لعلي رضي الله عنه : يا أبا الحسن ؛ ما هـٰذا الذي ركب متني ؟ فقال : اصبر يا أبا عبد الله ؛ فوالله ما غبت عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كنا علىٰ أحد ، فتحرك الجبل ونحن عليه ، فقال له : « ٱثْبُتْ أُحُدُ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » وايم الله لتقتلن ، ولأُقتلن ـ أي : بعدك ـ وليقتلن طلحة والزبير .

تنبيه : ورد في مناقب علي رضي الله عنه حديث كثر كلام الحفاظ فيه ، فأردت أن

---

(١) الأوباش : الأخلاط من الناس يكونون من قبائل شتىٰ ، وهو جمع مقلوب لـ(بَوْش) وهم : الجماعة الكثيرة .

(٢) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٣/ ٢٧) ، وفيه أبو الرحال ، قال عنه ابن عدي : (وهو قليل الحديث ، وفي حديثه بعض النكر) .

ألخص المعتمد فيه ، ولفظه عن أنس : كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱئْتِنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إِلَيْكَ يَأْكُلْ مَعِي هَـٰذَا ٱلطَّيْرَ ، فَجَاء عَلِيٌّ فَأَكَلَ » رواه الترمذي[1] .

والمعتمد عند محققي الحفاظ : أنه ليس بموضوع ، بل له طرق كثيرة ، قال الحاكم في « المستدرك » : (رواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفساً) اهـ[2]

وحينئذ : فيتقوىٰ كل من تلك الطرق بمثله ، ويصير سنده حسناً لغيره ، والمحققون أيضاً : علىٰ أن الحسن لغيره يحتج به كالحسن لذاته ، ومن جملة طرقه طريق رواتها كلهم ثقات إلا واحداً ، قال بعض الحفاظ : لم أر من وثقه ولا من جرحه ، وطريقٌ أخرىٰ رواتها كلهم ثقات أيضاً إلا واحداً ، قال النسائي فيه : ليس بالقوي ، وهو معارض بأن غير واحد وثقه ، وذكر الحاكم : أنه صح عن علي وأبي سعيد وسفينة ، لـٰكن تساهله في التصحيح معلوم ، فالحق ما سبق : أن كثرة طرقه صيرته حسناً يحتج به ، ولكثرتها جدّاً خرج الحافظ أبو بكر بن مردويه فيها جزءاً .

وأما قول بعضهم : إنه موضوع ، وقول ابن طاهر : طرقه كلها باطلة معلولة . . فهو الباطل ، وابن طاهر معروف بالغلو الفاحش ، وابن الجوزي مع تساهله في الحكم بالوضع ـ كما هو معلوم ـ ذكر في كتابه « العلل المتناهية » له طرقاً كثيرة واهية[3] ، ولذلك لم يذكره في « موضوعاته » .

فالحق ما تقرر أولاً : أنه حسن يحتج به ، علىٰ أنه لا يلزم عليه محذور ؛ لأنه مؤول قطعاً ، وإلا . . لاقتضىٰ أنه أحب إلىٰ ربه من نبيه صلى الله عليه وسلم ، فهو عام مخصوص ، وقد صح في الأحاديث جملة مستكثرة تخرج الثلاثة عنه أيضاً . فاستفد ذلك كله ؛ فإنه مهم .

تنبيه آخر : مما كثر الاختلاف فيه : أهو موضوع أو لا ؟ حديث : « يَا عَلِيُّ ؛ لاَ

---

(١) الترمذي (٣٧٢١) .
(٢) المستدرك (٣/ ٣١) .
(٣) ذكر له ستة عشر طريقاً ، انظر « العلل المتناهية » (١/ ٢٢٩) .

يَحِلُّ لأَحَدٍ يُجْنِبُ فِي هَـٰذَا ٱلْمَسْجِدِ غَيْرِي وَغَيْرِكَ »[1] ومعنىٰ (يجنب فيه) هنا : يمكث فيه جنباً ، ويتعين أنه مراد مَنْ عبر بـ (يستطرقه جنباً) لأن الاستطراق بظاهره حلال ، فلا خصوصية فيه لأحد ، ثم هـٰذا الحديث كثر الاختلاف في سنده أيضاً ، فقال بعض الحفاظ : إنه موضوع ، وبعضهم كالحافظ العلائي : ضعيف لا ينتهي إلى الوضع ، وقال الترمذي : إنه حسن ، لـٰكن اشتد إنكار الحفاظ عليه في تحسينه له بأن فيه ثلاثة ضعفاء وكل منهم شيعي ، وثلاثة متهمين بالكذب .

قيل : ومما يدل علىٰ نكارة هـٰذا الحديث : أنه صلى الله عليه وسلم لم يختص عن الأمة بشيء من الرخص مما يقتضي تعظيم حرماته والقيام بإجلاله أصلاً ، وإنما كان ترخصه في الأمور الدنيوية ، كإباحة ما وراء الأربع في النكاح ونحو ذلك ، فلم يكن صلى الله عليه وسلم يترخص عنهم بإباحة الجلوس في المسجد جنباً أبداً . اهـ

ومال الحافظ ابن حجر إلىٰ تحسين الترمذي بأن له شاهداً عند البزار رواته ثقات ، قال : والسبب في ذلك : أن بيت علي كان كبيته صلى الله عليه وسلم في كونه مجاوراً للمسجد وبابه منه ، وقد صح من طرق : أنه صلى الله عليه وسلم لما أمر بسد الأبواب الشارعة في المسجد إلا باب علي . . شق علىٰ بعض الصحابة ، فأجابهم بعذر في ذلك .

(371)

وَبَـاقِـي أَصْحَـابِـكَ ٱلْمُطْهِـرِ ٱلتَّـرْ　　تِيـبَ فِينَـا تَفْضِيلُهُـمْ وَٱلْـوَلَاءُ

(و) أقسم عليك (**بباقي أصحابك**) العشرة المبشرين بالجنة في الأحاديث الصحيحة .

منها : أن عمر لما أن جعل الأمر شورىٰ بين الستة . . أنكر عليه بأنهم ليسوا رضاً ، فقال : ما عسىٰ أن تقولوا في علي ؟ سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول له : « يَدُكَ فِي يَدِي ، تَدْخُلُ مَعِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حَيْثُ أَدْخُلُ » وذكر في عثمان حديث : « إِنَّهُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٢٧) ، وأبو يعلىٰ (١٠٤٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/١٤٠) .

يَوْمَ يَمُوتُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَلاَئِكَةُ ٱلسَّمَاءِ » وإن ذلك له خاصة ، وفي طلحة : أن رحل النبي صلى الله عليه وسلم سقط في ليلة ، فقال : « مَنْ يُسَوِّي لِي رَحْلِي وَهُوَ فِي ٱلْجَنَّةِ ؟ » فبدر طلحة فسواه له ، فقال : « يَا طَلْحَةُ ؛ هَـٰذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكَ ٱلسَّلاَمَ وَيَقُولُ : أَنَا مَعَكَ فِي أَهْوَالِ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ حَتَّىٰ أُنْجِيَكَ مِنْهَا » .

وذكر في الزبير : أنه جلس يذب عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم حتى استيقظ ، فقال له : « يَا أَبَا عَبْدِ ٱللهِ ؛ لَمْ تَزَلْ ؟ » قال : لم أزل بأبي أنت وأمي ، قال : « هَـٰذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكَ ٱلسَّلاَمَ وَيَقُولُ : أَنَا مَعَكَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ حَتَّىٰ أَذُبَّ عَنْ وَجْهِكَ شَرَرَ جَهَنَّمَ » . وذكر في سعد بن أبي وقاص : أنه صلى الله عليه وسلم قال فيه يوم بدر وقد أوتر قوسه أربع عشرة مرة يدفعها إليه : « فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » .

وذكر في عبد الرحمٰن بن عوف : أن الحسنين اشتد بكاؤهما جوعاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَصِلُنَا بِشَيْءٍ ؟ » فطلع عبد الرحمٰن بن عوف بصحفة فيها رغيفان بينهما إهالة ، فقال صلى الله عليه وسلم له : « كَفَاكَ ٱللهُ أَمْرَ دُنْيَاكَ ، وَأَمَّا أَمْرُ آخِرَتِكَ . . فَأَنَا لَهَا ضَامِنٌ »[1] .

ومنها : أن حراء لما ارتج وعليه الخلفاء الأربعة وطلحة والزبير وابن عوف وسعد وسعيد رضي الله عنهم : قال له صلى الله عليه وسلم : « ٱسْكُنْ حِرَاءُ ؛ فَمَا عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » .

ومنها من رواية سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : « أَبُو بَكْرٍ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَعُمَرُ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَعُثْمَانُ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَعَلِيٌّ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَٱلزُّبَيْرُ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَعَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي ٱلْجَنَّةِ ، وَتَاسِعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلْجَنَّةِ » فنشدوه بالله عنه ، فقال : أما إذا نشدتموني . . فأنا تاسع المؤمنين في الجنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم العاشر ، ثم قال : لَموقف أحدهم مع

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٣١٩٦) ، وليس عنده قوله عن طلحة : « هذا جبريل يقرئك . . . أنجيك منها » ، وليس عنده ذكر سعد بن أبي وقاص ، وعند ذكر عبد الرحمن بن عوف ذكر : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جاع جوعاً شديداً وليس فيه ذكر الحسنين ، وقد ذكر الديلمي في « الفردوس » هـٰذا الأثر في مواضع متفرقة . والإهالة : ما ذاب من الدهن والسمن ، أو كل ما يؤتدم به .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يغبر فيه وجهه . . أفضل من عُمُرِ أحدكم ولو عُمِّر عمرَ نوح[(١)] .

(المظهر) أي : المبين (الترتيب) بينهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مفعول (فينا) أي : لنا (تفضيلهم) علىٰ حسب مراتبهم التي بينها مشرِّفهم صلى الله عليه وسلم ، وهو فاعله ، وعكس ذلك الشارح ، والأول أظهر (و) المظهر ذلك بينهم لنا أيضاً (الولاء) أي : الموالاة والمناصرة الواجبة علينا لهم بحسب مراتبهم ، ومن ثم سئل بعض محققي المتأخرين عن محبة الخلفاء الأربعة : هل تجب أن تكون علىٰ حسب فضلهم ؟ فقال : محبتهم من حيث الدين والقرب إلى الله تعالىٰ ورسوله يجب أن تكون بحسب فضلهم ، ومن حيث نحو قرابة أو إحسان لا تجب أن تكون كذلك ، وما قاله في الخلفاء الأربعة يأتي في بقية الصحابة رضوان الله عليهم .

(372)

طَلْحَةِ ٱلْخَيْرِ أَلْمُرْتَضِيهِ رَفِيقاً   وَاحِداً يَوْمَ فَرَّتِ ٱلرُّفَقَاءُ

(طلحة) بن عبيد الله القرشي التيمي[(٢)] ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد الستة أصحاب الشورىٰ في أمر الخلافة بعد عمر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ ، وأحد الخمسة الذين أسلموا علىٰ يد أبي بكر ؛ لكونه السبب في إسلامهم ، وسماه النبي صلى الله عليه وسلم : طلحة (الخير) وطلحة الفياض ، وطلحة الجود ، فكان غاية فيه بحيث باع أرضاً له بسبع مئة ألف ، فباتت عنده ، فلم ينم مخافة من حسابها ، فأصبح ففرقها ، وفي رواية : ففرقها في ليلته علىٰ فقراء المدينة[(٣)] .

وجاءه رحم له يسأله برحمه ، فأعطاه ثلاث مئة ألف ، وكان مَغَلُّه بالعراق في كل سنة أربع مئة ألف ، وكان يكفي ضعفاء قومه وقوم أبي بكر بني تيم ، ويقضي ديونهم ،

---

(١) أخرجه الضياء في « المختارة » (١٠٨٣) ، وأحمد (١/ ١٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » .

(٢) في النسخ : (ابن عبد الله) ، والمثبت من « الإستيعاب » (٢/ ٢١٠) ، و« الإصابة » (٢/ ٢٢٠) .

(٣) الطبقات الكبرىٰ (٣/ ٢٢٠) .

ويرسل إلىٰ عائشة رضي الله عنها في كل سنة عشرة آلاف درهم[1] ، وتصدق في يوم بمئة ألف ، ثم لم يجد ثوباً يذهب فيه إلى المسجد يصلي فيه ، وهو وإن لم يشهد بدراً . . فقد جعله صلى الله عليه وسلم كمن شهدها أجراً وسهماً ، قيل : لأنه كان بالشام لتجارة ، والصحيح : أنه صلى الله عليه وسلم أرسله هو وسعيدَ بن زيد رضي الله تعالىٰ عنهما للتجسس عن خبر عير قريش ، وخرجا لبدر فرجعا إلى المدينة ، فوافياه مُنصَرَفَه من بدر .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم أقبل عليه وعلى الزبير وقال : « يَا طَلْحَةُ وَيَا زُبَيْرُ ؛ إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ ، وأَنْتُمَا حَوَارِيَّ »[2] أي : ناصراي ، وأن الخلفاء الأربعة وطلحة والزبير وابن عوف وسعداً وسعيداً كانوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال ، وخلفه في الصلاة في الصف الأول ، وليس أحد من المهاجرين والأنصار يقوم مقام واحد منهم غاب أو شهد .

(ألمرتضيه) أي : الذي ارتضاه النبي صلى الله عليه وسلم .

وما جرىٰ عليه الناظم من إضافة اسم الفاعل إلىٰ معموله الضمير العائد علىٰ (أل) المقترنة به . . هو الأصح ، نحو : الضارب الرجل والساقيه ، ومنع المبرد هٰذه الصورة ، وأوجب النصب ؛ أي : لئلا يلزم عليه اجتماع أداتي تعريف ، ويرده : أن إضافة الصفة إلىٰ معمولها لا تفيد تعريفاً ، بل تخفيفاً ، قالوا : فمن ثم جاز اقتران هٰذا المضاف دون غيره بـ (أل) إن كان مثنىً أو جمعاً علىٰ حده ، كالضاربا زيد ، والضاربو زيد ، أو أضيف لمعرف بـ (أل) نحو : الضارب الرجل ، أو المضاف إليه ، كالقاصد باب الكريم ، أو إلىٰ ضمير هي مرجعه كما هنا .

ومن قال : التقدير : الذي ارتضىٰ هو النبي صلى الله عليه وسلم . . فقد وَهِمَ ؛ لامتناع الإضافة حينئذ ؛ لأنها ليست إلىٰ ضمير مرجعه (أل) فتنبه له .

(رفيقاً واحداً) هو ما في أكثر النسخ ، وفي نسخة : (أحد) وهو الفاعل ؛ أي : الذي ارتضاه أحد رفيقاً ، ففيه إسناد مجازي ، وفي أخرى : (أحداً) ، وهو علىٰ نزع

---

(١) انظر « الطبقات الكبرى » (٣/ ٢٢١) .

(٢) أخرجه البزار (٣٣٤٣) .

الخافض ؛ أي : في أحد (يوم) ظرف لاسم الفاعل ، وقول الشارح : (إنه بدل من أحد) أي : بناء على النسخة الثانية. . بعيد (**فرت الرفقاء**) عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يوم أحد ، وفيه كـ (سعد) و(سعيد) ، و(الأمانة) و(الأمناء) ، و(تمسكت) و(استمسكت) ، و(انطوت) و(انطواء) ، و(أغثنا) و(الغوث) و(الغيث) الآتيات. . جناس الاشتقاق أو شبهه .

وفي ذكر (واحداً) في أكثر النسخ. . نظر ، بل المنقول في السير وغيرها : أن الذين ثبتوا مع النبي صلى الله عليه وسلم لما انكشف عنه الناس أربعة عشر ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار .

وفي « البخاري » : لم يبق معه صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلاً[1] ، لـٰكن ظاهر كلام بعض أهل السير : أن طلحة وقع له بعد ذلك انفراد معه صلى الله عليه وسلم ، ثم تتابعت بعده الناس ، فإنه قال : (وكانت لطلحة اليد البيضاء يوم أحد ، وقى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ لما ضرب بالسيف فشج وجهه بيده ، فشلت واستمرت شلاء)[2] .

وكان الصديق رضي الله عنه إذا حدث عن يوم أحد. . بكىٰ وقال : ذلك كله لطلحة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم يومئذٍ : « أَوْجَبَ طَلْحَةُ » أي : وجبت له الجنة ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان قد ظاهر بين درعين ، فأراد أن ينهض وهما عليه ليصعد صخرة هنالك فما استطاع ، فبرك له طلحة رضي الله عنه ، فصعد علىٰ ظهره واستوىٰ على الصخرة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَوجَبَ طَلْحَةُ »[3] وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ ، وبايعه على الموت ، ووقاه بنفسه .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال أبو بكر : كنت أول من جاء يوم أحد ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبي عبيدة ابن الجراح : « عَلَيْكُمَا بِصَاحِبِكُمَا » يريد : طلحة وقد نزف ، فأصلحنا من شأن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) البخاري (٣٠٣٩) .
(٢) القائل هو الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » (٧/ ٢٦٤) .
(٣) أخرجه ابن حبان (٦٩٧٩) ، والحاكم (٣/ ٢٥) ، والترمذي (١٦٩٢) .

وسلم ، ثم أتينا طلحة ، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر ما بين طعنة وضربة ورمية ، وإذا قد انقطعت إصبعه ، فأصلحنا من شأنه[1] .

ثم رأيت حديثاً صحيحاً مصرحاً بما في النظم علىٰ نسخة : (واحداً) ، وهو : « وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أُحُدٍ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ قُرْبِي مَخْلُوقٌ غَيْرَ جِبْرِيلَ عَنْ يَمِينِي وَطَلْحَةَ عَنْ يَسَارِي »[2] ولما رجع صلى الله عليه وسلم من أحد . . صعد المنبر ، فحمد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قرأ : ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ . . . ﴾ الآية ، فقيل : يا رسول الله ؛ من هـٰؤلاء ؟ فقال : « هَـٰذَا مِنْهُمْ » وأشار إلىٰ طلحة رضي الله عنه[3] .

وصح عند الحاكم ـ لـٰكن نوزع فيه ـ : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِ ٱلأَرْضِ . . فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ »[4] ، وصح أيضاً : « طَلْحَةُ وَٱلزُّبَيْرُ جَارَايَ فِي ٱلْجَنَّةِ »[5] .

وكان رجل يقع فيه وفي الزبير بحضرة سعد بن أبي وقاص ، فينهاه فيأبىٰ ، فصلىٰ ثم دعا عليه : أنه إن كان مبطلاً . . يريه الله فيه آية ، ويجعله للناس عبرة ، فخرج فإذا جمل هائج شق الناس فأخذه وهرسه بيديه ورجليه حتىٰ قتله . قال سعيد بن المسيب : فأنا رأيت الناس يتبعون سعداً ويقولون : هنيئاً لك يا أبا إسحاق ؛ أجيبت دعوتك[6] .

وكان خرج هو والزبير علىٰ علي رضي الله تعالىٰ عنهم ، فاجتمع بهما يوم الجمل ، فروىٰ للزبير ما يأتي ، ووعظ طلحة ، فتأخر ووقف في بعض الصفوف ، فجاءه سهم في ركبته فقتله في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين عن أربع وستين سنة على الأشهر ، ودفن بالبصرة ، وجاءه علي ، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويقول : رحمة الله عليك أبا محمد ؛ يعز علي أن أراك مجدلاً[7] .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٩٨٠) .
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٧٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٨١٢) .
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٧٦) بنحوه .
(٤) المستدرك (٣/ ٣٧٦) .
(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٤) ، والترمذي (٣٧٤١) ، والبزار (٨١٨) ، وأبو يعلىٰ (٥١٥) .
(٦) ذكره الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١/ ١١٦) .
(٧) أي : صريعاً .

(وحواريك) أي : ناصرك (الزبير) بن العوام القرشي ، وأمه صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد الثمانية السابقين ، والستة أصحاب الشورىٰ ، والعشرة المبشرين بالجنة ، والشجعان المشهورين ، لم يلحقه ـ كحمزة وعلي ـ أحدٌ في الشجاعة والفروسية ، ولذلك لما كان يوم بدر . . اعتم بعمامة صفراء ، فنزلت الملائكة بعمائم صفر ، وهو أول من سل سيفاً في سبيل الله ؛ لأنه سمع : أخذ محمد صلى الله عليه وسلم ، فخرج يشق الناس بسيفه ، فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم بأعلىٰ مكة ، فقال له : « مَا لَكَ ؟ » قال : أخبرت أنك أُخذت ، فصلىٰ عليه ، ودعا له ولسيفه[(١)] .

شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفتْحَ اليرموك ، وكانت له فيها اليد البيضاء ، والهمة العلياء ، اخترق صفوف الروم مرتين من أولهم إلىٰ آخرهم ، وفتح مصر مع عمرو بن العاصي .

وصح : أنه لما اشتد الخوف يوم الأحزاب . . ندب صلى الله عليه وسلم مَنْ يأتيه بخبر عصيان بني قريظة ، فقال : أنا ، فأعاد ، فقال : أنا ، فأعاد ، فقال : أنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ »[(٢)] .

وجمع له صلى الله عليه وسلم بين أبويه فقال : « ٱرْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي »[(٣)] .

وصح عن عثمان أنه قيل له وهو محصور : لو استخلفت ؟ قال : لعلهم قالوا : الزبير ؟ قيل : نعم ، قال : أما والله إنه لخيرهم ما علمت ، وإنه كان لأحبهم إلىٰ

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٦/ ٣٦٧) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٩٦٤٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٤١١٣) ، ومسلم (٢٤١٥) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٥٥) ، ومسلم (٢٤١٢/ ٤٢) .

رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ، وفي رواية صحيحة : أما والله إنكم لتعلمون أنه خيركم ، ثلاثاً .

وكان له ألف عبد يؤدون إليه الخراج في كل يوم ، فيتصدق به في مجلسه ولا يقوم بدرهم .

وكان مع الخارجين علىٰ علي يوم الجمل ، فلما دنت الصفوف . . خرج علي وهو علىٰ بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى : ادعوا لي الزبير ، فدعي له ، فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما ، فقال له : نشدتك بالله ، أتذكر يوم مر بك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مكان كذا وكذا فقال : « يَا زُبَيْرُ ؛ تُحِبُّ عَلِيّاً ؟ » فقلت : ألا أحب ابن خالي وابن عمتي وعلىٰ ديني ؟! فقال : « يَا زُبَيْرُ ؛ أَمَا وَٱللهِ لَتُقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ ظَالِمٌ لَهُ ؟ » فقال : بلىٰ ، والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكرته الآن ، والله لا أقاتلك ، ثم أدبر راجعاً ، فقال له ولده عبد الله : ما لك ؟ فذكر له القصة ، فقال : لم تجىء للقتال ، بل لتصلح بين الناس ، فأبىٰ[2] .

وفي رواية : أنه قال له : جبناً جبناً ، فقال : قد علم الناس أني لست بجبان ، ولـٰكن ذكرني حديثاً فحلفت أن لا أقاتله .

وفي رواية : أن سبب رجوعه : أنه قال لأصحاب علي : أفيكم عمار بن ياسر ؟ قالوا : نعم ، فأغمد سيفه وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار : « سَتَقْتُلُكَ ٱلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ »[3] .

ولا مانع : أنه قال ذلك ، ثم ذكره علي الحديث زيادة في إعلامه .

ثم سار ، فلما وصل وادي السباع . . نام ، فجاء رجل فقتله في جمادى الأولىٰ سنة ست وثلاثين وعمره سبع وستون سنة على الأشهر ، وقبل أن يجتمع بعلي قال لابنه عبد الله : ما أراني إلا سأقتل اليوم مظلوماً ، ثم أكد عليه في أن يبيع أمواله ، ويقضي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧١٧) ، وأحمد (١/ ٦٤) .
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٦) مختصراً ، والطبري في « التاريخ » (٤/ ٥٠١) بنحوه .
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧) ، ومسلم (٢٩١٦) .

دينه من أرضين له ، منها الغابة ، وبضع عشرة داراً ، وقدر دينه ألفا ألف ومئتا ألف ، وما ولي إمارة قط ، ولا جباية ولا خراجاً ولا شيئاً ، وما خلف درهماً ولا ديناراً ، فباع ابنه ماله ، ثم قال : من كان له عليه دين . . فليأتنا نقض ما عليه ، ثم أقام أربع سنين ينادي كل موسم : من له عليه شيء . . فليأتنا ، فلما لم يأت أحد . . أخرج ثلث ماله ؛ لأنه أوصىٰ به ، ثم قسم الباقي بين ورثته ، وكان له أربع نسوة ، فأصاب كلاً منهن ألف ألف ومئتا ألف ، فجميع ماله خمسون ألف ألف ومئتا ألف ، وهـٰذا ملخص ما في « صحيح البخاري »[1] .

لـٰكن اعترض بأن الصحيح : أن الذي تركه مما وفى الدين والوصية وما ورث عنه تسعة وخمسون ألف ألف وثمان مئة ألف .

وكان له صدقات كثيرة ، ومكارم جليلة ، وماله كله حلال صرف ، كذا قيل ، ولا حاجة إليه ، بل أغنياء الصحابة كلهم كذلك ؛ لأن أموالهم إما : من سلب ، أو سهم من الغنيمة ، أو الفيء ، أو تجارة مبرورة .

وأوصىٰ إليه سبعون من الصحابة بأولادهم وأموالهم فحفظها ، وكان ينفق علىٰ أولادهم من ماله .

ومن مدح حسان فيه : [من الطويل]

فَكَـمْ كُـرْبَـةٍ ذَبَّ ٱلـزُّبَيْـرُ بِسَيْفِـهِ ... عَـنِ ٱلْمُصْطَفَـىٰ وَٱللَّـهُ يُعْطِـي وَيُجْـزِلُ

فَمَـا مِثْلُـهُ فِيهِـمْ وَلاَ كَـانَ قَبْلَـهُ ... وَلَيْـسَ يَكُـونُ ٱلـدَّهْـرَ مَـا دَامَ يَـذْبُـلُ[2]

ثَنَـاؤُكَ خَيْـرٌ مِـنْ فِعَـالِ مَعَـاشِـرٍ ... وَفِعْلُـكَ يَـا ٱبْـنَ ٱلْهَـاشِمِيَّـةِ أَفْضَـلُ[3]

(**أبي القرم**) بفتح القاف وسكون الراء ؛ أي : السيد الكريم عبد الله أبي خبيب ابن بنت أبي بكر (**الذي أنجبت**) أي : أتت (**به**) في غاية النجابة والشجاعة ، والرأي الحازم ، والتصرف الصائب (**أسماء**) بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين بعد عشرين شهراً من الهجرة بالمدينة ، وكان أول مولود بعد الهجرة ، واشتد فرح المهاجرين به ؛

---

(١) رقم الحديث (٣١٢٩) .

(٢) يذبل : اسم جبل في نجد .

(٣) ديوان حسان رضي الله عنه (١/ ٤٣٣ـ ٤٣٤) .

لأن اليهود توعدوهم أنهم عملوا لهم ما أبطل نسلهم فلا يأتيهم ولد ، فلما ولد . . بان كذبهم .

ولما احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . أعطاه دمه وقال : « غَيِّبْهُ فِي مَوْضِعٍ لاَ يَرَاكَ فِيهِ أَحَدٌ » فلما جاء إليه . . قال : « مَا فَعَلْتَ بِٱلدَّمِ ؟ » قال : شربته ، قال : « إِذاً لاَ تَلِجُ ٱلنَّارُ بَطْنَكَ ، وَيْلٌ لَكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَوَيْلٌ لِلنَّاسِ مِنْكَ »[1] فكان كذلك ؛ لأنه سعىٰ في الخلافة لما مات يزيد سنة أربع وستين ، فأطاعه أهل اليمن والحجاز والعراق وخراسان ، ثم هدم الكعبة ؛ لتهدُّمِها وسماعه من خالته عائشة ما روته له عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْلاَ أَنَّ قُرَيْشاً حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ . . لَهَدَمْتُ ٱلْكَعْبَةَ وَجَعَلْتُهَا عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ، وَفَتَحْتُ بَابَهَا ٱلْغَرْبِيَّ ، وَجَعَلْتُ بَابَهَا ٱلشَّرْقِيَّ لاَطِئاً بِٱلأَرْضِ كَمَا كَانَتْ فِي زَمَنِ إِبْرَاهِيمَ »[2] فأعادها ابن الزبير كذلك بعد أن شاور الصحابة ، فمنهم من أمره بذلك ، ومنهم من نهاه عنه ، فلم يرجع إليه ؛ لسماعه الحديث المذكور ، فكان أجر ذلك البناء باقياً له إلىٰ أن يهدمها ذو السويقتين[3] ، فإن البناء الموجود الآن كله بناؤه إلا حائط الميزاب ، فإن الحجاج لما حصره أول الحجة سنة اثنتين وسبعين ، وحج بالناس ، ولم يزل محاصراً له إلىٰ أن قتله سابع جمادى الأولىٰ سنة ثلاث وسبعين . . هدم ما كان أدخله ابن الزبير من الحجر ـ وهو ستة أذرع ـ كما أدخله إبراهيم ، وأخرج الستة ، ثم أَخَّر الجدار كما هو اليوم ، وسد الباب الغربي ، وأعلى الباب الشرقي ، لتصير كما كانت في زمنه صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قريشاً لما بنتها حينئذ . . قصر بهم المال الحلال عن أن يجعلوها كما كانت في زمن إبراهيم ، فجعلوها كذلك .

وكان ابن الزبير صوّاماً يواصل الخمسة عشر يوماً وأكثر ، قوّاماً ، أطلس لا لحية له ، من دهاة العرب المشهورين ، وشجعانهم الموصوفين ، وأحد العبادلة الأربعة المتقاربين سناً وعلماً ، وذكاء وفهماً ، والثلاثة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن

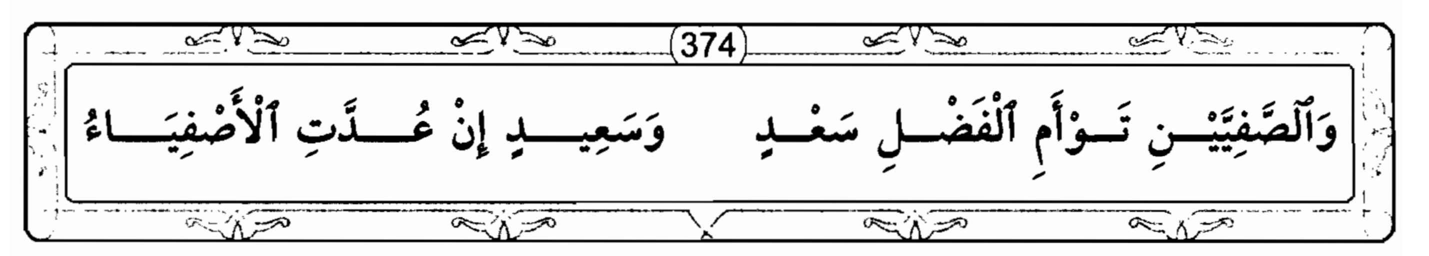
---

(١) أخرجه الضياء في « المختارة » (٢٦٧) ، والحاكم (٣/ ٥٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري (١٥٨٣) ، ومسلم (١٣٣٣) بنحوه .

(٣) السويقتان : تثنية سويقة ، تصغير ساق ؛ لأنه دقيق الساقين ، وحديث هدمه للكعبة عند البخاري (١٥٩١) ، ومسلم (٢٩٠٩) .

عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهم ، وليس منهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ لأنه كان أكبر منهم سناً ، فليس في طبقتهم .



(والصفيين) تثنية صفي ، وهو المصفى المستخلص من الحظوظ والشهوات (توأم الفضل) من : أَتْأَمت المرأة ولدت اثنين ؛ أي : أن الفضل أنتجهما ؛ لكثرة ما قام بهما منه ، ولو قال : توأما الفضل . . كان أوضح ، ومعناه حينئذ : أنهما لما اشتركا في الفضائل الجليلة . . صارا كأنهما مولودان في حمل واحد (سعد) أبي إسحاق بن أبي وقاص مالك القرشي الزهري ، وهو أحد الستة أصحاب الشورىٰ ، والثمانية السابقين إلى الإسلام ، بل هو الثالث إلى الإسلام ، وأقام كذلك سبعة أيام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، والشجعان المشهورين ، وهو أول من رمىٰ بسهم في سبيل الله ، وأول من أراق دماً في سبيل الله ، ومن كان يقال له : فارس الإسلام ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورمىٰ يوم أحد ألف سهم ، ولاه عمر العراق ، فكان الأمير في فتح مدائن كسرىٰ وغيرها .

ومن كراماته الظاهرة : أنه قطع بجيوشه البحر علىٰ ظهور الخيل ، لم يبلغ الماء منها إلىٰ حُزُمها والناس في غاية الطمأنينة كأنهم سائرون في البر ، وكان الذي يسايره سلمان الفارسي رضي الله تعالىٰ عنه ، وكذلك ولاه عثمان ولايات جليلة ، وكان صلى الله عليه وسلم يناوله النبل يوم أحد ويقول : « ٱرْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي »(١) وأقبل والنبي صلى الله عليه وسلم جالس مع أصحابه ، فقال : « هَـٰذَا سَعْدٌ خَالِي ، فَلْيُرِنِي ٱمْرُؤٌ خَالَهُ »(٢) وقال له : « ٱجْلِسْ يَا خَالِي ؛ فَإِنَّ ٱلْخَالَ وَالِدٌ » ودعا له فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ سَدِّدْ رَمْيَهُ ، وَأَجِبْ دَعْوَتَهُ »(٣) وفي رواية صحيحة : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱسْتَجِبْ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥٥) ، ومسلم (٢٤١٢/٤٢) .
(٢) أخرجه الحاكم (٣/٤٩٨) ، والترمذي (٣٧٥٢) .
(٣) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٤٢٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٩٢) .

لِسَعْدٍ إِذَا دَعَاكَ »[1] فلم تسقط له دعوة بعد ذلك ، فكان مجاب الدعوة ، وأشرف على الموت ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم أنه يعيش ، فقال : « لَعَلَّ ٱللهَ أَنْ يَرْفَعَكَ فَيَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ »[2] .

اعتزل الفتنة بعد قتل عثمان ، فلم يدخل فيها ، ولم يحضر شيئاً من تلك الحروب ، توفي رضي الله عنه بقصره بالعقيق علىٰ عشرة أميال من المدينة ، فحمل إليها ، وصلىٰ عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والٍ بالمدينة ، وصلىٰ عليه أمهات المؤمنين في حُجَرهن ، ودفن بالبقيع سنة خمس وخمسين عن تسع وسبعين سنة ، وكان أوصىٰ أن يكفن في جبة صوف لقي المشركين فيها يوم بدر ، وقال : إنما كنت أخبئها لذلك ، وهو آخر المهاجرين موتاً .

وفي « مسلم » : أن آية : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ نزلت في ستة ، منهم سعد وابن مسعود[3] .

(وسعيد) بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، شهد المشاهد كلها ، وعده البخاري فيمن شهد بدراً[4] ، ومر في ترجمة طلحة : أنه لم يشهدها ، وهـٰذا ما عليه الأكثرون ، وقد يجمع بأنه لم يشهدها حسّاً ، وشهدها حكماً ، أجراً وسهماً ، وهو ابن عم عمر ، وزوج أخته ، والسبب في إسلامه كما مر ، ولذلك لم يدخله في أهل الشورىٰ كولده عبد الله ؛ لئلا يظن به أنه حابىٰ أقاربه .

وأخرج الشيخان : أن امرأة ادعت عليه عند مروان : أنه أخذ لها قطعة أرض ، فقال له : ما كنت لأفعل بعد أن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ أَخَذَ شِبْراً مِنْ أَرْضٍ ظُلْماً . طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » فقال مروان : لا أسألك بينة بعد هـٰذا ، ثم قال سعيد : اللهم ؛ إن كانت كاذبة . . فأعم بصرها ، واقتلها في أرضها ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٥١) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٠٨١) .
(٢) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٦/٢٦٨) ، وأحمد (١/١٧٢) .
(٣) مسلم (٢٤١٣) .
(٤) البخاري (٣٩٩١) .

فذهب بصرها ، وبينما هي تمشي في أرضها . . وقعت في حفرة فماتت[1] ، زاد مسلم : أنها قالت : أصابتني دعوة سعيد ، وفي رواية : أنه كان جارها بالعقيق ، وأنه أعطاها الذي ادعته به ، ثم دعا عليها بما مر .

توفي رضي الله عنه سنة خمسين عن بضع وسبعين سنة ، ودفن بالمدينة ، وأبوه زيد توفي في الجاهلية ، لـٰكن جاءت أحاديث تدل علىٰ أنه من أهل الجنة .

منها ـ لـٰكنه مرسل ـ : « غَفَرَ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو وَرَحِمَهُ »[2] .

ومنها ـ وهو صحيح ـ : سئل صلى الله عليه وسلم عنه فقال : « يَأْتِي يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَىٰ »[3] .

(إن عدت **الأصفياء**) فهـٰذان من أكابرهم ، كيف وفي اسميهما ما يشعر ببلوغهما مرتبة عظمىٰ من علو مراتب السعادة ؟! .

(375)

وَٱبْنِ عَوْفٍ مَنْ هَوَّنَتْ نَفْسُهُ ٱلدُّنْـ ـيَـــا بِبَـــذْلٍ يُمِـــدُّهُ إِثْـــرَاءُ

(و) عبد الرحمٰن (**بن عوف**) بن الحارث بن زهرة القرشي الزهري ، أحد الثمانية السابقين للإسلام ، والستة أهل الشورىٰ ، والعشرة المبشرين بالجنة ، والخمسة الذين أسلموا علىٰ يد أبي بكر .

وصح : أنه كان بينه وبين خالد شيء ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَوَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً . . مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ » أي : نصفه .

وفي رواية الواقدي وابن عساكر : « يَا خَالِدُ ؛ ذَرُوا لِي أَصْحَابِي ، مَتَىٰ يُنْكَ أَنْفُ ٱلْمَرْءِ . . يُنْكَ ٱلْمَرْءُ ، وَلَوْ كَانَ أُحُدٌ ذَهَباً يُنْفِقُهُ قِيرَاطاً قِيرَاطاً فِي سَبِيلِ ٱللهِ . . لَمْ يُدْرِكْ

---

(١) البخاري (٣١٩٨) ، ومسلم (١٦١٠/ ١٣٩) .

(٢) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٣٨١) .

(٣) أخرجه النسائي في « الكبرى » (٨١٣١) ، وأبو يعلىٰ (٢٠٤٧) .

غَدْوَةً وَرَوْحَةً مِنْ غَدَوَاتِ أَوْ رَوْحَاتِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَـٰنِ »[1] .

وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها ، وكان ممن ثبت يوم أحد ، وبعثه صلى الله عليه وسلم إلىٰ دومة الجندل إلىٰ بني كلب ، وعممه بيده الكريمة ، وسدلها بين كتفيه ، وقال : « إِنْ فَتَحَ ٱللهُ عَلَيْكَ . . فَتَزَوَّجِ ٱبْنَةَ مَلِكِهِمْ ـ أو قال ـ شَرِيفِهِمْ »[2] ففتح الله عليه ، وتزوج بنت شريفهم الأصبغ ، فولدت له أبا سلمة .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم ائتم به في غزوة تبوك ، فصلىٰ وراءه ركعة من صلاة الصبح[3] ، وهـٰذه منقبة لم توجد لصحابي غيره .

وسببها : أنه صلى الله عليه وسلم ذهب لحاجته ، فأدركهم الوقت ، فأقاموا الصلاة ، فتقدمهم عبد الرحمٰن رضي الله عنه ، ولما أتم صلى الله عليه وسلم ما فاته خلفه . . قال : « مَا قُبِضَ نَبِيٌّ حَتَّىٰ يُصَلِّيَ خَلْفَ رَجُلٍ صَالِحٍ مِنْ أُمَّتِهِ »[4] .

وائتم صلى الله عليه وسلم بأبي بكر أيضاً ، لـٰكنه أخرج نفسه عن الإمامة بتأخره ، وقال لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَثْبُتَ وَقَدْ أَشَرْتُ إِلَيْكَ ؟ » : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم[5] .

فإن قلت : لم لم يفعل عبد الرحمٰن ذلك ؟

قلت : الظاهر : أنه لم يعلم باقتدائه صلى الله عليه وسلم به ، واقتدىٰ صلى الله عليه وسلم بجبريل عند باب الكعبة بجانبه من ناحية الحجر ـ بكسر الحاء المهملة ـ فصلىٰ به الخمس مرتين في يومين : صبيحة الإسراء ، والذي يليه .

وكان رضي الله عنه كثير الإنفاق في سبيل الله ، أعتق في يوم واحد أحداً وثلاثين عبداً ، حتىٰ جاء : أن جملة ما أعتقه ثلاثون ألفاً .

---

(١) « تاريخ دمشق » (١٦/ ٢٣٤) .
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٢٤) ، ومسلم (٢١٨٠) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤) .
(٤) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٣/ ١٢٨) .
(٥) أخرجه البخاري (٦٨٤) ، ومسلم (٤٢١) .

وفي حديث : « إِنَّهُ أَمِينٌ فِي ٱلسَّمَاءِ ، أَمِينٌ فِي ٱلأَرْضِ »[1] .

وكان كثير المال ، محظوظاً في التجارة ، قال لأم سلمة : خفت أن تهلكني كثرة مالي ، فقالت : يا بني ؛ أنفق .

قال الزهري : تصدق علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشطر ماله : أربعة آلاف دينار ، ثم أربعين ألف دينار ، ثم بمثلها ، ثم خمس مئة فرس ، ثم خمس مئة راحلة ، وفي رواية : ألف وخمس مئة راحلة .

وأوصىٰ لأمهات المؤمنين بحديقة ، فبيعت بأربع مئة ألف ، وأوصىٰ بخمسين ألف دينار في سبيل الله ، ولكل واحد ممن بقي ممن شهد بدراً بأربع مئة دينار ، وكانوا مئة ، من جملتهم عثمان ، فأخذ مئة وهو أمير المؤمنين ، وبألف فرس في سبيل الله .

وكان أهل المدينة عيالاً عليه : ثلث يقرضهم ، وثلث يقضي ديونهم ، وثلث يصلهم ، وقدمت له عير من الشام سبع مئة راحلة ، فسمعت عائشة أصواتها ، فروت له حديث : « يَدْخُلُ ٱبْنُ عَوْفٍ ٱلْجَنَّةَ حَبْواً » فبلغه ، فأتاها فحدثته ، فقال : أشهدك أنها بأحمالها وأقتابها وأحلاسها في سبيل الله عز وجل[2] .

وباع أرضاً من عثمان بأربعين ألف دينار ، فقسمها في أقاربه بني زهرة ، وفقراء المسلمين ، وأمهات المؤمنين .

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم قال له : « لَنْ تَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ زَحْفاً ، فَأَقْرِضِ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ . . يُطْلِقْ لَكَ قَدَمَيْكَ » قال : ما الذي أقرضه ؟ قال : « تَتَبَرَّأُ مِنْ كُلِّ مَالِكَ » فهم بذلك ، فأتاه جبريل فقال : مره فليضف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ، وليبدأ بمن يعول ، فإذا فعل ذلك . . كان كفارة لما هو فيه[3] ، والذي صح في ذلك : « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ : مُرِ ٱبْنَ عَوْفٍ فَلْيُضِفِ ٱلضَّيْفَ ، وَلْيُطْعِمِ ٱلْمِسْكِينَ ، وَلْيُعْطِ ٱلسَّائِلَ ، وَلْيَبْدَأْ بِمَنْ يَعُولُ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ . . كَانَ تَزْكِيَةَ مَا هُوَ فِيهِ » .

---

(١) أخرجه البزار (٤٦٦) .
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١٥) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ١٢٩) .
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٣١١) ، والبزار (١٠٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٩٩) .

وفي حديث ابن عدي وغيره : « أَنْكِحُوا عَبْدَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بْنَ عَوْفٍ ، فَإِنَّهُ مِنْ خِيَارِ ٱلْمُسْلِمِينَ »[١] .

وروىٰ أبو نعيم وغيره : أن رجلاً لين الصوت قرأ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما بقي أحد إلا فاضت عينه غير عبد الرحمٰن بن عوف ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إِنْ لَمْ تَكُنْ فَاضَتْ عَيْنُهُ . فَقَدْ فَاضَ قَلْبُهُ »[٢] .

وفي حديث ضعيف : « أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ مِنْ أَغْنِيَاءِ أُمَّتِي عَبْدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَٱلَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَنْ يَدْخُلَهَا إِلاَّ حَبْواً » وفي آخر رواه أحمد والطبراني : « رَأَيْتُ عَبْدَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بْنَ عَوْفٍ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ حَبْواً »[٣] ، وفي رواية لأحمد : « قَدْ رَأَيْتُهُ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ حَبْواً »[٤] ، لـٰكن ذكره ابن الجوزي في « الموضوعات »[٥] .

وفي رواية لابن سعد وابن عساكر : « كَأَنِّي بِعَبْدِ ٱلرَّحْمَـٰنِ بْنِ عَوْفٍ عَلَىٰ ٱلصِّرَاطِ يَمِيلُ مَرَّةً وَيَسْتَقِيمُ أُخْرَىٰ حَتَّىٰ يُفْلِتَ وَلَمْ يَكَدْ »[٦] ، لـٰكن يعارض ذلك ما رواه جماعة : أنه صلى الله عليه وسلم قال له : « كَفَاكَ ٱللهُ أَمْرَ دُنْيَاكَ ، وَأَمَّا أَمْرُ آخِرَتِكَ . . فَأَنَا لَهَا ضَامِنٌ » وسببه : أن الحسنين اشتد بكاؤهما جوعاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَصِلُنَا بِشَيْءٍ ؟ » فأتاه بصحفة فيها حيس ورغيفان بينهما إهالة[٧] .

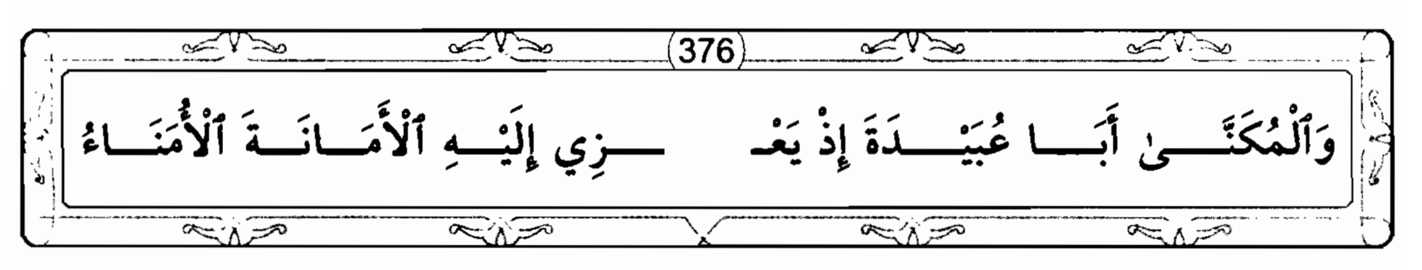
توفي رضي الله عنه عن اثنتين أو خمس وسبعين سنةً ، سنةَ اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان ، وصلىٰ عليه علي ، وقيل : الزبير ؛ لأنه كان هجر عثمان لما أمر أقاربه ، فقال الناس لابن عوف : هـٰذا فعلك ؟! فدخل عليه ولامه وقال : إنما وليتك لتسير بسيرة الشيخين ، فقال : كان عمر يقطع أقاربه في الله ، وأنا أصلهم في الله ، فنذر أن لا يكلمه أبداً ، وترك من الذهب ماجاء ربع ثمنه ثمانين ألف دينار .

---

(١) الكامل في ضعفاء الرجال (٣/ ٢٧٠) .
(٢) حلية الأولياء (١/ ١٠٠) .
(٣) المعجم الكبير (١/ ١٢٩) .
(٤) مسند أحمد (١/ ١١٥) .
(٥) الموضوعات (١/ ٣٢٧) .
(٦) الطبقات الكبرىٰ (٣/ ١٣٢) ، وتاريخ دمشق (٣٥/ ٢٦٨) .
(٧) **الحيس** : تمر يخلط بالسمن . **والإهالة** : ماذاب من الدهن والسمن ، أو كل ما يؤتدم به .

ولما تقرر من كثرة إنفاقه وصدقاته ما له كثرة فيهما تفوق الحصر . . قال :

(من) بدل مما قبله (هونت نفسه الدنيا) أي : صيرت أموالها وأمتعتها رخيصة عندها (بـ) سبب (بذل) لها في وجوه الخيرات والقربات بذلاً دائماً مستمراً كثيراً ، يبهر العقل ، ويرفع إلى الدرجات العلا ، كما مر في الأحاديث ، وذلك البذل الكثير (يمده إثراء) أي : كثرة المال الذي فتح الله به عليه ، وأكثره من التجارة ؛ لأنه كان محظوظاً فيها بحيث لو أمسك التراب . . صار ذهباً .



(والمكنىٰ أبا عبيدة) وهو عامر ابن الجراح القرشي الفهري ، أمين هٰذه الأمة ، كما صحت به الأحاديث[١] ، وفي رواية : « وأميني »[٢] ، وفي أخرى : « وَأَمِينُنَا أَيَّتُهَا ٱلأُمَّةُ »[٣] .

وأحد العشرة والرجلين اللذين عينهما الصديق يوم السقيفة للخلافة ، والثاني عمر ، وأحد الخمسة الذين أسلموا في يوم واحد علىٰ يد الصديق ، وبقيتهم : عثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث ، وعبد الرحمٰن بن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد زوج أم سلمة .

شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها ، وثبت يوم أحد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ونزع يومئذ بأسنانه حَلْقتين دخلتا في وجنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم من حِلَق المِغفر ، فوقعت ثنيتاه ؛ لأنه تحامل عليهما ، خوفاً من إيلامه صلى الله عليه وسلم ، فكان من أحسن الناس هتماً ، والهتم : إلقاء مقدم الأسنان .

وولاه أبو بكر لما أرسل جيشاً إلى الشام ، ثم جعل خالداً أميراً عليه وعلىٰ غيره ؛ لعلمه بالحروب ، ولما ولي عمر رضي الله عنه . . أعاده ، لٰكن أمره أن يستشير

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨٠) ، ومسلم (٢٤١٩/ ٥٤) .
(٢) عند أحمد (١/ ١٨) .
(٣) عند البخاري (٣٧٤٤) ، ومسلم (٢٤١٩/ ٥٣) .

خالداً ، وهو أول من سمي أمير الأمراء بالشام .

وروي : أنه صلى الله عليه وسلم أمره علىٰ سرية فيها أبو بكر وعمر ، وتعرض له أبوه يوم بدر فأعرض عنه ، فلازمه ، فلما أكثر عليه . . قتله ، فأنزل الله فيه : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . . .﴾ الآية[1] .

ولما قال له الصديق يوم السقيفة : مد يدك لأبايعك . . قال : ما كنت لأتأمر علىٰ رجل قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلىٰ بنا حتىٰ قبض .

وقال عمر : لئن أدركني أجلي وهو موجود . . استخلفته ؛ لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِيناً ، وَأَمِينُ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ ٱبْنُ ٱلْجَرَّاحِ » .

ولما قدم عمر الشام . . تلقاه الناس ، فقال : أين أخي أبو عبيدة ؟ فقالوا : الساعة يأتيك ، فأتاه علىٰ ناقة مخطومة بخطام ليف ، فنزل عمر عن راحلته واعتنقه ، وقال للناس : انصرفوا عنا ، ثم دخل معه إلىٰ بيته ، فلم يجد فيه سوىٰ سيفه وترسه وقوسه ورحله ، فبكىٰ عمر ، وقال لأصحابه : تمنوا ، فقال رجل : ملء هـٰذه الدار ذهباً أنفقه في سبيل الله ، وقال آخر : جوهراً أنفقه كذلك ، فقال عمر : وأنا أتمنىٰ لو أن هـٰذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة .

وله فتوحات كثيرة ، ووقعات مع المشركين هائلة .

وصح عن الحسن مرسلاً : « مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي إِلاَّ لَوْ شِئْتُ . . لأَخَذْتُ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ خُلُقِهِ غَيْرَ أَبِي عُبَيْدَةَ ٱبْنِ ٱلْجَرَّاحِ »[2] .

توفي سنة ثماني عشرة شهيداً بالطاعون في طاعون عَمَواس ـ قرية بين الرملة وبيت المقدس ـ أول ما وقع بها ، ثم انتشر بالشام ، وقبره معروف ، ثم قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ : زرته ، فرأيت عنده عجباً ، ورأيت عليه من الجلالة ما هو لائق به .

(إذ) ظرف لـ (أقسم) المقدر ، أو تعليل له (يعزي) أي : ينسب (إليه) أي :

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/ ٤٤٦) .

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٦٦) .

أبي عبيدة (الأمانة الأمناء) وأجلهم نبينا صلى الله عليه وسلم ، فإنه قال ـ كما صح عنه ـ : « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ ، وَأَمِينُ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ ٱبْنُ ٱلْجَرَّاحِ » وفي رواية : « أَمِينِي » وفي أخرى : « أَمِينُنَا أَيَّتُهَا ٱلأُمَّةُ » .

واعلم : أن هـٰذا كقوله صلى الله عليه وسلم في أبي ذر : « إِنَّهُ أَصْدَقُ مَنْ أَظَلَّتِ ٱلْخَضْرَاءُ ، وَأَقَلَّتِ ٱلْغَبْرَاءُ »[1] . . لا يقتضي تفضيلاً على الخلفاء الراشدين ؛ لأن أولـٰئك كملت فيهم الصفات كلها واعتدلت ، فلم يترجح بعضها علىٰ بعض ، وأما هـٰذان . . فكملت فيهما صفة الأمانة والصدق ، فتميزا فيهما علىٰ من لم يكملا فيه ، ولو سلمنا زيادتهما فيهما علىٰ أولـٰئك . . لم يقتض ذلك تفضيلاً أيضاً ؛ لأن المفضول قد يتميز بمزية ، بل بمزايا لا توجد في الفاضل ؛ لأن خلف تلك المزايا مزايا أخرىٰ أجل منها وأعظم ، فحصل مناط الأفضلية فيه وإن خلا عما تميز به المفضول .

(377)

وَبِعَمَّيْـــكَ نَيِّـــرَيْ فَلَـــكِ ٱلْمَجْـ ـــدِ وَكُـــلٌّ أَتَـــاهُ مِنْـــكَ إِتَـــاءُ

(و) أقسم عليك (بعميك) أخوي أبيك لأبيه ، وهما حمزة والعباس رضي الله تعالىٰ عنهما ، وكل منهما أسن من النبي صلى الله عليه وسلم بنحو السنتين (نيري) تثنية نير ، وهو : الكوكب المضيء (فلك) هو : ما تسير فيه الكواكب (المجد) أي : الكرم والحسب ، شبه المجد بالسماء ، وأثبت لها ما هو من لوازمها ، وهو (الفلك) إذ كل سماء تسمىٰ فلكاً ، فهو استعارة بالكناية ، واستعارة تخييلية ، ورشح لها بذكر النيرين ، وشبههما بالشمس والقمر ، وأثبت لهما ما هو من لوازمهما ، وهو الإضاءة ، فهي أيضاً استعارة بالكناية ، واستعارة تخييلية ، وفيها أيضاً استعارة تجريدية بذكر (المجد) الملائم للعمين (وكل) منهما (أتاه) أي : حصل له (منك إتاء) ـ بوزن كتاب ـ وهو : ما يخرج من الشجر ، والنماءُ ، كما في « القاموس » .

وقال الشارح : (هو : ما يستفاد من النعم والخيرات من غير تعب ، كحمل النخل ، وثمار الأشجار) ولعله تفسيرٌ مراد .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧١٣٢) ، والترمذي (٣٨٠١) ، وابن ماجه (١٥٦) .

أما حمزة رضي الله عنه ـ ويكنىٰ أبا عمارة ، ويلقب بأسد الله وأسد رسوله ـ . . فكان عظيماً شجاعاً ، أخاً للنبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، أسلم قديماً ، وسبب إسلامه : أن اللعين أبا جهل شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف ولم يجبه ، وانصرف أبو جهل إلىٰ نادي قريش عند الكعبة ، وأقبل حمزة من قَنَصه متوشحاً قوسه ، فأخبر وهو أعز فتىً في قريش ، وأشد شكيمة ، فغضب ، وعمده فشجه في رأسه شجة منكرة ، وقال : أتشتمه وأنا علىٰ دينه ؟! فقامت إليه رجال من بني مخزوم ، فمنعهم أبو جهل خشية الفتنة .

وهو أول من اتخذ له النبي صلى الله عليه وسلم لواء حين بعثه إلىٰ سيف البحر ـ بكسر السين المهملة ـ أي : جهته .

استشهد بأحد نصف شوال ثالث سني الهجرة ، بعد أن قتل أحداً وثلاثين كافراً ، قتله وحشي عبد لعقبة السلمي ، قال : رأيته يهد الأبطال هدّاً ، فاختفيت له ، فلما تمكنت منه . . رميته رمية بحربتي فأصابته ، ووليت هارباً ، فتبعني ثم سقط ، وبعد ذلك أسلم وحشي هـٰذا ، فقبله النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال له : « غَيِّبْ وَجْهَكَ عَنِّي »[1] أي : خشية أن يصيبه منه شيء إذا تذكر قتله لحمزة رضي الله عنه .

وخرج يوم اليمامة ، فشارك رجلاً في قتل مسليمة الكذاب ، فكان يقول : هـٰذه بتلك ، ومع ذلك فقد أصابه ما أصابه ؛ لما صح عن ابن المسيب أنه قال : كنت أعجب لقاتل حمزة كيف ينجو ؟! حتىٰ مات غريقاً في الخمر .

وقال ابن هشام : بلغني أنه لم يزل يحد في الخمر حتىٰ خلع من الديوان ، فكان عمر يقول : لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة .

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حمزة قتيلاً . . بكىٰ ، ولما رأىٰ ما مثل به . . شهق وقال : « لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَداً ، مَا وَقَفْتُ مَوْقِفاً أَغْيَظَ لِي مِنْ هَـٰذَا »[2] .

وروى ابن شاذان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما رأينا رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٨٢١) ، وابن عبد البر في « الإستيعاب » (٣/ ٦٠٨) .
(٢) ذكره ابن هشام في « السيرة » (٣/ ٩٤) ، وأخرج الحاكم القسم الأول منه (٣/ ١٩٤) .

عليه وسلم باكياً قط أشد من بكائه علىٰ حمزة ، وضعه في القبلة ، ثم وقف علىٰ جنازته ، وبكىٰ حتىٰ كاد يغشىٰ عليه وهو يقول : « يَا حَمْزَةُ ، يَا عَمَّ رَسُولِ ٱللهِ ، يَا أَسَدَ ٱللهِ وَأَسَدَ رَسُولِهِ ، يَا حَمْزَةُ ، يَا فَاعِلَ ٱلْخَيْرَاتِ ، يَا حَمْزَةُ ، يَا كَاشِفَ ٱلْكُرُبَاتِ ، يَا حَمْزَةُ ، يَا ذَابُّ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم » وليس في هـٰذا نوح ولا تعديد شمائل ، بل هو إخبار بفضائله وشمائله رضي الله تعالىٰ عنه .

وصح حديث : أنه « سَيِّدُ ٱلشُّهَدَاءِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »[1] وأنه : « لَوْلاَ جَزَعُ ٱلنِّسَاءِ . . لَتَرَكْتُهُ حَتَّىٰ يُحْشَرَ مِنْ بُطُونِ ٱلطَّيْرِ وَٱلسِّبَاعِ »[2] وحديث : « رَحْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ ، قَدْ كُنْتَ وَصُولاً لِلرَّحِمِ ، فَعُولاً لِلْخَيْرَاتِ »[3] .

وصحح الحاكم حديث : « وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ عِنْدَ ٱللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلسَّابِعَةِ : حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ أَسَدُ ٱللهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ » لـٰكن تُعُقِّب[4] .

وورد من طرق : « إِنَّ ٱلْمَلاَئِكَةَ غَسَلَتْهُ » وصححه الحاكم ، لـٰكن تعقب أيضاً[5] .

وأما العباس رضي الله عنه وكنيته أبو الفضل . . فكان جليلاً جواداً ، ذا رأي وكمال عقل ، معظماً بين الصحابة وعند النبي صلى الله عليه وسلم ، رئيساً في قريش قبل الإسلام ، وكانت إليه عمارة المسجد الحرام والسقاية ، وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم العقبة ، فعقد له البيعة على الأنصار ، وكان صلى الله عليه وسلم يثق به في أمره كله ، أسر يوم بدر ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَقِيَهُ . . فَلاَ يَقْتُلْهُ ، فَإِنَّهُ خَرَجَ مُسْتَكْرَهاً »[6] وسمعه صلى الله عليه وسلم يئن ؛ لكونهم شدوا وثاقه فلم ينم ، فقيل له : ما يسهرك يا رسول الله ؟ قال : « أَنِينُ ٱلْعَبَّاسِ » فقام رجل فأرخىٰ من وثاقه

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ١١٩) .
(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٠) بلفظ : « لولا أن تجزع صفية . . . » .
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٩٧) ، والطبراني في « الكبير » (٣/ ١٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٠٣) .
(٤) انظر « المستدرك » (٣/ ١٩٨) وبهامشه « التلخيص » .
(٥) انظر « المستدرك » (٣/ ١٩٥) وبهامشه « التلخيص » .
(٦) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٢٣) .

ووثاق البقية[1] ، وفادىٰ نفسه وعقيلاً ابن أخيه بعد أن قال : ما معي شيء ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « وَأَيْنَ ٱلْمَالُ ٱلَّذِي قُلْتَ لأُمِّ ٱلْفَضْلِ ـ أي : زوجته ـ حِينَ خَرَجْتَ : إِذَا أَنَا مِتُّ . . فَٱفْعَلِي بِهِ كَذَا ؟ » فقال : من أعلمك بهـٰذا ولم يطلع عليه غيري وغيرها ؟ قال : « اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ » فأسلم سراً ، وكتم إيمانه إلىٰ قبيل فتح مكة ، فخرج إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقيه بالأبواء ، وبه ختمت الهجرة ، وكان رضي الله عنه ردءاً للنبي صلى الله عليه وسلم بمكة ، يكاتبه بأخبار أهلها ، وكان المسلمون بمكة يثقون به ، وكان يحب القدوم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه : إن بقاءك بمكة خير لك .

ولما قالت الأنصار : نترك لابن أختنا عباس الفداء . . أبىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنيناً ، وثبت معه حين انهزم الناس ، وكان عمر يستسقي به الغيث إذا قحط الناس ، فيقول : اللهم ؛ إنا كنا نستسقي بنبيك فتسقينا ، وها نحن نستسقي بعمِّ نبيك فٱسْقِنا ، فيسقون[2] .

توفي بالمدينة ثاني عشر رجب أو رمضان سنة اثنتين وثلاثين وله نحو من ثمانٍ وثمانين سنة ، وقبره مشهور بالبقيع .

وصح حديث : « ٱلْعَبَّاسُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ، لاَ تَسُبُّوا أَمْوَاتَنَا فَتُؤْذُوا بِهِ الأَحْيَاءَ »[3] وحديث : أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعمله على الصدقة ، فقال : « مَا كُنْتُ لأَسْتَعْمِلَكَ عَلَىٰ غُسَالَةِ ذُنُوبِ ٱلنَّاسِ »[4] ،

وحديث : « مَنْ آذَىٰ ٱلْعَبَّاسَ . فَقَدْ آذَانِي ، فَإِنَّمَا عَمُّ ٱلرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ »[5] .

وحديث : « أَوْصَانِي ٱللهُ بِذِي ٱلْقُرْبَىٰ ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَبْدَأَ بِٱلْعَبَّاسِ بنِ عَبْدِ

---

(١) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٤/ ١٢) .
(٢) أخرجه البخاري (١٠١٠) .
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٢٩) .
(٤) أخرجه ابن خزيمة (٢٣٩٠) ، والحاكم (٣/ ٣٣٢) ، والبزار (٨٩٥) .
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٦٥) .

ٱلْمُطَّلِبِ »[1] وأخرج الدارقطني في « الأفراد » : « لَيَكُونَنَّ فِي وَلَدِ ٱلْعَبَّاسِ مُلُوكٌ يَلُونَ أَمْرَ أُمَّتِي يُعِزُّ اللهُ بِهِمُ ٱلدِّينَ » .

وابن عساكر : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لَهُ ذَنْبَهُ ، وَتَقَبَّلْ مِنْهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلَ ، وَتَجَاوَزْ عَنْهُ سَيِّءَ مَا عَمِلَ ، وَأَصْلِحْ لَهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ »[2] ، « لاَ تُؤْذُوا ٱلْعَبَّاسَ فَتُؤْذُونِي ، مَنْ سَبَّ ٱلْعَبَّاسَ . . فَقَدْ سَبَّنِي »[3] .

وفي حديث ضعيف ـ وقال ابن الجوزي : موضوع ـ : « ٱلْعَبَّاسُ وَصِيِّي وَوَارِثِي »[4] .

وأخرج الرافعي : « أَلاَ أُبَشِّرُكَ يَا عَمِّ ؟ إِنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِك ٱلأَصْفِيَاءَ ، وَمِنْ عِتْرَتِكَ ٱلْخُلَفَاءَ ، وَمِنْكَ ٱلْمَهْدِيَّ فِي آخِرِ ٱلزَّمَانِ ، بِهِ يَنْشُرُ ٱللهُ ٱلْهُدَىٰ ، وَبِهِ تُطْفَأُ نِيرَانُ ٱلضَّلاَلَةِ ، إِنَّ ٱللهَ فَتَحَ بِنَا هَـٰذَا ٱلأَمْرَ ، وَبِذُرِّيَّتِكَ يُخْتَمُ » .

وأبو نعيم في « الحلية » : « أَلاَ أُبَشِّرُكَ يَا أَبَا ٱلْفَضْلِ ؟ إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ ٱفْتَتَحَ بِي هَـٰذَا ٱلأَمْرَ ، وَبِذُرِّيَّتِكَ يُخْتَمُ »[5] .

وكون المهدي من ولده يحمل علىٰ أن فيه شعبة منه ؛ لما صح : أنه من ولد فاطمة[6] ، وصح : أنه من ولد الحسن ، وجاء : أنه من ولد الحسين ، ولا تعارض ؛ لأن فيه شعبة من ولد الحسين ، فهو حسيني ، وفيه شعبة من الحسن ، وشعبة من العباس .

والترمذي ـ وقال : حسن غريب ـ : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِلْعَبَّاسِ وَوَلَدِهِ مَغْفِرَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً لاَ تُغَادِرُ ذَنْباً ، ٱللَّهُمَّ ؛ ٱخْلُفْهُ فِي وَلَدِهِ »[7] .

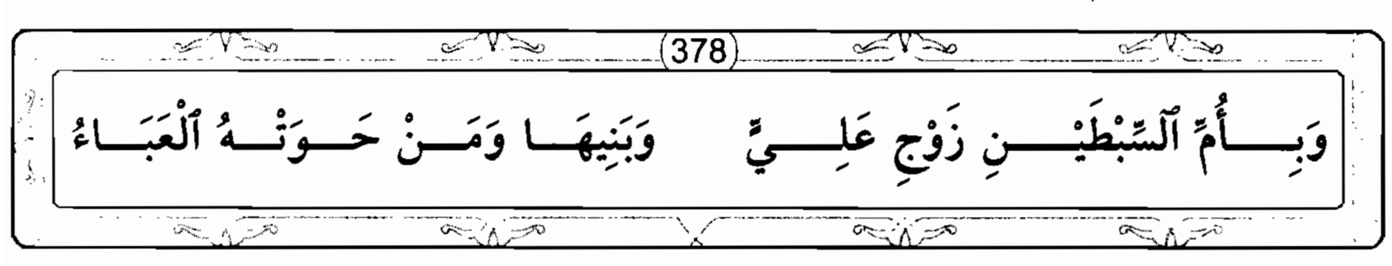
---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٣٤) .
(٢) تاريخ دمشق (٢٦/ ٣١٨) .
(٣) تاريخ دمشق (٢٦/ ٣١٦) .
(٤) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ١٣٨) ، وانظر « الموضوعات » (١/ ٣٤٠) .
(٥) حلية الأولياء (١/ ٣١٥) .
(٦) أخرجه أبو داوود (٤٢٨٣) ، وابن ماجه (٤٠٨٦) .
(٧) الترمذي (٣٧٦٢) .

والخطيب وابن عساكر : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِلْعَبَّاسِ وَوَلَدِ ٱلْعَبَّاسِ ، وَلِمَنْ أَحَبَّهُمْ »[١] .

وابن عساكر : « ٱللَّهُمَّ ؛ ٱغْفِرْ لِلْعَبَّاسِ مَا أَسَرَّ وَمَا أَعْلَنَ ، وَمَا أَبْدَىٰ وَمَا أَخْفَىٰ ، وَمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ مِنْهُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ »[٢] .

والخطيب : « يَا عَبَّاسُ ؛ أَنْتَ عَمِّي وَصِنْوُ أَبِي ، وَخَيْرُ مَنْ أُخَلِّفُ بَعْدِي مِنْ أَهْلِي ، إِذَا كَانَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَمِئَةٍ . . فَهِيَ لَكَ وَلِوَلَدِكَ ، مِنْهُمُ ٱلسَّفَّاحُ ، وَمِنْهُمُ ٱلْمَنْصُورُ ، وَمِنْهُمُ ٱلْمَهْدِيُّ »[٣] .



(وَ) أقسم عليك (بأم السبطين) الحسن والحسين فاطمة ، وهي أصغر بناته صلى الله عليه وسلم (زوج) جرَّده عن (التاء) لأنه الأفصح (علي) زوجها له النبي صلى الله عليه وسلم ثاني سني الهجرة بوحي من الله تعالىٰ بذلك كما ورد[٤] ، وبنىٰ بها بعد تزوجها بسبعة أشهر ونصف في ذي الحجة علىٰ رأس اثنين وعشرين شهراً ، وكان سنها حينئذ خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف ، وقيل : نحو عشرين سنة ، وسن علي إحدىٰ وعشرين سنة وأشهر .

وقال ابن عبد البر : هي وأم كلثوم أفضل بناته .

وكانت فاطمة أحب أهله إليه ، وكان يقبلها في فيها ، ويُمِصُّها لسانَه ، وإذا أراد سفراً . . يكون آخر عهده بها ، وإذا قدم . . أول ما يدخل عليها[٥] ، وتوفيت بعده

---

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ٤١) ، وتاريخ دمشق (٢٦/ ٣٢٠) .
(٢) تاريخ دمشق (٢٦/ ٣٢١) .
(٣) تاريخ بغداد (١/ ٨٤) .
(٤) أخرجه الطبراني (٢٢/ ٤٠٧) .
(٥) أخرجه أبو داوود (٤٢١٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١/ ٢٦) ، وأحمد (٥/ ٢٧٤) .

صلى الله عليه وسلم في رمضان سنة إحدىٰ عشرة ، فبينهما نحو ستة أشهر ، وسنها تسع وعشرون سنة ؛ أي : على القول الثاني ، وقد أسر إليها النبي صلى الله عليه وسلم : أنها أول أهل بيته لحوقاً به ، فسُرَّت بذلك ، ودفنها علي ليلاً بوصية منها ، واختلف في محل دفنها ، والأشهر : أنها في قبة ولدها الحسن قرب محرابها ، وكان القطب أبو العباس المرسي رحمه الله تعالىٰ يجزم بهـٰذا ، قيل : فلعله كوشف به .

وروىٰ أحمد في « المناقب » والدولابي : أنها اغتسلت ولبست ثياباً جدداً ، واضطجعت وقالت : أنا مقبوضة الآن ، فلا يغسلني أحد ولا يكفني ، فماتت ، فامتثل علي وصيتها ، لـٰكن يعارضه : أنها أمرت فاطمة بنت عميس أن تغسلها[1] ، وهـٰذه مقدمة ؛ لأن الأصل عدم الخصوصية .

(وبنيها) يعني : أولادها ؛ الحسن ، والحسين ، ومُحَسِّناً ـ وهـٰذا مات صغيراً ـ وأم كلثوم ، وزينب ، وأولادهم إلىٰ قيام الساعة ، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم عقب إلا منها ، فانتشر نسله من جهة السبطين فقط ، وأم كلثوم ولدت لعمر ذكراً وأنثىٰ ، وماتا صغيرين ، ثم بعد عمر تزوجت بعون بن جعفر ، ثم بعد موته بأخيه محمد ، ثم بأخيه عبد الله ، ولم تعقب منهم شيئاً ، ثم تزوج الأخير بأختها زينب ، فولدت له عدة ، منهم علي وأم كلثوم ، وانتشر نسلهما ، ولهم شرف أعلىٰ من شرف أولاد عبد الله من غير زينب ، وأدون من شرف أولاد الحسنين ؛ لمزيتهما بما ورد فيهما ، وللعباسيين والطالبيين شرف أيضاً ، ومن ثم لقب بالشرف كل عباسي ببغداد ، وعلوي بمصر ، ولجعفر الصادق ولد اسمه إسحاق ، وتزوج السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن بن علي كرم الله وجهه ، وله منها ولدان ولم يعقبا .

(ومن حوته العباء) وهم : النبي صلى الله عليه وسلم ، وفاطمة ، وعلي ، وابناهما ، ومر لبعض هـٰؤلاء فضائل كعلي وابنيه رضي الله تعالىٰ عنهم .

ومن فضائل فاطمة ما صح عن أبيها القائل تعالىٰ في حقه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ : « إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي ، يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا ، وَيُنْصِبُنِي مَا أَنْصَبَهَا »[2] ، « أَحَبُّ أَهْلِي

---

(١) أخرجه الشافعي في « مسنده » (١٢٣٢) .
(٢) أخرجه الضياء في « المختارة » (٢٧٤) ، وأحمد (٤/ ٥) .



إِلَيَّ فَاطِمَةُ »[1] ، « إِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ . . نَادَىٰ مُنَادٍ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُبِ : يَا أَهْلَ ٱلْجَمْعِ ؛ غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ حَتَّىٰ تَمُرَّ »[2] ، « إِنَّ فَاطِمَةَ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَحَرَّمَهَا ٱللهُ وَذُرِّيَّتَهَا عَلَىٰ ٱلنَّارِ »[3] ، « فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي ، يُغْضِبُنِي مَا يُغْضِبُهَا ، وَيَبْسُطُنِي مَا يَبْسُطُهَا ، وَإِنَّ ٱلأَنْسَابَ تَنْقَطِعُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ غَيْرَ نَسَبِي وَسَبَبِي وَصِهْرِي »[4] ، « فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ إِلاَّ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ »[5] ، « أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ؟ » قالت فاطمة : رضيت[6] ، « نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَٱسْتَأْذَنَ ٱللهَ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ ، فَبَشَّرَنِي : أَنَّ فَاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ »[7] ، « يَا فَاطِمَةُ ؛ أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ ؟ وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ وَسَيِّدَةَ نِسَاءِ هَـٰذِهِ ٱلأُمَّةِ ؟ »[8] .

وخبر : « أتاني جبريل بسفرجلة من الجنة فأكلتها ليلة أسري بي ، فعلقت خديجة بفاطمة ، فكنت إذا اشتقت إلىٰ رائحة الجنة . . شممت رقبة فاطمة » قال الأئمة رداً علىٰ تصحيح الحاكم له : إنه كذب موضوع جلي الوضع ؛ لأن فاطمة ولدت قبل النبوة ، فضلاً عن الإسراء[9] .

وصح : أنه صلى الله عليه وسلم جعل علىٰ علي وفاطمة وابنيهما كساء وقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ هَؤُلاَءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي ، أَذْهِبْ عَنْهُمُ ٱلرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً » فقالت أم سلمة : وأنا منهم ؟ فقال : « إِنَّكِ عَلَىٰ خَيْرٍ » وفي رواية : ألقىٰ عليهم كساء ، ووضع

---

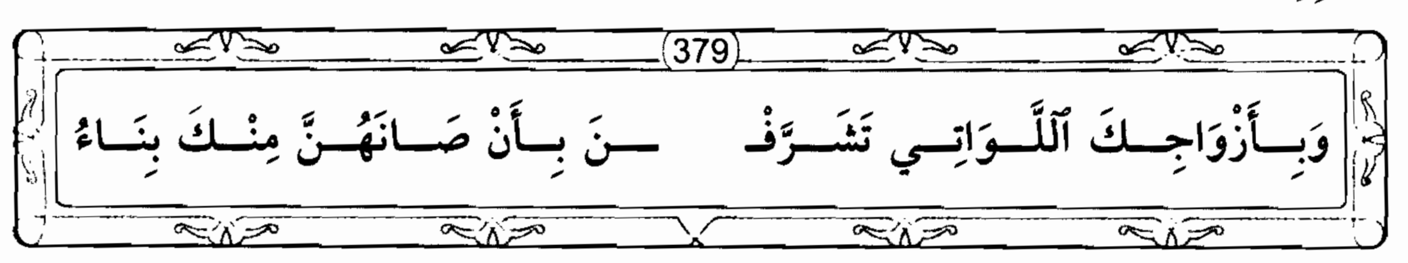
(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١٧) ، والبزار (٢٦٢٠) .
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥٣) .
(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥٢) .
(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥٨) .
(٥) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥٤) ، وأحمد (٣/ ٨٠) .
(٦) أخرجه البخاري (٣٦٢٤) ، ومسلم (٢٤٥٠/ ٩٨) بدون لفظ : (قالت فاطمة : رضيت) .
(٧) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥١) .
(٨) أخرجه الحاكم (٣/ ١٥٦) .
(٩) انظر « المستدرك » (٣/ ١٥٦) ففيه بعد ذكر هـٰذا الحديث : (هذا حديث غريب الإسناد والمتن ، وشهاب بن حرب مجهول ، والباقون من رواته ثقاتٌ) ، وانظر « التلخيص » بهامش « المستدرك » و« ميزان الاعتدال » (٢/ ٤١٦) .

يده عليهم وقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ إِنَّ هَؤُلَاءِ آلُ مُحَمَّدٍ ، فَٱجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » وفي أخرىٰ : إن الآية ـ أي : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ـ أنزلت ببيت أم سلمة ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إليهم ، وجللهم بكساء ، ثم قال نحو ما مر ، وفي أخرىٰ : أنهم جاؤوا واجتمعوا ، فنزلت ، فإن صحتا . . فهي نزلت مرتين ، وفي أخرىٰ : أن أم سلمة قالت له : ألست من أهلك ؟ قال : « بَلَى » وأنه أدخلها الكساء بعدما قضىٰ دعاءه لهم ، وفي أخرىٰ صحيحة : أنها قالت : يا رسول الله ؛ أنا من أهل البيت ؟ قال : « بَلَىٰ إِنْ شَاءَ ٱللهُ » وفي أخرىٰ : أن واثلة قال : لما سمعته صلى الله عليه وسلم يصلي عليهم وهم تحت الكساء . . وعليَّ يا رسول الله ، فقال : « ٱللَّهُمَّ ؛ وعَلَىٰ وَاثِلَةَ » وفي أخرىٰ صحيحة : قال واثلة : وأنا من أهلك ؟ قال : « وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِي » قال واثلة : وإنها لمن أرجىٰ ما أرجو .

قال البيهقي : وكأنه جعله في حكم الأهل تشبيهاً بمن يستحق هـٰذا الاسم لا تحقيقاً .

وأشار المحب الطبري : إلىٰ أن التجليل بالكساء لمن ذكر تكرر منه صلى الله عليه وسلم في بيت أم سلمة ، وفي بيت فاطمة ، وغيرهما ، وبه يجمع بين اختلاف الروايات في هيئة اجتماعهم ، وما جللهم به ، وما دعا به لهم ، وما أجاب به واثلة وأم سلمة .

وفي أخرىٰ سندها حسن : أنه اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم قال : « يَا رَبِّ ؛ هَـٰذَا عَمِّي وَصِنْوُ أَبِي ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَٱسْتُرْهُمْ مِنَ ٱلنَّارِ كَسَتْرِي إِيَّاهُمْ بِمُلَاءَتِي هَـٰذِهِ » فأمنت أُسْكُفَّة الباب وحوائط البيت ؛ فقالت : آمين ، ثلاثاً .



(و) أقسم عليك (بأزواجك اللواتي تشرفن بأن صانهن) عن النار والنقائص ؛ لما صح عنه صلى الله عليه وسلم : أن الله تعالىٰ لم يزوجه إلا من ستكون معه في الجنة (منك) حال من قوله : (بناء) أي : دخول ، وظاهر كلامه : أن من تزوجها ولم

يدخل بها . . لا يحصل لها ذلك الشرف ، وينبغي تخريجه علىٰ حرمتها علىٰ غيره .

فإن قلنا : تحرم ـ وهو الأصح ـ . . حصل لها الشرف ، أو تحل . . لم يحصل لها .

وهن إحدىٰ عشرة متفق عليهن : ست قرشيات ، وأربع عربيات ، وإسرائيلية .

أولهن خديجة ، تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد زوجين ولدت لكل منهما ، ولها يوم تزوجها أربعون سنة وأشهر ، وله خمس وعشرون سنة عند الأكثرين ، وكانت عرضت نفسها عليه كما مرَّ ، وهي أول من آمن به من النساء .

وفي « الصحيحين » : أن جبريل قال : يا محمد ؛ هـٰذه خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام ـ أو إدام أو شراب ـ فإذا هي أتتك . . فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب ـ أي : لؤلؤ مجوف ـ لا صخب فيه ولا نصب[1] .

وأولاده صلى الله عليه وسلم كلهم منها إلا إبراهيم ، واختلف في عدتهم ، وجملة ما اتفق عليه منهم ستة : القاسم ، ولد قبل النبوة ، وبه يكنَّىٰ ، ومات بعد نحو سنتين علىٰ خلاف فيه ، وأربع بنات : زينب ، وهي أكبرهن ، وماتت سنة ثمان من الهجرة عند زوجها ابن خالتها أبي العاصي بن الربيع ، وولدت منه علياً ، كان رديفه صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، ومات قبل الاحتلام ، وأمامةَ التي حملها في صلاته ، تزوجها علي بعد فاطمة رضي الله عنها .

ثم رقية ، توفيت وهو صلى الله عليه وسلم ببدر ، ولما عزي بها . . قال « ٱلْحَمْدُ للهِ ، دَفْنُ ٱلْبَنَاتِ مِنَ ٱلْمَكْرُمَاتِ » خرجه الدولابي .

ثم أم كلثوم ، توفيت سنة تسع من الهجرة ، تزوجها عثمان بعد ابني أبي لهب .

ثم فاطمة الزهراء البتول ، قال ابن عبد البر : (ولدت سنة إحدىٰ وأربعين من مولده صلى الله عليه وسلم)[2] والذي رواه ابن إسحاق : أنها ولدت قبل النبوة ، زاد ابن الجوزي : قبلها بخمس سنين[3] .

---

(١) البخاري (٣٨٢١) ، ومسلم (٢٤٣٢) .
(٢) الإستيعاب (٤/ ٣٦٢) .
(٣) صفة الصفوة (١/ ٦٦) .

وسميت فاطمة ، والزهراء ؛ لما مر ، وبتولاً ؛ لأن الله قطعها عن النساء حسباً وفضلاً ، أو لانقطاعها إلى الله .

واختلف في أنه صلى الله عليه وسلم : هل له ولد غير أولـٰئك الستة ؟ فقيل : الطيب والطاهر وعبد الله ، وقيل : الأولان لقبان للثالث ، ومات صغيراً ، وهو الأصح ، وقيل : عبد مناف ، وقيل : المطهر .

وأما إبراهيم . . فمن سريته مارية القبطية ، ولد في ذي الحجة سنة ثمان ، وسماه إبراهيم باسم أبيه قبل السابع ، أو فيه ، روايتان ، وجمع : بأنها وقعت قبله مخفية وأظهرت فيه[1] ، وكان صلى الله عليه وسلم يذهب إليه وهو في العوالي عند ظئره الحداد ، فيأخذه ويقبله ثم يرجع ، ثم توفي وله سبعون يوماً ، وقيل : سنة وعشرة أشهر ، وقيل : غير ذلك ، وفي رواية : أنه لم يصل عليه ـ أي : بنفسه ـ بل أمرهم فصلوا عليه .

وفي حديث : « لَوْ بَقِيَ . . لَكَانَ نَبِيّاً ، لَـٰكِنَّهُ لَمْ يَبْقَ ؛ لأَنَّ نَبِيَّكُمْ آخِرُ ٱلأَنْبِيَاءِ »[2] لـٰكن بالغ النووي في تزييفه وبطلانه[3] ، ورد بأنه وارد من طرق ، ولا إشكال فيه ؛ لأن القضية الشرطية لا تستلزم الوقوع ، بل ولا الإمكان .

توفيت خديجة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين ، ودفنت بالحَجون عن خمس وستين سنة .

ثم تزوج سودة بنت زمعة بعد موت ابن عمها رضي الله تعالىٰ عنهما أخي سهيل بن عمرو بمكة لما أن رجعا من الحبشة بعد عقده علىٰ عائشة ، ودخل بها قبل عائشة علىٰ ما جمع به بين الخلاف في ذلك ، وأراد طلاقها لما أسنت ، فوهبت نوبتها لعائشة فأمسكها ، توفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين .

ثم عائشة بمكة في شوال سنة عشر من النبوة ، ودخل بها في المدينة في شوال علىٰ

---

(١) أي : أن التسمية وقعت قبل اليوم السابع من ولادته ، ولـٰكنها كانت مخفية ، ثم أظهرت في اليوم السابع .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣/ ١٣٤) .

(٣) انظر « تهذيب الأسماء واللغات » (١/ ١٠٣) .

رأس ثمانية عشر شهراً وهي بنت تسع سنين ، ولم يتزوج بكراً غيرها ، وأحبها صلى الله عليه وسلم أكثر من بقية نسائه ، ولما فقدها في بعض أسفاره.. قال : « وَاعَرُوسَاهُ » خرجه أحمد(١) .

وكانت فقيهة عالمة حافظة فصيحة ، ماتت بالمدينة سنة سبع وخمسين ، وكناها صلى الله عليه وسلم أم عبد الله بابن أختها عبد الله بن الزبير ، لا بسقط أسقطته منه صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ذلك لم يثبت .

وهي وخديجة أفضل أمهات المؤمنين ، ثم الأصح : أن خديجة أفضل ؛ لما صح : أن عائشة لما قالت له : قد رزقك الله خيراً منها.. قال : « لاَ ، وَاللهِ مَا رَزَقَنِي ٱللهُ خَيْراً مِنْهَا ، آمَنَتْ بِي حِينَ كَذَّبَنِي ٱلنَّاسُ ، وَأَعْطَتْنِي مَالَهَا حِينَ حَرَمَنِي ٱلنَّاسُ »(٢) ولأنه صلى الله عليه وسلم أقرأ عائشة السلام من جبريل(٣) ، وخديجة السلام من الله تعالىٰ(٤) .

والأصح أيضاً : أن فاطمة أفضل من خديجة ؛ لما فيها من البَضعة الكريمة التي لا يعادلها شيء ، والخبر المقتضي لخيرية خديجة أجيب عنه بأنه من حيث الأمومة لا السيادة ، وممن جرىٰ علىٰ ذلك الإمام المجتهد التقي السبكي ، فقال : (والذي نختاره وندين الله به : أن فاطمة أفضل ، ثم خديجة ، ثم عائشة) واختار أيضاً : أن مريم أفضل من خديجة ؛ للاختلاف في نبوتها .

ثم حفصة بنت عمر ، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة بعد ما رجعت من هجرة الحبشة وموت زوجها بعد غزوة بدر ، وطلقها صلى الله عليه وسلم ، فأوحى الله إليه : أن راجعها ؛ فإنها صوامة قوامة ، وأنها زوجتك في الجنة(٥) ، توفيت سنة خمس وأربعين .

---

(١) المسند (٦/٢٤٨) .

(٢) أخرجه أحمد (٦/١١٧) ، والطبراني في « الكبير » (٢٣/١٣) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٦٨) ، ومسلم (٢٤٤٧) .

(٤) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٣/١٥) .

(٥) أخرجه الضياء في « المختارة » (٢٥٠٧) ، والحاكم (٤/١٥) ، والبزار (١٤٠١) .

ثم أم سلمة هند بعد موت أبي سلمة سنة أربع ، وكانت من أكمل النساء ، ماتت سنة تسع وخمسين ، ودفنت بالبقيع .

ثم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش بالحبشة مرتداً سنة ست ، زوجها النجاشي لعمرو بن أمية الضمري وكيله صلى الله عليه وسلم ، وأصدقها عنه أربع مئة دينار ، وبعث بها إليه صلى الله عليه وسلم ، فدخل بها سنة سبع ، ماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين .

وتزوج زينب بنت جحش بعد زيد ، زوجه الله تعالىٰ إياها ، فدخل عليها بغير عقد كما دلت عليه الآية ، وكانت تفخر بذلك علىٰ أمهات المؤمنين ، سنة خمس ، وقيل : ثلاث ، وهي أول من مات منهن بعده .

وصح عن عائشة : لم تكن امرأة خيراً منها في الدين ، ولا أتقىٰ لله ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم ، وأوسع صدقة ، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله تعالىٰ ؛ أي : وهو الدبغ ، رواه مسلم[1] .

ماتت بالمدينة سنة عشرين .

وتزوج زينب بنت خزيمة الهلالية ـ وكانت تسمىٰ في الجاهلية أم المساكين ؛ لإطعامها إياهم ـ سنة ثلاث ، ثم ماتت بعد ثلاثة أشهر .

وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية سنة سبع بعد خيبر بسَرِف ، وبنىٰ بها فيه ، وكان حلالاً ، ورواية : (محرماً) معناها : أنه في الحرم ، علىٰ أن من خصائصه صلى الله عليه وسلم : أن له أن ينكح وهو محرم .

وماتت فيه سنة إحدىٰ وخمسين ، وقبرها به مشهور ، يزار ويتبرك به .

وتزوج جويرية بنت الحارث الخزاعية ، وكانت وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري ، فكاتبها ، فجاءت تسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرفته بنفسها ، فقال : « هَلْ لَكِ إِلَىٰ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْ ذَلِكِ ؟ أُؤَدِّي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ » قالت : نعم ، فسمع الناس بذلك ، فأعتقوا ما في أيديهم من قومها ،

---

(١) رقم الحديث (٢٤٤٢) .

وقالوا : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت عائشة : فما رأينا امرأة كانت أعظم علىٰ قومها بركة منها ، أعتق في سببها مئة أهل بيت من بني المصطلق ، خرجه أبو داوود[(١)] .

وعن ابن شهاب : أنه اختارها من السبي ، فحجبها وقسم لها ، وكانت بنت عشرين سنة ، توفيت سنة خمسين .

وتزوج صفية بنت حيي من نسل هارون علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهي من سبي خيبر ، أذن صلى الله عليه وسلم لدحية فيٰ أخذ جارية ، فأخذها ، فقيل : أعطيته سيدة قريظة والنضير ؟ لا تصلح إلا لك ، فخشي عليهم الفتنة ، فأعطاه غيرها ، ثم أعتقها وتزوجها ، وبنىٰ بها وهو راجع إلى المدينة[(٢)] ، وفي رواية : أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : « هَلْ لَكِ فِيَّ ؟ » قالت : يا رسول الله ؛ إني كنت أتمنىٰ ذلك في الشرك .

وكان بعينها خضرة ، فسألها عنها ، فقالت : إنها كانت نائمة ورأس زوجها ـ ملكهم ـ في حجرها ، فرأت قمراً وقع في حجرها ، فأخبرته ، فلطمها وقال : تتمنين ملك يثرب[(٣)] ؟!

ماتت في رمضان سنة خمسين ، ودفنت بالبقيع .

فهٰؤلاء نساؤه صلى الله عليه وسلم المجمع عليهن ، واختلفوا في ثنتي عشرة امرأة ، فبعضهن : الأصح فيه : أنه طلق قبل الدخول ، وبعضهن : الأصح فيه : أنه لم يتزوجه ، ومحل بسط ذلك كتب السير .

(380)

أَلْأَمَـــانَ ٱلْأَمَـــانَ إِنَّ فُـــؤَادِي ... مِـــنْ ذُنُـــوبٍ أَتَيْتُهُـــنَّ هَـــوَاءُ

(الأمان) أي : أقسم عليك بهٰؤلاء المذكورين وما منحتهم به ، أن تنيلني من

---

(١) السنن (٣٩٢٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٧١) ، ومسلم (١٣٦٥/ ٨٤) في النكاح .

(٣) أخرجه ابن حبان (٥١٩٩) .

حضرتك بواسطة شفاعتك فيَّ إلىٰ من لا يخيب شفاعتك ، وأن تؤتيني الأمان (الأمان) تأكيد ؛ أي : من عقاب ما اقترفته من الذنوب ، وقطيعة ما جمعته من العيوب (إن) بالفتح تعليلاً ، والكسر استئنافاً ، وفيه إيماء إلى العلة أيضاً (فؤادي من) أجل (ذنوب أتيتهن هواء) أي : خال عن فهم ما ينفعني في ديني ودنياي ؛ لفرط الحياء والخجل من الله ، والدهشة من خوف عقابه وسخطه ، وفي نسخة : (هباء) أي : لا وجود له ، فيرجع لمعنى الأول ، ومما يعطفك علي حتىٰ يزيد اعتناؤك بي وإمدادك لي : أني

(381)

قَـدْ تَمَسَّكْـتُ مِـنْ وِدَادِكَ بِـٱلْحَبْـ ـلِ ٱلَّذِي ٱسْتَمْسَكَتْ بِهِ ٱلشُّفَعَاءُ

(قد تمسكت) أي : توثقت واعتصمت (من ودادك) أي : محبتي لك ، وكون المحبة تستلزم الاتباع إنما هو أغلبي ، كما يدل عليه حديث : يا رسول الله ؛ المرء يحب القوم ولما يعمل بعملهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ٱلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »[1] أو أن المستلزم لذلك هو كمالها ، وأن ذلك من الناظم من هضم النفس ، بتقدير ما لم يقع واقعاً ، كما هو شأن الخوف المراعىٰ مطلقاً ، أو في بعض الأحوال (بالحبل) أي : السبب الأقوىٰ ، وهو العهد الوارد عنك في الأحاديث الصحيحة : أن المرء مع من أحب وإن لم يعمل بعملهم .

(الذي استمسكت به الشفعاء) من الأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصلحاء ، فلم يحصل لهم مرتبة الشفاعة إلا بواسطة محبتهم لك ، وإذا أورثتهم محبتك مرتبة قبول شفاعتهم في الأغيار . . أورثتني وقوع شفاعتك فيَّ ، بجامع أني أحبك كما يحبونك وإن اختلف مقدار المحبة في الطرفين .

واعلم : أن العلماء والعارفين اختلفت عباراتهم في المحبة وكثرت ، ولـٰكن ليس اختلافاً في حقيقتها ، بل في أحوالها وثمراتها ؛ إذ حقيقتها من المعلومات التي لا تحد ، كما أطبق عليه المحققون ، وإنما يعرفها من قامت به وجداناً لا يمكن التعبير

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٩) ، ومسلم (٢٦٤٠) .

عنه ، ومن ثم قال صاحب « مدارج السالكين » كغيره : هي لا تحد بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً وجفاءً ، وإنما تكلم الناس في أسبابها وموجباتها ، وعلاماتها وشواهدها ، وثمراتها وأحكامها ، فحدودهم ورسومهم دارت علىٰ هـٰذه الشريطة ، وتنوعت بهم العبارات ، وكثرت الإشارات بحسب الإدراك والمقام والحال ، وقد وضعوا لها حرفين مناسبين لها غاية المناسبة : (الحاء) التي هي من أقصى الحلق ، و(الباء) الشفهية التي هي نهايته ، فلـ(الحاء) الابتداء ، ولـ(الباء) الانتهاء ، وهـٰذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب ، فإن ابتداءها منه ، وانتهاءها إليه ، وأعطوا الحُب الضم الذي هو أشد الحركات وأقواها ، مطابقة لشدة حركة مسماه وقوتها ، وأعطوا الحِب ـ وهو المحبوب ـ الكسر ؛ لخفتها المطابقة لخفة المحبوب وذكره على القلب واللسان ، وهـٰذه مناسبة عجيبة بين الألفاظ والمعاني ، تُعْلِمُك بأن غير لغة العرب لا تلحقها .

واعلم أيضاً : أنه صح في الحديث : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَمَالِهِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[1] قالوا : المراد هنا حبه صلى الله عليه وسلم ؛ أي : الميل إليه اختياراً لا طبعاً ، وكل من كان ذا نفس مطمئنة . . كان حبه راجحاً ، أو أمَّارة . . كان مرجوحاً ، وفي كلام عياض : أن هـٰذا شرط لصحة الإيمان ، ورد بأنه حمل المحبة علىٰ معنى التعظيم والإجلال ، وليس مراداً هنا ؛ إذ اعتقاد الأعظمية لا يستلزم المحبة ؛ إذ قد يجد الإنسان إعظام شيء مع خلوه عن محبته ، وإنما المراد : الميل كما تقرر ، فمن لم يجد ذلك الميل . . لم يكمل إيمانه .

وفي « صحيح البخاري » : أن عمر قال : يا رسول الله ؛ أنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي التي بين جنبي ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِه » فقال عمر : والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « ٱلآنَ يَا عُمَرُ »[2] فهـٰذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط ؛ فإنه حاصل لعمر قطعاً ، وإنما وقف ؛ لأن حب الإنسان نفسَه طبعيٌّ ، وغيرَه اختياريٌّ بواسطة الأسباب ، وهـٰذا هو الذي أراده عمر ؛

---

(١) أخرجه البخاري (١٥) ، ومسلم (٤٤/ ٧٧) .
(٢) البخاري (٦٦٣٢) .

إذ لا سبيل إلىٰ قلب الطبع ، وتغيير ما جبلت عليه النفس ، فجواب عمر أولاً بحسب الطبع ، ثم تأمل فعرف بالدليل : أنه صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه ، نظراً لكونه هو الذي أنقذه من هلاك الدنيا والآخرة ، فأخبر بما اقتضاه الاختيار ، فأجابه بـ : « ٱلآنَ » أي : عرفت فنطقت بما يجب .

ومن علامة محبته صلى الله عليه وسلم : إيثار مأموره ومنهيه علىٰ جميع أغراضه ، قال القرطبي : (وكل من آمن به إيماناً صحيحاً . . لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة ، ولـٰكنهم يتفاوتون فيها تفاوتاً ظاهراً ، وكثير من العامة يؤثر رؤيته صلى الله عليه وسلم علىٰ أهله وماله وولده ، وكذا زيارته ، بل زيارة آثاره ؛ لما وقر في قلوبهم من محبته صلى الله عليه وسلم ، غير أن ذلك سريع الزوال ؛ لتوالي الغفلات والشهوات عليهم)[1] .

(382)

وَأَبَــى ٱللهُ أَنْ يَمَسَّنِــيَ ٱلسُّــو ءُ بِحَــالٍ وَلِــي إِلَيْــكَ ٱلْتِجَــاءُ

(**وأبى الله**) أي : لم يرد ، كما جرت به عادة كرمه وفضله وجوده ، ودل عليه ما تفضل به عليك بقوله عز من قائل : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ والمعلوم المستقر من أخلاقك الجميلة ، والذي دلت عليه آثارك الجليلة : أن من لجأ إليك . . لا تخيبه من شفاعتك ، ولا يحرمه ربك من فضله ، مسارعة إلىٰ رضاك ، ومن ثم أخبرتنا عنه تعالىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ يقول لك في ذلك الجمع الأكبر علىٰ رؤوس الأشهاد : « قُلْ . . يُسْمَعْ لَكَ ، وَسَلْ . . تُعْطَ ، وَٱشْفَعْ . . تُشَفَّعْ »[2] .

(**أن يمسني السوء بحال**) أي : في حال من الأحوال الدنيوية والأخروية (**و**) الحال أني (**لي إليك التجاء**) أي : استناد ؛ لمزيد محبتي لك ، وخدمتي لجنابك ، ومن هو كذلك . . حقيق بأنه لا يناله من ربه عذاب ولا سخط ، ولا حرمان ولا قطيعة ، ولأجل ذلك

---

(١) انظر « المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم » (١/ ٢٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٠) ، ومسلم (١٩٣) .

(383)

قَـدْ رَجَـوْنَـاكَ لِـلْأُمُـوْرِ ٱلَّتِـي أَبْـ ـــرَدُهَــا فِـي فُـؤَادِنَــا رَمْضَــاءُ

(قد رجوناك) معشر محبيك وخدامك أيها النبي الكريم ؛ أي : أملنا فيك (للأمور) الخطيرة العظيمة من الذنوب والمخالفات ، والغفلات والشهوات (التي أبردها) أي : أيسرها (في فؤادنا رمضاء) أي : نار تتقد من شدة خوف المؤاخذة بما كسبته قلوبنا وألسنتنا وجوارحنا .

وبين (أبردها) و(رمضاء) ، و(الفقر) و(الغنى) المطابقة .

(384)

وَأَتَيْنَــا إِلَيْــكَ أَنْضَــاءَ فَقْــرٍ حَمَلَتْنَــا إِلَــى ٱلْغِنَــىٰ أَنْضَــاءُ

(وأتينا إليك) بقلوبنا ؛ أي : وجهناها إلى الاستعاذة بك من كل مكروه ، أو إلىٰ قبرك المكرم حال كوننا (أنضاء) جمع نِضو بكسر النون ؛ أي : مهازيل (فقر) من الأعمال الصالحة ، فلكثرة ما حملناه من الذنوب . . ضعفنا عن حمله ، وهزلنا بسبب ثقله (حملتنا إلىٰ) حضرتك التي فيها (الغنى) الأكبر (أنضاء) أي : ركائب مهازيل ، أجهدها طول السير ، وشدة الإسراع بها إلى الوصول إلىٰ حضرتك العلية ؛ اغتناماً للوقوف بساحة كرمها ، والتملي بشهود إحسانها ونعمها .

(385)

وَٱنْطَوَتْ فِي ٱلصُّدُورِ حَاجَاتُ نَفْسٍ مَـا لَهَـا عَـنْ نَـدَىٰ يَـدَيْـكَ ٱنْطِـوَاءُ

(وانطوت) أي : استترت (في الصدور) أي : القلوب (حاجات نفس) أَمَّلَتْ حصولها من جنابك الكريم ، برفعها إليك إذا وصلتُ إلىٰ حضرتك ، وحظيت بحلول نظرك ، منها الإمداد من مزاياك ، والتوسل والتشفع بك إلىٰ مولاك ؛ لأنه لا وسيلة إليه أقرب منك إليه ، ولا أحد بعدك يعول الكمل ـ فضلاً عن غيرهم ـ عليه ، فحينئذ كانت تلك الحاجات (ما لها عن ندىٰ) أي : عطاء (يديك) الكريمتين (انطواء) أي :

استتار واستغناء ، بل لا يقضيها غير جاهك الواسع ، ولا يمن بها غير عطائك الهامع ، فلا ارتحال لنا عن واسع جودك ، ولا انصراف عن ساحة كرمك ، بل لا نزال مقيمين بجوارك ، مستمطرين لندىٰ آثارك ، طامعين في حصول كل ما أملناه بشفاعتك التي هي مطمع المذنبين ، ووسيلة المقصرين .

(386)

فَـأَغِثْنَـا يَـا مَـنْ هُـوَ ٱلْغَـوْثُ وَٱلْغَيْـ ـــثُ إِذَا أَجْهَـدَ ٱلْـوَرَى ٱلــلَّأْوَاءُ

(فأغثنا) بها لتقضىٰ جميع حاجاتنا ؛ لوفور جاهك ، وعظيم منزلتك عند ربك (يا من هو الغوث) للمكروبين ، والملجأ للمنقطعين ، المنقذ لهم من الشدائد (والغيث) المريع للمضطرين[١] ، المشبع للجائعين ، المجزل لهم من العوائد ، فأزل شكوانا ، وارفع لأواءنا[٢] (إذا أجهد الورى اللأواء) أي : إذا ضيق على الخلق الجدب حتىٰ أشرفوا على التلف .

(387)

وَٱلْجَـوَادُ ٱلَّـذِي بِـهِ تُفْـرَجُ ٱلْغُمَّـ ـــةُ عَنَّـا وَتُكْشَــفُ ٱلْحَـوْبَـاءُ

(والجواد) الأعظم (الذي) لم يخلق الله تعالىٰ من يصل إلىٰ مراتب جوده ، فضلاً عن أن يساويه فيه (به) أي : بسببه (تفرج الغمة عنا) معشر أمته (وتكشف الحوباء) بفتح أوله وضمه ؛ أي : الإثم ـ أي : عقابه ـ والشدة ، والحاجة ، والحالة القبيحة ، وفي نسخة : (به تفرج الكربة عنا وتكشف الغماء) وهي بمعنى الأولى ؛ لتساوي الغمة والكربة ؛ إذ هما : الكرب الذي يشتد على النفس إلىٰ أن يكاد يقتلها .

و(الغماء) و(الحوباء) في معانيها المذكورة من : غمَّ الهلال إذا ستره غيم أو نحوه ، و الخبر استعجم .

---

(١) المريع : المُخصِب .
(٢) اللأواء : الشدة والضيق والحاجة .

يَـا رَحِيمـاً بِـٱلْمُـؤْمِنِيـنَ إِذَا مَـا ذَهِلَـتْ عَـنْ أَبْنَـائِهَـا ٱلـرُّحَمَـاءُ

(يا) نداء يتضمن غاية الاستعطاف والتحنن والترحم ، وهو معطوف على النداء قبله بحذف حرف العطف ، أو مستأنف ، لـٰكنه بعيد (رحيماً) من الرحمة ، وهي : رقة القلب ، وغايتها : التفضل والإنعام ، أو إرادتهما ، ومر في : (يا سماء) أول أبيات هـٰذه القصيدة ما يتعين استحضاره هنا (بالمؤمنين) مقتبس من قوله تعالى : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ومر في شرح قوله : (رحمة كله) ما يعلمك بسعة رحمته لا سيما بالمؤمنين ، وباهر رأفته لا سيما على الضعفاء والمساكين .

والإيمان : التصديق ـ الإجمالي في الإجمالي ، والتفصيلي في التفصيلي ـ بجميع ما علم من دين محمد صلى الله عليه وسلم بالضرورة عندنا ؛ إذ لا يكفر منكر غير الضروري ، وهو : ما يستوي في معرفته الخاص والعام ، أو بالإجماع وإن لم يكن ضرورياً ؛ لأن إنكار المجمع عليه غير الضروري كفر عند غيرنا ، بل وجماعة منا ، ولا يكفي التصديق وحده ، بل لا بد معه من الإقرار بالشهادتين باللسان ، فإن تركه مع القدرة عليه . . كان كافراً مخلداً في النار ، كما نقله النووي عن أهل السنة[1] ، لـٰكن أشار الغزالي رحمه الله تعالىٰ إلىٰ ما اختاره جمع محققون غيره : أنه من أهل الجنة ، وتركه التلفظ به معصية فقط[2] ؛ لأن قلبه مملوء بالتصديق ، فكيف يخلد في النار ؟! والكلام فيمن لم يمتنع منه جحوداً وإنكاراً ، وإلا . . كان كافراً إجماعاً ، والأعمال من الإيمان عندنا كأكثر المحدثين ؛ أي : من كماله ، فالميت مؤمناً فاسقاً . . تحت المشيئة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وقالت الخوارج : إنه كافر ، والمعتزلة : إنه لا كافر ولا مؤمن ، وهو عندهما مخلد في النار ؛ لانتفاء الإيمان المتكفل بدخول الجنة .

---

(١) انظر « شرح صحيح مسلم » (١/١٤٩) .
(٢) انظر « إحياء علوم الدين » (١/١١٨) .

تنبيه مهم يتعين الإحاطة به ؛ لعظيم جدواه وعزة فحواه :

اعلم : أن (رحيماً) صيغة مبالغة ، بل ذكر غير واحد : أنه أبلغ من الرحمٰن ، وأنه يستعمل في الله وفي غيره ، لـٰكن في استعمال صيغة المبالغة فيه تعالىٰ إشكال ، ومن ثم قال بعض الأئمة : صفات الله تعالى التي علىٰ سبيل المبالغة كلها مجاز ؛ لاستحالة حقيقة المبالغة فيها ؛ لأنها إنما تثبت للشيء أكثر مما له ، وصفاته تعالىٰ متناهية الكمال ، وأيضاً فهي إنما تكون في صفة تقبل الزيادة والنقص ، وصفاته تعالىٰ منزهة عن ذلك ، واستحسن ذلك التقي السبكي وغيره ، فاستشكل : ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بأنه لما فيه من المبالغة يستلزم الزيادة علىٰ معنىٰ قادر ، وهي محال ، وأجاب الزركشي عن الأول بأن صيغة المبالغة : إما بحسب زيادة الفعل ، أو تعدد المفعولات ، وهـٰذا لا يوجب للفعل زيادة ؛ لأن الفعل الواحد قد يقع علىٰ متعدد ، وعلىٰ هـٰذا تحمل صفاته تعالىٰ عليه بلا إشكال ، ولهـٰذا قال بعضهم في (حكيم) : معنى المبالغة فيه : تكرر حكمه بالنسبة إلى الشرائع ، وفي « الكشاف » : المبالغة في الثواب ؛ أي : في نحو : وهاب وتواب ؛ للدلالة علىٰ كثرة من يتوب عليه من عباده ، أو في قبول التوبة حتىٰ نزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط ؛ لسعة كرمه ، وعبر الزركشي عن الثاني بما يؤول إلىٰ ما قاله صاحب « الكشاف » ، وهو : أن المبالغة لما تعذر حملها علىٰ كل فرد . . وجب صرفها إلىٰ مجموع الأفراد التي دل السياق عليها ، فهي بالنسبة إلىٰ كثرة المتعلق لا الوصف .

واعلم أيضاً : أن نفي المبالغة في الفعل لا يستلزم نفي أصل الفعل ، ويشكل عليه : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ وأجيب عن الأول بأن ﴿بِظَلَّـٰمٍ﴾ وإن كان للكثرة لـٰكنه جيء به في مقابلة ﴿العبيد﴾ الذي هو جمع كثرة ، ويرشحه قوله تعالى : ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ، قابل في الأول المبالغة في الجمع ، وفي الثاني صيغة اسم الفاعل الدالة علىٰ أصل الفعل بالواحد ، وبأنه نفى الظلم الكثير لينتفي القليل ضرورة ؛ لأن الظالم يقصد بظلمه الانتفاع بما يأخذه ، فإذا ترك الكثير مع زيادة نفعه . . فالقليل أولىٰ ، وبأنه بمعنىٰ ذي ظلم ، ونسب للمحققين ، وبأنه بمعنىٰ فاعل ، فلا كثرة فيه ، وبأن أقل القليل لو وقع منه تعالىٰ . . لكان كثيراً ، كما يقال : زلة العالم كبيرة ، وبأنه أراد بـ﴿لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ﴾ ليس بظالم ، تأكيداً

للنفي ، فعبر عن ذلك بـ﴿ لَيْسَ بِظَلَّامٍ ﴾ وبأنه ورد رداً علىٰ من قال : ظلام ، فلا مفهوم له ، وبأن صيغة المبالغة وغيرها في صفاته تعالىٰ سواء في الإثبات ، فجرى النفي علىٰ ذلك ، وبأنه تعريض بأن ثم ظُلاَّماً للعبيد من ولاة الجَور ، وهٰذه كلها تصلح جواباً عن الثانية ، وزيد عاشر ، وهو : مناسبة رؤوس الآي .

(إذا) ظرف لـ(رحيماً) (ما) زائدة (ذهلت) أي : غفلت (عن أبنائها الرحماء) مقتبس من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ وتقييد رحمته بالمؤمنين بهٰذا ليس لانتفائها في غيره ، بل لأنها في هٰذا اليوم أظهر وأعم ؛ لأن الله تعالىٰ يظهر له صلى الله عليه وسلم من العظمة والسؤدد والتقدم علىٰ جميع الأنبياء والمرسلين ، وتخصيصه بالشفاعة العظمىٰ في فصل القضاء ما يعلم جميع أهل ذلك الموقف أنه لا أقرب منه إلىٰ ربه ، وأن كل نسب ينقطع في ذلك اليوم إلا حسبه ونسبه .

وفي (الرحيم) و(الرحماء) رد العجز على الصدر ، وفي (الذمام) و(ذِمَاءُ) ، و(صاعدات) و(صعداء) ، و(أقتفي) و(اقتفاء) ، و(وعرة) و(عراء) ، و(يتقي) و(الاتِّقاء) ، و(ذرعاً) و(درعاء) ، و(العرج) و(العرجاء) ، و(رضا) و(الرضا) ، و(حُب) و(الحَباء) جناس الاشتقاق أو شبهه ، و(أعمال) و(مال) جناس ناقص ، و(بطان) و(بطاء) لاحق ، و(حُر) و(الحَر) محرف .

(389)

يَا شَفِيعاً فِي ٱلْمُذْنِبِينَ إِذَا أَشْـ ـفَقَ مِنْ خَوْفِ ذَنْبِهِ ٱلْبُرَآءُ

(يا شفيعاً) من الشفاعة ، وهي : السعي في إصلاح حال المشفوع فيه عند المشفوع إليه (في المذنبين) في غفران ذنوبهم ، وكشف كروبهم (إذا) ظرف لـ(شفيعاً) وفيه ما في الذي قبله (أشفق) أي : ذل ؛ إذ الشفق يطلق على المشقة ، وشأن من حصلت له المشقة : الذلة والدهشة ، وحمله علىٰ هٰذا هو الصواب ، وأما تفسير الشارح له بالخوف . . فهو وإن كان موضوعاً له أيضاً ، لٰكنه لا يناسب هٰذا ؛ لأنه لا يلائم قوله : (من) أجل (خوف) عقاب (ذنبه) عائد لـ(البرآء) المتقدم

رتبة ، وأفرده نظراً للفظ لا للمعنىٰ ، أو لكون المراد منه الجنس ، علىٰ حد قوله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ ٱلإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ ؛ أَحْنَاهُ عَلَىٰ طِفْلٍ. . . » الحديث[1] (البرآء) أي : من الكبائر ، جمع بريء بوزن قتيل ، وذكرهم لأن خوفهم من الصغائر فقط يدل علىٰ شدة ذلك اليوم ومناقشة الحساب فيه ، وأن الخوف فيه من الذنوب يعم أكثر الناس ؛ لأنهم لا يخلون عن صغيرة ، بل صغائر ، بل لا يخرج من ذلك إلا المعصومون ، ويلحق بهم المحفوظون ، ومع ذلك يعمهم الخوف أيضاً وإن لم يكن لهم ذنب ، كيف والأنبياء شعارهم في ذلك اليوم : « ٱللَّهُمَّ ؛ سَلِّمْ سَلِّمْ »[2] ؟!

(390)

جُدْ لِعَاصٍ وَمَا سِوَايَ هُوَ ٱلْعَا صِي وَلَٰكِنْ تَنَكُّرِي ٱسْتِحْيَاءُ

(جد) يا من تحلىٰ بكمال الرحمة ، ونهاية الشفاعة بجاهك الواسع ، فإنه لا أوجه منك عند ربك (لعاص) استأسرته الخطايا ، وأحاطت به المحن والبلايا ، والأصل : (لي) أو (لنا) فهو تجريد والتفات ، وآثر فيه التنكير لما يأتي ، ولم يعين ما يجود به عليه قصداً لعموم المسؤول ؛ بأن يجود عليه في ذلك اليوم بإيصاله بشفاعته له إلىٰ كل مرغوب ، وصرفه عن كل مرهوب (وما) نافية (سواي) أي : غيري (هو العاصي ولٰكن تنكري) الواقع في قولي : (لعاصٍ) (استحياء) منك أن أذكر لك نفسي بلفظ يدل عليها بخصوصها ، مواجهاً لك بالتصريح بارتكابها ما نهيتها عنه ، وحمل (الاستحياء) على التنكر مبالغة ، كرجل عدل .

فإن قلت : ذانك مصدران ، بخلاف هٰذا .

قلت : المراد : التشبيه من حيث إن حمل الخبر في كل يحتاج لتأويل ؛ لأن الحمل شرطه المساواة ، وهي غير موجودة هنا ؛ لتباين مدلوليهما ، هٰذا تقرير عبارته ، وفيه مؤاخذتان :

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٤) ، ومسلم (٢٥٢٧) .
(٢) أخرجه البخاري (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) .

إحداهما : الذي عليه الجمهور : أن ضمير الفصل إنما يفيد قصر المسند على المسند إليه ، وكذا تعريف الخبر علىٰ ما ذكره صاحب « المفتاح » ويشهد له الاستعمال ، نحو : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ أي : لا رازق سواه .

وفي « الفائق » ـ وكلام « الكشاف » يميل إليه ـ : أن تعريف الخبر قد يكون لقصر المسند إليه ، وقد يكون لقصر المسند ، بحسب المقام ، فعلى الأول : أن (هو العاصي) دال علىٰ حصر العصيان في (سواي) كزيد هو القائم ، والمستفاد من النفي الداخل على الجملة نفي ذلك الحصر ، بناء علىٰ ما هو المشهور : أن النفي يتوجه للقيد ، فإن توجه للمقيد أيضاً . . توجه الاعتراض الآتي من باب أولىٰ ، وحينئذ فمفهومه يشمل شيئين : أنه عاصٍ وحده ، وأنه عاص هو وغيره ؛ لأنك إذا قلت : ليس سوىٰ زيد هو القائم . . احتمل مفهومه : أن زيداً هو القائم وحده ، وأنه هو وغيره قائمان ، وإذا أفهم النظم ذلك . . لم يصح قوله : (ولـٰكن . . .) إلخ ؛ لأنه أثبت على احتمال العصيان لغيره معه ، وهو خلاف قصده من أنه العاصي وحده ؛ أي : ادعاءً وهضماً للنفس لا حقيقة ؛ لأن الواقع بخلاف ذلك .

ثانيتهما : أن التنكير هنا لا نسلم أنه يفيد الاستحياء ، ولئن أفاده . . فشأن السائل عدم الحياء ؛ لأن المطلوب من المحتاج أن يرفع حاجته مبيناً لنفسه حتىٰ يعرف حاله فيتعطف عليه ، فاتهامه لنفسه حينئذ غير لائق .

ولك أن تجيب عن الأولىٰ بأن من الواضح أن (سوىٰ) كـ(غير) فلا تتعرف بالإضافة إلا إذا وقعت بين ضدين ، بل قال جماعة : لا تتعرف بها مطلقاً ، وأن (أل) في (العاصي) للعهد الذهني ، فهي للجنس علىٰ حد : [من الكامل]

وَلَقَـــدْ أَمُـــرُّ عَلَـــىٰ ٱللَّئِيـــمِ يَسُبُّنِـــي

فيراعىٰ فيها التعريف تارة ، والتنكير أخرىٰ ، وحينئذ زال الحصر الموهم مفهومه ما مر ، وصار المعنى : وما سواي عاصياً ، بل أنا العاصي وحدي .

وعن الثانية : بأن السائلين علىٰ أقسام : منهم من يغلب عليه الحياء والخجل من ارتكابه ما كان سبباً لسؤاله ، فيستر نفسه حياء وخجلاً من المواجهة بالتصريح بارتكاب القبائح ، وستراً واحتشاماً من اعترافه بالنقائص والقبائح ؛ خشية من أن يظهر عليه

ما يعين سبب سؤاله ، فيكون مقتضياً لحرمانه ، والناظم رحمه الله تعالىٰ لمزيد إجلاله للنبي صلى الله عليه وسلم راعىٰ ذلك ، فنكر نفسه وذكر الوصف المقتضي لسؤاله علىٰ جهة الإبهام لا التفصيل ؛ حياء من أن يبين نفسه أو معصيتها ، فيكون ذلك سبباً لرده .

تنبيه : لا زلت أتطلب أن ما ذكره الناظم هنا من أن سبب التنكير له قد يكون للاستحياء ، هل صرح به أحد غيره ؟ حتىٰ وجدتهم صرحوا بما يقرب منه ، وهو قولهم : لكل من التنكير والتعريف مقام لا يليق بالآخر ، فمن أسباب التنكير : إرادة الوحدة ، نحو : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ أي : وحده .

أو إرادة النوع ، نحو : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ أي : نوع من الذكر ، و: ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ أي : نوع غريب من الغشاوة لا يتعارفه الناس ، بحيث غطىٰ ما لا يغطيه شيء من الغشاوات ، ومما يحتملهما : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ أي : كلَّ نوع منها من كل نوع منه ، أو كلَّ فرد من أفرادها من أفراد النطف .

إرادة التعظيم ، بمعنىٰ أنه أعظم من أن يعين أو يعرف ، نحو : ﴿ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ ، ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ .

إرادة التكثير ، نحو : ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ أي : وافراً جليلاً .

إرادة التقليل ، نحو : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : رضوان قليل منه أكبر من الجنات بأسرها .

إرادة التحقير ، بمعنى انحطاط شأنه إلىٰ حد لا يمكن أن يعرف ، نحو : ﴿ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ أي : من شيء حقير مهين ، ثم بينه بقوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ ﴾ وهٰذا المعنىٰ يقرب من الاستحياء الذي ذكره الناظم .

وهنا قاعدة يعم نفعها ، وهي : أن الاسم إذا ذكر مرتين ؛ فإن كانا معرفتين . . فالثاني عين الأول غالباً ؛ دلالة على المعهود الذي هو الأصل في (اللام) والإضافة ، نحو : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ ﴾ أو نكرتين . . فالثاني غير الأول غالباً ، وقد اجتمعا في : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ قال صلى الله عليه

وسلم : « لَنْ يَغْلِبْ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ »[1] فهو تصريح بما ذكر في القسمين ، أو الأول نكرة فقط . . فكالقسم الأول ، نحو : ﴿ رَسُولًا ۞ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ أو عكسه . . حكمت القرائن ، ونقضت هـٰذه القاعدة بآيات كثيرة ، نحو : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي : العمل ﴿ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ أي : الثواب ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ ، ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ ويرده : ما مر أنها أغلبية ، علىٰ أن بعض المحققين بين أن جميع ما أورد عليه من الآيات من جملة أفرادها ، وأنه لم يشذ عنها شيء ، لـٰكن في بعضه تكلف .

(391)

وَتَــدَارَكْــهُ بِــالْعِنَـايَـةِ مَـا دَا م لَــهُ بِــالــذِّمَــامِ مِنْــكَ ذَمَــاءُ

(وتداركه) أي : أدركه (بالعناية) منك له ؛ بأن تمده بواسع كرمك ، وتفرغ عليه سجال حلمك حتىٰ لا يأتي قط بهفوة (ما دام له بالذمام) بمعجمة ، قَسَمٌ متعلق بـ(تداركه) ، وإلا . . لزم خلوه عن معنىً يليق بالسياق ؛ أي : تداركه بحق حرمتك التي أنعم الله بها عليك ما دام له (منك ذماء) بالمعجمة ؛ أي : تعلق ، وأصله : بقية الروح في المذبوح ؛ أي : ما دام فيه أدنىٰ تعلق واستمساك بك ؛ لأنك أكرم الكرماء من الخلق ، وعادة الكريم أن من تعلق به . . نجا من كل ما يخافه من أليم العذاب ، وبُعْدِ الحجاب ، ولم لا وقد

(392)

أَخَّــرَتْــهُ الْأَعْمَــالُ وَالْمَــالُ عَمَّــا قَــدَّمَ الصَّــالِحُــونَ وَالْأَغْنِيَــاءُ

(أخرته) أي : ذلك العاصي (الأعمال) السيئة التي ارتكبها (والمال) الفاني الذي أمسكه عن صرفه في وجوه الخير ، أو جمعه من وجوه الشر حتى اشتغل به قلبه ، وطاش في جمعه لبه ، ولم يبال من أي واد جمعه ، ولا بأي وصف اكتسبه (عما قدم الصالحون) جمع صالح ، وهو : القائم بحقوق الله تعالىٰ وحقوق العباد ، وهو يشمل

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٠١٣) .

حتى الملائكة ، ومن ثم أخبر صلى الله عليه وسلم : أن المصلي إذا قال في تشهده : السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين.. أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض[1] .

وبين (أخرته) و(قدم) التطابق ، كـ(الحسنات) و(السيئات) ، و(الملح) و(الفرات) ، و(الاستقامة) و(الاعوجاج) ، و(النوم) و(اليقظة) ، و(وراء) و(أمام) ، و(الصيف) و(الشتاء) ، و(الحر) و(البرد) ، و(يومي) و(ليلتي) ، و(الرجاء) و(الخوف) ، و(الأقوياء) و(الضعفاء) الآتيات .

(والأغنياء) من الأعمال الصالحة ، والإنفاق في وجوه الخيرات ، وهـٰذا لف ونشر مرتب ؛ لأن الأول للأعمال ، والثاني للمال .

ثم اعترف بذنوبه ؛ لأن الاعتراف مظنة العفو ، قال تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ... ﴾ الآية ، متندماً عليها ؛ للحديث الصحيح : « ٱلنَّدَمُ تَوْبَةٌ »[2] فقال :

(393)

كُـلَّ يَـوْمٍ ذُنُـوبُـهُ صَـاعِـدَاتٌ   وَعَلَيْهَـا أَنْفَـاسُـهُ صُعَـدَاءُ

(كل يوم) وليلةٍ (ذنوبه صاعدات) مع ملائكة الليل والنهار الذين يرفعون أعمال العباد فيهما إلى الله تعالى ؛ إظهاراً لعظيم فضل الطائع ، وقبيح فعل العاصي (وعليها) أي : من أجلها (أنفاسه صعداء) أي : متواترة ممدودة من شدة ما يلقىٰ من كرب الندم وفرط الأسف عليها ، وسبب الوقوع في ورطتها : أنه

(394)

أَلِـفَ ٱلْبِطْنَـةَ ٱلْمُبَطِّئَـةَ ٱلسَّيْـ   ـرِ بِـدَارٍ بِهَـا ٱلْبِطَـانُ بِطَـاءُ

(ألف البطنة) بالكسر ؛ أي : ملأ بطنه من الطعام والشراب ، كذا قاله الشارح ، والذي في « القاموس » : (أنها الأشر والبطر) وقال في البطر : (إنه النشاط ،

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥) ، ومسلم (٤٠٢) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٦١٢) ، والحاكم (٤/ ٢٤٣) ، وابن ماجه (٤٢٥٢) ، وغيرهم .

والأشر ، وقلة احتمال النعمة ، والدهش ، والحيرة ، أو الطغيان بالنعمة ، وكراهية الشيء من غير أن يستحق الكراهة) اهـ وكل ذلك صحيح هنا .

وقال في البطن بوزن كتف : (إنه الأشر المتموِّل ومن همه بطنه ، والرغيب لا ينتهي من الأكل) .

(**المبطئة السير**) إلى الله تعالى ؛ أي : المعوقة عن الاجتهاد في رضاه باستفراغ الوسع في الأعمال الصالحة التي هي سبب هداية السبيل وتنزه النفس عن كل وصف دنيء ، وخلق رذيل ، ولو لم يكن من شؤم البطنة إلا ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله : « ٱلْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ ، وَٱلْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ »[١] . . لكفىٰ ، مع أنها تفسد العقل بإذهاب فطنته ، والبدن بإزالة نشاطه وقوته .

(**بدار**) وهي الدنيا (**بها**) أي : فيها (**البطان**) جمع بطين ، ككرام جمع كريم (**بطاء**) جمع بطيء علىٰ وزن الجمع قبله ، فهم متأخرون عن الفائزين ، متخلفون عن السابقين .

(395)

فَبَكَــــى ذَنْبَـــهُ بِقَسْـــوَةِ قَلْـــبٍ   نَهَــتِ ٱلــدَّمْـعَ فَــٱلْبُكَــاءُ مُكَــاءُ

(**فـ**) بسبب عصيانه (**بكىٰ ذنبه بقسوة قلب**) أي : مع شدته وغلظته المؤديين إلىٰ أن البكاء صوري لا حقيقي ، ومن ثم (**نهت**) تلك القسوة (**الدمع**) عن أن يبرز منه شيء في عين ذلك الباكي (**فـ**) بسبب هـٰذا النهي انقلب (**البكاء**) عن حقيقته ، وهو : حزن يعتري القلب ، فيحصل له من الهيبة والقلق المزعج والخوف المقلق ما يجري الدموع ، وينتج الرجوع ، وينفي الهجوع ، وصار ذلك البكاء كأنه (**مكاء**) بالتخفيف ؛ أي : كالصفير ، بجامع أن كلاً صوت يجري على اللسان ولم يتأثر به القلب .

وبين (البكاء) و(المكاء) الجناس المضارع .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٩٣) ، ومسلم (٢٠٦١) .

وَغَـدَا يَعْتِـبُ ٱلْقَضَـاءَ وَلَا عُـذْ رَ لِعَـاصٍ فِيمَـا يَسُـوقُ ٱلْقَضَـاءُ

(وغدا) أي : صار ذلك العاصي بعد ما وقع منه من المعاصي والبكاء الذي لا يفيد لمزيد قسوة قلبه (يعتب) من : عتب عليه : وجد عليه (القضاء) من : قضاه صنعه وقدره ؛ أي : يقول : لم أو كيف قدر علي هـٰذا (و) الحال أنه (لا عذر لعاص) يحتج به على الله تعالىٰ حتىٰ يسقط إثمه ، وتندفع مؤاخذته (فيما يسوق) إليه (القضاء) والقدر من المعاصي ؛ لأن الله تعالىٰ أجرىٰ عادته الإلهية في هـٰذا العالم علىٰ أسباب ومسببات تناط بتلك الأسباب ، وينسب وقوعها إليها نظراً للصورة الوجودية ، وإن كان الكل في الحقيقة إنما هو بقضائه وقدره ، كما يدل علىٰ ذلك كله قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ، ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ ، فأسند تعالىٰ إليه الرمي وإليهم القتل باعتبار الصورة الوجودية ، ونفاهما عنهم باعتبار الحقيقة الإيجادية ، إشارة إلىٰ أنه يجب علينا رعاية المقامين ، بأن نسند الأفعال إلىٰ فاعليها صورة ليمدحوا أو يذموا باعتبار جريان تلك الصور عليهم ، وإلى الله تعالىٰ حقيقة من حيث عجز العبد عن ذلك ، وانفراد الحق تبارك وتعالىٰ به .

وأن نعتقد بطلان مذهب القدرية الذين ينفون قدرة الحق ، ويثبتون قدرة العبد ، تخيلاً منهم أنهم فروا بذلك عن نسبة القبيح إلى الله تعالىٰ ، وغفلة عن أنه يلزمهم ما هو أقبح من ذلك ، وهو أن يجري في ملكه تعالىٰ ما لا يشاؤه ، علىٰ أن نسبة أفعال العباد إليه تعالىٰ لا تستلزم نسبة القبيح إليه ؛ لأن الشيء إنما هو قبيح بالنسبة لفعلنا لا لفعله تعالى ؛ لأنه يتصرف في ملكه بما يشاء ، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ .

وأن نعتقد بطلان مذهب الجبرية أيضاً ؛ لأنه يلزم عليه أن لا ثواب ولا عقاب ، ولا مدح ولا ذم ؛ لأن المجبَر المكرَه على الشيء من كل وجه لم يصدر منه فعل ينسب إليه حتىٰ يدار عليه حكم ، وقد علم من الشريعة الغراء : أن الله تعالىٰ أسند الأفعال لعباده ، ومدحهم عليها تارة وذمهم أخرىٰ ، فنتج ما قلناه من التوسط بين المذهبين ، بأن نظرنا إلى الأفعال من حيث الصورة ، وأنطنا بها أحكاماً ، ومن حيث الحقيقة ، وأنطنا بها أحكاماً ؛ لأن هـٰذا هو العدل السوي ، والطريق الواضح الجلي .

ونظير هٰذا : مذهب الرافضة والناصبية وأهل السنة ، فالرافضة سبوا الشيخين وعثمان وأكثر الصحابة ، ووالوا علياً وشيعته ، والناصبية سبوا عليّاً وشيعته ، ووالوا أولـٰئك الأكثرين ، وأهل السنة عدلوا ، فوالوا الكل ، وترضوا عنهم ، فكانوا في الجنة ، وكان كل من ذينك هنا وفيما مر في النار[1] .

فإن قلت : قوله : (ولا عذر . . .) إلخ ينافيه احتجاج آدم بالقضاء والقدر في قصته المشهورة مع موسىٰ علىٰ نبينا وعليهما السلام لما قال له موسى : أنت أبونا آدم الذي أخرجتنا من الجنة بخطيئتك ؟ أي : بالنسبة لمقامك ، وإلا . . فهي ليست بخطيئة حقيقة ؛ لأنه نسي كما في الآية ، وأيضاً فلعموم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقال له : بكم تجد في التوراة قدر علي ذلك قبل أن أخلق ؟ قال : بأربعين سنة ، فقال : أتلومني علىٰ ذنب قدره الله علي قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ قال نبينا صلى الله عليه وسلم : « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ »[2] .

وكذلك احتج عمر علىٰ أبي عبيدة بالقدر لما ذهب إلى الشام ، فرأىٰ فيها طاعوناً ، فأراد الرجوع ، فقال له أبو عبيدة : أفراراً من قدر الله تعالىٰ يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ـ أي : لأوجعته ضرباً ـ نعم ، نفر من قدر الله إلىٰ قدر الله[3] .

قلت : لا ينافيه ، أما الأول . . فلأن الاحتجاج بالقدر إن كان قبل الوقوع في الذنب ؛ ليكون وسيلة للوقوع فيه . . لم يجز ، وإن كان بعد الوقوع فيه وقبل أن يستوفي منه ما وجب به ؛ ليمنع بذلك مؤاخذته به . . لم يجز أيضاً ، وإن كان لا ليمنع ذلك ، بل ليمنع تعييره به . . ساغ له ذلك ، كما صرح به قوله صلى الله عليه وسلم : « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى » .

وأما الثاني : فالواقع من عمر ليس من الاحتجاج بالقدر في ذلك ، وإنما هو بيان

---

(١) أشار الشارح رحمه الله بقوله : (هنا) إلى الرافضة والناصبية ، وبقوله : (وفيما مر) إلى القدرية والجبرية الذين تكلم عنهم آنفاً .

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ، ومسلم (١٥/٢٦٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٩) ، ومسلم (٢٢١٩) .

لأسرار ما جاءت به الشريعة المطهرة ؛ لأن الشارع نهىٰ عن دخول بلد الطاعون ، مع أنه إن قدر موته بذلك الطاعون . . لم ينفعه عدم الدخول ، وإلا . . لم يضره ذلك الدخول ، فبين عمر رضي الله تعالىٰ عنه : أن المسببات منوطة بأسبابها من غير نظر في عواقبها ، وأن الله تعالىٰ كما قدر علىٰ أناس الموت بالطاعون . . قدر علىٰ آخرين عدم الموت به ، فالامتناع من الدخول فرار من القدر إلىٰ قدر آخر ، والدخول تجاسر علىٰ ما لعله يكون فتنة للداخل ، فإنه لو وقع به . . ربما نسب موته إلىٰ فعله ، فحرم عليه خشيةَ الفتنة .

فإن قلت : والممتنع من الدخول إذا سلم . . ربما نسب السلامة إلىٰ فعله أيضاً .

قلت : هـٰذا أخف ؛ لأن الأول إلقاء باليد إلى التهلكة ، وهو منهي عنه في الكتاب والسنة ، والثاني بمنزلة التداوي والفرار من المهلك ، وهـٰذا محمود في الكتاب والسنة .

فإن قلت : لم جاز الفرار قبل الدخول لا بعده مع استوائهما في المعنى المعلل به فيما مر ؟

قلت : لا مساواة بينهما ؛ لأنا لو جوزنا الفرار لأهل البلد . . لخرجوا وتركوا المرضىٰ من غير حافظ ولا متعهد ، وذلك يؤدي إلىٰ هلاكهم غالباً ، فاقتضت المصلحة العامة منع الناس من الخروج ، وأما من لم يدخلها . . فلا يترتب علىٰ عوده مفسدة ، فجاز حينئذ .

ثم رأيت الغزالي ذكر ما قررته في الجواب عن كلام عمر رضي الله تعالىٰ عنه ، ونقله عنه النووي وغيره وأقروه حيث قال : (فإن قيل : ما فائدة الدعاء مع القضاء مع أن الدعاء لا يرده ؟ . . فاعلم : أن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لرد البلاء ووجود الرحمة ، كما أن الترس سبب لدفع السلاح ، والماء سبب لخروج النبات من الأرض ، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان . . فكذلك الدعاء والبلاء ، وليس من شرط الاعتراف بالقضاء أن لا يحمل السلاح ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ، فقدر الله تعالى الأمر وقدر سببه) اهـ[1]

---

(١) الأذكار (ص ٦٣٩ـ ٦٤٠) .

فتأمل هـٰذا المحل فإنه نفيس ، وفيه شبه كثيرة أزالها ـ بحمد الله ـ هـٰذا التقرير الواضح لمن ألهم رشده ، وأسعد الله جده ، وخلصه من ورطات الفتن ، وغوائل البدع والمحن ، حقق لنا ربنا ذلك بمنه وكرمه .

وإذا تقرر أنه لا عذر فيما يسوقه القضاء بالمعنى السابق ، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة . . فكيف يعذر من

(397)

أَوْثَقَتْهُ مِنَ ٱلذُّنُوبِ دُيُونٌ شَدَّدَتْ فِي ٱقْتِضَائِهَا ٱلْغُرَمَاءُ

(أوثقته) أي : حبسته في الدنيا عن الخلوص من التبعات ، وفي الآخرة عن مقامه المكرم (من الذنوب) حال متقدمة علىٰ صاحبها ، وهو (ديون) أي : ديون تراكمت عليه ، ناشئة من كثرة ذنوبه وتفريطه في حقوق الله تعالىٰ وحقوق عباده (شددت في اقتضائها) أي : طلبها منه (الغرماء) لأن حقوق الله مبنية على المسامحة ، وحقوق العباد على المشاحة والمضايقة .

(398)

مَا لَهُ حِيلَةٌ سِوَىٰ حِيلَةِ ٱلْمُو ثَقِ إِمَّا تَوَسُّلٌ أَوْ دُعَاءُ

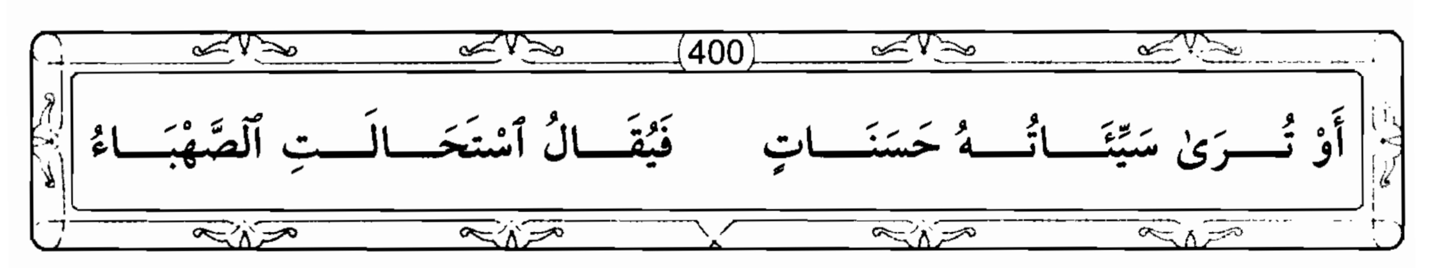
(ما له حيلة) أي : طريق في التخلص من تلك الديون (سوىٰ حيلة الموثق) أي : الأسير الذي صار لا يقدر علىٰ هرب ولا تخلص ، وحيلة من هو كذلك تنحصر في شيئين لا ثالث لهما ؛ لأنهما (إما توسل) إلى الله تعالىٰ في خلاصه بما سبق له من عمل صالح ، أو بشفاعة الشافعين (أو دعاء) إليه في أن يرضي عنه غرماءه ، ويسبل عليه ذيل عفوه وحلمه ورضاه .

(399)

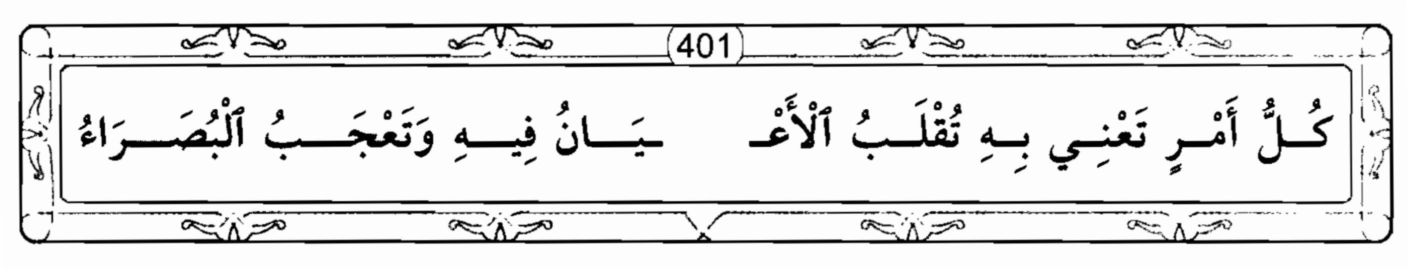
رَاجِياً أَنْ تَعُودَ أَعْمَالُهُ ٱلسُّو ءُ بِغُفْرَانِ ٱللهِ وَهْيَ هَبَاءُ

(راجياً) حال من (عاصٍ) وضمائرِه المذكورة ؛ أي : مؤملاً أملاً قريباً (أن تعود

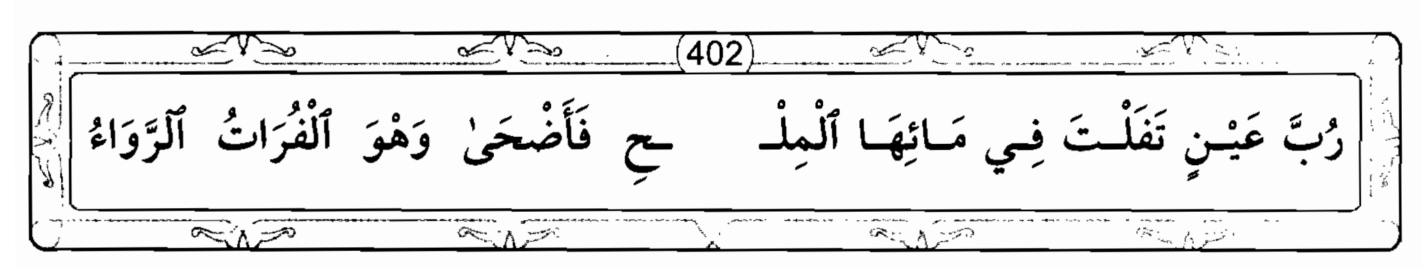
أعماله السوء) عليه (بغفران الله) له مغفرة عامة ، لا تبقي عليه وصمة ذنب ، ولا تذر له قسوة قلب (و) الحال أن تلك الأعمال (هي) في جنب الغفران (هباء) أي : مثله في أنها لا وجود لها ؛ إذ هو غبار يرىٰ في شعاع الشمس إذا دخلت عند طلوعها من كوة .



(أو) أن (ترىٰ سيئاته حسنات) منة عليه ، باندراجه في سلك : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ (فـ) بسبب استحالة السيئات حسنات (يقال) عند رؤية ذلك : (**استحالت الصهباء**) أي : الخمرة ، من الخمرية والنجاسة إلى الخَلِّيَّة والطهارة ، فتشبيه السيئات بالخمر والحسنات بالخل استعارة مصرحة ، وإثبات الاستحالة التي هي من لوازم المشبه به تخييلية .



(كل أمر تعني) أي: تعتني وتهتم أنت يا رسول الله (به) وتلتفت إليه (**تقلب الأعيان**) جمع عين ، وهي الجسم ، وهو معنىٰ تفسيرها بأنها : المبصر مستقلاً بنفسه (فيه) بأن تتحول من صفتها التي لا تريدها إلى الصفة التي تريدها (**وتعجب البصراء**) جمع بصير حسّاً ومعنىً ؛ أي : ذوو البصائر ، والبصر من ذلك القلب الخارق للعادة المشاهد بالأبصار الذي لا يعارض بجحود ولا إنكار ، وشاهده ما وقع لك في ذلك بالفعل ؛ إذ



(رب) هي هنا للتكثير ، قاله الشارح (عين) من عيون الماء ؛ أي : عيون كثيرة (تفلت) أي : بصقت (في مائها الملح) الذي لا يساغ لأحد (فأضحىٰ) ماؤها

الملح (و) الحال أنه (هو الفرات) أي : العذب السائغ للشاربين ، أو هو كالنهر المسمىٰ بالفرات الذي هو أحد الأنهار الأربعة النازلة من الجنة ، كما صح به الحديث[1] (الرواء) بالفتح ؛ أي : الذي يحصل بقليله الريُّ الكامل لشارِبِيه .

قال الشارح في (وهو الفرات الرواء) : (الجملة خبر « أضحى ») اهـ وهو جار في ذلك علىٰ مذهب الأخفش ، وتبعه ابن مالك ؛ تشبيهاً بالجملة الحالية ، لٰكن الجمهور أنكروا ذلك ، وتأولوا الجملة على الحال ، والفعل على التمام ، ولعل نسخته بلا (واو) قبل (هو) .

تنبيه : لم أر لخصوص التفل في ماء عين مِلْحٍ فانقلب عذباً فضلاً عن كثرته التي قالها الشارح سلفاً ، ويحتمل : أن الناظم أخذ ذلك مما رواه أبو نعيم : أنه صلى الله عليه وسلم بصق في بئر أريس ، فلم يكن في المدينة بئر أعذب منها ، فوجود الأعذبية في هٰذه ببركة بصاقه صلى الله عليه وسلم فيها منزَّلٌ منزلة ماء مِلْحٍ صار عذباً .

وفي حديث سنده حسن : أنه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة[2] ، وهٰذا يقتضي أن ما عدا بئر رومة من بقية آبار المدينة كانت مياهها فيها ملوحة منعت الاستعذاب منها ، ومن جملة هٰذه بئر أريس ، وقد صارت ببركة تفله صلى الله عليه وسلم فيها أعذب بئر بالمدينة ، فصار ماؤها الذي تقرر أن به ملوحة أعذب بئر بالمدينة ، فنتج من هٰذا صحة ما قاله الناظم رحمه الله تعالىٰ . فتأمله .

ثم رأيت للبغوي في « الصحابة » عن بشر السلمي : (أن المهاجرين لما قدموا المدينة . . استنكروا الماء . . .) الحديث السابق في بئر رومة ، فتعبيره باستنكارهم مياهها يدل علىٰ أن فيها ملوحة ، وما تقرر في بئر أريس يدل علىٰ زوال ملوحتها بالكلية ، وأنها صارت أعذب حتىٰ من بئر رومة ، ثم رأيت الشريشي شارح « مقامات الحريري » ذكر : أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل في بئر أريس ، فعاد ماؤها عذباً بعد أن كان أجاجاً ، وما ذكره غير صحيح ، بل قال الحافظ الكبير الزين العراقي : إنه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٩) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠٣) ، والنسائي (٦/ ٢٣٥) .

لم ير أصلاً لحديث تفله صلى الله عليه وسلم في بئر أريس ، قال غيره : ومن الغرائب قول العز ابن جماعة : صح أنه صلى الله عليه وسلم تفل فيها ، فحينئذ ما قاله الشريشي لا أصل له ولا عند ابن جماعة ؛ لأن فيه زيادة كون مائها كان أجاجاً فصار ملحاً ، وهٰذا لم يقل به ابن جماعة ولا غيره أنه ورد ، فضلاً عن كونه صح ، ولعل الناظم رحمه الله رأىٰ ذلك في كلام مثل الشريشي ممن لا يعتد به في الحديث فاعتَمَدَه .

ثم رأيت الحافظ السيوطي ذكر ذلك بلا سند ، فقال : (وريقه صلى الله عليه وسلم يعذب الماء الملح) اهـ

ويحتمل : أن مراده كما يؤخذ من تعبيره بـ(يعذب) لا بـ(أعذب) : أن ريقه صلى الله عليه وسلم فيه قوة ذلك ، فلا يكون فيه دليل لما في النظم أصلاً .

وإذ قد فرط مني ما سبقت الإشارة إليه . . فلا يسعني إلا مزيد الندم والتوجع منه والتأوه عليه ، بأن أقول على الدوام والاستمرار :

(403)

آهِ مِمَّا جَنَيْتُ إِنْ كَانَ يُغْنِي أَلِفٌ مِنْ عَظِيمِ ذَنْبٍ وَهَاءُ

(آه) كلمة توجع ؛ أي : توجعي عظيم ، وتندمي زائد دائم (من) أجل (ما جنيت) علىٰ نفسي من الذنوب وقبائح العيوب (إن) هي بمعنىٰ (إذ) علىٰ حد ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ولما قررته : أن ذلك التوجع يفيد الندم الوارد فيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه توبة ؛ أي : معظمها المتكفل بباقيها غالباً ، كـ : « ٱلْحَجُّ عَرَفَةُ »[1] . . (**كان يغني ألف من عظيم ذنب**) من إضافة الصفة للموصوف (وهاء) أي : مسماهما ، وهو التوجع المفيد للندم المفيد للتوبة كما مر ، ويصح أن تكون (إن) علىٰ حالها من الشك ؛ لأنا وإن سلمنا أن كلمة (آه) تفيد التوبة ، لٰكن قبولها ظني لا قطعي على الأصح ، ولك أن تمنعه بأنه يكفي في كونها بمعنىٰ (إذ) : أن قبولها ظني ؛ لأن ظن الوقوع ينافي وضع (إن) من التردد فيه .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢٨٢٢) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٥/٢٥٦) ، وابن ماجه (٣٠١٥) .

ولما عرض بوقوع التوبة . . صرح برجائها ؛ ليبين أن الاهتمام بها يمنع من الاكتفاء عنها بالتعريض ، فقال :

(404)

أَرْتَجِي ٱلتَّوْبَةَ ٱلنَّصُوحَ وَفِي ٱلْقَلْـ ـــبِ نِفَـاقٌ وَفِـي ٱللِّسَـانِ رِيَـاءُ

(أرتجي) أي : أؤمل لحسن ظني بربي ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ ٱلظَّنَّ بِرَبِّهِ »[(١)] وبقوله تعالى : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَلاَ يَظُنَّ بِي إِلاَّ خَيْراً »[(٢)] (التوبة) وهي : الندم على الذنب من حيث هو ذنب ، بخلاف الندم عليه لغرض آخر ، كاطلاع الناس عليه ، وصرف دراهم فيه ، فإن ذلك لا يعتد به ، والإقلاع عن المعصية بترك ملابسة فعلها من حيث الندم عليها لا لغرض آخر أيضاً ، وعزمٍ علىٰ أن لا يعود إليها ما عاش كذلك أيضاً ، لا لنحو قطع ذكره ، والخروج عن كلِّ مظلمة عصىٰ بها بقضاء ما عصىٰ بترك أدائه فوراً ، وبأداء ما عصىٰ بأخذه ظلماً إلىٰ مالكه أو وكيله أو وارثه ، هـٰذا إن قدر ، وإلا . . عزم عزماً جازماً أنه متىٰ قدر على الخروج منه . . خرج منه لفوره .

والتوبة ولو من الصغائر واجبة إجماعاً ، وتصح على الأصح من ذنب دون ذنب ، وتصح على الأصح أيضاً وإن سبقتها توبة من ذلك الذنب ثم عود إليه وإن تكرر ذلك .

(النصوح) أي : التي لا يعود من حصلت له إلى الذنب أبداً ؛ لوقوعها خالصة عن كل شائبة من شوائب الحظوظ ، بأن تكون لله وحده ، لا لغرض آخر ولو أخروياً ، كأن تاب لأجل دخول الجنة ، فإن ذلك لا يؤثر في صحة أصل التوبة ، وإنما يؤثر في كمالها ؛ لأنها مشوبة بغرض للنفس ، بخلاف الخالصة لوجه الله تعالىٰ ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

لـٰكن أنىٰ يفيدني هـٰذا الترجي (و) الحال أني متلبس بما قد ينافيها ؛ إذ (في القلب نفاق) من حيث العمل ، باعتبار أنه قد يبطن خلاف ما يظهر ، لا من حيث

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) ، وأبو داوود (٣١٠٤) ، وابن ماجه (٤١٦٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) ، وليس عندهما : « فلا يظن بي إلا خيراً » .

الاعتقاد ؛ لأن ذلك إنما يصدر ممن آمن بلسانه فقط (وفي اللسان) والأركان (رياء) أي : نظر إلى الخلق ، باعتبار أن ما يصدر منهما قد يكون فيه شوب نظر إلىٰ طلب رفق أو ثناء من مخلوق ؟! ومع ذلك لا أترك التوبة رجاء قبولها ، ولأجل ذلك قالت رابعة رحمها الله تعالى: واستغفارنا وإن كان يحوج إلى استغفار. . لا يوجب ترك الاستغفار.

(405)

وَمَتَــىٰ يَسْتَقِيــمُ قَلْبِــي وَلِلْجِسْـ ـمِ ٱعْوِجَاجٌ مِنْ كَبْرَتِي وَٱنْحِنَاءُ

(ومتىٰ) للاستفهام التعجبي (يستقيم قلبي) بأن لا يبقىٰ فيه نظر إلىٰ ما يحجب عن الله تعالىٰ من أهل أو مال أو جاه أو غير ذلك ، بل إلى الله تعالىٰ وحده (و) الحال أني قد وصلت إلىٰ حالة تدل علىٰ غلظ القلب وشدته ، وعدم قبوله للخروج عما جبل عليه من الغفلة واللهو ، وتلك الحالة هي أنه حصل (للجسم اعوجاج من) أجل (كبرتي) أي : كبر سني ، ووهن عظمي ، من : كبر ـ بكسر الباء ـ أي : أسن (وانحناء) لقامتي ، وهو من عطف الرديف أو الأخص ؛ لأن الاعوجاج يعم الأعضاء كلها ، والانحناء يختص بالقامة ؛ إذ هو تقوس الظهر ، وتبعد حينئذ الاستقامة ، بخلاف أيام الشباب ؛ فإن العود رطب ، والقلب لين ، فأدنىٰ وعظ يؤثر فيه ، وأقل زاجر يردعه عما هو متلبس به ، فيبادر إلى التوبة سريعاً ، وإنما أخرت التوبة إلىٰ هـٰذا الزمن ؛ لأني

(406)

كُنْتُ فِي نَوْمَةِ ٱلشَّبَابِ فَمَا ٱسْتَيْـ ـقَظْــتُ إِلَّا وَلِمَّتِــي شَمْطَــاءُ

(كنت في نومة الشباب) الذي تكثر فيه الغفلات ، وتتوالىٰ علىٰ أهله الهفوات ، فاستحكمت غفلتي حتىٰ صرت كالنائم المستغرق الذي لا يفيق من نومه إلا بمحرك قوي (فما استيقظت) من تلك الغفلة في حال من الأحوال (إلا و) الحال أن (لمتي) أي : لحيتي[1] (شمطاء) أي : اختلط سوادها ببياضها .

---

(١) ما ذكره الشارح رحمه الله من أن اللِّمَّة هي اللحية. . غير ظاهر ، والصواب أن اللِّمَّة : شعر

وما تقرر في زمن الشباب أولاً : أنه محل قرب التوبة والانزجار بأدنىٰ واعظ ، وهنا : أنه محل الغفلات والهفوات. . لا تنافي بينهما ؛ لأنه وإن كان محل الهفوة والزلة ، لـٰكن صاحبه يتنبه سريعاً إلىٰ زلاته ، ويرجع عنها حالاً ، كما أن العود الرطب يستقيم اعوجاجه بأدنىٰ عمل ، بخلاف زمن الشيخوخة ، فإنه زمن الإمساك عن كل هفوة وزلة ، لـٰكن صاحبه المرتكب للمعاصي إلىٰ أن شاب يعسر عليه الرجوع والتوبة فوراً ؛ لأن عوده قسا وصلب ، فلا يتقوم اعوجاجه إلا بعد اليأس ، ويشهد لذلك الحديث : « إِنْ قِيلَ لَكَ : إِنَّ جَبَلاً تَحَوَّلَ عَنْ مَكَانِهِ. . فَصَدِّقْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكَ : إِنَّ إِنْسَاناً تَحَوَّلَ عَنْ طَبْعِهِ. . فَلاَ تُصَدِّقْ »[1] .

(407)

وَتَمَـادَيْـتُ أَقْتَفِـي أَثَـرَ ٱلْقَـوْ ... مِ فَطَـالَـتْ مَسَـافَـةٌ وَٱقْتِفَـاءُ

(و) حينئذ بلغت هـٰذه السن الذي تعسر فيه التوبة كما تقرر (تماديت) إلىٰ أن طلبت أن (أقتفي) أي : أتبع (أثر القوم) الصالحين السابقين إلى المراتب العلية ، والفائزين بنيل المراتب السنية (فطالت) عليَّ (مسافة) بيني وبينهم ؛ لبعد الدرجات التي فازوا بها (واقتفاء) لأعمالهم وأخلاقهم ؛ لأنهم استغرقوا فيها أوقاتهم في الطاعات ، وانقطعوا فيها إلى الله تعالىٰ عن كل غفلة وتبعة .

(408)

فَـوَرَا ٱلسَّـائِـرِيـنَ وَهْـوَ أَمَـامِـي ... سُبُـلٌ وَعْـرَةٌ وَأَرْضٌ عَـرَاءُ

(فـ) بسبب طول المسافة التي بيني وبينهم (ورا) خبر مقدم (السائرين) أي : السائرين ليلاً ، من السرىٰ ، وهو السير ليلاً ، وعدل إليه عن ورائهم الذي هو القياس ؛ ليفيد : أنهم أحيوا ليلهم بالعبادات ، وامتازوا فيه بلذيذ المناجاة (وهو) أي : ذلك الوراء (أمامي) جملة معترضة ؛ للتصريح بما علم من قوله :

=

الرأس إذا لم يجاوز شحمة الأذن ، فإذا جاوزها. . فهو جُمَّة ، والله أعلم .

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٣) بنحوه .

(أقتفي . . .) إلخ : أنه مع طول المسافة بينه وبينهم ، وتعذرِ اتباعه لهم . . صار بينه وبينهم موانع أيضاً (سبل) مبتدأ ؛ أي : طرق (وعرة) أي : يعسر سلوكها ؛ لأن أولـٰئك القوم كلفوا نفوسهم من الأعمال والتخلق بكرائم الأخلاق والأحوال ما أوجب لغيرهم عدم اللحوق بهم ؛ لعدم قدرتهم على القيام بما قام به أولـٰئك (وأرض عراء) بفتح أوله ؛ أي : فضاء واسعة .

(409)

حَمِدَ ٱلْمُدْلِجُونَ غِبَّ سُرَاهُمْ وَكَفَىٰ مَنْ تَخَلَّفَ ٱلْإِبْطَاءُ

(حمد) أولـٰئك القوم (المدلجون) أي : السائرون من أول الليل أو أكثره ، والقياس : حمدوا أيضاً ، فعدل إلى الإظهار ؛ ليبين أنهم علىٰ فرقتين : منهم من يحيي بعض الليل ، ومنهم من يحيي الليل كله أو أكثره ، وأن هـٰذا القسم الثاني أفضل وأكمل ؛ لأنهم رأوا ما يتجدد به حمدهم مما لم يره من قبلهم (غب) أي : عاقبة (سراهم) من الفوز برضا الله تعالىٰ وقربه ، والاطلاع علىٰ حقائق معرفته ، والتمتع بشهوده ، وهـٰذا مقتبس من قولهم : عند الصباح يحمد القوم السُّرىٰ .

(وكفىٰ من تخلف) عنهم في سيرهم ، وهـٰذا راجع لقوله : (فورا السائرين) ، وقوله : (حمد) راجع لقوله : (السائرين) ففيه لف ونشر مرتب (الإبطاء) أي : التأني في السير المفوت لإدراك منازلهم ، وفي ذكره هـٰذا إيماء إلىٰ غاية التحسر والتألم بذكره حالهم التي حمدوا عقباها ، وفاتته لعجزه عن إدراكها ؛ لما هو عليه مما لا يوصله إلىٰ ذلك الغرض ؛ لبعده عن تلك اللطائف ، وتقاعده عن بلوغ المعارف ، كيف وما هم عليه من الجد في السير إلى الله تعالىٰ

(410)

رِحْلَةٌ لَمْ يَزَلْ يُفَنِّدُنِي ٱلصَّيْـ ـفُ إِذَا مَا نَوَيْتُهَا وَٱلشِّتَاءُ

(رحلة) عظيمة عن مواطن الشهوات ، وبواطن الشبهات ، وقبائح الإرادات ، وقواطع البطالات ، ورحلتهم هـٰذه عَزَّ علي أن أقتفيهم فيها ؛ لأني (لم يزل يفندني) أي : يكذب علي ، أو يضعف رأيي (الصيف إذا ما) زائدة (نويتها والشتاء) كذلك ؛

أي : إذا جاء الشتاء.. أنوي إلى الصيف ؛ لأن الشتاء يكثر فيه البرد والثلوج والأمطار ، فيعسر السير فيها ، وإذا جاء الصيف.. أقول : أصبر بها إلى الشتاء ؛ لأن الأعمال تتيسر فيه أكثر ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ٱلشِّتَاءُ رَبِيعُ ٱلْمُؤْمِنِ ، طَالَ لَيْلُهُ فقَامَهُ ، وَقَصُرَ نَهَارُهُ فَصَامَهُ »[١] وفي سنده من ضعفه جماعة ووثقه آخرون ، والأرجح : توثيقه في هـٰذا السند بخصوصه ، ومن ثم صححه ابن خزيمة ، ويشهد له أحاديث ، منها : « مَرْحَباً بِٱلشِّتَاءِ ؛ فِيهِ تَنْزِلُ ٱلرَّحْمَةُ ، أَمَّا لَيْلُهُ.. فَطَوِيلٌ لِلْقَائِمِ ، وَأَمَّا نَهَارُهُ.. فَقَصِيرٌ لِلصَّائِمِ »[٢] وحديث : « لَمْ يَنْزِلْ عَذَابٌ قَطُّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ عَلَىٰ قَوْمٍ إِلاَّ عِنْدَ ٱنْسِلاَخِ ٱلشِّتَاءِ » .

وهو كما أوجب إبطائي عن تلك الرحلة إلا أنه

(411)

يَتَّقِي حُـرَّ وَجْهِـيَ ٱلْحَـرَّ وَٱلْبَـرْ دَ وَقَـدْ عَـزَّ مِـنْ لَظَـىٰ ٱلِاتِّقَـاءُ

(يتقي حر وجهي) الحُر : ما يبدو من الوجنة (الحر والبرد) باتقائه عنهما خوفاً من مشقَّتهما ، وهما كنايتان عن مشقة العبادة في الشتاء والصيف ، كما أن ما مر في البيت الذي قبله كذلك (و) الحال أنه (قد عز) أي : صعب علي (من لظىٰ) أي : جهنم ، متعلق بقوله : (الاتقاء) لأني متلبس بما يؤول بي إليها إلا أن يتغمدني الله تعالىٰ برحمته ، ولأجل هـٰذا

(412)

ضِقْتُ ذَرْعاً مِمَّا جَنَيْتُ فَيَوْمِي قَمْطَرِيـرٌ وَلَيْلَتِـي دَرْعَـاءُ

(ضقت ذرعاً) بالمعجمة (من) أجل (ما) موصولة أو مصدرية (جنيت) أي : ضعفت طاقتي عن أن تتحمل وزره ، ولم أجد من يخلصني من ثقله ، وأصل الذَّرْع : الخُلُق (فيومي قمطرير) أي : شديد ، وهـٰذا كذكر (عراء) و(الرحلة) و(الصيف)

---

(١) أخرجه البيهقي في « السنن الكبرى » (٤/ ٢٩٧) .

(٢) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٥) .

و(الشتاء) و(ضقت ذرعاً) فيه اقتباس من الآيات المذكور فيها ذلك ، وتلميح إلىٰ ما فيها من القصص (وليلتي درعاء) بالمهملة ؛ أي : مظلمة ، كناية عن شدة ما يلقىٰ فيها ، وأصل الدرعاء : التي يطلع قمرها عند الفجر ، ومراده : أن ذلك الضيق ملازم له نهاراً وليلاً ، لا ينفك عنه في واحد منهما .

تنبيه : وقع للشارح أنه قال : الليلة الدرعاء ـ بالمهملة ـ ليست من الليالي البيض ، بل هي إحدى الثلاث التي تلي الليالي البيض ، وليس بصحيح ، وعبارة « القاموس » : (وليلة درعاء : يطلع قمرها عند الصبح ، وليال درع ـ بالضم ، وكصُرَد ـ للثلاث تلي البيض ؛ لاسوداد أوائلها وابيضاض سائرها) اهـ

ففيه التصريح بأن الدرعاء ليست من إحدىٰ تلك الثلاث ، وأن تلك الثلاث لها ، وهي جمع معنىً غير المفرد ، وتوهم الشارح أن الجمع إذا كان معناه ذلك . . لزم أنه بمعنى المفرد ، وهو إنما يتم إن كانت (درعاء) مفرداً لذلك الجمع ، وعبارة « القاموس » صريحة في خلاف ذلك ؛ لأنه فسرها بمعنىً غير معنى الجمع . فتأمله .

(413)

وَتَذَكَّرْتُ رَحْمَةَ ٱللهِ فَٱلْبِشْـ ـرُ لِوَجْهِي أَنَّى ٱنْتَحَىٰ تِلْقَاءُ

(و) لـٰكن خفف عني ذلك أني (تذكرت رحمة الله) أي : سعتها التي دل عليها قوله تعالىٰ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وأنها سبقت غضبه ، كما دل عليه الحديث الصحيح : « إِنَّ ٱللهَ كَتَبَ كِتَاباً فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ ٱلْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي »(١) أي : أن مظاهر الرحمة غلبت مظاهر الغضب ، وهـٰذه العندية عندية الشرف والمكانة لا المكان ؛ لتعاليه تعالىٰ عنه علوّاً كبيراً (فـ) بسبب ذلك (البشر) أي : الفرح والسرور (لوجهي) متعلق بخبر (البشر) وهو (تلقاء) وهـٰذا أولىٰ من جعل الشارح له خبراً ، و(تلقاء) خبراً أيضاً (أنىٰ) أي : في أي مكان (انتحىٰ) أي : أتوجه(٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٢) ، ومسلم (٢٧٥١) .

(٢) قوله رحمه الله : (أي : أتوجه) أي : بمضارع مسند إلىٰ ضمير مستتر تقديره (أنا) . . غير مستقيم ؛ لأنه يفهم أن قول الناظم : (أنتحي) . . بمضارع ، وليس (انتحى) بماض ، وعند =

(تلقاء) أي : مقابل ؛ أي : فالبشر مقابل لوجهي في أي مكان توجهت إليه ؛ لأني مستشعر لِسَعَةِ الرحمة ومعول عليها مع نظري إلىٰ قول الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوىٰ عن ربه : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَلاَ يَظُنَّ بِي إِلاَّ خَيْراً » .

(414)

فَأَلَحَّ ٱلرَّجَاءُ وَٱلْخَوْفُ بِٱلْقَلْـ ... ـبِ وَلِلْخَوْفِ وَٱلرَّجَا إِحْفَاءُ

(فـ) بسبب تذكري لما جنيت المقتضي لمزيد الخوف ، ولسَعة الرحمة المقتضية لسَعة الرجاء (ألح) أي : أقام (الرجاء والخوف بالقلب) فهما علىٰ حد سواء ، كما هو الراجح عند أئمتنا : أن الإنسان ما دام صحيحاً . . فليكن رجاؤه وخوفه مستويين ، وقيل : يغلب الرجاء ؛ لئلا يغلب عليه داء اليأس من رحمة الله تعالىٰ ، وقيل : يغلب الخوف ؛ لئلا يغلب عليه داء الأمن من مكر الله تعالىٰ ، ويردهما : أنهما إذا استويا . . أمنت غلبة أحدهما ، فلا محذور يخشىٰ حينئذ ، بخلاف غلبة أحدهما ، فإنه يخشىٰ منها المحذور الذي في مقابله .

أما المريض . . فيغلب الرجاء ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ ٱلظَّنَّ بِٱللهِ » أي : يظن أنه يغفر له ويرحمه .

(وللخوف والرجا) إذا تواردا على القلب (إحفاء) أي : استقصاء ومنازعة ؛ لتضاد مقتضاهما ؛ إذ مقتضى الخوف اعتراء شدة وحصر للنفس لا يطاقان ؛ لأن ملازمته الكفَّ عن كل محرم ، بل وشبهة ، بل وعما فضل عن حاجته من الحلال . . هو شأن الزاهدين ؛ إذ لم يحملهم علىٰ ذلك إلا عظم خوفهم ولو من هول السؤال .

ومقتضى الرجاء بسط النفس وانشراحها ؛ لأن مِنْ لازِمِه استحضارَ سَعةِ الرحمة ، وأن الذنوب ـ وإن كثرت وعظمت ـ يغفرها الله تعالىٰ ، ويتجاوز عنها بكرمه ، وإذا تضاد مقتضاهما . . لزم أن كلاًّ يستقصي في مقتضاه ضد ما يستقصيه الآخر ، لٰكن قد

= ذلك ينكسر الوزن ، فالصواب : أنه ماض مسند إلىٰ ضمير مستتر تقديره (هو) عائد علىٰ قوله : (لوجهي) . فليتنبه .

تقرر أن الأولىٰ للصحيح أن يستوي عنده المقتضيان ؛ لئلا يغلب أحدهما فيخشىٰ منه المحذور السابق آنفاً ، ومن ثم قال ناهياً عن غلبة الخوف المقتضي لليأس :

(415)

صَاحِ لَا تَأْسِ إِنْ ضَعُفْتَ عَنِ ٱلطَّا ... عَةِ وَٱسْتَأْثَرَتْ بِهَا ٱلْأَقْوِيَاءُ

(صاح) أي : يا صاحبي ، وفيه نوع تجريد ؛ إذ الأصل : يا نفسي (**لا تأس**) من رحمة الله تعالى[1] (**إن ضعفت عن**) الدأب في (**الطاعة**) لضعف همتك ، وغلبة بطالتك ، وإيثارك الراحة ، وغفلتك عن أهوال القيامة (**واستأثرت**) أي : انفردت (**بها الأقوياء**) أي : بالهمة والنشاط ، وقهر النفس وتجريعها المكروهات حتىٰ تدربت عليها ، فصارت عندها من ألذِّ مألوفاتها ، وأعظم مشتهياتها .

(416)

إِنَّ لِلّٰهِ رَحْمَةً وَأَحَقُّ ٱلنَّـ ... ـاسِ مِنْهُ بِٱلرَّحْمَةِ ٱلضُّعَفَاءُ

(**إن**) فيه شائبة تعليل للنهي عن اليأس إن ضعفت عن الطاعة (**لله رحمة**) عظيمة ادخرها لبعض عباده ، تعم القوي والضعيف ، والوضيع والشريف (**وأحق الناس منه**) متعلق بقوله : (**بالرحمة الضعفاء**) أي : الذين لا يعولون علىٰ أعمالهم ، ولا يغترون بأحوالهم ، مع قيامهم بما لا بد منه ، وإخلاصهم لله تعالىٰ في عباداتهم ، فهم أقوىٰ نية في العبادة ، وأبعد عن الرياء ، فربما حصلت لهم بسبب ذلك نفحة سبقوا بها الأقوياء .

وفي الحديث القدسي : « أَنَا عِنْدَ ٱلْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي »[2] أي : لأن

---

(١) الأولىٰ أن يقول في شرح (لا تأس) : لا تحزن ؛ فهو من الأسى الذي هو الحزن ، وما قاله الشارح رحمه الله يوهم أنه من اليأس . فليتنبه .

(٢) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١/ ٢٠٣) : (قال في « المقاصد » : ذكره في « البداية » للغزالي ، وقال القاري عقبه : ولا يخفىٰ أن الكلام في هٰذا المقام لم يبلغ الغاية .
قلت : وتمامه : « وأنا عند المندرسة قلوبهم لأجلي » ولا أصل لهما في المرفوع) اهـ

مطلوبهم رضاي ومعتقدهم أنه لا عمل لهم ، ومما يؤيد ذلك : أنه صلى الله عليه وسلم في منامه الذي رآه لأبي بكر وعمر فيما يتعلق بخلافتهما ، وقرب مدة خلافة أبي بكر ، وطول مدة عمر ، أثبت لأبي بكر ـ مع أنه أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ نحوَ ذلك الضعف ، فقال ـ بعد أن بين أنه علىٰ بئر ، وأنه نزع منها بدلو ، وأن أبا بكر أخذها منه فنزع بها دلواً أو دلوين ـ : « وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ ، وَٱللهُ يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ »[1] ، فهو ليس ضعف يقين ولا عمل ، وإنما هو ضعف انكسار وافتقار .

وفي الحديث : « إِنَّ ٱللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَىٰ ٱلأَعْمَالِ وَٱلْقُلُوبِ »[2] أي : لا إلى الأعمال وحدها ، بل لما يصحبها مما في القلوب من إخلاص وافتقار أو ضدهما .

ثم استدل علىٰ أن الضعيف قد يحصل له ما لا يحصل للقوي بمثال ظاهر في الوجود فقال :

(417)

فَٱبْقَ فِي ٱلْعُرْجِ عِنْدَ مُنْقَلَبِ ٱلذَّوْ دِ فَفِي ٱلْعَوْدِ تَسْبِقُ ٱلْعَرْجَاءُ

(فـ) بسبب الأحقية المذكورة للضعفاء (ابق في) الضعفاء المشبهين بنحو (العرج) جمع أعرج ، وهو : من برجله داء يمنعه من استقامة المشي (عند منقلب الذود) أي : رجوعه إلىٰ ربه ، وهو جماعة الغنم ، كذا وقع للشارح ، وهو سبق قلم سرىٰ إليه من تعبير « النهاية » : (واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها كالغنم) اهـ[3]

فتوهم أن قوله : (كالغنم) راجع إلىٰ قوله : (والذود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع[4] ، وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر ، واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها كالغنم) .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٣) ، ومسلم (٢٣٩٢) .
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) ، وابن حبان (٣٩٤) ، وابن ماجه (٤١٤٣) بنحوه .
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٧١) .
(٤) في النسخ (. . . الخمس إلى التسع) ، والمثبت من « النهاية » (٢/ ١٧١) .

فهـٰذا صريح في أن التشبيه إنما هو في أنه لا واحد له من لفظه لا غير ، وعبارة « القاموس » : (وثلاثة أبعرة إلى العشرة ، أو خمس عشرة ، أو عشرين ، أو ثلاثين ، أو ما بين الثنتين والتسع ، مؤنث ، ولا يكون إلا من الإناث ، وهو واحد وجمع ، أو جمع لا واحد له ، أو واحد جمعه أذواد ، وقولهم : الذود إلى الذود إبل يدل علىٰ أنها في موضع اثنتين ؛ لأن الثنتين إلى الثنتين جمع) اهـ

(ففي العود تسبق العرجاء) إليه فتفوز منه بمأمولها ، فتأخرها أوجب لها السبق ، فكذلك تأخرك عن كثير من الطاعات . . ربما أوجب لك سبق المكثر منها ؛ لأنه قد يصحبك من الذل والافتقار والإخلاص ما يخلف تأخرك ، بخلاف المكثر ، قد يصحبه من العجب والافتخار ما يوجب تأخره ، ومن ثم قال العارف المحقق التاج ابن عطاء الله رحمه الله تعالى : (رب معصية أورثتك ذلاً وانكساراً ، خير من طاعة أورثتك عزّاً واستكباراً) .

واعلم : أنه لم يجعل ذات المعصية خيراً من ذات الطاعة ، بل لا يتوهم ذلك من كلامه ، وإنما الذي أفاده : أن المعصية قد يصحبها وصف خير من الوصف الذي صحب الطاعة ، فيكون ذلك مقتضياً لعدم المؤاخذة بوصمة تلك ، وهـٰذا مقتضياً لسقوط هـٰذه وعدم الاعتداد بها ، فكذلك كلام الناظم هنا وفيما قبلُ يتنزل علىٰ هـٰذا . فتنبه له .

وإذا تأخرت عن الطاعة لضعفك عنها . . فلازم الذلة والانكسار .

(418)

لَا تَقُلْ حَاسِداً لِغَيْرِكَ هَـٰذَا أَثْمَرَتْ نَخْلُهُ وَنَخْلِي عَفَاءُ

(لا تقل) حال كونك (حاسداً لغيرك) الذي أكثر منها[١] ؛ أي : متمنياً زوال نعمة التوفيق عنه (هـٰذا) القوي بسبب قوته (أثمرت نخله) أي : كثرت أعماله ، فتشبيهها بالنخل استعارة مصرحة ، وذكر الأثمار ترشيح ، وآثر التشبيه بالنخل ؛ لأن النخلة أفضل الشجر ؛ لأنها خلقت من فضل طينة آدم ، ومن ثم قال صلى الله عليه

(١) أي : من الطاعة .

وسلم : « أَكْرِمُوا عَمَّاتِكُمُ ٱلنَّخْلَ »[1] ولأجل هـٰذا شابهت الآدمي في كثير من صفاته الحسية والمعنوية كما لا يخفىٰ (ونخلي) أي : أعمالي (عَفَاء) بالفتح ؛ أي : كالتراب لا ثمرة لها ولا يعتد بها بسبب ضعفي ؛ لأنك حينئذ تعترض على الحكيم في فعله وتخصيصِه لكل منكما بما أراده وقدره ، ومن ثم كان الحسد كفراً لنعمة المنعم ، ويأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

وخرج بـ (حاسداً) المنصرفِ إلى الحسد المذموم الحسدُ المحمود المسمىٰ بالغبطة ، وهو : أن تتمنىٰ أن يكون لك من النعم والخيرات مثل ما لغيرك مع بقائها له ، فهـٰذا مطلوب ، كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي ٱثْنَتَيْنِ . . . » الحديث[2] .

واحذر أن تتكل علىٰ رجائك فقط من غير عمل ؛ فإنه لا ينفع رجاء إلا مع عمل ، ومن ثم قالوا : كل رجاء لم يصحبه عمل فهو غرور ، بل مع رجائك اجتهد

(419)

وَأْتِ بِٱلْمُسْتَطَاعِ مِنْ عَمَلِ ٱلْبِرِّ   فَقَدْ يُسْقِطُ ٱلثِّمَارَ ٱلْإِتَاءُ

(وائت بالمستطاع من عمل البر) امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ الناسخ ـ علىٰ ما قيل ـ لقوله تعالىٰ ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ فإنه صلى الله عليه وسلم لما فسر هـٰذا : بـ« أَنْ يُعْبَدَ فَلاَ يُعْصَىٰ ، وَيُذْكَرَ فَلاَ يُنْسَىٰ ، وَيُشْكَرَ فَلاَ يُكْفَرُ » قالوا : أيُّنا يطيق ذلك ؟ فنزلت تلك مبينة لهم : أن المطلوب إنما هو ما يقدرون عليه دون ما عداه[3] ، ويصح أن تكون تلك مبينة للمراد من هـٰذه ، فلا نسخ ، وهو الأولىٰ .

(فقد) ينتج القليل ما لا ينتجه الكثير بواسطة مزيد إخلاص وانكسار ، كما أنه قد (يسقط الثمار) الكثيرة النفيسة (الإتاء) أي : النخيل الصغار إذا خلصت أرضه ، وزاد ريه وخصبه ، ولا يسقط ذلك الكبار ، فكذلك أنت قد تفوز بسبب ضعفك

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٤٥٥) .
(٢) أخرجه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٥) .
(٣) أخرجه البيهقي في « الزهد الكبير » (٨٧٨) بنحوه .

بالمعنى السابق بما لم يفز به القوي الناظر إلىٰ قوته ونفسه ، ففي كلامه هنا وفيما مر تمثيل وتذييل ، وهو من أرق فنون البلاغة ، وألطف طرق البراعة .

وتفسير (الإتاء) بالنخيل الصغار وقع في كلام الشارح ، ولم يبين ضبطه أهو بفتح الهمزة أو كسرها ؟ ولا أنه بالمثناة أو المثلثة ، ولم أر في « القاموس » هٰذا الذي ذكره الشارح ، وإنما الذي فيه في (الإتاء) ـ بالفوقية ككتاب ـ تفسيره بما يخرج من الشجر والنماء[1] ، وفي (الإثاء) ـ كإناء بالمثلثة ـ تفسيره بالحجارة ، وإنما هو تشبيه ، وهٰذا يمكن تنزيل كلام الناظم عليه ؛ أي : أن النخلة إذا طالت وصعب عليك رقيها . . قد يمكنك أن تسقط بعض ثمرها بضربة حجر .

واعلم : أن أفضل الأعمال وأسرعها إنتاجاً وأعظمها وسيلة هو مزيد محبة نبينا صلى الله عليه وسلم ؛ فإنها سبب لكل خير دنيوي وأخروي .

(420)

وَبِحُبِّ ٱلنَّبِيِّ فَٱبْغِ رِضَا ٱللهِ ... فَفِي حُبِّهِ ٱلرِّضَا وَٱلْحَبَاءُ

(و) حينئذ فعليك أن تكون ممن امتلأ قلبه (**بحب النبي**) صلى الله عليه وسلم ، امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ومر الكلام علىٰ ذلك قريباً بما ينبغي مراجعته .

وإذا حظيت بهٰذه المحبة . . (**فابغ**) أي : اطلب (**رضا الله ففي حبه الرضا**) من الله تعالى المنعم بما ليس في الحساب (**والحباء**) أي : العطاء منه تعالىٰ لجميع الخيرات الدنيوية والأخروية ، كالتوفيق للأعمال الصالحة ، والفوز بالمقامات العلية ، فكن علىٰ رجاء من ذلك إذا طلبته بمحبته صلى الله عليه وسلم ؛ فإنها نعم الوسيلة ، ﴿ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .

ثم عاد إلى الضراعة وإظهار المسكنة والضعف ، وإبداء التحسر والتحزن ،

---

(١) في النسخ (والثمار) ، والمثبت من « القاموس » مادة (أتو) .

والاستغاثة بمن لا يُخيِّب المستغيثين به ، فقال مؤملاً أنه ببركة توسله به صلى الله عليه وسلم يتخلص من فرطات ذنوبه :

(421)

يَـا نَبِـيَّ ٱلْهُـدَى ٱسْتِغَـاثَـةُ مَلْهُـو   فٍ أَضَـرَّتْ بِحَـالِـهِ ٱلْحَـوْبَـاءُ

(يا نبي الهدىٰ) أي : الدلالة على الله بالنسبة للكل ، ومنه : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ والإيصال إليه بالنسبة للمؤمنين ، ومنه : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ .

(استغاثة) بالرفع خبر مبتدأ محذوف ؛ أي : مسؤولي ، وهي نداء من يخلص من شدة أو يخففها ، وبالنصب مفعول مطلق ؛ أي : أستغيث بك استغاثة ؛ أي : أناديك نداء (ملهوف) أي : مضطرب متحير محتاج إلىٰ من ينقذه مما يهلكه (أضرت بحاله الحوباء) أي : مسكنة ذنوبه ، وضعف همته ، وذلك لأنه

(422)

يَـدَّعِـي ٱلْحُـبَّ وَهْـوَ يَـأْمُـرُ بِـٱلسُّـو   ءِ وَمَـنْ لِـي أَنْ تَصْـدُقَ ٱلـرَّغْبَـاءُ

(يدعي الحب) لله ورسوله صلى الله عليه وسلم (وهو) أي : والحال أنه يصدر منه ما يكذب دعواه من مخالفتهما ؛ لأنه لا يزال (يأمر) نفسه أو غيره (بالسوء) أي : الإثم فعلاً وتركاً ، والمخالفة تنبيء عن عدم المحبة كما هو واضح لمن تأمل : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ولهٰذا أشار إلىٰ تمنيه أن يصدق في دعواه محبتهما فقال : (ومن) استفهامية ؛ أي : من الذي يتكفل (لي) فيه التفات (أن تصدق) مني (الرغباء ؟!) أي : العزيمة المصممة في الرجوع إلى الله تعالىٰ بالتوبة والعمل الصالح ، وادعاء الحب مع ظهور ما يكذبه نقص وأي نقص .

ومما يكذبه أيضاً دوام الغفلة عن محبوبه حتىٰ إنه لا يمر بباله ولا في النوم ، ومن هٰذا حاله

(423)

أَيُّ حُبٍّ يَصِحُّ مِنْهُ وَطَرْفِي   لِلْكَرَىٰ وَاصِلٌ وَطَيْفُكَ رَاءُ

(أي حب يصح منه) التفات (و) الحال أن (طرفي) التفات (للكرىٰ) أي : النوم (واصل) لا ينفك النوم عنه في وقته ، وليس هـٰذا شأن المحب (وطيفك) أي : خيالك (راء ؟!) أي : محتجب عني كما احتجبت (الراء) عن واصل بن عطاء الرجل المشهور ؛ لأنه هجرها فلم يتكلم قط بكلمة فيها (راء) بل بمرادفها أو مقاربها ، خشية منه أن يعير بلثغته بـ(الراء) فصار هجر الشيء المستمر يمثل عندهم بهجر واصل لـ(الراء) ، ففي النظم التورية ؛ لأن (واصلاً) بالنظر لـ(الكرى) اسم فاعل ولـ(الراء) اسم علم ، وتلميح ؛ لأنه إشارة إلىٰ قصة واصل المشار إليها ، وفيه الاستفهام الإنكاري ؛ أي : كيف تصدق محبتي وأنا مواصل للكسل والنوم ؟

سلمنا أن مواصلة النوم لا تؤثر في المحبة ؛ لأنها أمر وجداني ، فكيف توجد مع عدم خطور خيال المحبوب بالضمير ولا في حالة النوم ، وهـٰذا ينافي المحبة كما هو محسوس ؛ لاستلزامها أن طيف المحبوب لا يغيب عن مخيلة المحب نوماً ولا يقظة ؟!

نعم ؛ قد يتخلف هـٰذا الاستلزام لمانع ، ولذا تردد مع ما قدمه في أن فقد خطور الطيف هل هو لذلك أو لغيره ؟ فقال :

(424)

لَيْتَ شِعْرِي أَذَاكَ مِنْ عُظْمِ ذَنْبٍ   أَمْ حُظُوظُ ٱلْمُتَيَّمِينَ حِظَاءُ

(ليت شعري) أي : ليتني علمت (أذاك) أي : عدم خطور طيفه بقلبي (من) أجل (عظم ذنب) وقع مني وهو الظاهر (أم حظوظ المتيمين) أي : المحبين (حظاء ؟!) جمع حظوة ، بالكسر والضم ، وهي : المكانة ، والقياس في الجمع : الضم والكسر ، كعروة وعرىً .

وبين (حظوظ) و(حظاء) الجناس المطلق ؛ أي : أنصباؤهم من المحبوب

متفاوتة ؛ فبعضهم يحظىٰ بالقرب من غير كثرة عمل ، وبعضهم لا يحظىٰ به مع كثرة العمل .

(425)

إِنْ يَكُنْ عُظْمُ زَلَّتِي حَجْبَ رُؤْيَا   كَ فَقَدْ عَزَّ دَاءَ قَلْبِي ٱلدَّوَاءُ

(**إن يكن عظم زلتي**) التي ارتكبتها (**حجب رؤياك**) أي : رؤيا طيفك عني في النوم التي فقدتها (**فقد عز داء قلبي الدواء**) أي : قل ، بل عدم الدواء الذي يكون لمرض قلبي فلا يوجد له شفاء بوجه ؛ لأنه لا يوجد إلا من جنابه صلى الله عليه وسلم ، فإن فرض أنه آخذ إنساناً بعظيم ذنبه . . لم يكن أحد غيره أن ينقذه منه .

ثم هٰذا التردد في وجود المحبة الذي سبق إنما هو لمزيد الخوف ، وأن الإنسان علىٰ مدرجة أن يؤاخذ بذنبه وإن كان محبّاً ، لا لزوال محبته ، بل هي باقية ، ورجاؤه في محبوبه واسع وإن كانت ذنوبه كثيرة ، وحينئذ

(426)

كَيْفَ يَصْدَا بِٱلذَّنْبِ قَلْبُ مُحِبٍّ   وَلَهُ ذِكْرُكَ ٱلْجَمِيلُ جِلَاءُ

(**كيف يصدا**) أي : يسودُّ (**بـ**) سبب (**الذنب**) الذي ارتكبه ذلك المحب (**قلب محب**) لك (**و**) هي للحال (**له**) أي : لقلبه ، متعلق بـ(جلاء) (**ذكرك**) مضاف للمفعول ؛ أي : ذكره لك بالصلاة والتسليم عليك ، وسؤال الوسيلة وغيرها مما يعود عليه وعليك بزيادة القرب ، فإن الخلق كلهم مفتقرون إلىٰ ذلك ، ويصح للفاعل ؛ أي : ذكرك له (**الجميل**) العائد على الذاكر بما لم يكن في حسابه (**جلاء**) ولما غلب علىٰ ظنه ما أشار إلى التردد فيه بـ(إن) في قوله : (إن يكن . . .) إلخ من أن سبب حجب الرؤيا عنه عظيم ذنبه . . صرخ كما يصرخ من وجد آخذ ماله أو قاتل أبيه بعد يأسه منه ، فقال :

(427)

هَـٰـذِهِ عِلَّتِـــي وَأَنْـــتَ طَبِيبِـــي لَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْكَ فِي ٱلْقَلْبِ دَاءُ

(هـٰذه علتي) التي أنحلت جسمي ، وأدهشت لبي لا غيرها (و) الحال أنك (أنت طبيبي) العالم بها ، الماهر في إزالتها ؛ فإنه (ليس يخفىٰ عليك في القلب داء) وأنت لا أحد من الخلق أكرم ولا أحلم منك ، فعجل لي بدواء ذلك المحصل للشفاء من وصمة جميع ما هنالك ، فإن شفاعتك لا ترد ، والمتوسل بك لا يخيب .

(428)

وَمِـــنَ ٱلْفَـــوْزِ أَنْ أَبُثَّـــكَ شَكْـــوَىً هِـيَ شَكْـوَىً إِلَيْـكَ وَهْـيَ ٱقْتِضَـاءُ

(و) إنما رفعت إليك قصتي ، وشكوت إليك قلة حيلتي مما جنيت علىٰ نفسي ؛ لأن (من الفوز) أي : النجاة والظفر لمثلي بجميع المطلوب الذي لا فوز أعظم منه (أن أبثك) من : بث وأبث نشر وأظهر (شكوىً) هي : الإخبار عن النفس أو الغير بسوء فعله ، لـٰكن هـٰذه إنما (هي شكوىً) مني لنفسي (إليك) لا إلىٰ غيرك ؛ أي : أنشر وأظهر بين يديك في ضمن مدحي لك ما كاد أن يهلكني من عظيم ذنوبي ، وقبيح عيوبي ؛ رجاء أن تلمحني بنظرة تزيل عني كل وصمة ، وتوجب لي منك كل رحمة ؛ لأن رجائي فيك واسع ، ومحبتي لك متزايدة (وهي) أي : تلك الشكوى الواقعة في ضمن ذلك المديح البديع (اقتضاء) أي : أطلب من كرمك الواسع ، وفيضك الهامع : أن أتخلص من تلك الفرطات ، وأنجو من بوائق سائر الورطات ، وأن يحصل لي الشفاء من جميع الأدواء ، فإن جاهك متكفل بكل مطلوب ، ومحقق لكل مسؤول ومرغوب ، لا سيما لخادم حضرتك ، الفاني في محبتك ، كيف وقد

(429)

ضُمِّنَتْهَـــا مَـــدَائِـــحٌ مُسْتَطَـــابٌ فِيـكَ مِنْهَـا ٱلْمَـدِيـحُ وَٱلْإِصْغَـاءُ

(ضمنتها) بالبناء للمفعول ؛ أي : تلك الشكوى ؛ لتقبل وتعود علي بركة قبولها بما هو المقصود منها بالذات (مدائح) لجنابك بديعة ، جمع مدحة ؛ أي : كلام

متضمن للثناء الجميل الذي هو المدح المباين للحمد ، أو المرادف له ، أو الأعم منه ، أو الأخص منه ، أقوال مرت (**مستطاب**) بالرفع صفة (مدائح) الذي هو نائب الفاعل (**فيك منها**) أي : من تلك الشكوىٰ ، متعلقان بما قبلهما أو بعدهما ، و(من) تبعيضية (**المديح**) لك (**والإصغاء**) من سامعها إليها ؛ لأن أوصافك الكريمة زينتها ، فصارت بها في غاية الكمال الذي يشنف الأسماع ، ويملأ عبيره أرجاء القلوب والبقاع ، ومن استطابة ذلك المديح : أن الله تعالىٰ يسره علي في هـٰذه القصيدة البديعة ببركة ٱلتجائي إليك ؛ إذ

(430)

قَـلَّ مَـا حَـاوَلَـتْ مَـدِيحَـكَ إِلَّا سَـاعَـدَتْهَـا مِيـمٌ وَدَالٌ وَحَـاءُ

(**قل ما**) مصدرية (**حاولت**) تلك الشكوىٰ (**مديحك**) أي : لإبراز معنىً فيه لم أسبق إليه ، أو أسلوب من أنواعه اللائقة بك ، والمطلوب فيها : أن يجري علىٰ أعلىٰ سنن البلاغة وقانون البراعة (**إلا ساعدتها ميم ودال وحاء**) أي : مسمىٰ هـٰذه الأسماء ، وهو (مدح) أي : ما توقف علىٰ معنىً أو نوع من تلك المعاني أو الأنواع فوجهت همتي إلى الأحسن منها . . إلا وجدت الألفاظ الدالة علىٰ مدحك تبادرني إلىٰ تأديته بغاية اللطف ، وتساعدني عليه بنهاية الإسعاف ، فتأتي قريحتي منه بما هو أبدع وأبلغ .

وكون (ما) مصدرية هو ما ذكره الشارح ، وعليه قال : (المعنى : قلَّت محاولتها مديحك في غير حال كونها مساعدة بهـٰذه الحروف الثلاثة ؛ فإنها لا تقلُّ حينئذ ، بل تكثر) اهـ

ويلزم عليه وقوع الاستثناء المفرغ في غير نفي أو شبهه ، وهو : النهي أو الاستفهام ، وهو ممنوع عند أكثر النحاة ، ومن جوزه في الموجب كقام الناس إلا زيد . . ردوا عليه بأنه يلزمه الكذب ؛ إذ تقديره : ثبوت القيام لجميع الناس إلا زيداً ، وهو غير جائز ، بخلاف النفي عنهم إلا فرداً ، فإنه جائز .

فإن قلت : جوز المبرد التفريغ في موجب يلزمه نفي ، كـ(لو) و(لولا) نحو :

لولا القوم إلا زيد.. لأكرمتك ، وما هنا كذلك ؛ لأن (قل) يلزمه نفي ما عدا القليل ، فهو نفي في الجملة .

قلت : ما ذكره يرد بأن التفريغ يدخل في الجملة الثانية التي هي الأولىٰ ، وأما الجواب الذي هو منفي.. فخارج عما دخلت عليه (إلا) علىٰ أن كون (قل) يفيد نفياً يشبه النفي الذي في التفريغ.. ممنوع ، وإذا تقرر ذلك.. تعين تأويل النظم بأن يقال : فاعل (قل) محذوف دل عليه المذكور ، وأن (ما) نافية ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، والتقدير : قل أن يستصعب علي ما أردته من مدحك ؛ لأني ما حاولته في حال من الأحوال.. إلا ساعدني مدحك علىٰ أكمل ما ينبغي .

ولأجل هـٰذه المساعدة المشتملة علىٰ ما أردته من أعلىٰ أنواع البلاغة

(431)

حَقَّ لِي فِيكَ أَنْ أُسَاجِلَ قَوْماً سَلَّمَتْ مِنْهُمُ لِدَلْوِي ٱلدِّلَاءُ

(حق) أي : ثبت واستقر (لي فيك) أي : في مدحك ما لم يكن في حسابي ، وهو (أن أساجل قوماً) وهم الشعراء الذين مدحوك ؛ أي : أفاخرهم فأقول : ما صنعته خير مما صنعتموه ، وأبين لهم ذلك حتىٰ يذعنوا لي في ذلك ، ويصيروا قد (سلمت منهم لدلوي الدلاء) وحينئذ أفوز منك بأبلغ مما فازوا به .

وعبر بـ(الدلو) لأن (السجل) هو : الدلو العظيمة المملوءة ، مُذَكَّر ، وملء الدلو ، ومن هـٰذا قولهم : الحرب بينهم سجال ـ ككتاب ـ أي : سجل منها علىٰ هـٰؤلاء ، وأخرىٰ علىٰ هـٰؤلاء ، ذكره في « القاموس » ، وعليه فالمساجلة تطلق علىٰ تنازع المستقين علىٰ بئر بدلاء مختلفة ، يريد كل منهم أن يظفر بملء دلوه قبل الآخرين .

شبه بهم المادحون في تنازعهم فيما يبرزونه ، وادعاء كل أن ما أبرزه خير مما أبرزه غيره ، فهي استعارة بالكناية ، وإثبات (المساجلة) استعارة تخييلية ، وذكر (الدلو) ترشيح .

ثم أشار إلىٰ علة أخرىٰ لتميزه عليهم وتسليمهم له ذلك ، فقال :

(432)

إِنَّ لِـي غَيْـرَةً وَقَـدْ زَاحَمَتْنِـي فِـي مَعَـانِـي مَـدِيحِـكَ ٱلشُّعَـرَاءُ

(إن لي غيرة) ـ بالفتح ـ علىٰ مديحك ؛ أي : حمية توجب لي أن لا أحب أن غيري يسبقني فيه (و) الحال أنه (قد زاحمتني في معاني) ألفاظ (مديحك الشعراء) وأرادوا : أن يسبقوني فيه .

(433)

وَلِقَلْبِـي فِيـكَ ٱلْغُلُـوُّ وَأَنَّـىٰ لِلِسَـانِـي فِـي مَـدْحِـكَ ٱلْغُلَـوَاءُ

(و) الحال أنه استحكم (لقلبي فيك) أي : في محبتك (الغلو) أي : مجاوزة الحد الذي بلغ إليه أمثالي (وأنىٰ) يكون (للساني في مدحك الغلواء) أي : الإسراع والتقدم عليهم بما لا يصلون إليه لولا إسعافك وإمدادك ونظرك لي بما يميزني عليهم .

فـ(أنىٰ) استفهامية بمعنى : (كيف) نحو : ﴿ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾ أو بمعنى : من أين ، نحو : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ وترد أيضاً بمعنى : (متى) أو (حيث) ويحتمل الكل : ﴿ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ ﴾ لـٰكن الذي اختاره أبو حيان وغيره : أنها في الآية شرطية حذف جوابها لدلالة ما قبلها عليه ، لا استفهامية ، وإلا . . لاكتفت بما بعدها ، كما هو شأنها أن يكتفىٰ بما بعدها[1] ؛ أي : تكون كلاماً يحسن السكوت عليه اسماً كان أو فعلاً ، ويصح كسر (إن) أي : وإني ، فـ(الياء) اسمها ، لـٰكن الأول أبلغ وأظهر كما لا يخفىٰ .

(434)

فَـأَثِـبْ خَـاطِـراً يَلَـذُّ لَـهُ مَـدْ حُـكَ عِلْمـاً بِـأَنَّـهُ ٱلـلَّأْلَاءُ

(فـ) بسبب صدق محبتي ، وشدة غيرتي ، ومزاحمة أقراني لي مع إرادتهم التقدم علي (أثب خاطراً) أي : قريحة لي علىٰ هـٰذا المديح البديع ؛ بأن تمدها بما تفوق به

(١) انظر « البحر المحيط » (٢/ ١٧١ـ١٧٢) .

جميع مزاحميها ومسابقيها ، فإنك أكرم من جازىٰ محبيه ، وأجود من جاد علىٰ مادحيه ، وأنا من أصدقهم محبة ، وأبلغهم مدحة ، كيف وقلبي (**يلذ له مدحك**) لذةً تحمله علىٰ أن يبذل وسعه مع صدق التوجه إليك وبك في اختراع ما لم يسبق إليه ، ولا حام أحد قبله عليه (**علماً**) أي : لأجل علمه (**بأنه**) أي : مديحك (**اللألاء**) أي : الفرح التام ، كذا في « القاموس » وغيره ، فإن كان (الفرَج) بـ(الجيم) . . فواضح ، أو (بالحاء) المهملة . . ففيه بعد ، ويصح أنه من : تلألأ البرق بمعنى : لمع ؛ أي : علماً بأن مديحك يضيء قلوب المادحين لا سيما أبلغهم حتىٰ يأتي في مدحك بالمعاني البديعة ، والأساليب العجيبة ، كما وقع لي في هـٰذا النظم المتميز علىٰ غيره بأمور ، منها : أنه

(435)

حَـاكَ مِـنْ صَنْعَـةِ ٱلْقَـرِيـضِ بُـرُوداً ... لَـكَ لَـمْ تَحْـكِ وَشْيَهَـا صَنْعَـاءُ

(**حاك**) أي : نسج ذلك الخاطر فيه (**من صنعة القريض**) أي : الشعر (**بروداً**) جمع برد ، وهو : نوع من أنواع الثياب اليمانية فيه زينة (**لك لم تحك وشيها**) أي : نقشها بالألوان المختلفة (**صنعاء**) مدينة باليمن ، مشهورة بجودة النسج والوشي ، شبه المعاني البديعة في إدهاشها للقلوب عند سماعها بالأبراد المَوْشِيَّة المدهشة للأبصار عند رؤيتها ، وأثبت لها ما هو من لوازم المشبه به وهو الوشي والحوك ، كما أثبت للمشبه ما هو ملائم له وهو القريض ، ففيه استعارة تصريحية مرشحة بذكر الوشي والحوك ، ومجردة بذكر القريض ، ومنها : أنه قد

(436)

أَعْجَـزَ ٱلـدُّرَّ نَظْمُـهُ فَـٱسْتَـوَتْ فِيـ ... ـهِ ٱلْيَـدَانِ ٱلصَّنَّـاعُ وَٱلْخَـرْقَـاءُ

(**أعجز الدر نظمه**) أي : إن نظم هـٰذه القصيدة المشتملة من البلاغة علىٰ غاية لم يشتمل عليها غيرها فاق الدر النفيس المنظوم الذي يدهش الفكر ويخطف البصر لضوئه وصفائه (**فاستوت فيه**) أي : في العجز عنه (**اليدان**) أي : القريحتان (**الصناع**)

بفتح الصاد المهملة ، وبالنون والعين المهملة ؛ أي : الحاذقة الماهرة (والخرقاء) أي : العيية .

437

فَٱرْضَهُ أَفْصَحَ ٱمْرِئٍ نَطَقَ ٱلضَّا دَ فَقَامَتْ تَغَارُ مِنْهَا ٱلظَّاءُ

(فـ) بسبب ما تميز به هٰذا النظم عن غيره (ارضه) أي : اقبله يا خير من أمله المادحون ، ورجاه العارفون ، وأكرم خلق الله تعالىٰ وأجودهم ، وتجاوز عما فيه وإن كان فيه من الفصاحة ما لا يدركه غيرك ، يا (أفصح امرىء نطق الضاد) أي : بها ؛ أي : يا أفصح العرب العَرْباء ، وهٰذا اقتباس من قوله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِٱلضَّادِ . . . » الحديث[1] ، وخصها ؛ لأن غير العرب لا يحسن إخراجها من مخرجها ، والعرب وإن أحسنوه لٰكنهم متفاوتون فيه ، وكلهم لم يصل أحد منهم إلى الحد الذي كان صلى الله عليه وسلم يصل إليه في تأديتها .

وكأن وجه هٰذا الاقتباس إظهار الناظم : أن ما أتىٰ به وإن بالغ في بلاغته لا يتأهل إلىٰ مدحه صلى الله عليه وسلم ؛ لأن فصاحته معجزة لغيره ، فأي بلاغة تؤدي ما يليق به ؟! فكأنه يقول : يا أفصح الفصحاء ؛ اقبل ما جئت به وإن لم يشم أدنىٰ رائحة من روائح فصاحتك ، بل ولا وفىٰ بما يليق بكمالك ، ويؤيد هٰذا قوله الآتي : (أبذكر الآيات . . .) إلخ .

(فـ) بسبب اختصاص (الضاد) بتعسر أو تعذر النطق بها علىٰ غير العرب ، وتعذر نهايته علىٰ غيره صلى الله عليه وسلم ، وقرب (الظاء) من مخرجها ، ولم تظفر بما ظفرت به (الضاد) (قامت) فاعله (الظاء) وأشار بـ (قامت) إلىٰ أنها تسمىٰ بـ(الظاء) القائمة حال كونها (تغار منها) أي : (الضاد) (الظاء) لكون (الضاد) تميزت عليها بتلك المرتبة العلية ؛ أي : أرادت (الظاء) فضلاً عن غيرها أن يحصل لها مرتبة تضاهي تلك المرتبة ، فلم تحصل لها ، فغارت حينئذ .

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في « تفسيره » (١/ ٣٠) : (وأما حديث : « أنا أفصح من نطق بالضاد » . . فلا أصل له ، والله أعلم) ، وأورده القاري في « المصنوع » (ص٦١) وقال : (معناه صحيح ، ولا أصل له كما قال ابن كثير وابن الجزري) .

ثم طلبي من كرمك يا أكرم الخلق الرضا بهٰذه القصيدة ليس لكونها وفت بحقوقك الواجب استقصاؤها في مدحك ، بل للطمع في سعة حلمك وجودك .

(438)

أَبِـذِكْـرِ ٱلْآيَـاتِ أُوفِيـكَ مَـدْحـاً   أَيْـنَ مِنِّـي وَأَيْـنَ مِنْهَـا ٱلْـوَفَـاءُ

(أبذكر الآيات) في هٰذا النظم ؛ أي : الخصائص والمعجزات التي علمناها ، الدالة علىٰ وصولك لما لم يصل إليه مخلوق (أوفيك مدحاً) لا ؛ إذ لا يمكن أن يوفيك ذلك إلا من أحاط بمقامك ، وأنىٰ ذلك لغيرك مثلي ؟![1]

(أين مني) الوفاء بذلك وأنا من جملة العاصين العاجزين المقصرين (وأين منها الوفاء) بذلك وهي محصورة ، وكمالاته صلى الله عليه وسلم غير محصورة ؟!

(439)

أَمْ أُمَـارِي بِهِـنَّ قَـوْمَ نَبِـيٍّ   سَـاءَ مَـا ظَنَّـهُ بِـيَ ٱلْأَغْبِيَـاءُ

(أم) متصلة (أماري) أي : أجادل (بهن) أي : بذكري لتلك الآيات (قوم نبي) أي : المادحين لنبينا صلى الله عليه وسلم ؛ أي : لم أذكر تلك الآيات بقصد أني أوفي بها حقه صلى الله عليه وسلم ، ولا بقصد أن أجادل بها أمته ، ومن ظن بي واحداً منهما . . فهو غبي لا يفهم ولا يعقل شيئاً (ساء ما ظنه بي الأغبياء) لأنهم لقلة فطنتهم يتجاسرون على الناس بما هم بريئون منه .

(440)

وَلَـكَ ٱلْأُمَّـةُ ٱلَّتِـي غَبَطَتْهَـا   بِـكَ لَمَّـا أَتَيْتَهَـا ٱلْأَنْبِيَـاءُ

(ولك) استئناف ، أو عطف علىٰ محذوف ؛ أي : لك الآيات التي لا تحصىٰ ،

---

(١) قوله : (لغيرك مثلي) كذا هو في جميع النسخ ، وهو مشكل ، ولعل الصواب : (لغيرِ مثلي) ، أو : (لمثلي) ، والله أعلم .

ولك (**الأمة**) الوسط ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي : خياراً عدولاً ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (**التي غبطتها**) من الغبطة ، وهي ـ كما مر ـ : وُدُّ الإنسان أن له من الخير مثلَ غيره من غير سلبه عنه ، والحسد : وُدُّ ذلك مع سلبه عنه (**بك لما**) أي : حين (**أتيتها**) أي : أرسلت إليها (**الأنبياء**) فإنهم وإن كانوا من أمتك بنص : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ . . . ﴾ الآية ، ومر الكلام عليها ، لـٰكنهم وَدُّوا أن يكونوا من أتباعك الذين بعثت فيهم ؛ ليفوزوا بغاية الفخر ، كما فاز بذلك أمتك الذين بعثت فيهم فأطاعوك .

فإن قلت : كان القياس : غبطتك بها الأنبياء ؛ لأنها أفضل من أممهم ، بنص : ﴿ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي : وَدُّوا أن يكون لهم مثلهم ، كما صرح به موسىٰ فيما يأتي .

قلت : هـٰذا وإن كان هو القياس ، لـٰكنه ارتكب فيه القلب الذي هو من أحد أنواع البديع ، خشية أن يتوهم من ذلك مدحه لنفسه ؛ لأن مدح العام مدح لكل من أفراده . فتأمله .

ثم رأيت ما يدل للقياس المذكور ، وهو ما رواه أبو نعيم أيضاً : أن الله تعالىٰ لما ذكر لموسىٰ صفات هـٰذه الأمة . . « قَالَ : يَا رَبِّ ؛ فَٱجْعَلْنِي نَبِيَّ تِلْكَ ٱلْأُمَّةِ ، قَالَ : نَبِيُّهَا مِنْهَا ، قَالَ : فَٱجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ ذَلِكَ ٱلنَّبِيِّ ، قَالَ : ٱسْتَقْدَمْتَ وَٱسْتَأْخَرَ ، وَلَـٰكِنْ سَأَجْمَعُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فِي دَارِ ٱلْجَلَالِ »[1] .

ولِعَلِيٍّ نظرك إليها

(441)

لَـمْ تَخَـفْ بَعْـدَكَ ٱلضَّـلَالَ وَفِيْهَـا ... وَارِثُـــو نُـــورِ هَـــدْيِـــكَ ٱلْعُلَمَـــاءُ

(**لم تخف بعدك الضلال**) عما تركتها عليه من الشريعة الواضحة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك (**و**) الحال أن (**فيها**) أعلام الهدىٰ ، وهم (**وارثو نور هديك**) أي : ما كنت عليه أنت وأصحابك ، وهـٰؤلاء هم (**العلماء**) الذين هم أهل السنة والجماعة ، وهم أتباع أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي رضي الله

---

(١) دلائل النبوة (١/ ٧٧) ، وليس فيه قوله : « قال : استقدمت وتأخر ، ولـٰكن . . . » إلخ .

تعالىٰ عنهما ، وذلك كما أخبرتنا به بقولك في الأحاديث الصحيحة : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ ٱللهِ وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ » أي : وهـٰؤلاء هم أهل العلوم الشرعية والآلية من أهل العلم ؛ لأن الناس مع وجودهم آمنون من كل محنة وضلالة وبلية ، وبقولك أيضاً : « ٱلْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلأَنْبِيَاءِ ، إِنَّ ٱلأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً ، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا ٱلْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ.. أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ »[١] صححه جماعة ، وفي رواية زيادة : « يُحِبُّهُمْ أَهْلُ ٱلسَّمَاءِ ، وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمُ ٱلْحِيتَانُ فِي ٱلْبَحْرِ »[٢] .

وفي أخرى : « وَإِنَّمَا ٱلْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ »[٣] .

وفي أخرى : « أَقْرَبُ ٱلنَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ ٱلنُّبُوَّةِ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِهَادِ »[٤] .

وفي أخرى : « كَادَ حَمَلَةُ ٱلْقُرْآنِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ إِلاَّ أَنَّهُمْ لاَ يُوحَىٰ إِلَيْهِمُ »[٥] .

وفي أخرى : « مَنْ حَفِظَ ٱلْقُرْآنَ.. فَقَدْ أُدْرِجَتِ ٱلنُّبُوَّةُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ إِلاَّ أَنَّهُ لاَ يُوحَىٰ إِلَيْهِ »[٦] .

ورواية : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » لا أصل لها ، ولـٰكن معناها صحيح ؛ لما تقرر أن العلماء ورثة الأنبياء .

وقوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي : في العلم والحكمة والنبوة والرسالة ، ومنه : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي﴾ للخبر الصحيح : « إِنَّا مَعَاشِرَ ٱلأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ »[٧] .

وأشار الناظم بما ذكره إلىٰ أن الله تعالىٰ خص هـٰذه الأمة في التوراة بخصائص لم

---

(١) أخرجه أبو داوود (٣٦٣٦) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .
(٢) ذكره الديلمي في « الفردوس » (٣/ ٧٥) .
(٣) أخرجه الدارمي (٣٩٤) موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه .
(٤) أخرجه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٥٢٤) .
(٥) ذكره الديلمي في « الفردوس » (١/ ٧٥) .
(٦) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٧/ ١٦٢) وقال : (وفيه إسماعيل بن رافع وهو متروك) ، وأخرجه البيهقي في « الشعب » (٢٥٩٠) بلفظ : « استدرجت... » .
(٧) أخرجه ابن عدي في « الكامل » (٢/ ٨٦) .

يؤتها لغيرهم ، تكرمة لنبيهم ، وزيادة في شرفهم .

منها كما في حديث أبي نعيم : أن موسىٰ لما رأىٰ مدح هٰذه الأمة في التوراة . . قال : يا رب ؛ أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون ، فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، ثم كرر ذلك مع أوصاف أخر ، وكرر جوابه كذلك ، قال : يا رب ؛ فاجعلني من أمة أحمد ، فقال : ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى . . . ﴾ الآية ، فقال : رضيت يا رب[1] .

وفي رواية : أنه سأل ربه : هل في الأمم أكرم عليك من أمتي ؟ فبين أن فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم علىٰ سائر أمم الأنبياء كفضله تعالىٰ علىٰ جميع خلقه .

ومنها : أن أحداً لا يدخل الجنة قبلهم ، ومنها : الوضوء على الكيفية المخصوصة ، والتيمم ، وإباحة الغنائم ، وأن كل الأرض تصح صلاتهم فيها ، ويجوز جعلها مسجداً إلا محل مسجد الضرار ، ومجموع الصلوات الخمس ، والتأمين خلف (الفاتحة) كما صح به الخبر[2] ، والركوع ؛ لخبر به رواه البزار والطبراني[3] ، ومن ثم قال جمع مفسرون : إن صلاة من قبلنا لا ركوع فيها .

وفسروا : ﴿ ٱرْكَعُوا۟ ﴾ بـ(صَلُّوا) ، ﴿ وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ بـ(صلي مع المصلين) .

وأن صفوفهم في الصلاة كصفوف الملائكة ، رواه مسلم[4] ، والجمعة ، رواه البخاري[5] ، وساعة الإجابة في يومها .

وشهر رمضان عند الجمهور ، فالتشبيه في الآية لمطلق الصوم ، وخبر : أنه « كُتِبَ عَلَىٰ مَنْ قَبْلَنَا » في سنده مجهول ، ونظر الله إليهم أوله ، وتزيين الجنة فيه ، وخلوف أفواههم أطيب من ريح المسك ، واستغفار الملائكة لهم حتىٰ يفطروا ، وعموم

---

(١) دلائل النبوة (١/ ٧٧) .
(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٥٨٦) .
(٣) مسند البزار (٨١٤) ، والمعجم الأوسط (٧٢٤٩) ، وانظر « الخصائص الكبرى » للسيوطي (٢/ ٢٠٥) .
(٤) مسلم (٥٢٢) .
(٥) البخاري (٨٧٦) .

المغفرة لهم آخر ليلة فيه ، رواه البيهقي بسند لا بأس به بلفظ : « أُعْطِيَتْ أُمَّتِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي. . . » الحديث ، واستغفار الحيتان لهم حتىٰ يفطروا ، رواه البزار ، والسحور ، وتأخيره ، وتعجيل الفطر ، رواه الشيخان[1] ، وإباحة الطعام والجماع إلى الفجر .

والاسترجاع عند المصيبة ، قاله سعيد بن جبير .

ورفع أثقال التكليفات التي كانت علىٰ من قبلهم ، كتحتم القِصاص حتىٰ في الخطأ ، وقطع الأعضاء الخاطئة وموضع النجاسة ، وقتل النفس في التوبة ، والمؤاخذة بالخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، كما صح به الخبر[2] .

وأن الله لم يجعل عليهم في دينهم من حرج ، وأن الإسلام وصف خاص بهم عند جماعة ، لٰكن الذي اعتمده ابن الصلاح وغيره خلافه ، وأن شريعتهم أكمل من سائر الشرائع ، كما أن نبيهم أكمل الأنبياء ، وقد كان لموسىٰ وشريعته من الحلال الصرف ضد ما كان لعيسىٰ وشريعته من كل وجه ، وشريعتنا اعتدل فيها الأمران ، فسلمت عن شدة تلك ولين هٰذه ، واعتدلت في جميع جزئياتها ، ومن ثم وهب الله لهم من علمه وحلمه ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، وأعطاهم مرتبة الشهادة علىٰ من سبقهم في القيامة ، فأقامهم مقام الأنبياء في الشهادة عليهم ، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم ، كما كمل لنبيهم ما فرقه في الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام ، ولكتابهم ما فرقه في الكتب .

وأنهم لا يجتمعون علىٰ ضلالة ، كما في الحديث المشهور ، وأسانيده كثيرة ، وشواهده متعددة من المرفوع وغيره[3] .

وأن إجماعهم حجة ، واختلافهم رحمة ، وفي حديث ضعيف منقطع : « ٱخْتِلَافُ أَصْحَابِي لَكُمْ رَحْمَةٌ » وفي رواية اقتضىٰ كلام الخطابي أن لها أصلاً عنده ، وبه رد زعم كثير من الأئمة : أنه لا أصل لها : « ٱخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ لِلنَّاسِ » .

---

(١) البخاري (١٩٥٧) ، ومسلم (١٠٩٨) .
(٢) أخرجه ابن حبان (٧٢١٩) ، والحاكم (٢/ ١٩٨) ، وابن ماجه (٢٠٤٣) ، وغيرهم .
(٣) أخرجه الحاكم (١/ ١١٥) ، والترمذي (٢١٦٧) ، وابن ماجه (٣٩٥٠) ، وغيرهم .

وأن الطاعون شهادة لهم ، وعذاب علىٰ غيرهم ؛ لخبر به رجاله ثقات[1] .

وأنهم حفظوا آثار رسولهم علىٰ قوانين علم الحديث بما لم يوجد نظيره في أمة .

وأن فيهم أقطاباً وأوتاداً ، ونقباء ونجباء وأبدالاً ، كما جاء في أحاديث في الأبدال ونحوهم[2] .

وأنهم يخرجون من قبورهم بلا ذنوب ؛ لاستغفار المؤمنين لهم ، رواه الطبراني وغيره[3] .

وأنهم أول من تنشق عنه الأرض ، رواه أبو نعيم[4] .

ويميزون يوم القيامة بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء ، رواه البخاري[5] ؛ أي : ينادون بهـٰذا الوصف ، ويكونون بهـٰذه الصورة .

ويكونون مع نبيهم علىٰ كوم مشرف في الموقف ، يغبطهم فيه جميع الأمم ، رواه جماعة[6] .

ويميزون بسيما السجود في وجوههم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وهي بياض شديد ، وقال شهر بن حوشب : نور كالقمر ليلة البدر ، قال الله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم . . . ﴾ الآية ، وقيل : هـٰذا في الدنيا ، وعليه قال ابن عباس : السمت الحسن ، أو سمت الإسلام وخشوعه ، وقيل : الصفرة في الوجه من أثر السهر .

ويؤتون كتبهم بأيمانهم ، رواه أحمد وغيره[7] .

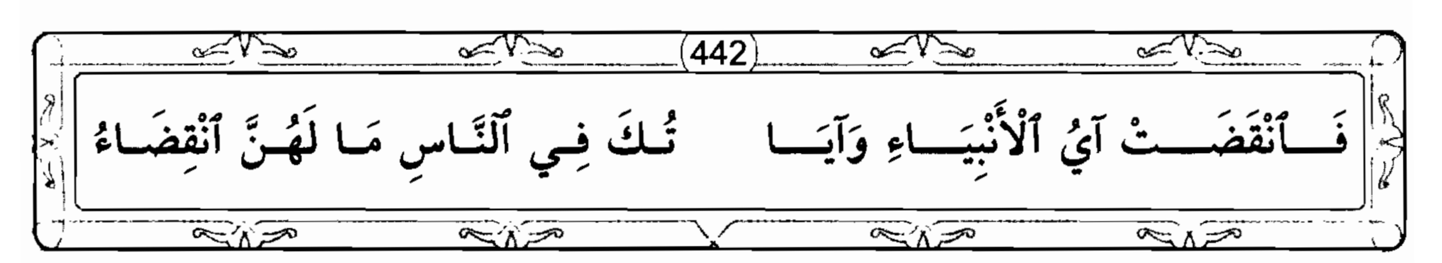
---

(١) أخرج البخاري (٢٨٣٠) ، ومسلم (١٩١٦) : « الطاعون شهادة لكل مسلم » .
(٢) انظر « مسند الإمام أحمد » (٥/ ٣٢٢) ، و« مجمع الزوائد » (١٠/ ٦٥) .
(٣) المعجم الأوسط (١٩٠٠) .
(٤) دلائل النبوة (١/ ٧٢) .
(٥) البخاري (١٣٦) .
(٦) ذكره ابن كثير في « تفسيره » (١/ ١٩١) وعزاه لابن مردويه وابن أبي حاتم .
(٧) مسند أحمد (٥/ ١٩٩) .

ويسعىٰ نورهم بين أيديهم ، كما صح به الخبر[1] .

ويصل لهم ما سعي لهم من صوم وحج وصدقة ودعاء وقراءة ، بل وكل عبادة عند كثيرين ، وآية : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ منسوخة ، أو في حق الكافر .

ويدخل منهم الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، رواه الشيخان[2] ، زاد الطبراني والبيهقي : « مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً »[3] .


(442)

فَـانْقَضَـتْ آيُ الْأَنْبِيَـاءِ وَآيَـا تُـكَ فِـي النَّـاسِ مَـا لَهُـنَّ انْقِضَـاءُ

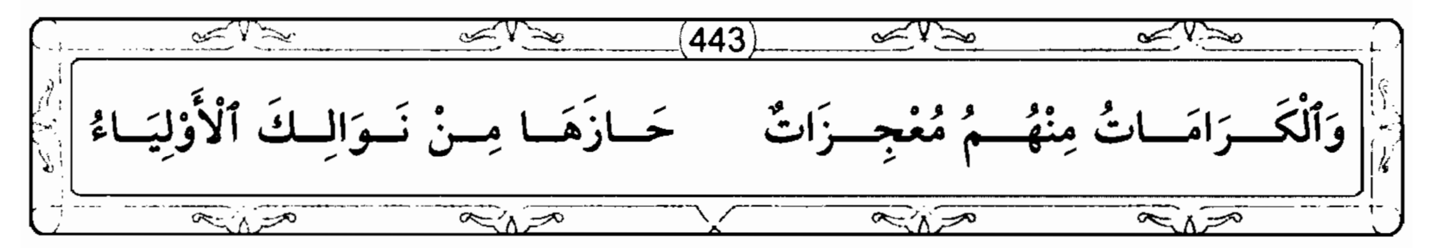
(فـ) بسبب أن في الأمة وارثي هديك المخصوصين بهٰذه الخصائص التي لم توجد لغيرهم من الأمم (انقضت آي الأنبياء) أي : معجزاتهم ؛ لانتساخ شرائعهم بموتهم ، وأن من كان من بعد موسىٰ إلىٰ عيسىٰ إنما هو مرسل بكتاب موسىٰ (وآياتك) أي : معجزاتك (في الناس) قبل وجودك ومعه وبعد وفاتك (ما لهن انقضاء) فيه العكس ، نحو : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ . . . ﴾ الآية ، ورد العجز على الصدر .

أما الأولان . . فقد مر منهما جملة ، منها : ما في كتب الله من ذكره ونعته وخروجه بأرض العرب ، وما خرج بين يدي أيام مولده وبعثه من الأمور العجيبة المهولة للكفر وأهله ، والمؤيدة لشأن العرب ، كقصة الفيل ، وعقاب أهله ، وخمود نار فارس ، وسقوط شرافات إيوان كسرىٰ ، وغيض ماء بحيرة ساوىٰ ، وخمود نارهم ، وما سمع من الهواتف الصارخة به صلى الله عليه وسلم وبأوصافه ، وانتكاس الأصنام المعبودة لولادته صلى الله عليه وسلم ، وتظليل الغمام له في سفره ، إلىٰ غير ذلك مما ورد في الأخبار إلىٰ بعثته صلى الله عليه وسلم مما هو تأسيس لنبوته صلى الله عليه وسلم ، وإرهاص لرسالته عليه الصلاة والسلام ، وأما الأخير . . فكثير جداً ؛ إذ في كل حين

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٤٧) .
(٢) البخاري (٣٢٤٧) ، ومسلم (٢١٦) .
(٣) المعجم الكبير (٨/ ١٥٥) .

يقع لخواص أمته من خوارق العادات بسببه مما يدل علىٰ تعظيم قدره الكريم . . ما لا يحصىٰ ، كما قال :



(والكرامات) الواقعة (منهم) أي : الناس (معجزات) إذ كل منهما أمر خارق للعادة ، وإنما يفترقان بالتحدي وعدمه ، لٰكنها في الحقيقة معجزات لك (حازها من نوالك) أي : عطائك وكرمك (الأولياء) وكان القياس حازوها ، لٰكنه أظهر ؛ ليبين أن مراده بـ (منهم) العائد علىٰ (الناس) خواصهم ، وهم (الأولياء) جمع ولي ، فعيل بمعنىٰ فاعل ؛ لأنه والى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فلم يخرج عن أمرهما ونهيهما إلىٰ ما يغضبهما ، أو مفعول ؛ لأن الله تعالىٰ والاه بخوارق نعمه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم والاه بمزيد إمداده وكرمه .

وضابط الولي : أنه المداوم علىٰ فعل الطاعات واجتناب المعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات ، كذا قالوه ، ويتجه : أن هٰذا ضابط للولي الكامل ، وأن أصل الولاية يحصل لمن وجدت فيه صفة العدالة الباطنة بالشروط المذكورة عند الفقهاء .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم المتكررة الدائمة أيضاً : ما يقع للمتوسلين به من خوارق العادات مما لا يحصىٰ أيضاً ، هٰذا كله مع قطع النظر إلى القرآن الكريم ، فبالنظر إليه وأنه معجزته الكبرىٰ . . ففيه من المعجزات المتكررة بتكرر الأزمنة ما لا يحصىٰ أيضاً .

واعلم : أنه صلى الله عليه وسلم كما فضله الله في البدء ؛ بأن جعله أول الأنبياء خلقاً وإجابة يوم : ﴿ أَلَسْتُ ﴾ . . جعله أول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع ، وأول مشفع ، وأول ناظر إلىٰ ربه ، وأول نبي يقضي بين أمته ، وأولهم إجازة بأمته على الصراط وداخلاً الجنة ، وهم أول الأمم دخولاً إليها ، وزاده من لطائف التحف ونفائس الطرف ما لا يحد ، كبعثه راكباً ، وتخصيصه بالمقام المحمود ، وهو الشفاعة العظمىٰ في فصل القضاء ، وبلواء الحمد الذي تحته آدم فمن دونه ، وبالسجود أمام العرش ، ويفتح عليه حينئذ بما لم يفتحه عليه ولا علىٰ أحد قبله ، ولا يفتح أيضاً علىٰ

أحد بعده ، والنداء بـ« يَا مُحَمَّدُ ؛ ٱرْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ ، وَسَلْ تُعْطَ ، وَٱشْفَعْ تُشَفَّعْ »[1] وقيامه صلى الله عليه وسلم عن يمين العرش الذي لم يقمه مخلوق يغبطه فيه الأولون والآخرون ، وشهادته للأنبياء عليهم الصلاة والسلام علىٰ أممهم .

تنبيه : علم مما تقرر : أن الكرامة : ظهور أمر خارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة علىٰ يد من عرفت ديانته ، واشتهرت ولايته باتباع نبيه في جميع ما جاء به ، وإلا . . فهي استدراج أو سحر أو إذلال ، كما وقع لمسيلمة الكذاب لعنه الله تعالى : أنه جاءه أعور يدعو له ، فدعا له ، فعميت الصحيحة أيضاً ، وتسمىٰ إهانة .

وقد يظهر الخارق علىٰ يدي عاميّ ، تخليصاً له من فتنة ، ويسمىٰ معونة .

وأنكر جماعةٌ محرومون ـ كأكثر المعتزلة وإن وافقهم بعض منا ، لـٰكن يتعين تأويل كلامه ؛ لأن جلالته تأبىٰ أن يرضىٰ بهـٰذا الزيف الذي انتحلوه ـ جوازَ الكرامة ووقوعها ، وعليه قيل : يمتنع كونها بقصد واختيار ؛ لأدائها إلى السقوط عن مرتبة الولاية ، وقيل : يمتنع كونها من جنس معجزة نبي ، وإلا . . لالتبست بالمعجزة ، وردهما الفخر الرازي رحمه الله تعالىٰ بأن المرضي تجويز حمله علىٰ خوارق العادات في معرض الكرامات ، والمميز لها عن المعجزة إنما هو ادعاء النبوة ، وكأنه لم يرض قول جماعة منهم القشيري : لا تنتهي إلىٰ إحياء ميت ، ولا إلىٰ وجود ولد من غير أب ، ومن ثم رد بعموم قولهم : ما جاز أن يكون معجزة لنبي . . جاز أن يكون كرامة لولي .

وليس من شروط المعجزة غير القرآن : أن لا يمكن نظيرها ، بل أن يعجز المعارضون عن نظيرها .

ومن أدلة الجواز : أن الوقوع ممكن كالمعجزة ، وقدرة الله تعالىٰ شاملة لهما ، ولا بدع أن الملك يصدق رسوله بخرق بعض العادات ، ثم يفعل مثل ذلك ببعض أتباعه إكراماً له .

ومن أدلة الوقوع : النص القاطع بما وقع لمريم : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ . . . ﴾ الآية ، وفي ولادة عيسىٰ ، ولأصحاب الكهف ، ولوزير سليمان في

---

(1) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) .

عرش بلقيس ، ونظائر ذلك ، وزعم : أنها إرهاص.. باطل ، علىٰ أن المعتزلة لا يقولون به ، سلمناه ، هو لا يمنع تسمية ذلك كرامة علىٰ يد من ظهرت عليه ، والتواتر المعنوي وإن كانت التفاصيل آحاداً في كرامات الصحابة ، لا سيما ما وقع لعمر وعلي ـ رضي الله عنهما ـ وتابعيهم ومن بعدهم إلىٰ زمننا ، بل ظهورها يكاد يلحق بظهور معجزات الأنبياء ، ولا عجب من إنكار المبتدعة ذلك ؛ فإنهم حرموا مشاهدة شيء منها من أنفسهم ومشايخهم ، وكثرة ظهورها لا يخرجها عن كونها خارقة ، خلافاً لمن زعمه ؛ لأنه يلزمه ذلك في المعجزة ، علىٰ أن الكثرة فيها لا تنافي قلتها بالنسبة للعادة المستمرة .

وظهور الخارق علىٰ يد غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يخل بقدرهم ، بل يزيد في جلالة أقدارهم ، والرغبة في اتباعهم ، حيث نالت أممهم وأتباعهم مثل هـٰذه الدرجة ببركة الاقتداء بشريعتهم ، والاستقامة علىٰ طريقتهم ، وبما مر : أن الخارق لا يسمىٰ كرامة إلا إن ظهر علىٰ يدي من مر.. يعلم : أن الكرامة لا تشتبه بالسحر أصلاً ؛ لأنا ننظر لحال من ظهر الخارق علىٰ يديه ، فإن توفرت فيه شروط الولاية.. فذلك الخارق كرامة في حقه ، وإلا.. فهو سحر أو غيره مما مر .

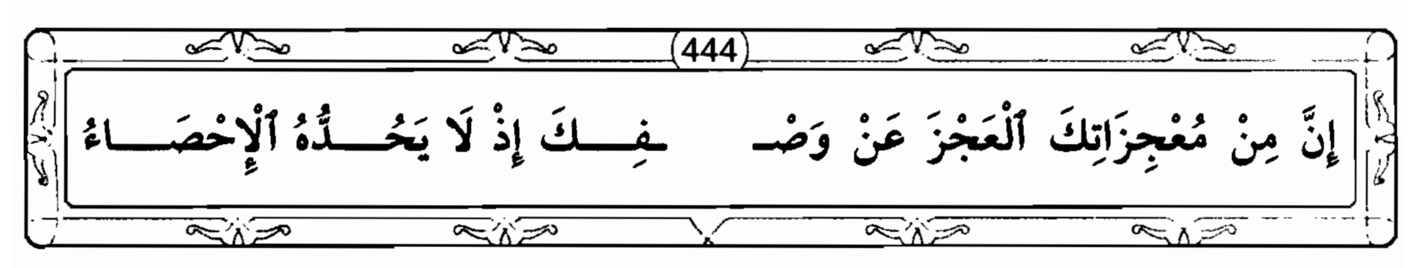
وزعم أن الساحر لا يمكن أن يقلب عيناً ، كآدمي حماراً ، ولا يقلب طبيعة ، بخلاف الولي.. ليس في محله ، بل الخلاف فيهما واحد ، قال جمع : يستحيل عليهما ذلك ، وجمع : يجوز في حقهما ذلك ، وهو الأصح .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ . . . ﴾ الآية.. فالاستثناء فيه منقطع ، بدليل : ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ . . . ﴾ إلخ ، بل يعينه : أن : ﴿ غَيْبِهِۦ ﴾ مفرد مضاف ، فهو للعموم واستغراق النفي في هـٰذا الكل فرد فرد من المخلوقين ؛ إذ مدلول العام كلية ، لا كلي ولا كل ، خلافاً لمن وهم فيه ، فمحمل الآية عليه باق علىٰ حقيقته ؛ إذ الغيوب كلها لم يطلع الله عليها أحداً من خلقه ، وإنما غاية من أطلعه منهم : أنه أطلعه علىٰ جزئيات مخصوصة ، وبتقدير أنه متصل ، وأن المراد : أنه لا يُظهِر علىٰ بعض غيبه إلا الرسول.. فلا حجة لهم فيه ؛ لأن القطع الضروري بوقوع الكرامات للأنبياء والأولياء يعين أن المراد من الآية : غيب مخصوص ؛ أي : لا يُظهِر علىٰ ذلك الغيب المخصوص إلا من ارتضاه من رسله ،

وأما البقية من الرسل والأنبياء والأولياء . . فلا يظهرهم علىٰ ذلك المخصوص ، بل علىٰ غيره .

واعلم : أن من الكفر الصريح ما حكي عن بعض الكرَّامية : أن الولي غير النبي قد يبلغ درجة النبوة ، وعن بعض المتصوفة الجهلة : أن الولاية فوق رتبة النبوة ، وأن الولي قد يبلغ حالة يسقط عنه فيها التكليف .

قال الغزالي رحمه الله : وقتل الواحد من هـٰؤلاء خير من قتل مئة كافر ؛ لأن ضرر أولـٰئك في الدين أشد ، وليس من أولـٰئك العارفان العالمان ، المحققان الوليان الكبيران ، المحيوي ابن عربي والسراج ابن الفارض وأتباعهما بحق ، خلافاً لمن زل فيهم قدمه ، وطغىٰ قلمه ، إلا أن يكون أراد بما قاله الذب عن اعتقاد ظواهر عباراتهم ، المتبادرة عند من لا يحيط علماً باصطلاحاتهم .



(إن) تأكيد لقوله : (ما لهن انقضاء) (من معجزاتك) الباهرة (العجز) أي : من سائر الناس (عن وصفك) مفرد مضاف ، فهو للعموم ؛ أي : عن الإحاطة بكل فرد من أوصافك التي اختصك الله بها (إذ لا يحده) أي : الوصف المذكور (الإحصاء) : أي العد .

445

كَيْفَ يَسْتَوْعِبُ ٱلْكَلَامُ سَجَايَا   كَ وَهَلْ تَنْزَحُ ٱلْبِحَارَ ٱلرِّكَاءُ

(كيف يستوعب الكلام) الصادر من واصفيك (سجاياك) أي : ما فيك من الأخلاق الكريمة ، والفضائل والأوصاف البالغة أقصىٰ ما يمكن البشر الرقي إليه ، وهي لا حد لها ، باعتبار أنك لا تزال تترقىٰ في مراتب القرب في الحياة وبعد الممات ، وفي الموقف وفي الجنة إلىٰ ما لا نهاية له ولا انقضاء (وهل تنزح البحار) المشبَّهة أوصافُك بها في أن بتلك قيام الوجود الحسي ، وبهـٰذه قيام الوجود المعنوي ؛

لما أنه صلى الله عليه وسلم روح الكون ، والخليفة الأكبر عن الله تعالىٰ في إمداداته (الركاء) المشبهة بها الألفاظ في أن كلاً يتوصل به إلىٰ حيازة بعض المطلوب دون انتهائه ، وهٰذا تذييل مبين لما اشتمل عليه من الاستعارتين المصرحتين المرشح لهما بذكر (النزح) : أن أوصافه صلى الله عليه وسلم لو عبر عنها من أول الزمان إلىٰ آخره . . لا تحد ولا تحصىٰ ، ومما يزيد ذلك بياناً وإيضاحاً أنه

(446)

لَيْسَ مِنْ غَايَةٍ لِوَصْفِكَ أَبْغِيـ ـهَا وَلِلْقَوْلِ غَايَةٌ وَٱنْتِهَاءُ

(ليس من غاية لوصفك) ـ أي : أوصافك ـ توجد حتىٰ أني (أبغيها) أي : أطلبها (وللقول) أي : مني (غاية) لما تقرر أن ذلك الترقي لا نهاية له ؛ إذ لا مطمع في الاطلاع عليه ، وبفرضه لا تحده العبارة ، بخلاف القول منه ، فإنه محدود متناه ، وبهٰذا ـ أعني : قولي : (مني) أولاً ، و(منه) ثانياً مع ما تقرر ـ يندفع ما أشار إليه الشارح من إشكال في ذلك (وانتهاء) تأكيد ، والفرق بين الغاية والنهاية اعتباري .

ومما يزيده بياناً وإيضاحاً أن نقول :

(447)

إِنَّمَا فَضْلُكَ ٱلزَّمَانُ وَآيَا تُكَ فِيمَا نَعُدُّهُ ٱلْآنَاءُ

(إنما فضلك) أي : فضائلك (الزمان) أي : يشبهه من حيث الإجمال فيهما ، وأما بالنسبة للتفصيل . . فجزئيات كل كجزئيات الآخر (وآياتك) أي : معجزاتك وخصائصك (فيما نعده) ونحسبه (الآناء) جمع إنى ، كمِعَىً وأمعاء ، كذا ذكره الشارح ، والذي في « القاموس » : (والأَنْيُ ـ ويكسر ـ والإِنْوُ ـ بالكسر ـ : الوهن ، والساعة من الليل ، أو ساعة ما منه ، والإِنَى كإلىٰ وعَلى : كل النهار) اهـ

والمراد هنا : مطلق الساعات ؛ أي : اللحظات ، فكما أن هٰذه لا تحد . . فكذلك تلك .

هٰذا ولا تظنن أني بإطالتي في هٰذه القصيدة تعداد أوصافه صلى الله عليه وسلم أخالف ما قدمته أنها لا تعد ؛ لأني

(448)

لَمْ أُطِلْ فِي تَعْدَادِ مَدْحِكَ نُطْقِي ۝ وَمُـرَادِي بِـذَٰلِـكَ ٱسْتِقْصَـاءُ

(لم أطل في تعداد مدحك) فيها (نطقي و) الحال أن (مرادي بذلك استقصاء) أي : حصر لأوصافه ، وإنما مرادي بذلك برد الغليل وشفاء العليل ، كما أفاده قوله المشتمل علىٰ أداة الاستثناء الذي هو منقطع هنا

(449)

غَيْـرَ أَنِّـي ظَمْـآنُ وَجْـدٍ وَمَـا لِـي ۝ بِقَلِيـلٍ مِـنَ ٱلْـوُرُودِ ٱرْتِـوَاءُ

(غير أني) لم أرد الحصر ، لٰكني (ظمآن وجد) أي : بي من شدة شوقي لسماع تلك الأوصاف غاية الظمأ والتعطش للارتواء من سماعها (وما) أي : ليس يحصل (لي بقليل من) الماء الذي أشربه حال (الورود) منه (ارتواء) مما بي من العطش ، فإطالتي في التعداد لطلب مزيد الارتواء من سماع تلك الأوصاف ، لا لطلب حصر ؛ لتعذره .

وفي كلامه استعارة مصرحة ؛ لأنه شبه شغفه بتعداد الآيات وذكر أفضل الصفات بظمأ شديد لا يرويه إلا الماء الكثير ، ورشح لذلك بذكر (الورود) و(الارتواء) .

(450)

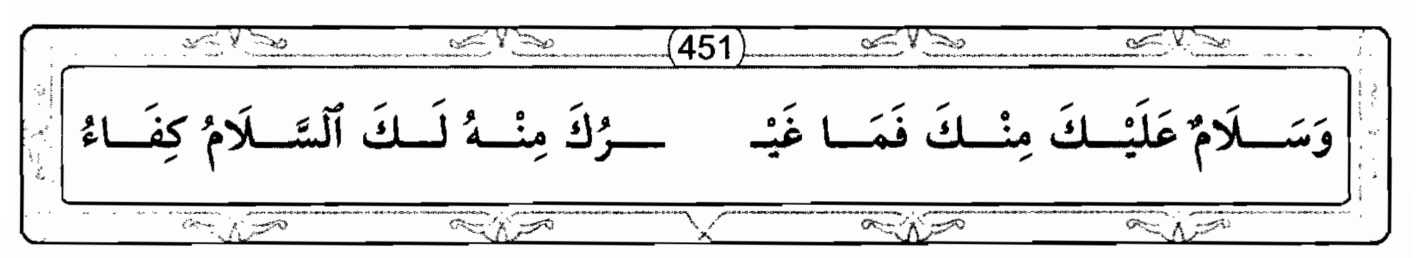
فَسَـلَامٌ عَلَيْـكَ تَتْـرَىٰ مِـنَ ٱللهِ ۝ وَتَبْقَـىٰ بِـهِ لَـكَ ٱلْبَـأْوَاءُ

(فـ) بسبب حصول الارتواء لي من تلك الإطالة أختمها بما هو المتعين من الدعاء لك بالصلاة والسلام ؛ امتثالاً لقوله تعالىٰ : ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ . فأقول : (سلام) عظيم شريف ؛ أي : سلامة من كل آفة ونقص كائنة (عليك تترىٰ) أي : يتكرر ويتبع بعضه بعضاً دائماً ، وفي « القاموس » : (ترىٰ يتري ، كرمى : تراخىٰ ،

وأترى : عمل أعمالاً متواترة بين كل عملين فترة) اهـ

وقد يشكل على استعمال الناظم (تترى) هنا مراداً به ما ذكر ، إلا أن يجاب بأنه أراد به أصل المعنىٰ ، وهو : مطلق التتابع من غير اعتبار تراخ ولا فترة بقرينة المقام ، وقد يخرج البليغ عن المعنى اللغوي إلىٰ ما هو أخص أو أعم منه للضرورة مع الاستغناء بفهم ذلك الخصوص أو العموم منه من قرينة السياق والمقام . فتأمله .

(من الله وتبقىٰ به) أي : بسببه علىٰ ممر الأزمنة إلىٰ فنائها ، وما بعد ذلك مما لا منتهىٰ لآخره (لك البأواء) أي : الفخر ؛ لأن تسليم أمتك عليك مع التكرار والدوام زيادة في شرفك وفخرك .



(451)

وَسَلَامٌ عَلَيْكَ مِنْكَ فَمَا غَيْـ ـرُكَ مِنْهُ لَكَ ٱلسَّلَامُ كِفَاءُ

(و) إنما ذكرت سلام الله عليك ابتداء ؛ مبادرة إلىٰ أشرفيته ، وسلامك ثانياً ؛ لأنك في الحقيقة لا يكافئك من سلام الخلق غير سلامك علىٰ نفسك ، فحينئذ (سلام عليك منك فما) أي : ليس (غيرك) من المخلوقين (منه) متعلق بـ(السلام) (لك) متعلق بـ(كفاء) و(لك) بمعنى : عليك (السلام كفاء) أي : مكافىء لحضرتك ، من المكافأة ، وهي المساواة ؛ إذ كيف يساويك سلام من هو دونك ولم يحط بفضائلك ؟! ومع ذلك لا يطلب من غيرك عدم السلام عليك ، بل يطلب من كل أحد السلام عليك وإن لم يكافئك سلامه ، فمن ثم قال :

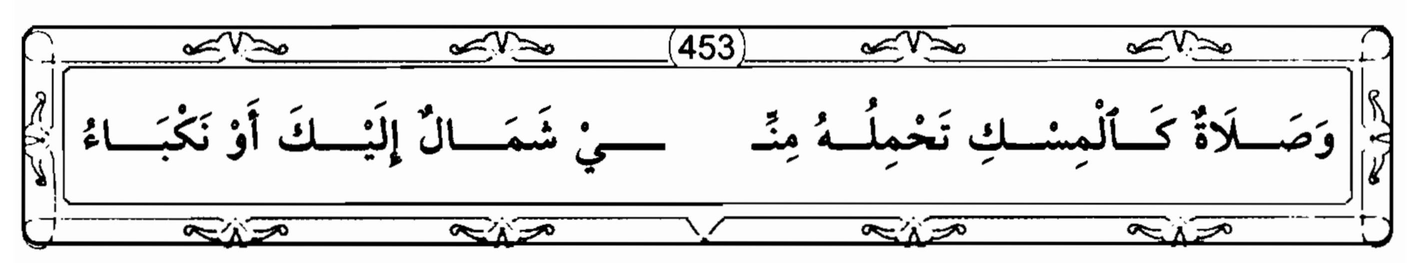
(452)

وَسَلَامٌ مِنْ كُلِّ مَا خَلَقَ ٱللهُ لِتَحْيَا بِذِكْرِكَ ٱلْأَمْلَاءُ

(وسلام) عليك (من كل ما خلق الله) أي : من كل نام وجامد ، وفي نسخة : (مَن) فالأولىٰ غلبت غير العاقل لكثرته ، والثانية غلبت العاقل لشرفه ، علىٰ حد قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ .

وإنما جئت بهـٰذا العموم (لتحيا بذكرك الأملاء) جمع ملأ ، وهو الجماعة .

وبالغ الناظم حيث طلب السلام عليه صلى الله عليه وسلم من ربه ، ثم من نفسه ، ثم من سائر المخلوقات ؛ ليجتمع له صلى الله عليه وسلم سائر وجوه السلامة فيه وفي شريعته وأمته وجميع آثاره ، ولأجل هـٰذا العموم الذي يوجد في السلام دون الصلاة . . خصه بالذكر ، وقد ذكروا ـ كما ذكرته في كتابي « الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم » الذي لم يصنف في هـٰذا الباب مثله ـ في إيثار الزائر للسلام وتكرره دون الصلاة ما يؤخذ منه ما ذكرته . فتأمله .


(453)

وَصَـلَاةٌ كَـالْمِسْـكِ تَحْمِلُـهُ مِنِّـ ـي شَمَـالٌ إِلَيْـكَ أَوْ نَكْبَـاءُ

(**وصلاة**) وهي من الله الرحمة المقرونة بالتعظيم ؛ أي : من الله ومنك ومن كل مخلوق نظير ما مر في السلام (**كالمسك**) في الطيب والنفع البالغ (**تحمله مني**) أي : ذلك المسك الذي هو عين صلاتي (**شمال**) وهي التي تهب من جهة القطب إلى المغرب (**إليك**) حتىٰ يتعطر الوجود بعبيره ، وتحيا الأرواح بعبقه ومسيره (**أو نكباء**) وهي الصبا ، وتهب من سهيل إلى القطب ، والجنوب ، وتسمى الأزيب ، وهي التي تهب من سهيل إلى المغرب ، والدبور ، وهي التي تهب من المغرب ، سميت بذلك ؛ لأنها تهب من ظهر الكعبة .

والحاصل : أن الريح إن هبت من تجاه الكعبة . . فالصَّبا ، وهي حارة يابسة ، أو من ورائها . . فالدبور ، وهي باردة رطبة ، أو من يمينها . . فالجنوب ، وهي حارة رطبة ، أو من شمالها . . فالشمال ، وهي باردة يابسة ، وهي ريح الجنة التي تهب عليهم ، رواه مسلم[1] ، ولهـٰذه الخصوصية للشمال بدأ بها الناظم .

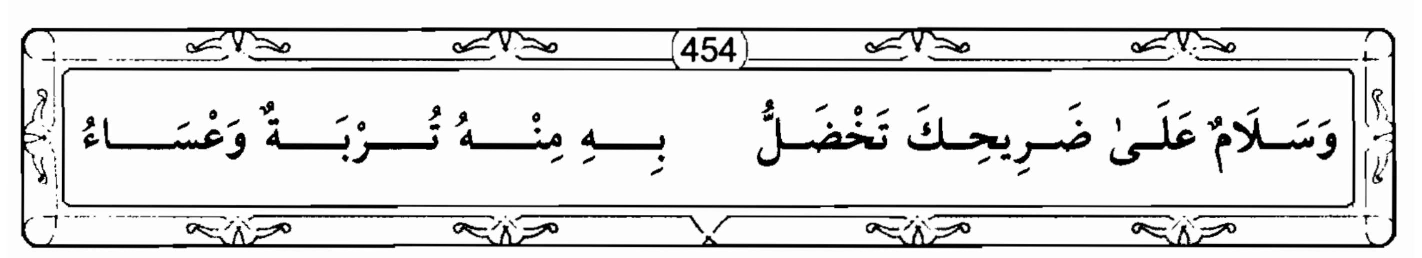
تنبيه : تفسير النكباء بما ذكر وقع في كلام بعضهم ، وعبارة « القاموس » : (والنكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين) ومر بسط عبارته في ذلك في شرح قول الناظم : (فكأن الصبا لديك رخاء) وعبارة « كفاية المتحفظ » : (الرياح أربع : الصبا ، والدبور ، والشمال ، والجنوب ، فالصبا : هي الريح الشرقية ، ويقال لها :

---

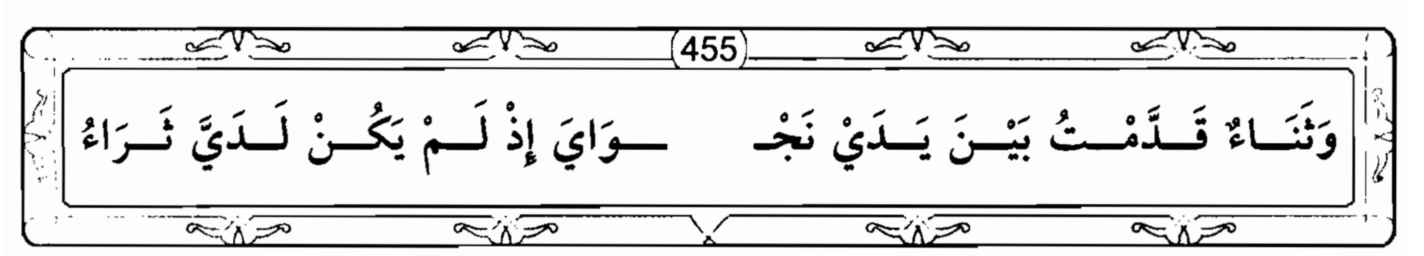
(١) مسلم (٢٨٣٣) .

القبول ، وهي تهب من مشرق الاستواء ، وهو مطلع الشمس في زمن الاعتدال ، والدبور تقابلها ، وهي الغربية ؛ لأنها تهب من مغرب الشمس ، والشمال ، وهي الريح الشامية ، وتسمى الجربياء ، وهي تهب من ناحية القطب ، والجنوب ، وهي الرياح اليمانية ، وتسمى النعامىٰ والأزيب ، وهي تهب من ناحية سهيل ، وكل ريح انحرفت عن مهاب هٰذه الجهات الأربع ، ووقعت بين ريحين منها . . فهي نكباء ، وجمعها نكب) اهـ المقصود منه .

وبه يعلم ما في تفسير (النكباء) بالصبا ، وهو وإن صح تجوزاً لٰكن لا حاجة إليه مع إيهامه أنه وضع حقيقي لها .


454
وَسَلَامٌ عَلَىٰ ضَرِيحِكَ تَخْضَلُّ ... بِهِ مِنْهُ تُرْبَةٌ وَعْسَاءُ

(وسلام علىٰ ضريحك) أي : قبرك المكرم ، وهو أفضل حتىٰ من الكعبة ، بل من العرش ، ولكون المراد من الضريح هنا البقعة التي ضمت أعضاءه الشريفة . . لم يكن في إفراد السلام هنا كراهة ؛ لأنه عين السلام عليه الذي ضم إليه الصلاة فيما مر (تخضل) بمعجمتين ؛ أي : تبتل (به منه) أي : القبر المكرم (تربة وعساء) أي : لينة ذات رمل ، شبه السلام بالماء الكثير الطيب البارد البالغ في النفع ، فهو استعارة مصرحة[1] وخيَّل له بذكر (تخضل) .


455
وَثَنَاءٌ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْ نَجْـ ... ـوَايَ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ ثَرَاءُ

(وثناء) في هٰذه القصيدة (قدمت بين يدي نجواي) أي : سؤالي منك بلوغ المأمول الواقع في هٰذه القصيدة بقولي : (جد لعاصٍ . . .) إلخ وفي غيرها (إذ) أي : لأجل أني (لم يكن لدي) أي : عندي (ثراء) بالمثلثة ؛ أي : مال أتصدق به

---

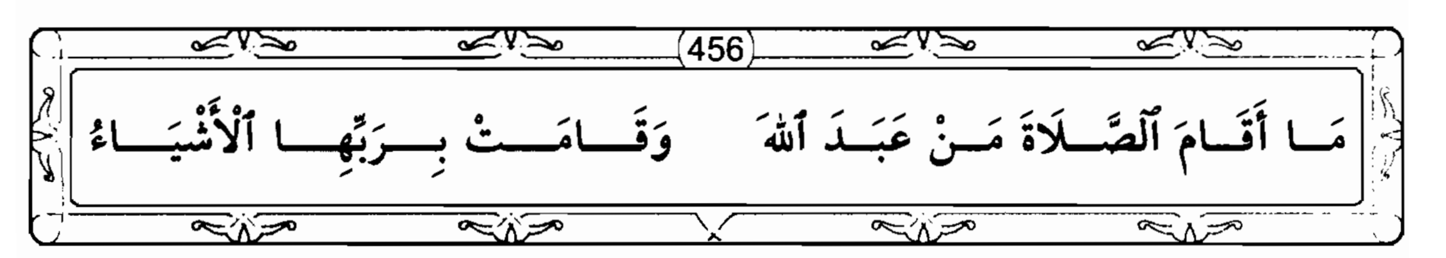
(١) لعل الصواب : أنها استعارة مكنية ؛ لأنه ذكر المشبه وحذف المشبه به وذكر له شيئاً من لوازمه ، وهو (تخضل) ، والله أعلم .

امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ إذ الأمر فيها كان للوجوب ثم نسخ بما بعدها ، وهو : ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ . . . ﴾ الآية .

وجاء : أنه لم يعمل بها قبل النسخ من تقديم الصدقة بين يدي النجوىٰ غيرُ علي كرم الله وجهه(١) ، ولا يلزم من نسخ الوجوب نسخ الندب ، ولذا يسن لمن يريد زيارته صلى الله عليه وسلم : أن يقدم بين يدي زيارته صدقة ، والناظم رحمه الله تعالىٰ ظاهر كلامه : أنه كان يعتقد بقاء الندب ، فاعتذر بأنه لا مال له يتصدق به بين يدي سؤاله ، وأنه جعل حسن توسله وثنائه بدل المال الذي يتصدق به .

تنبيه : تفسيري (لدى) بـ(عند) لأنها مثلها في أكثر أحكامها ؛ من كونها ظرف مكان تستعمل في الحضور والقرب الحسيين والمعنويين ، نحو : ﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ، ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، « إِنَّ ٱللهَ كَتَبَ كِتَاباً فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ : إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي »(٢) ولا تستعمل إلا ظرفاً ، وغير ذلك ، فلا ينافي ذلك أنها قد تفارقها في كثرة جر (عند) بـ(من) خاصة ، وامتناع جر (لدى) مطلقاً ، وفي أن (عند) تكون ظرفاً للأعيان والمعاني ، وتستعمل في الحاضر والغائب ، بخلاف (لدى) فيهما ، وتفارق (عند) و(لدى) لدن في أن ذينك يصلحان في ابتداء غاية وغيرها ، ويكونان فضلة ، نحو : ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ ، ويعربان بخلافها في لغة الأكثرين ، وجر (لدن) أكثر من نصبها ، وقد لا تضاف ، وقد تضاف للجملة ، بخلافهما .

قال الراغب : (لدن أخص من عند وأبلغ ؛ لأنه يدل على ابتداء نهاية الفعل)(٣) .



(ما) مصدرية ظرفية (**أقام الصلاة**) اللغوية أو الشرعية (من عبد الله) وأبّد بهٰذا مع انقطاعه ؛ استغناء عنه بما بعده ، علىٰ أنا لا نسلم انقطاعه ؛ لأن أهل الجنة يدعون

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٨١) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٢) ، ومسلم (٢٧٥١) .

(٣) انظر « مفردات ألفاظ القرآن » (ص٧٣٩) .

ويتعبدون ، كما علم من أحاديث : « ٱقْرَأْ وَٱرْقَ . . . »[١] وغيرها ، لـٰكن للتلذذ لا للتكليف ، ولا يضر في ذلك التأبيد انقطاعه مدة يسيرة ؛ للخبر الصحيح : « لاَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ وَعَلَىٰ وَجْهِ ٱلأَرْضِ مَنْ يَقُولُ : ٱللهُ ، ٱللهُ »[٢] ولا ينافيه الخبر الصحيح أيضاً : « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ ٱلسَّاعَةُ » لأن المراد : قرب قيامها ؛ لما جاء : أن الله قبيلها يرسل ريحاً لينة ، فلا تمر علىٰ مؤمن ولا مؤمنة إلا مات ، ثم يتمحض الكفر ، فلا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض مؤمن ، ثم تقوم الساعة[٣] .

(و) ما (**قامت**) أي : بقيت علىٰ أبلغ نظام ، وأتقن إحكام (**بربها**) أي : بإيجاده وإمداده (**الأشياء**) أي : الموجودات في الدنيا والآخرة ، وأبدها بالأول مع انقطاعه بفناء هـٰذه الدار ؛ لما مر ، وللتبرك بذكر المتعبدين آخر كلامه ، وبالثاني الذي لا ينقطع ؛ لدوام نعيم الجنة وعذاب النار ؛ ليجمع بين شرف الأول ودوام الثاني ، مع الإشارة بالختم بذكر الرب سبحانه وتعالىٰ إلى استفتاح أبواب تربيته ، واستمناح موانح لطفه وهدايته .

جعلنا الله تعالىٰ ممن حقق له حقائق قربه وإمداده ، وإسعافه وإسعاده ، وأمننا من كل فتنة ومحنة ، مسبغاً علينا رضاه ، متفضلاً بكل ما نتمناه ، إنه الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ، وصل اللهم وسلم وبارك أفضل صلاة ، وأفضل سلام ، وأفضل بركة علىٰ أفضل الخلق سيدنا محمد ، وآله وصحبه ، عدد معلوماتك أبداً ، وعلينا معهم ، كلما ذكرك وذكره الذاكرون ، وكلما غفل عن ذكرك وذكره الغافلون ، آمين ، آمين .

* * *

---

(١) أخرجه أبو داوود (١٤٥٩) ، والترمذي (٢٩١٥) ، وغيرهما .
(٢) أخرجه مسلم (١٤٨) ، والترمذي (٢٢٠٧) .
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤٠) .

أهم المصادر والمراجع[1]

ـ الأحاديث المختارة ، الإمام الحافظ محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي (ت ٦٤٣هـ) ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ،(١٤١٠هـ) ، مكتبة النهضة الحديث ، مكة المكرمة .

ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، العلامة علي بن محمد بن حبيب **الماوردي** (ت ٤٥٠هـ) ، تحقيق خالد عبد اللطيف السبع العلمي ، ط ٣ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ الأدب المفرد ، الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل **البخاري** (ت ٢٥٦هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط ٤ ، (١٩٩٧م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ الأذكار، الإمام الحافظ يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ)، عني به صلاح الدين الحمصي وعبد اللطيف عبد اللطيف ومحمد شعبان، ط١، (٢٠٠٥م)، دار المنهاج، السعودية.

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، العلامة علي بن محمد الشيباني المعروف **بابن الأثير** (ت ٦٣٠ هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ الأعلام ، خير الدين **الزركلي** ، بدون تحقيق ، ط ١٢ ، (١٩٩٧م) ، دار العلم للملايين ، لبنان .

ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، الإمام عبد الله بن يوسف الأنصاري المعروف **بابن هشام** (ت ٧٦١هـ) ، شرح محيي الدين عبد الحميد ، (١٩٩٨م) ، المكتبة العصرية ، لبنان .

ـ الإتقان في علوم القرآن ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن **السيوطي**

---

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، اسم المؤلف وتاريخ وفاته ، اسم المحقق ، سنة طبع الكتاب ، اسم الدار الناشرة ومقرها .

(ت ٩١١هـ) ، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا ، ط ٢ ، (١٩٩٣م) ، دار ابن كثير ودار العلوم الإنسانية ، سوريا .
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (ت ٧٣٩هـ) ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ط ٣ ، (١٩٩٧م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- إحياء علوم الدين ، الإمام محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٢ م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .
- الإشارة إلى سيرة المصطفى ، العلامة مغلطاي بن قليج (ت ٧٦٢هـ) ، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، دار القلم ، سوريا .
- الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ، لبنان .
- البحر الزخار = مسند البزار ، الحافظ أحمد بن عمرو العتكي البزار (ت ٢٩٢هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمن زين الله ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .
- البداية والنهاية ، الحافظ إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ، عني به عبد الرحمن اللادقي ومحمد غازي بيضون، ط ٧، (٢٠٠٢م)، دار المعرفة، لبنان .
- البردة ، الإمام محمد بن سعيد البوصيري (ت ٦٩٦هـ) ، إعداد محمد شريف عدنان الصواف ، ط ٢ ، (١٩٩٥م) ، دار السنابل ، سوريا .
- بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها ، الإمام عبد الله بن أبي جمرة (ت ٦٩٥هـ) ، تحقيق الدكتور بكري شيخ أمين ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار العلم للملايين ، لبنان .
- تاج العروس من جواهر القاموس ، الإمام محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، (١٣٨٥هـ) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق الدكتور عمر بن عبد السلام تدمري ، ط ١ ، (١٩٨٧م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

- تاريخ الطبري = تاريخ الأمم والملوك، الإمام محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .
- تاريخ بغداد ، الإمام أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٩٧م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ، الحافظ يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت ٧٤٢هـ) ، تحقيق عبد الصمد شرف الدين ، ط ٢ ، (١٩٨٣هـ) ، المكتب الإسلامي والدار القيمة ، لبنان ـ الهند .
- تذكرة الحفاظ ، الإمام محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، تصحيح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، الإمام عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦هـ) ، تحقيق محيي الدين ديب مستو وسمير أحمد العطار ويوسف علي بديوي ، ط ٣ ، (١٩٩٩م) ، دار ابن كثير ، سوريا .
- تفسير البغوي = معالم التنزيل ، الإمام الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت ٥١٦هـ) ، تحقيق خالد عبد الرحمن العك مروان سوار ، ط ١ ، (١٩٨٦م) ، دار المعرفة ، لبنان .
- تفسير القرآن العظيم ، الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، (١٩٦٩م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .
- تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن ، الإمام محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٥م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- التفسير الكبير = البحر المحيط ، الإمام محمد بن يوسف بن علي الأندلسي المعروف بأبي حيان ، بدون تحقيق ، ط ٢ ، (١٩٩٠م) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- التفسير الكبير = مفاتيح الغيب ، الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن حسين الطبرستاني الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، ط ٣ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ، العلامة علي بن محمد بن عراق **الكناني** (ت ٩٦٣هـ) ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق ، ط ٢ ، (١٩٨١م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .
ـ تهذيب التهذيب ، الحافظ أحمد بن علي بن حجر **العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، عني به إبراهيم الزيبق وعادل المرشد ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، الحافظ يوسف بن عبد الرحمن **المزي** (ت ٧٤٢هـ) ، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف ، ط ١ ، (١٩٨٠م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
ـ التوقيف على مهمات التعاريف ، العلامة عبد الرؤوف **المناوي** (ت ١٠٣١هـ) ، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، دار الفكر ، سوريا .
ـ جامع العلوم والحكم ، العلامة عبد الرحمن بن أحمد بن رجب **الحنبلي** ، بدون تحقيق ، ط ٤ ، (١٩٧٣م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
ـ الجامع في السيرة النبوية ، سميرة الزايد ، بدون تاريخ ، المطبعة العلمية ، سوريا .
ـ حاشية الجرهزي على المنهج القويم ، العلامة عبد الله بن سليمان **الجرهزي** اليمني (ت ١٢٠١هـ) ، لجنة التحقيق في الدار ، ط ١ ، (٢٠٠٤هـ) ، دار المنهاج ، السعودية .
ـ الحاوي للفتاوي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن **السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٨م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .
ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، الحافظ عبد الرحمن **السيوطي** (ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (١٩٩٨م) ، دار الفكر العربي ، مصر .
ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، الحافظ أحمد بن عبد الله **الأصبهاني** (ت ٤٣٠هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٥ ، (١٩٨٧م) ، دار الريان للتراث دار الكتاب العربي ، مصر لبنان .
ـ الخصائص الكبرى ، الحافظ عبد الرحمن **السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، بدون تحقيق ، (١٣٢٠هـ) ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ، لبنان .
ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، العلامة محمد **المحبي** ، بدون تحقيق ، (١٢٨٤هـ) ، طبعة مصورة لدى دار صادر ، لبنان .

- خلاصة البدر المنير ، الحافظ عمر بن علي بن **الملقن** (ت ٨٠٤هـ) ، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٨٩م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن **السيوطي** (ت ٩١١هـ) ، بدون تحقيق ، (٢٠٠٢م) ، دار الفكر ، لبنان .
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، الحافظ أحمد بن علي بن **حجر العسقلاني** (ت ٨٥٢هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .
- دلائل النبوة ، الإمام أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، دار الريان ، مصر .
- دلائل النبوة ، الإمام أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، دار الريان ، مصر .
- ديوان أبي نواس ، الحسن بن هانىء (ت ١٩٥هـ) ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، بدون تاريخ ، دار الكتاب العربي ، لبنان .
- ديوان البوصيري ، العلامة محمد بن سعيد **البوصيري** ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ط ٢ ، (١٩٧٣م) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
- ديوان حسان بن ثابت ، الصحابي الجليل حسان بن ثابت (ت ٤٠هـ) ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، (١٩٧٤م) ، دار صادر ، لبنان .
- الروض الأنف ، الإمام عبد الرحمن بن عبد الله **السهيلي** الأندلسي (ت ٥٨١هـ) ، تحقيق الشيخ عمر عبد السلام السلامي ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- روضة الطالبين وعمدة المفتين ، الإمام محيي الدين يحيى بن شرف **النووي** (ت ٦٧٦هـ) ، إشراف زهير الشاويش ، ط ٣ ، (١٩٩١م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .
- الرياض النضرة في مناقب العشرة ، العلامة أحمد بن عبد الله بن محمد **الطبري** الشافعي (ت ٦٩٤هـ) ، تحقيق عيسى بن عبد الله الحميري ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .
- زاد المسير في علم التفسير، الإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد المعروف **بابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ)، بدون تحقيق، ط ٣، (١٩٨٤م)، المكتب الإسلامي، لبنان.

- زاد المعاد في هدي خير العباد ، الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الشهير بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الفكر للطباعة والنشر ، لبنان .
- سبل الهدى والرشاد ، الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت ٩٤٢هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، (١٩٩٧م) ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، مصر .
- سنن ابن ماجه ، الحافظ محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .
- سنن الترمذي = الجامع الصحيح ، الإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- سنن الدارقطني ، الإمام علي بن عمر الدارقطني (ت ٣٨٥هـ) ، تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني ، (١٩٦٦م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .
- سنن الدارمي = مسند الدارمي ، الإمام عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي (ت ٢٥٥هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار المغني ، السعودية .
- السنن الكبرى ، الإمام أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط ١ ، (٢٠٠١هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- سنن النسائي = المجتبى ، الإمام أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتاب العربي ، لبنان .
- سير أعلام النبلاء ، الإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، إشراف شعيب أرناؤوط ، ط ١١ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ، الإمام علي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ السيرة النبوية ، الإمام عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ) ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار ابن كثير ، سوريا .

ـ السيف المسلول على من سب الرسول صلى الله عليه وسلم ، العلامة علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦هـ) ، تحقيق إياد أحمد الغوج ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، دار الفتح ، الأردن .

ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، العلامة عبد الحي بن محمد الحنبلي الدمشقي المعروف بابن العماد (ت ١٠٨٩م) ، تحقيق محمود الأرناؤوط ، ط ١ ، (١٩٨٦م) ، دار ابن كثير ، سوريا .

ـ شرح ديوان الخنساء ، الإمام أبو العباس ثعلب ، عني به الدكتور فايز محمد ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ شرح ديوان المتنبي = التبيان في شرح الديوان ، الإمام أبو البقاء العكبري ، عني به مصطفى السقا إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، (١٩٧١م) ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .

ـ شرح ديوان حسان بن ثابت ، الشيخ عبد الرحمن البرقوقي ، بدون تحقيق ، (١٩٩٠م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ شرح ديوان لبيد بن ربيعة ، العلامة الطوسي ، تحقيق الدكتور حنا نصر الحتي ، ط ٢ ، (١٩٩٦م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ شرح صحيح مسلم = المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، بدون تحقيق ، (١٣٤٩هـ) ، طبعة مصورة لدى مكتبة الغزالي ، سوريا .

ـ شعب الإيمان ، الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٩٩٠م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك ، ط ١ ، (٢٠٠٠م) ، مكتبة الغزالي دار الفيحاء ، سوريا .

- الشمائل المحمدية ، الإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق أسامة الرحال ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار الفيحاء ، سوريا .
- شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب = مسند الشهاب ، القاضي محمد بن سلامة **القضاعي** (ت ٤٥٤هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ١ ، (١٩٨٥) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- الصحاح = تاج اللغة وصحاح العربية ، العلامة إسماعيل بن حماد **الجوهري** الفارابي (ت ٣٩٨هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٩٩٩م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- صحيح ابن خزيمة ، الإمام محمد بن إسحاق بن **خزيمة** (ت ٣١١هـ) ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، ط ٣ ، (٢٠٠٣هـ) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .
- صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، الإمام محمد بن إسماعيل **البخاري** (ت ٢٥٦هـ) ، عني به محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٢٢هـ) ، دار طوق النجاة ، لبنان .
- صحيح مسلم = الجامع الصحيح ، الإمام **مسلم** بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، (١٩٥٤م) ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .
- صفة الصفوة ، الإمام عبد الرحمن بن علي الشهير **بابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ) ، فهرسه عبد السلام هارون ، ط ٢ ، (١٩٩٢م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الحافظ محمد بن عبد الرحمن **السخاوي** (ت ٩٠٢هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٩٩٢م) ، طبعة مصورة لدى دار الجيل ، لبنان .
- طبقات الشافعية الكبرى ، الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن علي **السبكي** (ت ٧٧١هـ) ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود محمد الطناحي ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .
- الطبقات الكبرى ، الإمام محمد بن **سعد** بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ) ، تقديم الدكتور إحسان عباس ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

ـ العمدة في شرح البردة ، الإمام أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي (ت ٩٧٣هـ) ، تحقيق بسام محمد بارود، ط ١ ، (٢٠٠٣م) ، دار الفقيه ، الإمارات العربية المتحدة.
ـ عمل اليوم والليلة ، الإمام أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٩٨٨م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .
ـ عمل اليوم والليلة، الحافظ أحمد بن محمد الدينوري الشهير بابن السني (ت ٣٦٤هـ)، تحقيق بشير محمد عيون ، ط ٣ ، (١٩٩٤م) ، مكتبة دار البيان ، سوريا .
ـ عوارف المعارف ، الشيخ عمر بن محمد السهروردي البغدادي (ت ٦٣٢هـ) ، تحقيق أديب الكمداني ومحمد محمود المصطفى ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، المكتبة المكية ، السعودية .
ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، العلامة محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٣ ، (١٩٨٢م) ، دار الآفاق الجديدة ، لبنان .
ـ الفائق في غريب الحديث ، العلامة محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، (١٩٩٣م) ، طبعة مصورة لدى دار الفكر ، لبنان .
ـ فتاوى الإمام النووي = المسائل المنثورة ، ترتيب تلميذه الشيخ علاء الدين بن العطار ، تحقيق محمد الحجار ، ط ٦ ، (١٩٩٦م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .
ـ الفتاوى الحديثية ، العلامة أحمد بن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٣ ، (١٩٨٩م) ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر .
ـ فتاوى السبكي ، الإمام علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٥٦هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، دار المعرفة ، لبنان .
ـ الفتاوى الفقهية الكبرى ، العلامة أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٣م) ، دار الفكر ، سوريا .
ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، عني به محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مكتبة الغزالي ، سوريا .

- الفردوس بمأثور الخطاب ، الحافظ شيرويه بن شهردار الديلمي الهمذاني (ت ٥٠٩) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٩٨٦م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
- فوات الوفيات ، العلامة محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .
- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، العلامة عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ) ، بدون تحقيق ، (١٣٥٧هـ) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .
- القاموس المحيط ، العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) ،ط ١ ، (١٩٩١م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- الكامل في التاريخ ، الإمام علي بن محمد بن محمد الشيباني الشهير بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) ، حققه الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، ط ٢ ، (١٩٩٩م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .
- الكامل في ضعفاء الرجال ، الحافظ عبد الله بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ويحيى مختار غزاوي ، ط ٣ ، (١٩٨٨م) ، دار الفكر ، لبنان .
- كتاب السنن = سنن أبي داوود ، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق الشيخ محمد عوامة ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، مؤسسة الريان ودار القبلة والمكتبة المكية ، لبنان السعودية .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، الإمام محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ) ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط ٢ ، (٢٠٠١هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت ١١٦٢هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٣ ، (١٣٥١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، العلامة مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الشهير بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٩٢م) ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ الكشف والبيان = تفسير الثعلبي ، الإمام أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت ٤٢٧هـ) ، تحقيق الشيخ أبو محمد بن عاشور ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، دار المعرفة ، لبنان .

ـ لسان العرب ، الإمام محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٩٩٢م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ مجمع الأمثال ، العلامة أحمد بن محمد بن أحمد الميداني (ت ٥١٨هـ) ، تحقيق الدكتور جان عبد الله توما ، ط ١ ، (٢٠٠٢م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، الحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٦م) ، مكتبة المعارف ، لبنان .

ـ المجموع شرح المهذب ، الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، تحقيق الدكتورمحمود مطرجي ، ط ١ ، (١٩٩٦) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ مختار الصحاح ، الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ) ، تصحيح الشيخ حمزة فتح الله ، (١٩٩٢م) ، مكتبة لبنان ، لبنان .

ـ المستدرك على الصحيحين ، الحافظ محمد بن محمد الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

ـ مسند أبي داوود الطيالسي ، الحافظ سليمان بن داوود بن الجارود الشهير بأبي داوود الطيالسي (ت ٢٠٤هـ) ، بدون تحقيق ، (١٣٢١هـ) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

ـ مسند أبي يعلى الموصلي ، الإمام أبو يعلى أحمد علي الموصلي (ت ٣٠٧هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط ٢ ، (١٩٨٩م) ، دار المأمون للتراث ، سوريا .

ـ مسند الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ، تحقيق أيوب أبو خشريف ، ط ١ ، (٢٠٠٢هـ) ، دار الثقافة العربية ، سوريا .

- المسند ، الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- المسند ، الحافظ الهيثم بن كليب الشاشي (ت ٣٣٥هـ) ، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله ، ط ١ ، (١٤١٠هـ) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .
- المشرع الروي ، العلامة محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ .
- المصباح المنير ، العلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت ٧٧٠هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٧م) ، مكتبة لبنان ، لبنان .
- مصنف ابن أبي شيبة ، الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ) ، تحقيق سعيد محمد اللحام ، (١٩٩٤م) ، دار الفكر ، لبنان .
- المصنف ، الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ) ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط ٢ ، (١٩٨٣م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، لبنان .
- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ، العلامة علي بن سلطان محمد الهروي القاري (ت ١٠١٤هـ) ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، ط ٥ ، (١٩٩٤م) ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، سوريا .
- المطالب العالية من العلم الإلهي ، الإمام محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا ، ط ١ ، (١٩٨٧م) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .
- المعارف ، الإمام عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، تحقيق ثروت عكاشة ، ط ١ ، (١٤١٥هـ) ، منشورات الشريف الرضي ، إيران .
- المعجم الأوسط ، الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط ١ ، (١٩٨٥م) ، مكتبة المعارف ، السعودية .
- معجم البلدان ، العلامة ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٢ ، (١٩٩٥م) ، دار صادر ، لبنان .
- معجم الصحابة ، الإمام عبد الباقي بن قانع البغدادي (ت ٣٥١هـ) ، تحقيق خليل إبراهيم قوتلاي وحمدي الدمرداش محمد ، ط ١ ، (١٩٩٨م) ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، السعودية .

ـ المعجم الكبير ، الحافظ سليمان بن أحمد **الطبراني** (ت ٣٦٠هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
ـ معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، ط ١ ، (١٩٩٣م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
ـ معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مصطفى عبد الكريم الخطيب ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، الإمام عبد الله بن يوسف بن **هشام الأنصاري** (ت ٧٦١هـ) ، تحقيق علي حمد الله والدكتور مازن المبارك ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى مؤسسة الصادق ، إيران .
ـ مفردات ألفاظ القرآن ، العلامة الحسين بن محمد المعروف **بالراغب الأصفهاني** (ت ٤٢٥هـ)، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط ٣، (٢٠٠٢م)، دار القلم ، سوريا .
ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، الإمام أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (ت ٦٥٦هـ) ، تحقيق محيي الدين مستو ويوسف بديوي وأحمد السيد محمود بزال ، ط ١ ، (١٩٩٦م) ، دار ابن كثير دار الكلم الطيب ، سوريا .
ـ المقفى الكبير ، العلامة أحمد بن علي بن عبد القادر **المقريزي** (ت ٨٤٥هـ) ، تحقيق محمد اليعلاوي ، ط ١ ، (١٩٩١م) ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان .
ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ، الإمام عبد الرحمن بن علي **الجوزي** (ت ٥٩٧هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، (١٩٩٥م) ، دار الفكر ، لبنان .
ـ المنقذ من الضلال ، الإمام محمد بن محمد **الغزالي** (ت ٥٠٥هـ) ، تحقيق محمود بيجو ، ط ٢ ، (١٩٩٢م) ، مطبعة الصباح ، سوريا .
ـ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، العلامة أحمد بن محمد **القسطلاني** (ت ٩٢٣هـ) ، تحقيق صالح أحمد الشامي ، ط ١ ، (١٩٩١م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .
ـ الموضوعات ، الإمام عبد الرحمن بن علي المعروف **بابن الجوزي** (ت ٥٩٧هـ) ، عني به توفيق حمدان ، ط ١ ، (١٩٩٥م) ، دار الكتب العلمية ، لبنان .
ـ الموطأ ، الإمام **مالك** بن أنس الأصحبي (ت ١٧٩هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، بدون تاريخ ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر .

ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، الحافظ محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط ١ ، (١٩٦٣م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

ـ النجم الوهاج في شرح المنهاج ، العلامة محمد بن موسى بن عيسى الدميري (ت ٨٠٨هـ) ، لجنة التحقيق في الدار ، ط ١ ، (٢٠٠٤م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ النشر في القراءات العشر ، الإمام محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) ، عني به الشيخ علي محمد الضباع ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار الكتب العلمية ، لبنان .

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، الإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري الشهير بابن الأثير (ت ٦٠٦هـ) ، تحقيق محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ، العلامة محمد بن علي بن الحسين الحكيم الترمذي ، بدون تحقيق ، (١٢٩٣هـ) ، طبعة مصورة لدى دار صادر ، لبنان .

ـ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، العلامة عبد القادر بن شيخ العيدروس الحسيني الحضرمي اليمني (ت ١٠٣٨هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط وأكرم البوشي ، ط ١ ، (٢٠٠١م) ، دار صادر ، لبنان .

ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحميد الهنداوي ، بدون تاريخ ، المكتبة التوفيقية ، مصر .

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان ، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (ت ٦٨١هـ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

* * *

محتوى الكتاب

* * *